MOHAMMAD ABDULLAH AL FUSAYIL

محمد عبدالله الفسيّل

الحياة التي عشت

حكايتي مع تحوّلات الفكر والسياسة في اليمن

الحياة التي عشت

حكايتي مع تحولات الفكر والسياسة في اليمن

الحياة التي عشت – الجزء الأول / سيرة
حكايتي مع تحولات الفكر والسياسة في اليمن
محمد عبدالله الفسيل / مؤلف من اليمن
(بالتعاون مع منظمة صحفيات بلا قيود – اليمن)
طبعة ثانية منقحة، مايو 2024

حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بـيـروت – لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف: **محمد الذبحاني**/ اليمن onedyemen@gmail.com
خطوط الغلاف: **خالد الورد**/ اليمن wardartmail@gamil.com
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.
جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

رقم الناشر الدولي: ISBN: 978-614-486-521-7

محمد عبدالله الفسيل

الحياة التي عشت

حكايتي مع تحولات الفكر والسياسة في اليمن

إهداء

من أحـــرار وثـــوار الـمـاضـــي
إلى ثـــوار الـحاضـــر والمستقبل
أقـــــدّم هذه الـمـــذكـــرات
لـلـذكـــــرى.. والـقـــــدوة

المحتويات

مدخل 13

مقدمة قديمة لكتاب حديث 21

الفصل الأول: ما قبل الطفولة 29

لماذا لا يفرحون بي فرحا إنسانيا. مرحلة ما قبل الولادة. مذكراتي يوم مولدي. مسيرة الحياة على الشوك.

الفصل الثاني: البدايات 41

نحن وعسكر الإمام. الانتقال إلى صنعاء والشعور باليتم. المعلامة والمعلم. حياة الناس في القرية. في الجراف فصيلة أخرى من آل الفسيّل. أحمد محمد الشامي أهم شخص في حياتي.

الفصل الثالث: اكتشاف حارة الفليحي 55

أهم حارة في صنعاء. مصطفى يعقوب والتعصب المذهبي. شخصية السيد علي عقبات وحكاياته. الفنان أحمد هبة وصندوق الطرب وحكاية اعتقاله. بيت العالم المؤرخ الثائر السيد محمد زبارة.

الفصل الرابع: عودة إلى المعلامة 69

في معلامة الفليحي. الانتقال إلى مدرسة الإصلاح. مكتب الأيتام وثورة التغيير في اليمن. أستاذي عبد الله الخروش وأثره في حياتي. أخي أحمد تاجر الكدم غيَّر حياتنا. أمي.. هذه الإنسانة العظيمة. محاولة الهروب إلى عدن. فكرة الدراسة في مصر والإمام يحيى. الانتقال إلى المدرسة العلمية.

الفصل الخامس: مـرحـلـة التـثـقـيـف الـذاتـي 87
المدرسة المتوسطة غيّرت كل شيء في حياتي. مكتبة المدرسة وأستاذي الحورش. حديث السقيفة أخطر حادث في التاريخ الإسلامي. مكتبة الأستاذ الحورش المصدر الأساسي لثقافة الأحرار من الجيل الثاني. البحث عن الإسلام الصحيح في بغداد. قصة الفلسفة وقصة الأدب وثورة الفكر الإسلامي. لماذا توسعتُ في موضوع التثقيف الذاتي؟

الفصل السادس: الإمام يحيى وعهوده الطويلة 109
كيف تولّى الإمام يحيى الإمامة؟ الإمام يحيى وسياسة العنف والإرهاب. صلح دعان.. «إمامكم باعكم بلاش». الإمام يحيى ووحدة اليمن الطبيعية. مناضلان عربيان في حياة الإمام يحيى. رسائل الإمام يحيى إلى الآخرين لحضور مؤتمر الوحدة اليمنية. العلاقات السعودية اليمنية سلما وحربا. هزيمة الإمام يحيى وردود الفعل. منشورات ضد الإمام بخطي. فرار الأستاذين الحورش والعنسي إلى مصر. الإمام يحيى شخصية غير عادية أفسدها البخل.

الفصل السابع: ولي العهد.. وئام وصدام مع الأحرار 149
سفري إلى تعز نقلة حاسمة في حياتي. في مقام ولي العهد والثالوث المشهور. شخصية ولي العهد أحمد. ولي العهد والحرب السعودية اليمنية. الزبيري يقرّر العودة إلى النضال في أرض اليمن. الأستاذ النعمان: فرعون مصر طاغية متحضر والإمام طاغية متحجر. الإمام يحيى والزبيري وجها لوجه. انضمامنا إلى حلقة الدراسة مع الأمير البدر. حساسيات بين البدر وصديقي الشامي. فرار الزبيري ونعمان والموشكي والشامي إلى عدن. جازم الحروي يموّل هجرة الزبيري والنعمان. ولي العهد يبعثني للدراسة في سجن دار النصر لا في قاهرة مصر. في السجن اكتشفت الحقيقة. ولي العهد أحمد في عدن. تقديم الزبيري والنعمان مطالب الشعب باسم الأحرار. نقاش الموضوع المحرّم مع الأستاذ النعمان. تنظيمات وتجمعات الأحرار. نصيحة سيف الإسلام علي لأبيه الإمام يحيى.

الفصل الثامن: تصدّع قصر الإمام يحيى: انضمام الأمير إبراهيم إلى الأحرار 211
رياح الثورة تتحرك من قصر الإمام في صنعاء. الأمير إبراهيم يعلن انضمامه إلى الأحرار. الأمير إبراهيم يريد مالا وسلاحا للحسم لا جرائد ومنشورات. حوار مع الأمير إبراهيم عن واقع اليمن. الأمير إبراهيم يثير مع الأستاذ نعمان الموضوع المحرّم. الأحرار في نظر الأستاذ نعمان.

الفصل التاسع: رياح الثّورة تهب من مصر 249
علاقة أحرار اليمن بجماعة «الإخوان المسلمون». الفضيل الورتلاني ورياح الثورة من مصر. دور الفضيل في تفجير الثورة. عودة عبد الله بن علي الوزير إلى اليمن.

الفصل العاشر: الأحرار والبحث عن حلفاء 257
بعثة الأربعين التعليمية إلى لبنان. الأحرار يبحثون عن قوة بشرية داعمة. في الطريق أصبحتُ وليا من أولياء الله. السلطان الرصّاص يتعاون مع الأحرار. ما يريده الأحرار وما يريده السلطان. السلطان يعرض عليَّ أن أكون مستشاره أو وزيره. وجها لوجه مع أستاذي أحمد الحورش.

الفصل الحادي عشر: ثورة 48 الدستورية وسقوطها 273
موت الإمام.. إشاعة كاذبة تهزُّ اليمن وما حولها. الإمام يحيى والإمام عبد الله الوزير وجها لوجه. الثعلب الذي ورّط الأحرار وكشف المؤامرة. لماذا تأخر موعد اغتيال الإمام يحيى. من أرسل البرقية «الرمز» إلى مكتب الوجيه في عدن؟ من الفجر الكاذب «الإشاعة» إلى الفجر الصادق «الاغتيال». الإمام عبد الله الوزير يحتل قصر السلاح. إذاعة صنعاء تذيع موت الإمام يحيى وقيام الإمام الهادي عبد الله الوزير. أين أولاد الإمام يحيى؟ تحركات أجنبية. ولي العهد أحمد يعلن نفسه إماما ويردّ على برقية الوزير.

الفصل الثاني عشر: سقوط حكومة الدستور وبداية عهد الإمام أحمد 303
سقوط صنعاء ورحلة العذاب. في ساحة قصر الطاغية. سبب سقوط حركة 48 الدستورية. تقييم الإمام يحيى للإمام عبد الله الوزير. في أعماق سجن نافع الرهيب. الشيخ جازم.. الإنسان النبيل. الطاغية يبدأ ذبح أعظم الرجال. الإمام يريد أن يكون ابنه طاغية بن طاغية. شنطة الشهداء في عدن.. من نقلها إلى الإمام أحمد؟ صديقي الشامي وأنا.. ألّفنا كتابا خطيرا في سجن نافع. نشيد الدستور. الإمام يغتال أخاه إبراهيم بالسّم. ذاكرة بعض الأحرار في مذكراتهم وذكرياتهم. ذكريات صديقي أحمد الشامي في كتابه «رياح التغيير في اليمن». ملاحظات تصحيحية على شهادة صديقي الشامي. من مقدمة كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية»

الفصل الثالث عشر: ثورة فكرية في سجن نافع الرهيب 375
المطر ينقلنا من سجن نافع. أسماء المساجين المنقولين إلى قاهرة حجة. رسالة صديقي الشامي وبرقية السيد حسين الحوثي. مفاجأة.. خمسة عشر ريالا تصلني فجأة. قاهرة حجة تتحول إلى مجمع تعليمي. نقل كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» في رمضان قرأنا القرآن بتأمل الدارس. كتاب أو رسالة «نحو النور». الثورة في قاهرة مصر والمهرجانات في سجن قاهرة حجة. المؤيدون للرئيس محمد نجيب والمؤيدون لجمال عبد الناصر. المعلمي يقترح تأليف كتاب ضخم عن اليمن. صديقي الشامي من سجون حجة إلى مستشار البدر. كيف واجهنا نصف عقد في سجون حجة؟

الفصل الرابع عشر: ولاية العهد وتداعياتها 425
الإمام أحمد وولاية العهد لابنه البدر. حركة الثلايا وسقوطها تطلقنا من سجون حجة. كيف سألقى أمي بعد سنوات الفراق؟ بيتنا الصغير في الفليحي صار ذكرى. مع الإمام وجها لوجه. فراري إلى عدن وإصدار

صحيفة «القات». الأحرار ينتقلون من دسترة الإمامة إلى الجمهورية الديموقراطية. إعلان فكرة الجمهورية. سفري وإلقاء القبض عليّ في السعودية.

الفصل الخامس عشر: قصتي مع كتاب «الرجل الشاذ» 443

مصير كتاب «الرجل الشاذ». مراجعة من محمد حسن الفسيّل غير السياسي. برقية مراجعة من محمد عبد الله الفسيّل (السياسي). مراجعتي الأولى إلى الإمام. المراجعة الثانية. مراجعة واقتراح وطبعة جديدة مزعجة. من طبع كتاب «الرجل الشاذ» طبعة جديدة؟ الرجل الشاذ يتبعني إلى السعودية ويعيدني إلى سجن نافع. برقيات بين ملكين لإعادتي إلى الإمام. وحان وقت الرحيل إلى سجن نافع. هاجس الفرار من سجن نافع الرهيب. النبيل علي سعد الحكمي ينقذني من الفقر مرة أخرى. الشهيدان عبد الله محمد اللقية ومحمد عبد الله العلفي زميلان في غرفتي. ثورة 48 الدستورية تطور في الفقه الهادوي. فكرة اغتيال الإمام. الإمام أحمد في روما والتمرد في اليمن. تمرد الجيش في تعز وصنعاء. الإمام يهدد بتفجير الطائرة. استسلام قبيلة حاشد وإعدام المشائخ. محاولات اغتيال الإمام أحمد بعد خطبته النارية الأخيرة. سعيد إبليس في قبضة الإمام.

الفصل السادس عشر: الفرار من السجن وسنوات الحسم الثوري 489

انتحار سعيد إبليس. الاختفاء الرهيب وقرية بيت صلاح. عبد الوهاب بن حسن الشماحي ينقذني من الجوع. محاولة اغتيال الإمام. لماذا أقدم اللقية والعلفي على محاولة اغتيال الإمام. تنظيم الضباط الأحرار من جديد. نشاطاتي الأولى في الاتحاد اليمني. محاولة التعاون مع نعمان الابن لتطوير الاتحاد اليمني. مرحلة اكتشاف القوى في عدن. العمل محررا في صحيفة الأيام. العمل محررا في صحيفة العمال لسان المؤتمر العمالي. تكوين قواعد جماهيرية شعبية للاتحاد اليمني. تجميد عضويتي في حزب البعث. محاولة اغتيالي في عدن. الخلافات

والانشقاق في الاتحاد اليمني بالقاهرة. آل الوزير والاتحاد اليمني. الخلاف الخطير بين الأستاذين الزبيري والنعمان.

الفصل السابع عشر: ما قبل ثورة اليمن الجمهورية 529

الاتحاد اليمني وأجهزة المخابرات المصرية. عودة صوت اليمن للانطلاق من صوت العرب. تنظيم الضباط الأحرار في اليمن. المخابرات المصرية ترفع شخصا مشبوها إلى قمة حركة أحرار اليمن. إرهاصات ثورة اليمن الجمهورية. الاتحاد اليمني في القاهرة: صراع ضد البيضاني وخلاف مع السادات. البيضاني يكذب كما يتنفس. شعور الزبيري بالخطر. من هو البيضاني؟ تنظيم جديد للضباط الأحرار وعلاقتي به. آخر هيئة قيادية للضباط الأحرار قبيل الثورة. موت الإمام أحمد أربك كامل المشهد. خطاب الإمام البدر بعد صلاة الجمعة. تفجير الثورة.

مدخل

عرفتُ معارك ضخمة لم يكن فيها قتال..
وعرفتُ الصمت التام عن معارك مات فيها الألوف.
رأيتُ الشجعان الذين ماتوا على الشوك تحت النار، وقرأتُ من يصفهم بالجبناء..
وقرأتُ قصائد عن أبطال لم يبرحوا فراشهم الدافئ، ولم يطلقوا رصاصة واحدة..
ورأيتُ التاريخ يكتبه أناس يوصفون بأنهم مخلصون.. يكتبون لا كما يجب أن يكون، ولكن كما يحب الزعيم..
رأيتُ الزعيم لا يكتفي بتغيير الحاضر، وتشويه المستقبل، ولكنه يغيّر الماضي أيضا.. يضع له أسماء جديدة، ويحذف منه أسماء قديمة، ويضع على عيون الناس عدسات خاصة، ويطبع على ألسنتهم مفردات فريدة.
«ووجدتُ الجميع يصدّقونه.. إنه صاحب أعظم مصنع للعبيد..» .

جورج أرويل

من روايته الشهيرة المسماة: سنة 1984

قبل أن أقرّر كتابة مذكراتي وذكرياتي كان الكثير من أصدقائي ومعارفي، والكثير ممن يعرفونني عندما يلتقون بي صدفة في الطريق، أو في مجلس من المجالس يسألونني: هل كتبت مذكراتك؟ وعندما أجيب بالنفي يستغرب بعضهم، ويطلب مني بعضهم الآخر ضرورة كتابة مذكراتي، لأنهم يرون أن ذلك واجب وطني

وتاريخي يجب أن أقوم به باعتباري واحدا ممن عاش وعايش أحداث التاريخ اليمني الحديث، ولأنهم كانوا يحسنون الظن بي، ويرون أنني سأكون أمينا وصادقا وصريحا في إبراز حقائق الأحداث وخفاياها.

وكان من هؤلاء الأصدقاء: الأستاذ المرحوم أحمد جابر عفيف، والقاضي الأستاذ عبد الوهاب الآنسي، والقاضي الأستاذ يحيى العرشي، والأستاذ المناضل المرحوم أحمد حسين المروني، وكثير من الأصدقاء، ولكني كنتُ أعد وأتهرّب، حتى استخدم الأستاذ أحمد جابر عفيف – الذي تربطُني به صداقة حميمة تزيد على أربعين عاما– أسلوبا جديدا في الضغط عليّ، فحرّض عددا من تلاميذه الذين ولدوا وعاشوا وتعلّموا في عهود ثورة 26 سبتمبر لكي يستفزّوني. قال لي أحدهم: نحن أبناء الثورة التي يقولون إنك من صنّاعها فكرا وأحداثا، ولكننا لا نعرفُ عن الثورة إلا الشيء القليل، والإصدارات العديدة عن الثورة أكثرها متضارب، فلماذا تتركون أجيال الثورة جاهلة بتاريخها؟ لماذا لا تحدّثوننا عنها وعن رموزها حتى يكون لنا منهم قدوة حسنة في زمن لا نرى فيه غالبا إلا القدوة السيئة؟ ألا يوجد في تاريخ الثورة رجال نقتدي بهم؟

لقد تأثّرتُ بكلمات هؤلاء الشباب الصادقة أكثر من تأثّري بإلحاح أصدقائي الذين أُجِلُّهُم وأعزّهم، وصمّمت أن أكتب ذكرياتي، وأخذت أستعرض حياتي كلها منذ ولادتي وحتى اليوم؛ أستعرضها يتيما في سنوات الطفولة مع أمٍّ عظيمة ترعاني، وتغرس الشعور بالكرامة والعزة في أعماق نفسي، وأستعرضُ دوري في الصراع المستميت للمعارضة خلال عهود الحكم الإمامي، وأستعرضها في ثورة 48 الدستورية، ودوري في التمهيد لها ومعاناة ما بعد سقوطها، وأستعرضها في ثورة 26 سبتمبر ودوري في تفجيرها، ثم محاولة تصحيح مسارها، وأستعرضها في كل عهود الجمهورية ودوري في محاولة العودة بها إلى أهداف ثورتها، وأستعرضها قبل وبعد تحقيق الوحدة اليمنية ودوري في مجلس النواب، وفي محاولة احتواء الأزمات لحماية الوحدة. استعرضت كل ذلك في لحظات ذكرتني ببيتين رائعين من شعر شاعر اليمن أبي الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري:

عـــمـــر في دقـــائق مـــســـتـــعـــاد
ودهـــــور مـطلـة مـن ثـوانـــــــــي
فكأنَّ الـمـــاضي تأخـــر في النفـس
أو اســـتـــرجـــعت صـــداه الأمـــاني

كان استعراضي لكل ذلك مخيفا ومحزنا إلى أبعد حدود الـحزن، كنتُ لا أجد فـروقا كـبيـرة بين الذين وصلوا إلى الـحكم في كل العهـود. لا يوجد فـرق كـبيـر بين الـحاكـم الـملكي والحاكـم الـجمهوري، لا فرق عندما يملكُ أيٌّ منهم سلطة الـحكم، كلٌّ منهم يستخدم كل الوسائل للانفراد والتسلط بالحكم إذا لم تكن هناك ضوابط من خارج ذاته؛ لأن السلطة سرعان ما تحشد للحاكم كل ذكاء الإنسان.. وكل غباء الإنسان.. وكل جهل الإنسان.. وكل علم الإنسان.. وكل الإمكانات البشرية والمادية والأدبية لخدمة رغبات الـحاكم وطموحاته وأطماعه الذاتية.

كلُّ ذلك كـان يتـستّـر تحت شعـارات دينيـة مزيفـة، أو شعـارات ثورية مزيفـة، أو شعـارات معـتدلة مزيفـة. وكنتُ مع كل الأحرار نحاول في كـل العهود خلق فرص التغيير إلى حياة أفضل، أو نجري وراء كل فرصة تلوح للتغيير قبل أن تضيع، وكأنَّنا نسيرُ جريا على الشوك.. ولكن مع الأسف، وبرغم ما بذلناه من جهد وما تحمّلناه من معاناة، كنا نجد الفرص تتلاشى واحدة وراء الأخرى ونحن نجري وراءها. واليوم وقد ودّعنا القرن العشرين بخيره وشره، وسلبياته وإيجابياته، وبدأنا نسير إلى الـمجهول في بداية القرن الواحد والعشرين وجدتُ من الـخير لي وللوطن أن أتفرّغ للكتابة بعد أن هدأ الإنسان الثائر الـمتمرد بداخلي، وتركت السياسة وراء ظهري غير مأسوف عليها.

ها أنا أتذكّر كلَّ ما مرَّ في حياتي بعد أن فقدت الذاكرة الكثير منه، وأبدأ في كتابة مذكراتي، شاكرا كل من يساعدني على التذكر، وكل من يصحح ما قد أقع فيه من أخطاء. وقبل بداية الكتاب قمت باستخراج أوراقي القديمة والحديثة من أكياس النسيان، لاستعراضها وترتيبها وترقيمها، وطلبت من ابني وليد أن يحفظها مرة أخرى في جهاز الكمبيوتر حتى أعود إلى أيّ منها بسرعة من دون الـحاجة إلى استخراجها من ملفـهـا الـخـاص. وتناولتُ القلم لأبدأ في كـتـابة مـقـدمـة لـهـذه الـمـذكـرات

والذكريات، ولكني وجدت أن كتابة الذكريات أو المذكرات من أصعب ما يكتب الكاتب، وذلك أنه يحاول أو يعتقد أنه يؤرخ أحداث التاريخ التي عاشها أو عايشها، وهذا ليس صحيحا، لأن من يكتب ذكرياته أو مذكراته هو في الحقيقة شاهد أمام محكمة التاريخ، وليس مؤرخا، وهناك فرق بين الشاهد والمؤرخ. نحن ندلي بشهاداتنا أمام محكمة التاريخ التي ليس في منصتها قضاة يستمعون إلى شهادة الشهود كلٌّ بمفرده، ويجمعونها ويبحثون عن شهود آخرين ويحقّقون في تلك الشهادات، ويحلّلونها ويمحّصونها، بهدف الوصول إلى الحقيقة، وهذه مهمة لا يستطيع الشهود أن يقوموا بها. إن من يقوم بتلك المهمة علماء مؤرخون لا علاقة لهم بالقضايا التي تخص التاريخ، ثم إن الشهود الذين يدلون بشهاداتهم ليسوا جميعا فوق الشبهات، أو بعيدين عنها، أو قادرين عند الإدلاء بشهاداتهم كل بمفرده على ضبط أهوائهم الذاتية الظاهرة منها والخفية. وأود في هذا المدخل من مذكراتي وذكرياتي أن أشير إلى بعض النقاط التي تهمني، وقد تهمُّ من سيكتب ذلك بعدي، كما تهمُّ أيضا القراء:

النقطة الأولى: إن كل من يكتبون ذكرياتهم يستهلونها بعبارات يؤكدون، أو يوحون بها أنهم قد التزموا فيما كتبوه الحقيقة وأمانة التاريخ والموضوعية، أو أنهم قد حاولوا ذلك، سواء استطاعوا الوفاء بما التزموا به أو عجزوا عنه، ولا يسعني إلا أن أسايرهم في ذلك، وأن أزعم لنفسي بأنني قد حاولت، بكل ما أستطيع أن أكون صادقا وأمينا عند الإدلاء بشهادتي هذه أمام منصة التاريخ الحالية من قضاتها. وإذا كان كاتب الذكريات أو المذكرات يكتب عن أحداث ساهم في صنعها، وعاشها أو عايشها، فغالبا ما يصبغ الأحداث بالصبغة الذاتية، التي تجعل محاولة الالتزام بالموضوعية والتجرد من تأثيرات الذات -بوعي وبدون وعي- أمرا في غاية الصعوبة، ولذلك صغت العبارة التقليدية صياغة تكرر محاولة الالتزام، ولا تؤكد الالتزام.. سأحاول محاولة جادة ومخلصة أن أكون صادقا وأمينا ومتجردا في كتابة هذه المذكرات والذكريات.

النقطة الثانية: إن كتابة الذكريات أو المذكرات تتحدث عن أحداث عاشها كاتبها، وعن أشخاص ساهم معهم أو ساهم ضدهم في صنع الأحداث، ومن هنا فإن الرؤية إلى طبيعة الأحداث، أو حقيقة الأحداث تختلف باختلاف مواقع الأشخاص،

أو وعيهم، أو طموحاتهم الذاتية، أو العامة؛ بل باختلاف قدراتهم المتفاوتة في استيعاب وفهم الأحداث، وتلك القدرات تختلف باختلاف شمولية الرؤية أو محدوديتها.

النقطة الثالثة: هناك أخطاء شائعة في كتابة المذكرات أو الذكريات، ومنها محاولة تعميم الرؤية المحدودة لجانب من جوانب الحدث، وكأنّها رؤية لجميع جوانبه الأخرى التي لم تشملها الرؤية، ومن هنا يتصوّر بعض كتّاب المذكرات أن رؤيته أو معايشته كانت شاملة لكل جوانب الحدث أو الأحداث، وقد يستنكر إبراز آخرين للجوانب التي غابت رؤيته لها، ولا أبرئ نفسي من ذلك. إن صناعة أحداث التاريخ عملية معقدة، قد تشترك في صنعها مجموعات منسجمة أو متناقضة أو لا يعرف بعضها الآخر؛ بل قد تشترك في صنع الحدث أجيال متعاقبة من البشر، حتى إذا تكاملت عوامل صناعة الحدث في فترة زمنية معينة برزت المجموعة أو الجيل الذي يبرز الحدث، بحيث يبدو وكأنه هو الذي صنع الحدث أو الأحداث التاريخية، مع أنه في الواقع مكمّل لعملية صنع الحدث أو الأحداث. وهناك نقطة مهمة أحب أن أشير إليها، وهي أن الرغبة في محاولة الالتزام بالموضوعية قد تدفع الكاتب إلى إبراز الحقيقة، ولكنه قد يتدخل برغبات ذاتية خفية في تصوير الحقيقة بالأسود والأبيض مع أنها ملونة، وبذلك يقلّل كثيرا من إبراز الحقيقة كما هي، أو قد يكثّف الألوان والظلال في صورة الحقيقة، بهدف إبرازها أجمل أو أبشع مما هي عليه في الواقع، أو قد يبرزها في شكل كاريكاتوري.

لا بدّ أن أعترف للقارئ الذي يحسن الظن بي أنني لن أسجل في هذه الذكريات أو المذكرات كل ما أعتقد أنه الحقيقة بالصراحة التي تعوّدها مني، فقد أتغافل -عمدا- بعض الأحداث، وقد أغلّف بعض الوقائع المذكورة للتخفيف من مرارتها، وفي العموم سألتزم فيما أكتب أسلوب الخطاب اللين، ولكني مع هذا وذاك لن أنحرف عما أعتقد أنه الحقيقة، سوف أبرز الحقيقة الجميلة بكل ما فيها من جمال، وسوف أبرز الحقيقة البشعة بأقل ما فيها من بشاعة، ولا أشك أن هناك قراء سيمنحونني رضاهم، وقراء سيصبون عليّ سخطهم، وهناك قلة لن أسلم أذاهم

ونقمتهم، ولكني في كل الأحوال مرتاح الضمير. ومن الحكمة أن أذكّر نفسي وأذكّر الآخرين أن يظلَّ كاتب الذكريات والمذكرات في حالة من اليقظة والحذر حتى يعينه ذلك على محاولة الالتزام بالموضوعية.

إن ما كتبته يمكن أن يكون سيرة فكرية وذاتية، لأن الأحداث التي أسهمتُ في صنعها وعشتها وعايشتها كانت في الواقع نابعة من قناعة فكرية بمبادئ وطنية، لا من أهواء وطموحات ذاتية. لقد كان جيلي والجيل الذي سبقني يعيشون ويناضلون للتغيير في اليمن بمثاليات وطنية، لا بأساليب سياسية، تتخذ طابع المرونة والتقلب السياسي المعهود في العمل السياسي. صحيح أننا كنا نريد الوصول إلى الحكم، ولكن من خلال مبادئ وطنية، ومن خلال فلسفة للحكم، تقوم على أسس دستورية ومؤسسات دستورية وعدالة اجتماعية، تحول بين الحاكم وبين الانفراد والتسلط بالحكم وبالمال.

وأخيرا أشير إلى أنني قد تعمّدتُ في محطات أو مراحل من حياتي تفصيل بعض الأحداث أو الوقائع تفصيلا قد يراه بعض القراء غير ضروري، وأنا أعرف أنني بذلك قد جازفت مجازفة ربما تزهد هذا القارئ في مواصلة القراءة؛ لكني وجدت أن تلك التفاصيل مهمة وضرورية؛ لأنني أكتب الآن لأجيال غير جيلي؛ بل ربما للجيل الثالث أو الرابع من جيلي. وهذه الأجيال لديها تصور محدود وضبابي للحياة التي كان آباؤهم وأجدادهم يعيشونها.. ومن المهم جدا أن يكون تصور الأجيال اللاحقة واضحا وغير ضبابي. إن الأكثرية الساحقة -إن لم أقل كلها- لا تعرف كيف كانت جداتهم وأجدادهم يعيشون؛ ولذلك نرى كثيرين منهم اليوم يحمِّلون من ساهم في تغيير الحياة من عهود الإمامة إلى عهود الجمهورية مسؤولية ما فيها من سلبيات تقلل من إيجابياتها، نتيجة ما يعانونه من مظالم ومفاسد في العهد الجمهوري؛ لأنهم لم يعيشوا الحياة التي عاشها آباؤهم وأجدادهم، وهي حياة يستحيل على الأجيال اللاحقة أن يتصوّروا ما فيها من بشاعة وتخلف، وبؤس، وفقر، ومرض.

إنني أشعر بحزن شديد عندما أجد شابا الآن يقول لي بكل بساطة: «أي فعلة فعلتموها بنا وبالوطن»؟! لأنه يعاني سلبيات يعيشها في العهد الجمهوري، ويرى

انتشار الفساد والإفساد والظلم والتفلّت، ويظن أن الحياة التي عشناها وعاشها الشعب في العهود السابقة كانت أقل سوءا؛ لأنه يجهل أن ما يعانيه ونعانيه الآن لا يُقارن ببشاعة الحياة المتخلفة التي فرضها حكم بيت حميد الدين. وهذا ليس تبريرا لسلبيات العهود الجمهورية؛ لذلك أتمنى ألا يضيق القارئ ببعض التفاصيل التي توضح له الصورة ببشاعتها في عهود الإمامة، وتزيل عنه التصور الضبابي عما كان قبل مجيء عهود الجمهورية. إن خطأ الجيل أو الأجيال الجديدة هو الهروب من النضال، لتحسين أو تغيير الحاضر، إلى الحنين لإرجاع الماضي الذي لا يعرف بشاعته، ولن يعود، وعليهم بدلا من ذلك أن يناضلوا للقضاء على سلبيات الحاضر وصولا لمستقبل أفضل.

وفي نهاية هذا المدخل أكرر أنني سأحاول أن أكون صادقا ما استطعت.

والله المستعان وهو من وراء القصد.

محمد عبدالله الفسيّل

1 يناير 2005

ملاحظة

كتبت هذا المدخل لذكرياتي في ذلك التاريخ، وكنتُ في أواخر العام التاسع والسبعين من عمري.. حين ذاك قرّرتُ أن أتفرّغ لكتابة مذكراتي، ولكن السلطة ومخابراتها الغبية فرضت عليَّ أحداثا صرفتني عن كتابة الذكريات. كان منزلي يطل على مستشفى الكويت ولا يبعد كثيرا عن جامعة صنعاء الجديدة، وذات يوم من شهر فبراير عام 2011 خرج من جامعة صنعاء أكثر من 800 شاب من شباب الجامعة في مظاهرة توجّهت إلى السفارة التونسية، تأييدا لثورة تونس الشعبية، وبادرت أجهزة القمع لقمع المظاهرة الشبابية وأعتُقل بعض الطلبة، وفي اليوم التالي بدأت مجموعات كثيفة من الطلبة ومن تجاوب معهم اعتصاما داخل وخارج بوابة الجامعة، تطالب بسقوط الفساد والإفساد، وبسقوط الرئيس علي عبد اللّه صالح وأعوانه.. وكان هذا بداية ثورة شعبية يمنية سلمية بدأت في 11 فبراير2011،

واستمرت تتكاثر وتتوالد في المدن اليمنية الأخرى في تعز وإب وعدن وذمار، والبيضاء، وحجة، وغيرها. وامتدت ساحة التغيير من جامعة صنعاء الجديدة في الشوارع المجاورة حتى وصلت إلى باب بيتي من الجهة الشمالية، وكانت هذه الثورة السلمية الجماهيرية الشعبية هي التي تمنّيتُ طيلة حياتي أن تحدث، وقرّرتُ أن أتحوّل إلى شاب يشارك الشباب ثورتهم السلمية، ولكن أم أولادي وأولادي ألحُّوا عليَّ أن أؤيّد الثورة بقلبي دون أن أشارك فيها وأنا في عمر تجاوزتُ فيه 85 عاما. ومرّت أيام وجاءت جمعة الكرامة التي قرّر فيها الرئيس علي عبد اللّه صالح وزبانيته إنهاء الثورة السلمية بمذبحة بشعة، سقط فيها عدد كبير من شباب الثورة في ساحتهم قتلى وجرحى.

ووجدتُ حبيبتي وأم أولادي تبكي وهي تشاهد المذبحة في القنوات التلفزيونية، والتفتت إليّ ودموعها تتدفق من عينيها قائلة: «اذهب وانضم إليهم وعش ثائرا أو مت شهيدا». وانضممت إلى ساحة ثورة التغيير السلمية، وتحوّل بيتي إلى «منتدى ثورة الشعب السلمية»، وانضمّ إلى ساحة الثورة آلاف من الشباب والشيوخ، ورجال القبائل، وضباط من الجيش والأمن. ولم يكن الشباب منظما، ولذلك تمكّنت الأحزاب المنظمة من السيطرة على ساحة الثورة السلمية وميادينها في جميع المدن اليمنية، كواجهة سياسية للثورة، مدعومة بقوة القبيلة، ممثلة في أولاد الشيخ عبد اللّه بن حسين الأحمر، ومدعومة بفرقة عسكرية يقودها اللواء علي محسن الأحمر، وانحصر دعم القبيلة والعسكر في تمكين حزب الإصلاح من السيطرة على ساحات الثورة وميكرفوناتها ووسائل الدعاية للحزب. وكان ما كان كما سيأتي في مذكراتي، وابتعدت عن ساحة التغيير، وسافرت إلى ماليزيا؛ حيث يدرس بعض أولادي، وتفرّغت مرة أخرى لكتابة ذكرياتي بصورة متقطعة.

مقدمة قديمة لكتاب حديث

هذا مقال قديم، ربما يصلح مقدمة لهذه المذكرات، وهي مقدمة لم أكتبها الآن وأنا أسجّل ذكرياتي، ولكني كتبتها في يوم 5 سبتمبر 1987، أي قبل حوالي خمسة وثلاثين عاما لتكون مقالا يُنشرُ في مجلة ما، وفيما يلي أسجّل نص مشروع ذلك المقال الذي لم يُنشر، والذي أرتايتُ أن يكون مقدمة لهذه المذكرات.

من يجرؤ على قول الحقيقة؟

طلب مني الأستاذ مطهر تقي، وكيل وزارة الإعلام حينذاك أن أكتب شيئا من مذكراتي أو ذكرياتي عن ثورة 48 وحركة 55 وثورة 26 سبتمبر 62، لينشرها في مجلة «اليمن الجديد». تناولت القلم لأكتب بعض ذكرياتي عن تلك الأحداث، ولكني توقّفتُ فجأة عن الكتابة، وأخذت أفكّر تفكيرا عميقا، واستعرض الأحداث والحقائق استعراضا سريعا، ثم بدأت أكتب محاولا الابتعاد عن الذكريات إلى شيء أهم من الذكريات. كنتُ مصمما أن أقول الحقيقة بلا تزييف ولا تحريف، وفجأة تساءلت: من يجرؤ على قول الحقيقة في هذا الزمن العجيب! ولا أحب أن أقول الزمن الرديء؛ لأننا نحن الزمن، من يجرؤ على قول الحقيقة! لا أحد إلا إذا كان نبيا أو مجنونا، وأنا لست نبيا ولم أصل بعد إلى مرحلة الجنون!

حاولتُ أن أهرب من الحقيقة إلى أي موضوع يجمع بين الهروب من الحقيقة والهروب من النفاق معا، وتذكّرتُ السيدة مارغريت تاتشر رئيسة الحكومة البريطانية؛ إذا كانت هذه السيدة التي تحكم أعرق دولة ديموقراطية في العالم تحاول أن تمنع طبع ونشر كتاب كشف فيه ضابط من ضباط المخابرات البريطانية بعض الحقيقة، وتستخدم إمكانات دولة بريطانيا العظمى الدبلوماسية لمنع طبع ذلك

الكتاب في أستراليا أو أمريكا، إذا كانت حكومة هذه الدولة العريقة في الحياة الديموقراطية ترفض صدور كتاب يكشف بعض الحقيقة، فكيف يجرؤ إنسان من بلدان الله المتخلفة على قول الحقيقة؟!

وتوقّفتُ عن الكتابة وتذكّرتُ مسرحية الكاتب الفرنسي «موليير» الذي عاش إرهاصات الثورة الفرنسية قبل انفجارها، كان اسم المسرحية «عدو البشر». وكان بطلها رجلا مسالما لم يقتل في حياته إنسانا ولا حيوانا، لو فكّر في ذبح دجاجة لمات من الخوف، لم يكن من طبعه العدوان أو العنف.. لم يخطر بباله أن يخدع أحدا، أو يسيء إلى أحد، أو يسرق مال أحد. ولكنه لم يكن يستطيع أن ينافق أو يكذب، ومع ذلك فإن موليير قد جعل ذلك الإنسان المسالم الفاضل عدو البشر، لماذا؟ لأنه كان لا يستطيع إلا أن يقول الحقيقة، كان يحب الحقيقة ويقدسها.. كان يزيح عنها أي غطاء يخفيها عن العيون والعقول.. كان يهتك عنها أستار النفاق ويمسح عن وجهها مساحيق الخداع.. كان يعشقها عارية، فيجرّدها من أي ثوب زائف يستر مفاتنها. كانت هذه جريمته التي جعلت منه عدو البشر.

مسكين من يعشق الحقيقة، مسكين «السيد/سست» ذلك الذي عشق الحقيقة، فأصبح «عدو البشر».. تذكّرتُ هذا وتساءلت، أليس كل الأنبياء، وكل المصلحين، وكل الدعاة، وكل الأحرار، وكل الثوار كانوا في بداية دعوتهم يبدون وكأنهم أعداء البشر! كانت رسالاتهم تقوم على هدم الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية القائمة على الظلم والفساد، وعلى الزيف والخداع، وعلى النفاق بكل أشكاله وأنواعه وألوانه، ليحل محلها الحق والحقيقة.. وعندما أستعرض حياة كثير من أحرار اليمن الذين حاولوا أن يقولوا الحقيقة عندما كان تضليل الكهنوت الإمامي يرقى إلى مرتبة القداسة، مختفيا تحت هالة سماوية مزيفة من النور، عندما أستعرض ذلك أتصوّر أن كل حر ناضل حينذاك، كان يشبه «السيد/سست». كان عدو البشر.. مع فارق بسيط هو أن «السيد/سست» كان يؤدي دوره على خشبة المسرح فيثير إعجاب وضحكات المتفرجين؛ أما «السيد/سست» الحر اليمني فقد كان يؤدي دوره في واقع الحياة، فتنصب عليه لعنات الجميع،

وغضب الجميع، ثم يدفع به الطغيان الكهنوتي إلى أعماق السجن، أو إلى أعماق القبر، بعد أن يُفصل رأسه عن جسده بحد السيف.

توقّفتُ عند هذه المقارنة بين «السيد/سست» الفرنسي الذي ابتدعه موليير، وبين مئات من أحرار اليمن الذين عاشوا مقهورين، أو ماتوا شهداء في سبيل الحق والحقيقة، وبدأت أتراجع عن تصميمي في ألا أقول إلا الحقيقة، حتى لا أصبح «عدو البشر». أخذت أقارن بين «السيد/سست»الذي كان لا يقول إلا الحقيقة وبين صديقه «فيلانت» الذي كان يكره الحقيقة ويكره أن ينطق بها، ويمارس بدلا منها كل أساليب النفاق والكذب، والخداع، والتزلف، والمداهنة.. كان جبانا وصوليا انتهازيا. كان نقيض صديقة «السيد/سست». ذلك الشجاع الذي لا يستطيع إلا أن يقول الحقيقة. كنتُ أقارن بين الشخصيتين، وكنتُ أتمنى أن أكون شجاعا فأقول الحقيقة، ولكن التمني ليس في قوة الإرادة. لم أعد أمتلك إرادة الشجاعة، ولكني لا أريد أن أكون جبانا منافقا وصوليا، ولهذا وجدت نفسي في وضع اجتماعي وسياسي غريب، فلا الذين لا يزالون شجعانا- إن كان هناك من لا يزال شجاعا- ارتضوا أن أكون منهم، ولا الذين احترفوا النفاق والكذب والمداهنة والوصولية وجدوا لي مكانا في أي شلة من شللهم، فلست مثل «السيد/سست» شجاعا يعيش الحقيقة، ولست مثل صديقه «فيلانت» جبانا يعيش للنفاق وبالنفاق.. وهذا وضع أبشع من وضع الصديقين المتناقضين، فكلاهما له مكان في الحياة.

أما أنا فلم يعد لي مكان اجتماعي أو سياسي في هذه الحياة.. أصبحت كالإنسان الذي فقد وطنه وتاه بلا هوية. طبعا أنا لا أعبّر بهذا عن نفسي وحدي، ولكنني أعبّر به عن وضع ملايين من البشر الذين يعيشون في بلدان الله المتخلفة. قلتُ لنفسي: ليس من الضروري أن تقول كل الحقيقة، وليس من الضروري أن تكون منافقا، قل بعض الحقيقة واسكت عن كثير منها، وسمعتُ هاتفا من أعماق الضمير يقول: إن قول بعض الحقيقة قد يكون أكثر بشاعة من النفاق، إنه عملية نصب ذكية يزاولها غالبا كبار المنافقين المحترفين، بها يسترون نفاقهم، وبها يخدعون الآخرين، وبها يسلبون حق الآخرين في معرفة الحقيقة. أصغيت لصرخة الهاتف وابتسمت

في إشفاق ممزوج بالحزن والسخرية، وهمهمت: لا عليك ففي دنيا النفاق لم يعد أحد يقبل سماع بعض الحقيقة، وإذا وُجد من يقول بعض الحقيقة فإن هناك من يخنق صوته. رميتُ القلم من يدي وقرّرتُ ألا أقول شيئا، وسمعت هاتف الضمير يصرخ من جديد: لماذا تستسلم لليأس والتشاؤم؟ إن الساكت عن الحق شيطان أخرس، قل الحقيقة ودع غيرك يحمل وزر إسكات ما تقول. وتناولت القلم من جديد، وقد قرّرتُ أن أقول الحقيقة عن نفسي حتى لا أكون عدو البشر إذا قلتها عما جرى أو يجري حولي، وضحكت ساخرا من هذا القرار. ماذا! أقولها عن نفسي؟ إن أصعب شيء على الإنسان أن يقول الحقيقة عن نفسه. الحل هو أن أهرب من الحقيقة، لن أهرب منها إلى النفاق والكذب والخداع، ولكني سأهرب منها إلى الخيال أو إلى السكوت.

وبدأتُ أتذكّرُ أنني كنتُ قد اكتشفت الحقيقة من خلال عدد قليل من الناس، كانوا قد بدأوا البحث عنها من قبلي، وأن هناك عددا قليلا أخذوا يبحثون عنها معي، أو أخذت أبحث عنها معهم.. من هؤلاء وأولئك تكوّنت مجموعات الأحرار الذين تساقطت أمامهم هالات القداسة الزائفة من حول الإمام، وظهرت حقيقته البشعة الشوهاء، وبدأت حركة النضال الوطني تسير والظلام مخيم عليها، والطريق مليء بالمتاهات والهاويات والأشواك والثعابين وكل المخاطر. وبدأت حياة الأحرار تتحوّل إلى معاناة، وعذاب، وتشرد، وسجون، وموت بالجوع والمرض، أو موت بالسيف والسّم. ووجدت نفسي أسير مع الأحرار في طريق النضال الشاق من دون إرادتي. لم أكن أحارب الإمام، ولم أكن أحلم بالثورة عليه، كنتُ فقط أحلم بالذهاب إلى مصر، لأدرس في مدارسها.

كان عمري حينذاك لا يزيد على ثمانية عشر عاما، وكنتُ قد أصبحت في عداد الشعراء والأدباء الذين يعيشون حول ولي العهد حينذاك الإمام أحمد فيما بعد.. كنتُ من العصريين الذين يقرؤون الكتب العصرية المحرّمة، صحيح أني قبل سنوات كنتُ قد نقلت بخطي منشورات، كتبها أستاذي الشهيد أحمد الحورش، وهو في سجن القلعة، فكلّفني بنقلها ونشرها، ولكني حينذاك لم أكن أعي أن هذا العمل

يُعتبر عملا وطنيا أو سياسيا. كنتُ أعرف أن هذه المنشورات ضد الإمام، ولكني لم أكن أعي معناها الحقيقي. كنتُ أعتبر ما أقوم به مجرد خدمة كلّفني بها أستاذي.. لو أنني وقعت في يد الإمام حينذاك وزجّ بي إلى أعماق السجن لوجدت للإمام عذرا، ولكني بعد مرور أعوام وجدت نفسي في سجن رهيب من سجون الطاغية أحمد حميد الدين، معلّقا في رأس «جبل صبر».. لم أكن أزاول حينذاك أي عمل مضاد للحكم؛ بل بالعكس، كنتُ من الشعراء الذين يدبجون قصائد المديح، ويلقونها بحماسة أمام هذا الطاغية الذي كنا نأمل أن تنهض اليمن تحت قيادته، وفجأة كشف عن نواياه الشريرة!

إنه مجرد طاغية رجعي يعشق التخلف والجمود والظلام، ويهدّد بقتل كل من يفكّر في حياة أفضل.. بقتل كل العصريين الذين يقرؤون الكتب والصحف العصرية. بقتل كل الذين يبحثون عن الحقيقة. وكنتُ أعرف أنني معدود من العصريين، ولكنني لم أكن أحلم بالثورة. كنتُ فقط أحلم بالذهاب إلى مصر للدراسة، وكان تهديد الطاغية بقتل كل العصريين كافيا لإثارة المخاوف، فقد هرب الزعيمان الزبيري والنعمان إلى عدن، وهرب بعدهما الموشكي والشامي، ولم أفكّر في الهروب، لأنني كنتُ أحلم بالدراسة في مصر، وكنتُ اعتقد أن تحقيق هذا الحلم متوقف على موافقة ولي العهد، بإرسال بعثة دراسية إلى مصر على رأسها ابنه البدر. وتحوّل الحلم إلى كابوس مرعب، ووجدت نفسي في سجن رهيب من سجون الطاغية، معلّقا في قمة جبل صبر، وفي أعماق هذا السجن اكتشفت الحقيقة؛ اكتشفت أن أية أحلام يحلم بها الإنسان في إصلاح أي حكم ديكتاتوري من داخله هي أحلام باطلة وخادعة.. اكتشفت أن الحلم الوحيد في هذه الحالة هو أن يحلم الإنسان بثورة تقتلع الطغيان الديكتاتوري من جذوره، ليحلّ محله حكم عادل ديموقراطي يحقق للإنسان الحرية. وإذا تحققت الحرية: حرية القول، حرية التفكير، حرية التنظيم السياسي والاجتماعي والمهني، حرية العمل.. إذا تحققت الحرية في أي مجتمع أو دولة فإن كل شيء خير وجميل ورائع سوف يتحقق.. سيتحقق النظام الديموقراطي، وستتحقق به التنمية المبرمجة، وستحقق به المساواة والعدالة،

سيتمتع الجميع بالحرية.. سيجد الإنسان العمل والخبز، والعلم، والفن، والكرامة.. سيحسُّ الإنسان بذاته الإنسانية، فيحلم ويتخيّل ويفكّر، وسيحوّل الأحلام والخيال والأفكار إلى واقع الحياة.. إلى حضارة إنسانية مبدعة خلاقة، يكتشف الإنسان فيها الحقيقة.. وبدون الحرية سيصبح كل شيء باطلا في باطل. في غياب الحرية يستطيع الحاكم أن يزيّف الحقائق كلها، يزيّف الدين ويحوّله إلى خرافة، يزيّف الاشتراكية ويحولها إلى وسيلة للنهب والسرقة والإلحاد. وبهذا التزييف وتحت ستاره البراق يمارس الديكتاتور كلَّ أساليب الطغيان الديكتاتوري، وكل أساليب الظلم والفساد، ويندفع بالدولة والشعب إلى الكارثة.

في السجن اكتشفت الحقيقة.. اكتشفت أن الفساد لا يمكن إصلاحه بالفاسد، وأن الطغيان لا يمكن إزالته بالطاغية، وأن الديموقراطية لا يمكن أن تتحقّق على يد الديكتاتور، وأن إنسانية الإنسان لا يمكن أن توجد في غياب الحرية. في السجن اكتشفت الحقيقة، وبدأت أدفع ثمن هذا الاكتشاف تشرّدا، وسجونا، وعذابا، ومخاوف. بدأت أناضل مع المناضلين حتى تحطم الدجال الإمام يحيى في ثورة 1948 الدستورية، ولكن الثورة سقطت وتساقط معها مئات الأحرار إلى أعماق السجون، وتساقطت رؤوس الشهداء منهم بسيف الجلاد في ميادين حجة وصنعاء وتعز. لقد عشت المأساة في سجون حجة مدة تزيد على ثلاثة عشر عاما، عشتها عذابا وجوعا وأمراضا، ولكني لم أفقد الأمل. احتفظت بإرادة التمرد الإنساني ضد الطغيان، واحتفظت بقدرة الإنسان على أن يحلم ويتخيّل ويفكّر ويعمل ويتطلع إلى يوم من أيام الله الخالدة الذي يسقط فيه حكم الطغيان الكهنوتي تحت أقدام الأحرار، ويطلع فيه فجر الحرية الذي يتحقق به الحكم الديموقراطي العادل.

وجاء اليوم الموعود يوم الثورة اليمنية الخالدة، يوم 26 سبتمبر 1962، وانطلق صوتي مجلجلا عبر الأثير يعلن نهاية الحكم الملكي الكهنوتي الديكتاتوري المتخلف، ويعلن قيام ثورة الشعب؛ ثورة النظام الجمهوري الديموقراطي العادل. ومرت أيام وجاء من يزيّف الثورة وأهدافها، فقد جاء البيضاني، مدعوما بالدعم المصري، ليجلس ملكا على عرش الثورة، فأصبح سرطانا مخيفا في جسم الثورة

ينخرها من داخلها، ويشوّه روعة الدعم الذي هبّ من مصر لنصرة الثورة ضد القوى الرجعية التي تجمّعت في الداخل، وهبّت من الخارج، واندفعت في محاولات يائسة للقضاء على ثورة الشعب اليمني، وعلى نظامها الجمهوري، ليعود إلى اليمن من جديد حكم الطغيان الفردي الكهنوتي المتخلف.

واندلعت الحرب التي اختلط فيها الحابل بالنابل بين قوى الثورة والجمهورية، مدعومة بقوة مصر من جانب، وبين فلول الرجعية الملكية مدعومة بقوة السعودية من جانب آخر، وأبعدت هذه الحرب الكثير من الثوار عن ساحة العمل السياسي، إما إلى مواقع الحرب الطاحنة، وإمّا إلى الإبعاد والنفي والتهميش، وكنتُ ممن بقي في ساحة العمل السياسي، وهالني أن ذلك السرطان الخبيث أخذ يستشري في كيان الثورة، ويبذر بذور الانتهازية والوصولية والفساد، وبدأ الإنسان المتمرد في كياني يثور من جديد.

هل كُتب عليّ أن أكون متمردا معارضا حتى في ظل الثورة التي شاركتُ في صنعها؟ وجرّني هذا التساؤل إلى سؤال آخر: هل نستطيع التعاون مع هذا السرطان ومع الانتهازية من حوله؟ وتذكّرتُ الحقيقة التي اكتشفتها في السجن: أن الفساد لا يمكن إصلاحه بالفاسد، وأن المرض لا يمكن معالجته بالمرض نفسه، ووجدت أن قدري في هذا الموقف أن أكون معارضا، وأن أصارع الانحراف، حتى لا يقضي على الثورة. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من أشق وأصعب مراحل النضال وأكثرها تعقيدا. ذهب البيضاني وبقيت آثاره، وذهب عهد وجاء عهد جديد، ثم جاء عهد ثالث ورابع وخامس، وانتصرت الثورة بكل إيجابياتها وسلبياتها. وخلال مسيرتها في عهودها المختلفة وجدت نفسي في وضع غريب، فأنا مع كل عهد ولست معه، معه في إيجابياته ولست معه في سلبياته، لست مؤيدا كل التأييد، ولست معارضا كل المعارضة، لقد هدأ الإنسان المتمرد في كياني، أصبح لا يثور.. اكتفى بأن يقول بصراحة ما يعتقد.. أن يقدم النصيحة الصادقة.. ثم تراجع إلى الوراء فأصبح لا يقول ما يعتقد إلا إذا طُلب منه ذلك، أو فرض موقف من المواقف عليه ذلك، وأحجم عن تقديم النصائح، لا خوفا من عقاب، ولكن خوفا من ردود أفعال تجرح الآخرين، أو

تجعله هو يعود إلى تمرده الثائر.. هل أستطيع أن أقول الحقيقة؟ هل أستطيع أن أسكت عن الحقيقة؟ هل! هل! تساؤلات لا حدود لها ستظل بلا جواب؛ لأن من يقول الحقيقة يصبح «عدو البشر»، وأنا لا أريد أن أكون كذلك.. اكتفيتُ بأن أؤدي واجبي بأمانة في أي موقع من مواقع المسؤولية أجد نفسي فيه.

لم أكن أسعى للوصول إلى أي موقع من مواقع المسؤولية، أو لتولي أي منصب وظيفي في الدولة، وكان يتم تعييني في أي منصب دون أن أطلب، فقد كان تعييني في كثير من الأحيان لا يكون لحاجة المنصب لوجودي، ولكن لأسباب أخرى مختلفة. وباعتقادي أن أهم المواقع الرسمية التي زاولت فيها المسؤولية كانت تعييني عضوا مقررا للجنة الدستورية المشتركة التي أنهت عملها بوضع مشروع دستور دولة الوحدة اليمنية؛ ذلك الدستور الذي نام في الأدراج هنا وهناك حتى اليوم، ثم تعييني عضوا في مجلس الشعب التأسيسي، حتى تم إبعادي منه في عام 1983، بتعييني سفيرا في بغداد.

والله الموفق وهو من وراء القصد

(*) هذا هو المقال الذي لم يُنشر في 5 سبتمبر1987 . نشرته هنا ، لأنه جزء من مذكراتي ، وتعبير عن وجداني ، وفكري ، وضميري ، وصالح لأن يكون مقدمة قديمة لكتاب حديث .

الفصل الأول
ما قبل الطفولة

هل يهمُّ الناس أن يعرفوا تاريخ مولدي؟ لماذا يهتم علماء التاريخ الذين يترجمون للناس بذكر تاريخ مولد من يترجمون لهم؟ تساءلت هذا التساؤل وقلت: إن ذلك لا شك مهم جدا؛ لأن خلق الإنسان وخلق الحيوان وحتى خلق النبات والشجر وكل شيء ينمو عملية لا تقل حكمة ولا روعة من خلق الله للكون كله في رحم الأزل، بما في الكون من سنن لا تبديل لها. وأنا في الواقع لا أعرف تاريخ مولدي بالضبط، ولكني أتذكّر أن أمي أخبرتني بأنني ولدت يوم الاثنين أو الجمعة الموافق 14 صفر؛ ولكنها لا تعرف في أية سنة أنجبتني، وقد حفظت ذاكرتها يوم ولادتي، لأن الناس في اليمن حينذاك كانوا يعتبرون المولود في يوم الجمعة مباركا، خصوصا إذا صادف مولده في منتصف الشهر العربي عندما يكون القمر في تمامه. وبقيت أجهل السنة التي ولدت فيها، حتى قمت بإهداء جهاز كمبيوتر إلى ولدي أكرم بمناسبة تخرجه من المرحلة الإعدادية في عام 1993؛ لأنه كان يهوى التعامل مع الكمبيوتر منذ كان في الصف الأول من المرحلة الثانوية، وقد أهديت إليه حينذاك جهاز كمبيوتر صغير من نوع صخر، وطلبت منه أن يشتري البرنامج الخاص بمقابلة التاريخ الميلادي بالتاريخ الهجري، وطلبت منه أن يرى كم صادف مرور يوم الاثنين 14 صفر خلال مئة عام، وقد أخبرني فيما بعد أن برنامج الكمبيوتر أخبره أن يوم الاثنين 14 صفر قد تكرر أربع مرات خلال مئة عام، وأخذت استبعد ما زاد عن تقدير عمري، وما نقص من التقدير إلى أن استقررت وعرفت بأنني ولدت في يوم الجمعة 14 صفر عام 1345هـ- 26 ديسمبر عام 1926، هذا هو تاريخ ميلادي كما يقول برنامج الكمبيوتر.

لقد تعوّد كُتّاب السير والتراجم الذين يكتبون ذكرياتهم أو مذكراتهم أن تبدأ

كتاباتُهم من السنة السادسة أو ما بعدها من سنوات الطفولة، حيث يعي الإنسان ويحسّ بوجوده في الحياة، وعندما تناولت القلم، لأبدأ في كتابة ذكرياتي وجدت أنني سأبدأ بالسنة السادسة من عمري، ولكنني توقّفتُ وتساءلت: كيف عشت في رحم أمي.. ثم كيف خرجت إلى الحياة؟! (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَة مِّن طِين (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَة فِي قَرَار مكِين (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَة فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَة فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاما فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْما ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)(14). سورة المؤمنون.

لقد عشتُ في رحم أمي تسعة أشهر كاملة، أتغذّى من دمها ولحمها وعظمها، فهل كان ما تتغذّى به يكفي لتغذيتها وتغذيتي منها؟ أم أنني كنتُ أتغذّى منها ما يكفيني دون أن تجد هي غذاء كافيا يعوضها عما أكلته منها؟ هل كنتُ أشعر بذلك؟ هل كانت لديّ أحاسيس معينة وأنا في رحم أمي؟ عندما خلقني الله في رحم أمي خلقا آخر، فنفخ في خلايا دماغي روح التفكير والإحساس والفطرة الإنسانية، وعندما خرجت للحياة الدنيا، كيف استقبلتني هذه الحياة؟ وما هي ظروف ذلك الاستقبال؟ وفجأة خطر في بالي تساؤل غريب: هل صحيح أن الجنين في رحم أمه يعيش حياته كلها التي سيحياها بعد مولده؟ يعيش طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته، فإذا أطلقته أمه إلى خارج الرحم، إلى الحياة الدنيا عاد من جديد في الحياة الدنيا يعيش حياته كما عاشها من قبل في رحم أمه إلى أن يموت؟

ربما يشير هذا التساؤل إلى مذهب «الجبرية» الذي يقول: إن الإنسان مسيّر لا مخيّر، ويعارضه مذهب القدرية الذين يقولون إن الإنسان مخيّر بإرادته، ومنهم المعتزلة. ولكن قد يكون مبعث هذه التساؤلات هو حرصي على تصوير الواقع الذي ولدتُ فيه، وهو واقع رهيب وبائس.. إنه واقع عشته فعلا، ثم صوّرته بأسلوب خيالي يجسد الواقع كما هو، أو كما كان عندما ولدت في يوم الجمعة 14 صفر، الموافق 26 ديسمبر 1926. ولأنني الآن أكتب ذكريات حياتي، فقد تخيلت أنني بدأت كتابة مذكراتي عقب الطلقة التي قذفت بي من رحم أمي إلى خارجه، حرصا على تصوير ولادة أكثر من 95٪ من مواليد اليمن حينذاك. هل كنتُ أحسّ بوجودي؟ أحسّ

بالفطرة الإنسانية التي فطر الله الإنسان عليها عندما أنشأني الله خلقا آخر في رحم أمي؟!

حول يوم مولدي

وساقتني التساؤلات إلى خيال غريب، كتبت فيه مذكراتي الأولى في يوم مولدي، وسجلت في هذا اليوم الأحداث والأفكار التي عشتها في أول يوم ولدت فيه. وها أنا أنقلها كما وجدتها في زاوية من زوايا الخيال، بعد أن قطعت في عودتي إليها (96) سنة عشتها في هذه الحياة. إن الهدف من كتابة هذه المذكرات الخيالية، هو تصوير الحياة التي كان الناس في اليمن يعيشونها، تصويرا يجعلها أقرب إلى التصور وأكثر جاذبية. ها أنا ذا أكتب مذكراتي دقيقة بدقيقة في ذاكرتي البيضاء يوم مولدي.

اليوم الجمعة 14 صفر 1345–26 ديسمبر 1926 قبل غروب الشمس بساعة، كنتُ أعرف أنني قد سبّبت لأمي بدون اختياري ضررا كبيرا؛ لأنني كنتُ أتغذّى من لحمها، وعظمها، بينما كانت لا تجد الغذاء الكافي الذي يكفيها، فكيف وأنا أتغذّى منها؟ الدقيقة الأولى.. كنتُ أحلم في بطن أمي أحلاما غامضة، ولكني كنتُ أحسُّ أنها أحلام رائعة وجميلة، وفجأة شعرت أن زلزالا عنيفا قد حدث في بطن أمي، وأن أحلامي الجميلة تتحوّل إلى كابوس مرعب.. الزلزال يقلبني رأسا على عقب، وتملكني الرعب، وقبل أن أتبيّن ما يحدث وجدت رأسي ينزلق إلى الخارج.. ثم وجدت جسمي كله ينزلق إلى الخارج.. صدمني الهواء الجاف فكدت أختنق.. صدمني الضوء فأغمضت عينيَّ بدون تفكير. ثم ماذا؟ صدمتني فردة الصوف الخشنة المتسخة التي انزلقت عليها، وجرحتني جرحا داميا، كان أول جرح يصيبني في حياتي، ربما ظلّ يؤلمني مدى الحياة.

الدقيقة الثانية.. صرختُ من الفزع ومن الألم، تلفتُّ فيما حولي، أخذتُ أعطس وأعطس وأصرخ مستنجدا، لم يترك لي الخوف والألم فرصة للاحتجاج. كنتُ أستنجد بالصراخ والعُطاس.. تلفتُ حولي فرأيت عددا من النسوة يتحلَّقن حول

أمي، واقتربتْ عجوز منهن فرفعتني بيديها، فأحسستُ أنهما خشنتان كالفردة التي جرحتني، واستغربتُ لأنها من الجنس الناعم، ورفعتُ نظري فرأيت فمها وهي تحملق في وجهي وكأنه فجوة ليس فيه ضرس ولا سن، ظننتُ أن الناس مثلي يعيشون بلا أسنان ولا أضراس، هدأتُ بعض الشيء، ولكني عدتُ أصرخ من الفزع عندما أخذت العجوز تغسل جسمي بالماء الدافئ بيديها الخشنتين، وتساءلتُ: لماذا اخشوشنت كفا هذه العجوز؟ فجأة أحسستُ أنني أملك قدرة على رؤية الواقع أو الأشياء، ورؤية ما وراءها من أسباب صنعتها.. نقلني التساؤل إلى رؤية الأسباب التي أدت أو صنعت تلك الخشونة.

ها أنا أعيش معها حياتها منذُ طفولتها حتى شيخوختها، ها هي ترعى الغنم وتجمع ما تستطيع من حطب وقش، ثم تعود إلى البيت حاملة الحطب والقش على رأسها، تمشي حافية القدمين أكثر أيام حياتها، وقبل أن تأتي وتحملني وتغسلني، رأيتها تُخرج الحبوب من مخزن صغير، وتنقّيها من الحجارة، وتنفخ الغبار العالق بها، ثم تأخذها في طبق من الخوص يسمونه «غطاء» وتهبط إلى دهليز البيت. هناك في زاوية فيه رأيت المطحن المكون من حجرتين كبيرتين مستديرتين، إحداهما ثابتة فوق دكة مرتفعة قليلا عن الأرض، والأخرى فوقها متحركة، وفيها فتحة في وسطها لإدخال الحبوب منها، وثقب في جانب منها ثبتوا فيه عمودا صغيرا من الخشب، تمسكه المرأة بيدها اليمنى وتدير به المطحن العلوي، وتضع الحبوب بيدها اليسرى في الفتحة فينزلق الحَب (بفتح الحاء وليس بضمها) إلى المطحن السفلي ليتم سحقه وطحنه وخروجه إلى أطراف المطحن، فإذا تعبت يدها اليمنى استبدلتها باليد اليسرى، وغالبا ما كانت تغنّي -وهي تطحن- أغنيات حزينة أو غزلية، لمغالطة التعب.

وحماية لكفيها الناعمتين يبدأ جسمها في تكوين طبقة خشنة يحمي كفيها من التمزّق والتشقق، وبعد أن تجمع الطحين في الغطاء، وتذهب به إلى المطبخ «الديمة»، وتعجنه في آنية من الفخار، بعد ذلك قد تهبط مرة أخرى إلى مكان الحطب، في أسفل البيت، وتخرج ما تحتاجه منه ومن القش، وربما أخذت فأسا وفلقت بها

الـحطب، وهذه العملية تتطلب من الـجسم إفراز طبقة واقية للكفين. وبعد أن يصبح العجين خامرا تكون الـمرأة قد وضعت الـحطب داخل التنور بطريقة معينة، وتضع تحته قليلا من القش يسهّـل لها إشعاله بالنار، ويتصاعد الدخان بكثافة في أنحاء «الديمة»، ويتسرّب خارجا من فتحات صغيرة في أهرامات صغيرة بارزة من السقف إلى الـخارج، يسمّونه «سيه»، وقد يتسرّب الدخان إلى بعض أنحاء البيت، وإلى أنف الـمرأة وعينيها. وبعد أن تخبز العجين في التنور، وتحضر الإدام، وغالبا ما يكون «مطيط»، ويصنع بقليل من الطحين يخلط بالماء وقليل من الـحقين ويقدم مع الـخبز للآكلين.

وفي بعض الأسر يذبحون فرخة صغيرة «للوالدة» يسمونها «الشقري»، وذلك لتشرب من مرقها وتأكل من لحمها، وقد يشارك والد الـمولود زوجته في أكل لحم الفرخة، أو يقسمونها ليومين. وقد لاحظت أن النساء في اليمن من سن الطفولة حتى الشيخوخة يقمن بأعمال أكثر مما يقوم به الرجال، ومع ذلك فغالبا ما يذهب الرجال إلى الـمزارع ومعهم بعض نسائهم؛ أما بعضهن الآخر فيبقى في البيوت لإعداد الطعام ونقله إلى العاملين في الـمزارع، وغالبا ما يكون من حب الذُّرة؛ أما الإدام فهو الـمطيط، ورأيت أن أكثر النساء والرجال يمشون حفاة الأقدام وأكفهم خشنة بطبقة يفرزها الـجسم حماية لها بسبب استخدام أدوات الزراعة البدائية، ونجد أن الناس أطفالا ونساء ورجالا مشققة أقدامهم شُقوقا يسمون الواحد منها: «نُقْع» (بضم النون وسكون القاف) وجمعه «أنقاع» بسبب عدم استخدام الأحذية، وبسبب الأتربة والأوساخ، وأيضا بسبب جفاف الجو، خاصة أيام الشتاء، وقد تخرج من تلك الشقوق الدماء.

لماذا لا يفرحون بي فرحا إنسانيا؟

شاهدتُ كل هذا في لحظة لم تستغرق من الزمن إلا طرفة عين، ووجدتُ أنني لا أزال في كفي العجوز الخشنتين، وكنتُ أخشى أن تحدث بهما خدوشا في جسمي إلى جانب جرح الفردة الخشنة.. وجاءت امرأة أخرى تجفّف جسمي بخرقة

ربما كانت من بقايا ثوب لأمي لبسته حتى أصبح غير صالح للبس، وتلفت مرة أخرى فيما حولي، وهالني أن أمي ومن حولها من النساء يفرحن بي فرحا غريبا، فيه حنان الغريزة التي لا يمتزج بها تفكير الإنسان وآماله، وأحلامه، وخياله في أن هذا المولود الجديد سيكون إنسانا مهما له مستقبل أفضل في الحياة. وتساءلتُ بصوت مسموع: لماذا لا يفرحون بي وبقدومي فرحا إنسانيا!، هل فقد من حولي شعورهم بذاتيتهم الإنسانية التي تحلم وتتخيّل وتفكّر وتتطلع إلى حياة أفضل، كنتُ في بطن أمي أعيش أحلاما جميلة لا تنتهي، وإن كانت غامضة.. كنتُ أحلم ربما لأني كنتُ أحس بذاتي الإنسانية، فهل أفقد هذا الإحساس خارج بطن أمي!

صرختُ فيمن حولي: لماذا أنتم هكذا كالحيوانات التي تعيش لغريزتها؟ لماذا لا تحلمون كما يحلم الإنسان؟ من سلبكم الإحساس بإنسانيتكم؟ أي عالم غريب هذا الذي خرجت إليه من بطن أمي! هل سيسلبني إنسانيتي فلن أستطيع أن أحلم وأفكّر أم أتطلع إلى حياة أفضل؟ أفضل من هذه الحياة التي استقبلني فيها فراشُ الصوف الخشن المتسخ، هذا الفراشُ الذي جرحني جرحا داميا لا يزال يؤلمني، وسيبقى يؤلمني مدى الحياة. لن أفرّط أبدا بالإنسان الذي عاش بداخلي قبل أن أولد، يتخيّل ويحسّ بإنسانيته.

الدقيقة الثالثة.. انتهت العجوز من غسلي بالماء، ولم أعد أستنجد.. كنتُ أصرخ محتجا غاضبا، وشاهدتُ نسوة من حول أمي ينظرن إلى وجهي في استغراب، وكأنهن يستنكرن هذه الأفكار التي تتمرد في رأسي، وضحكتْ إحداهن بسخرية وقالت: هذا طفل غريب، إنه مجنون أو مسكون بالجن. إننا نحلم في النوم أحلاما كثيرة، فكيف يقول إننا لا نحلم، وقامت إحداهن وأحضرتْ قِطعا صغيرة من الملح الحجري ووضعتها على الجمر لتطرد بذلك الجنَّ الذين يسكنون بداخل جسمي، وصرخت غاضبا: إنني أقصد أحلام اليقظة.. أحلاما تدفع الإنسان إلى تغيير الحياة إلى الأفضل.. انظروا إلى هذا الجرح الدامي في جسمي، لو كان أبي، لو كانت أمي، لو أن هذا المجتمع الذي أصبحتُ جزءا منه كان يحلم كالإنسان.. كان يتخيّل كالإنسان.. كان يفكّر كالإنسان لما انزلقت من

بطن أمي على هذا الفراش الخشن المتسخ الذي أحدث في جسمي هذا الجرح الدامي.. وصرختُ مرة أخرى: من يدري أن أبي قد انزلق من بطن أمه على هذا الفراش الخشن المتسخ نفسه، وأحدث في جسمه جرحا كجرحي هذا؟ لو كنتم تحلمون أحلاما إنسانية لغيّرتم الحياة إلى الأفضل من زمن بعيد، إنني لستُ مسكونا بالجن والعفاريت، ولست مصابا بالجنون، ولكني كنتُ في بطن أمي أحلم.. أتخيّل.. أفكّر.. أشعر بذاتي الإنسانية، وكلّ ما أخشاه الآن هو أن أفقد هذا الإحساس بإنسانيتي.

وانتهت العجوزُ من غسل جسمي بالماء الدافئ، ووضعتْني في لفافة ممزقة من بقايا ثياب أمي. صرختُ باكيا محتجا، تلفتُّ لأرى أمي تنظر إليّ بحنان غريزي، فتمنّيتُ أن أرى في عينيها خيال الإنسانة التي تحلم بأن يصبح طفلها هذا الذي خرج من بطنها في هذه اللحظة طفلا ذكيا يكبر، ويتعلّم في المدارس، ويتخرّج من الجامعة، ويكون رجلا عظيما، يكون في المستقبل عالما، أو طبيبا، أو مهندسا، أو أديبا، أو سياسيا بارزا، ولكن أمي لم تكن تحلم، كانت تنظر إليّ بكل ما في كيانها من حنان الغريزة، وصرختُ باكيا من هول هذه الحقيقة.. أي كارثة سلبت من أمي قدرتها على أن تحلم كما يحلم الإنسان؟ لا شك أن كل الأوضاع التي عاشتها أوضاع مغرقة في التخلف الوحشي.. إنه تخلف يقتل في البشر الإحساس بأنهم بشر.

الدقيقة الخامسة: فجأة شعرتُ بأنني لم أعد قادرا على البكاء فقد تحوّلت إلى قطعة من اللحم ملفوفة في قماط خَلِق، مربوط بحبل طويل من القماش نفسه.. فقدتُ في هذا الوضع حرية الحركة، فقدتُ فيه حرية البكاء. ما أفظع أن يفقد الإنسان حريته.! الآن فقط عرفتُ لماذا فقد الإنسان في هذا المجتمع الإحساس بإنسانيته، عرفت لماذا لا يحلم.. لا يتخيّل.. لا يفكّر في حياة أفضل، عرفتُ لماذا لا يختلط حنان الغريزة في نظرات أمي بأي حلم من أحلام الإنسان، عرفتُ أن من يفقد الحرية يفقد إنسانيته، يفقد فطرته التي فطره الله بها. الدقيقة العاشرة.. ها أنا مجرد قطعة من اللحم ملفوفة في قِماط خَلِق، مربوط بحبل سلب منها حرية

الـحركة.. ما أفظع أن يفقد الإنسان حريته.! كيف نعرف الـحقيقة إذا فقدنا حرية البحث عنها؟ كيف نعرف الـحقيقة إذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عنها؟ أن نكشفها لأنفسنا وللآخرين؟ أن نشير إليها ولو مجرد إشارة؟

هذا الفراش الصوفي الـخشن الـمتسخ الذي جرحني عندما انزلقتُ فوقه من بطن أمي، كيف يمكن أن نستبدله بما هو أفضل منه إذا سلبوا مني حرية انتقاده، حرية القول إنه خشن ومتسخ، وغير صالح.. كيف يمكن أن أكتشف الـحقيقة إذا كانوا لا يقفون عند سلب حريتي بأن أقول الـحقيقة عنه؟ بل أجبروني أن أتغنى بجماله الأخاذ، أن أقف كالأبله، أو كمن لا يخجل، وأهتف بحماسة: انظروا إلى هذا الفراش الرائع، إنه من الـحرير الناعم، إنه أنظف فراش في العالم، إنه منسوج بأيدي العباقرة الـملهمين، وأظلُّ أتغنّى بهذا الفراش الذي أحدث في جسمي جرحا سيبقى يؤلمني مدى الـحياة.. كيف يمكن أن يعرف الناس الـحقيقة، إذا فقدوا حرية الكلام عنها؟ وأفظع من ذلك أن يفقدوا حتى حرية السكوت؛ بل يُجبروا بأي وسيلة على أن يقولوا ما هو مناقض للحقيقة.

الدقيقة الـخامسة عشرة: ليس من الضروري أن يسلب الـحاكمُ إنسانية الإنسان بالقوة، ليس من الضروري أن يسلب الـحاكم حريات الناس بأجهزة القمع والإرهاب، هناك وسائل أعنف وأقسى وأبشع. هذا الإمام الذي يحكم اليمن، ويسحق في اليمنيين إحساسهم بإنسانيتهم، ويخنق حرياتهم، ويجعلهم يعيشون كالحيوانات التي لا تحلم ولا تتخيّل ولا تفكّر في حياة أفضل. هذا الإمام الذي جعل حنان أمي حنانا غريزيا أشبه بغريزة الـحيوان، هذا الإمام لم تكن له أجهزة مدرّبة منظمة، ولم تكن لديه قوى خارجية تساعده بالدعم والقوة، ولم تكن لديه أجهزة قمع حقيقية.. ولا جيش حقيقي، ولا أجهزة إعلام تزيف الـحقائق. هذا الإمام كان يدمّر البشر والشجر والحجر والحيوان، كان يدمّر الـحياة كلها بالدجل والخرافات والأباطيل، كان يستر طغيانه الـمتخلف الهمجي بهالة براقة زائفة من القداسة الدينية، كان الناس يعتقدون أنه ظِلُّ الله في الأرض، ولذلك فإنه كان يكتفي بقتل إحساس الإنسان بإنسانيته، وسلب قدرته على التفكير في حياة ومستقبل أفضل، وتخدير شعوره بذاته

وشعوره بالظلم الرهيب الذي يسحقه سحقا، ولم يكن يلجأ إلى أساليب القمع والطغيان إلا مع الذين يُصابون بمرض الإحساس الإنساني، فيبدؤون يحلمون ويتخيّلون ويفكرون بالحرية، ويتطلعون إلى حياة أفضل.. وهكذا فإن تزييف الحقيقة بأي وسيلة أو أسلوب هو أبشع أنواع الطغيان، حتى ولو لم تصاحبه عمليات قمع وإرهاب مادية. إن تزييف الحقيقة لا يمكن أن يكون إلا في غياب الحرية، حرية القول، حرية التفكير، حرية التجمع، حرية التنظيم، حرية الإنسان في أن يحلم، ويتخيّل ويفكّر بصوت عال، ويتحرّك مع الآخرين منظَّما أو منظِّما لتغيير الحياة إلى الأفضل.

الدقائق الباقية من الساعة الأولى.. ها أنا الآن مسجون داخل هذا القِماط الخلِق.. مربوط بهذا الحبل الذي يلتفُّ حول جسمي كالثعبان المخيف. لقد فقدتُ في هذا السجن حرية الحركة، وأشعر الآن بأنني قد بدأتُ أفقد حرية التفكير. لا شك أن المجتمع الذي أصبحتُ جزءا منه يعيش في سجن رهيب، اختفت فيه حريات الناس، وفقدوا الإحساس بالظلم وبالذات الإنسانية. إنني أحسُّ بالإرهاق، أريد أن أنام حتى لا أفكّر، ها أنا أحسُّ بالنعاس يداعب أجفاني، لقد سقط القلم الخيالي من يدي مرات عدة، ليسكت القلم الذي يقول الحقيقة إلى الأبد، هذا ما يريده الذين يحكمون حكما ديكتاتوريا فرديا متخلفا. ونحّيتُ القلم جانبا محاولا أن أنام، ولكن أمي رفعتني إلى حضنها في حنان غريزي جعل كل آلامي تهدأ، ورأيت الدموع في عينيها وعلى خديها، وتمنيتُ لو أن يدي كانت طليقة حرة، لأمسح تلك الدموع التي لا أعرف سببها، وربما كانت أمي لا تعرف السبب أيضا، وضعتني إلى جانبها فوق ذلك الفراش الخشن، ونمتُ نوما عميقا.

الدقيقة الأولى من الساعة الرابعة: ما أشدِّ الاختلاف بين أحلامي عندما كنتُ أعيش في بطن أمي، وبين هذه الأحلام الغريبة التي حلمتُ بها وأنا نائم بجانبها على فراشنا الصوفي الخشن. إن أحلامي في بطن أمي كانت جميلة؛ أما أحلامي وأنا نائم الآن فإنها في الغالب غير جميلة، بعضها مخيف، وبعضها لا يستمر إلا لحظات، وكأنني كنتُ أعيش فيها سنوات طويلة، وكأنني قد أصبحتُ شابا عاش

حياة كاملة بكل أحداثها، وبكل ما فيها من بشر، وحيوانات، وأشجار، وأحداث. رأيت في الأحلام أنني قد أصبحتُ عملاقا ضخما له مئات الأيدي، كنتُ ثائرا على هذا الفراش الصوفي الخشن، انقضضت عليه بكل ما في العملاق من قوة، وتناولته بمئات الأيدي وقطعته إربا إربا، ثم رميتُ به ممزقا إلى الأرض، ووجدت في يدي بساطا حريريا ناعما مطرزا بالزهور، والصور الجميلة، ففرشته بدلا من تلك الفردة الجارحة واسترخيتُ ممتدا عليه، وفجأة طار بي بسرعة البرق إلى عنان السماء، ثم انقلب فهويتُ في الفضاء، وصار الحلمُ الجميل كابوسا مرعبا.

كلُّ شيء في كياني يرتعشُ ويرتعدُ من الخوف، واقتربتُ من الأرض، ورأيت في واديها الجاف وحوشا مفترسة تزأر فاغرة أفواهها تنتظر سقوطي إلى قعر الهاوية، وكانت جوانب الجبال المطلة على الهاوية مغطاة بالثعابين والحيَّات التي كانت تتلوى، وألسنتها تتحرك خارج أفواهها بلا توقف، كانت تنتظر سقوطي لتقطعني إربا إربا، كما قطعت ذلك البساط الملعون الجارح. كان الكابوس فظيعا، وأُغمي عليَّ من شدة الخوف، ثم صحوت من النوم ووجدت أنني لا أزال موجودا في ذلك القماط البالي، مشدودا بذلك الحبل الذي لا يقل بشاعة عن أضخم ثعبان رأيته في النوم، صرختُ مفزوعا، أردت أن أتحرّك. لم أستطع.. لم أعد أفكّر، كنتُ أستنجد بصراخي وبكائي، حملتني أمي إلى حجرها، ثم احتضنتني بحنان غريب، وحاولت أن ترضعني من ثديها الأيمن، ولكنه كان جافا من اللبن، وانتقلت بي إلى ثديها الأيسر، تناولت شفتاي حلمته، وأخذت أتلمّظه بشراهة، وأفرز إلى فمي مادة لزجة كالصمغ، إن هذا ليس لبنا، ولكنني لم أرفضه، أخذت أمتصه بقوة، وإن كنتُ لا أستسيغه، لا أحتجُ أو أثورُ على شيء. بدأت الغريزة تطغى على إنسانيتي، الطعام عندي أهم من الحرية، أهم من التفكير، أهم من الأحلام، ما أفظع أن يجوع الإنسان.! إنه يتحول إلى حيوان ذليل خانع، أو إلى حيوان متوحش مفترس.

الساعة السادسة ظهرا.. خلال الساعات الماضية نمتُ في أحضان أمي، ولا أذكرُ كيف استسلمت للنوم. إنني أتساءل: كيف ينامُ الإنسان؟ لو فكّر الإنسانُ كيف ينام لما استطاع أن ينام، المهم أنني قد عدت إلى النوم، إلى أحلام النوم، وها أنا الآن

قد استيقظت من النوم، ووجدت أنني لا أزال رهن الاعتقال داخل هذا القماط.. لم أعد أغضب من وضعي هذا.. استسلمتُ وأخذتُ أتمنى أن يأتي من يفك الرباط ويخرجني من هذا السجن الرهيب، وأقبلت امرأة لا تزال في عنفوان شبابها، وأخذت تفك الرباط من حول جسمي، وركّزتُ نظراتي على وجهها، إنّ جمالها الهادئ يشوبه مسحة من الحزن، وربما من سوء التغذية أيضا. وعندما أصبحتُ طليقا صرختُ باكيا، ولكن هذه المرة من الفرح. كانت الفتاةُ تحملني بيديها، ثم أخذتْ تمسح جسمي بخرقة مبلولة بالماء الدافئ، ثم وضعتني في قماط آخر، ولفتني بداخله وأنا أبكي وأصرخ محتجا، لقد عدت إلى الاحتجاج من جديد.. الآن عرفت لماذا لا يطلق الديكتاتور سجناءه إلا بعد أن ينزع من نفوسهم القدرة على الاحتجاج، إلا بعد أن يفقدهم الشعور بإنسانيتهم التي تعشق الحرية والحياة والحقيقة.. إلا بعد أن يصبحوا كالحيوانات المدجنة إن استطاع. ها أنا الآن أحتج على إعادتي إلى السجن من جديد. إنني لم أفقد إنسانيتي وأصبح كالحيوان، وانتهت المرأة من إحكام الرباط على جسمي، ثم خرجتْ دون أن تعبأ بصراخي واحتجاجي.

لا أدري كم الساعة الآن؟ ولا أدري كم بقيتُ أصرخ محتجا؟ إنني أشعرُ أن كل شيء في كياني يتخاذل، إرادتي تكاد تفقد كل قوتها، لم أعد أرغب في الاحتجاج أو التمرد، أو حتى الاستنجاد.. لا شك أن الأطفال في هذا المجتمع قد ولدوا وهم مثلي، وحوّلتهم الظروف إلى هذه الأوضاع غير الإنسانية.. ضاعت الحقيقة عن الناس، لأنهم فقدوا الحرية، وعندما فقدوا الحرية فقدوا معها كل شيء، الناس في هذا المجتمع فقدوا روح التمرد، روح الاحتجاج؛ لأنهم فقدوا الحرية وفقدوا الإحساس بالظلم.

وأخذتْ الغريزة في كياني تقوى وتتوغل وتتلاشى معها قدرتي على أن أحلم، أو أتخيّل، أو أفكّر.. انحصر تفكيري كله في الغذاء، شفتاي ولساني وفمي.. كلها تبحثُ عن أي شيء أمتصه كي أطفئ لهيب الجوع في أمعائي.. لم يبق شيء في رأسي أسجله.. آه لو أستطيع أن أحول هذا القلم إلى رضاعة أمتص منها الغذاء. ورميت القلم وصرخت مستنجدا، أطلب من أمي أن تمنحني شيئا من الغذاء. لا

أعتقد أنني سأكتب مذكراتي في الأيام القادمة؛ لأنني بدأتُ أشعرُ أنني لم أعد أفكّر في الحرية، ولم أعد أحلم، ولم أعد أتخيّل.. انحصر كلُّ همي في الغذاء.

وبدأت مسيرة الحياة على الشوك.. لا أدري هل وُفقت في تصوير الظروف التي صاحبت مولدي بذلك الخيال الذي كتبتُ به مذكراتي في اليوم الأول الذي خرجت منه من رحم أمي إلى هذه الدنيا؟! إنه خيال حاول أن يبرز الواقع الذي ولدت فيه، وولد فيه أكثر من 95٪ من الناس في اليمن حينذاك، ومع ذلك فإن الواقع يجعل خيالي عاجزا عن تصويره؛ لكن ما يهمني من ذلك الآن هو أن يكون أسلوب تصوير الواقع بذلك الخيال أسلوبا يرضي القارئ، ويشوقه لمواصلة تفاصيل مراحل الطفولة، والتعليم، والتطوير الفكري.. ثم مراحل الصراع بهدف تغيير الحياة في اليمن إلى الأفضل.. وفي رأيي أن ذكرياتي في كلّ المراحل تحاول إبراز صور الواقع العام للحياة الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والفكرية كما كانت.

الفصل الثاني
البدايات

ها أنا الآن -بعد أن تجاوزتُ خمسة وسبعين عاما من عمري- أبدأ كتابة ذكريات حياتي الحقيقية، وقد فكّرت أن أبدأها بذكريات الشيخوخة، وأنتهي بذكريات سنوات طفولتي الأولى، ثم ألغيت هذا التفكير وبدأت أكتب ذكرياتي، ابتداء من السنة السادسة، فذكريات الإنسان عن سنواته الأربع أو الخمس الأولى لا تستطيع الذاكرة إبراز أي شيء عنها؛ لأنها مخفية في خلايا الذاكرة.

أذكر وأنا في السادسة من عمري أننا كنا نملك عددا من الشياة والماعز تسكن في أمكنة مظلمة بالدور الأرضي، كما كان لدينا عدد من الدجاج تسكن في مكان صغير مبني في حوش البيت الذي نسكنه. وكانت أمي وحدها هي التي ترعاني وأخي أحمد، وترعى معنا الأغنام والدجاج، لأن أبي - كما عرفتُ من أمي - كان أكثر أيامه غائبا في قرية بعيدة، اسمها قرية الهجر من منطقة البروية في بني مطر، تقع على بعد ست ساعات من قرية الجراف التي نعيش فيها، مشيا على الأقدام أو على الحمير.

وذات يوم قالت لي أمي: أنت ستخرج كل يوم مع الراعية التي ترعى أغنامنا وأغنام جيراننا، لتساعدها في رعي الأغنام، حتى لا تأخذ منا أجور رعي أغنامنا، ووجدت نفسي مع الراعية أرعى معها الأغنام.. كانت في حوالي الرابعة عشرة من عمرها، أي أنها أكبر مني بثمان سنوات وكان يأتي معنا أخوها وهو أكبر مني بسنتين. وأحب أن أنبّه هنا إلى أن ذكرياتي عن أيام طفولتي في هذه السن وما بعدها ذكريات في غاية الوضوح، وغالبا أجد أن ذكرياتي للأحداث القديمة أكثر وضوحا وتفصيلا من ذكرياتي الجديدة. كان اسم الراعية أنيسة الخميسي، وكان اسم أخيها يحيى،

ووجدت في رعي الأغنام معهما متعة وسعادة لا حدود لها، وخصوصا أيام ولادة الأغنام لصغارها.

كنا نخرج بالأغنام في الصباح الباكر إلى واد يسمى وادي الحربي، وتُطل عليه جبال محدودة الارتفاع، وفي بعض هذه الجبال كانت توجد خزائن الإمام المطهر، وهي ليست خزائن يخزن فيها أمواله وذهبه، ولكنها ثلاث حفر واسعة وعميقة في أحد الجبال المطلة على وادي الحربي، تمتلئ بماء الأمطار، ويستفيد منها الناس في شربهم وشرب دوابهم.

وكنا نأخذُ معنا أقراصا من خبز حبوب الذرة أو الشعير، واسم قرص الذرة «جحينة» أو «قفوعة»؛ أما خبز الشعير فنسميه «ملوجة»، وكانت أنيسة وقت الغداء تذهب بإناء تحمله معها دائما، وهو تنكة معدنية تُستجلب من خارج اليمن وفيها مادة الكيروسين الذي نسميه «القاز»، وتغرف من خزائن مطهر ما نحتاجه وتحتاجه الأغنام من الماء، ونأكل ما لدينا من خبز الذرة وإدامنا الوحيد هو الماء الذي تجلبه أنيسة من خزائن مطهر.

وأذكرُ أننا الثلاثة كنا حفاة الأقدام، والمسافةُ بين بيوتنا ومنطقة الرعي أكثر من كيلو متر، ولكن كانت أجسامنا قد أفرزت مادة خشنة صلبة في باطن أقدامنا حماية لها من الحفاء. وكان أبي يملك حقولا زراعية في وادي الحربي مزروعة بالذرة البيضاء والصفراء، وكان هذا الموسم بالنسبة لنا موسم «النعمة»، فقد كنا ندخلُ إلى الحقل، ونقطف منه عددا من أكياس الذرة ونسميها «مسبلي» والجمع «مسابل»، ونجمع بعض القش والعيدان اليابسة، وتقوم أنيسة بإشعال النار فيها، ونضع على النار تلك المسابل ونأكلها، وهي ألذّ بكثير من خبز الذرة وماء الخزائن.

وذات يوم ونحن نشوي «المسابل» على النار رأينا رجالا غرباء يحمل كل منهم على كتفه «بندقية»، ولم أكن قد رأيت من قبل مثل هؤلاء.. وعندما اقتربوا منا قالت أنيسة: هؤلاء عسكر الإمام قد يكونون مُنفّذين على القرية، أو على بعض سكان القرية. واقترب عسكر الإمام منا، وصرخ أحدهم فينا: ماذا تفعلون؟ تنهبون «مسابل»

الإمام وتأكلونها، وهجم علينا واستولى على «مسابل الذرة» التي كانت على النار، ثم طردونا إلى خارج الحقل، ولكني تشبثت بالعسكري أطلب منه إعادة المسابل، فرماني على الأرض وقمت أبكي وأصرخ فيه: هذه الجربة.. حق أبي.. هات المسابل حقنا.

فرد قائلا: أنت ابن الحاج عبد اللّه الفسيّل؟ قلتُ له «أيوه»، قال: «أبوك باع الجرب حقه من الإمام»، ولكني بقيتُ أصرخ وأبكي، وجرتني أنيسة، بعيدا عن العسكر، وهدأتني قائلة: عيب الرجال ما تبكي. وبقيتْ صورة عساكر الإمام مطبوعة في ذاكرتي في صور بشعة، عبّر عنها أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري بقوله:

والعسكريُّ بليدٌ بالأذى فطن
كأنّ إبليسَ للطغيان رباه

وذات يوم كنتُ جالسا مع أنيسة وأخيها على الأرض، وبقيت ساكتة لا تتكلم، ولكنها كانت تحفرُ بأصبعها حفرة صغيرة في التراب، ثم قالت لي:

يا محمد.. متى يعود أبوك؟

قلت لها: قالت أمي إنه سيعود في العيد..

قالت: إنه لن يعود.. لقد مات ودفنوه تحت التراب..

ولم أفهم معنى مات، ولا معنى ودفنوه تحت التراب، وعندما عدتُ إلى أمي بعد المغرب أخبرتها بما قالت أنيسة: فصرخت: فال الله ولا فالها.. ثم لبست ملابس الخروج بعد صلاة العشاء، وأخذتني معها إلى بيت عاقل الحارة السيد محمد مرغم، وتحدثت معه ثم رأيتها تلطم وجهها وهي تبكي، وعدنا إلى بيتنا، وأنا لا أعرف لماذا تبكي، وبعد قليل حضرت بعضُ النسوة من جيراننا، وبقين مع أمي وأخذن في البكاء معها، وعندما عدنا إلى بيتنا ضمّتني أمي وضمّت أخي أحمد وهي تبكي، وبدأت أبكي معها دون أن أعرف المصاب الذي أصابنا بموت أبي.

سألت أمي: هل سيعود أبي في العيد؟ قالت: لا، إنه قد مات ودفنوه تحت التراب، وسأكون الأم والأب لكم، حتى تكبروا وتصبحوا رجالا.

وبقيتُ أرعى الأغنام مع أنيسة وأخيها، وذات يوم صعدنا إلى الجبل، وكانت الأغنامُ ترعى في سفح الجبل، وفي عوارضه، وفجأة رأينا الأغنام تفرُّ هاربة في كل الجهات، وصاحت أنيسة: الذيب.. الذيب. وأخذت ترميه بالحجارة، وأخذنا أنا وأخوها نرميه بالحجار، ونصرخ الثلاثة مستنجدين، وكاد الذئب يفترس إحدى الأغنام، ولكن أنيسة رمته بالحجر، وأخذت تدقّ بيدها على تنكة الماء التي أحدثت صوتا قويا جعلت الذئب يفزع.. وكان بعض المزارعين قريبين منها فهبوا لنجدتنا وأنقذونا، وأنقذوا الأغنام من الذئب.

وعندما عدنا وقت المغرب ذهبت إلى المسجد، وكان جلد يدي وقدمي «مضروبا» ربما تعبيرا عن ضربة البرد التي شققت الجلد، وجعلت الدم يخرج منه. وفي المسجد رأيت بعض الرجال يغمسون أصابعهم في زيت «مسرجة» المسجد، ويدهنون أيديهم وأرجلهم المضروبة، وكذلك يضعون الزيت في أنقاع أقدامهم، ففعلت مثلهم. وعندما عدت إلى أمي أخبرتها بقصة الذئب، وأخبرتها إنني دهنت يدي ورجلي بزيت مسرجة المسجد. وقد فزعَتْ من قصة الذئب، وأرادت أن تمنعني من الذهاب مع الراعية لرعي الأغنام فرفضت ذلك وبكيت.

ثم قالت لي: إن زيت «سليط» المسجد وقف لا يجوز أن يستخدمه أحد إلا لمصلحة المسجد: ثم قامت وأخذتني معها وتركت أخي أحمد عند جارتنا، وقد أخذت معها كمية من زيت الجلجلان، واتجهت به إلى المسجد. وهناك أشعلت «قزازة» فيها «القاز» ودخلت إلى «مطاهير» المسجد، وصبت في المسارج الموجودة هناك ما أحضرته من زيت، تعويضا مضاعفا عما استخدمته أنا من زيت المسجد في دهن يدي وقدمي، ثم قالت لي: لا تفعل هذا مرة أخرى، وإلا فإن الله سوف يعاقبك؛ لأن زيت المسجد وقف، وبقي هذا الموضوع حيا في ذاكرتي حتى اليوم، يجعلني أقدس حق الوقف، وأمتنع من أي عمل قد يكون فيه شبهة تمسّ حرمة «الوقف».

الانتقال إلى صنعاء والشعور باليتم

وعقب موت أبي لم أكن أشعرُ باليُتم؛ لأنه كان لا يمكث في بيتنا إلا في فترات متقطعة، وسرعان ما يعودُ إلى مقر عمله في قرية الهجر البروية، وكنتُ أصغر من أن أعي مكوثه وغيابه. لقد كانت أمي بالنسبة لي ولأخي الوجود كله في هذا البيت.

وذات يوم طرق باب بيتنا رجل أو رجال لا أعرفهم، كانوا يلبسون ملابس الفقهاء، العمامة على الرأس، والقميص بأكمامه العريضة والطويلة المعقودة إلى وراء العنق، والحزام و«الجنبية»، كما كانوا ينتعلون أحذية في أقدامهم. وأمرتني أمي أنا وأخي أحمد قائلة: سلّموا على عمكم القاضي أحمد، وفعلا قمنا وسلّمنا عليه، والسلام من الصغير على الكبير هي الانحناء وتقبيل ركب الكبير. وبعد أن تحاور مع أمي قام معها وحصر ما في البيت، وأخذ الأوراق الموجودة في البيت، ثم عاد إلى صنعاء.

وفي اليوم التالي عاد عمي أحمد مرة أخرى، ومعه أكثر من حمار، ونقلنا جميعا إلى صنعاء، لنعيش في بيت أولاد أعمامي وأهمهم القاضي محمد – وكان وكيلا للإمام في شراء الأراضي الزراعية، والقاضي محسن، وكان مسؤولا عن الأراضي الزراعية المملوكة للعائلة؛ أما عمي أحمد فقد عرفت فيما بعد أنه كان أمين صندوق «المدرسة العلمية». ووجدنا في هذا البيت الواسع المكون من عدة بيوت مترابطة أولاد أعمامنا، منهم الأكبر أو الأصغر منا سنا.

كنتُ أرى صنعاء لأول مرة، فهالتني ضخامتها بالنسبة للقرية التي أتيت منها. وبدأت أتأقلم على العيش في صنعاء وفي بيت عمي محمد، وعلى اللعب مع الأولاد في حارة المنطقة، ولكني كنتُ أحنُّ إلى قرية الجراف وإلى رعي الأغنام.. وكانت القرية بما فيها أحبَّ إليّ من صنعاء، ومن بيت عمي، ومن أولاد الحارة الذين كثيرا ما كانوا يتشاجرون ويتعاركون، ويتحرشون بي وبأخي، بسبب أو بدون سبب.

ومرَّت الأيام والشهور.. ونحن نعيش في بيت عمي.. كنتُ أرى أمي مرهقة

وحزينة في غالب الأوقات.. وكنتُ مع أخي لا نرتاح للعب مع أولاد الحارة، وغالبا ما نعود إلى بستان البيت، لنلعب وحدنا تحت الأشجار. وبعد أيام وجدتُ أن بنت عمي محمد تلعب معنا، كان اسمها علية وكانت مرحة لطيفة، بعكس أولاد الحارة، ومع ذلك بقي حنيني وشوقي إلى بيتنا في قرية الجراف.

وقبل حلول عيد الأضحى بأيام وجدتُ في البستان عددا من الكباش، سرعان ما قامت بيني وبينها علاقة لعب ومرح، كنتُ أحبها وأعتقد أنها كانت تحبني، ولا تغضب عندما أركب على ظهر أي منها. وفي صباح يوم العيد أقبل رجال لا أعرفهم وأخذوا الكباش، ورأيتهم يبطحونها أرضا، ويذبحون أعناقها بالسكاكين، فيتدفّق الدم من أعناقها، بينما أرجلها تركل التراب والهواء. وتملّكني الخوف والفزع، لأني ظننت أنهم سيذبحونني كما ذبحوا الكباش التي أحبها. وذهبتُ أبحثُ عن أمي فوجدتها في المطبخ «الديمة» تخبز الخبز في التنور، فأمرتني أن أذهب إلى غرفة النوم التي ننام فيها حتى تأتي، وعندما أتت كانت تحمل ثلاث قطع من خبز الحنطة مدهونة بالسمن، وأكلت أنا وأخي أحمد، أما هي فلم تأكل وقالت سوف آكل مع النساء. وألبستني «زنة-ثوب» من القماش «القلمي» المخطط المصنوع من القطن، وكذلك ألبست أخي مثل ذلك، ووضعت على رأس كلٍّ منا كوفية من القماش المبطن.

وذهبنا لنسلّم على أعمامنا فأعطاني عمي محمد «بقشة»، وأعطى أخي كذلك «عسب» العيد، والبقشة جزء من أربعين جزءا من الريال «الفرانصي»، وهو عملة نمساوية قديمة للملكة ماريا تريزا. وربما كانت الكلمة تعنى «فرنسي»، وخرجنا إلى الشارع ووجدتُ أولاد عمي يلبسون «زنين» من القماش الحرير الذي كان يسمّى «الحرير المصري»، فعدتُ إلى أمي باكيا، أطلب منها أن تلبسني زنه حرير مصري مثل أولاد عمي، ولم أكن أعرف أنني بهذا أثير في نفسها أشد الألم، كما أنني لم أكن أعرف ما تتكبده من حزن ومعاناة، وبعد أن قبّلتني قالت لي: غدا سوف أشتري لك زنة الحرير من السوق.

وفي اليوم الثاني للعيد أيقظتنا أمي قبل شروق الشمس، وتسلّلت بنا من أحد

الأبواب الخلفية، وأسرعت بنا إلى ميدان شرارة «ميدان التحرير الآن»، ووجدنا هناك رجلا ينتظر مع حمارين، ركبت أنا وصاحب الحمارين على أحدهما، وركبت أمي وأخي أحمد على الحمار الآخر، وسرنا حتى وصلنا إلى بيتنا في الجراف، وصعدنا إلى الدور الثاني الذي كنا نسكنه عادة، ودخلنا إلى غرفة النوم، وهنا ضمتنا أمي بحنان إلى صدرها وانفجرت تبكي بكاء شديدا، وبكيتُ معها دون أن أعرف لماذا تبكي، وعندما سمعت طرقا على الباب، جفّفت دموعها ومسحتها من على خديها، وذهبت لتفتح الباب لجارتنا التي كانت أمي قد كلّفتها بحراسة البيت ورعاية الدجاج والأغنام كما عرفت فيما بعد، وأحضرت لنا جارتنا «ظرفا» من اللبن، وقليلا من كعك العيد، فأكلنا جميعا، ولكني أكلتُ بسرعة حتى أتمكّن من اللحاق بأنيسة وأخيها، لنرعى الأغنام حول خزائن مطهر، وعندما أردت الخروج أمرتني أمي بالجلوس، وبعد خروج جارتنا قالت لي بحنان مصحوب بالصرامة: اسمع يا محمد، أنت الآن في السادسة من عمرك، ولذلك لن تذهب مع أنيسة وأخيها لترعى الأغنام، ولكنك ستدخل «المعلامة» لتتعلم الكتابة والحساب، وتحفظ القرآن، وتكون عالما مثل والدك وعمك علي، وحاولت أن أرفض، وأحتج؛ لكنها قالت لي: أنت ستسمع الكلام، أو «أدي لك العصية»، يعني العصا.

قرّرت أمي إدخالي معلامة القرية حتى أتعلم الكتابة والقراءة وأحفظ القرآن.. وكانت المعلامة عبارة عن غرفة ملحقة بمسجد من مساجد القرية، وأمام المسجد مقبرة يقبر الناس موتاهم فيها.. وكنتُ قد عرفت ما معنى الموت، وكثيرا ما أقف أمام المقبرة وأشاهد القبور، وأتذكر أن أبي مات ودفنوه في قبر من قبور قرية الهجر، فأشعر بالحزن والحيرة وأتساءل: لماذا يموت الناس؟ ولكن كان لديّ انطباع بأن الميت المقبور سيبقى في القبر فترة ثم يعود إلى بيته مثلما كان أبي يعود إلينا بعد غيابه، وبدأتُ أتعلّم في المعلامة، وكنتُ حينذاك في السادسة من العمر.

كان المعلم في المعلامة رجلا قصير القامة، يلبس لباس الفقهاء والقضاة، وكنا نناديه: سيدنا محمد الثلايا.. كان معلما طيبا، يحاول أن يرغّب الأطفال للاهتمام بالقراءة بدون عنف، ولا أذكر أنه ضرب طفلا خلال الفترة التي قرأتُ فيها

لديه، ولم أعد أذكر أي زميل من زملائي في المعلامة. وفي نهاية اليوم الدراسي كان سيدنا يخرج بنا لنتوضّأ في «مطاهير» المسجد، ويعلمنا كيف نتوضّأ، ثم ندخل إلى المسجد ونصلي خلف الكبار صلاة الظهر، وبعدها أعود إلى البيت، وآكلُ ما تقدّمه أمي من وجبة الغداء، ثم أذهب إلى حيث توجد أنيسة وأخوها مع الأغنام.

حياة الناس في القرية

ذات يوم عدتُ إلى البيت ولم أجد أمي، إنما وجدتُ جارتنا وأذكر أنها من بيت الغيثي، وقدمت لي ولأخي الأكل، وكان غالبا مكوّنا من خبز مفتوت مغلي بالمطيط نسميه «النشوف»، وفي هذه المرة رأينا في أعلى النشوف خيوطا من السمن، وهذا يعني أن الأكلة غير عادية، وأخبرتنا أن أمي قد دخلت إلى صنعاء، وربما تدخل كل يوم وتعود في المساء، لأن أهلها يحتاجونها، ولم أكن أعرف من هم أهل أمي.

أتذكّرُ الآن كيف كانت المحاصيل الزراعية في قرية الجراف.. كانت حظائر العنب والفواكه من «الفرسك» و«الرمان» و«السفرجل» تابعة لبيوت الأهالي عادة، وكان بجانب كل حظيرة بير تستخدم الحيوانات «الحمير»، أو الثيران لنزع الماء منها للشرب، وسقي أشجار الحظائر. وكانت حظيرة العنب والفواكه التابعة لبيتنا تمدنا في فصل «الخريف» بالعنب والفواكه، فنأكل منها ما يكفينا، أما ما زاد فقد كانت أمي تستأجر حمارا، ليحمل ما تجمعه من عنب، ورمان في صناديق خشبية إلى صنعاء، لتبيعه في السوق، أو على أُسر تعرفها، وتتعامل معها. أما المحصول الزراعي المهم فهو الحبوب، وأهمها الذرة البيضاء، والصفراء، والحمراء، وبين أشجار الذرة كان المزارعون يزرعون «الدجرة»، وفي الشتاء يزرعون ــ إذا منَّ الله بالمطر- الشعير، والبر، والعدس، والحلبة.

وكان السيد عباس المؤيد يملك أكثر المساحات الزراعية في القرية، وعندما تنضج محاصيل الذرة في الحقول كان رجال القرية يساعدونه في جني المحاصيل، وتحملها الجمال والحمير والبغال إلى «جرن» السيد عباس القريب من داره، ويسمون هذا العمل التطوعي «العانة»، ويعني ذلك معاونة من يتبرعون بإعانته. وبعد جفاف مسابل الذرة في

الـجرن، يتجمّع الرجال مرة أخرى لإزالة الـحبوب من الـمسابل بأعواد طويلة من الـخشب. وتستخدم الـحمير أيضا في ذلك، بعد أن يضعوا على عيونها حاجبا من القماش، لا ترى منه إلا ما أمامها، ويربطون كل حمارين بحبل، لتدور وتدوس مسابل الذرة.

وأذكر أن الـمحصول كان وفيرا يصل إلى عشرات أو مئات الأقداح، وكان أطفال القرية –وأنا منهم– يحضرون هذه العملية في الـجرن، وبعد تصفية الـحبوب من الشوائب يبدأ الكيالون يكيلونها لمعرفة كمية الـمحصول، ويملؤون بها أكياسا مخصوصة لذلك. كان السيد عباس الـمؤيد عند الكيل يأمر بإعطاء الأسر التي ليس لها محصول من أراضيها كمية في حدود قدح أو نصف قدح أو ربع قدح، وكانت أسرتنا ممن ينالون هذه الصدقة. وكان السيد عباس الـمؤيد أهم شخصية في القرية، ومرجعا من مراجعها، كما كان أخوه يوسف شخصية عرفتُ فيما بعد أنه أقل ثروة من أخيه، ولكنه كان عالما فقيها، له إلمام كبير بالأدب والشعر والتاريخ، كما عرفتُ أيضا فيما بعد أنه كان معارضا لسياسة الإمام يحيى، وأنه هرب من اليمن عندما شعر أن الإمام يريد أن يزجَّ به في سجن القلعة في صنعاء، والقلعة التي فيها السجن هي قصر غمدان في الطرف الشرقي من مدينة صنعاء، وكانوا يسمّونه «قصر السلاح»، وبعد أن تشفّع له أخوه عباس لدى الإمام أعطاه الأمان فعاد إلى بيته في الـجراف مرة أخرى.

العلامة حمود عباس المؤيد

وقد كنتُ ألعب مع أولاده الصغار ومنهم كما أذكر عبد اللّه، ولم أعد أذكر بقية أسماء الآخرين، وأحيانا كنا نصعد إلى الديوان الذي يجلس فيه والدهم السيد يوسف، وفي هذا الديوان كنتُ أشعر شعورا غامضا بالهيبة التي يضفيها السيد يوسف على الـمجلس، وهو جالس في صدر الـمكان، وعن يمينه وشماله يجلسُ أولاد أخيه العباس الكبار يقرأ عليهم من كتاب، ثم يتناقشون دون أن أعرف أو أفهم مما يقرؤونه ويناقشونه شيئا. وكانت تعيشُ في

الـجراف فصيلة أخرى من آل الفسيّل، وربما كان بعضهم يحضر مجالس العلم في بيت السيد يوسف الـمؤيد، ولا أدري كيف انتقل أبي، وانتقلت هذه الفصيلة من «وادي بقلان» في بني مطر – في الـجنوب الغربي من صنعاء على بعد ثلاث أو أربع ساعات مشيا أو ركوبا على حمار – إلى قرية الـجراف.

ومرّت الأيام والشهور، وأنا أقرأ في «الـمعلامة»، وأذكر أنني حفظت فيها حروف الهجاء، وبدأت أكتبها في لوح من الـخشب الـمصبوغ «بالنيل» وهو مادة سوداء؛ أما القلم الذي نكتبُ به فقد كان من قصب «الـحلال»، بعد أن نغمسه في مادة بيضاء كنا نسميها «الغضار»، وكان معلمنا الطيب سيدنا محمد الثلايا هو الذي يوفرهما لنا. وكنتُ أقدّم له كل يوم خميس خمسا أو ستا من بيض دجاجنا، بدلا من «البقشة» أو البقشتين، أو الأربع بقش، وهو ما يقدّمه زملائي الآخرون له عادة، وقد حفظت في الـمعلامة الأعداد من الواحد إلى الـمئات، وتعلّمت طريقة الـجمع الـحسابية. وكنتُ أعود من الـمعلامة دون أن أجد أمي في البيت، وتحلُّ محلّها في رعايتنا وإطعامنا وجبة الغذاء جارتنا الطيبة.

العـودة إلى صنعـاء

ذات يوم قالت لي أمي: لا تذهب إلى الـمعلامة اليوم لأننا سنعود لنعيش في صنعاء، فاحتجبتُ وبكيت وقلت لها: لا أريد أن نعود إلى صنعاء، وإلى بيت أعمامي، فقالت لي: لا تخف.. سنعود إلى بيتنا في صنعاء، فقد اشتريت لكم بيتا فيها. كانت تكلّمني وهي مشغولة بجمع الأثاث البسيط الموجود في بيتنا، ثم أعطتني كيسا فيه بعض الأواني الفخارية، لأحمله إلى حوش البيت. ووجدتُ في الـحوش عددا من الـحمير ومعها صاحبها، وبعد أن قام بتحميل الأثاث على الـحمير، ركبت أمي وأخي أحمد على حمار، وركبت أنا على حمار آخر، ودخلنا إلى صنعاء، وأنا حزين على فراق القرية، وفراق الـمعلامة، وفراق سيدنا محمد الثلايا، وفراق أنيسة وأخيها، وفراق الغنم.

وكان البيت الذي اشترته أمي يقع في حارة الفليحي، وهي من أهم حارات

صنعاء، ويسكنها غالبا القضاة، والسادة، وطلبة العلم. وقد أخبرتني أمي فيما بعد كيف اشترت البيت في صنعاء. كانت تملك قليلا من الحلي الذهبية، وعِقدا من حبات الفضة الكبيرة، وعِقدا من المرجان الأحمر.. كانت تدخل إلى صنعاء يوميا للبحث عن البيت، وتجمع قيمة ما تبيعه من البيض والسمن وتحوّل القيمة إلى الريالات «الفرانصي» الفضية، وتحتفظ بها في كيس تضعه تحت ثيابها في أسفل الصندوق الخشبي.. وبعد أن وجدت البيت الصغير في حارة الفليحي، ذهبت بحليها لتبيعها في سوق المخلاص – أي الفضة – وربما معنى «المخلاص» الخالص من الفضة والذهب غير المغشوش بمادة أخرى.

وكان الصاغة في هذا السوق من اليهود، وبعد أن عرضت أمي حليها على عدد من الصاغة وجدت أن ثمنها وما جمعته من قيمة البيض والدجاج والسمن لا يزيد على مئة وعشرة ريالات، وقيمة البيت مئة وخمسون ريالا، فذهبت بحليها إلى يحيى البديحي، وهو أكبر تاجر يهودي في سوق المخلاص لتبيعها له، وكان ثمنها لا يزيد على ثمانين ريالا، فقدّمت أمي له كيسا فيه ثلاثين ريالا كانت قد وفرّتها خلال السنوات الماضية، وقالت له: هذا كل ما لديّ، وقيمة البيت مئة وخمسون ريالا، وأنا أرملة أعولُ أطفالي، فإذا فعلت خيرا واشتريت لي البيت، وتبقى بصيرته لديك، حتى أدفع لك بقية ثمن البيت فإن الله سيتقبّل منك ويزيد في رزقك. وكان يحيى البديحي معروفا بفعل الخير، وهو ضخم الجثة ويركب من قاع اليهود إلى دكانه في سوق المخلاص على حمار «فاره» وتعوّد أولاد صنعاء على عدم إيذائه، كما يؤذون اليهود الآخرين الذين يركبون الحمير.

قالت لي أمي: اشترى يحيى البديحي الحلي، بثمانين ريالا واستلم مني ثلاثين ريالا، وبقي من قيمة البيت أربعون ريالا دفعها لبائع البيت بعد أن تأكّد من صحة البصيرة. وكانت أمي قبل عودتنا إلى صنعاء قد باعت الأغنام، وباعت بعض الدجاج، وحملت بعضها الآخر إلى صنعاء. كان البيت الذي اشترته أمي صغيرا مكونا من ثلاثة أدوار، الدور الأول فيه المطحن، والبير، والحمام، وحرّ صغير للدجاج، وفوق المطحن والحرّ خزانة كانت أمي تعلف فيها قبل عيد

الأضحى كبشين تبيعهما في السوق أضحية للعيد. وفي الدور الثاني حُجرة صغيرة، وغرفة صغيرة نوافذها تطلُّ على الشارع. أما الدور الثالث فقد كان فيه غرفة صغيرة وبجانبها الديمة، وخارجهما مساحة صغيرة جدا يمتد منها سلم الخشب نطلع فيه إلى «الجبا»، أي سطح المنزل، وكانت مساحة أرضية بيتنا أقل من خمسة أمتار، ولكن الذي بناه كان عقله عقل مهندس كبير، بنى في هذه المساحة بيتا عامرا كل شيء فيه بقدر، وكان يقع على الطريق الرئيسي الترابي وعرض الطريق لا يزيد على خمسة أمتار، وعلى ناصيته شارع فرعي لا يزيد عرضه على ثلاثة أمتار. وكان بيتنا أصغر بيت في الحارة، ولكننا كنا نعتبره أكبر من قصر الإمام كما كانت أمي تقول لنا.

أهم شخص في حياتي

في اليوم الأول الذي دخلنا فيه إلى بيتنا هذا انشغلت أمي بتنظيف البيت، وترتيب الأثاث البسيط وتحسين «حرّ الدجاج»، ونزع الماء من البير. ثم الذهاب إلى السوق، وشراء ما نحتاجُ من حبوب وسكر وقشر وملح وحطب وأشياء أخرى. كما ذبحت «فرخة» صغيرة تسمّى «شُقري» فدوا للبيت، بدلا من ذبح كبش أسود يطرد الجن والشياطين، وهكذا أكلنا لحم الشقري وشربنا بعض المرق، وأكلنا ما أحضرته أمي لنا من «جحين» الذرة على بقية المرق.. وكان يوما مشهودا ليس فيه عصيد ولا مطيط.

وفي اليوم التالي نصحتنا أمي أن نخرج إلى الشارع نلعب ونتعرّف على الناس والأولاد، وأن نكون مؤدبين لا نؤذي أحدا، وإذا تحرّش بنا أحد نبتعد عنه بدون أن نتحرّش به. وقبل خروجنا إلى الشارع جاءت امرأة من الجيران ومعها طفلان لزيارتنا، وكانوا أول من عرفناهم في الحارة. وبقيت المرأة مع أمي، أما أنا وأخي أحمد فقد خرجنا مع ولديها لنلعب في الشارع، كان أكبرهما اسمه أحمد محمد الشامي، وهو أكبر مني، وكان أصغرهما عبد الوهاب محمد الشامي وأنا أكبر منه بسنة. وهكذا كان أحمد وعبد الوهاب الشامي أول من عرفتهما في حارة الفليحي، ولم أكن أتصوّر

أن هذه المعرفة ستتحول إلى صداقة العمر كله، ولا أنها ستكون بداية لتطورات كبيرة في حياتنا جميعا، وربما في حياة بلادنا اليمن.

كانا يتيمين، مات أبوهما غريبا في مكة، وكنتُ وأخي مثلهما يتيمين مات والدنا غريبا عن بيته في قرية بعيدة، وكانت أمهما أرملة قرّرت أن تعيش لهما وبهما دون أن تفكّر في الزواج. وكانت أمي أيضا أرملة قرّرت أن تعيش لنا وبنا دون أن تتزوج، فكانت حياة الأسرتين وأوضاعهما متشابهة، كانوا فقراء وكنا أفقر منهم بكثير، وكانت كلٌّ من الأرملتين تحاولُ أن تربّي أولادها أحسن تربية، وأن تعلّمهم أحسن تعليم، وأن تغرس في نفوسهم الشعور بالعزة والكرامة، بدلا من الشعور باليُتم والفقر. كان اللقاء بين الأسرتين في أواخر عام 1350هـ-1932، هذه البداية قبل أكثر من تسعين عاما تقريبا تجاوز خلالها أحمد وعبد الوهاب الشامي ومحمد الفسيّل مراحل الطفولة إلى مرحلة الشباب معا في تطوّر حاسم، أصبحوا علماء وأدباء وشعراء ومثقفين وثوارا، يصارعون الطغيان ويساهمون في تحريك «رياح التغيير في اليمن» ابتداء من عام 1943، وحتى ثورة الدستور في 17 فبراير عام 1948 وما بعدها من أحداث.

محمد الفسيّل وأحمد الشامي في شبابهما

ويعد «رياح التغيير في اليمن» هو الكتاب الذي ألّفه وأصدره صديق العمر أحمد الشامي وسجّل فيه ذكريات من سيرته الذاتية، وقد ذكرني كثيرا فيه وقال: إنني أول حيوان ناطق عرفه في حياته، وقد ظن كثيرون أن عبارته هذه عني ستضايقني، وأنها نوع من السخرية بي، ولكنها لم تضايقني قط؛ بل بالعكس لقد اعتبرتها تعبيرا عن عمق تأثيري في حياته، وعمق تأثيره في حياتي، بحيث أصبحت في ذاكرته أول حيوان ناطق عرفه، وهو تعريف قديم للإنسان، تجاوزه الواقع بوجود ببغاء ناطق، وصار الآن أدق تعريف للإنسان أنه «حيوان يكتب تاريخه» فهذه الصفة أو التعريف لا يشاركه فيها أي حيوان آخر. وقد كتب أحمد الشامي تاريخ حياته في كتابه «رياح التغيير في اليمن»، وها أنا أكتب تاريخ حياتي، وإذنْ فكلانا حيوان ناطق يكتب تاريخه، وبهذا أجمع بين التعريفين القديم والحديث، سيكون صديقي أحمد الشامي رفيقي في أكثر ذكرياتي، كما كان رفيقي في الحياة. وقد وجدتُ أخطاء كثيرة في ذكريات صديقي يجب أن تُصحّح، ولذلك صححتُها في فصول أخرى من ذكرياتي عند ورود ما يجب تصحيحه.

الفصل الثالث
اكتشاف حارة الفليحي

عندما انتقلنا من قرية الجراف إلى بيتنا الجديد العامر في حارة الفليحي كنتُ في السابعة من عمري، وفي هذا الوقت التقيت بصديقي أحمد الشامي لأول مرة. وأريد أن أصحّح هنا ما ذكره صديقي أحمد الشامي عني وعنه، فقد ذكر في مذكراته «رياح التغيير في اليمن» أنه ولد في الضالع يوم 25 جمادي الآخر 1342هـ-2 يناير 1924، بينما ولدت أنا في 14 صفر 1345هـ -26 ديسمبر 1926، وعليه فهو أكبر مني بعامين وسبعة أشهر.

وقد ذكر في مذكراته «رياح التغيير في اليمن»، ص 106، أن أول لقاء تمَّ بيني وبينه في سنة 1348هـ-1929، وهذا غير صحيح، لأنه يعني أنني التقيتُ به وعمري أربع سنوات تقريبا، بينما التقيتُ به وعمري ست سنوات ونصف تقريبا، أي أننا التقينا معا لأول مرة عام 1351هـ-1932. وبدون تفكير وجدنا أنفسنا نقوم باكتشاف حارة الفليحي وما حولها كما يقوم الجغرافيون باكتشاف قارة من قارات الأرض؛ لأن حارة الفليحي كانت أهم حارة في صنعاء.

وقد اكتشفتُ حارة الفليحي، وربما كان صديقي أحمد الشامي قد اكتشف ذلك قبل مجيئي إلى الحارة. كان أمام بيتنا شمالا بيت كبير بحوش واسع هو بيت المنصور، وكان ربُّ البيت موظفا كبيرا لدى الإمام أو عاملا لناحية من النواحي، أي أنه مدير ناحية، وفي بيته بغلة ربما من بغال الإمام، وكان ولده عبد اللّه أصغر مني؛ أما ولده أحمد فقد كان أكبر من أن يلعب معنا. وأسرة آل المنصور من السادة العلماء، ومن نسل أئمة حكموا اليمن في فترة من فترات التاريخ، ويفصلُ بين بيتنا وبيته الكبير الواسع بيت وزقاق ضيق مسدود في آخره.

فإذا دخلنا هذا الزقاق فسنجد في أوله بيت الكبسي، وهو من السادة أيضا، ولكنه محدود العلم، ويقابله من الجنوب بيت محمد لقمان وهو عالم، وله ولد اسمه علي، قرأت معه في المعلامة، ثم في المدرسة العلمية، ثم يأتي مجاورا له بيت القاضي محمد أحمد المجاهد، وعمه القاضي يحيى. وآل المجاهد أسرة كبيرة متفرّعة، أصلها من مدينة تعز، ويوجد «نقائل» منها في صنعاء وفي ذمار وفي حجة. وقد تزوجتُ ابنة القاضي محمد المجاهد في 7 أكتوبر 1963، بعد قيام ثورة 26 سبتمبر 1962، ولا تزال زوجتي ومعشوقتي وأم أولادي حتى اليوم، ويقابله من جهة الشمال بيت القاضي حسن بن علي المغربي، وهو عالم وفقيه كبير، وكان قاضيا في محكمة الاستئناف، وهي أعلى درجات القضاء. وكان ابنه علي قد أصبح شابا وفقيها، ولا أذكر أن له أولادا صغارا لعبوا معنا، وقد قُتل ابنه في نهب صنعاء عام 1948 برصاصة طائشة، ويأتي مجاورا له بيت السراجي، وهم من السادة الذين لم يتبحّروا في العلوم.

ويلي ذلك بيت عبد اللّه وعبد الرحمن الحليلي، وكانت علاقتنا بهم وثيقة، وفهمت من أمي أن بيننا قرابة بعيدة، وكان عبد اللّه الحليلي أكبر من أن يلعب معنا؛ أما أخوه عبد الرحمن فقد كان يلعب معنا أحيانا برغم أنه كان أكبر منا سنا. عبد الرحمن الحليلي هذا صار فيما بعد أشهر نشاد في أعراس صنعاء، ويحفظ قصائد كثيرة يتغنّى بها في الأعراس وفي المآتم بصوته الجميل. وفي مقابل بيت الحليلي بيت الشامي، ولهم فرع في الجراف، وأذكر أنهم من التجار الصغار الذين لهم دكان في سوق الحلقة. فإذا عدنا من هذا الزقاق إلى الشارع الرئيسي فسنجد أمام بيتنا شرقا بيت سام ويسكنه السيد محمد سام وهو عالم وفقيه وأديب.

وسنجد هناك أيضا بيت الغيثي، ومهنتهم النجارة، وبيت الزلب، وهم من فئة الفقهاء القضاة، ولم يبق لهم من ذلك إلا التوارث والعرف، إذ كانوا يشتغلون في التجارة. وبجوارهم بيت الحيفي، وهي أسرة كبيرة، أكثرهم يتولّون مناصب وظيفية مهمة، وبجواره بيت الخاوي، ولهم مخبازة مشهورة في سوق العرج،

وكان والدهم سعد الـخاوي أشهر خباز في صنعاء تقريبا، وكان ابنه سعد أكبر منا، ونادرا ما كان يلعب معنا؛ لأنه كان يساعد والده في الـمخبازة، أما أخوه عبد اللّه فقد كان في سننا، وكثيرا ما لعب معنا في «الصرحة»، وكان بجانبه بيت زبارة، ولكن رب الأسـرة لم يكن يمكث إلا نادرا، ولعله موظف كـبيـر في ناحية بعيدة.

وما دمنا قد ذكرنا منازل بعض السكان، فلا بدَّ أن أشير إلى أن مسجد الفليحي كان فيه أكثر من عشرين «منزلة» معمورة فوق مطاهير الـمسجد، ويسكنها أكثر من ثلاثين طالبا للعلم، وهؤلاء الطلبة يعيشون من الصدقات، وكانت بعض الأسر تتكفّل بإعطاء طالب من الطلاب بعض الـخبز، ولطالب معين آخر من الطلبة، وقد تعطيه مع الـخبز بعض الإدام، وعادة كان الناس يسمون الطالب «مهاجر» أي أنه هاجر من بيته لطلب العلم.

إذا تجاوزنا حدود حارة الفليحي غربا إلى حارة العَلَمي فسنجد فيها بيوتات علم كبيرة، منهم السيد محمد إسماعيل الـمنصور، وابنه محمد بن محمد إسماعيل الـمنصور، وهما من العلماء الفضلاء، ومنهم السيد عبد الـخالق الأمير، وهو عالـم لم يكن الإمـام يحـيى راضـيـا عنه، فـوظّفـه في «القـمـسـيـون»، وهي كلمـة تركـيـة تعني دائرة التجنيد لمن يدخلون عسكرا في الـجيش. وأذكر أنني سـمـعت حـينذاك أن السـيـد قـاسم العـزي ذهب إلى الإمـام يحـيى في مواجـهـة وقـال له: وظّفتم الصنو عبد الـخالق في القمسيون، وهذا مثلما «يشغبوا» يحرثوا بالـحصان.. ولا يليق بكم ولا به ذلك.

عبدالكريم الأمير

كـمـا لا أنسى هنا أسـرة العـالـم الأديب والشاعر الكبير عبد الكريم الأمير، وكان مجلسه زاخرا بالأدباء والعلماء والشعراء والـمناقشات

العلمية والأدبية، وكنتُ أحضر مجلسه مع صديقي أحمد الشامي ونستفيد منه وممن يحضر فيه. وهناك أسرة آل العمراني، وهي من أسر العلم المشهورة حتى اليوم، ومنها القاضي محمد العمراني من أبرز فقهاء الجمهورية.

وأذكر كذلك، سنيدار المسجد الحاج أحمد الخولاني الذي كنا نراه من أولياء الله. وسنيدار المسجد ليس هو الذي يؤم الناس في الصلوات الخمس اليومية، أو يخطب في صلاة الجمعة؛ بل سنيدار المسجد هو القيم والمشرف عليه، أو مديره، وغالبا ما يؤذّن في الصومعة المرتفعة أذان الصلوات في أوقاتها. وكان الحاج أحمد الخولاني سنيدار مسجد الفليحي الذي يؤذّن بصوته الرخيم القوي الشجي في كل أوقات الصلاة.

وهناك أوقات يُسبّح فيها خارج أوقات الأذان، فقبل أذان الفجر كان يسبّح التسابيح الثلاث، ابتداء من الثلث الأخير من الليل، وحتى أذان الفجر. وكان يتوقّف بين كل تسبيحة فترة، ثم يُسبّح التسبيحة الثانية، ويتوقّف فترة، ثم يسبّح التسبيحة الثالثة التي يأتي بعدها بقليل أذان صلاة الفجر. وبعد صلاة العشاء من يوم الخميس كان يطلع إلى دوّار الصومعة، ويُسبّح تسبيحات شجية، تذكيرا للناس بأن غدا هو يوم الجمعة. لقد كان كثير من الناس ومن الأطفال – وأنا منهم – نقفُ قريبا من المسجد، لنسمع الحاج أحمد الخولاني وهو يسبّح في يوم الخميس.. لم أسمع في حياتي كلها صوتا جميلا قويا شجيا كصوته وهو يسبّح أو يؤذّن بلا مكبرات الصوت، وكان بعضُ من يسمعونه يسبّح يبكون!

وهكذا كان الحاج أحمد الخولاني معروفا على مستوى صنعاء كلها، وفي ليلة الخميس كان كثيرون يأتون من حارات بعيدة، ليستمعوا إلى تسابيحه الشجية. لقد كان الحاج أحمد ربع القامة يميل لونه إلى اللون الأسمر الفاتح، وله لحية كثّة بيضاء.. وكنتُ كثيرا ما أقتربُ منه إذا وجدته في المسجد، أو حتى في الشارع وأقبّلُ يده اليمنى تبرّكا. وعندما مات بكاه كثير من الناس، وخرجوا في جنازته في حشد كبير، وكأنّه من أولياء الله.. وأعتقد أنه كان كذلك.

وفي المقابل، كانت هناك شخصية غريبة حقا في حارة الفليحي، واسمه فلان

يعقوب، ولم أعد أذكرُ اسمه الأول وربما كان اسمه مصطفى، ولعله من أصل غير يمني، وكان ضخم الجثة، على رأسه عمامة كبيرة ملونة، تختلف عن عمائم الناس البيضاء، وكان يلبس «زنة» تحت قميص واسع الأكمام ملون بشكل صارخ، ويضع على «حقوه» أي خصره حزاما يتدلّى من جهته اليسرى غمد فضي لسلاح أبيض، أطول من الجنبية المعروفة، وأقصر من السيف المعروف.

وكان السيد يعقوب من غُلاة الشيعة الذين يحدّثون الناس عن أهل البيت، وعن الإمام علي بن أبي طالب والحسن والحسين، وفاطمة الزهراء، ويذكر مثالب أبي بكر، وعمر، وعثمان، والصحابة الذين اغتصبوا الخلافة «حق» علي بن أبي طالب الذي أوصى له رسول الله بالخلافة من بعده.. لقد كان من غُلاة الشيعة الجارودية، وواحدا ممن تأثرتُ بهم وأصبحت شيعيا جارودیا. وكان يأتي عند الفجر ليصلّي صلاة الفجر، ثم ينام بعدها في المسجد. وفي أحد الأيام تآمر أحمد المغربي وأشركني أنا وأحمد الشامي في المؤامرة، حيث أحضرنا معنا إبرا، وخيوطا «فتلة»، وبكل هدوء خيّطنا اللحاف الذي يتدثّر ويغطّي به كل جسمه عند نومه في المسجد إلى فراش المسجد المثبت بعضه في بعض، وبعد ذلك ذهبنا بعيدا داخل ممر مطاهير المسجد، لكي نشاهد نتيجة تآمرنا.

وقد أقبل سيدنا الحاج أحمد الخولاني وأيقظ السيد يعقوب من النوم، وعندما حاول النهوض لم يستطع لأن اللحاف كان مخيطا في فراش المسجد، وعندها صاح بصوت رهيب: يا حج أحمد.. يا حج أحمد.. جي.. جي، وضحكنا، ولكننا خفنا فهربنا من مطاهير المسجد إلى بيوتنا، دون أن نعرف ماذا فعل الحاج أحمد الخولاني والسيد يعقوب! لقد كان هذا العمل عملا طفوليا، لو انكشف لجرَّ علينا عقابا شديدا من السيد يعقوب، ومن أمي، وأم صديقي أحمد الشامي.. لقد كانت مغامرة لم تتكرّر بعد ذلك.

وهذه شخصية غريبة أخرى.. إنه السيد علي عقبات، وكان خطيبا بليغا لا يجاريه أحد، وعُرف بقدرته الخطابية الارتجالية التي كان لها أثر كبير في الناس، وأصله من مدينة ذمار. وكان من غلاة الشيعة الجارودية يكفّر الصحابة، ويثير الناس

على الأسر السنية في صنعاء، وكاد يحدث فتنة، وهذا ما اضطر الإمام لـمنعه من الـخطابة. وعندما كنتُ أدرسُ في «مكتب الأيتام» كان السيد عقبات يأتي – أحيانا– ويلقي علينا محاضرات تتضمن أفكاره الشيعية. وقد تأثرتُ به وبأفكاره تأثرا كبيرا، وزاد تشيّعي لأهل البيت وللإمام يحيى. وكنتُ لا أكتفي بذلك لنفسي؛ بل أحاول إدخال الآخرين إلى مذهبي الشيعي.

وقد عرفتُ فيما بعد أن عقبات كان قد هاجر إلى مصر، وتزوج بامرأة مصرية، بقي معها سنوات. وفي سنة من السنين جاءت أسراب كثيرة من الـجراد إلى مصر، فخرج علي عقبات بكيس كبير وملأه بالـجراد، كما كان يفعل في اليمن، وعاد به إلى البيت، وطلب من زوجته الـمصرية أن تشوي له الـجراد في التنور، ولكنها رفضت فتولّى ذلك بنفسه، ثم أخرج الـجراد من التنور وبدأ يأكل منها، وعندما رأت زوجته ذلك صرخت لجيرانها ليروا هذا الـمتوحش الذي يأكل الـجراد، وطردته من بيتها، وأجبرته أن يطلّقها.

وقد عرفت السيد علي عقبات مباشرة في سجن نافع حجة بعد سقوط ثورة 48 الدستورية، وكان علي عقبات الـمحبوس الوحيد في سجن نافع الذي يخاف من الـموت، فإذا سمعنا «مزيقة» الـجيش تعزف اللحن التركي – الذي كنا نسميه لحن الـموت– فإن هذا معناه جرّ بعض الـمساجين إلى ساحة الإعدام في ميدان حورة. كنا ننتظر لنعرف من سيجرونه منا لقطع رأسه؛ أما علي عقبات فكان بمجرد أن يسمع الـموسيقى، يدخل إلى زاويته في غرفة سجنه، ويأخذ الـحصيرة الـمفروشة ويلفّها حول جسمه كله ورأسه داخلها، حتى تنتهي مراسم قطع رؤوس بعض الـمساجين، وحينئذ يُنهي هو مراسيم الاختفاء داخل الـحصيرة، ويخرج ليسأل عن أسماء من قطعوا رؤوسهم. وكان متعصبا إلى حد كبير لشيئين في الـحياة، الأول: أهل البيت والتشيّع، وأما الثاني فهو تشيّعه لأبي الطيب الـمتنبي وشعره، وكان يقبل أن تناقشه في أي شيء إلا في الإمام علي، أو في أبي الطيب الـمتنبي.

وأذكر أن القاضي محمد السياغي في سجن نافع تعمّد إثارة عقبات، فذكر أبا الطيب الـمتنبي، وقال إنه مجرد درويش أو «دوشان»، يمدح من هبّ ودبّ في مقابل

هبات تافهة، وقد ثار علي عقبات ثورة هستيرية في وجه القاضي السياغي، وسبّه، وكان إذا رآه يحرف وجهه عنه احتقارا، وبعد إطلاق سراحه من السجن قرّر له الإمام راتبا شهريا، عاش به في منزله بمسجد الحديدة حتى مات. ومن أغرب ما حدث لعلي عقبات أنه كان قد تزوج بامرأة من ذمار، لعلها من بيت عقبات، ثم طلّقها، وبقيت سنوات مطلّقة ولم تتزوج، وبعدها أحسّت بوجود حمل في بطنها، وكانت امرأة فاضلة متدينة معروفة بالعفة والشرف.. وقد فزعت من الحمل الذي أحسّت به، فأخذها أهلها إلى صنعاء وعرضوها على طبيب إيطالي هناك، وبعد الكشف والتحليل أكد لهم أن هذا الحمل بعد سنوات نتيجة احتفاظ الرحم بمنويات حية في تلافيف الرحم، وخروج إحداها إلى مكان الحمل بعد سنوات، ولكن علي عقبات رفض هذا التقرير، واتهم مطلّقته، وأنكر نسبة الجنين إليه، وعندما ولدت مطلّقته كان ولدها نسخة طبق الأصل من علي عقبات، وكبر الولد حتى أصبح شابا ووالده ينكر نسبه إليه. وذات يوم في مجلس كبير كان الولد موجودا فيه، وعندما دخل علي عقبات صرف الولد وجهه عنه بالطريقة التي تعودها والده، وهنا اعترف بنسبه إليه، ولكن الولد رفض ذلك.

على جانب أخر، كانت هناك واحدة من الشخصيات النادرة في صنعاء؛ إنه الفنان أحمد هبة، وكان بيته في أحد أزقة حارة الفليحي، وله اهتمامات بعيدة عن اهتمامات الشيعة والسنة. كان فنانا يعزفُ على العود، ويغنّي أغاني عُرفت فيما بعد أنها أغان صنعانية أو لحجية، وكان الفنان القعطبي قد غنّى بعضها، وسُجّلت له في أسطوانات كما بلغني فيما بعد. وكان لأحمد هبة ولد اسمه حسين، كثيرا ما كان يلعب معنا، ولكن علاقتي به تعدت علاقة اللعب إلى علاقة الصداقة، وكثيرا ما كان يأتي إلى بيتنا، ويشاركنا أحيانا الأكل. ولم أكن أعرف أن والده يغنّي. وذات يوم قال لي حسين: أريد أن أُريك شيئا ما رأيته في حياتك ولا يوجد إلا عند أبي.

وفي اليوم التالي ذهبتُ معه ومعنا صديقي أحمد الشامي إلى بيت الفنان هبة، وبعد أن عرفنا واطمأنّ إلينا، وقال لنا: «احلفوا بأنكم لن تكلموا أحدا عما تشاهدونه بعد قليل»، وحلفنا له مؤكدين أننا لن نكلّم أحدا، وبعد ذلك ذهب وأغلق الأبواب

والنوافذ وأخرج صندوقا غريبا ووضعه أمامنا، وأخرج من جنب فيه ذراعا معطوفا، وفي وسط الصندوق موقع مستدير عليه ما يشبه الصحن، وحرّك الذراع المعطوف، وفي رأسها إبرة بارزة، ورأينا الصحن المستدير يتحرّك ويدور فوق الصندوق، ثم وضع في حافته إبرة الذراع المعقوف، والصحن يدور فينقل الإبرة في خطوط صغيرة جدا في الصحن من حافته إلى نهايته.

وسمعنا الصندوق يغنّي أغنية لا أذكرها الآن هل هي للجراش أو للقعطبي؟ وخيّم علينا الصمت والذهول.. كيف يغنّي هذا الصندوق؟ إن هذا فوق قدرتنا على الخيال.. إنه نوع من السحر، أو أن الشياطين تكمن داخل الصندوق تغنّي، وعندما انتهت الأغنية، رفع أحمد هبة الذراع ووضعها في محل مخصوص بذلك.. قلتُ له: «هذا سحر، أو أن الجن يغنّون داخل الصندوق»، وشرح لنا أن هذا ليس سحرا، ولا يوجد بداخله جن يغنّون، ولكن النصارى في «بلاد مدخل» اخترعوا الصندوق، وسموه «قرمفون»، واخترعوا الصحن المستدير، هذا واخترعوا آلة تسجيل. إن هذا علم وليس سحرا أو جنا، إنهم سجّلوا في هذا الصحن الكلام أو الأغنية التي يغنّيها المغني، ولا يمكن أن يخرج الصوت من الصحن إلا بهذا الصندوق وهذه الإبرة. وسألته: ما يحرّك الصحن والإبرة؟ قال: هل عندكم في البيت (إتريك يد).

قلت: نعم عندنا، قال: ما هي القوة التي تجعل اللمبة فيه تضيء؟ قلت: الحجارة «البطاريات» التي نضعها داخل الإتريك.. قال: هذا الصندوق اخترعه النصراني، وفيه بطاريات إذا وضعناها داخل الصندوق في محل خاص فإنها تحرّك الشيء المستدير الذي نضع عليه الصحن، فيخرج الصوت الذي سجّلوه فيه تماما، كما يخرج النور من اللمبة في إتريك اليد. وبرغم أننا فهمنا هذا الشرح إلا أن الحيرة والدهشة من صوت أغاني الصندوق ظلّت لغزا في عقولنا لسنوات طويلة، ثم خرج أحمد من الغرفة، وعاد وفي يده شيء غريب آخر عرفنا أنه عود الطرب، وبعد أن أصلح أوتاره، أخذه بين يديه وبدأ يحرّك الأوتار بأصابعه وبريشة في يده، وغنّى أغنية لم أعد أذكر من كلماتها شيئا، ولكنه أخبرنا أنها أغنية كوكبانية.

كنت ألاحظه وهو يغنّي، وأتساءل: هل الفنان بحاجة إلى أن يشاهد الآخرون

إنتاجه؟ هل كان الفنان أحمد هبة بحاجة إلى أن يسمع الآخرون فنه؟ ولأن الغناء حرام في عهد الإمام يحيى فقد وجد فيَّ وفي صديقي وولده فرصة يُسمعنا فيها أغانيه. والغريب أننا لم نسأل أنفسنا حينذاك هل ما سمعناه حلال أم حرام؟ ولكني أذكر أنني وصديقي أحمد الشامي قد خرجنا من بيت الفنان أحمد هبة ونحن نحترمه، كما كنا نحترم العلماء الذين يدرسوننا علوم الدين، وكنا نتردّد عليه في فترات متباعدة، ونستمع إلى أغانيه بالعود. وبعد مرور سنوات بلغنا أن «مأمور الضبط» أي مدير الأمن قد هجم على بيت الفنان أحمد هبة وأخذه إلى الحبس، وصادر عود الطرب وصندوق الطرب، وسلّمهما للإمام يحيى، وقد رأينا ذلك مكسورا ومعلقا في سور «دار السعادة» التي يسكنها الإمام يحيى. وشعرنا بحزن شديد، وبلغنا أن السيد العلامة زيد الديلمي رأى صندوق الطرب وعود الطرب المكسورين المعلّقين، وعندما دخل على الإمام قال له: «يا مولانا لماذا أمرتم بكسر صندوق وعود الطرب؟ كنتم ستأمرون من يأخذهما إلى أمهما في العرضي»، وهو يقصد إلى «فرقة المزيقة» في ثكنات الجيش، وربما تشفّع لدى الإمام، فقد تم إطلاق سراح أحمد هبة بعد أيام قلائل.

وكان هناك بيت القاضي محمد المغربي، وربما كان شقيق القاضي حسن المغربي، وله أبناء أكبرهم عبد الرحمن الذي كان أكبر منا بكثير، وأصبح فيما بعد قاضيا في عهد الإمام أحمد وبعد قيام الجمهورية. أما ابنه أحمد محمد المغربي فبرغم أنه كان أكبر منا سنا إلا أنه ظلَّ يلعب معنا في «الصرحة» -وهي ساحة واسعة نوعا ما يلعب فيها الأطفال- ولذلك كان شيخ أولاد الحارة، وكان أحمد المغربي يشجعنا على الدخول إلى «مقاشم» المساجد لنقطف من أشجارها الفواكه. «والمقشامة» التابعة للمساجد أشبه بالبستان يفرّغ إليها ماء المطاهير لسقي الأشجار، والبصل، والثوم، والخضار. وكان القشّام إذا وجدنا في المقشامة يجري وراءنا، وإذا أمسك أحدنا فإنه يربطه إلى شجرة حتى يأتي أهله ويؤدّبونه. وأذكرُ أن عبد اللّه الخاوي كان قد ربطه القشّام في إحدى المرات إلى شجرة، فجمعنا أحمد المغربي وقادنا مرة أخرى إلى المقشامة وطردنا القشّام بالحجارة، وفككنا عبد اللّه الخاوي من الرباط.

فإذا اتجهنا إلى مسجد الفليحي، فسنجد البيوت المجاورة له بيت الجنداري، وهم من القضاة، وبيت القاضي يحيى الإرياني والد القاضي عبد الرحمن، والقاضي علي والقاضي محمد، وسنجد بيت الجرافي، ومنهم المؤرخ المعروف القاضي عبد اللّه عبد الكريم الجرافي، وهناك بيت السرحي، وفيهم علماء في الفقه والأدب. أما سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين حجر فكان بيته يقع في المنطقة نفسها، وهو من العلماء المجتهدين، وممن قادوا للإمام معارك الحرب ضد الأتراك. وسنجد كذلك بيت السيد قاسم بن حسين العزي أبو طالب، وهو من كبار العلماء، وكان يتولّى وظيفة ناظر الأوقاف. وعندما انتقلت من مكتب الأيتام إلى المدرسة العلمية كان من أصدقائي الحميمين فيها السيد عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب وهو قريب للسيد قاسم العزي، وكنتُ أحضر معه حلقات العلم في مسجد الفليحي، فأعطانا السيد قاسم «منزلة» من منازل المسجد، كان قد فرشها فرشا ممتازا ليسكن فيها هو إذا أراد.. والمنزلة عبارة عن غرفة ينزل فيها طالب أو أكثر من طلبة العلم في المسجد.

فإذا تجوّلنا في الحارة فسنجد بيت السيد محمد زبارة، الثائر الأول والعالم الكبير، والمؤرخ المشهور، وله عدة مؤلفات في التاريخ منها «نيل الوطر» وغيرها. وقد عارض الإمام، وهرب إلى السعودية، ثم عاد بأمان من الإمام، بشفاعة الملك عبد العزيز آل سعود، وابنه أحمد الذي تزوج بابنة الإمام أحمد، وكان من العلماء العاملين بعلمهم، وبينه وبين الإمام يحيى مكاتبات تاريخية مهمة، ذكر بعضا منها صديقي أحمد الشامي في كتابه «رياح التغيير في اليمن». وكان للسيد أحمد محمد زبارة مواقف أنقذت بعض الأحرار من الإعدام بسيف الإمام أحمد، وقد تدخّل لإنقاذ القاضي عبد الرحمن الإرياني، وهو في ميدان الإعدام أمام الإمام أحمد، عقب فشل حركة الثلايا وعبد اللّه بن الإمام يحيى عام 1955.

وذات يوم من سنة 1942، قال لي صديقي أحمد الشامي: اليوم سآخذك معي إلى مجلس السيد محمد زبارة، وهو مجلس يلتقي فيه علماء وأدباء يتدارسون ويتناقشون.. إنه مجلس عامر بالعلم، وكم أتمنى لو أن أستاذنا أحمد حسن الحورش

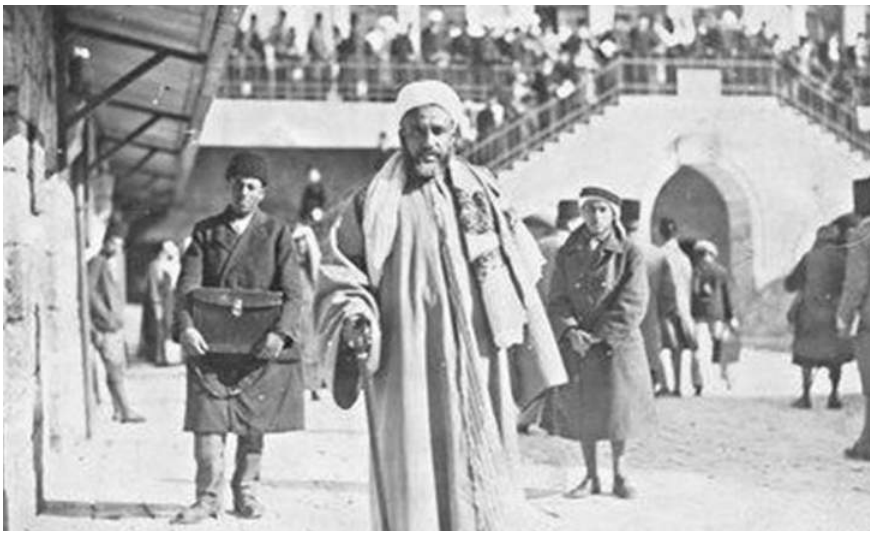

العالم الثائر محمد بن محمد زبارة من أوائل المنتقدين للإمام يحيى

يحضر معنا هذا المجلس. وبعد العصر ذهبنا إلى المجلس في بيت زبارة، وهو بالنسبة لبيتي أوسع من البيت الأبيض في أمريكا، ومن القصر الملكي في بريطانيا، إنه كبير نسبيا، مع أنه في الواقع بيت عادي كأكثر بيوت صنعاء.. وكان دهليزه واسعا عن يمينه ويساره أمكنه لخزن الحبوب والحطب. وفي الدور الثاني دخلنا إلى المجلس، وفي جدرانه خزائن داخل الجدران نفسها، تعتبر دواليب الكتب وأبوابها من الخشب والزجاج، ومن ورائها الكتب المجلدة تجليدا ممتازا، وذكرت مكتبة أستاذي الحورش، ووجدت أنها أروع شكلا وموضوعا من مكتبة زبارة، فهي في نفسي مقدسة، بينما شكل مكتبة زبارة رائع وجميل.

كان السيد محمد زبارة في صدر المكان ربع القامة، يميل إلى السمنة ووجهه أسمر، فاتح اللون، وشعرت بهيبة العلم وجلاله.. وقدّمني صديقي الشامي وأنا أسلّم عليه، فرحّب بي قائلا: هل أنت عالم أديب مثل صديقك وأومأ إلى صديقي الشامي؟ فقلتُ له: نحن ندرسُ ونقرأُ معا، فقال: تفضلا بالجلوس، وكان المكان مليئا بالناس عند دخولنا؛ فقال صديقي وهو يومئ بيده للناس: «السلام تحية» فقال

واحد: «سلمت من الأذية». وكان في المجلس ممن أعرفهم السيد عبد الخالق الأمير، والسيد عبد الكريم الأمير الأديب والشاعر، ومحمد بن محمد المنصور، والقاضي محمد المغربي، والقاضي علي بن حسن المغربي..

واستمتعنا بنقاشات في الأدب والتاريخ والفقه. كنتُ وصديقي نستمعُ برغم أننا كنا نستطيع المشاركة في النقاشات في الأدب والتاريخ والفقه؛ لأن من آداب المجالس حينذاك أن يستفيد من هو في سننا من أحاديث الكبار سنا، وكان السيد محمد بن محمد زبارة من أكبر شخصيات صنعاء ومن كبار علمائها، فقيه في علوم الدين، أديب، شاعر، اهتم بالتاريخ، والتراجم، كما كان ذكيا سريع البديهة، يحترم نفسه وعلمه، ويحترم الآخرين، وعندما حضرتُ مجلسه هذا كان عمري حينذاك ستة عشر عاما تقريبا، وأكبر أولاده أحمد محمد الذي كان حينذاك قد أصبح من العلماء المجتهدين، وهو كوالده لا يقلّد المذاهب، ويتبع السنة المحمدية، وبلغني حينذاك أن السيد محمد زبارة كان من الساخطين على أسلوب الإمام يحيى في إدارة شؤون البلد، وعلى بخله وتفرده بالحكم، ويُقال إنه كان يكثر من تقديم النصائح له حتى وصلت العلاقة بينه وبين الإمام إلى حد همَّ الإمام بحبسه في سجن قصر غمدان، وذلك عقب هزيمة الإمام في الحرب السعودية اليمنية عام 1934، فقد أرسل إلى الإمام خطابات قوية يدعوه إلى الإصلاح، وانتهاج سياسة العدل والشورى، وإلى صرف أموال «بيت المسلمين» في مصارفها الشرعية، وفي بناء المدارس والمستشفيات وتعبيد الطرقات.

وكان الإمامُ يحيى بعد هزيمته في الحرب يحاولُ أن يستعيد هيبته بإرهاب الناس، والبطش بالعلماء المستنيرين الذين اعتبروا أن هزيمة الإمام في الحرب يجب أن تنبّهه، وتنبّه الشعب إلى سوء الحكم وجموده وانفراد الإمام به، وأحسّ محمد زبارة أنه سيكون أول من يبطش بهم الإمام فهرب إلى خارج اليمن، وكان أول عالم يعلنُ تمرده ضد الإمام بعد الهزيمة، وقد أرسل من خارج اليمن قصيدة ثائرة طُبعت عام 1935، وتأثّر بها علماء وشباب مستنيرون حينذاك ومنهم أحمد عبد الوهاب الوريث ومنها ما يلي:

تناهوا.. تناهوا عن عـمـوم الـمظالـمِ
وتهـوين أمـر الظلم عن كل ظالـمِ
وتغـمـيض عين عن فـضـائح آمـر
هلـوع ولـوع بـاقـتـناص الـدراهـمِ

ومنها:

مضى العـمـر والأطمـاع تزداد فـانتـهـوا
عـن الـشـح والأطمـاع يـا آل هاشـمِ
ولا تجـعلوا أسـبـاب تغـيـيـر نعـمـة
من اليـمن الـمـيـمـون شـر التظالـم
فـمـا الـخـيـر إلا بالتـأسي بأحـمـد
وبالآل والأصـحـاب أهل الـمـراحـمِ
ولا بـامـرئ فظّ غليـظ فـؤادُه
حـقـود على أنصـاره غـيـر راحـمِ

وقبل نشوب الـحرب بين الإمـام وابن سعـود كـان الأخـيـر قـد أرسل وفـدا إلى الإمام برئاسة الأمير محمد بن دليم، وتركي بن ماضي، للتفاهم بشأن الـحدود من دون الوصول إلى نتيجة، فبعث الإمام إلى عبد العزيز بن سعود وفدا مكوّنا من السيد قاسم بن حسين العزي أبو طالب، ومن السيد محمد بن محمد زبارة، سافرا مع الوفد النجدي، وقابلا عبد العزيز بن سعود بعد الـحج عام 1346هـ-1927، وعاد الوفد بدون نتيجة، وبعد سنوات نشبت الـحرب بين الطرفين وهُزم فيها الإمامُ يحيى، وفرَّ محمد زبارة إلى الـخارج متمردا، ولكني لا أدري كيف عاد إلى اليمن.. وقد اطلعت على ما تم طبعه من كتبه، ومنها:

1. نزهة النظر في رجـال القـرن الرابع عـشـر؛ مكوّن من 629 صـفـحـة من القطع الكبير، وطبع عام 1979.
2. نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر؛ في 427 صفحة من القطع الكبير.

3. نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف إلى سنة 1357هـ، وقد طبع المؤلف المجلد الأول منه في عام 1358هـ، 1939، وقد أعاد مركز الدراسات والبحوث اليمني طبعه، وطبع المجلد الثاني والثالث في ثلاثة مجلدات من الحجم الكبير، المجلد الأول في (816) صفحة، والثاني في (427) صفحة، والثالث في (432) صفحة.

وله كتاب لم يُطبع حتى الآن اسمه: «تحفة المسترشدين في الأئمة المجددين» في اليمن، ولذلك لم يطبع، وسوف أبحث عنه، فإذا وجدته فسوف أتولّى تحقيقه والبحث عمن يطبعه، والآن وأنا أكتب هذا أتذكر انطباعي عن مجالس السيد محمد بن محمد زبارة، فقد كنتُ في مجلسه أشعر بجلال العلم وهيبته، وفي المقابل كنتُ في مجلس ولي العهد أحمد أشعرُ بسطوة الحكم ورهبته. ومات رحمه الله في ذي الحجة عام 1380هـ- يونيو 1961، وأنا في عدن، بعد فراري من سجن نافع.

الفصل الرابع
عـودة إلى الـمعلامـة

يبدو أن عنوان اكتشاف حارة الفليحي قد أخذني بعيدا عن تسلسل الذكريات، فقد استرسلتُ في ذكر شخصيات عرفتُها، وقطعت ذكريات دراستي في «الـمعلامة» وها أنا أعود إليها، لأعود إلى ذكريات الطفولة الـمبكرة، ذلك أن اكتشافي لحارة الفليحي بالطريقة التي كتبتها في هذه الذكريات قد تم عبر عدة سنوات، ولم يكن في يوم وليلة، وخلال كتابتي لهذه الذكريات اكتشفتُ أن صديقي أحمد الشامي كان موجودا في كل تفاصيل حياتي، من الطفولة وحتى إطلاقه من سجن قاهرة حجة في عام 1955، والتحاقه بالبدر بن الإمام أحمد الذي كان نائبا لأبيه الإمام في لواء الحديدة حينذاك، تمهيدا لإعلان تولّيه ولاية العهد، بينما بقيتُ أنا في السجن، وقد قرأتُ ذكريات صديقي في كتابه «رياح التغير في اليمن» الذي أصدره في عام 1984، ووجدتُ فيه بعض الأخطاء، وسوف أصححها كلما جاءت الـمناسبة خلال كتابة ذكرياتي هذه.

لقد جرّني صديقي أحمد الشامي معه للالتحاق بمعلامة الفليحي، لنكون زملاء جوار، وزملاء معلامة، ولا أعرف متى دخلت إلى معلامة الفليحي، ولكنا دخلنا إلى صنعاء من الجراف في أوائل عام 1352هـ- أبريل عام 1932، وهي السنة التي دخلت فيها للدراسة في معلامة الفليحي، وأظن أن صديقي الشامي كان قد سبقني إليها كما يقول في عام 1349هـ -1930، أي قبل عامين من لقائي به، كانت معلامة الفليحي أمام الـمسجد جنوبا، وهي عبارة عن غرفتين مبنيتين بالحجر، وندخل إليها من حوش صغير، له باب يُغلقُ بعد الانتهاء من الدراسة، ويقابله بابُ الـمسجد من جهة الشمال، وكنا نجلس على حصير مصنوع من سعف النخيل، وأمامنا يجلس على

الدكة سيدنا محمد حمزة، فإذا تغيّب حلَّ سيدنا محمد النعماني محله.. وكانت شخصية سيدنا النعماني أقوى بكثير من شخصية سيدنا حمزة.

كانوا يعلّموننا الكتابة والحساب، ويلقنوننا سُورا من القرآن نحفظها غيبا، ولا نعرف قراءة كلماتها، أو على الأقل كنتُ أنا أحفظ السور، وأعجزُ عن قراءة الكلمات في جزء (عم) الذي يُحفّظوننا منه سورا، ابتداء من سورة الفاتحة، وحتى سورة عم يتساءلون، ولم أكن أفهم معاني آيات السور، ولذلك تولّد لدي انطباع أن القرآن كلام غير مفهوم، وهذا أتى من خطأ التلقين وعدم الاهتمام بالتفهيم.

ولا أتذكّر الآن كيف تمّ نقلي وأخي من معلامة الفليحي إلى مدرسة كبيرة، لها فصول عديدة، ولها حوش واسع، كانت تُسمَّى مدرسة الإصلاح، وتقع في ميدان شرارة، ولعلها أول مدرسة حكومية بعد مدرسة الأيتام، يُعتبرُ المعلمون فيها من موظفي الحكومة الذين يتقاضون مرتبات زهيدة. ولعل انتقالنا إلى مدرسة الإصلاح كان في أواخر عام 1934، أو أوائل 1935، وكان الإخوان أحمد وعبدالوهاب الشامي ممن انتقلوا إلى هذه المدرسة، ووجدنا فيها سيدنا محمد النعماني وسيدنا محمد حمزة، ومعلمين آخرين يُعلّمون التلاميذ في هذه المدرسة، ولكن أهم شخصية كنا نحسب لها ألف حساب هو السيد علي الشمسي، مراقب المدرسة، وقد كان يُغلقُ باب حوش المدرسة بعد دخول التلاميذ إلى الصفوف في الصباح، فإذا جاء تلميذ متأخر عن موعد الحضور فقد كان يفتح له الباب، ويأمره بأن يفتح كف يده اليمنى ويضربه ضربة موجعة بالعصا، ثم يأمره بفتح يده اليسرى، ويضربه ضربة أخرى موجعة، وهكذا كان يفعل بمن يحاولُ تسلق جدار الحوش والهروب من المدرسة؛ بينما كان مدير المدرسة هو السيد محمد الشمسي ولعل علي الشمسي هو أخوه.

كذلك لا أعرفُ كيف تمّ نقلي من مدرسة الإصلاح إلى معلامة قبة طلحة، وهي أقربُ إلى بيتنا من مدرسة الإصلاح، وربما لهذا السبب نقلتنا أمي إليها. كان سيدنا فيها هو الأستاذ عبد اللّه الحيمي، وهو أشد وأعنف معلم عرفته خلال دراستي كلها، وكان له مزاج غريب، كان إذا أتى ورأى حدية «حدأة» كانت كثيرا ما تهبط من طيرانها لتقف بأرجلها في أعلى صومعة مسجد طلحة وأحيانا على هلال الصومعة

كان يتشاءم من تواجد الحدأة في تلك المواقع، فيدخل إلى المعلامة وهي عبارة عن غرفة طولها قرابة ستة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار، ويأخذ العصا ويبدأ في ضرب الأولاد من أمام الدكة التي يجلس عليها، فيهرب الأولاد داخل المعلامة، ويتراكم بعضهم على بعض حتى يصل تراكمهم إلى سقف المعلامة وحينئذ يهدأ سيدنا عبد اللّه الحيمي، ويجلس على الدكة، ويأمر الأولاد بالعودة إلى الجلوس كما كانوا من قبل، ويا ويل من يبكي من ألم الضرب، ولذلك كنا نخفي في جيوبنا أقواسا من المطاط وحصوات صغيرة نرمي بها الحدأة إذا اقتربت من القبة أو الصومعة. كان التلاميذ يعطون سيدنا عبد اللّه حق الخميس أربع بقش أو أكثر، أما أنا وأخي أحمد فلم تكن أمي تعطينا البقش، وإنما يحمل إليه كل منا أربعا من بيض الدجاج التي تُربّيها أمي في بيتنا، وكان هذا لا يُرضي سيدنا، ولذلك فإن عقابنا على أي خطأ في القراءة كان شديدا. وخلال دراستي في معلامة طلحة لا أذكر أن الأخوين أحمد وعبد الوهاب الشامي كانا معنا.

وبدأتُ أتمرد على وضعي في معلامة طلحة. وذات يوم وكان يوم جمعة لا ندرس فيه وجدت سيدنا عبد اللّه الحيمي في سوق باب السبح، وهو يحمل سلة في أسفلها اللحمة والخضار والبصل والكراث، وفي أعلاها «عنب رازقي»، فاستدعاني وأمرني أن أحمل السلة إلى بيته.. وعندما وصلت إلى باب بيته تذكرتُ أنه ضربني يوم الخميس ضربا موجعا، لأني لم أعطه لا بقشا ولا بيضا، وقررت أن أنتقم منه. وهكذا وضعتُ السلة بباب بيته دون أن أدقّ الباب وأسلمها إلى أهله، وانتظرتُ بعيدا حتى رأيت القطط تقلب السلة وتبدأ في أكل اللحم، وعدتُ إلى بيتنا وأخذتُ منه «جحينة» من خبز الذرة، وخرجتُ، ولم أعد إليه إلا بعد صلاة العشاء.

وفي صباح اليوم التالي خرجتُ من البيت عند الفجر، وذهبت إلى بستان اليهودي، وهو الآن مقر القيادة العسكرية في شارع القيادة، وهو بستان واسع جدا، فيه أشجار الفواكه، وفيه أشجار التالوق الضخمة، على حافة ساقية ماء الغيل الأسود، وقد تسلّقتُ بصعوبة شجرة من شجر التالوق، وبقيتُ فيها إلى المساء. وماء الغيل الأسود كان يأتي من نبع بعيد عن صنعاء جنوبا، وكان يُسمَّى في الماضي غيل

البرمكي؛ لأن محمد بن خالد بن برمك والي اليمن من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد هو الذي اكتشف نبع الغيل، وبنى من المنبع إلى صنعاء ساقية تحت الأرض يجري فيها ماء الغيل، ومنها قناة صغيرة تصبُّ في ساقية عبّاد محمد الشهابي الذي مدَّ منها ساقية إلى الجامع الكبير، استفاد منها الكثير من سكان صنعاء في الماضي. وقد انقرضت ساقية الشهابي، والساقية الممتدة منها إلى الجامع الكبير قبل مئات السنين، ولكن الغيل الأسود «غيل البرمكي» بقي جاريا في الكظائم تحت الأرض.

وقد شاهدتُه بنفسي وأنا طفل، وبقي يمرُّ إلى بستان الإمام يحيى التابع لقصره «قصر السعادة»، ثم ينفذ منه إلى بستان اليهودي، وبقي الغيل الأسود على حاله في عهد الإمام يحيى والإمام أحمد وفترة وجيزة في العهد الجمهوري، ثم خرب الناس الكظائم، واستولوا على نبع الغيل. وقد بقيتُ في وسط التالوق، وأكلت الجحينة التي أخذتها من البيت، ثم عدتُ إلى البيت في ساعة متأخرة بعد صلاة العشاء.. وكانت أمي قد بحثت عني في كل مكان تعرف أنني أتواجد فيه، وعرفت منها فيما بعد أن سيدنا عبد اللّه الحيمي أرسل ثلاثة من كبار الطلبة للبحث عني وإيصالي إليه.

وعندما دخلتُ إلى بيتنا لم تضربني أو تصرخ في وجهي، وإنما رأيتها تضع رأسها بين يديها وتبكي.. وعندما هدأت قالت لي: لماذا كذبتَ عليَّ، ورميت سلة سيدنا عبد اللّه الحيمي؟ وبقيت تسألني وأنا لا أتكلم برغم أنها أعادت عليَّ هذا السؤال مرات.. ثم قالت لي: قل لي ولا تخف.. إنني لن أضربك، أنا أريد أن أعرف السبب. وهنا حكيت لها قضيتي مع سيدنا عبد اللّه الحيمي، وكيف يضربني بلا سبب، وكيف ضربني ضربا موجعا يوم الخميس؛ لأنني لم أحمل إليه لا بقشا ولا بيضا. وكنتُ قد عرفت بوجود مكتب الأيتام فطلبت من أمي أن تدخلني هذا المكتب، لأني لن أذهب إلى المعلامة حتى لو قتلوني. قالت لي: أنقلك إلى معلامة أخرى، لأن مكتب الأيتام فيه قمل وكتن «بق» وأولاد مصابون بمرض الجرب و«القضع»، وربما تصاب أنت وأخوك بالمرض؛ ولكني أصررتُ على الانتقال إلى مكتب الأيتام فوافقت أمي على ذلك.

وقبل شروق الشمس في اليوم التالي كنتُ قد خرجتُ إلى بستان اليهودي ومعي جحينة مدهونة بالسمن، أما أمي فقد ذهبت إلى بيت سيدنا عبد اللّه الحيمي وسلّمت له ريالين حجر فرانصي، واعتذرت له عني. وبعد أيام أدخلتني أمي أنا وأخي أحمد إلى مكتب الأيتام، بمراجعة القاضي محمد الحضرمي، وهو من الشخصيات المشهورة في صنعاء. وهكذا دخلت أنا وأخي أحمد للدراسة في مكتب الأيتام بسهولة، فقد كنا أيتاما، وكان القاضي محمد الحضرمي شخصا معروفا وموثوقا به. ولعل دخولي إلى مكتب الأيتام كان في عام 1935، وعمري أحد عشر عاما، لأنني قد وصلتُ إلى الصف الثالث، وفي هذا المكتب قسمان القسم الداخلي، وهو الذي ينام الأولاد فيه ويأكلون ويدرسون، ولا يخرجون إلى بيوتهم إلا يوم الخميس.

وأما القسم الخارجي فهو الذي يدرس فيه الطلبة إلى وقت الظهر، ثم يذهبون إلى بيوتهم لتناول وجبة الغداء، ثم يعودون مرة أخرى للدراسة إلى قبل المغرب بساعة، ثم يذهبون وينامون في بيوتهم ليلا، ويعودون إلى مكتب الأيتام في الصباح، وقد أصررت على تسجيلي وتسجيل أخي في القسم الداخلي، وحاولت أمي أن تدخلني القسم الخارجي، ولكني رفضت، هروبا من سيدنا عبد اللّه الحيمي. وهكذا تم تسجيلنا في القسم الداخلي، ومكتب الأيتام هذا ليس من حسنات الإمام يحيى، فقد أنشأه الأتراك عندما كان الإمام ووالده تحت حكم الأتراك في صنعاء، وعندما انسحب الأتراك وتولى الإمام حكم الشطر الشمالي من اليمن أبقى مكتب الأيتام كما كان في عهد الأتراك، إلا ما أضفاه عليه من تخلف في التعليم وفي الأكل والفراش.

مكتب الأيتام وثورة التغيير في اليمن

مع تلك الأوضاع التي كان عليها مكتب الأيتام إلا أنه كان منطلق التغيير في اليمن، منه تخرج أكثر دعاة الإصلاح، ودعاة الحرية، ودعاة الثورة الديموقراطية في اليمن. كان أكثر ثوار 48 الدستورية من خريجي مكتب الأيتام، ومنهم الشهيد أحمد

حسن الحورش، والشهيد محيي الدين العنسي، وعبد اللّه السلّال، وحمود بن حمود الجائفي، وأحمد محمد الشامي، وعبد الوهاب محمد الشامي، وزيد علي عنان، وعلي الآنسي، ومحمد حجر، ومحمد عبد اللّه الفسيّل، وعلي العتمي وغيرهم. ويقع مكتب الأيتام في ميدان قصر «غمدان»، وفي الجهة الغربية من مسجد البكيرية، وكنا نسميه البكيرية، نسبة إلى «بكير»، ويُقالُ إنه كان عبد الوالي الأتراك عند بناء المسجد، وهو من أجمل مساجد صنعاء، وكان مفروشا بمفارش إيرانية غالية الثمن، وعرفنا فيما بعد أن الإمام قد أخذها واستبدلها بمفارش أخرى أقل ثمنا.

وكان يجاورُ مكتب الأيتام من الجهة الشمالية بناية تركية فخمة مبنية بالحجارة الحبش السوداء المنجورة «الموقصة»، وكان في العهد التركي مكتب الوالي التركي على اليمن، وبعد خروج الأتراك من اليمن ظلّت مهجورة إلى أن حوّلها الإمام يحيى إلى مصنع بدائي للنسيج، وقد فشل هذا المشروع، وفي العهد الجمهوري تحول هذا المبنى إلى كلية أركان حرب القوات المسلحة.

أما مبنى مكتب الأيتام، وهو مبنى تركي من دورين، وبعض الملحقات، وكان في الدور الأرضي ستة فصول تطلُّ على حوش المكتب شرقا، ثم أضافوا إليه فصلا سابعا، ويرتبط بهذه الفصول من جهة الغرب ممر مظلم، عرضه أربعة أمتار تقريبا، يفصل بين الفصول وبين قاعة الطعام الواسعة التي كان التلاميذ يتناولون طعام الغداء فيها، مقسمين إلى «حِدَر» أي مجموعات، كل «حِدرة» مكونة من سبعة طلبة يتحلّقون وقت الغداء حول «قروانة»، وهو صحن واسع من النحاس فيه طبخة مكوّنة عادة من البطاط ومرق اللحم وقليل من قطع اللحم، إداما لخبز «الكدم»، المكون من دقيق مخلوط من حبوب الذرة وهي الأكثر، وحبوب الفول «القلا»، والشعير، وتبدو «الكدمة» شبه حجرة مكورة لونها بنيّ غامق، ويصعب أكلها بدون إدام أو مشهيات من البسباس والصعتر المطحون أو المدقوق.

وفي الجهة الشمالية من مبنى الفصول مكتب المدير، ومجلس للمعلمين، ويفصل بينهما ممر مفتوح يؤدي إلى ساحة في الغرب فيها المطبخ، وفي الشمال «المستراحات» أو «المتخذات»، وكان مدير المدرسة عندما دخلت مكتب الأيتام

الأمير «عنبر» أو «عنبر أغا»، وكان حازما يطبّق النظام والانضباط، وهو من بقايا الأتراك، ولكن شكله إفريقي ربما من الحبشة، ولعله كان عبدا انتقل إلى ملك الإمام، وأذكر أن العبيد السود الذين يتعلّمون ويصبحون من خدام الإمام كان يُطلق عليهم لقب «الأمير»، ومنهم الأمير «صمصام» الذي كان عالما فقيها؛ أما الأمير «عنبر» أو «عنبر آغا» فقد كان أميّا، ومات عقب دخولي المكتب بشهور قليلة، وناب عنه سيدنا محمد تقي. وقد تعلّم في عهود الأتراك، ثم عيَّن الإمام مديرا جديدا هو السيد محمد موسى وكان رشيقا وأنيقا في ملابسه، ولكن اختلاطه بالطلبة كان نادرا، ولهذا لا أستطيع أن أميز ميزات هذا المدير، غير أنه كان قد عُرف بأنه ملمّ بالأدب والشعر أكثر من إلمامه بالفقه.

حدث كل ذلك في السنة الأولى لدخولي المكتب، وكان في مكتب الأيتام مجموعة من المعلمين ذوي الكفاءة والخبرة، وأذكر منهم سيدنا محمد تقي، وكان يُدرّس ويقوم بعمل المحاسب في المكتب، وسيدنا حسين عامر، وسيدنا عبد اللّه الخروش، والأستاذ إبراهيم خليل، وهو المعلم الوحيد الذي كان الجميع يسمّونه «الأستاذ» بدلا عن «سيدنا»، وكان يعلّمنا الجغرافية والهندسة، وعُرف بأنه تركي عربي من بقايا الأتراك، وأظن أن أصله عربي من الشام، ممن كانت تركيا تجنّدهم أو توظّفهم في ولاية اليمن. ثم انضمّ إلى هؤلاء معلمون آخرون، كان منهم سيدنا محمد النعماني الذي كان يرعى أحمد وعبد الوهاب الشامي رعاية خاصة، وهكذا وجدتهما يلتحقان بالدراسة في مكتب الأيتام، ولكن في القسم الخارجي، وكذلك عرفتُ سيدنا محمد الحليلي، وسيدنا محمد الحبشي، وكان السيد علي عقبات يأتي ويُدرّس التلاميذ بطريقة الخطابة دروسا في التشيّع لآل البيت.

أما المعلم الذي بهرني، وربما بهر زملائي بطريقته المؤثرة في تدريس المحفوظات، وخاصة الأشعار القديمة والحديثة فقد كان السيد عبد الباري كوكبان، وأسرته من حارة الفليحي، وبيتها المقابل لبيت السيد محمد زبارة حينذاك، وهي دار كبيرة لها حوش واسع، وكان السيد عبد الباري يفرضُ علينا، أو على الأصح يعودنا أن نسمّيه الأستاذ ولا نسمّيه سيدنا. كان السيد عبد الباري مثقفا ثقافة

واسعة، ويحفظ الكثير من الشعر القديم والحديث بالنسبة لذلك الوقت، ومنه قصائد من شعر شوقي وحافظ، والعبيدي، والجواهري، وكان يشرح ما يمليه علينا من شعر أو نثر شرحا هو إلى الخطابة الارتجالية أقرب. ولا أزال أتذكره وهو يلقي علينا بصوته الخطابي بيتين حفظتهما عنه، وهما للشاعر أحمد شوقي:

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلمُ أن يكون رسولا
أرأيت أعظم أو أجل من الذي
يبني وينشئ أنفسا وعقولا

ولكن أستاذنا هذا لم يدم طويلا فقد اختفى فجأة، ولم يعد يأتي لتدريسنا، كما أنني لم أعد أراه في حارة الفليحي أو العلمي.

ومن الشخصيات التي كان لها أثر كبير في حياتي الأستاذ المربي القدير عبد اللّه الخروش، وأذكرُ أنني دخلتُ مكتب الأيتام وأنا في الصف الثالث، وكان سيدنا الأساسي فيه هو الأستاذ الخروش. لقد كانت طريقته في تعليم التلاميذ وفي تربيتهم طريقة ممتازة، تختلف عن طريقة التعليم في اليمن.. كان هادئ الطبع والمزاج، يتعامل مع التلاميذ بروح الأب الحنون، وكنتُ أشعرُ أن مستواه التعليمي أفضل من مستوى كثير من المعلمين.. كان يكتب الدرس في السبورة، ويقرأه قراءة واحدة، ثم يقرأه فقرة فقرة، ثم يشرح كل فقرة على حدة، ثم يربطها بشرح الفقرة التالية، ثم يسأل التلاميذ قائلا: من منكم فهم الدرس؟ فإذا قام تلميذ وسأل سؤالا فإن الأستاذ عبد اللّه الخروش كان يحاولُ أن يفهّمه الدرس بصبر، وغالبا ما يكونُ مبتسما. وكان إذا شجّع تلميذا ذكيا فإن تشجيعه له كان تشجيعا لكل الأولاد حين يقو لهم: إن شاء الله تكونون كلكم أذكياء إذا راجعتم دروسكم بهمة ونشاط.

قبل دخولي مكتب الأيتام كان خط صديقي أحمد الشامي أجمل من خطي؛ لأنه كان يتعلم الخط على يد سيدنا غالب الحرازي الذي كان خطاطا، فأردتُ أن أتعلّم الخط حتى أكون مثل صديقي.. كنا نتنافس فيمن يكون الأفضل، وأذكر أن هذا التنافس كان دائما إيجابيا، فقد أخذني إلى سيدنا غالب الحرازي لأتعلّم

الـخط، ولذلك كـان خطي عندمـا دخلتُ مكتب الأيتـام أحـسن وأجـمل من خط زملائي، وهذا لفت نظر أستاذي عبد اللّه الـخروش، فطلب مني أن أكتب في دفاتر من يرغب من زملائي الدروس التي يكتبها في السبورة، وعندما رأى أن أكثر زملائي يكلّفونني بكتابة الدروس في دفاترهم قال لي: «يا محمد حاول أن تكتب الدروس في كل الدفاتر بطريقة واحدة، تكتب الكلمة في أول السطر وتختم السطر بكلمة، وهكذا تكرر الكلمة التي في أول السطر، والكلمة التي في آخره بطريقة واحدة في كل الدفاتر». ولذلك كنتُ عندما أنتهي من كتابة الدروس في الدفاتر بهذه الطريقة أكون قد حفظتُها غيبا، وأعرف أين موضع كل كلمة في السطور الـمكتوبة.

وأذكرُ أن أستاذي عبد اللّه الـخروش كان يعطيني أحيانا ريـالا كاملا، ويرسلني إلى سوق الـمعطارة، لأشتري به أربعة «طب» بياض مخطط، و«الطب» رزمة من قوائم الورق الـمخطط يتكون كل «طب» من مئة قائمة من الورق، وعندما أعطيته ذلك كان يضعه في صندوق أمامه في «الدكة»، وفي هذا الصندوق عشرات الأقلام من «الـحلال» و«دواة» أو أكثر من الـمداد الأسود. وكان يعطيني مفتاح الصندوق ليبقى معي، ويأمرني بأن أقسَّم الورق، كل قسم أربع قوائم وأعطفها وأقطعها، بحيث أصنع من الأربع القوائم دفترا واحدا يكون خاصا بدرس من الدروس، وأخيط الدفتر بالإبرة والـخيط من وسطه الداخلي، وهكذا كنتُ أصنع أكثر من خمسة وعشرين دفترا بهذه الطريقة، ثم يأمرني أن أوزّعها على زملائي في الصف، كما أوزّع عليهم الأقلام، لتعلّم الـخط وكتابة الدروس لمن لا أكتب له الدرس. وأتذكّر أن أستاذي عبد اللّه الـخروش كان لا يأخذ من التلاميذ قيمة الدفاتر والأقلام والـحبر، وقد كان لهذه الرعاية التي أولاني إياها أستاذي عبد اللّه الـخروش أبعد الأثر في حياتي؛ إذ إنه لم يكن معلما أتعلّم منه الدروس، وإنما كان يغمرني بحنان أبوي، أنساني الشعور باليتم.

كما كان زملائي في الصف يتعاملون معي بود واحترام؛ لأنني أكتبُ لأكثرهم الدروس في دفاتر أنا أصنعها من قوائم الورق، وأوزعها عليهم مجانا؛ وعندما انتقلت إلى الصف الرابع والـخامس والسادس ظل يرعاني ويتابع دراستي بكل اهتمام.

وحتى بعد أن انتقلت إلى المدرسة العلمية فإنني كنتُ في كثير من الأحيان أذهبُ لزيارته في مكتب الأيتام والجلوس معه والاستماع إلى نصائحه وتوجيهاته. هذا الأستاذ الفاضل المربي لم أره أبدا يتناولُ العصا ويضرب أي تلميذ من تلاميذه، كما أن «الفلكة» كانت تظلُّ معلّقة في جدار الصف وكأنها ديكور، وليست آلة لشد أرجل التلاميذ وتعليقها للضرب المبرح بالعصا، وكان أسلوبه في التأديب، إمّا إخراج التلميذ من الصف، وإما توقيفه في الصف إذا خرج زملاؤه للراحة واللعب، وإما استدعاء التلميذ إليه ومعاتبته بدون توبيخ جارح، وهو يمسك أذنه ويعصرها برفق. وكنتُ أستغرب أن التلاميذ كانوا يهابونه أكثر مما يهابون المعلمين الذين يضربونهم. رحم الله الأستاذ المربي الفاضل عبد اللّه الخروش.

أخي تاجر الكدم وأمي العظيمة

كان أخي أحمد في الصف الثاني، بينما كنتُ أنا في الصف الثالث، وكنتُ في موقع يجوز أن أسمّيه موقعا قياديا لزملائي في الصف؛ أما أخي أحمد فقد كانت له اهتمامات عملية أفضل من اهتماماتي. أتى إليّ مرة وكان أستاذي عبد اللّه الخروش قد أعطاني ربع ريال، أي عشر «بقش» كاملة، وهي في ذلك الوقت بالنسبة للكثير من تلاميذ مكتب الأيتام تعتبر ثروة كبيرة، وقد أعطيتُ أخي أحمد منها بقشة واحدة، وعندما رأى بقية البقش قال لي: ما رأيك أن تعطيني هذه البقش لأشتري بها الكدم من الأولاد، وأنزل أبيعها في سوق الملح، أشتري الكدمة بربع بقشة وأبيعها بنصف بقشة، فإذا نزلنا يوم الخميس إلى البيت أعطينا أمي ما نربحه من بيع الكدم، وأعجبتني الفكرة وأعطيته الربع ريال، وهكذا أصبح أخي أحمد بعد فترة قصيرة أكبر تاجر كدم في سوق الملح، وأخبرت سيدنا عبد اللّه الخروش بذلك فضحك وأرسلني أستدعي أخي أحمد، فشجّعه وأعطاه ربع ريال آخر يطور به تجارة الكدم الرابحة.

كنتُ أنا وأخي أصغر من أن نعرف بالملاحظة ما كانت أمي تعانيه في سبيل تربيتنا؛ لأنها كانت تخفي عنا ما تعانيه. لم نكن نلاحظ أنها كانت بعد أن ننام في

الليل، تنزل لتطحن كميات من الحبوب لبعض الجيران بأجر زهيد حتى تقرّحت يداها. ولم نكن نلاحظ أنها في بعض الأيام تخرج في الصباح وتحمل كيسا كبيرا مليئا بالثياب المتسخة التي تحتاج إلى تنظيف، وتذهب إلى بستان اليهودي، لتغسل تلك الثياب بالصابون المحلي، وتنشّفها في الشمس حتى تعود بها بعد العصر. ولم تكن تلك الثياب ثيابنا؛ بل كانت ثياب بعض الجيران أيضا مقابل أجر زهيد.. ولم نكن نلاحظ أنها أحيانا لا تأكل معنا وقت الأكل، لأن الأكل أقلّ من أن يكفينا.. كانت تقول لنا إنها صائمة، ولكنني أذكر أنها مرة أكلت بقية ما تركناه من أقراص الخبز الجحين، وكان أفضل عمل شاق تقوم به هو في مناسبات الأعراس، فقد كانت مشهورة بأنها خبّازة وطبّاخة ممتازة، ولذلك كانت بعض الأسر تدعوها لتساعدها في تجهيز طعام الضيوف في المناسبات والأعراس، وتعود إلينا -مرهقة- بشيء من الخبز واللحم والخضار، لنأكل منه لمدة يومين أو ثلاثة، ولم نكن نلاحظُ أنها كانت تخيط الثياب بالإبرة والخيط لساعات طويلة في الليل على ضوء «قزازة» خافتة الضوء، تملأ أنفها بالدخان.

وفي يوم العيد كانت قد أعدّت لي ولأخي «زنّتين» من القماش الحرير الممتاز وأعطت كل واحد منا عشر بقش، وأمرتنا أن ننزل للسلام على أعمامنا في بير العزب، ونعطي أولاد أعمامنا من بقشة عسب العيد، وقد نزلتُ وسلّمتُ على عمي محمد الذي استقبلنا بكل لطف وسألني عن حال أمي، وأعطاني بقشة «عسب العيد»، كما أعطاني ريالا «فرانصي»، وقال لي: أعطه لأمك «عسب العيد»، وكان كل ما يهمني من بيت عمي هو أن التقي بصديقتي علية بنت عمي محمد، فهي الشيء الوحيد الذي أحببته في بيت عمي، وعندما وجدتُها رحّبت بي، ولعبنا في البستان ثم أعطيتُها بقشتين مما أعطتني أمي، هل كنتُ أحبُ بنت عمي في ذلك الوقت حبا أكثر من حب الصداقة؟ لقد سألتُ نفسي هذا السؤال عندما أصبحتُ شابا، وعندما بلغني أنها قد تزوجت بالقاضي عبد اللّه الشوكاني، شعرت بنوع من الحزن.

لقد كشفت لنا تجارة الكدم التي مارسها أخي أحمد وهو في الصف الثاني

ابتدائي ما كنا نجهله من معاناة أمي. لقد نزلنا يوم الخميس إلى بيتنا، لنبقى فيه مع أمي إلى صباح السبت، وسلّمنا لها ريالين فرانصي، هي أرباح تجارة الكدم خلال سبعة أيام، وفرحت أمي فرحا عظيما بالريالين، ولكنها فرحت أكثر لأن أخي تاجر الكدم قد أصبح كما قالت لنا «رجَّال»، ولم يعد طفلا، كما أنها كانت سعيدة برعاية الأستاذ عبد اللّه الخروش لي رعاية خاصة، ومن يومها اتفقتُ مع أخي أحمد أن نعطي أمي يوميا أربع كدم لها ولدجاجها البياضة.. وهكذا لم تعد أمي تطحنُ الحبوب أو تغسل الثياب للآخرين في الغيل الأسود، واكتفت بمساعدة الآخرين في تجهيز الطعام للضيوف بمناسبة الأعراس.

لماذا ضُربت، ولماذا حاولتُ الهرب

في مكتب الأيتام حدثت واقعتان ضربني بسبب كل منهما سيدنا محمد النعماني ضربا مبرحا. كان أمام المدرسة من جهة الشرق حوش يفصله شارع واسع، فيه عدة «مَدَارِه»، يلعب فيها الأولاد في أوقات الفراغ، «والمدرهة» هي الأرجوحة المعروفة، يلعب بها شخص أو شخصان. وفي يوم من الأيام لعبتُ مع صديقي أحمد الشامي في المدرهة، وعندما كنا نتأرجحُ في الهواء وندفع الخشبة بأرجلنا رأيت صديقي أحمد الشامي يسقط من المدرهة إلى الأرض، فأوقفت المدرهة ونزلت لأجد صديقي مغميا عليه، واعتقدت أنه قد مات.. وكدت أسقط مغميا عليَّ من الخوف، ومن هول الحادث.. تجمّع الناس ونقلوا صديقي إلى بيته وهو مغمي عليه، وذلك قبل غروب شمس ذلك اليوم، وقد حضر سيدنا محمد النعماني إلى بيت صديقي، وجرّني إلى مكتب الأيتام وضربني ضربا مبرحا، لأنني رفضتُ أن أُدخل رجلي إلى «الفلكة»، وعندما أفاق صديقي من الإغماء أخبرهم أنه شعر بالدوخة خلال ما كنا نلعب، ثم داخ وسقط من المدرهة وهو مغمي عليه.. ولكن هذا جاء بعد أن صار جسمي مليئا بالخطوط السوداء والحمراء التي أحدثتها عصا سيدنا محمد النعماني، وقد حزنتُ حزنا شديدا على ما حدث لصديقي أحمد الشامي، كما حزنتُ الحزن نفسه لما حدث لي من سيدنا.

وقد قرأتُ في كتاب «رياح التغيير في اليمن» الذي سجّل فيه صديقي أحمد الشامي ذكرياته، ووجدتُ فيه قصة هروبه مع أخيه عبد الوهاب إلى عدن، وهي قصة من ألطف الذكريات. ولعلها حدثت بعد أو قبل هروبي معه إلى عدن، أو أن الأمر اختلط عليه، وهذا هو الأرجح. ففي يوم من الأيام، ولعلَّ ذلك في عام 1356هـ – 1936 بعد أن ضربني سيدنا محمد النعماني ذلك الضرب المبرح فكّرنا في الهروب إلى عدن، ولم أعد أذكر من منا وسوس للآخر بفكرة الهروب؛ أما ما أذكره فهو أن شيخنا أحمد المغربي ذكر لنا مرات عديدة أن في عدن نصارى، والنصراني عندما يمشي في الشارع يخرج من جيبه حبات من الذهب ويرميها إلى الأرض، فيتسابق الناس لالتقاطها. وأخبرنا أن التاجر غمضان والتاجر المحفدي وغيرهما من التجار قد صاروا تجارا من التقاط الذهب الذي يرميه النصراني إلى الأرض.. وكان خيال شيخنا المغربي هذا هو الذي دفعنا للهروب إلى عدن، واقترن بالهروب من عصا سيدنا وفلكته، وبعد أن قرّرتُ أنا وصديقي الهروب إلى عدن، طلبت من أخي أن يعطيني الريالين اللذين يجمعهما من بيع الكدم، ونعطيهما لأمي كل يوم خميس، وقلت لصديقي: معنا الآن ريالان تكفينا مصروف الطريق إلى عدن، وهناك سوف نمشي بعد النصراني، ونجمع حبات الذهب التي يرميها إلى الأرض، ونتّجر بها، ونصبح من الأغنياء.

وخرجنا في الصباح الباكر، واتجهنا غربا، لأننا كنا نعتقد أن عدن بجانب الحديدة، ومشينا على أقدامنا حتى وصلنا قرية «متنة» الواقعة تحت جبل النبي شعيب، ودخلنا إلى المسجد وصلّينا فيه، ثم جلسنا نأكل ما أخذناه من الجحين، وبقينا حتى حضر الناس لصلاة المغرب والعشاء. لم نكن نعرف أين ننام؟ ولا كيف نواصل السفر إلى عدن! وبعد صلاة العشاء تجمّع حولنا رجال من أهل القرية وسألونا: من نحن؟ وأين سنذهب؟ وقلنا لهم سنذهب إلى مناخة عند عمّنا، وأخذنا أحدهم إلى بيته، وقدّم لنا عشاء من العصيد والمطيط، ونمنا في بيته إلى الصباح، وخرجنا معه إلى المسجد لنصلي صلاة الفجر.. وبعد الصلاة سافرنا غربا، حتى وصلنا وقت الظهر إلى قرية اسمها كما عرفنا قرية «يازل» واتجهنا إلى مسجدها وبقينا فيه، وأكلنا

بقية الـحجين التي لدينا حتى صلينا الـمغرب والعشاء، وكنا في غاية التعب، وبدأت أندم على الهروب، ولكنني لم أخبر صديقي بذلك، وكان هو يعتبر نفسه القائد في السفر، وربما كان يشعر بالندم، ولكنه لم يقل لي ذلك.

وبعد صلاة العشاء تجمّع حولنا عدد من الرجال، وسألونا: من نحن؟ ومن أين أتينا؟ وأين سنذهب؟ وقبل أن نردَّ عليهم، قال أحدهم مشيرا إلى رجل واقف أمامنا: اليوم دورك يا حاج محمد، وأخذنا الحاج محمد إلى بيته، وأكلنا معه خبزا وقهوة قشر وبعد العشاء قال لنا: يا أولاد وصل من الإمام «سلك» برقية إلى مركز مناخة يأمر بالقبض عليكم وإعادتكم إلى صنعاء أو حبسكم في الحبس.. وأنصحكم بالعودة إلى أهلكم قبل أن يقبضوا عليكم ويحبسوكم، وبعد خروجه للنوم في غرفة أخرى قلتُ لصديقي أحمد: ما رأيك نرجع لنا؟ وكان ينتظر هذا مني حتى لا يكون البادئ، وبعد صلاة الفجر أخبرنا الحاج محمد أننا سنعود إلى صنعاء وكان الحاج محمد رجلا طيبا فقال لنا: هذا أفضل لكم، لأن أهلكم في صنعاء يبحثون عنكم ويبكون خوفا عليكم، وأخذنا إلى بيته وقدّمَ لنا طعام الإفطار وكان عبارة عن مقلى من «النشوف»؛ والنشوف أكله يمنية معروفة، وبعد الصبوح أي طعام الإفطار، ذهب بنا إلى بيت رجل آخر كان يعرف أنه سيدخل صنعاء بحمارين عليهما أكياس من الحبوب لبيعها في صنعاء، وطلب منه أن يوصلنا إلى صنعاء، والريالين في جيبي لم نصرف منهما شيئا، وذهب كلٌّ إلى بيته ووجد أمه في حالة يرثى لها من التعب والبكاء، وعندما أوصلونا إلى مكتب الأيتام، وتشفّعوا لنا لدى سيدنا محمد النعماني حتى لا يضربنا وعدهم بذلك، ولكنه أمر الطلبة أن يضعوني أرضا، ويدخلوا أرجلي الفلكة، وبقيتُ أياما وأنا لا أمشي من شدة ضرب رجلي. أما صديقي أحمد فلم يضربه سيدنا محمد النعماني؛ لأنني أنا «الشيطان» الذي شجعته على الهروب، كما قال سيدنا محمد النعماني.

بعيدا عن نظرة سيدنا محمد النعماني تجاهي، قد يكون من المهم أن أذكر أنه عندما كنتُ أدرس في مكتب الأيتام في الصف السادس ربما في عام 1938، كان زميلي فيه الأخ أحمد شوبر، وهو الآن عالم وفقيه مستنير من قضاة المحكمة

العليا، وخطيب الـجمعة في مسجد كبير، يقع على شارع الـمطار. كان عمري وإياه في ذلك الوقت 13 عـامـا، وقـد تقـدّم لدينا مـا يُعـرف بدين الـ17 الذي امـتـد أربع سنوات، ولذلك كنتُ وإياه ونحن في عـمـر 13 عـامـا نعـيشُ حـالة من التـديُّن والتصوف، ولم أعد أذكر من جذب الآخر إلى هذه الـحالة، وفي أحد الأيام فكّرت وإياه أن نترك مكتب الأيتام، ونترك مدينة صنعاء، ونترك أهلها، ونذهب إلى منطقة بعيدة، ونسكن في جرف، وننقطع للعبادة وقراءة القرآن.

فكرة الدراسة في مصر والإمام يحيى

بعـد أن قمنا بتـجهـيز مـا نحتـاجه: الفانوس والغاز، والأكل، وإتريك اليد الذي يعمل بالبطارية، والـملابس، والبطانيات، وحدّدنا يوما للسفر قبل شهر رمضان بأيام، وطلعت إلى بيته وهو جوار الـجامع الكبير، وكنا قد جمعنا ما جهزناه في بيته، ولكنه تراجع عن الفكرة، وقال لي: إن دراسة العلم أفضل من الزهد، ونحن غير علماء، وقد رأيت أن الـمصاحف والكتب كلها تطبع في مصر، وأن الدراسة في مصر أفضل من الدراسة في اليمن، وعلينا أن نفكّر في السفر إلى مصر للدراسة فيها. قلتُ له: وكيف نسافر وليس معنا فلوس نركب بها السفينة في البحر!

قال: إن أبي كان حاكما «قاضيا» في ناحية أذكر أن اسمها «كعيدنة»، وقد قتله قـاتل هناك، واسـتلم الإمـام من أهل القـاتل دية أبي، ولا تزال الدية حـتى الآن لدى الإمـام، وعلينا أن نخـرج إلى الروضـة، وعندمـا يكونُ الإمـامُ في الـمـواجـهـة أطلب مقابلته، وأقدم له ورقة أطلب فيها أن يسلّمني دية أبي حتى أسافر إلى مصر، فالدية تكفينا، وخـرجنا إلى الروضـة، وبلّغ الـريمي الإمام بأن أحـمـد شـوبر يطلب الـمـقـابلة، فأشار الإمامُ بإيصال مراجعته، وعندما اطلع عليها وجَّه نظره إلى أحـمـد شوبر وأنا بجانبه، ولم يأذن له بالوصول إليه.

وبعد أن انتهى الإمام من الـمواجهة، ذهبنا مع الناس بعد الـمحفدي الذي كان يوزّع جوابات الإمام على مراجعاتهم، وقد دعا أحمد شوبر، وعندما وصل إليه قال له: يقول لك الإمام ما هذا الكلام الفارغ.. أنت تشتي تدخل الـحبس؟! وأعطاه ريـالين

وأمره بالعودة إلى مكتب الأيتام، وعدنا إلى صنعاء بعد أن فشلت الخطة، ولكنا بقينا نفكّر في السفر إلى مصر. وكتبنا مراجعة إلى سيف الإسلام عبد اللّه «ناظر المعارف» حينذاك، أي وزير المعارف، ولكن الإمام يحيى كان يتجنّب كلمة وزير ويستبدلها بكلمة «ناظر»، وبقيت المراجعة في جيبي حتى تأتي فرصة.

أوقاف الترب والمدرسة العلمية

«أوقاف التُّرَب» هي أوقاف أوقفها الواقفون على مدارس العلماء والمتعلمين في اليمن. وكانت دولة بني رسول وملوكها، وكذلك دول آل حاتم قبلها، ومنهم سيدة بنت أحمد أكثر من أوقف أخصب الأراضي على العلماء والمتعلمين في المدارس وفي الجوامع. وقد قرّر الإمامُ يحيى الاستيلاء على أراضي «أوقاف التُّرَب» في أنحاء اليمن، وفتح المدرسة العلمية التي كانت أشبه بدار العلوم في بعض البلاد العربية، ولكن منهجها الفقهي على مذهب الإمام الهادي يحيى بن الحسين، ليغطي بذلك استيلاءه على مساحات كبيرة جدا من أخصب الأراضي التي أوقفها الواقفون على مدارس العلماء والمتعلمين، وأصبحت المدرسة العلمية هي المدرسة الوحيدة التي ينفقُ عليها الإمامُ من أموال بيت المال، أو من أموال أوقاف الترب. وكان الهدفُ من فتح هذه المدرسة هو إعداد علماء وفقهاء يتولّون القضاء في اليمن، وقد اختلف التعليم فيها عن التعليم الذي كان سائدا في المساجد، ففي هذه المدرسة يتعلّم المتعلمون علوم العربية وعلوم الفقه والدين بطريقة منظمة أكثر مما كان سائدا في المساجد. وقد تخرّج من هذه المدرسة الكثير من علماء الدين والفقه، وانتشر في أوساط طلبة المدرسة الكثير من كتب الأدب والتاريخ والشعر إلى جانب علوم الدين.

وذات يوم وأنا في حارة «القزالي» رأيت سيف الإسلام عبد اللّه فجأة يدخل من زقاق يؤدي إلى حارة الجلاء، وعرفت فيما بعد أنه كان ذاهبا إلى بيت السيد أحمد عبد الوهاب الوريث لزيارته في مرضه الأخير. وجريتُ في الزقاق حتى مشيت بجانبه، وأعطيتُه المراجعة، وقلت له نريد السفر إلى مصر للدراسة فيها، ونرجو أن

تسهّلوا لنا ذلك، فقال لي بلطف وهو يبتسم: الأفضل نقلكم إلى المدرسة العلمية، وفيها كل ما في مصر من علوم، وأخرج «قلمه العباسي» كما كنا نسمّي هذا النوع من الأقلام، وكتب في المراجعة إفادة إلى مدير المدرسة العلمية بقبولنا في المدرسة والعناية بنا، ولعل ذلك في عام 1939.

وقبل أن أنتقل إلى المدرسة العلمية عرفت أن صديقي أحمد الشامي قد عمموه، أي ألبسوه عمامة، بدلا من الكوفية، وسوف يزفونه بمناسبة ختمه القرآن. وانتظرتُ الزفة، وإذا بصديقي على حصان زيّنوه بقلائد فالصو، وربما كان من خيل الإمام، وألبسوه جوخا أزرق، وعلى رأسه عمامة، والناس من حوله يزفّونه ويمسكون بلجام الحصان، وكان صديقي يبدو على الحصان وكأنه أمير وسيم من الأمراء، ولكنه بدلا من أن يبتسم بقي «مُبرطما» ربما كان متهيّبا للموقف، وربما لأنه يركب على الحصان لأول مرة في حياته. ومشيتُ مع الناس أزفُّ صديقي بكل حماسة، وأتمنى أن يزفوني مثله وأنا معهم على الحصان.

لقد أصبح صديقي والعمامة على رأسه «رجلا»، إذا وقف طفل في الصف عند صلاة الجماعة فإن أي رجل يأتي يزحزح الطفل من الصف، ليقف الرجل بجانب الكبار. وكنتُ لا أزالُ بالكوفية، ولذلك فمن حق الكبار أن يزحزحوني من الصف عند صلاة الجماعة، وكان صديقي أحمد الشامي يتعمّد أن يتأخر حتى إذا رآني أقف للصلاة في الصف أتى وزحزحني ليحلَّ محلي، وغالبا كان يغالبُ الضحك، بينما أنا أغالب الحنق، ولهذا طلبتُ من أمي أن «تعمّمني» عندما انتقلت إلى المدرسة العلمية، وأصبحتُ بالعمامة رجلا لا يستطيع صديقي ولا أكبر كبير أن يزحزحني من الصف. وكان صديقي أحمد الشامي يدرسُ على يد شيخه وعمه عبد الرحمن الشامي، وبعض العلماء من أصدقاء عمه، وقد عرّفني بعمه، كما عرّفني بالعالم والمؤرخ الكبير محمد بن محمد زبارة، وولده أحمد محمد زبارة، وعرّفني بالشاعر والمثقف والعالم الكبير عبد الكريم الأمير.

الفصل الخامس
مرحلة التثقيف الذاتي

لم تستمر دراستي في المدرسة العلمية أكثر من عامين، ثم انتقلت إلى صف في المدرسة المتوسطة كانوا يسمّونه «مكتب الكُتّاب»، ومهمته تدريب الدارسين فيه على أعمال وظائف الكُتّاب والمحاسبين، ولعل ذلك في أواخر عام 1940. ولم يكن في ذهني أو في خيالي أن الانتقال إلى المدرسة المتوسطة سيكون انتقالة حاسمة وغير متوقعة لحياتي وحياة صديقي أحمد الشامي، تغيّر بها كلُّ شيء في حياتنا.. انتقالة من الظلام إلى النور.. ومن طموحاتنا الذاتية إلى طموحاتنا الوطنية، كان ذلك في عام 1940، وقد فُتحت المدرسة حديثا، لتكون أول مدرسة شبه إعدادية في اليمن. وكان مديرها الأستاذ محمد مصطفى الحلبي، ووالده من حلب كان موظفا تركيا، وأمه من قرية حدة القريبة من صنعاء جنوبا، وكان المدير شخصية مثقفة في منتهى الرشاقة والأناقة، يعيشُ النظافة والنظام، ولذلك كان يحبُّ أن يرى أساتذة المدرسة وطلبتها في ملابس نظيفة.

أما أساتذةُ المدرسة فقد كانوا من أفراد البعثة التي بعثها الإمامُ إلى العراق في أواخر عام 1937، وعادوا في عام 1939. كان الأستاذ محيي الدين العنسي مدرّس الرياضيات، وكان المشير عبد اللّه السلّال مدرّس الرياضة، وكان الأستاذ علي العنسي مدرّس علوم الدين، وكان الأستاذ أحمد حسن الحورش مدرّس علوم العربية والتاريخ، وأما أحمد البراق فلم أعد أذكر المادة التي كان يدرّسها؛ أما الأستاذ أحمد حسين المروني فقد كان يدرّسُ المحفوظات من شعر ونثر. وقد جمع أساتذةُ المدرسة أكثر من مئتي كتاب، في غرفة من غرف المدرسة، لتكون مكتبة حتى يتم تعويد الطلبة على القراءة والمطالعة، وعيّنوا زميلنا الطالب علي الجناتي أمينا للمكتبة، وجعلوا لها

أحمد الحورش المعلم العظيم

نظاما يمنع خروج أي كتاب من المدرسة، وربما كنتُ أكثر الطلبة حبا لقراءة الكتب، وكان بيني وبين أمين المكتبة علي الجناتي صداقة من مكتب الأيتام، وقد أقنعتُه أن يعيرني كتاب تاريخ التمدن الإسلامي، تأليف جورجي زيدان، وأخذتُه معي إلى البيت، وعندما بلغ الأستاذ الحورش ذلك عاتب أمين المكتبة، وبعد نهاية الدراسة وقت الظهر استدعاني إليه، وخرجنا نمشي معا راجلين، إذ لا وجود لوسائل نقل من الحيوانات أو السيارات. وفي الطريق قال لي: سوف آخذك إلى بيتي وأعيرك ما ترغبُ في قراءته من كتب حتى لا تخالف نظام مكتبة المدرسة.. وخلال سيرنا إلى بيته في حارة عقيل حدثتُه بحماسة جادة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الوصي الذي أوصى له رسول الله بأن يكون الخليفة من بعده، وعن اغتصاب أبي بكر وعمر للخلافة، وكان الأستاذ الحورش يستمع إليّ دون أن يعلّق.

وعندما وصلنا إلى بيته الصغير في حارة عقيل وجدنا خارج بابه الصغير -الذي كان عليّ أن أنحني حتى أتمكّن من الدخول- بقرة يُطعمُها والده قصب الذرة بعد أن يغلّف القصب «بالقضب» البرسيم، وهو جالس في «دهليز» البيت الذي لا يتسع إلا له لصغره! وبعد أن تنحى لنا صعدنا عدة درجات، ثم دخلنا غرفة صغيرة، ورأيتُ فيها كتب الأستاذ مرصوفة بعضها فوق بعض، بارتفاع يزيد على متر، في دائرة تستند إلى جدران الغرفة، ولها فتحة صغيرة يدخل منها إلى وسطها، وفيه فرش ومخدة وبطانية.. كانت هذه الغرفة الصغيرة هي مكتبة الأستاذ، وغرفة نومه، وغرفة الجلوس، بدون أن يكون فيها محل للجلوس إلا على فراش نوم الأستاذ.. كنتُ مبهورا بما أرى، وكأني دخلتُ إلى عالم سحري رائع.. وأجلسني الأستاذُ على فرش النوم، وبقي واقفا يفتش عن كتاب، وسرعان ما وجده.! وكأنَّ ركام الكتب مؤرشفة في ذاكرته، يعرف أين يقع الكتاب المطلوب وسط ذلك الركام.. أخرج الأستاذ

أربعة مجلدات ضخمة، وقال لي: هذه الكتب الأربعة هي شرح نهج البلاغة، وفيها خطب أمير المؤمنين، الإمام علي بن أبي طالب، عليه السلام، وقد شرحها ابن أبي الحديد. خذ هذه المجلدات وطالعها وأرجعها، لكي أعطيك غيرها، وكانت هذه اللحظة هي بداية الانتقال من الظلمات إلى النور.

صديقي وحادثة سقيفة بني ساعدة

عدتُ إلى بيتي وأنا أكادُ أطيرُ من الفرح، واستدعيت صديقي أحمد الشامي وأخبرته الخبر وأمامي مجلدات «نهج البلاغة»، شرح ابن أبي الحديد. وبدأنا نقرأ المجلد الأول، الذي تضمن مرض رسول الله وموته، وما جرى من أحداث خلال ذلك. ووصلنا إلى «حديث السقيفة» أو مؤتمر سقيفة بني ساعدة، واجتماع الأنصار من الأوس والخزرج فيها، لمبايعة سعد بن عبادة، خليفة لرسول الله وأميرا للمؤمنين، وما دار من حوار في مؤتمر السقيفة. كنتُ أتخيّلُ نفسي داخل المؤتمر، أو داخل السقيفة أراقبُ ما يجري فيها وحولها عقب انتشار خبر موت الرسول. كان الأنصارُ من الأوس والخزرج يتوافدون على سقيفة بني ساعدة، ولديهم قناعة بأنهم أصحاب الأرض، وأنهم الذين آوَوْا ونصروا، حتى صار للإسلام دولة عاصمتها مدينتهم، ومن حقهم اختيار خلف أو خليفة لرسول الله منهم، ورأيتهم يتحلّقون داخل السقيفة حول سعد بن عبادة الذي كان مُزّملا، نتيجة مرض ألمَّ به، ويتناقشون في موضوع تولي الخلافة، أو تولي الأمر بعد الرسول. قال بعضُهم لبعض: لو أن المهاجرين نازعونا الأمر ماذا نردُّ عليهم؟، وقال آخرون: نقولُ لهم منا أمير ومنكم أمير؛ فقال سعد بن عبادة: هذا أولُ الوهن.. وفجأة رأيتُ ثلاثة رجال يدخلون إلى السقيفة، وتأكّدتُ أنهم: أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، ويبدأ الحوارُ بين هؤلاء الثلاثة وبين الأنصار. وأراد عمر أن يتكلّم فأوقفه أبو بكر عن الكلام وتكلّم مخاطبا الأنصار، فذكر قرب المهاجرين من رسول الله، وأنهم أولياؤه وعترته، ثم قال: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا نفتئت عليكم بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور. فقام الحباب بن المنذر بن الجموح وقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم، فإن

الناس في ظلكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولا يصدرُ أحد إلا عن رأيكم، أنتم أهل العزة والـمنعة وأولي العدد والكثرة وذوي البأس والنجدة؛ وإنما ينظر الناسُ ما تصنعون، فلا تختلفوا فتفسد عليكم أموركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات.. لا يجتمع سيفان في غمد، والله لا ترضى العربُ أن تؤمَّركم ونبيها من غيركم، ولا تمتنع العربُ أن تولي أمرها من كانت النبوة منهم من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته. فقال الحباب بن المنذر: يا معشر الأنصار املكوا أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهب بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فأجْلُوهم من هذه البلاد، فأنتم أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدين. أنا جذيلها المحقق وعذيقها المرجب. أنا أبو شبل في عرينه الأسد، والله إن شئتم لنعيدنّها جذعة. فقال عمر: إذا يقتلك الله قال: بل إياك يقتل. فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار؛ إنكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر. فقام بشير بن سعد والد النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار ألا إن محمدا من قريش، وقومه أولى به، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر. فقال أبوبكر: هذا عمر وأبو عبيدة، بايعوا أيهما شئتم فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك، وأنت أفضلُ المهاجرين وخليفة رسول الله في الصلاة، وهي أفضل الدين، أبسط يدك، فلما بسط يده ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير عققت عقاق أنفست على ابن عمك الإمارة! فقال أسيد بن حضير رئيس الأوس لأصحابه: والله لئن لم تبايعوا ليكوننَّ للخزرج عليكم الفضيلة أبدا، فقاموا فبايعوا أبا بكر.

فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب، ثم حُمل سعد بن عبادة إلى داره، فبقي أياما، وأرسل إليه أبوبكر ليبايع، فقال: لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي، وأخضب سنان رمحي، وأضرب بسيفي ما أطاعني، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن تبعني، ولو اجتمعت معكم الإنس والجن ما بايعتُكم حتى أعرض على ربي. فقال عمر: لا تدعه حتى يبايع؛ فقال

بشير بن سعد: إنه قد لجَّ وليس بمبايع لكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يُقتلَ معه أهله وطائفة من عشيرته، والله لا يضركم تركه، إنما هو رجل واحد، فتركوه.

هذا ما قرأتُه في شرح «نهج البلاغة»، لابن أبي الحديد، في ريعان الشباب، وحينذاك شعرتُ أن كل ثوابت التشيّع في فكري وفي وجداني تهتزُّ وتنهار، وكأنّ زلزالا عنيفا قد انفجر داخل كياني. شعرت بالفزع.. صرخت بدون اختياري وأنا أحملق في وجه صديقي أحمد الشامي متسائلا: ما هذا الذي يحدث؟ كيف لا يتذكر واحد من الأنصار في سقيفة بني ساعدة الذين اجتمعوا لمبايعة زعيمهم سعد بن عبادة وصية رسول الله بالخلافة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ كيف لم يحتج أحد من محبي الإمام علي بحديث الوصية؟ كيف بايع بقية المهاجرين أبا بكر خليفة لرسول الله دون أن يقول له واحد منهم.. لا.. لا.. إن رسول الله قد أوصى بأن خليفته من بعده علي بن أبي طالب؟ ثم تمتمتُ بصوت مسموع: مستحيل.. مستحيل أن تكون الوصية صحيحة، وفي خطبة الغدير التي أعلن الرسول فيها وصيته بأن يكون الإمام علي بن أبي طالب الخليفة من بعده، وجموع المسلمين والصحابة من المهاجرين والأنصار يستمعون إلى خطابه ووصيته، ثم لا يتذكّر أحد منهم هذه الوصية حتى علي بن أبي طالب نفسه.

ثم هدأتُ وأنا أحسُّ أن كل شيء في كياني قد انهار بانهيار ثوابت التشيّع. كانت تلك الثوابت، هي أساس إسلامي وعقيدتي، وفزعتُ فزعا شديدا وأنا أحسُّ بها تنهار بانهيار أساسها، ورفعت صوتي بالاستغفار: أستغفر الله.. أستغفر الله.

وقال لي صديقي أحمد الشامي: مالك تستغفر وكأنك ارتكبتَ إثما؟

وأجبته: إن ثوابت التشيّع في عقلي وضميري قد انهارت.. كان إيماني بالإسلام قائما على تلك الثوابت، وهكذا أحسستُ أنه قد انهارَ بانهيارها.

وقال لي صديقي: وكيف تأكّدت أن ما قرأناه في هذا الكتاب هو الصحيح؟

وسألته: هل بايع الإمامُ علي -عليه السلام- أبا بكر.. ثم بايع عمر بن الخطاب.. ثم بايع عثمان بن عفان؟ وأجاب: نعم كان مضطرا...! قلتُ له: إنه بذلك قد خالف وصية رسول الله، ولا يجوز له أن يخالف ذلك، ولو كان يعلمُ أن

الرسول أوصى له بالخلافة، لذكّر المسلمين بها، ولرفض مبايعة أبي بكر، وعمر، وعثمان؛ بل كان في إمكانه أن يكون الخليفة الأول ببيعة جماعية، قبل بيعة أبي بكر، فقد عرض عليه أبو سفيان أن يبايعه ومعه عمه العباس وقال له: أمدد يدك أبايعك، والله لأملأنّها عليهم خيلا ورجالا؟ ولكن الإمام علي رفض وقال له: والله ما أردتَ إلا الفتنة.. صحيح أن الإمام عليا ـ عليه السلام ـ كان يرى أنه أحقُّ بالخلافة من أبي بكر، ولكن هذا الحق كان يقوم على ما يراه هو، لا على وصية الرسول له بالخلافة.. وبقيتُ أتحاورُ مع صديقي أياما حول الموضوع، ومع استمرار القراءة تكشّفت لنا حقائق أخرى، فهذا العباس عم رسول الله يخرج من حجرة الرسول في مرضه الأخير، ويلقى عليا يريد الدخول إلى الحجرة، فيقول له العباس: «إنني لأعرف تربة الموت في وجوه بني هاشم، وقد رأيتُها في وجه رسول الله فادخل عليه وأسأله: إن كان الأمر لنا أوصى به، وإن لم يكن أوصى بنا خيرا».. فردَّ عليه الإمامُ علي: «والله لا أسأله ذلك، فلو قال إن الأمر ليس لنا لما أعطاه الناس لنا إلى يوم القيامة». وذهبت إلى أستاذي أحمد حسن الحورش وشرحت له ما حدث، وقلت له: «إنني خائف لأن إيماني بالإسلام كان قائما على التشيّع، وقد تزعزع مع انهيار أفكار التشيّع في عقلي».

الأستاذ الحورش يثبِّت الإيمان في قلبي

في البداية قال لي الأستاذ بهدوئه المعهود: «اسمع يا محمد، الحمد لله أنك اكتشفت الحقيقة بنفسك، لأن اكتشاف الإنسان للحقيقة بنفسه هو أفضلُ طريقة لاقتناعه بها.. ولكن يجب أن تفرّق بين الإسلام كعقيدة وشريعة، وبين المسلمين، فالمسلمون ليسوا الإسلام. المسلمون بشر يخطئون ويصيبون، وقد يستغل بعضُهم الإسلام، ليستر به انحرافه عنه، لتحقيق مصالح ومطامح ذاتية.. ومذاهب المسلمين وآراؤهم في الإسلام فيها الصواب والخطأ، وليست المصدر الذي علينا أن نأخذ ديننا منه؛ بل علينا أن نجعل كتاب الله وأحاديث رسول الله الصحيحة التي لا تتناقض مع كتاب الله المصدرين الأساسيين للفصل في أي خلاف يحدث بين

المسلمين، وأن نتجاوز المذاهب إليهما. إن الإسلام يقوم على الحق والتسامح، لا على الخطأ والانحراف والتعصب.

وكان المسلمون في عهد رسول الله وعهود الخلفاء الراشدين يرجعون إلى النص القرآني، أو النص النبوي الذي لا يخالفُ النصَّ القرآني، ويتعاملون بالنصوص في سلوكهم وتعاملهم وفتاواهم وفهمهم لمضمون النص. وعندما تحوّل الحكمُ الإسلامي إلى مُلك عضوض في عهود الأمويين، ابتداء بمعاوية، وانتهاء بمروان بن محمد المعروف بمروان الحمار، بدأ فقهاءُ السلطان يبتدعون فقها يبتعدون به عن النص، وتبعهم العباسيون في ذلك. أما القضية التي مزَّقت المسلمين إلى اليوم فقد كانت قضية الخليفة والخلافة، والإمام والإمامة.. وكانت البداية هي بيعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله في سقيفة بني ساعدة، كما قرأت أحداثها في شرح بن أبي الحديد. وقد وصف الخليفة عمر بن الخطاب بيعة أبي بكر بأنها فلتة وقى الله المسلمين شرها.. لماذا؟ لأنها لم تكن في البداية بيعة من عموم المهاجرين والأنصار في اختيار عام، وإنما تمت من الأنصار أولا، وتبعهم المهاجرون فيما بعد..

وكان -حينذاك - إجماع بأن رسول الله لم يُوصِ قبل موته لشخص، أو أسرة، أو قبيلة بخلافته؛ لأنّ ذلك حق للمسلمين جميعا، يختارون من يرونه صالحا من المسلمين، ولم يقل أحد -حينذاك - إن الخلافة أو الإمامة هي نظامُ الحكم الإسلامي، فقد سُئل أبو بكر: هل أنت خليفة رسول الله؟ فأجاب: «أنا خلَفُه ولستُ خليفته».. وكان أبو بكر يعرف أن بني أمية وبني هاشم يستكثرون عليه الخلافة، لأنه من أصغر قبائل قريش. كما كان يعرفُ طموحات كبار الصحابة من المهاجرين إلى الخلافة، ولذلك استدعاهم وعرض عليهم في أن يخلفه عمر بن الخطاب، وتم له ذلك.. وكلّف عمر هيئة مكونة من ستة قرشيين، ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين، ومنهم علي بن أبي طالب من بني هاشم، وعثمان بن عفان من بني أمية، وتولاها عثمان، والتفَّ حوله الأمويون يخططون للاستئثار بالحكم.. جاء أبو سفيان إلى عثمان وقال له ما معناه: «علينا أن نعضَّ عليها بالنواجذ، فالأمر ملك

لا نبوّة»، وكانت النتيجة لذلك المخطط الأموي قتل عثمان، وما جرّه ذلك من فتنة لا تزال آثارها إلى اليوم، وهي من تداعيات الخلافة والإمامة.

وبعد مقتل عثمان بايع الناسُ علي بن أبي طالب أميرا للمؤمنين، وكان ما كان من خروج عائشة أم المؤمنين عليه ومعها طلحة والزبير، ووقعة الجمل التي قُتل فيها الزبير بن العوام، واغتيل فيها طلحة على يد مروان بن الحكم من بني أمية، تمهيدا لاستيلاء معاوية بن أبي سفيان، والي الشام حينذاك على الحكم، فقد رفض إجماع المسلمين، وتمرد على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأثار ما سمّي حتى اليوم فتنة قتل عثمان، وكان ما كان بينهما من حروب.. ثم خروج الخوارج على علي عليه السلام، ثم قتله في الكوفة، ومبايعة الناس لابنه الحسن، وتنازل الحسن لمعاوية، وقيام دولة بني أمية الذين حوّلوا الحكم الإسلامي إلى ملك عضوض، وحاولوا أن يُضفوا على أنفسهم وملكهم قداسة دينية، باعتبارهم خلفاء رسول الله، وحولوا الخليفة – كشخص- إلى خلافة كنظام للحكم الإسلامي، وكان ما كان حتى اليوم. ثم أردف قائلا: عليك أن تقرأ كثيرا، وتثقف نفسك ثقافة واسعة، وتُفتّح عقلك لاستيعاب الآراء المختلفة، وتمحّصها وتحلّلها بتجرد وموضوعية، لتصل إلى الحقيقة». هذا مضمونُ ما حدثني به أستاذي أحمد حسن الحورش، وقد ثبّتَ هذا الحديثُ الإيمان في فكري ووجداني. واستمعتُ لآرائه ونصيحته، وتفرّغتُ للقراءة والدراسة والتثقيف الذاتي.

وكان حديثُ السقيفة، أو مؤتمرُ الأنصار في السقيفة بداية التحول الجذري في حياتي، ولهذا وجدت وأنا أكتب ذكرياتي أن من المفيد أن يكون «حديث السقيفة» كما سمّاه المؤرخون، أو «حادث السقيفة» كما ينبغي أن يسمّى؛ لأنه حادث أو حدث جرّ نفسه سلبا على سير أحداث التاريخ الإسلامي منذ حدوثه قبل ألف ومئة وأربعين عاما عقب موت رسول الله، وحتى يومنا هذا. وبعد أن أصبحت ثقافتي العامة واسعة في كثير من المجالات أدبا وشعرا وتاريخا وفقها استرجعتُ ما قرأته في ذلك الزمان عن حديث السقيفة، وتكونت لديّ قناعة بأن كل الخلافات بين المسلمين تنبعُ من موضوع الخليفة والخلافة والإمام والإمامة، وتكونت لديَّ قناعة بأن الاعتماد على

أحداث التاريخ في حكمي على الأمور أصح من الاعتماد على الأحاديث.

كما أصبحت لديَّ قناعة بأن موضوع الخلافة وموضوع الإمامة وموضوع الخليفة والإمام لم تكن واردة في ذهن أحد من الصحابة، ولا حتى في ذهن رسول الله، وأنه لم يُوصِ لأحد بأن يخلفه عند موته لأن قضية الحكم في الإسلام واختيار الحاكم من حق المسلمين جميعا، ترشيحا وترشُّحا، كما تولدت لديَّ قناعة بأن الإسلام لم يحدد شكل الحكم؛ لأن هذا التحديد من حق المسلمين جميعا، فلا الخلافة هي الشكل الإسلامي للحكم بالنص، ولا الإمامة هي الشكل الإسلامي للحكم بالنص؛ فذلك متروك للمسلمين يحدّدون شكل الحكم بما يتناسبُ معهم مكانا وزمانا.. ولكن هذه القناعة لديَّ لا أثر لها فيما حدث من أحداث في مراحل التاريخ الإسلامي منذ سقيفة بني ساعدة حتى اليوم؛ فالشيعةُ بكل طوائفهم المتعددة -وما أكثرها- يذهبون إلى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو الخليفة الموصى له بها، إمّا من الرسول، أو من الله، وأكثر طوائف الشيعة تحصرُ الإمامة في أولاد الحسن والحسين؛ بل إن بعض الشيعة يحصرُ الخلافة في أولاد الحسين فقط.! وكان طابع المغالاة في هذا بارزا في أكثر الطوائف الشيعية، بحيث وصل الأمر بهم إلى تكفير الصحابة، وتكفير ولعن أبي بكر وعمر وعثمان. ويقابلُ طوائف الشيعة ما يُسمّى بالمذاهب السنية، وأكثرُها يعتقد أن الخلافة حق من حقوق قريش، طبقا لحديث نبوي، يروونه حول ذلك.

كنتُ في بداية حياتي شيعيا جارودیا، والجارودية طائفة محسوبة على الزيدية؛ أي منسوبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وهي طائفة تُعتبرُ من الغُلاة الذين يكفّرون الصحابة، ويكفّرون أبابكر وعمر، وهم بهذا لا صلة لهم بزيد بن علي ولا مذهب زيد بن علي. وبعد أن تعمّقت في دراسة المذاهب الدينية المتعددة أصبحت لديَّ قناعة بأنَّ مذهب زيد بن علي رضي الله عنه هو أنقى مذهب إسلامي وأقرب مذهب إسلامي إلى روح الإسلام، فزيد بن علي في موضوع الإمامة لديه قاعدة تقولُ بتولي المفضول على الفاضل. وبهذه القاعدة أيّد صحة تولي أبي بكر وعمر للخلافة، مع وجود علي بن أبي طالب

الذي يرى أنه أفضل منهم. كما أن زيد بن علي رضي الله عنه كان يؤمنُ بأن الولاية على المسلمين حق لكل مسلم يختارُه المسلمون إذا كان مؤهلا لتولي أمور المسلمين. وهكذا وجدتُ نفسي زيديا على مذهب زيد بن علي، لا على مذهب الطوائف التي حاولت الانتساب إلى مذهب زيد.

وذاتَ يوم تذكّرتُ أنني كنتُ في المدرسة العلمية أدرسُ مع الطلبة كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، وأخذتُه معي إلى وادي بقلان لزيارة عمي علي، شقيق والدي، وهو من علماء السنة المجتهدين الذين لا يقلّدون مذهبا من المذاهب، وعندما رأى الكتاب في يدي قال لي: «هذا الكتابُ وأمثاله لا ينبغي لك قراءته من الآن، إنه كما يسمّونه «دهليز الكفر»، ولا يجوزُ أن تقرأه إلا بعد أن تصبحَ عالما مجتهدا متبحّرا في علوم الدين». ذكرتُ كلام عمي هذا، وذهبتُ إلى الأستاذ الحورش وقلت له: «إنني لستُ عالما مجتهدا في علوم الدين؛ فكيف أتركُ تقليد المذهب في هذه الحالة»! وابتسم أستاذي ابتسامته المحببة البريئة، وقال لي ما معناه: «هل كان الصحابة جميعا – رضي الله عنهم- يحفظون القرآن الكريم كاملا؟ لقد كان القراءُ من الصحابة الذين يحفظون القرآن كاملا ويتدارسونه مع بعضهم، أو مع رسول الله عليه الصلاة والسلام قلائل، وكان أكثرُ الصحابة يحفظون بعضَ سُور أو آيات من القرآن، وبعضُهم يحفظون سُورا أو آيات أخرى. ولم يكن القرآنُ الكريم قد جُمعَ في مصحف واحد، ولذلك كانت توجد عند بعض الصحابة سور وأجزاء من القرآن مكتوبة، وعند بعضهم غيرها، ولم يتم جمع القرآن في مصحف واحد مُعتمد إلا في عهد عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وأمكن لبعض الصحابة وغيرهم الاطلاع على جميع سُور وآيات القرآن بعد ذلك.

وقل مثل ذلك في أحاديث الرسول، فرواةُ الحديث من أصحابه وزوجاته قلائل، وكل منهم يحدّثُ أحاديث سمعها وحفظها من رسول الله، ربما لم يسمعها آخرون، وسمعوا وحفظوا غيرها. وظلَّ الصحابة والتابعون لهم بإحسان يروون الحديث شفهيا إلى بعد النصف الثاني من القرن الثاني من الهجرة؛ لأنَّ بعض رجال الحديث كانوا يحرصون على عدم تدوين أحاديث الرسول، خوفا من الافتراء عليه،

ولم يتكامل تدوينُ أحاديث الرسول في كتب مستقلة إلا ابتداء من القرن الثالث الهجري؛ أي بعد مرور ثلاثمئة سنة من ظهور الإسلام. ولم تكن في عهود الصحابة والتابعين مذاهب يقلّدونها، حتى يصبحوا علماء مجتهدين، كما يقولون لنا بعد ظهور المذاهب الإسلامية على اختلافها.. وكل مذهب منسوب إلى إمام، كون مذهبه من الكتاب والسنة، ولكنهم اختلفوا في مسائل بسبب ترجيح مرجع على مرجع، أو بسبب اختلاف مفهوم كل منهم لمسألة من المسائل، أو بسبب ما وضعه فقهاءُ القياصرة من بني أمية، وفقهاء الأباطرة من بني العباس، أو فقهاء فرق الشيعة وفرق السنة من أحاديث لخدمة السياسة، لا لخدمة الدين.

وبعد ظهور المذاهب حاول فقهاءُ أو علماءُ كل مذهب تكريس تقليد أتباعهم للمذهب، ووصل الأمرُ إلى حد التعصب والبعد عن روح الإسلام، وجعلوا التبحر في علوم الدين شرطا للاجتهاد عند بعض المذاهب، وهناك مذاهبُ حرّمت الاجتهاد في الدين، وأوجبت تقليد المذهب مهما تبحّر عالم ما في علوم الدين. وهذا كان قبل مئات السنين عندما كان توفُّر مصاحف القرآن وتفاسيره، ومجاميع الحديث ومسانيده نادرة جدا؛ أما اليوم فقد وفّرت المطابعُ طبع المصاحف بالملايين، وطبع مجاميع ومسانيد الحديث كذلك، وأصبحت آياتُ القرآن مفهرسة، يستطيع أي قارئ أن يجد الآية أو يجد أحكام القرآن في آياته بكل سهولة، ويستطيع أن يرجع إلى تفاسير كثيرة لكبار العلماء في القديم والحديث.

وكذلك كتب أحاديث الرسول أصبحت مرتبة بحسب مواضيعها وأحكامها، ومفهرسة يستطيع أي قارئ أن يرجع إلى أي مسند للحديث، ويعثر بسهولة على الحديث أو الموضوع الذي يبحث عنه، ولذلك فإن التبحر في العلم لم يعد بحاجة إلى أن يقضي طالب العلم سنوات طويلة، ليصل إلى الاجتهاد في علوم الدين. إن علوم الدين متوفرة الآن بشكل يستطيع أي قارئ يفهم ما يقرأ أن يصبح مُتبحرا ومجتهدا بدون تقليد أي مذهب في مسألة أو مسائل بعينها. أما التبحرُ في علوم الدين فهذا تخصص مثل التخصص في الطب، أو الأدب، أو اللغة، أو الهندسة، أو الرياضيات. إن التقليد في هذا العصر لا يجوز لأي متعلم تخرّج من المرحلة

الثانوية؛ لأن في إمكانه أن يعرف أي حُكم شرعي، أو أي موضوع ديني في الكتاب والسنة بكل سهولة. وفي الجامع الكبير مكتبة تحتوي على كل الكتب في علوم الدين تقريبا، فكيف يجوزُ لك ولي أن نقلّد»! هذا مضمونُ ما قاله أستاذي الشهيد أحمد الحورش رحمه الله. وخرجتُ من بيت أستاذي الحورش وأنا مقتنع بأنني أستطيعُ أن أرجع للكتاب أو السنة بدون حاجة إلى التقليد، وبدون حاجة أن أكون متخصصا في علوم الدين، حتى أكون مجتهدا اجتهادا شاملا؛ إذ في إمكاني الاجتهاد في مسائل معينة، اجتهادا جزئيا.

مكتبة الحورش وثقافة الأحرار

أستطيعُ أن أقول بثقة إن مكتبة الأستاذ الشهيد أحمد حسن الحورش كانت المصدر الأساسي، وليس الوحيد لثقافة الأحرار منذ قدومه من العراق في عام 1939؛ أما قبل ذلك فقد كان المثقفون المستنيرون بشكل عام متأثرين بالعلوم الدينية والعربية، وبأفكار الهمداني، ونشوان الحميري، والمقبلي، والجلال، والأمير، والوزير، والشوكاني؛ أما جانب الأدب والشعر والتاريخ فإنَّ ثقافتهم تكوّنت مما وصل إليهم من الشعر الجاهلي والإسلامي، ومن كتب الأدب والتاريخ، بما فيها بعضُ الكتب الحديثة في الثلاثينيات وما قبلها، مثل شعر شوقي وحافظ والجواهري والعبيدي وغيرهم من الكتّاب والشعراء. هذا بالنسبة لثقافة الجيل الأول من المستنيرين الأحرار من أمثال: أحمد عبد الوهاب الوريث، وأحمد المطاع، والعزي صالح السنيدار، والشيخ حسن الدعيس، وعبد السلام صبرة، وآل الحداد، وآل السياغي، وآل الديلمي، وآل الإرياني، ومع ذلك فقد كان لمكتبة الأستاذ الحورش أثر في تحديث ثقافة أكثرهم؛ أما الجيلُ الثاني من المستنيرين الأحرار فقد امتزجت ثقافتهم التقليدية بثقافة حديثة جديدة، كانت مكتبة الأستاذ الحورش أهم مصادرها؛ لأنه خلال شرائه للكتب كان يختارُها كحامل رسالة وطنية، هدفه منها نشر الوعي والتنوير في اليمن، وكان لا يشتري كتابا إلا بعد أن يفكّر في تأثيره على عقول من يقرأه وعيا وتنويرا.

كان أستاذي وشيخي أحمد حسن الحورش هو مثلي الأعلى في الحياة، وبعد أن توطّدت العلاقة بيني وبينه كنتُ -دائما- أشعر أنني أعيشُ مع الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، أو مع راهب الهند الثائر غاندي. كان أستاذي الحورش لا يقلُّ زهدا ومثالية وطهرا وإيمانا بالمُثل العليا من أبي ذر أو غاندي.. وكنتُ أتساءل: كيف صار هكذا؟ ولكني كنتُ أتهيّبُ توجيه التساؤل إليه، ومرة سألتُه كيف اهتدى إلى الحقيقة؟ فقال لي ما معناه: «في لحظة كلمح البصر، تكشّفت لي الحقيقة، كنتُ أحد أفراد البعثة الطلابية التي بعثها الإمامُ يحيى للدراسة العسكرية في العراق عام 1937».

في الحديدة ركبنا على باخرة تجارية متجهة إلى العراق، وعندما أقبل المساءُ دخل أحد العاملين في الباخرة إلى المكان الذي كنا فيه، وضغط بإصبعه على شيء في جدار المكان، وفجأة رأينا المصابيح في السقف تشتعلُ نورا وتغمرُ المكان بضوء لم أره في حياتي، ولم يخطر على بالي، وجريتُ وراء من أشعل النور، وسألتُه: من أين جاء هذا النور؟ فقال لي هذا نور الكهرباء. وهكذا عندما أضاءت المصابيح بنور الكهرباء أحسستُ أنها لم تنر المكان فحسب، وإنما أضاءت في عقلي ونفسي وضميري فاكتشفت الحقيقة. وعدتُ إلى مكاني في الباخرة، وأخرجتُ قلما وورقة، وكتبتُ في ضوء الكهرباء للإمام أول رسالة أكتبُها إليه في حياتي. لقد وصفتُ له الباخرة وكهرباء الباخرة، وطلبتُ منه أن ينير بيوت الناس في اليمن بالكهرباء، ولم أكن أعرف أنه ينير قصره بالكهرباء.. كنتُ أعتقد أنه لا يعرف أن في العالم كهرباء، وربما كان من حسن الحظ أن هذه الرسالة لم تصل إلى الإمام، ولو أنها وصلت لأعادنا من الباخرة قبل أن تبحر. كانت تلك اللحظة هي التي أقنعتني بأن العلم بالدين والدنيا هو الذي يكشفُ الحقيقة للناس، وصمّمتُ أن أتعلّم، وأن أوفّر كلَّ فلس لشراء الكتب، وكنتُ ممن تقرّر دخولهم دار المعلمين في بغداد، لأنني لا أصلح للدراسة في الكلية الحربية.

وواصل الأستاذ الحورش حديثه قائلا ما معناه: «وفي دار المعلمين وجدتُ أن الطلبة والمعلمين ينقسمون إلى شيعة وسنة، وكنتُ شيعيا أقلّد المذهب الزيدي،

ولكن الشيعة في العراق يقلّدون المذهب الجعفري الذي يحصرُ الإمامة في اثني عشر إماما، وهو يختلف عن المذهب الزيدي، ووجدتُ أن أهل السنة ينقسمون إلى مذاهب، ولكنهم جميعا -الشيعة والسنة- مسلمون، أو ينتسبون إلى الإسلام، ووجدتُ نفسي حائرا أتساءل: هل ما أدينُ به الآن هو الإسلام؟

إن الناس في اليمن والعراق مسلمون متدينون، متمسكون بدينهم على اختلاف مذاهبهم، ولكن الأكثرية الساحقة كانت من الأمّيّين الذين يجهلون حقيقة الدين، ولذلك استطاع الدجالون والمشعوذون عبر مئات السنين أن يجعلوا تديُّن الناس قائما على الخرافات، والشعوذة، لا على الدين الإسلامي الصحيح، وحتى الكثير من المتعلمين على الطريقة القديمة، كان الكثيرُ منهم كالأمّيّين الذين يؤمنون بالخرافات المدخلة على الدين، وبعد أن أنارَ مصباح الكهرباء في الباخرة عقلي قبل أن ينيرَ عينيَّ بقيتُ متدينا، وقلت لنفسي: إن هذا التدين القائم على الخرافات والشعوذة لا يمكن أن يكون دين الإسلام، ولو كان الإسلام هو الذي أدين به الآن لما كان هناك إسلام؛ لأن من أتى به سوف يفشل، وقرّرتُ أن أبحثَ بنفسي عن الإسلام الصحيح.

وفي دار العلوم ببغداد بدأتُ أتعلّم على يد عدد من المعلمين، واطمأنَّ قلبي إلى أحد المعلمين، فسألته أن يدلّني على الطريقة التي أعرفُ بها الإسلام الصحيح، فقال لي: اقرأ القرآن، وتفهّمْ معانيه بنفسك، وعُد إلى قواميس اللغة لمعرفة معنى كلماته، واقرأ كتب العلماء المستنيرين، وفي هذه الدار مكتبة في إمكانك أن تطالع فيها ما تحب من الكتب، ونصحني أن أقرأ كتب الإمام محمد عبده أولا.. قرأتُ تفسيره لسورة العصر، وبدأت أفهم آيات القرآن فهما يختلفُ عما كنتُ أفهمه وأنا أقرأ القرآن للتبرك لا للفهم.. ثم قرأت كلَّ ما وجدتُه من أعمال الإمام محمد عبده، وبدأ النورُ يملأ عقلي، وقلت: هذه مكتبة دار المعلمين في بغداد، فكيف يكون لنا في اليمن مثلها! وقرّرتُ أن أخرج إلى اليمن بمكتبة تنير العقول.

وكان الإمام يرسلُ لنا مساعدة مالية شهرية، فقرّرتُ ألا أصرفَ منها أي مبلغ إلا للضرورة القصوى، وأشتري بها كتبا؛ لأن العراقيين كانوا يتكفّلون لنا بالسكن والأكل. وسألت عن مكتبة حديثة، فأخبروني أنها في منطقة الأعظمية، أي أنها كانت على

بُعد أكثر من ستة كيلومترات من دار المعلمين، وركبتُ إليها، ووجدتُ أن المواصلات كلّفتني مبلغا، فقرّرتُ أن أذهب وأعود إلى المكتبة راجلا، وكنتُ أعطي ثيابي إلى المغسلة، فقرّرتُ أن أغسلَ ثيابي بنفسي، وفي أول لقاء لي بصاحب المكتبة أخبرته أني من اليمن، فرحّب بي بحفاوة كبيرة، وقال: إن أصل أسرته من اليمن، من قبيلة زبيد، وكان في منتهى اللطف والكرم معي، والعراقيون لطفاء وكرماء إلا إذا غضبوا، ففي هذه الحالة يتحوّلون إلى متوحشين، وطلبتُ منه أن يسمح لي بالتجوّل داخل المكتبة، وتصفح بعض الكتب فيها، فأذن لي، ثم عدتُ إليه دون أن أختار كتابا، فسألني عن اليمن، فأخبرته بأحوالها، وأحوال الطلبة اليمنيين في العراق، وعن المساعدة البسيطة التي تصل لكل طالب من الإمام، ملك اليمن، وكان صاحب المكتبة شهما، فقدّر الظروف، وقال لي: سوف أساعدك في اختيار الكتب المفيدة، وأبيعُها لك بدون ربح، فشكرته على شهامته، وأعطيته ما لديَّ من نقود، وطلبت منه أن يعطيني بها بعض كتب محمد عبده، فأعطاني رسالة التوحيد، وتفسير سورة العصر، ومجلة «العروة الوثقى»، وبعد أن توطّدت الألفة بيني وبينه، وتحوّلت إلى نوع من علاقة الأب بابنه صار بين فترة وأخرى يجمعُ بعض الكتب التي يختارها لي بنفسه، ويعطيني إياها عندما آتي إليه، ويستلم مني المبلغ الموجود معي ويسلّمني الكتب.

كان أستاذي الحورش «غاندي اليمن» يحدّثني بهذا وأنا بخيالي أتصوّره وأشاهد معاناته في توفير قيمة الكتب من مصروفه الزهيد، وأتصوّره وهو يمشي من الكلية إلى المكتبة ثم العودة مسافة تزيد على اثني عشر كيلو مترا في بداية كلِّ شهر، ليشتري بعض الكتب، ثم يحملها معه إلى اليمن، لينيرَ عقول الناس ويكشف لهم الحقيقة، وقد طبّق الأستاذ الحورش تجربته في تثقيف نفسه ذاتيا على تلاميذه، وأضرب مثلا بنفسي كأحد تلاميذه، فقد وجد أنني شيعي جارودي في بداية صلتي الشخصية به، فأعطاني أربعة مجلدات هي: كتاب شرح نهج البلاغة لخطب أمير المؤمنين علي عليه السلام، لابن أبي الحديد، ثم أعطاني كتب الإمام محمد عبده، ومجلة «العروة الوثقى» لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومجلة «المنار»

للسيد محمد رشيد رضا، ثم ستة مجلدات من مجلة «الرسالة» التي كان يصدرها العالم الاجتماعي الكبير أحمد حسن الزيات، وثلاثة مجلدات من مجلة «الثقافة» التي كان يصدرها العالم العظيم أحمد أمين، ثم أعطاني مجلدات فجر الإسلام، وضحى الإسلام وعصر الإسلام للمؤلف أحمد أمين، وكان يتابع تأثير اطلاعي على ما يعطيني من كتب، ووجد أنها قد نقلتني نقلة ثقافية كبيرة، ثم درستُ معه كتاب سبل السلام للسيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، ثم أعطاني تفسير الجلالين لآيات القرآن الكريم، وكتابي أسباب النزول للنيسابوري والسيوطي، وقال: اقرأ التفسير من أوله إلى آخره، ولكن حاول أن تتفهّم أنت معاني ألفاظ القرآن، مستعينا بالتفسير، غير متقيّد به إلا فيما تجده مقنعا لك؛ أما فيما يتعلقُ بأسباب النزول فقد لا يكون دقيقا كله، وهو قد يبيّن ظروف نزول الآيات، ولكن الآيات أحكام أو مسائل أو قضايا عامة، وليست خاصة بسبب نزولها.. ثم نقلني نقلة أخرى فأعطاني كتاب البخاري، وكتاب مسلم في أحاديث الرسول لأقرأهما وأقارن بينهما، مُنبها إيّاي أن رواة الحديث كانوا يعتمدون على النقل، وعلينا أن نعتمد في ذلك على العقل إذا تعارض مع النقل، فما كان منافيا للعقل أو مخالفا للقرآن نبذناه، وما كان مطابقا لهما أخذنا به، ثم أعطاني كتاب محمد حسين هيكل «محمد» في السيرة النبوية، وقد قرأته وتأثرتُ به تأثّرا عمَّق إيماني بالإسلام، ثم أعطاني سيرة ابن هشام، وهي أشهرُ سيرة لرسول الله وقال لي: إن كتاب هيكل سيجعلك أقدر على تمييز ما تقتنع به من سيرة بن هشام وما لا تقتنع به. ثم أعطاني كتاب «طبائع الاستبداد» وكتاب «أم القرى» للكواكبي، ثم كتاب «العقد الاجتماعي» لروسو. وبعد أن أعدتُ إليه كلَّ الكتب التي أخذتُها لأقرأها في بيتي عقب قراءة أي كتاب منها قال لي: «هذه مكتبتي اقرأ منها ما شئت؛ لأن المثقف هو الذي يلمُّ من كل علم بطرف، وهو أشبه بالموسوعات الشاملة غير المتخصصة».

كان صديقي أحمد الشامي معي في كثير من المحطات العلمية، ولكن كانت مشاركتنا معا أكثر في قراءة الأدب والشعر والتاريخ والفلسفة، وقراءة مجلات «المنار»، و«العروة الوثقى»، و«الرسالة»، و«الثقافة». قرأنا العبرات والنظرات للمنفلوطي، وقرأنا

رواية «الأم» لمكسيم جوركي، وكتب «الدكاترة» زكي مبارك، وتابعنا المعارك الأدبية بين كبار الكتاب العرب حينذاك. وقرأنا الكثير من كتب التاريخ الإسلامي، وكتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي، وقرأنا دواوين وأشعارا لكبار الشعراء في الجاهلية والإسلام، ولكبار الشعراء المحدثين. قرأنا المعلقات السبع وأشعار زهير بن أبي سلمى، والخنساء، وامرىء القيس وحسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، والبحتري، والفرزدق، وأبي تمام، وأبي العلاء المعري، وأبي نواس، والمتنبي، والشريف الرضي والجواهري، والعبيدي، وشوقي، وحافظ، والبارودي، وعلي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، وقرأنا لجبران خليل جبران، والآنسة مي، وبدوي الجبل، وغيرهم، وتأثّرنا بكتب مصطفى صادق الرافعي، وبكتب نقيضه الدكتور طه حسين، وكانت مقالات المازني المرحة تلطّفُ جو التثقيف الذاتي.

وأذكر أن الأستاذ الحورش قال لي بعد أن أصبحتُ تلميذه وصديقه: «ما رأيك أن تحملَ بعض الكتب والمجلات إلى أصدقائك في المدرسة العلمية، يقرأونها، ثم تعيدها وتحمل إليهم كتبا أخرى»؟ قلتُ له: هذا عمل مفيد وخير، وكنتُ قد أعطيت بعضهم بعض الكتب التي كانت لديَّ قبل أن أعيدها، وأنا آسف وأعتذر لأنني لم أستأذنك. وهكذا حملت كتبا كثيرة إلى أصدقائي في المدرسة العلمية، ومنهم صديقي عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب، والمرحوم حسين المقبلي، والأخ محمد الحضرمي، وغيرهم ليقرؤوها، وأحدث ذلك في محيط المدرسة العلمية نشاطا ثقافيا، وعلميا أنار عقول كثير من طلبتها، وأدّى إلى وعي وطني وسياسي لدى مجاميع منهم، دفعهم إلى حمل السلاح للدفاع عن ثورة 48 الدستورية عند قيامها. وأذكرُ أنني كنتُ أعيد بعض الكتب وفيها تمزيق أو تفكيك، ولكن أستاذي لم يكن يعير ذلك أي اهتمام.. كان يهتمُ بأثر قراءة الطلبة ثقافة وتنويرا. وهكذا فإن الأستاذ الشهيد أحمد حسن الحورش عندما عاد من العراق لم يكن يحملُ معه مكتبة عامرة بمئات الكتب العلمية والأدبية والثقافية فحسب؛ بل كان يحمل معه نورا للعقول، وثورة على الطغيان والاستبداد والحكم الفردي المتقمص رداء كهنوتيا زائفا يخدع به عامة الناس.

كنتُ وصديقي أحمد الشامي، ويشاركُنا كثيرا شقيقه عبد الوهاب، أكثر تلاميذ الأستاذ الحورش تأثّرا به وبقراءة أكثر ما حمله من كتب، وأكثرهم اندفاعا لتحطيم أغلال الطغيان في أفكارنا وضمائرنا. ومن أهم الكتب التي قرأناها كتاب قصة الأدب في العالم، وكتاب قصة الفلسفة القديمة، وكتاب قصة الفلسفة الحديثة، وهذه وتلك من تأليف الكاتبين العظيمين: أحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود، ثم قرأنا الكثير من كتب الفلسفة والتاريخ والأدب. وكان أرسطو أحب الفلاسفة إلى نفوسنا؛ لأنه كان يعلّم الشباب البحث عن المعرفة والحكمة، وكان يؤمنُ بإله واحد، ولا يؤمن بتعدد الآلهة، ويدعو إلى اعتماد العقل في البحث عن الحقيقة، وإلى مكارم الأخلاق للوصول إلى تطهير النفس. والنفس في نظر أرسطو جوهر روحاني إلهي شريف واحد بسيط خالد مؤثر في الأجسام، يتجاوزُ عالم الحواس والأبدان إلى عالم الربوبية والصفاء والخلود. وكان لفلسفته هذه عن النفس تأثير كبير لدى الفلاسفة الإسلاميين فيما بعد، كالفارابي وابن سينا وإخوان الصفاء والكندي، وابن رشد، والغزالي، وغيرهم.

وكان أرسطو يؤمنُ أن العالم مخلوق وليس قديما، وهذا يناقض فلسفة أستاذه سقراط الذي كان أول من ذهب إلى أن العالم قديم قدم الإله وليس مخلوقا، وأنهما كالشمس والضوء المنبعث منها، فهما شيء واحد. إن الكل ليس له بدء زماني.

أما سقراط أعظم فلاسفة اليونان، وأستاذ أرسطو، فقد اتهموه بإفساد الشباب، وبالكفر بآلهة اليونانيين، وتمت محاكمته وحُكم عليه بالموت، واختار أن يموت بالسّم.. وعندما حاول أتباعُه إقناعه بالفرار من السجن، وكان ذلك سهلا رفض الفرار وقال لهم: إنني أحترمُ القانون وعليَّ تنفيذه، وشربَ السمَّ وعمره ثلاثة وسبعون عاما، وكان موته صدمة لأتباعه، وأشهرهم أفلاطون الذي حزن عليه وهاجر إلى منطقة أخرى، وتفرّغ للعلم والتعليم والفلسفة. ولعلّ سقراط أول من قال إن العالم قديم وليس مخلوقا، وإن الأله والعالم كالشمس والضوء المنبعث منها فهما شيء واحد. إن الكل ليس له بدء زماني. وكانت لفلسفة سقراط هذه آثار بعيدة في فلسفة بعض الإسلاميين «المشائين» الذين حاولوا إيجاد توافق بين الإسلام وهذه الفلسفة

الأرسطية؛ وذلك بفلسفة الدين وأسلمة الفلسفة، وأولهم الكندي المتوفى عام 256هـ، والفارابي المتوفى عام 339هـ وابن سينا المتوفى عام 428هـ، وغيرهم. وقد تصدى لهم الغزالي وفنَّد فلسفتهم في كتابه «تهافت الفلاسفة»، متأثرا بكتابات إمام الحرمين أبي المعالي الجويني المتوفى عام 478هـ. وكان لإعدام سقراط بالسم، وموته كأروع ما يموت الأبطال أثر كبير في نفوسنا حبا وتعظيما.

وفلسفة سقراط هذه تذكّرني بفتنة خلق القرآن، ووقوف الإمام أحمد بن حنبل في وجه الخليفة المأمون، فقد ذهب أحمد ابن حنبل إلى أن القرآن قديم وليس مخلوقا، وهذا يناقض ما ذهب إليه المأمون بتأثير من أفكار وفلسفة إخوان الصفاء الذين يقولون إن القرآن مخلوق.. وقد استدعى المأمون أحمد ابن حنبل وطلب منه الرجوع عن قوله بقدم القرآن، ولكنه رفض ذلك، وتعرّض للسجن والتعذيب، ولم يرجع عن قوله حتى أُطلق وتُرك لحاله. ولا أدري إلى أي مرجع رجع إليه ابنُ حنبل في قوله بأن القرآن قديم وغير مخلوق، وقد توفى أحمد ابن حنبل في عام 241هـ وهو مؤمن بأن القرآن قديم غير مخلوق.. فهل كان لما ذهب إليه الفيلسوف سقراط من أن العالم قديم تأثير على ابن حنبل الذي كان معاصرا للفيلسوف الإسلامي الكندي، المتأثر بسقراط! ولكن ما ذهب إليه ابنُ حنبل من قدم القرآن ليس فلسفة ولا علما؛ وإنما هو رأي ديني ارتآه، بينما ما ذهب إليه سقراط فلسفة كونية شاملة للطبيعة وما وراء الطبيعة.

أما الفيلسوف اليوناني الذي تأثّرنا به -أو على الأقل- تأثّرتُ به، فكان أفلاطون؛ لأنه يرى أن الواحد الأحد الأول الذي انبثق منه كل شيء، أو أن خالق كل شيء هو فوق العقل، وفوق كل شيء، ولا يشبهُه شيء، ولذا لا يجوزُ أن نصفه بأي صفة، ونؤكّد أنه بخلاف كل ما نعرفه ونتصوّره، وهو الكمال المطلق الذي يظلّ في وحدانيته، يفيضُ الكون أو الموجودات عنه بصورة مرتبة منظمة من البداية حتى النهاية، وهو عندما يخلقُ الموجودات لا يأخذ من ذاته «ماهيته» ليعطيها؛ بل يظلّ في وحدانيته الأصلية، يفيضُ الكون والموجودات بصورة مرتبة منظمة من البداية حتى النهاية. هذه الفلسفة الأفلاطونية هي الأقربُ إلى الديانات السماوية الشرقية، وإلى الديانة الإسلامية؛ لأن القرآن يقول عن الله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) سورة

الشورى، (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلا) سورة الأحزاب (وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا) سورة الإسراء. وأفلاطون يرى أن الروح المنبثقة من الأول تعود إليه، ولذلك كان يدعو إلى تطهير النفس من الشوائب بالتصوف والزهد حتى تعود إليه طاهرة كما انبثقت منه، وفي القرآن: (يَا أَيتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَة مَرْضِيَّة فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي)، سورة الفجر.

وكنا نجد أن الفلسفة اليونانية القديمة كانت تبحثُ عن الحقيقة في الطبيعة، وفيما وراء الطبيعة، بحثا مجردا، للوصول إلى الحقيقة، وليس دعما لمعتقدات دينية، أو اتجاهات سياسية أو تقاليد اجتماعية. وكنتُ من المؤيدين لذلك التجرد؛ لأن الفلسفة تحوّلت فيما بعد لخدمة الكنيسة وعقائدها ومصالحها. في الجزء الثاني من كتاب قصة الفلسفة تابعنا تحوّلها من البحث عن الحقيقة لمعرفتها إلى البحث عما يسند الكنيسة وعقائدها ومصالحها، ونسمع صوت الفيلسوف الكنسي أوغسطين يقول في القرن الرابع الميلادي: «لابد لكي تعقل أن تعتقد».. وتصل الكنيسة بأوروبا إلى حالة التشرذم والجمود والعُقم والإرهاب الفكري والتعصب الديني فترة تقرب من ألف عام.

ثم انتشر الإسلام في الشرق، وفتح العرب إسبانيا «الأندلس» في الغرب، وصاروا يفتحون المدارس والمعاهد وحلقات العلم في المساجد، ويبعثون من جديد التراث اليوناني ويترجمونه أدبا، وفلسفة، ويطورونه، ويبدأون فلسفة متحررة جديدة، ونتيجة لذلك ظهر علماء وفلاسفة في أوروبا يتمردون على تسلط الكنيسة وجمودها وإرهابها، ويقدّمون ضحايا التحرر والحرية، وشعرتُ بحزن شديد، وكرهتُ التعصب الديني بشكل عام عندما وجدتُ الكنيسة تسوق «جاليلو» إلى مقصلة الموت وهو أعظم عالم ظهر في القرن السابع عشر ميلادي في الغرب، فقد درس الطبيعة، وابتكر المنظار الفلكي، واكتشف عددا من الشموس والكواكب السيارة، واكتشف دوران الأرض حول الشمس، واكتشافه لهذا الدوران جعل الكنيسة تسوقه إلى الموت، وكرهتُ التعصب الديني إلى حد القرف عندما وجدتُ رجال الكنيسة يحكمون على «برونو» في نهاية القرن السادس عشر بالموت حرقا، وكأنني أشاهده يحترق، وأشم رائحة جسده

المشوي بالنار، لأنه اكتشف الكون، ونشر مذهبه الفلسفي الذي يقول إن المكان لا نهائي وتتحرّك فيه أجرام لا عدد لها ولا حصر، وشموس تدورُ حولها ملايين وملايين من الكواكب. وإن المكان مليء بأثير سيَّال لا نهاية لذراته التي أطلق عليها ذرات روحية لصغرها، وهذا الأثير هو الذي تتخذ منه الذرات المادية أشكالها وصورها، ولما رفض التراجع عن أقواله هذه أحرقه رجال الكنيسة في النار حتى تفحّم.

واستمرّت حركة التحرر من طغيان الكنيسة في أوروبا حتى تم القضاء عليه عبر حركات التحرر التي قادها علماء ومصلحون دينيون، وفلاسفة طبيعيون، وربانيون، وتم إبعاد الكنيسة نهائيا من التدخل في الحكم بالثورة الفرنسية. وكان من أعظم أولئك الرجال جاليلو، وبرونو، وبيكون، وسبينوزا وديكارت وهيجل، وكانت، ونيتشه. وأتذكّر أن مما زادني كرها للتعصب الديني أنني في القرن العشرين، وعندما كنتُ في مكتب الأيتام درّسنا أستاذنا إبراهيم خليل في درس الجغرافيا أن الأرض تدورُ حول الشمس، وعندما بدأت هذه النظرية تنتشر اعتبرها بعض رجال الدين الجامدين في اليمن هرطقة وكفرا، وكفّروا من يقول بها، ولو استطاعوا لساقوا إلى الموت كل من يقول إن الأرض تدورُ حول الشمس، هذا في وقت مضى على محاكمة جاليلو وحرق برونو أكثر من أربعمئة عام، وأصبحت نظريتهما مسلّما بها لدى رجال الكنيسة أنفسهم، ولدى الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين، وكانت كراهيتي للتعصب الديني تستندُ إلى الحديث النبوي الشريف «لا تغلو في دينكم فإنما أهلك من قبلكم غلوهم في الدين»، رواه البخاري. وقرأنا حتى الكتاب المقدس «التوراة والإنجيل»، وكانت الترجمة لهما ترجمة ضعيفة جدا، وربما كانت ترجمة حرفية تفتقد روح الكلمات وظِلالها وأبعادها.

وأتذكّر بعد ذلك أننا قرأنا وصديقي أحمد وعبد الوهاب الشامي حينذاك ترجمة إصحاح من التوراة في كتاب قصة الأدب في العالم، لأحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود، وكانت هذه الترجمة أروع صياغة لمقطوعة أدبية، مما جعل صديقي أحمد الشامي يهتف: «هذه صياغة للتوراة تقترب من الوحي». واستطرادا لذكر التوراة أذكرُ أنني حصلتُ فيما بعد على نسخة من التوراة السامرية، وهي تختلفُ اختلافا

كبيرا عن التوراة الرسمية المعروفة، وقد ترجمها إلى العربية الكاهن السامري أبو إسحاق الصوري من اللغة السامرية إلى العربية، ونشرها وعرّف بها الدكتور أحمد حجازي السقا، وأول طبعة لها بمصر عام 1388هـ-1978.

وفي السنوات الأخيرة قرّرتُ أن أعود إلى «متن الأزهار» وشرحه، وهو المتن الذي كنا في المدرسة العلمية نحفظُه غيبا دون أن نفهم أكثر ما نحفظه؛ فلما عدتُ لأقرأه بعد سنوات طويلة ذُهلت من صياغة هذا المتن في الفقه، فهي صياغة في منتهى الاختصار والتكثيف، وفي منتهى الدقة والوضوح، ولا أعتقد أن متنا من متون الفقه يرقى إلى مستواه.. وعندما كنتُ أعود إلى شرح ابن مفتاح لمتن الأزهار، وإلى شرحه في كتاب العلامة الحسن بن أحمد الجلال المسمى: «ضوء النهار المشرق على الأزهار» كنتُ أجد عبارةَ المتن أكثر وضوحا من الشرح. وقد ألّف «متن الأزهار» الإمام العظيم العالم المتبحر المهدي أحمد بن يحيى المرتضى عندما كان مسجونا في قصر صنعاء، أيام الإمام المنصور علي بن صلاح الدين المتوفى عام 840هـ - 1436.

لقد توسعتُ في التثقيف الذاتي لا تفاخرا بثقافتي، فهذا أمر يخصني وحدي، وذكره لا يضرُّ أحدا، ولكني أردتُ أن أصوّر للشباب اليوم وما بعد اليوم كيف كان الروادُ من المناضلين الأحرار يُعلّمون الشباب حينذاك، وكيف كانوا ينشئون الأجيال. كانوا أفضل قدوة لأجيال تخلّقت بأخلاقهم. كم أتمنى أن يكون أساتذةُ الجامعات، وأساتذة مراحل الدراسة الأساسية كالرواد السابقين! وكم أتمنى أن يكون طلبة العلم في هذا الجيل طلبة يقتدون ويتعلّمون ويتثقّفون ذاتيا، ليصنعوا يمن التقدم، والحضارة، والحرية، والديموقراطية، أو على الأقل يغيّروا هذا الواقع البشع الذي يمزّقُ اليمن أرضا وبشرا.

الفصل السادس
الإمام يحيى وعهوده الطويلة

خلال مراحل حياتي من الطفولة والدراسة في الـمعلامة وحتى مرحلة التثقيف الذاتي، كما جاء في الفصل الـخامس، لم يكن الإمام يحيى -في نظري- حاكما لليمن أتابعُ أساليبه في الـحكم إيجابا وسلبا؛ وإنما كان أمامي شيئا أسطوريا خُرافيا، أنظرُ إلى وجهه فيبهرني نور إلهي، يجعل بصري يرتدُّ رهبة وتقديسا. كنتُ أعتقد أنه ليس من البشر؛ بل فوق الـملائكة يذهب إلى مكة في لحظة، ويعود من مكة في لحظة، وخلال مرحلة تثقيفي الذاتي في مكتبة أستاذي أحمد حسن الـحورش بدأتْ صورةُ الإمام يحيى تعودُ إلى صورة إنسان عادي، بدأتُ أراه على حقيقته، فوجهه ليس جميلا؛ بل بالعكس.

وبدأت أبحثُ عن تاريخه.. كيف بدأ؟ وكيف أصبح إماما؟ وكيف تحوّل إلى خرافة إلهية؟ ثم كيف صار طاغية لا يرحم؟! وأنا هنا لستُ من كتّاب التراجم، ولا مؤرخا لحياة الإمام يحيى، ولكني أكتبُ ذكرياتي عن عهده الطويل، وكنتُ خلال التثقيف الذاتي قد عرفتُ أن الأتراك قد احتلّوا اليمن مرتين: الفترة الأولى بين عام 1539 وحتى 1634، أما الفترة الثانية، فكانت بين عام 1849 وحتى 1911 وهو موعد وصولهم إلى الـحديدة واحتلالها، أما دخولهم صنعاء، فكان في 16 صفر 1289هـ-1872. وقد احتلّوا اليمن مرة أخرى بمساعدة الأئمة الذين ظلوا يتقاتلون على تولي الإمامة، ويقتلون اليمنيين في معارك لا ناقة لهم فيها ولا جمل، كما يُقال. وسيطر الأتراك على صنعاء، وعلى أكثر مناطق اليمن، عدا منطقة واحدة هي منطقة صعدة في أقصى شمال اليمن، وكان في صعدة الإمام الهادي شرف الدين يحاول مقاومة الأتراك، ويبعث الـمقاتلين من القبائل بقيادة أولاده ومن معه من العلماء.

وكان يوجد في صنعاء عالـم كبير اسمه محمد بن يحيى حميد الدين، يعيش في ظلّ حكم الأتراك، وقد عيّنه الوالي التركي حينذاك حاكم شرع في مدينة حجة، ولكنه لم يستمر، فقد فضّل العودة إلى صنعاء، وإلى حلقته في الـجامع الكبير، يعلّم طلبة العلم علوم الفقه والعربية. وكان ابنه يحيى يحضر كطالب للعلم في حلقة أبيه، وذات يوم وجد محمد بن يحيى حميد الدين نفسه معتقلا في سجن الوالي التركي مصطفى عاصم في شهر ذي القعدة 1294هـ- 1877 إلى شهر رمضان 1295هـ، ثم أرسلهم تحت الـحفظ إلى حبس الـحديدة؛ تمهيدا لإرسالهم إلى الآستانة، وهذا يدلُّ على أنه كان ينشطُ سرّا ضد الأتراك، ولأسباب غير معروفة تأخّر نفيهم وظلّوا في الـحديدة إلى أن تغيّر الوالي التركي بوال آخر، اسمه إسماعيل حافظ حقي، فأمر بإطلاقهم من السجن في صفر 1297هـ وعاد محمد بن حميد الدين مرة أخرى إلى صنعاء، وإلى حلقة العلم في الـجامع الكبير.

ومرض الإمام الهادي شرف الدين في صعدة فدعا إليه أبناءه، وفيهم سيف الإسلام محمد الذي أصبح من العلماء الـحائزين شروط الإمامة ودعا من وجد من العلماء والوجهاء في صعدة، وأوصاهم بأن يكون الإمام بعده محمد بن يحيى حميد الدين، وعليهم أن يبايعوه ويناصروه ويسلّموا له أموال بيت الـمسلمين عند وصوله، ومات الإمام الهادي عام 1307هـ، وهكذا وجد محمد يحيى حميد الدين نفسه يتسلّلُ من صنعاء، ومعه ابنه يحيى البالغ من العمر حينذاك 22 عاما متوجها إلى صعدة، ليصبح الإمام الـمنصور بالله في شهر ذي القعدة 1307هـ-1890، ومن حوله أولاد الإمام الهادي ورجاله، واستلم منهم أموال بيت الـمال وقرّر الانتقال إلى مدينة «الـمَدَان» في حاشد، ليحشدَ منها رجال القبائل الـمحاربين، ويهاجم بهم تواجد الأتراك في مراكزهم القريبة، حتى تمكّن خلال إمامته من محاصرة صنعاء، ومهاجمة مراكز الأتراك في ذمار ويريم، وكان ما كان حتى مات في عام 1904، وتولى ابنُه يحيى الإمامة وأشعل الـحرب ضد الأتراك في كل مكان، وحاصر صنعاء حتى دخلها في الـمرة الأولى عام 1905، وخرج منها ثم احتلّها للمرة الثانية عام 1911، ثم خرج منها حاملا معه الكثير من الأسلحة والذخائر والـمُؤن التركية، ثم كان «صلح دعان» بينه وبين الأتراك كما سيأتي.

حول أفكار الإمام يحيى ونفسيته

الإمام يحيى حميد الدين

باختصار شديد.. يبدو أن الإمام يحيى كان الولد الوحيد لأبيه محمد يحيى حميد الدين الذي لا يفارقه، وقد وُلد الابن عام 1286هـ-1869، وبعد أن تعدّى مرحلة الطفولة صار طالبا للعلم في حلقة أبيه التي اختارها في ركن من أركان جامع صنعاء الكبير، وعندما كان في السابعة من عمره انتقل مع أبيه إلى مدينة حجة، حيث عمل والدُه حاكما للشرع فيها، بتعيين من الوالي التركي، ولكنه سرعان ما عاد إلى حلقته العلمية في الجامع الكبير بصنعاء وعاد ابنه معه. ويبدو أن الأسرة كانت تعيشُ عيشة متوسطة، وتتقاضى مرتبا شهريا من الولاية التركية في صنعاء.

وذات يوم من أيام شهر ذي القعدة 1294هـ- 1877 أمر الوالي التركي مصطفى عاصم الشرطة التركية باعتقال مجموعة من علماء ووجهاء صنعاء، وكان محمد يحيى حميد الدين واحدا من المعتقلين، ووجد ابنه الطفل نفسه بدون والد يرعاه، وعمره لا يزيد على الثامنة، وكانت هذه الحادثة أول صدمة تركية، تصدم الطفل في حياته. وفي شهر رمضان 1295هـ أمر الوالي التركي بنفي هذه المجموعة من رجالات اليمن إلى تركيا، وسيقوا مخفورين من صنعاء إلى سجن الحديدة، ولأسباب لا أعرفها ظلّوا في سجن الحديدة ما يقرب من ثلاث سنوات، حتى عُزل الوالي مصطفى عاصم وخلفه الوالي إسماعيل حافظ حقي، واليا على اليمن، وأمر بإطلاق المنفيين في الحديدة، وذلك في شهر صفر 1297هـ-1880.

ورجع محمد يحيى حميد الدين إلى صنعاء، وإلى حلقته العلمية في الجامع

الكبير، وإلى أسرته وابنه الوحيد الذي صار عمره أحد عشر عاما، وبقي الوالد والولد والأسرة يعيشون في صنعاء حتى عام 1307هـ–1890، وخلال هذه الفترة كان الإمام الهادي شرف الدين يحاول حشد القبائل المقاتلة لمحاربة الأتراك من مقامه في مدينة صعدة، وقد تمكَّن من زعزعة استقرار الأتراك في بعض مناطق اليمن. وعندما مرض «مرض الموت» عام 1307هـ–1890 دعا إليه أولاده وكانوا قد أصبحوا علماء يقودون المعارك ضد الأتراك، وأكبرهم وأهمهم سيف الإسلام محمد بن الهادي، ودعا معهم من تواجد من العلماء في مقامه، وأوصاهم أن يبايعوا عند موته السيد العالم محمد بن يحيى حميد الدين خلفا له، ويسلّموا له أموال بيت مال المسلمين ويطيعوه في المنشط والمكره. وهكذا وجد السيد العلامة محمد يحيى حميد الدين نفسه يتسلّلُ خفية من صنعاء، في طريقه إلى صعدة، لتولي الإمامة، خلفا للهادي، ومعه ابنه الوحيد يحيى والذي كان شابا مكتمل الرجولة في الثانية والعشرين من عمره.

وتولّى الإمامة في ذي القعدة 1307هـ– 1890، وتلقّب بلقب بالمنصور بالله، بعد أن بايعه أولاد الهادي والعلماء في صعده، وتسلّم من أولاد الهادي أموال بيت المال، وانتقل بها من صعده إلى جبل الأهنوم وشهارة في حاشد، ومن هناك كان أقدر على حشد المقاتلين من القبائل ضد الأتراك، وخلال خمسة عشر عاما من النضال ضد الأتراك استطاع أن يحاصرهم في صنعاء وفي ذمار وفي أكثر المناطق. وخلال نضاله كان أهم من يقود له المعارك هم سيف الإسلام محمد بن الهادي، وسيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين حجر، وسيف الإسلام محمد بن الإمام المتوكل، والسيد عبد اللّه بن يحيى أبو منصر. وأثناء هذه المعارك كان الإمام المنصور يحاولُ إبعاد ابنه يحيى من المشاركة في قيادتها، ربما لأنه ابنه الوحيد الذي يعده لخلافته، ولذلك ولّاه منطقة السودة التي تركها الأتراك بعد أن تكبدوا فيها خسائر وقتلى لا طاقة لهم بتحمّلها.

وقبل أن يتولّى الإمام يحيى الإمامة كان مشهورا بين الناس بأنه من أكثر الناس بخلا ولؤما، ولذلك كان غير محبوب في مقام أبيه، وعند أعوان أبيه من العلماء

والوجهاء والـمشايخ. وكان الأئمة من قبل، وخصوصا في عهد الإمام القاسم بن محمد قبل أكثر من أربعمئة عام قد صنّفوا الـمجتمع اليمني كله إلى فئات: السادة والعرب، والزيود والشوافع، والقبائل والتجّار «البياعة»، ويأتي بعدهم أصحاب الـمهن الذين صُنّفوا بأنهم لا أصول لهم. وكان الإمام يحيى قبل وبعد توليه الإمامة من أكثر الـمتعصبين لهذه التصنيفات الاجتماعية.

وقد نظم الإمام يحيى في عهد والده قصيدة ميمية عبّر فيها عن أفكاره في السادة الهاشميين والعرب اليمنيين، وهي قصيدة طويلة أرسلها إلى سيف الإسلام محمد بن الإمام الـمتوكل، يغلبُ عليها طابع النظم لا روح الشعر، يمدحه على شجاعته وبطولته في قيـادة الـمعـارك ضد الأتراك، وقد عبّر في هذه القصيـدة عن تعصبه وتمجيده للهاشميين واحتقاره للعرب أجمعين؛ بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، وأكد أن السادة الهاشميين هم كل الأنام وما عداهم عدم. ويقول فيها عن الهاشميين:

وهُمـــو للمـــجـــد أعـــمـــدة
وهُـــمـــو في الناس كـــالعَـــلمِ
وهُمـو الأبـــطالُ يـــوم وغـــى
أن يكن قـــد فـــر كـــلٌّ كـــمي
وهُمـو كـــل الأنـــام.. وكـ
ـــل بني الأيـــام كـــالعـــدمِ

وفي القصيدة يذكر قوة الأتراك وجنودهم ومدافعهم وبنادقهم، وتخاذل العرب اليمنيين أمامهم فيقول:

غـيـر أن العـــرب قـاطبـة
ألبـــســـوا بالظلم والظلـــمِ
لم يراعـوا أمـر قـائمـهـم
والوفـــاء بالعـــهـــد والذمـــمِ
فـــابتلوا بالتـــرك تطحنـــهم
طحن من يندك بالنقـــمِ

ثم يذمّ الأتراك والفرس، ويثير الثارات ضدهم بلغة مبتذلة تعبر عن نفسها فيما يلي:

وتـــــــــدور الـخـمـرُ بينـهـم
ويملّي الـخـمـــر كل فـــــمِ
يا لغـــــــــارات الغـــلام إذا
صـــار في الأفـــعـــال كـــالرخمِ
يا لغـــــــارات اللـــــــواط
وثـــــارات زنّاء ومـــغـــتـلمِ
كم يهـــــــــودي لـه كـــــفل
وافـــــــر يهـديـــــه للعـجمِ

ثم يعود إلى مدح آل الزهراء الهاشميين، وينتقل إلى ذم القبائل اليمنيين فيقول:

أكـلوا سَـــــيْـبَ الإمـــــام ولـم
يدفـــعـــوا عنه أذى العـــجمِ
ثم ولَّـت عنه مـــدبـــــــرة
ويلـهـــــا من باعث الأمـــمِ
وإذا مـــا بلـــــــــدة دخلت
أخـــذتهـا أخـــذ منتـــقـــــــمِ
كم يتـــيم مـــالـــه أخـــذت
وشـــــيـــــوخ من ذوي هـــرمِ
وعـــجـــوز من بني حـــسن
سُلِـبت بالـقـــهـــر والعِـظَمِ
وأهانت كـل مـــــتـــــصف
بـولاء الآل ملـتـــــــــــزمِ

وقد أوردت جزءا من هذه القصيدة؛ لأنها تدلُّ على أسلوب الإمام يحيى في نظم القصائد، وتعبر عن أفكاره ونظرته إلى السادة الهاشميين وإلى لغته المبتذلة:

وهم كل الأنـــــــام.. وكـــــــ
ـــل بني الأيام كـــــالعـــــدمِ

ونظرته إلى العرب اليمنيين:

غـــيـــر أن العـــرب قـــاطبـــة
ألبـــــســـــوا بالظلم والظلمِ
لم يراعـــوا أمـــرَ قـــائمـــهم
والوفـــــاء بالعـــــهـــــد والذمِ

وبعد معرفتنا لبعض ما في هذه القصيدة نتساءل عمّن حارب الأتراك بقيادة الإمام المنصور طيلة خمسة عشر عاما، هل هم بنو الزهراء وعترتهم أم هم رجالُ القبائل اليمنية؟ ومن حارب مع الإمام يحيى بعد أبيه، حتى جلس على عرش الإمامة أكثر من أربعين عاما! وقد أجاب عليه سيف الإسلام محمد بن الإمام المتوكل بقصيدة على الوزن نفسه، وجعل أخلاق أبناء الزهراء وكرمهم أصل الفضل وليس العنصر، وفيه إشارة إلى البخل والبخلاء فقال:

واســـتـــمـــالوا الناس نحـــوهم
بجـــمـــيل الفـــضـــل في الأزم
وعـــفـــوا عن كل قـــادحـــــة
عـــفـــو ذي فـــضل ومـــحـــتـــشم
وإذا مـــا جـــاء وافـــــــــدُهم
وهو ذو ضـــــعف وذو عـــــدم
عـــاد عنهم شـاكـــرا نعـــمـــا
وهو ذو مـــــال وذو حـــــشـــم
يُطربون للجـــود أن سُـــــئلوا
وهُـمـــــــو يعطوا بلا كلـــــم
وتـــــرى من لاذَ نحـــوهـــم
غـيـرَ مـخـذول ومـهـتـضـم

إلى آخر القصيدة، ونخوةُ الكرم هذه تعويضُ بخله الذي اشتُهر به الإمام يحيى، من قبل ومن بعد، وقصيدة محمد بن المتوكل أسلسُ نظما من قصيدة الإمام يحيى حميد الدين.

كيف تولّى الإمام يحيى الإمامة؟

عندما مات والده الإمام المنصور اجتمع العلماءُ المتواجدون في مقامه في ديوان قصره، لاختيار إمام خلفا له، وكان أكثرُهم -إن لم يكن كلهم- يبغضون ابنه يحيى لبخله ولؤمه، وكانوا يميلون لمبايعة سيف الإسلام محمد بن المتوكل، أو سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين حجر. ولكن كان في مقام الإمام الشيخ ناصر مبخوت الأحمر، ومعه مجموعة مسلحة من رجال قبيلة حاشد، ويظهر من تصرفه أنه قد اتفق مع الإمام يحيى على فرضه إماما بالقوة بعد إشباع طمع الشيخ، وقد أتى الشيخ ناصر مع رجاله المسلحين إلى باب الديوان الذي اجتمع فيه العلماء لمبايعة إمام، خلفا للإمام المنصور، ودخل على العلماء، قائلا لهم: الإمامة يتولاّها الإمام ابن الإمام، وإذا نقص شرط من شروطها أكمله سلاحي، ورفع بندقيته في وجوههم، وخرج وأغلق باب الديوان، وبقي مع أصحابه ينتظرون دعوة العلماء للإمام يحيى لمبايعته إماما، خلفا لأبيه، وتمّت البيعة في سنة 1322هـ-1904، وعمره نحو سبعة وثلاثين عاما، وتلقَّب بلقب المتوكل على الله، وكان والدُه قد خطّط لحصار الأتراك في صنعاء، وفي كثير من مراكز تواجدهم، وعند موته وتولّي ابنه يحيى الإمامة استمر في تنفيذ ما كان والدُه قد رتّبه من قبل، وتمكَّن من احتلال صنعاء مرتين: الأولى في 21 أبريل سنة 1905، بعد أقل من عام على توليه الإمامة. وتم الاتفاق بينه وبين الأتراك في صنعاء على خروجهم منها إلى مناخة، بأموالهم وأمتعتهم الشخصية، وتسليم كل ما لديهم من مؤن وسلاح وذخيرة، ولم يبق بيد الأتراك إلا لواء تهامة ولواء إب ولواء تعز.

ثم قدم الوالي أحمد فيضي بقوة تركية كبيرة مدعّمة بالأسلحة، وقد لقي مع قواته مقاومة شرسة في طريقه من الحديدة إلى صنعاء، واستطاع فك الحصار عن صنعاء،

واستعادة أكثر المناطق الزيدية، مثل ذمار وبريم في الجنوب وعمران وحجة والمحابشة والشرفين في الشمال والشمال الغربي، وتقدّم لاحتلال معاقل الإمام في القفلة وصعدة وشهارة وما حولها. وفي هذه المناطق انهزمت القواتُ التركية، بقيادة أحمد فيضي هزيمة منكرة، وقُتل عدد كبير منها، وتم سلب أكثر الأسلحة التي خلّفوها وراءهم.

وهكذا وجدت الإمبراطورية العثمانية أن معارك الحروب في اليمن تكلّفها الكثير من الخسائر البشرية والمادية، فقرّرت التفاوض مع الإمام يحيى، وأرسلت وفدا للقيام بعقد معاهدة صلح مع الإمام، وقدّم الإمام مشروع معاهدة للصلح بتاريخ 13 صفر 1324هـ-أبريل 1906، ولكن السلطنة رفضت ذلك، لأنها رأت أن هذه الشروط تنتقص من سيادتها برغم أن الإمام لم يكن متعنتا في بنود مشروع المعاهدة. واشتعلت الحرب من جديد في خولان والبيضاء وسنحان وذمار وحجة وآنس ومناطق أخرى، مما دفع السلطنة إلى محاولة الاتصال بالإمام من جديد للتفاوض مرة أخرى، وأرسلت في منتصف عام 1325هـ-1907 وفدا من كبار علماء مكة لإقناع الإمام بإبرام معاهدة صلح، كما أرسل الإمامُ وفدا إلى السلطان العثماني، وانتهت هذه الاتصالات بعقد معاهدة صلح «دعان» في 29 ذو القعدة 1329هـ-11 مايو 1911 كما سيأتي، وقد ساهم الفريق فيما بعد عزيز علي المصري مساهمة كبيرة في المساعي التي بُذلت للتوفيق والوصول إلى معاهدة «صلح دعان».

وعندما تولّى الإمام يحيى الإمامة في عام 1904، قرّر انتهاج سياسة العنف والإرهاب، لا ضد الأتراك وحدهم، ولكن ضد كل من يهادنُهم من اليمنيين، وشكّل في البداية ما كان يُسمّى بفرق لعلها الُمدفِّعين، التي كانت مهمتهم هدم بيوت الموظفين من اليمنيين لدى الأتراك بمادة «الباروت-الباردو» على رؤوس ساكنيها من الرجال والنساء والأطفال، وكذلك القيام باغتيال المشايخ والعلماء والوجهاء والمهادنين للأتراك، وحدثت أحداث رهيبة على أيدي المُدَفِّعِين، بينما كان هو ووالده في حماية الأتراك، ويتقاضون راتبا شهريا كموظفين لدى الأتراك. وعند خروج الإمام يحيى من صنعاء بعد أن احتلّها للمرة الأولى عام 1905 وأتى إليه علماء ووجهاء صنعاء فأمّنهم، ومنهم شيخ الإسلام محمد جغمان، والقاضي الردمي

والقاضي الشيخ مطير، ثم اعتقلهم وساقهم مخفورين إلى منطقة أحراش العمشية من بلاد سفيان؛ حيث ذُبحوا ودُفنوا هناك. وكان يوجد أسرة اسمها بيت أبو دنيا في مدينة حجة يتنقّل أبناؤها الأربعة في الأسواق الشعبية للتجارة، فبلغ الإمام يحيى أنهم جواسيس للأتراك، فأمر بقتلهم، وكان لهذا وذاك أثر سلبي كبير عند الناس وعند الإمام يحيى نفسه. وكانت أم أولاد أبو دنيا تتابع الإمام أينما ذهب، وتناشده أمام الناس والمراجعين له أن يردَّ لها أولادها الأربعة الذين قتلهم ظلما، وقد حاول الإمام أن يقنعها باستلام دية أولادها، ولكنها رفضت ذلك قائلة: أريدك أن تردَّ لي أولادي. وذات يوم والإمام في «المواجهة» طلبت منه الإذن بالوصول إليه، فأذن لها معتقدا أنها ستطلب دية أولادها، وعندما وصلت إليه وهو على كرسيه أماطت لثامها الذي يغطي وجهها ونظرت إلى الإمام، فقال لها: قد حوّلنا دية أولادكِ من الصنو علي زبارة فاذهبي إليه، وخذي دية أولادك فاقتربت منه محدّقة في وجهه وقالت له: أنا أتيت لأتحقّق من صورتك حتى أسوقك يوم القيامة إلى بين يدي الله، وأقول له: هذا الذي قتل أولادي، ثم خرجت من أمامه.

صلح دعان.. باعكم إمامكم بلاش

في عام 1911 كان وضعُ الأتراك في اليمن الأعلى في حالة ميؤوس من البقاء فيها، فنفوذ الإمام على المنطقة يكاد أن يكون شاملا عدا صنعاء وضواحيها. ومع ذلك فهي محاصرة من جميع الجهات، واحتمال سقوطها في يد الإمام وارد في أي وقت.

وقد دخل الإمامُ يحيى صنعاء بالقوة عام 1905 عقب توليه الإمامة بعد موت أبيه بسنة، ثم خرج منها، وبقي يحاصرُها حتى احتلّها مرة أخرى بالقوة عام 1911، وهنا حاول الأتراك بعد انسحاب الإمام من صنعاء الدخول معه في صلح ينهي الحرب. وكان وضعهم في اليمن في غاية الضعف، كما كانوا يواجهون تمردا في البلقان، وقامت إيطاليا في ذلك الوقت باحتلال طرابلس الغرب في ليبيا. ولذلك كان الأتراك على استعداد لعقد صلح مع الإمام يحيى، يعترفون به حاكما مطلقا للمنطقة

الزيدية، حتى لو صارت صنعاء عاصمة لحكمه، على ألا يعتدي على المناطق التركية في اليمن الأسفل؛ إب وتعز وفي تهامة اليمن، ولا يعتدي الأتراك في مقابل ذلك على المنطقة الزيدية. وكان أمام الإمام يحيى اتفاقية الأتراك في احتلالهم الأول لليمن مع الإمام المنصور القاسم بن محمد قبل أربعمئة عام، وكانت هذه الاتفاقيّة تنصُّ على أن يحكم الإمام المنصور ما تحت نفوذه من اليمن، مقابل إنهاء الحرب لمدة عشر سنوات دون أن يعترف بسلطان تركيا خليفة للعرب والمسلمين.

وهكذا ذهب أحمد عزت باشا رئيس الوفد التركي، مفوضا من سلطان تركيا إلى دعان لعقد صلح مع الإمام يحيى، يجعله حاكما للمنطقة الزيدية في مقابل وقف الحرب وعدم اعتداء كل منهم على منطقة الآخر. وكان ضمن الوفد التركي الضابط عصمت أنينو، وهو من حزب الاتحاد والترقي، وقد أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية. وخلال المفاوضات وجد أحمد عزت باشا أن الإمام يحيى كان متلهفا على عقد صلح مع الأتراك من موقع الأضعف وليس الأقوى، ولذلك بدأ يساومه ويغريه بالمال، وأكّد له أن السلطان سيقرر له ميزانية شهرية كبيرة إذا تم عقد صلح على أساس مسودة قدمها للإمام يحيى لدراستها واعتمادها، بدلا عن مسودة كان الإمام قد قدّمها إلى الوفد التركي.

واندهش الوفدُ التركي عندما وافق الإمامُ على توقيع ذلك الصلح الذي صيغ بطريقة تخفي مضمونها الحقيقي، وهو اعتراف الإمام بسلطان تركيا خليفة على العرب والمسلمين، وسيطرة العثمانيين على ولاية اليمن في مقابل إعطاء الإمام بعض الحقوق الدينية في المنطقة الزيدية، وكان «صلح دعان» بين الإمام يحيى وبين الولاية في اليمن لا بين الإمام يحيى وبين الباب العالي في الأستانة. وبعد توقيع «صلح دعان» قال عصمت أنينو لبعض اليمنيين: «إمامكم باعكم بلاش». وإذا كان الإمام يحيى قد تنازل لابن سعود عن منطقة نجران وبعض بلاد وادعة في شمال اليمن، وعن مخلاف عسير وصبيا في تهامة شمال غرب اليمن، وذلك في اتفاقية الطائف، عقب هزيمة الإمام في الحرب السعودية اليمنية عام 1934 من موقع الهزيمة، فإن تنازله للأتراك في «صلح دعان» بتاريخ 13 صفر 1324هـ-1911 كان طمعا في

الـمال، وتخلصا من تكاليف الـحرب، وهو في مركز القوة.

ومن الـمـلاحظات على بنود «صلح دعـان»، أن البند الأول ينص على مـا يلي: «ينتـخب الإمـام حكامـا لمذهب الزيدية، وتبلغ الولاية ذلك، وهذه تخبـرُ الأستـانة، لتصديق الـمشيخة على ذلك الانتخاب»، وهو ما يعني أن هذا البند يعطي للإمام حق ترشيح حكام الشرع في مراكـز نواحي الـمنطقة الزيدية؛ أما التـعيينُ فيتـم عبر والي اليمن التركي، وبعد تصديق الـمشيخة في الأستانة، ومضمون هذا تبعية الإمام يحيى للولاية التـركـية في اليـمن، واعتـرافه بسلطة سلطان العـثمـانيين على اليـمن. ويأتي البند رقم (8) في الصلح، ليـعطي الأتراك حق إرسـال مـبـاشـريـن للمـحـاكم «السيّارة» التي تتجولُ في القرى، لفصل الدعاوى الشرعية في الـمنطقة الزيدية، وذلك دفعـا للمشقـات، وهذا يعني أن من ينتـخبـه الإمام وتعيُّنه الـمشـيـخـة في الأستـانة سيكون في مراكـز النواحي بالـمنطقة الزيدية، ويكون للأتراك حق إرسال محاكم سيارة إلى القرى.

وينص البند الثاني على «تشكيل محكمـة استئنافية للنظر في الشكاوى التي يعـرضُـهـا الإمام، ويكون مـركـز هذه الـمـحكمـة صنعـاء، وينتـخب الإمـام رئيسـهـا وأعضاءها، وتصدّق على تعيينهم الـحكومة، وذلك إذا أساء أحد الـمأمورين الأتراك (الـحكام والعـمـال) فـيحق لـلإمـام أن يبـيّن ذلك للولاية»، مـا يؤكـد أن الإمـام يقـدّم لحاكم الولاية شكاوى، وهذا حق لأي مواطن، على أن يتم تعيين الـمحكمة بتصديق الولاية. أما بخصوص البند الثالث والذي ينصُ على «يُرسل الـحكمُ بالقصاص إلى الأستانة، للتصديق عليه من الـمشيخة، وصدور الإرادة السنية به، بشرط ألا يتجاوز أربعـة أشـهـر»، فـإنه يُلحظ أن هذا البند يتـضـمّـن تأكـيـدا جـديدا لاعـتـراف الإمـام بالـخليفة العـثمـاني، وبأنه ليس خليفة من حقه أن يصادق على أحكام القصاص، وإنما هو أحد رعايا الـخليفة التركي «الـممتازين».

وبخـصـوص البند الـسـادس الذي ينصُ «يحق للحكومـة -أي للوالي التـركي-أن تعيّن حكاما للشرع من غير اليمنيين في البلاد التي يسكنُها من يتمذهبون بالـمذهب الشـافعي والـحنفي، وأن تنصب الـحكام للشـافعـية والـحنفيـة»، والبند العـاشر الذي

ينصُ على أن «الحكومة هي التي تنصّب الحكام للشافعية والحنفية، فيما عدا الجبال الزيدية»، فإن هذا يؤكد أن انتخاب حكام الشرع من قِبَل الإمام وتعيينهم من قِبَل الأستانة محصور في المنطقة الزيدية؛ أما تعيين المسؤولين إداريا وماليا وعسكريا فمن حق الولاية في عموم اليمن، بما فيها المنطقة الزيدية، كما أنها هي التي تعيّن حكام الشرع في البلاد الشافعية والحنفية حتى من غير اليمنيين. أما البند التاسع الذي ينصُ على أن «تكون مسائل الأوقاف والوصايا منوطة بالإمام يحيى»، فالواضح أن هذا مصدر مالي للإمام، أراد الأتراك به إرضاء الإمام ماديا؛ أما التكاليف الأميرية من زكاة وضرائب فمنوطة بالولاية طبقا للمادة 13 من الصلح، وكلمة «منوطة» تعني إناطتها من الولاية بالإمام، أي تعينه على الأوقاف والوصايا والتصرف بها.

أما البند الخامس عشر، والذي ينصُ على أنه «يحق للزيدية تقديم الهدايا للإمام إما توّا-مباشرة- أو بواسطة مشايخ الدولة أو الحكام»، فكما يبدو، كان الأتراكُ يعرفون أن أكثر الزيود يقدّمون للإمام يحيى زكاة أموالهم وبعضهم يقدّمون له نذورا، ولذلك جاء هذا البند واعتبر الزكاة «هدايا»، بدلا من كلمة زكاة التي تُدفع للولاية، والهدية تُقدّم غالبا مباشرة، ولا يتم تحصيلها بواسطة حكام الإمام ومشايخ القبائل، وقد تجنّب الأتراكُ في هذا البند كلمة زكاة؛ لأن الزكاة تُدفع للدولة، وليس للأشخاص. وبخصوص البند السادس عشر والذي يتضمن «على الإمام تسليم عُشر حاصلاته للحكومة»، فهو تأكيد أن الإمام مواطن تابع للولاية والأستانة، ومن واجبه أن يسلّم عُشر ما يتحصّله للولاية كأي مواطن آخر. أما البند الثامن عشر، والذي ينصُ على أن «يُخلي الإمام سبيل الرهائن الموجودين عنده من أهالي صنعاء وما جاورها ومن حراز وعمران وغيرها»، فيثبت أن الإمام لم يبق له حق في احتجاز رهائن الطاعة؛ لأن الجميع بهذا الصلح قد صار من رعايا الولاية والأستانة.

وفيما يتعلق بالبندين التاسع عشر والعشرين، واللذين ينصان على أنه «يمكن لمأموري الحكومة وأتباع الإمام أن يتجوّلوا في أنحاء اليمن بشرط ألا يخلوا بالسكينة والأمن، كما يجب على الفريقين ألا يتعدّيا الحدود المعينة لهما بعد صدور الفرمان السلطاني بالتصديق على هذه الشروط»، فإن من الواضح أن هذين البندين يؤكدان

وجود حالة سلم دائمة بين الطرفين، وحق الطرفين في التجول والتنقل في عموم البلاد، ويلاحظُ أن عبارة «ولا يتعدى أي فريق منهما الحدود المعينة لهما»، يدلُ على وجود اتفاق غير مكتوب بين الطرفين في هذا الصلح، ينصُّ على حدود للإمام؛ لأن الصلح لم يورد بندا خاصا بالحدود، حتى لا ينص فيها أن هناك منطقة خارجة عن حكم الولاية في اليمن، ويبدو أن الاتفاق غير المكتوب في الصلح بأن يكون للإمام منطقة خاصة في بلاد القفلة والمدان وحتى شهارة وصعدة، لا يوجد فيها نفوذ أو وجود تركي. هذه هي بنود «صلح دعان» التي أصبح الإمامُ فيها مواطنا من مواطني الدولة التركية، له امتيازات خاصة، وصارت اليمن كاملة ولاية من ولايات الدولة العثمانية التركية؛ ولذلك قال عصمت أنينو: «إمامكم باعكم بلاش».

سياسة اللؤم والتضليل

وبعد أن أصبح الإمامُ يحيى حاكما لليمن الشمالي، ابتداء من عام 1918 وحتى قُتل في عام 1948 انتهج سياسة اللؤم والتضليل، فلم يعد يلجأ إلى قتل من لم يرضَ عنهم، ولكنه كان بكلّ ما في نفسه من لؤم وحقد يلجأ، إما إلى تهميشهم واستبعادهم وإذلالهم، وإما إلى زجّهم في السجون الرهيبة في صنعاء ووشحة والسنارة في صعدة، وفي الحالتين كان أسلوبه تجويع وإذلال من لا يرضى عنه. وكمثال على ذلك كان من العلماء الكبار مع أبيه الإمام المنصور القاضي العالم الكبير عبد الوهاب الشماحي المجاهد، والد القاضي العلامة عبد اللّه الشماحي. وذات يوم كان الإمام في الروضة القريبة من صنعاء جاء إلى مقامه القاضي عبد الوهاب الشماحي، ودخل إلى ديوانه، فأراد الإمام إذلاله أمام حاشيته، وقال له بمجرد دخوله: يا قاضي عبد الوهاب هل نسيتم الآية: (فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ)، سورة النور، فعاد الشماحي، وسافر إلى ضفير حجة، وبقي هناك حتى مات بعد أيام، وأشاع الناسُ أنه مات من القهر.

بعد دخول الإمام يحيى إلى صنعاء عام 1922 أثار في مجالسه موضوع استيلائه على صنعاء بدون حرب، وأن صنعاء بذلك غنيمة للإمام، فردّ عليه زيد الديلمي وهو

من أكبر العلماء: «يا مولانا كل واحد منا يبرز «فصل» والده وما في الفصل هو ملكه، وما خارج الفصل ملك غيره. إن صنعاء دار إسلام، وليست دار كفر»، وسكت الإمام وحقدها عليه. وذات يوم كان زيد الديلمي في حمّام المتوكل القريب من قصر الإمام «حمّام بخار»، وبلغ الإمام وجود الديلمي في الحمام، فأرسل إليه خمسة من عكفته المسلحين، وأمرهم أن يدخلوا إلى صدر «حمّام البخار» بأسلحتهم ويخبروا زيد الديلمي بأن يخرج إلى الإمام فورا، ولكن الديلمي عرف قصد الإمام وقال للعكفة: عودوا إلى من أرسلكم، وقولوا له: يقول لك زيد: «ما شاموت شيّة»[1] وكان هذا بعد موت الشماحي.

وكان في صنعاء عالم من كبار العلماء يدرّسُ في الجامع الكبير، وهو خطيب صلاة الجمعة فيه، وقد تعمّد الإمام استبعاده وتهميشه، وعندما اشتدّ فقره ذهب إلى ديوان الإمام، ليطلب منه اعتماد معاش شهري، وعندما أقبل على الإمام تجاهله ولم يرد على مراجعته فكتب دلالا إليه ما يلي:

تراني مقبلا فتصدُّ عني
سيغنيني الذي أغناك عني
كأنَّ الله لم يخلق سواكَ
فلا فقري يدوم ولا غناكَ

ورمى له الورقة ولم يعد لمقابلته حتى مات. هذه نماذج من لؤم الإمام في معاملته لكبار العلماء وكبار الوجهاء وأمثالها بالمئات في حياته.

وقد انتقل الإمام يحيى من تكوين «المدافعين للبيوت» إلى تكوين «المدافعين للعقول»، فجنّد مجموعات تنتشرُ في المدن والقرى، وتبثّ دعايات مضللة عن الإمام يحيى، وأكثرهم يظهرون في شكل «مجاذيب»، والمجذوبُ في اليمن من يسكنُه الجن، فهو نصفُ مجنون ونصف عاقل، يلبس ملابس غريبة لافتة للنظر،

(1) «ما شأموت شيّة» جملة باللهجة الذمارية، تشير إلى موت القاضي عبدالوهاب الشماحي قهرا بسبب إهانة الإمام له.

ويحملُ في يده عصا طويلة، ويتجول في الشوارع والأسواق، ويخاطبُ الناس بصوت مرتفع، ومجاذيبُ الإمام المدافعون للعقول يبثون في عقول الناسِ خُرافات ودجلا وتضليلا، يقتلون بها ملكة التفكير في عقول الناس، ويغرقونها بخرافات عن الإمام يحيى.

وأذكرُ- وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري-أن أحد المجاذيب المزيفين كان يمرُّ في شوارع وأسواق صنعاء بملابسه الغريبة وعصاه الطويلة السميكة، ويقفُ مخاطبا الناس: وكنتُ وأنا طفل أقف مع الناس حوله، وهو يخاطبنا: «يا أيها الناس، علّموا أولادكم الصلاة.. علّموهم حبَّ آل البيت.. علّموهم حبَّ الإمام، إمام الزمان، ظلَّ الله في الأرض، إن الله قد سخّر له الجن والملائكة، إنه من أهل الخطوة يقول: الله وينتقل في لحظة إلى أي مكان في الأرض، إنه يصلّي بالناس صلاة الفجر في مكة يقول الله، وينتقل إلى مكة، وبعد الصلاة يقول: الله فيعود إلى بيته سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، سبّحوه، واحمدوا الله على الأمن والأمان في ظلَّ إمام الزمان»! وكنتُ أستمع له وأشاهده مجذوبا إليه، وقد حلّ الإمام بكل قداسته وبركاته في عقلي ونفسي، لم أعد أفكر إلا في حبي للإمام، وحبي لآل النبي. أصبح الإمامُ خرافة إلهية مقدسة، تسكنُ عقلي، وبهذا دمّر الإمامُ ملكة التفكير في عقول الناس، وملأها بالخرافات الإلهية المزيفة.

وذات يوم جلس القاضي عبد اللّه بن حسين العمري، الوزير الوحيد للإمام مع الإمام، وحدّثه بأن السخط ضد سياسته قد انتشر بين الناس، ونصحه بإدخال إصلاحات في حكمه، فقال له الإمام: يا قاضي عبد اللّه صدّقت الزناقلة وهم عدد قليل! أما الشعب ففي غفلته الدائمة وسوف أُريك ذلك. واستخدم الإمام من أشاع بشكل كبير في صنعاء أن ملك الجن قد مات في «سايلة نقم»، وأن الجنّ «فالتين» وقد يسكنون في بيوت الناس، وفي داخل أجسادهم، وأن على الناس أن يدهنوا جباههم وأبواب بيوتهم بمادة القطران التي تُبعد الجن منهم ومن بيوتهم! وفي اليوم التالي دعا وزيره، وخرج إلى شوارع صنعاء على عربته، وتجمّعت حوله جموع كبيرة، كلهم قد دهنوا جباههم بالقطران، دفعا للجن الفالتين. وقال الإمام لوزيره: «الزناقلة

وحدهم هم الذين لم يُقطرنوا جباههم بالقطران؛ أما الشعب فانظر إليه». ولم يُقطرن الإمامُ جبهته؛ لأن الجنَّ لا يقربون الإمام، كما أشاع بين الناس!

الإمام يحيى ووحدة اليمن الطبيعية

عندما استولى الإمام يحيى على شمال اليمن في أعوام 1918م و1919 و1920 خلال وعقب انسحاب الأتراك بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، كان الإمام يرى أن من حقه حكم اليمن الطبيعية أرضا وشعبا، وأن واجبه توحيد اليمن، ولكن الإنجليز كانوا قد بسطوا نفوذهم على المحميات التسع في جنوب وشرق اليمن، كما أن الأدارسة، أو الإمام محمد الإدريسي قد بسط سلطته على مخاليف عسير وصبيا وأبها وامتد إلى الحديدة، بدعم من إيطاليا أولا، ثم بدعم من الإنجليز، ولكن منطقة الإدريسي في اليمن لم تكن مهمة للإنجليز، ولذلك اكتفوا بدعم الإدريسي دعما محدودا، تاركين للإمام يحيى فرصة التفاهم مع الإدريسي، أو الاستيلاء على منطقته.

وكان الشريف حسين في مكة لا يزالُ يحكم الحجاز، ويتطلّع للتوسع في اليمن، برغم تخلّي الحلفاء الأوربيين عنه بعد انتصارهم، وكانوا قد تعاهدوا معه على إعلان الثورة العربية ضد الخلافة الإسلامية العثمانية، مقابل دعمهم له في توحيد البلاد العربية، تحت حكمه، ثم توزّعوها فيما بينهم. وكان الإمام يحيى قد حاول القضاء على الأدارسة في تهامة، وتمكّن من طردهم من الحديدة، وضمّها إلى مملكته، ولكن مملكته نفسها كانت معرضة لخطر العدوان الإنجليزي عليها، خصوصا والكثير من الدول لم تعترف باستقلال مملكته.

وبرغم أن معاهدة فرساي التي وُقّعت عام 1919، عقب الحرب العالمية الأولى قد جعلت اليمن تحت الوصاية الإنجليزية، باعتبارها ولاية من ولايات العثمانيين المنهزمين في الحرب العالمية الأولى، إلا أن الإمام يحيى كان قد تسلّم اليمن من الوالي التركي محمود نديم عام 1918، عقب هزيمة الأتراك، وربما كان الإمام يحيى لا يعرف فرساي ولا معاهدة فرساي، ولذلك سارع بتكوين جيش قبلي من القبائل

الزيدية، وبعث به جنوبا بقيادة الأمير علي بن عبد اللّه الوزير، والسيد عبد اللّه أحمد الوزير، وتم بقيادتهما إخضاع لواء تعز وإب عام 1919 بصورة همجية، وفي العام نفسه بعث الإمام السيد محمد الشامي والد صديقي أحمد الشامي بجيش واحتلّ به مناطق «الضالع ونعوة والربيعتين وجُبن»، بالقرب من حدود يافع العليا. كما غزا بلاد العوذلي وجرت اشتباكات بين الإمام وشريف بيحان، فقد وصل إلى عدن الشريف محسن، سلطان بيحان باحثا عن مساعدة بريطانية.

كما تقدّمت حملة إمامية عام 1339هـ–1920 على بلاد الحواشب، ومن تعز تقدّمت حملة على بلاد «الأصابح»، واحتلّت القرشيين، وأحرقت نوبة المرجبي، وتوسّعت إلى بلاد الحوشبي عام 1921. وكان الإنجليزُ قد أرسلوا وفدا لمفاوضة الإمام يحيى في شهر ذي الحجة 1337هـ–سبتمبر 1919 برئاسة الكولونيل هـ. ف. جاكوب لعقد اتفاق مع الإمام، وتحديد الحدود ومصير ميناء الحديدة الذي كان لا يزالُ تحت سلطة والي عدن، ولكن قبيلة «القحري» في تهامة القريبة من الحديدة احتجزت الوفد، وتدخل الإنجليزُ واستخدموا الطائرات لضرب تجمعات الجيوش الإمامية، وحلّقت فوق مدينة تعز وذمار ويريم.

من جانبه، حاول السلطان عبد الكريم، سلطان لحج، أن يتدخّل، فقد كان يتعاطف مع الإمام يحيى، وبموافقة والي عدن أرسل السيد علوي بن حسين الجفري إلى الإمام، وحصل منه على أمر بانسحاب الجيش الإمامي إلى وادي «معادن»، ثم انسحب منه بعد حل موضوع تعويض الجيش الإمامي بواسطة سلطان لحج والقاضي عبد اللّه العرشي. وبعد تدخل الإنجليز بطائراتهم الحربية، وهزيمة الإمام يحيى في الحرب السعودية اليمنية عام 1934 وجد الإمامُ نفسه في وضع ضعيف؛ إذ لم تعترف به من الدول إلا القليل، وهناك معاهدة فرساي التي جعلت اليمن تحت وصاية البريطانيين، وسلاح جيشه قديم من مخلفات الأتراك، ولا حيلة له في مقاومة حرب الطائرات، ولذلك فضّل مهادنة الاستعمار الإنجليزي، ولكنه رفض توقيع أي معاهدة تحدد الحدود.

الإمام يحيى ونظامه المتخلف

كان الإمام يحيى حتى وهو يتصارعُ مع الأتراك، وقبل أن يستلم منهم السلطة قد تبنّى سياسة لحكمه الإمامي، تقومُ على ما يلي: 1. الاستبداد بكل السلطة. 2. الاستيلاء على كل أموال السلطة. 3. تهميش واستبعاد رجاله البارزين وإبراز آخرين. 4. عزل اليمن عن العالم 5. تطبيق نظام الرهائن البشع.[1] وهذا النظام من أبشع الجرائم الإنسانية التي ارتُكبت في عهود إمامية، لا أعرف متى كان ذلك، ولكني أعرف ذلك في عهد الإمام يحيى والإمام أحمد. ومعنى الرهينة والرهائن هو أخذ أطفال من أبناء المشايخ، وأبناء الأسر الكبيرة رهائن طاعة لدى الإمام، ووضعهم في السجون التي تضمّ القتلة واللصوص والمجرمين، وقد يُؤخذ الرهينة وعمره عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة، ويبقى ست أو سبع أو ثمان سنوات في السجن، ولا يخرجُ منه إلا شابا، وإذا خرج فعلى أسرته إرسال رهينة أخرى بدلا منه. وكان نظام الرهائن هذا نظاما ظالما بشعا، يفتقدُ كلَّ معاني الإنسانية.

ومن مظاهر نظام الإمام يحيى المتخلف تطبيق نظام تخمين الزكاة، الذي كان يعني إرسال أحد السادة، أو أحد الفقهاء، ومعه خمسة إلى عشرة من الجنود إلى منطقة زراعية معينة، لتخمين زكاتها، ويقومُ المخمّنُ بالتخمين الذي يقربُه من الإمام، أو من وُلاة الإمام، فيجعل الزكاة أضعافا مضاعفة، وينزل هو وجنوده في بيوت المزارعين، يأكلون ويشربون ويخزّنون القات على حساب المزارعين، ثم يأخذون أجورهم من هؤلاء المزارعين المساكين، وهذا يكلّفهم تكاليف باهظة، لا يطيقونها إلا إذا كان لهم أقارب في المهاجر اليمنية، يرسلون لهم مصاريف من المهجر.

واستنَّ الإمامُ يحيى نظاما آخر لا يقلّ بشاعة عن نظام المخمنين، عرُف بنظام التفتيش على المخمنين، وهو إرسالُ فقهاء أو سادة، مع كل منهم عدد من الجنود إلى

(1) ذكرتُ نظام الرهائن وما جاء بعدها من أنظمة، ثم سألت بعض طلبة الجامعة عن معنى الرهائن والرهينة ومعنى المخمن ومعنى الخطاط وغيرها ، فوجدت أنهم لا يعرفون أي شيء عن هذه الأشياء، ولذلك وجدت من المفيد للقارئ في الوقت الحاضر والمستقبل أن يعرف شيئًا عن تلك الأنظمة الإمامية، وسأفسر ذلك عقب كل نقطة من النقاط.

المناطق الزراعية، للكشف عن صحة ما خمّنه المخمنون، وهذا يعني أن الكشّاف يضيفُ على ما خمّنه المخمّنُ إضافة ترضي ولاة الإمام، وإلا فلن يُرسل مرة أخرى للكشف، وكما تم مع «المخامنة» ينزلُ الكشّاف والجنود معهم في بيوت المزارعين، يأكلون ويشربون ويخزّنون على حسابهم، ثم يأخذون منهم أجور الكشف. ومن الأنظمة المتخلفة التي تمّ تطبيقها في عهد الإمام يحيى نظام تحصيل الزكاة، فبعد أن يحصد المزارعون ما زرعوا، يأتي فقهاء أو سادة أو مشايخ مع الجنود إلى المناطق الزراعية، وينزلون في بيوت المزارعين، يأكلون ويشربون ويخزّنون بالقات، ويأخذون أجورهم ويتحصّلون من المزارعين ما فرضه عليهم المخمنون والكشّافون. كل هذا لا يُبقي للرعية إلا الشيء القليل، وقد يأخذُ كل ما زرعوا وفوقه ما يأتيهم من أبنائهم المهاجرين في المهجر.

إضافة إلى ذلك، استنَّ سيف الإسلام الحسن بن الإمام يحيى الذي كان واليا على لواء إب نظاما غريبا عُرف بنظام الصُّبرة، ويعني أخذ ما دفعه المزارعون مما كان يُسمّي زكاة لمدة ثلاث سنوات، وعلى المزارعين أن يدفعوا زكاة أموالهم طبقا لأعلى نسبة في الثلاث السنوات، ونلاحظُ أن زكاة الثلاث السنوات كانت مضاعفة بسبب المُخمنين والكُشاف. ومن مظاهر التخلف الذي اتسم به نظام الإمام يحيى، تكوين جيش نظامي وجيش «برّاني» وتطبيق نظام «الخِطَاط» البشع. لا أدري متى تمّ سن هذا النظام نظام «الخِطَاط»، هل كان في عهود إمامية سابقة؟ أم أنه اختراع عبقري من الإمام يحيى وولاته! والخطاط يعني إرسال قوة من العسكر ومن القبائل الزيدية إلى المناطق الأخرى في اليمن الأسفل، وفي المناطق الزراعية الأخرى لا تحملُ إلا السلاح، وليس لها إدارة تموين تلبّي حاجة المسلحين من أكل وشرب وغير ذلك، ولذلك لا يجد قائد الجيش ما يطعم به جنوده إلا تخطيطهم؛ أي توزيعهم في بيوت الأهالي في القرى والمدن، وعلى الأهالي أن يُلبُّوا طلبات هؤلاء الجنود من الأكل وذبح الكباش، أو على أقل تقدير في بعض البيوت ذبح الدجاج، وتقومُ النساء بتجهيز الأكل، ويقومُ الرجال بالذهاب إلى الأسواق ومزارع القات، لشراء القات للجنود والمأمورين. وعندما وصل الأمير علي عبد اللّه الوزير، واحتلَّ مدينة تعز، وكان قد

احتلَّ من قبل مدينة إب وخطط فيها جنوده عام 1919، وحصلت مقاومة غير متكافئة من الأهالي في مدينة تعز، وفي جبل صبر، وفي النواحي الأخرى، ومات في هذه المقاومة المئات من الناس، وربما الآلاف، وخضع الأهالي للخِطَاط، وهكذا أصبح الجنود يسكنون مع الأهالي في بيوتهم، ويعيشون على حسابهم من دون رحمة أو مراعاة لأي قيم. وكانت بعضُ البيوت لا يوجدُ فيها إلا الأطفال والنساء؛ لأن الرجال قد هاجروا إلى المهاجر اليمنية، حتى يتمكّنوا من العيش فيها، ويرسلوا من عرقهم إلى أهلهم في اليمن ما يعيشون منه، وما يعيشُ منه جنود الإمام.

وقد استمرّ «نظامُ الخِطَاط» من أول عهد الإمام يحيى إلى أن قامت ثورة 26 سبتمبر 1962 الجمهورية. وممّا يدلُّ على ذلك أن الزعيمين الزبيري والنعمان أرسلا من عدن برقية إلى الإمام يحيى باسم الجمعية اليمنية الكبرى عام 1946، يناشدونه فيها أن يرفع الخِطَاط عن بيوت الأهالي التي لا يوجدُ في أكثرها إلا النساء والأطفال، وذلك بمناسبة العيد في ذلك الوقت، فأجاب عليهم الإمام يحيى بأن هذا الأمر يحتاجُ إلى بحث واتفاق؛ لأن البعض لا يرى إلا رأيه، وهذا يعني أن الإمام كان قد استمرّ في تطبيق نظام الخِطَاط من بداية عام 1919، حتى قُتل، وطبّقه ابنُه أحمد حتى مات، وذلك مدة 43 عاما في عهد الإمام يحيى.

كان عهد الإمام عهدا يتمّ فيه استهلاك كل شيء موجود، من دون وجود أي تنمية لتعويضه، الأمر الذي جعل الأراضي الزراعية تفقدُ خصوبتها، وجعل أشجار الفواكه تثمرُ ثمرات ضعيفة، كما كان الناس والحيوانات يموتون بالأمراض، وتتقزّم أجسامهم وعقولهم، وهكذا رأينا الإمام يستنفدُ كل شيء دون أي تعويض. لقد كان حكم الإمام يحيى يقوم على التخلف والظلم والتدمير واللؤم والبخل، دون أن يفكّر في أي تنمية للطبيعة أو للبشر أو للحيوانات. ومن أبرز سياسات وأعمال نظام الإمام يحيى، الاستفادة من بقايا الأتراك وأنظمتهم إداريا وعسكريا وماليا، واستغلال الإمكانات الموجودة وعدم تنمية البديل، وترك الجهل والمرض والفقر منتشرا بلا حدود، ونشر التضليل والخرافات والتشيع، وإضعاف الأسر الكبيرة بالإبعاد والتهميش وإثارة الخصومات، واستخدام الشريعة وسيلة للتحطيم.

مناضلان عربيان في حياة الإمام يحيى

زار المناضل العربي التونسي عبد العزيز الثعالبي اليمن في عام 1924، وبدأ رحلته من عدن، واستقبله في لحج سلطانُها عبد الكريم بن فضل العبدلي، وتحدّث معه في موضوع التواصل مع أمراء وسلاطين المحميات، ومع الإمام يحيى، بهدف وحدة اليمن في دولة واحدة. ولا شك أن الثعالبي خلال رحلته قد عرف الكثير من حكم الإمام يحيى، كان هذا في بداية عهد الإمام يحيى. أما المناضل العربي الآخر فهو المناضل الجزائري الذي التقى بالإمام يحيى في أواخر عهده، عامي 1947–1948، وسعى لإنهاء عهد الإمام يحيى بميثاق وطني دستوري مقدس، وسيأتي تفصيل ذلك في فصل آخر من ذكرياتي. أما الآن فسوف أركّزُ على دور المناضل عبد العزيز الثعالبي في محاولته بناء دولة يمنية، توحّد اليمن على أساس دستوري، يجعلُ الإمام رمزا للسيادة، ويجعلُ المؤسسات الدستورية تديرُ نظام الحكم تشريعا وتنفيذا وسياسة، واقتصادا، وتنمية بشرية، ومادية.

بدأ الثعالبي رحلته من عدن التي وصل إليها في 12 أغسطس 1924، واستمرّت رحلته إلى 17 أكتوبر 1924، ووصف الرحلة بالتفصيل مرحلة مرحلة، حتى وصل إلى صنعاء، ونزل فيها ضيفا على الإمام يحيى. ويذكرُ الثعالبي أنه سافر من عدن إلى لحج على القطار في الدرجة الأولى؛ أي أن القطار كان موجودا في عام 1924 بين عدن ولحج، ولكن هذا القطار انقرض خلال سنوات، فلم يعد له وجود في عام 1944 عندما كنتُ مع الأحرار في عدن. كيف انقرض القطار؟ ولماذا لم يحافظ عليه الاستعمار البريطاني في عدن؟ ولماذا لا يمدّه إلى مناطق أخرى؟ إن الاستعمار الإنجليزي لم يكن يهتمّ بأي تطوير أو تحسين في المحميات؛ لأن الهدف منها حماية المستعمرة عدن، وحتى عدن لم يكن الاستعمار يهتم إلا بالميناء، وجعلها منطقة «ترنزيت» إلى الهند، ومنطقة حرة للتجارة، ولم يحدث فيها شيء من التوسُّع في العمران إلا بعد أن أقام فيها قواعد عسكرية، وتوسّعت فيها ومنها حركة التجارة الحرة، وقد ذكر الصحفي الكبير محمد علي لقمان في كتابه «شخصيات عرفناها» أن البدو قد نهبوا قضبان السكة الحديدية قبل عام 1940.

حوارات الثعالبي مع الإمام يحيى

في صنعاء كانت للثعالبي حوارات في جلسات متعددة مع الإمام، وتُعتبر من أهم المحاورات التي أظهر فيها الإمام يحيى فهما واضحا لواقعه وواقع ما حوله، ولا مجال هنا للتفاصيل. وكان الإمام حذرا من الدول الأوروبية، ومن الإنجليز بشكل أكثر، وقد علم الثعالبي من الإمام أن الإنجليز في عدن حاولوا التفاهم معه على ضمّ المحميات إلى مملكته، بشرط أن يعقد معهم معاهدة تنصُّ على أن تكون سياسة مملكته الخارجية مقيّدة بموافقة الإنجليز، وألا يعقد أي معاهدة أو اتفاقيات مع دولة أو دول أخرى إلا بموافقة الإنجليز، وهذا يعني أن مملكة الإمام ستكونُ محمية تضمّ المحميات الإنجليزية، بدلا عن المحميات الحالية.

وقد رفض الإمام ذلك، ورفض عقد أي معاهدة مع الإنجليز، تحدّد حدود مملكة الإمام مع سلاطين ومشايخ المحميات، فقد كان الإمام يحيى يعتبر وحدة اليمن بحدودها الطبيعية حقا مقدسا، لا يفرّط فيه، ولذلك رفض الاعتراف بالوجود الاستعماري في عدن، وبوجود المحميات في جنوب وشرق اليمن، ووقف عند حدود الرفض، بينما عقد مع الإنجليز اتفاقيات تهدئة واعتراف ضمني بالمحميات وحدوده مع المحميات. وكان يبدو من أحاديثه وحواراته مع الثعالبي أنه كان لا يزالُ يعطي للشريف حسين حاكم الحجاز قيمة وأهمية أكثر مما يعطي سلطان نجد عبد العزيز آل سعود، ولكن الثعالبي أبدى رأيه في الشريف حسين، وأكد أنه شخص مرفوض من الجميع، وأن الحجاز الذي يحكمُه لا يصلحُ بلدا تقومُ فيه دولة عربية موحدة أو دولة خلافة إسلامية. ويذكرُ الثعالبي في مذكراته أن الإمام الذي كان معجبا به، قد أخبره أنه تلقّى رسالة سرية من الرياض، مؤرخة يوم 14 محرم 1343هـ، تخبره بأن سلطان نجد عبد العزيز آل سعود سيقوم بغزو الحجاز، ويحتل مكة والمدينة وجدة، بقوة قادرة على هزيمة الشّريف الحسين بن علي.

وكانت نتيجة حوارات الثعالبي مع الإمام يحيى الاتفاق على عقد مؤتمر يمني، يدعو الإمام إليه سلاطين ومشايخ الجنوب والشرق، لبحث موضوع قيام الوحدة اليمنية في دولة واحدة بعيدة عن النفوذ والاستعمار، على أساس ميثاق دستوري

يُقرُّه الجميع. ويشيرُ الثعالبي في كتابه «الرحلة اليمنية» إلى أنه قد استعرض مع الإمام برنامج المؤتمر وصيغة الدعوة التي يوجّهُها الإمام للمرة الثالثة، وأن الإمام خلال استعراض ذلك قد لاحظ بعض الكلمات، وذكر أن فيها سببا يقبلُ التأويل حسب شهوة القارئ، وتم حذفها واستبدالها. يقول الثعالبي: «ثم طلب مني حذف الموضوعات التي ستُناقش في المؤتمر، وقال: لماذا ننمُّ على أنفسنا ونُطلعُ العدو على أسرارنا! وإنما يجب أن نعوّضها بكلمة مجمّلة تدلُ على غاية شريفة، بدون أن نكشف سرنا، فوافقته على ذلك، وإن كان في نفسي شيء أخشى أن يعمد إلى تغيير برنامج التباحث في المؤتمر».

وكان ميثاق الثعالبي الدستوري بعنوان: «برنامج إصلاح الحكم في اليمن»، وهذا البرنامج كان في غاية الأهمية حينذاك، ولا يزال مضمونه مطلوبا في آخر عهود الجمهورية.! وكان المفروض أن يُقرأ هذا البرنامج في المؤتمر الذي يحضره سلاطين ومشايخ المحميات، كما يحضُره مشايخ القبائل اليمنية، وكبار علماء اليمن بدعوة من الإمام، وخلاصة البرنامج باختصار شديد:

1. أن الاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق لا تكونُ بين الأفراد مهما كانت منزلتُهم، وإنما تكونُ بين دول لها شعوبُها وحكوماتها ومؤسساتها.
2. أما مملكة اليمن في عهد حكومتها الإمامية فإنها ليست من النوع الذي تُبرم معه العقود والاتفاقيات؛ لأنها في شكلها المطلق المستند إلى محض إرادة المتولي لها لا إلى نظام أساسي، يرجعُ إليه يكونُ بمثابة الرقم على الماء؛ لأن العقد في هذه الحالة يكونُ لصالح القوي على حساب الضعيف.
3. لذلك يجب أن يُبنى نظام للإمامة وحقوقها، بشرط أن يخلى جانبها من المساءلة والمسؤولية عن أعمال الحكومة، وإناطتها بمجلس الوزراء الذي يُسيّرُ أمور الحكم في الداخل والخارج.
4. إيجاد الهيئات التشريعية والبلدية ومجالس التصريفات «المحلية».

هذا ملخص ما جاء في برنامج الثعالبي لإصلاح الحكم في اليمن، ثم فصل اختصاصات كل وزارة، ومهام مجلس الوزراء ومهام مجلس الأمة.

وقد أرسل الإمام يحيى رسالته إلى سلطان لحج وسلاطين المحميات، يدعوهم لحضور المؤتمر المقترح أو من ينوبُ عنهم. كما وجّه خطابا مفتوحا إلى أبناء الوطن، استهلّه بما يلي: «بني وطني.. وبينكم كل مغوار شهم من أمراء وسلاطين ومشايخ وأشراف وحكام مخاليف اليمن المتخلفين عن الانضمام للوحدة القومية اليمنية». ثم دعاهم إلى حضور مؤتمر عام، يعقده باسم الله، للبحث والنظر فيما يصلح به أمر البلاد اليمنية، وكل ما يتقرّر في هذا المؤتمر يكونُ في حكم المسائل المجمع عليها. ثم ذكر جدول أعمال المؤتمر ومواضيع البحث ونختصرها فيما يلي:

أولا: الاعتراف والتصديق بأن بلاد اليمن واحدة، غير قابلة للتجزئة بحدودها الطبيعية التي كانت لها قبل الإسلام وبعده، وليس فيها مناطق نفوذ لأي دولة أجنبية.

ثانيا: الاعتراف بالسيادة الإمامية على كل جزء من أجزاء بلاد اليمن، وهي الرمز الأعلى لقوات البلاد الدينية والسياسية والعسكرية، بيدها إعلان الحرب وإبرام الصلح، وعقد الاتفاقيات التجارية والاقتصادية والبريدية والمواصلات، وغير ذلك مما يدعو لإيجاد صلة بين اليمن وغيره. واللافت أنه في هذا الموضوع، لم يشر الإمام إلى برنامج إصلاح نظام الحكم الذي اتفق عليه مع الثعالبي، وركَّز كل السلطة في يده.

ثالثا: تعترفُ السيادة الإمامية باحترام الشكل الإداري المختار لكل قطعة من البلاد اليمنية، مثل لحج والشحر وحضرموت، وأن تكون الولاية موروثة في نصابها، وأن تتكفل بحماية الأمراء من كل اعتداء، بشرط أن يكون القضاء واحدا، وتعيين القضاة من طرف الإمام.

رابعا: أن تكون قوات البلاد اليمنية كلها متحفزة لصد أي غارة أجنبية، وأي عدوان على أي جزء من البلاد اليمنية يُعتبرُ اعتداء على كل اليمن.

خامسا: تأسيس لجنة دائمة مؤلفة من أعضاء يختارُهم أمراءُ البلاد المختارة، وأعضاء يختارهم الإمام للنظر في حقوق ومطالب الجهات «الممتازة»، وإذا حصل خلاف تنظر فيه.

هذا هو ملخص الـموضوعات التي حدّدها الإمام، لمناقشتها في الـمؤتمر، ونرى في هذا ما يلي:

1. ألغى الإمام حضور أي شخصيات أو مشايخ ما تحت حكمه، وتجاهل علماء ووجهاء الـجهات الـممتازة، وحصر الـحضور على السلاطين في لحج والشحر وحضرموت.
2. ركَّز الإمام كل السلطات في يده، وتجاهل تكوين حكومة تنفيذية، وتكوين هيئات تشريعية، وتكوين مجالس محلية واستبدلها بلجنة دائمة، يختارُها السلاطين والإمام لحل الـخلافات.
3. ركَّز الإمام في الـموضوع في البند الثاني على أن الإمام هو الرمز الأعلى لقوات البلاد «الدينية»، وهو يدينُ بالـمذهب الزيدي الشيعي، وهذا يعني عدم الاعتراف بالـمذاهب الدينية الأخرى، في البند الثالث ذكر أن يكون القضاء واحدا، وتعيين القضاة من طرف الإمام، وهذا يجعلُ القضاء زيديا والقضاة كذلك.
4. أن جدول أعمال الـمؤتمر الذي حدّد الإمام موضوعاته يعني أنه لم يكن جادا، لا في عقد مؤتمر وحدوي لليمن، ولا في تبني برنامج لإصلاح الـحكم في اليمن، وإنما كان يسجّل بذلك موقفا دعائيا، استوحاه من حواراته مع الـمناضل التونسي عبد العزيز الثعالبي.

العلاقات السعودية اليمنية سلما وحربا

هذا العنوان لا يدخلُ في البداية ضمن ذكرياتي؛ لأن العلاقات السعودية اليمنية بدأت قبل مولدي، ولكنها استمرت إلى الآن. وفي هذه العلاقات بداية ونهاية يدلان على طبيعتها؛ أما البداية فقد كانت في حج عام 1340هـ-1921، عندما ارتكبت قوات ابن سعود جريمة بشعة تمثلت في قتل ونهب أكثر من ثلاثة آلاف حاج يمني، كانوا في طريقهم إلى مكة، وفي وادي «تنومة» كان الـحُجاج الـمسالـمون غير الـمسلحين قد خيّموا في هذا الوادي، ليرتاحوا وترتاح حواملهم من الـحمير والبغال،

ويأكلون وتأكل حيواناتهم، وفجأة أطلَّ عليهم من الجبال ما كان يُطلقُ عليه اسم «الإخوان»، وهم قوات بدوية، يحركها ابن سعود، ويشبهون في ذلك الوقت المنظمات الإرهابية في وقتنا الحالي، التي تكفّرُ كلَّ المسلمين الذين لا يدينون بمذهبهم، وبينما كان الحُجاج آمنين انهالت عليهم رصاص «الإخوان» الذين يعتبرون الحجاج اليمنيين كفارا، وهكذا ارتكب «الإخوان» مذبحة بشعة، استنكرها العالم، فقد قتلوا أكثر من ثلاثة آلاف حاج يمني خلال ساعات قليلة، ولم ينجُ من الحُجاج إلا خمسة فقط، عادوا إلى اليمن، وأخبروا بحدوث المذبحة. وقد ظلّت هذه المذبحة البشعة جرحا ينزُّ في ضمير اليمنيين جميعا، وستبقى من أبشع المذابح التي ارتكبت في تاريخ المنطقة على أقل تقدير. كانت هذه بداية العلاقات بين اليمن والسعودية، قبل أن يحتلّ عبد العزيز الحجاز ويعلن نفسه ملكا للمملكة العربية السعودية.

أما الحادث الثاني الذي يبرزُ العلاقات بين البلدين فكان في آخر حياة الملك عبد العزيز بن سعود، فقد ذكر هذا الحادث كحقيقة واقعة، تناقلها الكثير من المهتمين بالشأن اليمني السعودي؛ فعندما كان الملك عبد العزيز على سرير الموت استدعى إليه كبار أولاده وقال لهم: «إن خيركم وشركم من اليمن». هذا القول في آخر عهد ابن سعود، وتلك المذبحة البشعة للحجاج اليمنيين التي كانت في أول عهده قد طبعت العلاقات اليمنية السعودية بطابع التوجس وسوء الظن؛ ولذلك بقيت سياسة المملكة العربية السعودية نحو اليمن تنتهج أسلوبا مُمنهجا، لإضعاف اليمن سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، والحيلولة دون قدرتها على الخروج من التخلف الشامل. وفي أواخر العهد العثماني في اليمن، وفي الجزيرة العربية كانت فيها أربع قوى هي: الإمام يحيى في اليمن، والشريف حسين في الحجاز، وابن سعود في نجد والأحساء، وتوجد قوة الإدريسيين في منطقة عسير وأجزاء من تهامة اليمن.

وكان الإمام يحيى يرى أن من حقه توحيد اليمن الطبيعية بحدودها المعروفة في الجاهلية والإسلام تحت حكمه، وكان يعطي أهمية كبيرة للشريف حسين باعتباره صالحا لتولي الإمامة بدلا منه، ولم يكن يعطي أهمية كبيرة لابن سعود؛

أما الأدارسة في تهامة فقد كانوا في موقف يسمح لأي قوة أخرى في المنطقة الاستيلاء على ما تحت أيديهم، وكان الإمام يحيى يعتقد أنه سيستولي على تلك المنطقة بسهولة، وفعلا بعد أن سلّمه الأتراك حكم شمال اليمن تمكّن من احتلال ميناء الحديدة، ومنطقة واسعة جنوب الإمارة الإدريسية حتى ميدي وحرض.

وفي عام 1924 تقدمت قوات «الإخوان» السعودية، واحتلّت مدينة الطائف ونهبتها، وقتلت المئات من سكانها ومن المصيفين فيها، وبعد هذه المذبحة انطلقت إلى مكة والمدينة، ثم طردت الشريف حسين من الحجاز، ثم استولت بعد ذلك على مدينة جدة التي كان يدافع عنها الشريف علي بن الحسين، وبذلك أصبح ابنُ سعود حاكما للحجاز ونجد، ويتطلّع إلى التوسع في مناطق الخليج واليمن. وبعد موت الشريف محمد الإدريسي تزعزعت سلطة الأدارسة في المنطقة، حتى لجأوا إلى ابن سعود، وطلبوا منه الحماية، وبذلك صار نفوذُ ابن سعود متحكما في منطقة الأدارسة، بحيث لم يعد في وسع الإمام يحيى اكتساحها إلا بحرب مع السعودية، وذلك في عام 1926.

مذابح وادي بيشة

وفي شهر رمضان 1350هـ-1932 حاول ولي العهد في حجة إقناع والده الإمام يحيى باحتلال منطقة الأدارسة في مخلاف عسير وتوابعه. وكان الإمام لا يحبذ ذلك؛ لكن ولي العهد أصرّ على ذلك وجمع سرايا من الجيش النظامي، مدعومة بقوة قبلية مسلحة، وتقدّمت هذه القوات حتى وصلت وادي بيشة، في منطقة الزهرة من لواء الحديدة. وخرج عامل الناحية العتمي في ألفي مسلح لاستقبال جيش الإمام، وكان سيف الإسلام محمد نائب الإمام في الحديدة قد جنّد هذه القوة من قبيلة الزرانيق. وعندما اقترب الجيش المُرسل من ولي العهد لاحتلال منطقة الإدريسي من وادي بيشة استقبله العامل ومن معه من القوة بالترحاب، وذلك بإطلاق الرصاص في الهواء ترحيبا، ولكن الجيش كما يقول ولي العهد اعتقد أن

هذه القوة قوة العدو، فأطلق عليه النار، وقتل تسعة من الزرانيق، ثم هجم على قرى وادي بيشة ونهبها، وقتل عددا من الرجال والنساء والأطفال، وشقّ بعض بطون الحوامل من النساء، وارتكب جرائم الاغتصاب.

وقد توقّفت الحملة ضد الأدارسة بعد حادث بيشة البشع، وأرسل عامل ميدي حينذاك برقية إلى الإمام يحيى يخبرُه بما حدث في وادي بيشة، وذلك في أول يوم من رمضان 1350هـ. كما أرسل ولي العهد برقية إلى أبيه بتاريخ 3 رمضان 1350 حاول فيها إيجاد مبرر للحادث في وادي بيشة، ذاكرا أن قبائل «شامي» أعلنت الفساد، ولم يخرج العامل العتمي إلا بالدراهم، وهذا تبرير غير صحيح؛ لأن ولي العهد نفسه اعترف في البرقية أن العامل ومعه أصحابه قد استقبلوا جيش الإمام

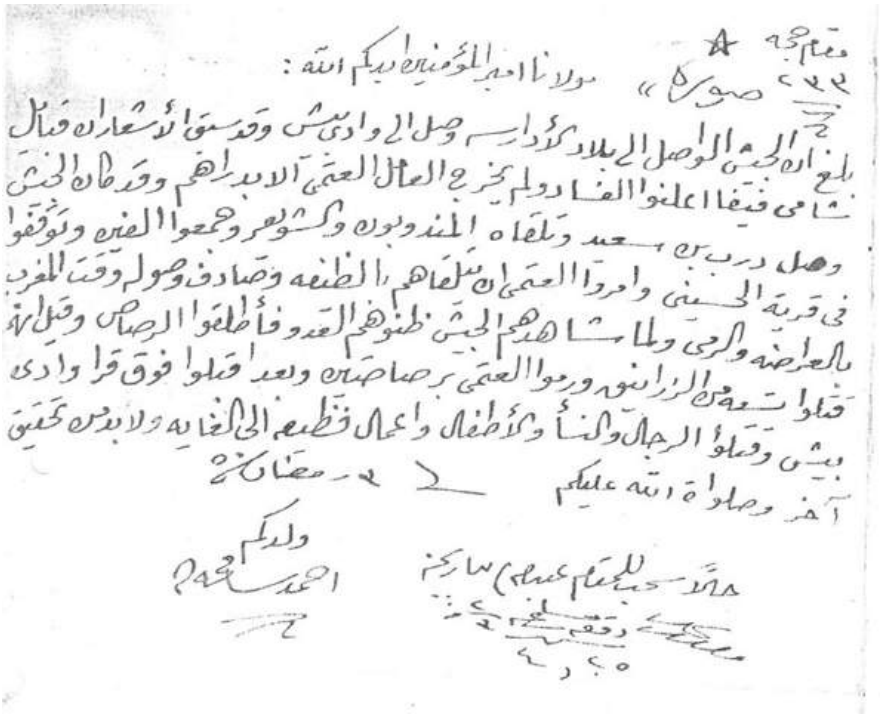

نص البرقية التي بعث بها سيف الإسلام أحمد لأبيه الأمام يحيى بخصوص أحداث وادي بيشة

مرحبين، وجاء في برقية ولي العهد إلى أبيه ما يلي: «أطلق المستقبلون النار في الهواء ترحيبا بالجيش، وظنَّ الجيشُ أنه العدو، فأطلق النار وقتلوا تسعة من الزرانيق، ورموا العتمي برصاصتين، وبعدها أقبلوا فوق قرى وادي بيشة، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال، وأتوا أعمالا فظيعة إلى الغاية ولا بد من تحقيق آخر». نص برقيه ولي العهد لأبيه ننشرها هنا لأهميتها، وقد أجاب الإمام يحيى على ابنه سيف الإسلام أحمد ببرقية يقول فيها: «قد بلغنا ذلك من العرشي، عامل ميدي، وقد أخبرناكم أن في الحركات هلكات».

في تلك الأثناء، حاول الشريف الحسن الإدريسي استعادة نفوذه في المنطقة، وقام بحركة ضد عامل ابن سعود فيها، وذلك في نهاية فبراير عام 1933، الموافق أوائل ذي القعدة 1351هـ، وقد انهزم الإدريسي، وتابعته القوات السعودية حتى التجأ هو وأهله وأعوانه إلى الإمام يحيى، وهنا طلب ابنُ سعود تسليم الأدارسة، ولكن الإمام رفض ذلك.

الحرب السعودية اليمنية عام 1934

خلال عشر سنوات كانت العلاقات بين الإمام وبين ابن سعود علاقات شد وجذب، بسبب اعتراض الإمام على تدخل ابن سعود في منطقة الأدارسة. وبعد احتلال ابن سعود لمنطقة عسير وبقية المناطق التي كانت تحت سيطرة الأدارسة ولجوء الأدارسة إلى الإمام توتّرت العلاقات بين ابن سعود والإمام يحيى، وأخذ كل منهما يستعدُ للحرب. وجاءت عدةُ وفود عربية لحل الخلاف بين الطرفين؛ ولكن الوساطات فشلت. وفي شهر مارس 1934 أعلن الملك عبد العزيز بن سعود الحرب على الإمام يحيى، وتقدّمت قواته على جبهتين، الجبهة الأولى بقيادة الأمير فيصل، واستطاعت بسهولة اكتساح أكبر مساحة من تهامة اليمن، فقد احتلَّ الحديدة، وتقدّم إلى الحسينية وإلى بيت الفقيه، ثم زحف نحو حيس، وكان نائب الإمام على منطقة تهامة هو سيف الإسلام عبد اللّه الذي انهزم هزيمة نكراء وهُزم معه جيش الإمام في تهامة، واتجه نحو صنعاء. وعندما كان الأمير فيصل يتقدّم نحو مدينة

حيس كان عامل الإمام عليها قد تلقّى من نائب الإمام في تعز الأمير علي الوزير أمرا بأن يصمد، ومدّه بقوة كبيرة، توجّهت من تعز إلى حيس واستطاعت أن تصدَّ تقدم الأمير فيصل، وأن تردّه على أعقابه إلى مدينة الحديدة.

أما الجبهة السعودية الثانية فقد تقدّمت بقيادة الأمير سعود، أكبر أولاد الملك عبد العزيز لاحتلال منطقة نجران وما حولها، ولكن الطبيعة الجبلية الوعرة للمنطقة، عرقلت تقدم الأمير سعود، وسمحت لسيف الإسلام أحمد بن الإمام يحيى بأن يكون في مركز قوة، ولذلك طلب من أبيه الإمام يحيى أن يسمح له بالتقدم لاحتلال القنفذة، بقصد قطع الطريق على الأمير فيصل في منطقة تهامة، ولكن الإمام كان قد انهار انهيارا كبيرا، وطلب من ابنه أحمد الانسحاب إلى صعدة، وإخلاء منطقة نجران ومناطق من جبل سحار، وطلب من ابن سعود وقف الحرب وعقد معاهدة صلح. وكان ولي العهد قد احتلّ منطقة نجران أوائل عام 1932، وفرَّ بعض سكانها لاجئين إلى ابن سعود قبل الحرب، وبعد اشتعال الحرب كان ولي العهد يرى أن تقدم الأمير فيصل في تهامة لا يشكّلُ هزيمة لليمن، وأن في الإمكان القضاء على القوة السعودية في تهامة بحملة عسكرية، يقودُها هو من صعدة، ويحتلُ القنفذة، ليقطع طريق الإمدادات للأمير فيصل، بينما تطبقُ عليه قوة يبعثها الإمام يحيى من الجبال إلى تهامة، ولكن الإمام يحيى كان قد انهار واستسلم لشروط ابن سعود.

معاهدة الطائف وانتهاء الحرب

أرسل الإمام يحيى السيد عبد اللّه بن أحمد الوزير للاتفاق مع الملك عبد العزيز ابن سعود على معاهدة سلام بين الطرفين، حدّدت حدود اليمن وحدود المملكة العربية السعودية، وتنازل الإمام في هذه المعاهدة عن الأراضي اليمنية التي كان الأدارسة يحتلونها وضمّها ابن سعود إلى مملكته، وهي: عسير وصبيا وأبها في تهامة وجيزان. وفي شمال اليمن تنازل الإمام يحيى عن منطقة نجران وجزء كبير من جبال صعدة في شمال اليمن، وأصبحت جزءا من المملكة العربية السعودية حتى الآن، وقد ضمّت المملكة أراضي يمنية أخرى في شرورة وغيرها، كما استولت على

الملك عبد العزيز آل سعود وعبد الله الوزير في جدة أثناء المفاوضات بين اليمن والسعودية عام 1934 والتي نتج عنها معاهدة الطائف

صحراء الربع الخالي الذي لم تشمله معاهدة الطائف؛ لأن الطرفين كانا يهتمان بالأراضي المأهولة بالسكان، لا بالصحارى، وعندما نعود إلى اتفاقية الطائف بين المملكتين سنجد أن حدود المملكة السعودية تنفذ في الجبال شمالا في المناطق الآهلة، وتنص بالعبارة التالية: «وما عداه فيمن» أي أن الربع الخالي كله يعود إلى اليمن، بموجب اتفاقية الطائف. وقد تم تحديد الحدود بين الجمهورية اليمنية والمملكة العربية السعودية في عهد الرئيس علي عبد اللّه صالح، وبهذه الحدود ضمّت إلى السعودية مناطق يمنية كثيرة، منها منطقة الوديعة، ومناطق في حدود مأرب والجوف. كما اشترط الملك عبد العزيز آل سعود على الإمام يحيى تسليم جميع الأدارسة ومن معهم الذين لجأوا إلى الإمام، وقد سلّمهم الإمام إلى ابن سعود الذي أكرمهم وعاشوا في كنفه.

محاولة اغتيال الملك عبد العزيز ابن سعود

بعد توقيع معاهدة الطائف بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز بن سعود، وتنازل الإمام عن الأراضي اليمنية المذكورة سابقا كان ولي عهده سيف الإسلام أحمد غير راضٍ عن تلك المعاهدة بين الجانبين، وكان يشعرُ أن ابن سعود يشكّلُ خطرا على اليمن، وعلى المملكة المتوكلية اليمنية. وفي اليوم الأول من عيد الأضحى عام 1353هـ-16 مارس 1935 أي بعد عقد معاهدة الطائف بعشرة أشهر، حدثت في الحرم المكي محاولة اغتيال الملك عبد العزيز بن سعود في الحرم؛ فقد خرج من حِجْر إسماعيل يمني وفي يده خنجره -جنبيته- وتقدم بقوة لاغتيال الملك ابن سعود؛ ولكن أحد رجال الأمن اعترضه، فقتله اليمني بخنجره، وحاول التقدم لقتل ابن سعود؛ ولكن أحد العبيد أطلق عليه الرصاص وقتله، وهنا خرج يمني آخر من حِجْر إسماعيل، وفي يده خنجر وتقدّم بسرعه لاغتيال ابن سعود، ولكن ابنه سعود حال بين اليمني وبين أبيه، وقد جُرح بخنجر اليمني، وتم إطلاق النار عليه وقُتل، وحاول يمني ثالث- وقد خرج من حِجْر إسماعيل- الفرار بعد أن رأى صاحبيه مقتولين فأُطلق عليه الرصاص وجرح ومات وهو في طريقه إلى قسم الأمن.

وقد تولّى التحقيق في حادثة محاولة الاغتيال مدير الأمن العام في السعودية، وهو عراقي الأصل، واسمه «مهدي بيه»، وتبيّن من التحقيق أن اليمنيين الذين حاولوا قتل الملك ابن سعود هم علي بن علي الحاضري وأخوه صالح، ومبخوت بن مبخوت الحاضري من قرية بيت حاضر في بني بهلول باليمن. وقد أرسل الإمام يحيى برقية إلى ابن سعود يستنكر فيها الحادث، كما أن ابن سعود قد صرّح بأنه يعتقد ألا دخل للإمام في هذه المحاولة؛ ولكن تهامس الناس والأسرة المالكة السعودية بأن سيف الإسلام أحمد كان وراء هذه المحاولة، وأصبحت هذه الإشاعة شبه حقيقة عند الناس.

هزيمة الإمام يحيى وردود الفعل

أدى تنازل الإمام يحيى عن تلك المناطق اليمنية للجانب السعودي لجرح

أحمد المروني

جديد في مشاعر اليمنيين جميعا، يُضافُ إلى جرح مذبحة الحجاج في وادي «تنومة» عام 1921 . وقد أثارت هزيمة الإمام يحيى هذه انتقادات واسعة ضد الإمام، وضد أسلوبه في الحكم، وجعلته يفكّر في تطوير الجيش اليمني، ولذلك استقدم من العراق بعثة عسكرية لتدريب الجيش اليمني، وكانت العراق حينذاك تحت حكم الملك فيصل بن الشريف الحسين، شريف مكة الذي هزمه الملك عبد العزيز بن سعود، وأخرجه من الحجاز، وتولّى ابنه فيصل الحكم في العراق تحت النفوذ البريطاني، كما تولّى ابنه عبد اللّه حكم شرق الأردن حينذاك.

كما قام الإمام يحيى بإرسال بعثة يمنية، للدراسة العسكرية في العراق، وذلك في عام 1937، وكان من ضمن هذه البعثة الأساتذة: محيي الدين العنسي، وأحمد حسن الحورش، وعبد اللّه يحيى السلّال، وعلي الآنسي، وأحمد الآنسي، وحمود الجائفي، وأحمد حسين المروني، وغيرهم.. وكان هؤلاء من أهم عناصر التغيير في ثورة 48 الدستورية، وبعد سقوط ثورة 48 وانتصار الإمام أحمد، تم إعدام محيي الدين العنسي والأستاذ أحمد حسن الحورش، وتم سجن السلّال سبع سنوات في حجة، ثم قاد ثورة 26 سبتمبر الجمهورية 1962 .

وبعد هذه الهزيمة اتفق الإمام يحيى ووالي عدن اتفاقا غير مكتوب، بأن ينسحب الإمام يحيى من جميع المناطق التابعة للمحميات البريطانية في الجنوب، والتزم بعدها بسياسة المهادنة للاستعمار، وسياسة الاستخذاء للسعودية. ومن المفيد أن نذكر أن الإنجليز كانوا قد بسطوا نفوذهم على كثير من المحميات في العهد التركي، خلال مقاومة الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين للأتراك، ومنها بلاد الضالع، وتساهل الوالي العثماني حينذاك، ولم يحرّك ساكنا، الأمر الذي استغله

الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين، ونشر أن الأتراك يفرّطون في البلاد الإسلامية، ويسلّمونها للنصارى، ومنها بلاد الضالع في اليمن، وذلك لإثارة النعرة اليمنية ضد الأتراك، وقد عزل السلطان العثماني ذلك الوالي من اليمن، وأرسل واليا آخر. وفي عهد الإمام يحيى أرسل حملة عسكرية بقيادة السيد محمد الشامي الذي احتلَّ منطقة الضالع كما ذكرنا في موضع آخر، وتم تطبيق نظام الإمام في تخمين الزكاة، وفي تحصيلها، وفي أخذ الرهائن من مشايخ الضالع؛ الأمر الذي دفع ببعض مشايخ الضالع لطلب الدعم من السلطات الاستعمارية في عدن، ثم حدثت حرب الطائرات الإنجليزية ضد اليمن، وضرب تجمعات الجيش اليمني، وبعدها حصلت المهادنة بين الطرفين باتفاق غير مكتوب.

منشورات ضد الإمام

في شهر ذي الحجة سنة 1360هـ - ديسمبر 1941 انتشرت في صنعاء منشورات خطية ضد الإمام يحيى، وكنتُ حينذاك قد أصبحت التلميذ الذي يلازمُ أستاذه أحمد حسن الحورش أكثر من أي تلميذ آخر. وقد أحدثت تلك المنشورات ردة فعل قوية عند الإمام، وكانت حديث الناس في مجالسهم. ويظهرُ أن الإمام قد تأكّد بأن المنشورات كانت بخط جارنا القاضي العلامة محمد الخالدي، لأن حرف الواو «و» يشبه خط الخالدي، ولهذا انتقم منه انتقاما فظيعا، وكانت بداية جديدة لحملة إمامية ضد عدد من العلماء والمفكرين المستنيرين الذين يحاولون إقناع الإمام بتغيير الأوضاع المتخلفة في اليمن، وتغيير أسلوبه المتحجر الكهنوتي في الحكم، والبدء بإحداث إصلاحات تخفّف عن الشعب ما يعانيه من مظالم، وفقر، وجهل وأمراض. وكان الشاعر الأديب العالم محمد محمود الزبيري، وزميله الخطيب العالم محمد أبو طالب أبرز من يخاطبون الإمام جهرا بضرورة إحداث إصلاحات بواسطة الإمام نفسه، ولكن الإمام واجه تلك الدعوة بعنف، وزجَّ بكثيرين إلى ظلمات السجون.

أتذكر حادثة في هذا السياق، فقبل أن ننام في مساء يوم 10 ذي الحجة عام

1360هـ الـموافق ديسـمبـر 1941، كـانت أمي قـد أحضـرت مـلابس عيـد الأضـحى الـجديدة، لألبسها أنا وأخي أحمد، ثم خلعناها ولبسنا ملابسنا القديمة، ونمنا ونحن نحلمُ بفرحة يوم غد عندما نزورُ الأقارب والأصدقاء، بملابسنا الـجديدة. وقبل أن ينتشر ضوءُ فجر يوم العيد أيقظتنا طرقات عنيفة من أحلام الفرحة، وتسابقتُ مع أمي إلى نافذة صـغيـرة هي مـجـرد ثقب يطلُّ على بيت جـارنا القـاضي الـعـلامـة مـحـمـد الـخـالدي الـمـجاور لنا من الـجـهـة الـجنوبيـة، ورأينا عـددا من العـسكر بأسلحـتـهم منتـشرين في حـوش بيت الـخـالدي، كـمـا رأينا بعضـهم يدخل إلى البـيت، وسـمـعنا ولولة النساء وبكائهن، ورأينا بعض أثاث البيت يتساقط إلى الـحوش من النوافذ، ثم رأينا الـقـاضي مـحـمـد الـخـالدي يخـرج من باب بيـتـه ويداه مـربوطتـان إلى الـخلف والعـسكر–وهم من عكفة الإمـام–يجرّونه بعنف إلى الشـارع. كـانت أمي ترتعـدُ من الـخوف، وتسـدُّ فـمـها بيـدها، حتى لا تصرخ من الفزع. وكنتُ وأخي أحـمـد نشعـر بالـخوف، ولا أجدُ لما أراه مبررا، وبعد أن هدأتُ بدأت أتساءل: لماذا تقومُ العلاقة بين الإمام وبين الناس على قاعدة الإرهاب والطغيان، لا على قاعدة الـحوار والتفاهم؟

القاضي العلامة الخالدي الثاني من اليمين وفي يساره القاضي عباس الإرياني وعن يمينه القاضي عبد الرحمن الإرياني

وبعد أن لبستُ ملابس العيد ذهبتُ إلى منزل أستاذي أحمد حسن الحورش لزيارته، ولأتلقّى منه جوابا عن سؤالي، ولكني فوجئتُ بأن زُوّار الفجر من العُكفة قد ساقوه إلى سجن «القلعة»، وساقوا معه أساتذتي في المدرسة المتوسطة محيي الدين العنسى وأحمد حسين المروني، وعبد اللّه يحيى السلّال، ومعهم القارئ الصفي أحمد محبوب، والقاضي محمد السياغي والسيد أحمد المطاع، وعرفت فيما بعد أن القاضي محمد محمود الزبيري، وزميله السيد محمد أبو طالب الخطيب قد زارهم زوار الفجر من العُكفة، وساقوهم إلى زنازين سجن القلعة، ثم نفوهما إلى سجن الشبكة في الأهنوم، وتوجّهتُ إلى سجن القلعة، لأجسّ النبض عن وضع أستاذي وزملائه، ولكني فوجئتُ بالقاضي محمد الخالدي مربوطا في جدار «نوبة» من نُوب قلعة غمدان وأشعة الشمس تحرق جسده، وبقيت مع جموع كثيرة من الناس نتفرج على المأساة، وسمعتُ الكثير من الناس يسبّون الخالدي، فما دام الإمام غاضبا عليه فهو ناصبي، كافر، يبغضُ أهل بيت رسول الله!!

وبعد قرابة ساعة فكّ العسكر رباط القاضي الخالدي، وأخذوه إلى وسط الجموع، يرسف في قيوده ثم مدّدوه أرضا على التراب وجلدوه بالعصا ثمانين جلدة، وهو يتأوّهُ من الألم، ثم أعادوه إلى الزنزانة. وهكذا استمرّت معاملة الإمام للخالدي عدة أيام، ثم ساقوه مربوطا مُتعبا إلى سجن وشحة بعد أن أصبح شبه ميت من شدة العذاب! وكنتُ أشاهدُ جلد الخالدي، وأصبُّ نقمتي ولعناتي على العسكر الذين يعذّبونه، برغم أنني كنتُ قد وصلتُ إلى مرحلة الوعي بمسؤولية الإمام عن حالة التخلف والعزلة والمظالم التي يعاني منها الشعب، إلا أن عقلي الباطن ظلَّ يتهيّبُ ويمنعني بدون شعور من صبّ نقمتي وغضبي على الإمام نفسه. وكان الخالدي يصيحُ وهو واقف مربوط إلى النوبة تحت أشعة الشمس المحرقة، وعند جلده وبعد جلده قائلا: «انظروا أيها المسلمون كيف يعذّب الإمام ويجلد علماء الدين والشرع، وكيف يذلّ رجالكم ويقتل فقراءكم بالجوع والمرض»، ويظلّ يخطب في الناس حتى خشي الإمام من تأثيره عليهم، فنفاه إلى سجن وشحه وبقي فيه سنوات، حتى تمكّن من الفرار، ولجأ إلى ولي العهد حينذاك في تعز، وتحسّنت أموره، ثم عيّنه الإمام أحمد فيما بعد عضوا في مجلس الاتحاد بين اليمن وسوريا ومصر الذي كان مقره القاهرة.

وفي يوم الخميس ذهبتُ في الصباح الباكر إلى مخبازة الحاج سعد الخاوي،

وطلبتُ منه أن يخبز لي ستة أقراص من خبز البر، مدهونة بالسمن البلدي، وطلعت بذلك إلى سجن غمدان، وسمح لي مدير السجن بالدخول إلى أساتذتي، وسلّمتهم الخبز وبقيت معهم قليلا، وقبل خروجي سلّمني أستاذي أحمد الحورش أوراقا ملفوفة، وقال لي: اكتبها مرات عديدة، وحاول أن تلصقها في أبواب المساجد، وخصوصا مسجد المتوكل، دون أن يراك أي شخص. وأخذتُ ذلك وقرأته، وعرفت أنه ضد الإمام، وقمت بكتابة عدد من المنشورات، وبعد صلاة العشاء ذهبت بالمنشورات إلى عدة مساجد وقارورة من الصمغ، ولصقت المنشورات في أبواب المساجد البعيدة عن صرحة الفليحي، ثم عدت إلى البيت، ولم أنم حتى الصباح؛ لأنني كنتُ أنتظر رد فعل الناس عندما يقرؤون المنشورات.

لقد قمتُ بذلك، تنفيذا لطلب أستاذي، من دون شعور بأن هذا العمل عمل سياسي أو وطني، ويظهر أن كتابة تلك المنشورات كانت بداية المشوار الوطني الذي استمر حتى اليوم، وكنتُ في هذا الوقت قد تخرّجتُ من مكتب «الكُتّاب» الذي لا تستمر الدراسة فيه إلا سنة أو ثمانية أشهر، وأصبحتُ موظفا في دائرة المحاسبة ومكاتبها في حوش دار السعادة، ولا أدري كيف فكرّتُ أن أقدّم مراجعة لإطلاق أستاذي أحمد الحورش، فبعد أن كتبتُ المراجعة ذهبتُ إلى الأمير «عنبر»، وهو أحدُ عبيد الإمام العلماء، وسلّمتُ له المراجعة. وقلت له إن المحبوس أستاذي، ولا دخل له في السياسة، ووعدني الأمير عنبر أن يتشفّع لإطلاقه عند الإمام. وبقي سؤالي: لماذا تقومُ العلاقة بين الإمام والناس على قاعدة الإرهاب والطغيان، بدلا من قاعدة التفاهم والحوار، بلا جواب، حتى أُطلق أستاذي أحمد حسن الحورش وزملاؤه من السجن.

وكلما توسّعتُ في التثقيف الذاتي تواردت الأسئلة على ذهني، وتطلّبت جوابات مقنعة، وكانت ثقافتي الذاتية تسعفني ببعض الأجوبة، ولكني كنتُ أجد اقتناعا أكثر عندما يأتي الجواب عن الأسئلة الصعبة من خلال الرجوع إلى أستاذي الحورش وحواراتي معه. وبعد شهور أطلق الإمام أساتذتي من سجن القلعة وبقيتُ تلميذه المقرب، ولا أدري لماذا نسيتُ أن أطرح عليه سؤالي السابق، ربما لأنني استغرقتُ في قراءة الكتب، وطرأتْ على ذهني أسئلة أخرى في مواضيع أخرى، وسوف أرجئ الحديث عنها حتى لا أبتعد عن الذكريات التاريخية إلى الذكريات الفكرية والذاتية.

في أوائل عام 1943 أخبرني أستاذي أحمد حسن الحورش أنه قرّر بيع جميع كتبه، وطلب مني البحث عمّن يشتريها، فذهبتُ إلى السيد الشاعر الأديب عبد الكريم الأمير، وأخبرته أن الأستاذ الحورش ينوي أن يبيع مكتبته كاملة، ليبني بثمنها بيتا له، وأعطيته كشفا بذلك، فقال لي إنه سيشتري بعض الكتب، وبعد أيام أخبرني أن القاضي عبد اللّه العمري مستعد لشراء كل الكتب التي أعطيته كشفا بها. وذهبتُ إلى أستاذي وأنا مسرور، وبشّرته أن بيت العمري سيشترون كامل المكتبة، واستغربت رفضه لذلك، قائلا: لا أريدُ أن تُحجب الكتب في بيت واحد، أريدُ أن أبيعها إلى عدد كبير من البيوت والأشخاص حتى تتم الفائدة منها، وبعد أن بعنا أكثرها لبيت زبارة، وبيت الإرياني، وبيت الأمير وآخرين، بعنا جزءا منها في السوق لمكتبات صغيرة كانت موجودة في ثلاثة دكاكين صغيرة بجانب سوق البز «القماش».

وبعد ذلك أخبرني أستاذي أنه سيسافر سرا إلى مصر، وطلب مني أن أسافر معه، ولكني اعتذرتُ حتى لا أكون عالة عليه، وفي شهر أغسطس أو سبتمبر 1943، ودّعني وسافر سرا، ومعه صديقه وزميله الشهيد محيي الدين العنسي الذي كان من المقربين إلى سيف الإسلام عبد اللّه، وممن يدافع عنهم عند أبيه الإمام يحيى، ولذلك فإن الإمام يحيى بعد سفر محيي الدين عاتب ابنه عبد اللّه على مدافعته عن بعض «الفقاعسة»[1]، ومنهم أيضا السيد الشهيد المناضل أحمد المطاع والأديب العالم عبد اللّه العزب.

وفيما يتعلقُ بشخصية الإمام يحيى، كان الكثير من الناس يعتقدون أن الإمام يحيى من أشد الناس تحجرا في التفكير وتعصبا للمذهب، ولكني أعتقد أن هذا غير صحيح؛ لأن الإمام يحيى كان منفتحا على العالم شخصيا، وكان متسامحا مع علماء المذاهب السنية، ولكنه كان متحجرا إلى حد التوحش في فرض الجهل والتخلف والعزلة الكاملة على الشعب، ولذلك كان يقمعُ بعنف العناصر المفكرة المستنيرة، خوفا من تأثيرها على الناس، وكانت علاقته بالناس وبالوجاهات البارزة علاقة غير سوية، فهو من أبخل الناس، يجمعُ النقود والحبوب والتحف ويخزنها بالطريقة القديمة، دون أن يصرفها حتى على أولاده، إلا في حدود البخل، لا في حدود الاقتصاد، ولذلك كان يُعتقد أن الناس يكرهونه لبخله، وفي المقابل كان

(1) الفقاعسة: جمع فقعوس، وتعني باللغة اليمنية الدارجة «الفضوليّ» الذي يتدخل فيما لا يعنيه .

يتعامل مع الناس من خلال الكراهية إلى حد الحقد، وقد سبقت الإشارة إلى هذه النقطة. ومن الأمثلة على ذلك ما سبق ذكره من علاقته بالعالم الكبير محمد دلال، وبالعالم الكبير عبد الوهاب الشماحي، وكثير من الوجهاء والمشايخ والعلماء.

ومما يدلُّ على أن الإمام يحيى كان منفتحا شخصيا على العالم فكرا وحضارة أنه وافق على تسمية حكمه الإمامي باسم المملكة اليمنية المتوكلية، وأن تكون المعاهدات بينه وبين الأجانب باسم ملك المملكة اليمنية المتوكلية، لا باسم الإمام، كما أن الإمام يحيى كان يستفيد من إنتاجات الحضارة، ففي قصرة مولّد كهربائي يستضيء به في الليل، وفي قصره راديو يستمع به إلى أخبار العالم، وكان عالما دينيا وأديبا وشاعرا وسياسيا بارعا وقائدا حربيا وحاكما مستبدا، استبدادا لا يمكن أن يوجد مثله في العالم، فليس له حكومة، وليس له أجهزة حقيقية للحكم، وجيشه محدود بسلاح قديم، وبلا مَؤونة، وبمرتّبات حقيرة، وأكثريتهم حفاة الأقدام، ولا يصرف من أموال بيت المسلمين أي مبلغ إلا بأمره الشخصي. ونذكرُ بعض الأمثلة على ذلك، فقد كان يقرّرُ لأولاده، ولكل فرد في الأسرة مبلغ ربع ريال إعاشة، وفي فترة من الفترات كان حفيدان من أطفال ابنه سيف الإسلام الحسين يتواجدان في بيت جدهما الإمام يحيى ويعيشان معه، فأرسل الإمام أمرا إلى أمين الصندوق الخاص به السيد علي زبارة يقول له فيه: «الصنو علي زبارة اقطعوا من معاش الولد الحسين نصف ريال يوميا؛ لأن اثنين من أولاده يعيشون لدينا».

وعند وصول ولي العهد سيف الإسلام أحمد من حجة، مدوا له من المولّد الموجود في قصر الإمام أسلاكا إلى قصره وكان لا ينامُ إلا بعد منتصف الليل، ويظلّ المولد يمدّه بالكهرباء، وعندما قدّم مشغّل المولّد ورقة إلى الإمام يحيى، يطلبُ فيها صرف قيمة البترول المستهلك، استكثر الإمام تلك القيمة، وطلب مشغّل المولد إليه، وقال له: لماذا استهلك «الموتور» هذه الكمية من البترول؟ فقال له: لأن ولي العهد لا ينامُ إلا بعد منتصف الليل، ويظلُّ بيته مُنارا بالكهرباء، فأرسل الإمام يحيى لابنه ولي العهد يقول له: «إننا لا نولّع الكهرباء إلا لمدة ساعة، أو ساعة ونصف، وبلغنا أنكم تولّعون الكهرباء من الموتور إلى نصف الليل، وعليكم أن تستخدموا لمبة القاز بدلا من الكهرباء»!

الفصل السابع
وليّ العهد والأحرار.. وئام وصدام

في شهر أكتوبر عام 1943 تقريبا تلقيتُ رسالة من صديقي أحمد الشامي يخبرني فيها أنه طلب من ولي العهد الإذن له بدعوتي للانضمام إلى حاشيته، فأذن له بذلك واستعجلني في الوصول إلى تعز، وفعلا استأجرتُ حمارا، وودّعتُ أمي وأخي أحمد، وزرتُ سيدنا عبد اللّه الخروش، وهو أستاذي الذي كان له الفضل في تعليمي وتربيتي في مكتب الأيتام عندما كنتُ في العاشرة من عمري. خرجتُ من صنعاء في الصباح الباكر، وكان الجو باردا، وبرغم أنني لبستُ ملابس تقيني شدة البرد إلا أن النسيم الذي يتحوّل أحيانا إلى رياح خفيفة كان يداعبُ أنفي ووجهي بلذعات البرد، ولكن برد جبال اليمن سرعان ما تطرده أشعة الشمس بعد شروقها بساعتين أو ثلاث ساعات. وبعد أن جاوزنا منطقة حِزيز جنوب صنعاء، والتي قُتل فيها الإمام يحيى في ليلة الثلاثاء من شهر ربيع الثاني سنة 1367هـ الموافق 17 فبراير 1948 فيما بعد، أحسستُ أن أشعة الشمس تشيعُ الدفء والنشاط في وجهي وأنفي وجسمي كله، وفي طريقنا كنا نشاهدُ الأرض قاحلة، بسبب الشتاء الذي تقلُّ فيه الأمطار؛ لأن موسم المطر في اليمن يكونُ في الصيف، خلافا لكثير من مناطق الأرض.

وصلنا مدينة خدير وقت الظهر، وهي في الواقع مجرد قرية عادية إلا أنها تُعتبرُ محطة للمسافرين من صنعاء، وفيها «عامل»، باعتبارها ناحية، ومع العامل عدد من الجنود النظام والبرانيين. وأراد صاحب الحمار أن ننام في خدير، ولكني صمّمتُ ألا ننام إلا في معبر التي سنصل إليها وقت صلاة العصر إذا واصلنا السير، وفعلا وصلنا إلى معبر بعد العصر، وهي محطة رئيسية للمسافرين من مختلف المناطق،

ونزلنا في «المقهاية»، أو على الأصح في «بيت المقهوي»، وتعويضا لي ولصاحب الحمار طلبت من «المقهوية» أن تذبح لنا دجاجة، وتخبز لنا خبز البر «الحنطة»، وتصنع منه مقلى سوسي بالبيض والسمن البلدي «يجُبُّ» عصيد أمي ومطيطها.

ثم خرجنا إلى المسجد لنصلي صلاة العصر، وعدنا إلى بيت المقهوي، ووجدنا طعامنا جاهزا فأكلنا وشربنا وحمدنا الله على نعمه، وكنا نحسُّ بالتعب والنعاس، ولكنّا تحمّلنا ذلك، حتى نصلي المغرب والعشاء جمعا، ونأكل ما أبقينا من طعام الغداء وننام إلى الصباح. حاولتُ أن أنام ولكن جيش البق «الكتن» هجمت على جسمي تنهشه بكل نهم، فأخذتُ فرشي وبطانيتي وانتقلتُ إلى سطح المنزل، وتحمّلتُ برد المساء بعد أن فشلتُ في تحمل قرصات «الكتن» الجائعة. واتجهنا في الصباح إلى مدينة ذمار، ووصلناها بعد الظهر، وبعد نزولنا في مقهاية ذمارية طلبنا من المقهوية أن تجهّز لنا الأكل، ثم خرجنا إلى المسجد وصلّينا الظهر والعصر جمعا، وعدنا إلى المقهاية وأكلنا وجبة الغداء، ونمتُ بعده نوما عميقا إلى المغرب، وبعد صلاة المغرب والعشاء جمعا عدنا إلى المقهاية، لنأكل وجبة العشاء، وقد استطعتُ النوم، لأن «الكتن» في هذه المقهاية الذمارية كانت شبه معدومة.

وكانت المحطة التالية بعد يريم محطة أو قرية في جبل سمارة، ونزلنا المقهاية التي وصلنا إليها وقت الظهر، وبعد أن صلّينا وتغدّينا خرجنا لنطلَّ من قمة الجبل على وديان خضراء تسرُّ الناظرين، ولم أرَ من قبل وديانا خصبة بهذا الشكل، وتأخّرنا في الصباح من السفر حتى بعد شروق الشمس بساعتين؛ لأن المحطة القادمة هي مدينة «المخادر»، والوصول إليها لا يستغرقُ إلا أربع ساعات، أو أقل. وفي طريقنا إليها كنا نشاهدُ وديانا وأراضي خضراء تختلفُ عن الأراضي التي أعرفها في صنعاء، وقال لي المكاري[1]، صاحب الحمار: هذه أراضي لواء إب، وهي جنة الدنيا.

عندما وصلنا إلى قرية المخادر اتجهنا إلى المقهاية، ولم أعد أذكر الآن كيف

(1) المكاري هو صاحب الحمار الذي يتم تأجيره للغير.

أحمد عبد الرحمن المعلمي

وجدتُ نفسي في بيت حاكم ناحية المخادر القاضي العلامة أحمد عبد الرحمن المعلمي الذي عرفته في حارة الفليحي، وهو يدرسُ العلم على مشايخه، القاضي يحيى الإرياني، والقاضي حسن المغربي، والسيد إبراهيم الأمير. كان القاضي المعلمي حينذاك أكبر مني بقرابة عشر سنوات، وكنتُ أنا في ضيافته في السابعة عشرة من عمري، ولم يكن بيني وبينه أي تعارف غير معرفة اسمه، وأنه يسكن في بيت الإرياني.

كانت هذه أول مرة في حياتي أنزلُ ضيفا على حاكم من حُكَّام الإمام، وأسكن في بيته. إنه بيت أكبر من بيتنا في صنعاء، بقرابة ألف ضعف على الأقل، وفي حوشه غرفتان فيهما ثلاثة جنود من عساكر الإمام، وكان الحاكم بعمامته «وجوخه» وحزامه المذهب و«جنبيته» التي اعتقدت أن مثلها لا يوجد إلا عند الإمام وأولاده. كان البيتُ بضخامته -طبعا بالنسبة لبيتي- والحاكم بهيئته يدخلان على نفسي شيئا من الهيبة، وبعد أن جلسنا في مجلس الحاكم الواسع والمفروش بفراش لا يوجد في بيتنا أي شيء يماثله بدأ الحاكم يرحب بي ويقول لي: هذا بيتك لمدة ثلاثة أيام، وهي أيام الضيافة، ثم جلسنا نتحادث وانسجمنا في الحديث، ونسيتُ أنني أحدّث فضيلة الحاكم، وشعرت-أو شعرنا معا- أننا أصدقاء من زمن طويل، نسيتُ الحاكم وبيت الحاكم، وأصبح جليسي الصديق الأديب الشاعر، والعالم الفقيه أحمد عبد الرحمن المعلمي، ولم أعد أذكر لماذا لم أعد أرى المكاري وحماره، ويظهرُ أن صديقي المعلمي قد أذن له بالعودة إلى صنعاء، ولم أعد أذكر هل كنتُ قد أعطيته كرى حماره أو أن المعلمي هو الذي سلّم له الكرى، وأغلب الظن أنني كنتُ قد دفعت للمكاري أجوره، وبقينا معا ثلاثة أيام لا نفترق، وربما لا ينتهي حديثنا، وبعد ثلاثة أيام استأجر لي حمارا ركبتُ عليه إلى مدينة إب، ثم إلى مدينة تعز.

كانت هذه البداية بداية لصداقة ربطتني به، وربطته بي من شهر أكتوبر عام 1943 وحتى رثيتُه بقصيدة حزينة في عام 2004. ولهذه الصداقة الطويلة قصة سوف أرويها في ذكريات مرحلة أخرى من حياتي.

عندما وجدتُ الأوزة

المسافة بين مدينة المخادر ومدينة إب لا تزيدُ على خمس ساعات، مشيا على الأقدام أو ركوبا على الحمار، اتجه بنا المكاري إلى بيت وسط المدينة هو بيت المقهوي، المكون من ثلاثة أدوار. وفي هذا البيت وجدتُ الأوزة التي لم أكن أفكّر فيها أو أبحث عنها. كنتُ مشغولا بكتب العلم والأدب والشعر والتاريخ والفلسفة، وكان عمري وأنا في بيت مقهوي إب قرابة سبعة عشر عاما.. وأنزلونا في غرفة بالدور الثالث، وبرغم أنها صغيرة إلا أنها مريحة ونظيفة ومفروشة بفرش جميل. وبعد قليل دخلت إلى الغرفة فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها «بجمنة» القهوة.. كانت الفتاة جميلة؛ أما بالنسبة لي فقد ظننتُ أنها أجمل فتاة في الدنيا؛ لأن أحاسيس الإنسان وعواطفه وأهواءه تُضفي على ما يراه أو يسمعه ألوانا تجعله أكثر جمالا، أو أكثر قبحا، ولم أعد أذكر هل كانت نظراتي إليها لافتة للنظر أم لا؟ المهم أنني بحلقتُ في وجهها باستغراب، فطيلة حياتي لم أكن أفكّر في المرأة أو أنظر إلى وجه امرأة، وإذا رأيتُها فلم يكن يخطر في بالي ما يخطر في بال شاب مثلي في السابعة عشرة من عمره؛ أما هذه الفتاة الإبّية فقد بعثت في كياني شابا آخر يعشقُ الجمال والشباب في هذه الفتاة، كيف اختفى في كياني هذا الشاب الذي أيقظته هذه الفتاة في أعماق نفسي وغرائزي؟!

تساءلتُ هذا التساؤل وتذكّرتُ قصة ذلك الراهب الإيطالي وابنه الذي صحبه إلى الدير صغيرا، وبقي فيه ربما حتى أصبح في سني، سن السابعة عشرة من العمر لم يرَ خلالها فتاة أو امرأة، وذات يوم أخرجه من الدير لأول مرة إلى إحدى أسواق روما، وفي الطريق إلى السوق كان الابن الشاب يشاهدُ لأول مرة فتيات جميلات من فتيات روما، وسأل والده الراهب: يا أبى ما هذه المخلوقات الجميلة!

فقال له: هذه «أوزات» روما.

قال الابن الشاب: اشتر لي أوزه.. من هذه الأوزات!!

وأجابه الراهب: هذه الأوزات مسكونة بالشياطين.

وقال الابن الشاب: اشتر لي أوزة، وسأطرد الشيطان منها وأسكنها بدلا منه. وهكذا وجدتُ الأوزة في مدينة إب، ولكن ليس لي أب يشتريها لي من أهلها، وبعد أن غادرتُ إب غادرتْ الأوزة «الفتاة» خيالي وذاكرتي، حتى استخرجتُها من ذاكرتي بعد مرور أكثر من ستين سنة من الزمن التاريخي.

في مقام ولي العهد والثالوث المشهور

وصلتُ تعز، وكان في استقبالي صديقي أحمد محمد الشامي، وأخذني إلى دار الضيافة، وكان أمر ولي العهد قد صدر بنزولي فيها قبل وصولي. نزلتُ في غرفة كان الأخ إبراهيم الحضراني قد سبقني إليها، ومعه الأخ علي الجائفي، شقيق اللواء حمود الجائفي أو أخوه، وصرت ثالثهما، ولم أكن أعرفهما من قبل، وسرعان ما أصبح إبراهيم من أعز أصدقائي، وقمت أنا وإبراهيم والشامي بتكوين ثلاثي مشهور في مجموعة تعز. كان إبراهيم أكبرنا سنا، وألطفنا طباعا، وأطولنا قامة، وكان شاعرا بالفطرة، وشعره من أرقّ الأشعار لا يجاريه في رقته حتى شعر الزبيري، ولكنه كان لا يكثر من إبداع الشعر، ولا يحتشد له كما كان الشعراء في تعز يفعلون. وكنتُ قد أعددتُ قصيدة أمدح فيها ولي العهد، ولكني جعلتُ بدايتها وأكثرها في الغزل، ثم انتقلتُ منه إلى المدح، وهي طريقة معروفة في الشعر اليمني منذ مئات السنين، وقرأت القصيدة على صديقيَّ القديم والجديد فاستحسناها.

في المساء تعشّينا خبزا وفولا، وبعد صلاة الفجر، تناولنا الصبوح، وهو وجبة الإفطار وكان عبارة عن أقراص من خبز الحنطة، مدهونة بالسمن البلدي، ومعها «كتلي» فيه قهوة القشر بالسكر. وبعد صلاة الظهر ذهبنا للغداء مع ولي العهد في مقامه، وشعرت بالرهبة عندما قدّمني صديقي الشامي لولي العهد، وتقدّمتُ للسلام عليه، لقد كان شخصية مهيبة بجسمه الضخم ووجهه المستدير الوسيم، وعينيه

الواسعتين، وفمه الذي يبدو أصغر من حجم رأسه. وبعد أن سلّمتُ عليه رحّبَ بي، وسألني عن صنعاء وأخبارها، ولم يكن لديَّ أخبار تهمُّه لأقولها، فقلتُ له: صنعاء التي جئتُ منها جوّها بارد وجاف، بعكس تعز فجوّها ألطف وألين، وفيها ولي العهد الذي أنجذب إليه وإلى مقامه أهم رجالات اليمن؛ ثم أشار لي بالجلوس، قائلا: بلغني من الولد أحمد الشامي أنك تقول الشعر، فأجبته: أتشبّه بالشعراء، «وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم»، فأكمل ولي العهد البيت: إن التشّبه بالكرام فلاح.

تناولنا غداء يختلف عن الغداء الذي كانت أمي تقدّمه لنا. كان غداء أمي العصيد والمطيط، وأحيانا النشوف؛ أما مائدة ولي العهد فعامرة باللحم والأرز، والخضار، وخبز البر والشعير. وذكرتُ أمي وأنا آكل الطعام، وقلت في نفسي: رعاك الله يا أمي.. طول الحياة عصيد ومطيط ونشوف، وخلال الأكل بدأت الهيبة أو التهيّب من الموقف الجديد عليّ يتلاشى من خلال الأحاديث المتبادلة بين ولي العهد وضيوفه. وبعد صلاة العصر أخذني صديقي أحمد الشامي إلى المقام الشريف، كما كان يُسمّى، وفي صالة الانتظار بدأ توافد حاشية ولي العهد، ويسمّون «الكتّاب» وكان صديقي يقدّمني إلى من يحضر، وكأنه سكرتيري الخاص.. قدّمني إلى القاضي أحمد قاسم العنسي، العالم الفقيه، ومؤلف «التاج المذهب في أحكام المذهب»، وهو شخص كبير الجسم، جميل الوجه والابتسامة، وكان أخوه علي العنسي موجودا في تعز حينذاك. ثم قدّمني صديقي إلى من حضر: هذا القاضي الشاعر الحافظ أحمد الحضراني، والد إبراهيم، وهذا علي شيبان، وهذا محمد شيبان، وهذا زيد الموشكي العالم الفقيه الشاعر، وهذا أحمد السالمي الشاعر الفنان المعروف، وهذا العالم محمد يحيى الذاري، وهذا الأستاذ أحمد محمد نعمان خطيب اليمن وأديبها، وهذا محمد محمود الزبيري أمير شعراء اليمن، وآخرون لم أعد أذكرهم. كان مقام ولي العهد عامرا بمجموعة أو كوكبة من خيرة رجالات اليمن، وبدأوا ينتقلون من الصالة إلى مجلس ولي العهد واحدا بعد الآخر، ولا أدري حتى الآن هل كان هناك من يسجّل أسماء الوافدين ويقدّمهم إلى ولي العهد، حتى يأذن لمن يريد بالدخول أم لا؟!

الـمهم.. أنني دخلت إلى مجلسه بجانب صديقي أحمد الشامي الذي أحتمي به من تهيّبي للموقف.. وشجّعني على إلقاء القصيدة التي كنتُ قد نظمتُها في مدح ولي العهد بعد أن قلتُ له إنني أتهيّب الموقف، وبعد مرور ساعة أو أكثر كتب صديقي ورقة صغيرة وقدّمها إلى ولي العهد، ليأذن لي بإلقاء قصيدتي، ووجّه إليَّ ولي العهد نظرات بعينيه الواسعتين قائلا: أسمعنا ما لديك. وقمت وألقيتُ قصيدتي التي كنتُ قد تمرّنتُ على إلقائها عدة مرات، وقبل أن ألقيها خاطبتُ ولي العهد قائلا: يا مولاي إنني لست شاعرا، ولكني «أتشعرر»، ومن تشعرر شعر، ثم ألقيتُ القصيدة، وشجّعني ولي العهد بقوله: «أحسنتَ، ولا فض فوك».. وعندما أنهيتُ إلقاء القصيدة صفّق الحاضرون، فارتبكت وشعرتُ بالخجل.

كان انتقالي من صنعاء إلى تعز ومقام ولي العهد في تعز انتقالة مهمة في حياتي، فبعد أن كنتُ في صنعاء معاونا محاسبا في دائرة المحاسبة أصبحتُ في تعز معدودا من حاشية ولي العهد بين كوكبة من خيرة الرجال، ووجدتْ مواهبي مجالا تتفتّح فيه وتتبلور، ووجدتْ ثقافتي الواسعة مجالا تمارس فيه ذاتها. وفي هذا المحيط تكوّنت شخصيتي المستقلة، وفيه عرفتُ الحقيقة في السجن، ومنه انطلقتُ في مشوار النضال الوطني، ابتداء من عام 1944 وحتى اليوم. كنتُ أصغر شخص سنا في حاشية ولي العهد؛ لأن صديقي الشامي كان يكبرني بسنتين وشهور تقريبا. كان الثلاثي المكوّن مني ومنه ومن إبراهيم الحضراني مستغرقا في حالة نشوة هائمة في دنيا الأدب والشعر والثقافة، وبرغم متابعتنا لما يجري في العالم من أحداث وتطورات إلا أننا لم نكن نشعر بميول سياسية أو وطنية، ولم نكن نفهم أن سخطنا على سياسة الإمام وحتى على ممارسة ولي العهد للحكم يعتبر نوعا من السياسة. ثم إن هذا السخط لم يكن يأخذ إلا حيزا محدودا جدا في أحاديثنا ونقاشاتنا التي لا حدود لها في الأدب والشعر والتاريخ والفلسفة وفي أحداث الحرب العالمية الثانية.

كنتُ بعد خروجي وصديقي من مجلس ولي العهد نذهب إلى إبراهيم الحضراني، ونخرج الثلاثة للتنزه؛ إما في منطقة الجحملية، أو في منتزه عصيفرة

الطبيعي الذي يوجد به «مفرج» مغلق، لا يفتح إلا إذا أتى إليه ولي العهد للراحة والتنزه. وفي ليلة مقمرة كنا بعد صلاة العشاء عائدين من منتزه عصيفرة، مشيا في ضوء القمر، مستمتعين بروعة الطبيعة، وبالسماء الصافية، وبضوء القمر الهادئ الممتع للنفس والعين، فأنشدتُ بيتين من الشعر ارتجلتُهما ونحن نمشي راجلين:

وعلى ضوء القمـــر لا نبالي بالقــدر
نتمشى.. في أمــان أو تصاريف الزمان

وأخذنا ننشد البيتين حتى اقتربنا من دار الضيافة التي نسكن فيها، ولم نكن نعرف أن تصاريف الزمان هي التي ستتصرّف بنا بدون مبالاة.

شخصيــة ولـي العهــد وحروبه

كان ولي العهد يفرض هيبته، وأحيانا رهبته على الآخرين، وعندما أصبحتُ من جلسائه في تعز سجلت انطباعاتي الأولى عنه فيما مضى، ولكني كنتُ أتساءل كيف تكوّنت شخصيته المُهابة. وعندما بحثتُ عن تفاصيل حياته، وصلت إلى قناعة بأنه هو الذي كوّن نفسه بنفسه، وذكرت بيت شعر يقول:

نفس عــصــام سـوّدت عــصــامــا
وعلّمـــتـــه الكرّ والإقـــدامـــا

لقد كان يملك شخصية غير عادية، فهو ضخم الجسم، ضخم الرأس، مستدير الوجه، وملامح وجهه وسيمة، تتناقض مع ضخامته.. ثقافته الدينية، والتاريخية والعربية ليست متكاملة؛ ولكنها تمكّنه من المشاركة في الحوار مع من هم أكثر منه علما وثقافة. وقد أكسبته المواقع التي بلورت شخصيته القوية هيبة يفرضها على كل ما حوله حتى سمّاه الناس، أو نشر عن نفسه لقب: «أحمد يا جنّاه»!، وكان أكبر أولاد الإمام يحيى، ولذلك كان الابن الأكثر تدليلا في الأسرة، ولكن والده كان يريد أن يعدّه خلفا له دون أن يعلن ولايته للعهد؛ لأن المذهب الزيدي لا يجيزُ ولاية العهد للإمام القائم، وكان ابنه أحمد هو الذي نشر على نطاق واسع بأنه ولي العهد. وقبل أن تتبلور شخصيته كان لا يرتاح بالعيش في مقام أبيه، وكان لا يستمرّ في

الإمام أحمد يحيى حميدالدين

طلب العلم على مشايخه العلماء الـموجودين في مقام أبيه، وعندما بلغ الـحلم تمرّد على بقائه في مـقام أبيـه، وفـرّ إلى شـهـارة، ونصّب نفسـه أميـرا عليـها ونائبا للإمـام، وعندمـا أراد الإمـام إرجاعـه بالتـفـاهم أو بالقـوة «ترفق» أي طلب الرفق من قبيلة حاشـد، وهذا يعني أنه لاجئ إلى القبيلة، ومن واجبها حمايته، وبعد «عودته» فرّ مرة أخرى إلى شهارة، ونصّب نفسه نائبا عليها.

ويبدو أن الإمام لم يعترض هذه الـمرة على تمرد ابنه أحمد في شهارة، وبعد شهور حاول أمير لواء حجة السـيـد يحيى شـيـبـان الـخـروج على الإمـام يحيى، باعتـبـاره ظالـمـا، واتفق مع ناصر مبخوت الأحمر، شيخ مشايخ حاشد على أن يكون الـخروج على الإمام من حجة، وينتشر في الـمناطق الشـمـالية والغربية، ثم يتم الزحف على صنعاء ومحاصرتها، لإسـقاط الإمـام يحيى أو إجباره على الرجوع إلى الـحق. وقد اتصلا بشخصيات كـثيـرة، وقبـائل أخـرى يثـقـون بهم، ومنهم: أبو منصر في ثلا، والسـيـد عبـد الوهاب الـحوري من مشايخ جبل مسور حجة، ومجموعة من مشايخ حاشد.

وخلال هذه الـمؤامرة كان السيد يحيى شيبان موجودا في صنعاء، واكتشف الإمام تلك الـمؤامرة، فاعتقل شيبان في سجن غمدان، فأعلن أخوه محسن شيبان الـخروج على الإمام، وأرسل الشيخ ناصر الأحمر ابنه حسين بمئات من الـمقاتلين إلى حجة، لدعم شيبان فيها، وسيطروا على قاهرة حجة وقصر نعمان ومدينة حجة. من جانبه، قرّر الإمام إخماد التمرد، وفي الوقت نفسه مهّد لابنه أحمد الطريق لتولي الإمامة في الـمستقبل، فطلب ابنه من شهارة، وكلّفه أن يخمد التمرد في حجة، ومدَّهُ بقوة من الـجيش، وتقدّم السيف أحمد إلى حجة في قوة كبيرة من الـجيش والقبائل، وتمكّن من إخماد الثورة بقوة، وبقي محسن شيبان والشيخ حسين ناصر

الأحمر في قاهرة حجة، وصالحهم السيف أحمد على الخروج منها بأسلحتهم آمنين، وانتقلوا إلى حاشد، وتولّى السيف أحمد منصب نائب الإمام في حجة، وكان أولاد شيبان محمد وعلي في مقام ولي العهد عام 1943م و1944 عندما كنتُ من حاشية ولي العهد حينذاك، لكنه بعد أن أصبح أميرا للواء حجة تكوّنت شخصيته المستقلة، وحاول بأساليب شتى أن تكون شخصية مهيبة؛ بل رهيبة، وأُشيع أنه يجمع الجنَّ ويملكهم، وكان عنيفا في إدارته، وبنى سجن نافع الرهيب، وأطلق على نفسه: «أحمد يا جناه».

في عام 1345هـ-1926 أراد أن يظهر لأبيه أنه جدير بأن يعتبره عماد أسرة بيت حميد الدين، فقدم إلى صنعاء ومعه جمع وافر من رؤساء وعشائر الوعظات، وعبس، وبني بشر، وحجور، وبني قيس، والخميسين، وبني مروان، والمسارحة وغيرهم، بعد أن مرّ بهذه المناطق، وخطط الجيش في بيوت أهلها. وفي عام 1346هـ-1927 تحرّك ولي العهد أحمد من حجة إلى قفلة عذر، وجمع جيشا كبيرا من حجور، وبني عبد، وجبل عيال يزيد وغيرهم، وطلب من قبيلة العُصيمات من حاشد تسليم رهائن الطاعة، وبأسلوبه العنيف اقتحم قرى القبيلة وأخضعها، حتى صار رجالها يطحنون الحبوب وجنابيهم إلى خلف ظهورهم، والنساء تخبز وتجهّز الطعام للجيش المخطط على القبيلة، ولم يرتفع الجيش إلا بعد أن أذلَّ القبيلة وأفقرها.

وفي عام 1347هـ-1928 ندب الإمام ابنه أحمد لإخماد ثورة قبيلة الزرانيق في تهامة، وبعد حروب طاحنة تمكّن ولي العهد من إخضاع القبيلة، واحتلَّ مدينة «بيت الفقيه» في شهر ربيع آخر عام 1347هـ-1928 بعد أن دمَّرَ القبيلة، وأسرَ من رجالها أكثر من ستمئة أسير، ساقهم إلى سجن نافع حجة، وماتوا في السجن جميعا. وفي عام 1351هـ-1932 تقدّم ولي العهد بجيش جرّار من الجيش النظامي والقبلي، وأخضع قبائل سفيان، ودهَم، وخطط الجيش في بيوت الأهالي، وأخذ من ذو محمد وذو حسين في جبل برط 300 رهينة، كما أمر بقلع الأبواب المزخرفة التي كانت قبائل برط قد نهبتها من دار المهدي عبد اللّه المتوكل في وسط القرن الثالث عشر هجري وإيصالها إليه!

في شهر ذي القعدة 1351هـ–1932 تقدّم ولي العهد بجيش جرار واحتلَّ وادي نجران في محرم 1352هـ–1933 ودخل المدينة عنوة، وفرّت منها قبائل يام، واحتلَّ جبل «رعوم» و«زور وادعة» وغنم أموالا كثيرة من أموال المكارمة «الإسماعيليين» الذين لجأوا إلى ابن سعود. وفي هذا الوقت كان الإمام يحيى يحشد الجيوش في المنطقة الشمالية الغربية، لدعم ولي العهد الذي اتخذ من مدينة صعدة قاعدة لإدارة الحرب منها إذا نشبت بين الإمام وآل سعود، وكان لولي العهد خطة حربية ضد آل سعود، تختلف عن خطة أبيه كما ورد في موضوع الحرب السعودية اليمنية.

وكما هي عادة ولي العهد أحمد، فإنه يحاول أن يترك في أي منطقة يمرُّ بها أثرا لشخصيته المهيبة الرهيبة، ولهذا عندما كلّفه الإمام بالنزول إلى تعز، وإزاحة علي الوزير من إمارتها لم يذهب إليها مباشرة، وإنما سار إليها في حاشية كبيرة، وقوة عسكرية عن طريق مدينة معبر، فوادي الحمام بآنس، فوادي صيحان بريمة، فسائلة جعيرة، فوادي سهام، فعبال، فالبحيح من تهامة، فمدينة باجل، فمدينة الحديدة، ثم سار إلى مدينة الزهرة، ثم إلى مدينة اللحيّة، ثم إلى مدينة ميدي، ثم إلى جبل الملح، ثم طاف ميناء ابن عباس، ومدينتي المنيرة والزيدية والصليف. ثم عاد إلى الحديدة، وخرج منها إلى مدينة الدريهمي والمراوعة، وعاد إلى الحديدة، ثم سار إلى مدينة «بيت الفقيه»، ثم إلى قرية الصعيد ووادي الجاح، ومدينة الحسينية، ثم إلى مدينة زبيد، ثم انتقل منها إلى مدينة حيس، ومنها إلى مدينة الخوخة، ومنها إلى مدينة المخا.. ثم قصد مدينة تعز. وكان يقيمُ يوما أو أياما في كل محطة يصلها ضيفا على أهلها بحاشيته وجيشه، لينشر الهيبة والرهبة والفقر والذلة في نفوس الناس. وهكذا لم يصل إلى تعز المقصودة إلا عبر مناطق كثيرة، ترك فيها شخصيته الطاغية القوية المخيفة في نفوس الناس! إن هذا هو الأسلوب الذي كوّن شخصيته الرهيبة في عموم اليمن. كان يريد أن تنطبق عليه الآية القرآنية: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)، سورة النمل.

وذهب ولي العهد إلى تعز، وحلَّ ضيفا على أميرها علي الوزير الذي لم يتلق من الإمام عزلا له، ولكنه كان ضيفا بالقوة، وكان على الأمير علي الوزير أن يغادر تعز قبل

أن يُجبر على المغادرة. وفي البداية أشاع ولي العهد أنه قد جاء إلى تعز، لينقذ أهل اللواء من طغيان علي الوزير وفظاعته، وعندما انفرد باللواء قرّر أن يتحصل من الأهالي مبلغ مليوني ريال ليُرسلها إلى الإمام، وكان علي الوزير قد أرسل من قبل وصول ولي العهد مليون ريال أي ألف «خيشة» في كل «خيشة» ألف ريال، وكان بعض بيت المجاهد يسكنون دارا كبيرة في مدينة تعز، فاستولى عليها ولي العهد، لتكون دارا له، وأخرج منها أسرة بيت المجاهد، بحجة أن الدار كانت لجدهم الملك المجاهد الرسولي الذي ملك اليمن في منتصف القرن الثامن الهجري عام 740هـ-1339، ولذلك فهي من أملاك بيت المال؛ أي ملك الدولة، وحوّلها وما حولها إلى دار له سمّاها: دار الناصر، لقد كان ولي العهد فارسا محاربا سفاكا للدماء. وقد حاول ولي العهد أن يجمع حوله مجموعة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء، وكان وصول الأستاذ أحمد محمد نعمان إليه من مصر في عام 1941 بداية لذلك. فقد توسّط لدى ولي العهد، لإطلاق محمد محمود الزبيري من سجن الأهنوم، والإذن له بالالتحاق به في تعز، وكذلك استقدم إلى مقامه زيد الموشكي وشخصيات أخرى معروفة في اليمن.

الأستاذ الخطيب والقاضي الشاعر

قصة التلاحم بين الأستاذ أحمد محمد نعمان من ذبحان الحجرية، وبين القاضي محمد محمود الزبيري من صنعاء العاصمة قصة لها بداية، وليس لها نهاية؛ لأن قضية الحرية في اليمن قضية واحدة لا تتجزأ، كما أن اليمن شعبا وأرضا لا تتجزأ. وكان الأستاذ والقاضي يمثلان الوحدة اليمنية رغم كل ظروف التمزيق، فقد كان حكم الأئمة بطبيعته يثيرُ التمزق في اليمن الواحد، وكان تلاحم الأستاذ والقاضي يمثلُ الوحدة اليمنية ويصونها ويحميها من التمزق، برغم ما بينهما من اختلاف في التكوين والمزاج الشخصي، ومن خلاف في السلوك والطبائع والعلاقات والتعامل مع الآخرين.

ولن أسمح الآن لذكرياتي بالانسياق في ذكر قصة ذلك التلاحم، فله محطات

قادمة ستأتي؛ ولكني جمعتهما الآن؛ لأن الهجرة إلى مصر جمعتهما، ولأن العودة من مصر إلى اليمن قد جمعت بينهما، وفي اليمن كان لكلٍّ منهما مصير مختلف حتى اجتمعا مرة أخرى في مقام ولي العهد بمدينة تعز. وقبل وصولي إلى تعز لم أكن أعرف الأستاذ نعمان؛ أما القاضي الزبيري فقد عرفته معرفة سريعة في صنعاء بعد إطلاقه من سجن الأهنوم، ثم تعمَّقتْ في تعز، وتحولّت إلى صداقة صادقة، وكان من أهم الشخصيات التي تأثرت بها إيجابا في حياتي. كان الزبيري صبيا يتيما بعد أن مات أبوه، فرعاه في تعز الأمير علي الوزير الذي كان صديقا لوالده. وقد سافر لأداء فريضة الحج صحبة الأمير بعد عزل الأمير من ولاية تعز، وسهّل له الأمير السفر إلى مصر، للدراسة في دار العلوم التابعة لجامعة الأزهر. وفي القاهرة التقى بالأستاذ، وكلاهما في مرحلة الشباب، وبدأت قضية وطنهما اليمن تفرض نفسها على عقولهما وضمائرهما، وفكّرا في إنشاء أول تنظيم سياسي يمني اسمه «كتيبة الشباب اليمني الأولى»، وانضمّ إليهما عدد من الطلبة اليمنيين، ولكن ثالثهم كان السيد محمد علي الجفري من لحج، وبدأوا ينشرون مقالات في صحيفة «الصداقة»، وفي صحيفة «الشورى» التي كان يصدرها الصحفي الفلسطيني المشهور محمد علي الطاهر.

الزعيمان الزبيري والنعمان

وكان محمد محمود الزبيري يعيش بحسّ الشاعر المرهف، وضمير الصوفي الزاهد، وعقل الوطني المصلح، وإيمان العالم التقي العامل بعلمه، ولذلك تكوّنت لديه قناعة بأن العمل الوطني في خارج اليمن محدود الأثر أو مفقوده، وقرّر العودة إلى اليمن ومحاولة إصلاح البلاد والعباد عن طريق إقناع الإمام يحيى بأن يتولّى بنفسه عملية الإصلاح، ومحاججته بالحجة الدينية التي يزعم أن حكمه قائم على الشريعة الإسلامية. وكتب في مصر المبادئ والنظام الأساسي لمنظمة مدنية سمّاها «جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وذهب إلى صديقه الأستاذ نعمان وأخبره بما عزم عليه وقدّم له مبادئ ونظام الجمعية، وبأسلوب الأستاذ نعمان، قال لصديقه الزبيري بعد أن تصفّح الأوراق:

قل لي يا قاضي محمد جرى لعقلك حاجة؟

قال له صديقه: هذه قناعة اقتنعت بها.. لماذا لا نحاول إقناع الإمام يحيى بأن يكون مصلحا؟، لماذا لا نحاججُه بحجته الدينية؟ لماذا لا نقوم بتوعية الناس بالدين كما يدجّلُهم هو بالدين؟ وإذا كان موسى عليه السلام قد حاجج فرعون، ودعاه أن يتنازل عن ألوهيته وقبلَ فرعون ذلك، فلماذا لا يقبل الإمام يحيى محاججتنا له بالدين ونحن لا ندعوه أن يتنازل عن شيء؟! فقال له الأستاذ نعمان: يا قاضي محمد إن فرعون كان طاغية متألّها حضاريا؛ أما الإمام يحيى فإنه طاغية متأله متخلف، لا يقبل أي كلمة من أي إنسان، وإذا كان ولا بدّ من العودة إلى اليمن فلنعد إلى ولي العهد في تعز، فبيني وبينه مكاتبة. ولكن الزبيري قرّر العودة إلى الإمام يحيى، ويظهر أن الأستاذ نعمان قرّر العودة إلى ولي العهد في تعز قبل عودة الزبيري إلى صنعاء في عام 1941. وعندما وصل الزبيري إلى صنعاء نصحه أقرباء وأصدقاء والده ألا يقول شيئا يغضب الإمام، وأن يجامل وينافق حتى تكون له وظيفة ومرتب يعيش منه، وحتى لا يعرّض نفسه لنقمة الإمام إذا تدخّل فيما لا يعنيه.

وفي ذلك الوقت كتب قصيدة معبرة عن هذا الموقف، وهي من قصائده الأولى بعنوان: «مصرع الضمير»، ونشرها في ديوانه مسبوقة بمقدمة، ولأهميتها أنقلها فيما يلي:

«مصرع الضمير»، حينما قدمتُ إلى اليمن من مصر قرابة عام 1941 انهالت عليَّ نصائح الأصدقاء والأقرباء بأن ألزم الصمت والخمول، وأغضّ الطرف عن كل ما أراه من شرور، وأعكف في عقر داري، ولا أتحرّك منه إلا إلى المقام الشريف، أو أنصار المقام الشريف، وقيل لي: إذا أردت أن تعيش سعيدا مع أهلك، وأن تنال المرتب والوظيفة فلا بدّ أن تتبع هذه التعاليم؛ أما إذا رفضت هذه التعاليم فلا تنتظر غير بلايا ورزايا ومحن متلاحقة. وقد حذّروني أشدّ التحذير من أن ألقي خطبة أو محاضرة أو اجتمع بأي شخص مستنير، وفي هذا الجو المكفهر جاشت نفسي بهذه القصيدة.

مُت في ضلوعك يا ضمير
وادفن حياتك في الصدور
إياك والإحساس
فالدنيا العريضة للصخور
لا تطمئن إلى العدالة
فهي بهتان وزور
لا تنسبن إلى الثقافة
فهي داعية الثبور
حطم دماغك إنه
شر برأسك مستطير
واخنق فؤادك إنه
يؤذي الخليفة والأمير
لا تنطقن الحق فهو خُرا
فةُ العقل الغرير
لا تنتصر للشعب
إنّ الشعب مخلوق حقير
لا تطمحن.. فلست أكثر في
الحياة من الحمير

لـن ترتدي غـــيـــر اللجـــام
ولـن تذوق ســوى الشــعــيــر
واحــذر تصــدق رؤية العــينين
أو نـبـض الـشـــــعـــــور
فـــــــــإذا نـظـرت دجـى
فــأعلن أنه الصــبح الــمنيــر
وإذا ترى الشــيطان عــربيــدا
فـــــقـل مَـلَك طـهـــــور
لا تـنْه عـــمـــا قـــد تراه
مـن الـفـظـائـع والـشـــــرور
فــالـنُّصحُ من شــؤم الفــضــول
ومـن أضـــــاليـل الـغـــــرور

***

آه.. لمصـــــــرعِ أمـــــــة
دُفنت.. ومــا برحت تســيــر
كـــانـت أســـود الـغـــاب
وهي اليــوم دود في القــبــور
لـم تســتــرح من رعب ديجـور
ولا مــن عــبء نــيـــــــــر
تخـــشى التنفس في هواه
والـتـــــحـــــرك وسط نور
فــخــذوه في ســجن البــغــاة
فـــإنه شـــؤم خطيـــر
واعنوا به قـــبل اللصـــوص
وقـــبل أرباب الـفـــجـــور

أيقـــــوم ينـهـى الـنـاس عـنـد
خليـــفـــة الله الكبـــيـــر؟
إنّ الإمـامـةَ عـصـمـة عظمى
تجـلّ عـن الـنـكـيـــــــــر
والأمـــر بالـمـــعـــروف كـــفـــر
بـالـــــمـــلـيـك.. وبـالـوزيـر
لا تتـــركـــوا قلمـــا يسطر
أو دفـــاعـــا مـــســـتـنيـــر
لا تأمنوا العـــقـل الـمـــفكر
فـــهـــو خـــوّان كـــفـــور
لا تنشـــروا العـــرفـــان إلا في
الســـفـــاسف والقـــشـــور
فـــالعلمُ يكتـــشف الزوايا
والـخـــبـــايا والســـتـــور
ودعـــوا لنا شـــعـــبـــا نحنطه
بـأوهـام الـعـــــصـــــور
ونـذيقـــــه نومـــــا يغط به
إلـى يـوم الـنـشـــــــــور

هذه هي قصيدة الزبيري عقب عودته من مصر إلى صنعاء، وهي تصوّر مناخ الطغيان الـمتخلف الذي كان يمارسه طاغية متخلف، وربما استوحاها من بيتين مشهورين حينذاك، أذكر أنهما للشاعر العراقي معروف الرصافي.

يا قـــــوم لا تتكلمـــــوا
إنّ الـكـلامَ مـــــحـــــرم
نامـــوا.. ولا تســـتـــيـــقظوا
مـــــا فـــــازَ إلا الـنُّوَّم

الإمام يحيى والزبيري وجها لوجه

وفي عصر اليوم التالي لوصوله إلى صنعاء ذهب إلى المقام الشريف لمقابلة الإمام يحيى، وكان خبر وصوله قد بلغ الإمام، وعندما اقترب من الإمام صافحه ولم يقبّل ركبتيه كعادة الناس، وكان هذا أول ما أثار سخط الإمام فقال له: «اندفن هاناك».. وأومأ له إلى مكان بعيد عنه؛ ثم تشاغل عنه بالأوراق إلى أن قام الزبيري للخروج، وقدّم للإمام مبادئ ونظام «جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛ قائلا له: يا مولانا إن الناس يأملون أن تكونوا أعظم من يصلح أحوال البلاد والعباد، ثم خرج من المجلس..

وبدأ يبحث عن مؤيدين ينضّمون إلى «جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وكان أول من انضمّ إليه علنا السيد محمد أبو طالب الخطيب، ولقّب بالخطيب؛ لأنه كان يعظ الناس في المساجد بعد صلاة المغرب، وقد وجد كل منهما في صاحبه سندا يشجّعه على ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان الإمام من قبل يصبر على خطابات السيد محمد أبو طالب، فهو عالم، ومن أسرة كبيرة هاشمية، منها السيد العلامة الكبير قاسم العزي أبو طالب، ولذلك ضاق الإمام بانضمام الزبيري إليه، وحقد عليهما، ولكنه كظم غيظه لفترة حتى عمت المجاعة مناطق كثيرة من اليمن، وامتلأت صنعاء بآلاف من الجائعين القادمين من لواء حجة والحديدة يبحثون عن لقمة تقيم أودهم، ويموتون جوعا في الشوارع، ويقبرون في قبور جماعية. وفي آخر جمعة من شهر ذي الحجة سنة 1360هـ الموافق عام 1941، كان الإمام يحيى في الجامع الكبير لصلاة الجمعة، وخطب خطيب الجمعة من على المنبر، وذكر القحط والمجاعة، ودعا إلى صلاة الاستسقاء. وبعد

السيد محمد أبو طالب الخطيب

الصلاة قام محمد محمود الزبيري، وخاطب الإمام قائلا: «يا أمير المؤمنين إن رعاياك يموتون في شوارع صنعاء وشوارع المدن الأخرى جوعا وعطشا بالمئات والآلاف، وأنت المسؤول عنهم، فارحم رعيتك يا مولاي». وقام الخطيب أبو طالب، وكان أكثر صراحة وقال: «يا مولانا إن الناس يموتون في شوارع المدن جوعا، وأموال بيت المسلمين في خزائنك، ومدافن الحبوب لديك، فأنفق عليهم من أموالهم لديك».

وقد أراد خطيب الجمعة أن يسكته، ولكن الإمام أشار له بأن يتركه. وفي فجر اليوم التالي كانت عكفة الإمام يجرُّون الزبيري وزميله الخطيب إلى سجن القلعة، وفي الصباح الباكر ساقوهما مربوطين على الحمير إلى سجن المشبك في الأهنوم، وهو من أبشع سجون اليمن، وذلك في يوم الجمعة 10 ذو الحجة الموافق 21 ديسمبر1941، ولعل الزبيري وهو في طريقه إلى هذا السجن قد ذكر صديقه الأستاذ نعمان، ومقارنته لفرعون الطاغية المتحضر، والإمام الطاغية المتحجر، وكانت المسافة بين صنعاء والأهنوم خمس مراحل، وخلال خمسة أيام من السفر كانت نظرات الناس إلى الزبيري وزميله نظرات شماته واحتقار، ولكن أفظع ما لاقاه الزبيري وزميله في السجن هو موقف السجانين الذين أثقلوا أقدامهما بالقيود، ورموا بهما في زنزانة مظلمة، وامتنعوا عن الحديث معهما، باعتبارهما من الكفار الذين اختصروا القرآن، وأرادوا استبدال شريعة الله بدستور النصارى، كما أشاع الإمام عنهم ذلك. وانزوى الزبيري في زنزانته يصلّي ويفكّر ويتغيّب القرآن، ويعيش بروحانيته الصوفية.

وبعد مرور أكثر من عشرة أشهر على سجنه فكّر في نظم قصيدة مدح واسترحام، وبعد أن أكملها أرسلها إلى الإمام يحيى. لقد بدأها مادحا الإمام بمبالغة مكشوفة، ثم صوّر فيها ما لاقاه وزميله، وصوّر حالة الرعب عند النساء والأهل والأصدقاء. وكان لهذه القصيدة دوي في أكثر بيوتات العلماء والأمراء وكبار موظفي الإمام في أنحاء اليمن، كما أن الإمام عندما قرأها قال: «إنه شاعر كبير، ولكن فكره مسموم..» وقد استهلّ القصيدة بالمدح، ثم مسح المدح بالشكوى:

نور النبـــوّة من جـــبـــينك يلمعُ
والـملك فـــيك إلى الرســـالة ينزعُ

ومنها:

يكفـيك أن الشـعب حـولك قـائم
يرنو إليك.. ويرتجـــيك ويخـــضعُ
دانت لعـــــرشك أمـــــة يمنيـــــة
يســـمـــو بهـــا عـــاد.. ويفـــخـــر تبعُ
من أين يأتيك العـــــدو وأنت في
أرضٍ تكاد صـــخـــورها تتـــشـــيّعُ؟

ثم انتقل إلى تصوير ما نزل به وبصديقه وبأهلهم وأصدقائهم قائلا:

رحلوا بنا منذ الصـــبـــاح ولم نكن
ندري أرحلة ســـائح.. أم مـــصـــرعُ؟
عـــرضت لنا تلك الـمطي كـــأنهـــا
نعْش يؤم بنا الـمـــقـــابر مـــســـرعُ
وتهـافت الناسُ الـجـمـيع كـأنهم
حـــضـــروا جنازة مـــيت لا يرجعُ
يتـــخـــاوصـــون بأعين مـــذعـــورة
تتـــجـــرع البلوى كـــمـــا نتـــجـــرعُ
وأتت مـــــواكب أهلنا لتـــــردنا
بنحـــيـــبـــهـــا عـــمـــا إليـــه يزمعُ
تبكي وتنشـــــــدنا الأناة وترتجي
ألا نسـيـــر وتســـتـــغـــيث وتفـــزعُ
جـاءوا حـيـارى خـائفين.. ومـالهم
ذنب.. وقـد يخـشى البـريء ويجـزعُ

يبكون حـــيث دمـــوعـــهم مـــردودة
حـســرى.. وحـيث بكاؤهم لا ينفعُ
رحـــمـــاك يا غـــوث اللهـــيف فـــإن
ســـاعـــاتِ العـــذاب طويلة لا تقلعُ
مـــا أضـــيق الدنيـــا على ذي كـــربة!
حـــتى يرى أن الـــمـــقـــابر أوسعُ
مـــا بالُ أحـــشـــائي تُؤجَّجُ في الدجى
فكأنما لـلـنار فـــيـــهـــا منبعُ
وكـــأن هذا الكون أصـــبح شـــعلة
والســـجـن قـــدر فـــوقـــه يتلذعُ
هذي قـــوافـــينا إليك منيـــبـــة
يبـدو لهـا غـضب الإمـام فـتـفـزعُ
جـفت مـدامـعنا وفـاض شـعـورُنا
والشـعـرُ في بعض الـمـواطن أدمعُ

هذه أبيات من قصيدة المدح التي كان لها دوي حينذاك وأشير إلى البيت التالي:

من أين يأتيك العـــــدو وأنت في
أرضٍ تكاد صـــخـــورها تتـــشـــيّعُ

فقد استوحاها من سخط الناس عليه، ومن شماتتهم به وبزميله خلال أيام سفرهم إلى سجن المشبك وما عاناه من قسوة السجانين أوحى له بهذا البيت؛ ولكن الإمام يحيى عندما هزمه عدوه ابنُ سعود في عام 1934 انهارت أعصابه، وتنازل عن كرامته وعن أرض الوطن، وسلّم الأدارسة اللاجئين إليه إلى ابن سعود؛ لأن «الشرائف هزمتنا»، كما كان يقول؛ أما البيت الثاني الذي أشير إليه فقد استوحاه من طبيعة الإمام يحيى الحاقدة

هـــذي قـوافـينا إليـــك منيـبـة
يبـدو لهـا غـضب الإمـام فـتـفـزعُ

وقد أمر الإمام يحيى بإطلاق الزبيري ورفيقه ربما في شهر نوفمبر 1942، وعندما وصل إلى صنعاء أقمنا له حفلة استقبال في منزل صديقي أحمد الشامي، أو في منزل أستاذي أحمد المروني، لم أعد أذكر، وألقينا أمامه أربع قصائد ترحيب، بدأها أستاذنا المروني، ثم أحمد الشامي، ثم ألقيتُ قصيدتي، وكانت قصيدة عبد الوهاب الشامي أصغرنا سنا الأروع في التعبير. ثم توجه الزبيري إلى تعز وفي ذمار آل الديلمي وآل باسلامة، وزيد الموشكي وآخرون، كانوا قد رتّبوا له في ذمار ترتيبا ذكيا، ينفي ما أشاعه الإمام ضد الزبيري وضد المستنيرين من دعاية اختصار القرآن، واستبدال الشريعة الإسلامية بدستور النصارى، ففي جامع المدرسة، وهو الجامع الكبير في ذمار صلّى الزبيري بالناس صلاة العشاءين، إماما، وقرأ في الركعتين الجهريتين من طوال السور، قرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة ثُمن جزء من سورة آل عمران، وفي الركعة الثانية قرأ بعد الفاتحة أربعين آية من سورة الأنعام. وفي صلاة العشاء قرأ في الركعة الأولى ثلاثين آية من آخر سورة الفرقان، وفي الثانية قرأ سورة «ص» كاملة، وقد صار هذا حديث الناس ومثار إعجابهم فترة طويلة. وفي أوائل شهر يناير 1943 وصل الزبيري، وزيد الموشكي إلى مقام ولي العهد في تعز، وكان ما كان.

عودة الأستاذ نعمان لها حكاية

رأينا كيف عاد الزبيري من مصر، لينشئَ جمعية «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وكيف انضمّ إلى الخطيب السيد محمد أبو طالب الذي كان يخطب في المساجد يعظ الناس، ويدعو إلى الإصلاح، وكيف انتهت بهما الخطب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى سجن المشبك في مدينة الأهنوم، وكيف أُطلقا، وانضمّ الزبيري إلى حاشية ولي العهد في تعز، ويظهر أن صديقه الأستاذ نعمان في مصر قد عاد إلى اليمن قبل عودة صديقه الزبيري عام 1941، ولكن الأستاذ نعمان

عاد إلى تعز. ومن الحكمة أن أترك الأستاذ نعمان يحكي حكايته بنفسه كما أوردها في مذكراته. يقول الأستاذ نعمان: كانت لي علاقة بولي العهد آنذاك -الإمام أحمد فيما بعد- بدأت علاقتي به منذ أن بدأنا في الحجرية نحن والأستاذ حيدرة، في إنشاء النادي الثقافي في ذبحان، وتأسيس مدرسة نموذجية.

كان هذا الأمير بعد الهزيمة أمام السعودية عام 1934 مغاضبا لأبيه؛ لأن هزيمة جيش الإمام أمام جيش السعودية أحدثت في اليمن ردة فعل أسقطت هيبة الإمام سقوطا يساوي سقوط هيبة عبد الناصر في هزيمة عام 1967 في الحرب مع إسرائيل. كنا نتضايق من الحكام الذين عندنا في المناطق، فأردنا استمالة ولي العهد، لكي نوجد نوعا من التناقض بينه وبينهم، فكان يراسلنا ويشدّد علينا بأن نُعلّم التلاميذ الوطنية، ومن جملة عباراته: بث الروح الوطنية في نفوس الناشئة، فإن حقوق الدين والوطن كادت تكون غير معقولة، نسأل الله أن ينتشل هذا القطر من هُوّة الجمود والغفلة.

ورجعتُ إلى اليمن من مصر، وخطبتُ بين يديه بعد صلاة الجمعة، أذكر الحضارة الفاسدة والنساء السافرات، والأمير أحمد يبكي في المحراب من التأثر بالخطبة، وأخذ يشكرني، لأنني كنتُ أشيد باليمن التي حماها الله من الاستعمار، ولم تُرفع فيها راية أجنبية. لماذا قلتُ ذلك؟ لأنني فهمتُ الوضع، قلتُ ذلك لأستقرَّ فسلّموني إدارة المعارف. أصبحتُ مدير المعارف، وأقام أحمد في تعز، فكان وليا للعهد، وحاكما لمنطقة تعز، ويُعتبر نائبا للإمام.

تولّيتُ إدارة المعارف، وأنشأتُ كتاتيب في القرى على أساس البرنامج الذي يحتوي تعليم القرآن، وما يتعلّق بالصلاة من الوضوء والطهارة، ثم محبة الإمام، ووجوب طاعته على الناس وموالاته.. المطلوب من الفلاح أداء الصلاة ودفع الضرائب المفروضة عليه للإمام. كنا نعتقد أن ولي العهد الذي سيصبح فيما بعد الإمام أحمد مع تجاوبه معنا ومشاركته في مجالسه في المساجلات الأدبية إننا ربما نستطيع في بعض المناسبات أن نقنعه بإدخال العلوم واستقدام المدرّسين من الخارج، وإرسال البعثات، ولكن كان بينهم وبين الخارج وحشة، أذكرُ أنه عندما

دخلتُ وأقبلتُ عليه «ولي العهد» وهو في مجلسه الذي يواجه فيه الناس قال لي:

وما جئت حتى آيس الناس أن تجبي سموك منظورا وجئت على قـــدر

مستشهدا بهذا البيت من الشعر، وهي تحية قلبية، قرّبني إلى جانبه، وظلَّ يسألني عن الأحوال في مصر، وكانت أيام الحرب العالمية الثانية، ومن يأتِ من الخارج يعتبرونه مُلما بكل شيء، ويشعرون بضعف أمامه، لأنه قد درس واطلع على كل شيء؛ فبقيتُ أحدّثه عن الأحوال في الخارج، وأقارنُ بين الأحوال في اليمن وما فيها من الاستقرار والأمان وحفظ الدين، وعدم سفور المرأة، وأندبُ الحالة التي في الخارج: السفور، وشرب الخمور، وكل ما يتعلق بالمفاسد المنتشرة، وأضيف: إن اليمن بوجود مولانا الإمام وولي عهده تطهّرت من هذه الأدران. قلتُ هذا حتى يطمئن؛ لأن الذي يأتي من الخارج يحاطُ برقابة شديدة، وتكون العيون مسددة نحوه، وإذا لم تعجبه الأوضاع في الداخل تعرّض للسجن أو لأي أذى، فعملتُ لكي أدخل الطمأنينة إلى نفوسهم. وكان أخوه سيف الإسلام عبد اللّه قد قابلني في الزيدية في تهامة، وحدّثته بهذا الحديث، فأعجب وكتب معي رسالة -وكان وزيرا للمعارف- إلى أخيه سيف الإسلام أحمد، يتحدّث فيها عني وعن مقابلتي، ويطلب منه أن يكلفني بإدارة المعارف.

واستهوت ولي العهد أحمد هذه الأحاديث، والحط من قيمة فاروق «ملك مصر»، وأنه رجل قد خرج عن الإسلام، وعن قواعد الدين. والقول عن بلاد مصر إن الرجال والنساء يسبحون معا في شواطئ الإسكندرية، وعن السينما وأمور أخرى، وعن الفظائع الموجودة في الخارج كلها، والتي نريدُ وقاية اليمن منها؛ فطلب مني أن أقول هذا علنا للناس؛ فصغتُ خطبة ألقيتُها في المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة، والناس ينصتون، وسيف الإسلام أحمد يبكي من شدة التأثر لما قد أصاب الإسلام والمسلمين خارج اليمن، ولم يبق سوى اليمن سالما من هذا الخطر. وكلّفني بإدارة المعارف في تعز؛ ولكن هذه الوظيفة كانت شكلية، وكان العمل أن أكون دائما في مجلسه للإجابة عن الرقاع، رقاع المظالم التي ترد إليه، والرد على الرسائل التي تصله بالبريد من جميع أنحاء المملكة، يوزعها على الجلساء في

المجلس، ليجيبوا عنها، ويستعرضُ كل الجوابات، ويوقّع عليها، ويلاحق بعض الأجوبة، وبعض الرسائل ليتولاها بنفسه. وحصلت الألفة بيني وبينه بهذه المجالس والمنادمات والمساجلات الشعرية والأدبية.. وأصبحتُ بمثابة الصديق، حتى كان إذا خرج للنزهة يمرُّ بنفسه بالسيارة، ليقف في الباب، حتى أخرج ويأخذني معه، لنمضي معا كصديقين.

هذه هي حكاية عودة الأستاذ أحمد محمد نعمان كما رواها بنفسه في مذكراته، وتلك كانت حكاية صديقه القاضي محمد محمود الزبيري كما حدثت. ومع ذلك فقد كانت القضية اليمنية.. قضية الحرية والدستور.. قضية القضاء على الظلم والظالمين قدرهما الذي وحّدهما في موقف واحد، برغم وجود تناقض في طبيعة كل منهما وتكوينه الذاتي، حتى تحقّق الهدف بثورة دستورية، سقطت خلال أيام من عام 1948، وثورة جمهورية ثبتت وانتصرت من يوم 26 سبتمبر 1962 وحتى اليوم، وإلى ما شاء الله. ولهذا حديث آخر سيأتي -إن شاء الله- في هذه الذكريات. كان الأستاذ نعمان في تعز أقرب الناس إلى ولي العهد، فهو جليس مريح، يعرفُ كيف يعبّر عن أفكار ولي العهد ويُرضي أهواءه، وهو نديم لطيف يحشد ثقافته وأدبه ومعلوماته الواسعة، وتعمّقه في فقه أصول وفروع الدين، وما يحفظه من شعر ونثر في منادماته ومساجلاته في مجالس ولي العهد أو مجالسته، حتى صارت علاقته به علاقة صداقة، لا عضو من أعضاء الحاشية.

ولا أدري هل تعمّد أن تكون علاقته بحاشية ولي العهد علاقة محدودة حتى مع الزبيري نفسه؛ إذ كان لا يختلط بهم إلا في مجلس ولي العهد، فإذا انفضّ المجلس ركب بغلته، متجها إلى بيته، ولذلك لا أذكر أنني تأثرت به. كنتُ أرتاح لمنادمته ومساجلته الأدبية في مجلس ولي العهد، ولكنه لم يترك أثرا في حياتي، بعكس زميله محمد محمود الزبيري، وزيد الموشكي، وأحمد الحضراني، وابنه إبراهيم، وعلي ناصر العنسي، والفقيه القاضي أحمد العنسي، ومحمد شيبان.. وصديقي أحمد الشامي، فقد كنا نلتقي كمجموعة أو كمجموعات، ولهذا كان لكل منهم أثر في تكوين شخصيتي، مع تفاوت في التأثير.

ومرت شهور، وإذا بولي العهد يضمني، وصديقي الشامي وإبراهيم الحضراني إلى ابنه البدر زملاء له في دراسة العلوم الدينية، وكان يدرّسه أحمد محمد زبارة، وعبد اللّه عبدالإله. ولا أدري لماذا لم يكن زيد الموشكي ممن يدرّسونه، وقد كان شيخ أولاد الإمام يحيى: العباس وإسماعيل ويحيى في قرية «السّر» شمال صنعاء، وهكذا انتقلنا من دار الضيافة إلى دار الناصر في مدينة تعز؛ حيث يسكن البدر ويدرس. وانضمّ إلينا ذات يوم شاب جديد أصغرنا سنا، يعتمر العمامة التعزية، ويبدو عليه الانبهار بما يشاهده في تعز وفي دار الناصر، إنه هاشم طالب، وهو من أسرة صوفية تعيش في قرية بعيدة تقع في ناحية «مقبنة»، وسرعان ما اكتشفنا فيه ذكاء وعقلا متفتحا، وأعصابا أهدأ من أعصابنا، فرض علينا حبَّه واحترامه، ثم أصبح صديقا عزيزا، وكان يقرأ أي كتاب نقدمه له بنهم واستيعاب، وبدأ يقول الشعر.

حساسيات بين البدر وصديقي الشامي

كان البدر يتعامل معنا كصديق وزميل وليس كأمير، وخلال دراستنا معه حاولنا أن نشجعه على تثقيف نفسه ذاتيا، وبدأتُ ألاحظ وجود حساسيات بينه وبين صديقي أحمد الشامي؛ ربما لأن شخصية الشامي أقوى من شخصية البدر، وأخذت هذه الحساسية تنمو وتتطور وتظهر في بعض كلمات البدر، أو بعض تصرفاته. وقد ذكر صديقي أحمد الشامي في مذكراته: «رياح التغيير في اليمن» مواقف تدلُّ على ذلك، ولكنه نسي «الدردشة الأدبية التي تحولت إلى زوبعة سياسية، فذات يوم كنا في مجلس الأمير البدر في جلسة مؤانسة أدبية، ولا أدري الآن كيف ذُكر الشاعر الفارسي عمر الخيّام، وإذا بصديقي أحمد الشامي ينشد إحدى رباعيات الخيام:

لو كان لي قدرة رب مجيد
خلقت هذا الكونَ خلقا جديد
يكون فيه غير دنيا الشقا
دنيا يعيش الحرُّ فيها سعيد

والتفت البدر بغضب إلى الشامي وقال: هذا كفر، وأشار إبراهيم الحضراني إشارة خفية إلى الشامي بأن «يفوّت»؛ ولكن صديقنا الشامي لم «يفوّت»، وردَّ على البدر أن رباعية الخيّام ليس فيها كفر، وإنما فيها فن من الشعر والفكر والتمني وليست كفرا. إنه كان يتمنى ولم يقل إنه خالق الكون. واحتدم النقاش، وحاولنا تهدئة الموقف، وتدخّل صديقنا الجديد هاشم طالب بذكائه وأعصابه الهادئة قائلا للبدر: يا سيدي هذا شعر عمر الخيّام، والكفر فيه ينصب على الخيّام؛ لأن راوي الكفر ليس بكافر. ثم أخذنا نتناقش في موضوعات شتى، حتى وصلنا إلى ذكر الآية القرآنية (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات طِبَاقا)، سورة الملك. وانبرى صديقنا الشامي ليقول: إن الآية ليست للحصر، وإنما للكثرة، ففي الكون ملايينُ السماوات التي تدلُّ على قدرة الله خالق الكون، وهنا وجّه البدر كلامه إلى صديقي الشامي قائلا له: لقد صبرنا على الكفر في شعر الخيّام؛ أما الكفر في الآيات القرآنية فلا يحسن السكوت عليه، وحاولتُ أن أبرر كلام صديقي وقلت للبدر: يا سيدي هناك آية قرآنية أخرى تقول: «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»، هل السبعين هنا للحصر أو للكثرة؟ هل إذا استغفر رسول الله لهم واحدا وسبعين أو ثمانين أو ألفا سيغفر الله لهم»؟! وسكت البدر بعد أن هدأ، ولكن صديقنا إبراهيم الحضراني أشعلها وهي باردة بأسلوبه المرح فقال: لو افترضنا أنني وصلت إلى سقف السماء الأولى، ورفعت يدي إلى فوق، فستخرج إلى ما بين السماء الأولى والثانية، وهكذا حتى أصل إلى فوق سقف السماء السابعة وأمد يدي، إلى أين ستخرج؟ كان إبراهيم يقول هذا بأسلوبه المرح ويداه إلى فوق ويحرّك رأسه ويمطّ الكلمات، ورأينا البدر صامتا يكظم غيظه، وخرجنا مودّعين إلى غرفتنا في حوش القصر.

كان هذا والجو العام في تعز يبدو متوترا؛ لأن ولي العهد بدأ يتوجس ويضيق بالنشاط العلمي والأدبي، وبالاجتماعات المليئة بالحوار والنقاش، وبالبريد الأدبي الذي أنشأته مجموعة تعز، ليكون وسيلة للتواصل الأدبي والثقافي بين مختلف المدن اليمنية، ويظهر أن البريد الأدبي قد بلغ الإمام وأشعر به ولي عهده في تعز، وقد نقل البدر ما دار من نقاش في مجلسه إلى والده بأسلوبه الخاص. وبعد عصر

اليوم التالي ذهبنا كما هي العادة إلى مجلس ولي العهد، ولم يكن معي ممن حضروا مجلس البدر غيري. وفي هذا المجلس فجّر ولي العهد بركان غضبه على العصريين الذين يقرؤون الصحف والمجلات، وينشدون أشعارا فيها كفر وإلحاد، وينكرون خلق الله للسموات السبع والأرضين السبع، وينشرون الكفر والإلحاد، ثم صرخ، قائلا: «إنني سألقى الله ويدي ملطخة بدمائهم».

ولا أدري لماذا لم أخف من غضبه الشديد، ولكني استغربتُ أن يكون ما حدث في مجلس البدر هو الذي أثار غضب ولي العهد إلى هذا الحد، وكان بجانبي السيد زيد الموشكي، وعندما رآني أرفع يدي، طالبا الإذن لي بالكلام، لكزني ورأيت ولي العهد يهزّ لي رأسه، دليل الإذن بالكلام، فذكرتُ ما حدث في مجلس البدر بالتفصيل، وقلت ربما من نقل إليكم كان مغرضا أو لا يفهم، ثم سكت ووجدتُ المجلس كله في صمت رهيب، وخشيت أن يأمر ولي العهد بجرّي إلى السجن، ولكني رأيته ورآه كل من في المجلس وقد هدأ غضبه، وغيّر الحديث، فقد سأل زيد الموشكي: هل بسم الله الرحمن الرحيم هي جزء من كل سورة من سور القرآن؟ أم أنها خاصة بافتتاح سورة من سور القرآن؟ أم أنها خاصة بافتتاح سورة الحمد؟، وأجابه زيد أن بسم الله الرحمن الرحيم موجودة في القرآن، ولذلك فإن افتتاح سور القرآن بها جائز ومستحب؛ بل إنها بداية كل سورة، فقد روى الصحابة أن سور القرآن كانت تنزل فلا يعرفون انتهاء السورة إلا عندما تأتي بسم الله الرحمن الرحيم، فتدلّ على بداية السورة الجديدة. ولا أدري حتى الآن هل ندم ولي العهد على غضبه والتهديد بسفك دماء العصريين، حفاظا على العلاقات بينه وبينهم؟ أم إنه ندم لأنه كان يرى أن ينزل بهم غضبه قبل أن يعلنه؟ وكيفما كان قصده، سواء هذا أو ذاك فإنه قد أثار مخاوف الكثيرين، ولم يكن واردا استمرار علاقته بالعصريين. وكان الأستاذ الزبيري أكثرهم تخوفا وحذرا؛ لأن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، وقال للأستاذ نعمان: هذا الذي حاولنا أن نثير فيه طموحات وطنية، ظهر أن طموحاته كلها طموحات طاغية متعطش لسفك الدماء.

فرار الزبيري ونعمان والموشكي والشامي

كنتُ أعتقد أن تهديد ولي العهد بسفك دماء العصريين هو الذي دفع الأستاذ والقاضي إلى الفرار في أوائل شهر يونيو 1944، واتخاذ عدن مركزا لحركة الأحرار، ولكن الأستاذ الزبيري أخبرني بعد فراري إلى عدن عام 1946، أن فكرة فراره مع الأستاذ نعمان، ثم فرار زيد الموشكي وأحمد الشامي إلى عدن بعد تهديد ولي العهد للعصريين وسفك دمائهم تبسيط للأمور؛ لأن فكرة الهجرة إلى عدن قد بدأت عندما كان الزبيري في منطقة «شرمان» في مأمورية كلّفه ولي العهد فيها بتحصيل «الزكاة» من الرعية، وكلّف زيد الموشكي بتحصيلها في منطقة أخرى، وكلّف أحمد الشامي بتحصيلها في منطقة شرعب، وكلّف محمد عبد اللّه الفسيّل بتحصيلها في منطقة المسراخ، وهكذا..

وكانت هذه المأموريات من أبشع وأقذر المأموريات التي أبرزت للزبيري وزملائه فظاعة الحكم الإمامي، ففي الوقت الذي كانت فيه المجاعة تقتل عشرات الآلاف في أنحاء اليمن، كان هؤلاء المأمورون ومئات آخرون من أمثالهم يقود كل منهم عددا من عكفة ولي العهد، أو عكفة الحسن في إب، لينضّموا إلى أعداد أخرى من عسكر الجيش النظامي أو البراني في كل منطقة، ويحتلّون بهم بيوت الرعية الذين تسحقهم المجاعة، ويتحصّلون منهم بقية ما يملكون من حبوب أو نقود، ويأكلون لحوم أغنامهم، ويحوّلون نساء الرعية إلى خادمات للمأمورين والجنود؛ بينما الرجال يذهبون إلى مناطق القات لشرائه للمأمورين والجنود. وكانت هذه المأموريات من جرائم الظلم الإمامي، فعلى المأمور أن يحتلَّ بالعكفة والجنود بيوتَ الرعية، وأن يجمع لنفسه، ويجمع الجنود والعكفة لأنفسهم «مطراش» السنة، ليعودوا إلى ثكناتهم أو بيوتهم بما يكفيهم ويكفي أسرهم من مال الرعية، مدة عام أو أكثر.

قال لي الزبيري: «كنت أقوم بهذه المأمورية القذرة البشعة في منطقة الشرمان، وأنا أشعرُ وكأنَّني أسير في يد عصابة مجرمة. تجبرني على قتل الناس وتعذيبهم، وهكذا وجدتُ في الشرمان، أن هاجس الهجرة قد تحوّل إلى إرادة مصممة قبل تهديد

ولي العهد بأشهر طويلة، وجاء التهديد ليكون الحافز والمبرر للهجرة. «ولم أستطع أن أستمر في مأمورية «شرمان» فطلبت من ولي العهد إعفائي بحجة المرض، ولعله فهم مقصدي، ولذلك عندما عدتُ إلى تعز واستأذنته في زيارة أهلي بصنعاء أذن لي، ولكنه حوّل لي بمبلغ بسيط، لا يكفي للزيارة، وبلغ جازم الحروي ذلك، فمنحني مبلغا من المال اشتريت به الهدايا للأهل في صنعاء، وصرفت بقيته في تكاليف السفر». وأضاف الزبيري: كان قد مرّ على التحاقي بمقام ولي العهد أكثر من عام، وكنا جميعا نحاولُ أن نؤثّر عليه، شعرا ونثرا وخطابة ومهرجانات، ولكن الأيام كانت تمرُّ دون أن تبدر منه أية بادرة للحوار فيما نرمي إليه، كان هو الذي يستغلّنا ويستخدمنا لتلميع الطاغية المستبد في كيانه، دون أي مقابل وطني ننناله منه. وكان جازم الحروي يقول لنا بين فترة وأخرى: لو أنكم سخَّرتم عبقرياتكم التي وهبكم الله إياها لإثارة الشعب ضد الطغاة لنلتم بذلك مجد الدنيا والآخرة، ولكنكم تسخَّرونها لتمجيد الطغاة.. احزموا أمركم وأنا ومالي والشعب معكم، والله معنا جميعا. وأضاف الزبيري: وعقب تهديد ولي العهد ذهبت إلى الأستاذ وشجّعته على الفرار، فأظهر لي تردده دون أن أعرف أنه والشيخ جازم الحروي قد رتّبا الأمور منذُ شهور. ورتّب لنا المناضل جازم كلَّ أمور رحلة الفرار إلى عدن، وظلَّ بماله وجهوده أعظم داعم لحركة الأحرار، وناله بسبب ذلك ما ناله. وحكاية جازم حكاية ستأتي في ذكرياتي هذه.

ولكن هل كان فرار الأحرار إلى عدن خوفا من التعرض للسجن أو القتل وطلبا للسلامة؟ أم كانت له أهداف وطنية أبعد من مجرد طلب السلامة؟ إذا عدنا إلى ما قاله صديقي أحمد الشامي في ذكرياته التي سمّاها «رياح التغيير في اليمن» فسنجد أنه يقول: إن الفرار إلى عدن لم تكن أهدافه الوطنية واضحة، بل يرى أن الفرار كان ردَّ فعل مضاد لتهديد ولي العهد، أكثر منه طلبا للسلامة.. كنا نمجّده، ونلمّع شخصيته لنثير في نفسه إنسانية الإنسان، ولكننا نجد أن الذي ثار في نفسه هو وحشية الغريزة في الإنسان، وكان ردُّ الفعل هو الخروج إلى عدن..! ولا شك أن صديقي الشامي كان صادقا بالنسبة إليه شخصيا حينذاك، وربما عبّر هذا عن رد فعل

الشهيد زيد الموشكي؛ أما بالنسبة لكل من القاضي الزبيري والأستاذ النعمان فإن الهدف الوطني كان واضحا لهما منذ هجرتهما السابقة إلى مصر، وهو هدف كان موجودا، حاولا تحقيقه من قبل عندما كانا في مصر، ولكن هذا الهدف المشترك كان يقابله اختلاف حاد بين الزميلين في الوسائل التي تحقق الهدف، وذلك نتيجة اختلاف الأمزجة والتوجهات الذاتية والعامة لكل منهما.

ويظهرُ من مذكرات الأستاذ نعمان أن الهدف من الهجرة إلى عدن لم يُناقش، أو لم يكن مشتركا، فهدف الأستاذ من الهجرة هو أن يمتلك مطبعة، ويصدر جريدة ومنشورات سياسية، تعزّز صلته بالمهاجرين اليمنيين ماديا ومعنويا، وقد تكون وسيلة للمساومة مع ولي العهد.. وهكذا كان إصدار جريدة هو هدف الأستاذ، ولم يكن في ذهنه أو احتمالاته قيام تنظيم للأحرار اليمنيين، وقد استوحى فكرة أو هدف إصدار جريدة ومنشورات سياسية من علاقته بأبي الحسن محمد علي الطاهر الذي كان يُعتبر زعيما فلسطينيا؛ لأنه يصدر جريدة «الشورى» في مصر بدون تنظيم سياسي، ولا نضال وطني، وإلى جانب ذلك تدرُّ عليه أموالا وشهرة وزعامة وهيبة بلا «وجع دماغ».

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تجربة الأستاذ في تأسيس الكتيبة اليمنية الأولى التي اشترك في تأسيسها مع الزبيري والسيد محمد علي الجفري وبعض اليمنيين الآخرين، وهو تنظيم سرعان ما تفكّك وانتهى، قد جعلت الأستاذ يقتنع بأن أي تنظيم يعني وجود من يشاركه أو ينازعه في الاتصال بالمهاجرين اليمنيين في المهاجر الذين كان الأستاذ يعتبرهم من خصوصياته الشخصية؛ لأن أكثرهم من منطقة الحجرية الذين لا يزالون يعتبرون آل نعمان مشايخهم ومرجعهم، وفي عدن وحدها كما يقول الأستاذ أكثر من مئتي ألف لا يثقون إلا به شخصيا، ودعمهم يعتبر دعما له شخصيا، لا دعما لحركة منظمة. ولا شك أن في هذا القول الكثير من الصحة إن لم نقل كل الصحة؛ خصوصا والكثير من قادة الأحرار كانوا من المنطقة الزيدية، وكان من السهل على الأستاذ إثارة الحنق الطائفي فيمن يتصل بهم أو يتصلون به، وكانت المقولة التي نشرها بين المهاجرين من أصحابه: «إن هؤلاء الزيود عسكر بقاء في بيوت الشوافع في القرية، وعسكر بقاء على الشوافع في عدن».

كان يرى أن كل الأحرار من المنطقة الزيدية «مرتزقة» وأن كل الأحرار من المنطقة الشافعية «رعيته»، ولكنه كان بحاجة إلى شخصية زيدية تقف بجانبه، لتخفي نزعته الشافعية، وتضفي على نشاطاته السياسية صبغة يمنية وطنية، وكان زميله وصديقه القاضي محمد الزبيري هو من يحتاجه الأستاذ ممن ينتسبون إلى المنطقة الزيدية، ليكون بجانبه تجسيدا للوحدة الوطنية، وكان من السهل على الأستاذ أن يحول بين الزبيري وبين إيجاد صلات قوية مع المهاجرين، فقد حوّله الأستاذ في نظرهم إلى ملاك طاهر، لا يكتم سرا ولا يحفظ مالا، وأي مال يصل إلى يده يعطيه بلا حساب لزملائه من الزيود، وأي سرّ يفشيه بوقته بدون حذر. أي أنه كما يقول رواة الأحاديث النبوية من المغفلين الصالحين الذين لا تُقبل روايتهم، أو أقوالهم. وكان الأستاذ يعتبر إثارة الطائفية ضد الزيود دفاعا عن النفس أو عن المصالح الشخصية، ووسيلة لتفرّده بدعم الشوافع المادي والمعنوي والسياسي، وإلغاء لفكرة إنشاء تنظيم يمني سياسي، أو حصره في شخصه؛ لأن ذلك سيجعل أغلب قيادة التنظيم من الزيود بينما أغلبية جماهيره من الشوافع، وغالبيتهم من التجّار أو التابعين لهم.

وبهذا نجد ازدواجية في تفكير الأستاذ ومواقفه، فهو طائفي عنيف ضد الزيود، ولكنه في الوقت نفسه وحدوي كبير ضد الانفصال.. وهذه الازدواجية تدورُ حول شخصه ومصالحه، فطائفيته ضد الزيود تمكّنه من احتكار تأييد ودعم الشوافع. وموقفه ضد الانفصال تجنّبه «وجع الدماغ»؛ لأن الدعوة إلى الانفصال تتطلّبُ زعامة طموحة ديناميكية جماهيرية، تنظّم وتحرّك الجماهير، وهذا غير متوفر في شخصية الأستاذ، ثم إن فكرة الانفصال غير عملية، وهي مرفوضة على المستوى اليمني الوطني، وعلى المستوى القومي العربي، ومرفوضة من الاستعمار الإنجليزي؛ لأن حكم الإمام في الشمال يؤمّنُ له السيطرة على الجنوب اليمني بلا قلاقل، أي أن الدعوة إلى الانفصال غير عملية.

أمّا الجانب الأهم في رأي الأستاذ فهو أن الدعوة إلى الانفصال تحتّم عليه تكتيل وتجميع وتنظيم وتحريك الجماهير الشافعية ضد حكم الزيود، وفي هذا «وجع

دماغ»، وفرصة لبروز قيادات شافعية لذلك التنظيم المفترض، تحدُّ من احتكار القيادة له شخصيا، وهو ضد فكرة التنظيم من الأساس، ثم إن الدعوة إلى الانفصال لن تكون مقبولة لدى كل الشوافع، وستكون مرفوضة من أكثرهم؛ لأنها على الأقل لن تحقّق لهم الانفصال، ولكنها ستسبّب لهم التمزق والتعرض لمخاطر لا يملكون قدرة على دفعها. إذن فهدف الأستاذ من الهجرة إلى عدن كان محصورا في امتلاك مطبعة وإصدار صحيفة، يكسب بذلك الكثير بدون «وجع دماغ»، واحتكار زميله الزبيري لإبراز مظهر الوحدة الوطنية. أما زميله الزبيري، فإنه بحكم ثقافته وتفكيره وإيمانه بمبادئ الإصلاح والتغيير كان هدفه من الهجرة هو تشكيل تنظيم سياسي للأحرار في الداخل وفي المهجر؛ لأن التنظيم السياسي هو أداة التغيير، وقد رأينا أنه عندما عاد من مصر إلى اليمن كان يحمل مشروع إنشاء تنظيم «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وتعرّض بسبب ذلك لغضبة الإمام يحيى، والزج به في أبشع سجن في اليمن، «سجن المشبك» في الأهنوم.

كما رأينا أن الأستاذ قد عاد إلى ولي العهد في تعز، ليعلن بأنه لم يبقَ إسلام ولا شريعة ولا حكم يحكم بكتاب الله وسنة رسوله إلا في اليمن؛ أما في مصر والبلاد العربية فليس فيها إلا الفسق والفساد والفجور وشرب الخمور، وارتكاب الفواحش واختلاط الرجال والنساء عرايا على شواطئ البحر. وكان الأستاذ يرى في هذا سلامته والابتعاد عن «وجع الدماغ»؛ ولكن جرت الرياح في عدن بما لا تشتهي السفن، فبمجرد وصول الأستاذ وزميله القاضي إلى عدن وجدا أن أشخاصا هاربين من الإمام قد سبقوهما، ومنهم الشيخ مطيع دماج، وهو شافعي من أصول زيدية، والشيخ محمد ناجي القوسي من مشايخ قبيلة الحدا الزيدية، والشاعر جميزة، وهو شاعر شعبي زيدي، وفي الأسبوع التالي لوصول الأستاذ نعمان والزبيري إلى عدن وصل السيدان زيد بن علي الموشكي وأحمد محمد الشامي، وهما من زملاء الأستاذين. وفرض هذا وذاك على الأستاذ القبول بتأسيس «حزب الأحرار»، ووجد تأييدا من عناصر كثيرة فاعلة من الشوافع في عدن.

وقبل أن أسترسل في موضوع تأسيس حزب الأحرار أجد من المهم الإشارة إلى

المناضل عبدالله الحكيمي

حادث غريب أشار إليه الأخ علي محمد عبده في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»، فقد ورد في صفحة 178 من الجزء الأول ما يلي: «عندما تم ترتيب كل شيء غادر نعمان والزبيري مدينة تعز، بعد ظهر ذات يوم على الدابتين إلى الشريجة التي تقع خارج نفوذ الإمام، ومن هناك استقلا سيارة نقل محملة بالبطاط، وهي التي اتفق جازم الحروي مع سائقها على نقلهما إلى عدن. وقد أُوقف الأستاذ الزبيري في كرش بالمحميات، ومُنع من مواصلة السفر إلى عدن من قبل الأمن؛ بينما واصل الأستاذ نعمان سفره بالهوية المصرية التي ساعده الوزير المفوض العراقي بجدة ثابت عبد النور في الحصول عليها من المفوضية المصرية، وسافر بها إلى القاهرة قبل سنوات. وعندما وصل الأستاذ نعمان إلى منزل الشيخ عبد اللّه علي الحكيمي في الشيخ عثمان وأخبره باحتجاز الأستاذ الزبيري بكرش؛ أرسل الشيخ الحكيمي سكرتيره الخاص نعمان عبده علي العبسي للعمل على إطلاق سراح الزبيري، وقد وصف الزبيري رحلة الهروب في رسالته المرسلة إلى المناضل جازم الحروي، والتي كتبها فور وصولهما إلى عدن». هذه رواية الأخ علي محمد عبده.

يشكّل احتجاز الزبيري في كرش حادثا غريبا مشبوها؛ لأن حركة اليمنيين في الدخول والخروج على الحدود كانت حركة لا قيود عليها؛ لأن آلافا من اليمنيين يعبرون الحدود كل يوم، وقد حاولت السلطات الاستعمارية ضبط تلك الحركة عن طريق إبراز الهويات الشخصية، ولكنها عجزت؛ لأن اليمنيين الشماليين لا يحملون بطاقات هوية، ويرفضون أي قيود على حركتهم في التنقل عبر الحدود، حتى ولو كانت لديهم هوية، فكيف حُجز الزبيري في كرش لدى الأمن، وهو يمني من آلاف اليمنيين الذين يعبرون الحدود طيلة ساعات اليوم بدون أي احتجاز أو تحقيق أو إبراز

هوية؟ وكيف سُمح للأستاذ نعمان بالدخول؛ لأنه أبرز هوية مصرية قديمة، انتهى مفعولها، والهوية المصرية تحتاج إلى تأشيرة دخول من القنصلية البريطانية في مصر؟ ومن حقنا أن نتساءل عن سر احتجاز الزبيري في كرش.. هل كان بهدف وضعه بين أحد خيارين: إما أن يتم تسليمه إلى السلطات المتوكلية اليمنية؛ وإما أن ينقذه زميله الأستاذ نعمان الذي دخل بهُويته المصرية. وتم إرسال سكرتير الحكيمي لإطلاق الزبيري، وكأنّه سكرتير الوالي الإنجليزي، وخلال أقل من أسبوع دخل الموشكي والشامي من كرش إلى بيت الحكيمي في الشيخ عثمان بدون حجز أو تحقيق أو هوية. ومن هنا يأتي الاحتمال بأن حجز الزبيري في كرش كان مُدبّرا، لهدف مشبوه قد يحتمل التكهّن، ولكنه لا يحتمل التأكيد.

في سجن دار النصر

بعد أيام قليلة من فرار الزبيري ونعمان كنتُ في دار الضيافة، ربما لزيارة بعض الأصدقاء، وإذا بزيد الموشكي وأحمد الشامي يصلان إلى دار الضيافة، وجلسا معي لدقائق، وأعطاني زيد ثلاثة كتب لم أعد أذكر أسماءها؛ لأنني تركتها في دار الضيافة، ولم يترك لي ولي العهد فرصة لقراءتها. وفي اليوم التالي عرفتُ أنهما قد فرّا إلى عدن للالتحاق بالزبيري ونعمان؛ أما أنا فلم أفكّر في الهروب؛ لأنني كنتُ أحاول إقناع البدر بإقناع أبيه أن يرسل بعثة إلى مصر على رأسها البدر وعدد من أصدقائه للدراسة في مصر، وكان البدر يحبُّ ذلك، ولكنه يخاف أن يفاتح والده، كما أن علاقتي الشخصية بالبدر كانت ودية، ثم إنني قدرّت أن ولي العهد لن يمسّني بسوء ما دمت لم أهرب مع زيد والشامي، وقرّرت الطلوع إلى المقام الشريف وحضور مجلس ولي العهد كالعادة، وفي الطريق وجدتُ السيد علي شيبان، وهو من جلساء الإمام، وأخبرني بفرار زيد والشامي، فقلتُ له: قد بلغني ذلك، ولا يوجد سبب للفرار إلا الخوف، ووصلنا إلى صالة الانتظار، وقد دخل علي شيبان إلى مجلس ولي العهد، وبعد قليل عندما كنتُ أنتظر الإذن لي بالدخول وصل ثلاثة من العُكفة وأخذوني إلى خارج المقام، وساقوني إلى سجن دار النصر في أعلى جبل صبر المطل على مدينة تعز، وكان حرس السجن مجموعة من

البرانية مع عريفهم من بيت المحجاني، وهو قريب لقائد «مرتب» قاهرة تعز، وقد عاملوني معاملة حسنة فلم يقيّدوني، ولم يدخلوني إلى داخل السجن، وإنما افسحوا لي مكانا في غرفتهم، وأعطوني فرشا وبطانية ووسادة للنوم، وبقيتُ نحو تسعة أشهر في هذا السجن، في تلك الأثناء تم سحب العشرات من صنعاء وتعز وإب ونقلهم إلى سجون حجة.

ثم أصبتُ بورم في الخد الأيمن، وأرسلتُ برقية إلى ولي العهد أشكو من شدة الورم، فأمر بنقلي تحت الحفظ إلى المستشفى الوحيد في تعز، وفي المستشفى كان سريري في غرفة مشتركة مع مرضى آخرين. ولم أعد أذكر اسم الطبيب الإيطالي الذي كشف عليّ، ولكنه أعطى تعليمات للممرض أن يأخذ قليلا من الرماد، ويعجنه بقليل من الماء الحار ثم يضعه على الورم في خدي الأيمن، ونفّذ الممرض التعليمات، ووضع الرماد المعجون مباشرة على خدي بدون أي حائل، وبعد يوم جاء الدكتور وأمر بإزالة الرماد، ووجد أنه قد أحدث في خدي حروقا جارحة، شوّهت خدي الأيمن، ولا يزال آثار ذلك إلى اليوم، وإلى أن أموت.

وقد بقيتُ في المستشفى فترة أتعالج من جرح الحروق في خدي، وكان مدير المستشفى أحد عكفة ولي العهد، واسمه أحمد الجلال، وبعد أن تعارفنا وجدته من الأحرار أو العصريين، دون أن يدري هو بذلك، فقد كان يعرف بوجود الزعيم المصري مصطفى النحاس باشا. وذات يوم استدعاني، وطلب مني كتابة رسالة باسمه إلى مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر حينذاك، يطالبه فيها بإرسال الجيش المصري ليغيّر الحكم في اليمن، وكنتُ مضطرا إلى مسايرته في هذا حتى لا أثيره ضدي، إذ كان يعتقد أنني على صلة بالنحاس باشا، باعتباري من الأحرار، وقد أوهمته أنني سأرسل رسالته إلى النحاس باشا، ولكني أحرقتها فور خروجي من لديه، وكان ينظم أشعارا بأسلوبه، ولا أزال أحفظ منها هذين البيتين:

أهـــل صنعـــاء مـــجـــاريس
كـــان يبـــيـــعـــوا طمـــاطيس
كـــــان هم في الـهـــــــــوان
غـــرهـــــــــم حكم يحـــيى

أصبح الكلب ضاري آح.. آح.. من زماني

وخلال سجني هذا اكتشفتُ الحقيقة، وهي استحالة إصلاح الفساد على يد الفاسد، واستحالة تحقيق الحرية والعدالة والديموقراطية على يد الديكتاتور المستبد المتكبر، واكتشفتُ أن الديكتاتور لا أمان لديه ولا عهد له؛ فعندما زجّ بي إلى السجن لم أكن قد وصلت إلى ممارسة العمل السياسي، وكنتُ مقتنعا أن ولي العهد سيغيّرُ سياسة أبيه إلى الأفضل، وكنتُ ممن يتخذون من مدحه شعرا ونثرا وسيلة لتحويل طموحاته الذاتية إلى طموحات وطنية، تحقق له الطموح الذاتي والوطني معا. والواقع أنه لم يكن أحد يفكّر في إسقاط ولي العهد أو حتى التآمر على إسقاطه؛ ومع ذلك هدّد بسفك دماء المستنيرين، وأثار الفزع في نفوسهم، فهرب من هرب إلى عدن؛ ولكني لم أفكر في الفرار، ووصلتُ إلى مقامه كعادتي، وكنتُ أنتظر أن يأذن بدخولي إلى مجلسه، وأن يسألني لماذا لم أهرب مع صديقي الشامي، وكنتُ قد أعددتُ في ذهني الجواب، فكنت سأجيب عليه: إن عدم فراري يدلُّ على أنني لست مقتنعا به، وأنني لم أرتكب ذنبا يدفعني إلى الفرار، وأن بقائي في حماية ولي العهد هو الذي سيحقّق لي رضاه وموافقته على إرسالي للدراسة في مصر، وأنني أحلم بالدراسة لا بالسياسة..

كنتُ أعدّ هذا الجواب في ذهني، واثقا أن ولي العهد سوف يحقق أمنيتي، ولكنه كان طاغية فزجّ بي إلى السجن بعد أن مشيت إليه صعودا حتى قمة جبل صبر، وفي طريقي إليه كنتُ مصدوما، فلم أكن أتجاوز الثامنة عشرة من عمري، وها أنا الآن تحت رحمة العُكفة الذين يسوقونني إلى السجن، بدلا من أن يرسلني الطاغية إلى مصر للدراسة، وتذكّرتُ ما تكوّن في ذاكرتي من القراءة أن الحرية والعدالة إذا لم تكونا مضمونة للجميع، فلا يوجد أي شيء يضمنهما للبعض. وهكذا اكتشفت الحقيقة في السجن، واقتنعتُ أن النضال من أجل إصلاح الفساد لا يكون على يد الفاسد، وأن الديموقراطية لا تتحقّق على يد الديكتاتور، وأن الحرية والعدالة يجب أن تكون مضمونة للجميع.. ها أنا أكرّر هذه الحقيقة حتى تبقى راسخة في ذهن من يقرأ هذه الذكريات.

في منتصف عام 1945، وأنا سجين في المستشفى الأحمدي، أرسلتُ إلى ولي العهد برقية أستعطفه فيها، مكوّنة من بيتين من الشعر، هما بعد المقدمة:

مولاي.. إني بريء وأنت أتقى وأرحم
إذا تحققتَ ذنبي غسلت ذنبي بالدم

وبعد أيام وصل قائد عكفة ولي العهد، ومعه الأمر بإطلاقي، وعودتي إلى مجلس ولي العهد، وقد عاد صديقي أحمد الشامي وزميله زيد الموشكي من عدن إلى ولي العهد في تعز في شهر أبريل 1945، إثر خلافات بينهما وبين الأستاذ نعمان، وكنتُ حين عودتهما لا أزال في السجن، ولهذه العودة قصة طويلة رواها صديقي الشامي في ذكرياته المنشورة في كتابه «رياح التغيير في اليمن».. ولكنني لا أذكر الآن أن أيا منهما حدّثني عن أسباب انشقاقهما وخلافهما مع الأستاذ نعمان، ولو أن أيا منهما حدّثني بما جرى لهما لما التحقت بالزبيري والنعمان في عدن. وقد استأذنتُ ولي العهد لزيارة والدتي في صنعاء، فأذن لي وحوّل لي من علي عبد الملك بمبلغ ثلاثمئة ريال، وهي في ذلك الوقت ثروة كبيرة، ثم عدتُ إلى تعز واستأجرتُ بيتا، وكلّفتُ أخي بالوصول مع أمي إلى تعز؛ لأنني قررتُ الاستقرار في تعز، وبعد وصولهما أعطيت لأخي مئة وخمسين ريالا، لكي يتجر بها، كما أعطاه صديقي محمد علي سري مئتي ريال، فنزل إلى عدن، واشترى معلبات متنوعة، وعاد بها وباعها إلى الدكتور «تفلون»، وإلى المهندس الألماني «هنسن» الذي كان لاجئا خلال الحرب العالمية الثانية، وباع ما بقى في السوق.

وبعد إطلاقي من السجن كنتُ لا أزال من جُلساء ولي العهد، وقد انقطع عن الخروج قرابة نصف شهر، وأشيع أنه مريض، ثم أعلنوا أن ولي العهد سينزل إلى عدن للعلاج، وفعلا نزل إلى عدن ضيفا على سلطان لحج الذي أخلى له قصره الكبير المطلّ على البحر. وبلغنا إلى تعز أن ولي العهد قد استقبله الشعب في عدن استقبال البطل الفاتح الذي تقدّم لطرد المستعمر في عدن لا القادم للعلاج؛ ولكنا لم نكن نعرف كيف تصرّف في عدن. وعندما عاد إلى تعز كانت الأوامرُ قد سبقته بأن يخرج الناس لاستقباله من المدينة والقرى المجاورة، وترفع الأعلام،

ويشعل الناس في سطوح بيوتهم النار في الليل، علامة النصر أو الفرح. وبقي أياما بعد عودته يجمعُ كل حاشيته، ويمرح معهم، ويخرج بهم في مواكب يهجلون فيها بما يسمى «الرزفة»؛ أي المشي بسرعة راقصة وبطريقة معينة، وخلالها كنا نردّدُ نشيدا يشبهُ الزامل نقول فيه:

اهجلوا يا رجال.. اهجلوا هكه اهجلوا يا رجال.. اهجلوا هكـــــه

سيدي نسأل الله تملكوا مكـة والـمدينـــــة.. وأرض الله ومـا فيهـــا

ولا أدري من كتب «الهجلة»؛ إلا أن البيت الأخير منها كان معروفا، كنا نهجله ونحن صغار من حارة الفليحي إلى بير العزب بين صلاة المغرب والعشاء، ونصلي العشاء في مسجد علامة، ويسمى في صنعاء «رزفة»، وفي تعز «هجلة».

ولي العهد في عدن والبحث عن الزبيري والنعمان

كان هدف ولي العهد من زيارة عدن هو محاولة إقناع الأستاذين الزبيري ونعمان بالعودة معه إلى تعز، أو إقناع السلطات الإنجليزية في عدن بإخراجهما منها؛ ولكن لم يكن يتصوّر أن الجماهير الحاشدة ستستقبله استقبال الفاتحين لا الزائرين، لا حبا له، ولكن تعبيرا عن كراهية الشعب لوجود الاستعمار الإنجليزي. ولم يكن الأحرار في عدن قد أصدروا صحيفة تعبّر عن آرائهم، ولكن صحيفة «فتاة الجزيرة» التي كان يصدرها الأستاذ محمد علي لقمان تابعت ونشرت تفاصيل زيارة ولي العهد لعدن وتحركاته ومحاولاته، كما كانت تنشرُ أيضا موقف «الجمعية اليمنية الكبرى» بزعامة الزبيري ونعمان، ففي عددها رقم (317) الصادر بتاريخ 14 أبريل 1946 نشرت تقريرا تحت عنوان عريض: «استقبال ولي العهد لم تعرفه عدن في تاريخها الحديث»، وجاء فيه:[1] «اهتاجت المشاعرُ والعواطفُ بنشر خبر قدوم ولي عهد اليمن، فهبّت عدن تستقبل هذا الضيف النبيل عن بكرة أبيها.. الجماهير تهتفُ على طول الطريق من

(1) اقتبسنا ما نشرناه هذا عن ولي العهد في عدن من كتاب «لمحات من تاريخ حركة الأحرار»، تأليف: علي محمد عبده.

لحج إلى عدن ترحّبُ به، وقد بدا عليها السرور، والابتهاج بقدومه.. النساء يزغردن، وطلبة المدارس ينشدون، والأعلام ترفرف على الدور، وفوق السيارات، وبأيدي الجماهير التي كانت كأنّها الموج الزخّار.. وقد أقيمت أقواس النصر مرحبة بسموه وسمو أخيه الأمير يحيى؛ أما أعضاء النوادي- لاسيما نادي الاتحاد الذبحاني- فقد حملوا اللافتات، وعند القصر استقبلته بالتحية ثلة من البوليس المسلح». واستمرّت «فتاة الجزيرة» تنشرُ أخبار ولي العهد وتحركاته، وفي نفس الوقت تنشرُ ما يصلها من رسائل الأحرار والناس.

وقد أخبرني الأستاذ الزبيري عندما وصلتُ إلى عدن في شهر سبتمبر 1946 أن ولي العهد مرّ بموكبه الضخم من باب بيته الواقع في شارع رئيسي، وحوله الجماهير، حيث أرسل من يخبره بأن ولي العهد يريد زيارته؛ ولكن عددا من أفراد البوليس المسلح الذين عيّنتهم السلطات لحماية بيته أخبروا ولي العهد أن الزبيري غير موجود في بيته. وكان هذا صحيحا؛ لأن الزبيري والأستاذ نعمان كانا قد انتقلا للإقامة في مقر الشيخ خير الدين علم الدين، رئيس الطائفة الإسماعيلية، بعد أن بلغهما أن ولي العهد يفكّرُ في اختطافهما بعد أن يئس من التفاهم معهما.

وقد تمت استضافة ولي العهد من قبل النوادي اليمنية في عدن، حيث استُقبل فيها بالأناشيد والخطابات والكلمات التي ألقاها الطلبة ورؤساء النوادي، وقد تضمنت شكوى من الخطاط والتنافيذ ومضاعفة الزكاة أضعافا مضاعفة. كما قام بزيارة المدارس الأهلية والحكومية، وفي مدرسة بازرعة أمر الشيخ باحميش بطرد الطالبين محمد أحمد نعمان، ومحمد أنعم غالب، لأنهما رفعا لافتات ضده عند زيارته لمسجد العيدروس، وعندما دخل إلى أحد الفصول كان الأستاذ عبد اللّه اللحجي قد كتب في السبورة عبارة: «الظلم مرتعه وخيم» فبادر الشيخ باحميش لمسح العبارة بكُم جُبّته. ومما نشرته صحيفة «فتاة الجزيرة» شكاوى وردت إليها من بعض الشباب يعبّرون بها عن تظلماتهم من «الخِطَاط» والظلم والفقر في اليمن.

وقد ذهب وفد من نادي الأغابرة لزيارة ولي العهد في قصر سلطان لحج يشكون

إليه ما يعانيه أهلهم في العزلة من قسوة ومتاعب بسبب الظلم و«الـخِطَاط»، فأجابهم ولي العهد جوابا غريبا، بقوله: «عندما تجدون طاحون سنشتريه، ونرفع الـخِطَاط من قرى عزلتكم». والتقط الشاب قاسم سعيد العواضي هذا الجواب، وذهب إلى صحيفة «فتاة الجزيرة»، ونشر فيها إعلانا عنوانه: «حكومة اليمن تبحث عن طاحون»! وأورد فيه خبر زيارة وفد النادي وجواب ولي العهد عليهم، ثم أردف في إعلانه ما يلي: «إن من يعرف أين تُباع الطواحين، أو لديه طاحون للبيع عليه أن يتصل بحكومة اليمن، أو بممثلها التجاري في عدن»، وعندما قرأ ولي العهد الإعلان استشاط غضبا، وطلب من المسؤولين في النادي الحضور، ومعهم العواضي الذي قام بنشر الإعلان، وقد استجاب للطلب رئيس النادي عبد اللّه ناجي وأمينه العام عبد الصمد مطهر والعضو عبد القادر علوان والشاب قاسم سعيد، ناشر الإعلان، فما إن دخلوا عليه حتى صاح فيهم وصاح في الشاب يسأله: «من قال لأمك أن حكومة اليمن تبحث عن طاحونة» فأجابه الشاب: أمي قالت لي، واستمرّ ولي العهد يرغي ويزبد، ويهدد ويتوعد بهدم بيوتهم في العزلة، ونشرت صحيفة «فتاة الجزيرة» أن الوفد حاول تهدئته دون جدوى، فقال له عبد القادر علوان: لقد خاب أملنا فيك. أما رئيس النادي عبد اللّه ناجي فقد اندفع قائلا لولي العهد بحنق: «نحن هنا رعية الإنجليز مش رعيتكم.. استقبلناك وكرّمناك، لأنك ابن إمامنا وولي عهده، وأنت تهددنا بتهديم بيوتنا في البلاد.. علائاتنا تعيش معنا في عدن، وبيوتنا في البلاد خالية، وليس فيها أحد سوى جرار فارغة في السطوح.. اهدمها أو اصنع ما شئت»، ونهض حانقا، ولكن ولي العهد عندما سمع كلامه صمت وهدأ ولم يعد يهدّدهم أو يتوعدهم، وقد ردّت عليه الصحيفة بعنف في بعض أعدادها، واستمرّت في نشر تظلمات الناس من ظلم الحكومة اليمنية.

كان ولي العهد قد كتب إلى الأستاذ نعمان والزبيري يذكّرهما بالأيام السالفة التي عاشوها معا في تعز، ويتودّدُ إليهما، ويطلب منهما العودة معه ولهما الأمان، وكان الشيخ محمد سالم البيحاني هو الواسطة بينهما وبين ولي العهد، وكان جوابُهما عليه تقديم مطالب الأحرار باسم «الجمعية اليمنية الكبرى» بعنوان مطالب الشعب،

وحصروها في خمسة مطالب. ونلاحظُ في هذه المطالب أنها ذكرت مؤسسات دستورية دون أن تشير أية إشارة إلى وجود دستور، أو عقد اجتماعي، أو حتى وثيقة تحدّد العلاقات بين الشعب والمؤسسات والإمام؛ لأن الإمام كان قد سبق ونشر دعاية واسعة غزت كل بيت في اليمن بأن الأحرار يريدون استبدال القرآن بدستور النصارى الذي يبيحُ المحرّمات والحريات التي «تجعل زوجتك مش لك، وأختك مش لك». وقد استعاضوا عن كلمة دستور أو عقد أو وثيقة بكلمة: منشور يصدره الإمام، كما ورد في البند الرابع، ولم يقولوا «مرسوم». ولهذا صيغت المطالب الخمسة بطريقة لا تعطي للحكم الإمامي المتخلف فرصة للدعاية ضد المطالب التي أرسلتها سكرتارية «الجمعية اليمنية الكبرى» باسم مطالب الشعب، وهي كما يلي:

1. تأسيس مجلس شورى للدولة، يتكوّنُ من علماء البلاد، وأعيانها وأولي الرأي فيها، وتكون مهمته الإشراف على أعمال الوزارة المسؤولة، ودرس المشروعات اللازمة لرقي البلاد، ووضع المقترحات، وإصدار الأنظمة.
2. تشكيل وزارة من رجالاتِ البلد الأكفاء يكون لها منهج إصلاحي شامل، وسياسة مرسومة، تقومُ على أساس إنهاض البلاد ثقافيا وصحيا وأخلاقيا واقتصاديا وسياسيا، وتكون مسؤولة أمام مجلس الشورى، وأمام ملك البلاد «جلالة الإمام»، كما هو الحال في الدول العربية الشقيقة.
3. احتفاظ سيوف الإسلام بمكانتهم كأمراء، وابتعادهم عن تولي المناصب في الدولة، وإعفاؤهم عن المسؤولية، حفاظا على كرامتهم.
4. إصدار منشور ملكي من جلالة الإمام بشأن تأسيس الوزارة المسؤولة، وتشكيل مجلس الشورى، وضرورة المبادرة في تنفيذ السياسة الإصلاحية، تماشيا مع تطورات العصر، وفي ضوء مبادئ الجامعة العربية.
5. الموافقة على تشكيل لجنة مراقبة من المواطنين تكون مهمتها مراقبة تنفيذ المطالب السالفة، على أن يكون مقرها محايدا مثل عدن أو القاهرة.

ويظهر أن البند الخامس قد صيغ ليكون مُبررا للأستاذين في عدم العودة مع

ولي العهد إذا قبل المطالب، ليكونوا ضمن لجنة المراقبة التي ستكون موجودة في عدن أو القاهرة، وقد رفض ولي العهد المطالب جملة وتفصيلا قائلا: «البلاد بلادي والشعب شعبي، فإذا كان لهم مطالب خاصة تقدموا بها».

هروبي إلى عدن وصحبة النعمان

في شهر سبتمبر 1946 وصلتني ورقة صغيرة بخط القاضي محمد محمود الزبيري، وكانت الورقة بدون اسم المرسِل ولا المرسل إليه، ونصّها كما يلي:

أحق بناب الوحش من بات عنده

وأحمق من ذي جنّة من يصاحبه

نحن في انتظار وصولك للقيام بالواجب.

الشاعر محمد سعيد جرادة

آنذاك تذكّرتُ أن الوحش قد ساقني إلى السجن في الوقت الذي كنتُ آمل منه أن يبعثني للدراسة في مصر، وأنني لستُ من المقربين الموثوق بهم في مقامه، وأن أي وشاية أو خطأ قد يسوقني إلى السجن لمدة سنوات، وليس لمدة شهور، ووجدتُ موقعي الطبيعي ليس في مقام ولي العهد؛ وإنما مع الأحرار الذين يدعونني إليهم، لكي أساهم معهم في الحركة الوطنية. وهكذا قرّرتُ الهروب إلى عدن، وقد أخبرتُ أمي أنني سأذهب إلى إب لزيارة صديقي القاضي أحمد المعلمي، وكان أخي قد سافر إلى عدن لتوريد صفقة تجارية محدودة كعادته.

ولا أدري كيف نزل عندي في البيت الأخ الأستاذ محمد سعيد جرادة الذي أصبح فيما بعدُ شاعرا مشهورا، وقد بقي ضيفا لديَّ لمدة شهور، ولم أجد بُدّا من تدبير سكن له

في غير منزلي، وقد قبل صديقي الأخ محمد علي سري أن يستضيفه لديه أياما حتى يجد له سكنا، وانتقل محمد سعيد جرادة إلى بيت صديقي. وفي طريقي إلى عدن لم أجد مشقة أو مخاوف، فقد لبستُ ملابس فلاح تعزي بعد أن وجدتُ صاحب سيارة تنقلُ خضارا وفواكه إلى عدن، وركبتُ على السيارة فوق الصناديق، وبقيتُ متناوما حتى وصلتُ إلى لحج، ومنها إلى عدن في سيارة أجرة أوصلتني إلى دار «الجمعية اليمنية الكبرى». وكان صديقي هاشم طالب في قريته لزيارة أهله، وعندما بلغه فراري إلى عدن لحقني بعد أيام إليها، وانضممنا إلى «الجمعية اليمنية الكبرى».

بعد وصولي إلى عدن بحثتُ عن أخي، في محل يتجمّع فيه تجار صنعاء، ومنهم المناضل الكبير العزي صالح السنيدار الذي كان يسكن في غرفة وبجانبه مكينة الخياطة التي يعمل عليها ليعول نفسه، ووجدتُ أخي أحمد، واستغرب فراري، وقال لي: لماذا لا تنتظر وصولي؟ وكيف تركتَ أمي وحدها في تعز؟، فقلتُ له: إن وجودها في تعز يغطّي فراري. قال لي أخي: «سأعودُ حالا إلى تعز وما شاء الله كان.. دعنا نتقاسم الواجبات. أنا لأمي وأنت للوطن». وعاد أخي فورا إلى تعز، وبلغ ولي العهد وصوله فأرسل إليه السيد الشهم محمد الوريث، ليعرف ما لديه من أخبار، فأخبره بما يعرف، ولما سأله لماذا عدت من عدن؟ قال له: أنا «بياع مشتري» لا شأن لي بالسياسة، وعندما وجدتُ أخي في عدن قلتُ له: سأعودُ إلى تعز.. سأعود إلى أمي، فلا همّ لي إلا إياها.. أنا لأمي، وأنت للوطن. وقد كان محمد الوريث كريما وشهما، وأقنع ولي العهد بأن أخي لا علاقة له بالسياسة، وحوّل له ولي العهد بمبلغ مصاريف العودة إلى صنعاء.

في أول يوم لوصولي إلى عدن، وربما كان ذلك في أوائل شهر سبتمبر 1946 استضافني الأستاذ الزبيري في منزله، ونمت في غرفة من غرفه، وبقيتُ ضيفا عليه في اليوم الثاني والثالث الذي وصل فيه صديقي هاشم طالب، وقدّم لنا الأستاذ الزبيري صبوحا في صحن فيه ثلاث أو أربع بيضات، وعندما كنا نأكل وصل الأستاذ نعمان، ودخل علينا ونحن نأكل فأكل معنا، وبعد أن انتهينا من الأكل التفت إليَّ وإلى صديقي هاشم وقال لنا بأسلوبه الذي يخلطّ فيه الجد بالهزل، وهو يقصد

الـجانب الـجاد منه: «يا أولادي لا تكلّفوا القاضي محمد شططا حتى تفرّقوا بينه وبين زوجته، لأن أبغض الـحلال إلى الله الطلاق، والضيافة يوم للمخف، وثلاثة أيام للثقيل، وعليكم الانتقال إلى دار الـجمعية اليمنية الكبرى، ففيها غرفة أرضية ممتازة.. مفرج.. تتفرجون منه على الرايح والغادي، وسوف تعملون في الـمطبعة، تحرّرون وتصفُّون الـحروف، وتصححون البروفات».

ولم يخرج الأستاذ من بيت الزبيري إلا ونحن معه إلى الغرفة الـمفرج، وقال لنا: كم معكم فلوس؟ قلتُ له ثلاث حبّات ذهب. قال: أصلحك الله «إنديها» عندي أحفظها لك، وسلّمته الذهب، والتفت إليَّ صديقي هاشم وقال له: وأنت كم عندك فلوس، فأجابه: ولا بقشة واحدة، وضحك الأستاذ وقال: خيبة.. أنت خيبة.. من أين ستأكل؟! ثم أمرنا أن نداوم في الـمطبعة، ونعمل مقابل مرتب شهري لكل منا خمسة وعشرون روبية بالتمام والكمال، ووجدنا أن هذا الـمبلغ لا يكفينا الأكل الكفاف، فذهبتُ إلى القاضي الزبيري وقلت له: أنت الذي استدعيتني للحاق بكم، وأنت تعرف الأستاذ نعمان، فلماذا استدعيتني، إنني أستطيعُ أن أتحمّل، وأن اشتغل ليل نهار أما أن أجوع، أو أُهان فلا، والجوع كافر، فلا تدعونا نكفرُ بكم. أنت يا قاضي محمد تعرف لماذا رجع الـموشكي والشامي وأصحابهما إلى ولي العهد؛ أما أنا فلم أعرف إلا الآن.. هل استدعيتني لأنك استوحشت حين أصبحت الوحيد ممن يسمّيهم الأستاذ «عسكر بقاء في البلاد أو في عدن»؟ يا قاضي محمد قل للأستاذ: إذا لم ينصفنا فسأعمل «بجندود راسي»[1] لأن الجوع كافر أو على الأصح مغامر.

وقد تأثّر الزبيري تأثّرا كبيرا وقال لي: يا عزي -وهو لقب لمن اسمه محمد- يجب أن نصبر على الأستاذ؛ لأن الإمام قد قسّم بسياسته اليمن إلى زيدية وشافعية، ولا أستطيعُ أن أختلف مع الأستاذ مهما كانت الأسباب؛ لأنني معه نمثّلُ الوحدة الوطنية، واختلافنا يعرض اليمن للتمزّق؛ ولكني سأحاول تحسين وضعكم. قلتُ له: يا قاضي إنه يحتاجك أكثر مما تحتاجه. إنه إذا أعلنها شافعية فسوف يخسرُ كل شيء؛

(1) تعني جندود رأسي باللهجة الصنعانية برأسي وحدي .

لأن الشوافع يعرفون أنه إذا لم تتحرر اليمن من حكم الإمام كاملة فإنهم لن يتحرروا؛ لأن الزيود في هذه الحالة سيتكتلون مع الإمام، وهم الأقوى. قال: قد يكون هذا صحيحا، ولكنا سنخسر القضية كلنا. من أجل هذا علينا أن نصبر ونبقى مع الأستاذ، ونبقيه معنا.

وفي هذا الوقت كنتُ أنا وهاشم طالب وعلي الجناتي في الغرفة الأرضية «المفرج» وذات يوم اختفى من الغرفة نور الكهرباء؛ إذ تم قطع التيار منها، وعندما ذهبنا إلى الحمام وجدنا أن الماء قد انقطع منه، وكان الحرُّ شديدا. وحاول علي الجناتي أن ينتحر، فأخذنا نراقبه، ومرّة غافلنا، وذهب إلى شاطئ البحر، لكي ينتحر، فلحقته أنا وهاشم وأعدناه إلى الغرفة. وذهبتُ مرة أخرى في المساء إلى الزبيري، وقلت له: إذا لم نحصل على مرتب معقول، وإذا لم نحصل على الكهرباء والماء، فلن ننتحر كما يحاول الجناتي؛ ولن أعود إلى ولي العهد كما فعل الشامي والموشكي، وأنا لم أتزوج حتى يكون لي أولاد، والأولاد مجبنة، أنا «بجندود رأسي»، ورأسي برأس من يذلّني. ولعل الزبيري رأى أن اليأس قد وصل بنا إلى مرحلة خطيرة، فقد وصل ومعه الأستاذ إلى غرفتنا المظلمة، فاستدعى حارس الدار وقال له: من قطع الكهرباء من غرفة جنود حركة الأحرار ومن قطع الماء؟ فأنكر الحارس علمه بمن تصرّف هذا التصرف، وكان الأستاذ قد أحضر معه كهربائي أعاد التيار إلى الغرفة، وطلع الحارس إلى سطح الدار، وفتح حنفي الماء الموجود في الخزان. وقرّر الأستاذ لكل واحد منا مئة وعشرين روبية في الشهر، وانتهت مرحلة من مراحل التأزم مع الأستاذ، وأصبح عملي في المطبعة الاشتراك في التحرير، وتصحيح البروفات، وأُعفيتُ من رصف الحروف.

وبقي هاشم طالب معي في الغرفة، والعمل في المطبعة، ولم أعد أذكر مصير الأخ علي الجناتي، وكان هاشم أكثر حذرا مني، فقد أرسل لولي العهد برقية بأنه اضطر للسفر إلى عدن لمعالجة أخته، وقام بزيارة السيد حسين الويسي، وهو وكيل ولي العهد السياسي في عدن، وأقنعه بأنه قد وصل لمعالجة أخته، وأرسل بواسطته رسالة إلى ولي العهد يطلبُ فيها مساعدته في تكاليف العلاج، وفعلا حوّل له ولي

العهد بمبلغ من حسين الويسي، ولذلك سرعان ما ترك العمل في المطبعة، استعدادا للعودة إلى مقام ولي العهد. وبدأتُ أعمل في المطبعة ومعي الأخ عبد اللّه عبد الوهاب نعمان «الفضول» في التحرير والتصحيح، وكان عبد اللّه طاهر وهو من أهالي صنعاء مهاجرا في الحبشة، ويعمل في مطبعة الحكومة الحبشية، ويُعتبر فنيا في المطبعة، وخبيرا برصف حروف الطباعة، فأرسله الأخ أحمد عبده ناشر إلى عدن ليكون الخبير في المطبعة، واسمها «مطبعة النهضة اليمانية»، وقد درّب عددا من الشباب على تشغيل المطبعة، ورصف الحروف، وطبع صحيفة «صوت اليمن»، وفيما بعد صار الأخ عبد الرحمن قاسم أهم فني في المطبعة، وربما كان يشتغل من قبل في مطبعة من المطابع الموجودة في عدن.

وفجأة وجدتُ صديقي العزيز القاضي العلاّمة، والحبر الفهامة، والشاعر العبقري، والأديب الألمعي، أحمد عبد الرحمن المعلمي، وقد «طبَّ» علينا في عدن.. وبعد أن رحبتُ به قال لي: اسمع يا صديقي.. أنا رتّبتُ كل احتياطاتي، قل لي كيف أوضاع الجمعية؟، قلتُ له: «الجمعية اليمنية الكبرى» لا وجود لها، لا كبرى ولا صغرى. إنها مثل الطبل الفارغ، لها صوت وليس لها محتوى. قال لي: بعد فرارك رتّبت أموري، فطلبتُ من ولي العهد الإذن لي بالسفر إلى مكة لأداء مناسك الحج، وقد أذن لي وساعدني في نفقات الحج، وعندما وصلتُ إلى عدن لأعرف أوضاع الأحرار، بادرتُ بإرسال برقية إلى ولي العهد أخبره بوصولي إلى عدن، وزرتُ وكيله السيد حسين الويسي يوم وصولي، وبعثت بواسطته رسالة إلى ولي العهد أخبره أنني سأدخل المستشفى لإجراء عملية في عيوني المريضة بالتراخوما.. وبعد ذلك زرتُ القاضي محمد الزبيري والأستاذ نعمان ثم أتيت إليك، وسأدخل المستشفى لإجراء العملية وأعود إلى تعز، كان ذلك في شهر أكتوبر 1946. قلتُ له: هذا عين الصواب. وعندما تُقابلُ ولي العهد بلّغه تحياتي، وقل له: لقد هربتُ إلى عدن؛ لأن المؤمن لا يُلدغُ من جُحر مرتين. ودخل صديقي المعلمي إلى المستشفى وأجرى عملية في عينيه، كلّفته البقاء في السرير، لا يرى بعينيه إلا الظلام تحت رباطات العملية، وكنا نزوره، واكتشفنا أنه يرى بكفّيه، فقد

كانت الـممرضة شابة أوروبية ناعمة اليدين والـجسم والقلب. وعندما جاءت إلى الـمعلمي في سريره أخذت يده لتجسّ نبض قلبه، فمدّ الـمعلمي يده الأخرى وأخذ يتحسّس يد الـممرضة، ثم قال لنا هذه يد حورية من الـجنة، وأنا أراها بكفي جميلة، وكانت الـممرضة تبتسم دون أن تزيح كفّ الـمعلمي التي «يبصبص» بها، ووجد من ترجّم كلام الـمعلمي، فضحكت الـممرضة قائلة: بعد أيام سيراني بعينيه، ويتأكد هل أنا حورية أو جنية؟

وبعد خروج الـمعلمي من الـمستشفى كنتُ أذهب معه ومع هاشم طالب، قبل عودتهما إلى تعز إلى مطعم الطاووس القريب من الـمطبعة والأقرب إلى بيت الأستاذ نعمان، ووجدنا على باب الأستاذ ابنه فؤاد وعمره نحو ست سنوات، فأخذناه معنا إلى مطعم الطاووس، وبعد الغداء أعدناه إلى باب البيت، وبعد ذلك وجدنا الطفل فؤاد ينتظرنا في باب البيت، ويمشي معنا إلى الـمطعم وهكذا. واكتشفنا منه أن والده الأستاذ يعطيه في كل يوم خمس آنات من الروبية ليتغدّى بها، أما الأستاذ فقد كنا نعرف أنه لا يتغدّى في بيته، ولا في أي مطعم، فبعد صلاة الظهر يذهب إلى أي بيت من بيوت التجار الذين يتعاطفون مع الأحرار، ويتغدّى مع أهل البيت، وينامُ قليلا ثم يعودُ إلى الـمطبعة.

وعندما كان لاجئا لدى السعودية بعد حركة 13 يونيو 1974، وبعد اغتيال نجله محمد، قمتُ بزيارة خاصة إلى السعودية، واتصلتُ بالأستاذ نعمان لزيارته، فقال لي: لا تكلّف نفسك سوف أزورك في الفندق، وأخذ مني اسم الفندق وتلفونه وجاء لزيارتي، وبعد حديث مرح بعيد عن السياسة قال لي: «غدا إن شاء الله سيمرُّ عليك «السواق» بالسيارة بعد الظهر لنتغدّى معا». وضحكتُ قائلا له: هذا تطور رائع يا أستاذ؛ فأجاب نعم.. نعم.. نحن نتطوّر، ولكنك لا تتطوّر. وضحكنا وودعته إلى سيارته. وفي اليوم الثاني انتظرتُ وصول السيارة التي تأخرت عن موعدها؛ وقلت في نفسي: ربما فعلها الأستاذ، هو الآن يتغدّى وأنا بجوعي أنتظر سيارته، ولكن السيارة وصلت ونقلتني إلى بيت واسع فيه عدد كبير من الناس، وقلت لنفسي، هؤلاء ضيوف الأستاذ بمناسبة دعوته لي؛ ليؤكد لي أنه قد تطوّر وأنا الجربوع الذي لا يتطوّر.

وأخذتُ أبحث عن الأستاذ بين الضيوف، وعرفت خلال البحث أن هذا بيت الأخ شمسان التاجر الكبير في السعودية وصاحب مصنع «بيبسي كولا» في اليمن، وكنتُ أعرف الأخ شمسان معرفة بسيطة. وأخيرا وجدتُ الأستاذ الذي قدّمني إلى الأخ شمسان قائلا: هذا تلميذي محمد الفسيّل، دعوته ضيفا إلى هنا؛ لأن ضيف الكرام يضيف، وأنا وأنت من الكرام، فرحّب بالضيف العزيز، وضحكت بعد ترحيب الأخ شمسان بي ضيفا في بيته، وقلتُ للأستاذ: «لا تزال حليمة عند عادتها القديمة».

نقاش الموضوع المحرَّم

بعد أن تمّت تسوية الوضع الشخصي بالنسبة لي، وبعد عودة الأخ هاشم طالب ربما مع الأخ أحمد المعلمي إلى تعز، كما أشرتُ سابقا، فإنني لم أعد أتذكّر كيف اختفى علي الجناتي من ذاكرتي، حتى التقيتُ به بعد سنوات طويلة في جدة، وتلك حكاية أخرى. وذات يوم ذهبت إلى القاضي محمد محمود الزبيري وقلت له: إنني لم أهاجر إلى عدن، لأشتغل في مطبعة بأجر زهيد. إنني لبيتُ دعوتكم وأنت زعيم من زعماء الأحرار، وموقعك من الحركة زعيم ورئيس «الجمعية اليمنية الكبرى»، وكان المفروض أن أنضمَّ إلى هذه الجمعية، ولكني لا أجد إلا اسم الجمعية؛ أما الجمعية فلا أجد لها وجودا، فهل يُعقل أن تستمرّ حركة الأحرار بهذا الشكل؟ أين النظام الأساسي للجمعية؟ وأين هيئتها الإدارية، إذا كان لها هيئة؟ ولماذا لا تجتمعُ في أوقات معينة؟

ونظر إليّ الزبيري نظرة خُيّل لي أنها حزينة وأجابني: «يا عزّي.. أرجو ألا تثير هذا الآن، اترك الأمور للأيام. إن الأستاذ لا يطيقُ إثارة هذا الموضوع. إن هذه الإثارة تسيء إلى موضوع مال الجمعية أو الجانب المالي للجمعية، وهذا الجانب يعتبره الأستاذ من المحرّمات؛ لأنه مسؤول عن سلامة المتبرعين للحركة، وعن أسرار هذا الموضوع، حتى لا يتعرضوا للأذى في البلاد». قلتُ له: إننا لا نريدُ معرفة أسماء المتبرعين، ولا نطلب من الأستاذ كشفا بالمبالغ أو بالأسماء، إننا نريد أن يكون للحركة -كتنظيم سياسي أو كحزب سياسي- نظام أساسي، وهيئة تأسيسية وهيئة

الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان

إدارية، وستقبل هذه الهيئة ما يقدّمه الأستاذ نعمان من المال دون أي سؤال عمّن دفع، ولا كم المبلغ المدفوع، ستكون ذمة الأستاذ هي المقبولة بدون حساب أو محاسبة. إننا نريدُ أن نتحوّل من «خُبرة» أو أصحاب إلى عناصر منظمة في حزب سياسي له هيئات تنظيمية. إنني قد عرفتُ الأسباب التي أدت إلى تمزّق حزب الأحرار، ولا يوجد في الجمعية اليمنية الآن إلا أربعة شبه متبرعين للنشاط السياسي هم الأستاذ، والقاضي وعبد اللّه عبد الوهاب نعمان ومحمد الفسيّل، وحتى هؤلاء الأربعة أصحاب، وليسوا عناصر في تنظيم سياسي. قال لي: حاول بلطف وحكمة مع الأستاذ.

وذهبت إلى الأستاذ. كنتُ أعرف أن أفضل وقت للجلوس معه هو بعد العصر؛ لأنه يكون قد تغدّى، ونام نوم القيلولة، وأصبح مستريحا، وبعد أن جلستُ في مكتبه الصغير في المطبعة قلتُ له: كيف الطبيعة يا أستاذ؟ قال: الطبيعة شرقي -كما تقولون- موتشاه؟ قلت: أشا أردها غربي، إذا سمحت. قال: غربي بفلوس وإلا بدون فلوس؟ قلت: بدون فلوس. قال: بدون فلوس تفضل. قلتُ له: هل أنا عضو في «الجمعية اليمنية الكبرى»؟ قال: طبعا.. ما تشوفش حالك عامل مهم في مطبعة الجمعية، مطبعة «النهضة اليمانية» التي ستنهضُ بنا وباليمن كلها؟ قلتُ له: أنت زعيم الجمعية، وأنا عضو فيها؟، قال: يا أستاذ أنا زعيم اليمن؛ أما زعيم الجمعية فهو القاضي محمد محمود الزبيري. إذا كنتَ تريد أن تتكلم مع زعيم الجمعية «روح» إلى زعيمها، وإذا كنتُ تريد أن تتحدث مع زعيم اليمن «أهوه قدامك»، وضحك وضحكتُ معه.

قلت له: أريدُ أن أطلع على النظام الأساسي للجمعية، وأنت سكرتيرها أو أمينها العام لا أدري. قال لي: يا أستاذ هذه شكليات، الثقة هي الأساس، إذا لم تثق فلا

قيمة للنظام الأساسي وغير الأساسي. قلتُ له: لنجعل الثقة تحكم الجمعية، نثق بالأستاذ وبذمة الأستاذ، ولا نطلب أسماء المتبرعين، ولا كم مبالغ التبرعات، ونثق بما يكشفه قليلا أو كثيرا، ويكون له مطلق الحرية في التصرف به، على أن يكون نظام الجمعية هو المرجعية. قال: ما دام الأمر هكذا فلا لزوم للتعب، ثقوا بي وبس، فهمت يا عزّي أو ماشي؟، قلتُ له: ماشي.. وودّعته ومشيت ونحن نضحك.

ودّعتُ الأستاذ، وذهبتُ إلى عبد اللّه عبد الوهاب نعمان، وقلت له: اليوم أنت ضيفي على العشاء في مطعم دي لوكس. قال: أولا الدعوة مقبولة مع الشكر لي، لأني قبلت الدعوة، وثانيا ما هي المناسبة؟، قلتُ له: عشاء نصارى.. أي عشاء عمل. قال: «مش» مهم نصارى أو يهود أو «بانيان»، المهم العشاء، وفي مطعم دي لوكس فتحت عليه الموضوع، وحكيتُ له الموقف مع الزبيري والموقف مع الأستاذ. قال: وكمان حكيت للأستاذ؟ احمد الله انه لم يربطك إلى عجلة المطبعة، هل يقبل الإمام يحيى الاعتراف بدستور، أو يقبل تشكيل حكومة للإصلاح؟! إذا قبل الإمام ذلك فإن الأستاذ ربما سيقبل النقاش في نظام أساسي، وهيئة تأسيسية أو إدارية للجمعية، أنا عندي خطة ستعرفها فيما بعد.

وهكذا ودّعتُ عبد اللّه عبد الوهاب بعد أن دفعت قيمة العشاء، وأمري لله، وذهبت إلى غرفة الفرجة على الرايح والغادي، ووجدت أنني قد أصبحت وحدي فيها، ووحدي المجنون بإيجاد جمعية يمنية كبرى حقيقية، وأخذت القلم وبدأت أكتب أسماء الأحرار الظاهرين من التجار، بلا خوف من الإمام: محمد علي الأسودي- محمد أحمد شعلان- عبد القادر علوان- عبد الرحمن عبد الرب- عبد اللّه سلام - الدحان، وكلهم من أصحاب الأستاذ، وقرّرتُ أن أجرّب حظي معهم، وناقشتُ كلَّ واحد على حدة، وكلهم تهرّبوا واعتذروا بأعمالهم التجارية، وكان الأسودي وحده هو الذي أبدى نوعا من الاقتناع، بشرط موافقة الأستاذ والزبيري معا. وقرّرتُ السكوت عن الموضوع إلى أن تأتي فرصة مناسبة، وأنا أشعرُ أن العمل السياسي بهذه الطريقة مهزلة وعبث.

تنظيمات وتجمعات الأحرار

بحسب علمي فالأحرار لم يكونوا قد أنشأوا لهم تنظيما أو تنظيمات سياسية، ولكنهم كانوا يشكّلون مجموعات، كل مجموعة تتكوّن من أصدقاء وأقارب، تربطُ بينهم روابط الصداقة والمشاعر والتقارب الفكري، والشعور بالسخط على الحكم الإمامي المتخلف القائم على الظلم والسحق والتدمير. وتلك الحالة جعلتني أتساءل: لماذا عجز الأحرار في الداخل والخارج عن تجميع أنفسهم في حزب سياسي أو تنظيم وطني؟ وبدأتُ أستعرضُ حركاتهم منذ البداية، ووجدتُ أنهم من البداية حتى النهاية ظلّوا مجموعات متعددة صغيرة تتكوّن بحكم صلة الرحم، أو صلة الصداقة، أو صلة المهنة، أو صلة «متكا»[1] و«قات»، وكانت تقارب بينهم مشاعر وطنية وأفكار لتغيير الواقع، دون أن تتحوّل تلك الأفكار إلى تنظيم أو حزب سياسي. وكانت مجموعة محمد عبداللّه المحلوي هي البداية، فقد كان أول من تنبّه ونبّه إلى خطر وصول الإمام يحيى إلى حكم اليمن قبل دخول الإمام إلى صنعاء وبعد دخوله.

- **المفكر محمد عبد اللّه المحلوي وتلاميذه:** ربما كانت بداية هذه الظاهرة منذ أول يوم دخل فيه الإمام يحيى صنعاء عقب الحرب العالمية الأولى، تقريبا في عام 1922، وقد استقبل الناس في صنعاء وما حولها إمامهم استقبال البطل المقدّس، باستثناء عدد قليل كان متأثرا بأفكار ثوار أتراك، يؤيدون حزب الاتحاد والترقّي الذي أسقط السلطان عبد الحميد خان فيما بعد، وكان المحلوي أهم شخصية معارضة للإمام حينذاك، وهو الثائر الأول، أو الحر الأول الذي واجه بمفرده في البداية المجتمع الصنعاني، وتمكّن من استقطاب عدد من تلاميذه الذين اعتنقوا أفكاره، وكان من تلاميذه السيد أحمد المطاع وشقيقه محمد، والعزي صالح السنيدار، وعبدالسلام صبرة. وكان المحلوي يدخّن السجائر، ولذلك انتشرت عنه في صنعاء كلمة «نعوذ بالله من المحلوي وسيجارته». وقد سجنه الإمام حتى مرض ولم يخرج إلا ليموت، ونستطيع أن

(1) المتكا يشير لمسند خاص يقوم متعاطي القات بالاتكاء عليه، والجمع منه «متاكي».

نقول: إن هذه أول مجموعة من مجموعات الأحرار. وتركّزت أفكار المحلوي في العمل على إقناع الإمام يحيى بتبني دستور للدولة، يضمنُ الحريات للإنسان، ويحدُّ من سلطة الإمام عن طريق وجود مؤسسات دستورية، تتمثّل في مجلس للشورى، يحمي الدستور، وحكومة مسؤولة تنهض بالبلاد.

المفكر محمد عبد اللّه المحلوي
وعلى يساره تلميذه أحمد المطاع
وعلى يمينه ربما السيد حسين الحبشي

- **مجموعة محرري مجلة «الحكمة»**: أما المجموعة الأخرى -ولعلها امتداد للمجموعة الأولى- فقد تكوّنت تكوينا شبه رسمي؛ إذ أذن الإمام لابنه سيف الإسلام عبد اللّه بتكليف السيد أحمد عبد الوهاب الوريث من علماء ذمار المستنيرين، والسيد أحمد المطاع، والقاضي عبد اللّه العزب، وهو عالم مستنير ليكوّنوا لجنة تعنى بكتابة تاريخ اليمن، ثم تحوّلت اللجنة إلى هيئة تحرير لأول مجلة يمنية اسمها «الحكمة». وصار هؤلاء ومجلتُهم منارة تضيءُ عقول كثيرين من الشباب، وسرعان ما حاول الإمام إخماد تلك الشعلة.
- **آل السياغي.. أمة من الأمم**: كان في صنعاء أسرة عميدها القاضي أحمد السياغي، وقد أنجب أولادا وبناتا، وربّاهم تربية علمية ودينية وأخلاقية مستنيرة سامية، تؤمنُ بالحرية والإصلاح والمثل الوطنية، وكانت هذه الأسرة رجالا ونساء من الأحرار، وتعرضوا لعسف الإمام وولي عهده، واستقبلتهم السجون. وفي

من اليمين القاضي محمد بن علي الأكوع والقاضي عبد الرحمن بن يحيى الإرياني والقاضي عبد الله بن محمد الإرياني

عام 1955 عقب سقوط حركة الثلايا والإمام عبد اللّه بن يحيى حميد الدين، قطع الإمام رأس القاضي الشهيد البطل يحيى السياغي، ورأس أخيه حمود، الذي لم يشارك في أحداث التمرد العسكري ضد الإمام أحمد في تعز، بل كان في مدينة إب، وعندما راجع بعض الأشخاص الإمام في أن حمود السياغي ليس له دخل فيما حدث قال لهم: «إنه ثقيل دم»، ونجا من الإعدام أخوهم القاضي محمد السياغي الذي سُجن في سجون حجة منذ سقوط حكومة الدستور 1948، وحتى أطلقنا البدر جميعا من سجون حجة عندما كان الإمام محاصرا في تعز في مارس عام 1955، وقد تولّى في العهد الجمهوري مناصب عالية في الدولة حتى مات بعد قيام ثورة 26 سبتمبر 1962، وقيام الجمهورية بسنوات.

- **مجموعة آل الإرياني وآل الأكوع**: وعلى رأسهم القاضي عبد الرحمن

الإرياني، وإخوانه وبعض أقربائه، ويُعتبر القاضي أحمد عبد الرحمن المعلمي جزءا لا يتجزأ من هذه المجموعة. وقامت بينهم وبين القاضي محمد علي الأكوع وأخيه القاضي إسماعيل بن علي الأكوع علاقة صداقة وتقارب في الأفكار والمشاعر، حتى صاروا مجموعة واحدة. وقد تحوّلت هذه المجموعة فيما بعد إلى تنظيم وطني باسم «جمعية الإصلاح»، وانضمّ إليهم أشخاص آخرون من الأحرار، ومنهم الأديب الشاعر محمد أحمد صبرة من مدينة إب، وبعض آل الحداد من إب. وتم وضع نظام أساسي وإداري، وأهداف وطنية تهدفُ إلى إحداث تغيير في نظام الحكم، وهناك من كان يسمّي هذا التنظيم «حزب الأحرار». وأعتقد أن هذه «الجمعية كانت أول تنظيم للأحرار»، ولكن ظلّ طابع الصداقات الشخصية والعلاقات الأسرية يسيطرُ على ذلك التنظيم. وأشيرُ هنا إلى أن القاضي العالم الأديب الشاعر علي بن يحيى الإرياني شقيق القاضي عبد الرحمن الأكبر كان أول من نبّه الإمام، ونبّه الناس إلى الخلل القائم في حكم الإمام يحيى، شعرا ونثرا عقب هزيمة الإمام في الحرب اليمنية السعودية عام 1934.

- **حزب الأحرار في عدن 1944**: كل تلك التجمعات في الداخل وغيرها مما لم أذكره هنا كانت تمهيدا لقيام حزب الأحرار في عدن الذي كوّنته عناصر من مجموعة حاشية ولي العهد أحمد في تعز؛ فبعد فرار الزبيري والنعمان وتبعهما الموشكي والشامي، وسبق الكل مطيع دماج وعناصر أخرى لم أعد أذكرها قام هؤلاء بتأسيس وإعلان قيام حزب الأحرار، وأيّدته مجاميع كثيرة من التابعين للنوادي القروية في عدن، ولكن حزب الأحرار هذا كان موجودا في الأوراق، وفي شخصية الأستاذ أحمد محمد نعمان، وسرعان ما تمزّق هذا الحزب، كما أن سلطات الاستعمار الإنجليزي في عدن منعت الحزب من أية ممارسات سياسية، بحجة أن قانون المستعمرة لا يسمح بقيام أحزاب سياسية، ولكنه يسمح بقيام جمعيات أهلية.
- **الجمعية اليمنية الكبرى**: وبعد مرور فترة زمنية من إلغاء حزب الأحرار وعودة

الـموشكي والشامي إلى ولي العهد، وبقي الأستاذ نعمان والقاضي الزبيري في عـدن يعـمـلان على تحـريك الـحـركـة الوطنيـة، وتقـدمـا بطلب إلى السلطات الاستعمارية في عدن للسماح لهما بتأسيس «الـجمعية اليمنية الكبرى» لتحلَّ محل حزب الأحرار، وتحايلا في هذه الـمرة على السلطات بطلب تأسيس جمعية وليس حزبا. وقد وصفوها بالكبرى على أساس أنها ستضمُّ الـجمعيات القروية والـمناطقية اليمنية في عـدن، ولكن كـان طابع الـجـمعيـة هذه طابعا سياسيا شاملا، وقد أصدرت هذه الـجمعية أو على الأصح أصدر الأستاذ نعمان صحيفة «صوت اليمن»، لتعبّر عن «الـجمعية اليمنية الكبرى»، وكان لذلك صدى كبير في اليـمن الشـمـالي، وحتى في اليمن الـجنوبي، جعل كل الأحـرار في الداخل والـخـارج ينتظرون التـغـيـيـر منذ صـدور أول عـدد من «صـوت اليـمن». ثم كـان انضـمـام الأمـيـر سـيف الـحق إبراهيم بن الإمـام يحيى إلى «الـجـمـعـيـة اليـمنيـة الكبرى» زلزالا في كيان أسرته بيت حميد الدين الـحاكمة، وإنعاشا لآمال كل الأحـرار في الداخل والـخـارج، وكل الـسـاخطين على الـحكم الإمـامي، وكل الـمتطلعين إلى التغيير أو الاستيلاء على الـحكم. وكان ما كان بعد ذلك من قيام ثورة 48 الدستورية، ثم سقـوطها، ثم قيـام حكم الإمام أحـمـد الدموي، ثم بدأت الثورة تتحوّلُ من ثورة ضدّ الإمام إلى ثورة جمهورية ضد الإمامة والإمام معا، حتى انفجرت ثورة 26 سبتمبر الـجمهورية، لتحلَّ محل الـملكية والإمامة.

- **الأمـيـر إبراهيم ينضم لصفـوف الأحـرار**: وبعـد انتقال الأمـير إبراهيم إلى فندق إحسان الله أعلن انضـمامه إلـى الـجمعية اليـمنية الـكبرى، وإلى صفوف الأحـرار، وربما كان هذا الإعلان في يوم 27 نوفمبر 1946؛ لأن «صوت اليمن» نشرت خبر انضـمـامـه إلى الأحـرار في اليـوم التـالي، في عـددها الرابع. وقد حـيّـاه القـاضي الزبيـري رئيس التحـرير، وكـان لانضـمـام الأمـير إبراهيم صـدى واسع في الداخل وفي الـخارج. وزاد من اهتـمـام «الإخوان الـمسلمين» في مصر بقـيـادة مرشـدهم حسن البنا باليمن وبقضية الأحـرار. ولأهمية هذا الـحدث سوف أوردُ تفاصيل خلفية خروجه على أسرته، وآثار خروجه في تقوية حركة الأحرار، وفي التعجيل

بقيام ثورة 1948 الدستورية، كما رواها صديقي أحمد محمد الشامي في كتابه «رياح التغيير في اليمن»، وكما رواها الأخ علي محمد عبده في كتابه: «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»، وكما عشتُها وعايشتُها مع الأمير إبراهيم في عدن، وكنتُ قد عرفتُ من قبل شيئا من أوضاع أولاد الإمام يحيى، وهم سيوف الإسلام: علي ويحيى والحسين وإبراهيم، وإسماعيل، والمعروف أن هؤلاء لم يعيّن الإمام أيا منهم، لينوبوا عنه في ظلم الرعية كالسيف أحمد في تعز، والحسن في إب، وعبد اللّه في الحديدة من قبل، وإن لم يُعرف عن عبد اللّه أنه كان ظالما، وعندما تولّى وزارة المعارف أبدى تعاطفا مع المستنيرين الذين كانوا يطالبون الإمام بإصلاحات تُحسّن الأوضاع في اليمن. أما علي، وإبراهيم، وإسماعيل، ويحيى فقد عُرف عنهم التعاطف مع المستنيرين الأحرار، وتقديم النصائح لأبيهم الإمام يحيى بضرورة القيام بإصلاحات في أسلوب الحكم، وتخفيف المظالم والضرائب التي أرهقت المواطنين، ودفعتهم إلى الهجرة خارج الوطن. كما أنهم كانوا يُعتبرون من المستنيرين الذين لا يرتاحون إذا حضروا مجالس الإمام، وهو لا يرتاح إلى مجالستهم، لكثرة ما يتلقّى من نصائحهم، ومحاولتهم إقناعه بإطلاق العلماء المستنيرين من السجون.

ونسوقُ مثلا على ذلك ما قدّمه السيف علي إلى أبيه في أواخر عام 1364هـ-1945، فقد قدّم إليه نصيحة طويلة أبدى فيها آراءه في نظام الحكم، وكيف يجب أن يكون، وما يجب أن يعمل، وأنذره فيها بسوء العاقبة، ومغبة الأمر إن لم يُدخل إصلاحات على حكمه وإعفاء الرعية من البواقي، وإرهاقهم بالعسكر والتنافيذ، والكشافين والمخامنة، وخلص في آخرها إلى ضرورة إطلاق المساجين، وبعد يومين رجع الجواب من الإمام بما لفظه: «حرسكم الله وعافاكم، قد تأمّلنا إشارتكم. وكيف يكون ما رأيتم»؟ وقد استغلّ الأمير علي هذا الجواب، وعرضه على القاضي عبد اللّه العمري وزير الإمام، وعرض عليه النصيحة، كما عرضها على أخيه الحسين وإسماعيل وإبراهيم.. وأجاب على الإمام برسالة جاء فيها: والذي أراه مع الإخوان أن يكون تأسيس ما يأتي:

أولا : تأسيس مجلس شيوخ، تختارُ كل قبيلة شيخها أو زعيمها للنظر في مصالح بلادهم، ويرفعون كل أمر يعود إلى قبائلهم بالفلاح والنجاح إلى رئيس الوزراء الذي ترضونه لهذا المنصب.

ثانيا: يُختار مجلس شورى، أو يُنتخب من الأكفاء.

ثالثا: تشكيل حكومة من الكفاءات، تنفذ خطة شاملة للإصلاحات.

رابعا: إبعاد إخوتي سيوف الإسلام عن تولي المناصب الوزارية؛ إذ ليس منا كفؤ لها.

خامسا: العفو عن البقايا والأمور التي رفعتُها لجلالتكم آنفا. ثم أضاف في رسالته ما يلي:

العلامة زيد الديلمي
رئيس الاستئناف

وهذه أهم الضروريات، فإني لم أرفع مثل هذا إلا بعد احتكاك بالناس، ومعرفة ما تنطوي عليه نفسياتُهم، ونحن في الخطر المحقق، لولا أن الله امتنّ علينا بالبقاء مع عافيتكم. وليس من الرأي السديد أن تبقى الحال كما هي، ونحن ساكتون متهيبون و(إِنَّكَ مَيِّت وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)، فارحمونا، واذكروا متاعبكم الجبارة التي بذلتُموها في إقامة هذا البنيان المشيد الذي نخشى أن ينهار في أقرب مدة إن فارقتمونا، ومعاذ الله.. أطال الله بقاءكم.. وقد أجاب عليه الإمام «سيكون الخبر شفاها».. ثم ذهب سيف الإسلام علي إلى أبيه الإمام، وتباحث معه في الموضوع، فأجابه الإمام مُعتذرا: «بأنه متعب والأحسن تتراجع مع إخوتك والعمري». ويظهرُ أن الأمير علي حاول إيجاد ضغوط أخرى على أبيه فذهب إلى حُجة الإسلام زيد بن علي الديلمي، رئيس الاستئناف، وأطلعه على ما بينه وبين الإمام وموافقة إخوته والقاضي عبد اللّه العمري على ذلك، وشجعه على تقديم

نصيحة من العلماء للإمام؛ لأن كلمة العلماء سيكون لها قبول وأثر في إقناع الإمام أكثر من نصيحة أولاده، وصادف هذا التشجيع هوى في نفس حُجة الإسلام، فدعا إليه هيئة محكمة الاستئناف، وأقنعهم بتقديم نصيحة للإمام.

- **نصيحة العلماء تغلق محكمة الاستئناف وتسجن قضاة المحكمة**: قدم العلماء نصيحتهم بعنوان: «نصيحة كبار علماء صنعاء لجلالة الإمام» وبعد الديباجة التي تبرر -بلطف- تقديم النصيحة التي تدعو إلى تنفيذ ما يلي:

1. جعل الواجبات المالية أمانة على أربابها، كالواجبات الدينية، يؤديها الزُّرّاع والملاك بطيبة نفوسهم، ويحلف ذوو التهم، فإذا تفضّلتم بذلك فقد أنقذتم رعيتكم من صلف الخرّاصين، وظلم الكشّاف، وعنت العسكر الذين هم أكبر معاول الهدم والخراب.
2. إسقاط الرسوم الجمركية المقررة غير الشرعية، والمنهي عنها مثل المكوس وزكاة الباطن، والضرائب التي كنتم تنأون وتنهون عنها، وهي التي يسمونها «عائدات بيت المال» ويلتزمها الجلادون بمبالغ محدودة، ويؤذون بها خلق الله باسمكم، وقد أغناكم الله عنها.
3. العفو تفضُّلا عن البقايا المزمّنة التي أرهقت الرعايا، وألجأتهم إلى الخروج من أوطانهم، راغمين لما حلّ بهم، والتحنُّن على البقية الباقية، والرفق بهم هو الركن الركين لاستجلاب القلوب، واجتذاب الذين ودّعوا اليمن وداع اليأس من الأوبة والعودة.
4. منع كل ذي سلطة من سيوف الإسلام والأمراء والعمال عن الخوض والتدخل في التجارة مع الرعية، ومزاحمة الناس بالمناكب في معايشهم ومكاسبهم ومهنهم، فقد استاء لهذه الحال الحاضر والبادي. ونهى عن ذلك الشارع الحكيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ حيث نهى عن تجارة ذوي السلطان في الرعية، وتوعّد وأنذر من لم ينته عن الإضرار بالمسلمين بما ليس تخفى عنه سعة معلوماتكم، وهذا من أهم الضروريات التي يجبُ الالتفات إليها.
5. العفو منّة وتنازلا عن المعتقلين في «حجة» فقد نالت العقوبة منالها، وأصبحوا في حالة يرثى لها، ولإن أحسنتم إليهم ما تصدع في قلوبهم فستجدونهم كعادتهم من خيرة رجالكم «ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا».

6. وهو آخر ما نرجو من جلالتكم: النظر في تحسين أحوال أرباب الدوائر الحكومية كلها بلا استثناء بزيادة المعاشات سدا لباب ذريعة الرشوة، ونهب الضعفاء، وليخلصوا لكم ولدولتكم في أعمالهم، وينصحوا فيما يرفع ويعلي كلمتكم.. وتأمّلوا ما من أيّة في القرآن الكريم فيها الحث على العمل إلا وتلتها أخرى فيها المثوبة والجزاء.. وقال بعض الحكماء «اغن من وليّته عن السرقة فليس يكفيك من لم تكفه». وختاما نرجو من الله أن يديم عافيتكم، ويبصركم بالسداد، ويوفقكم للرشد.

المخلصون الناصحون: زيد بن علي الديلمي، عبد اللّه المجاهد «الشماحي»، حسن بن علي المغربي، ناصر بن حسن الدرة، قاسم بن إبراهيم، زيد بن محمد الحوثي، علي بن محمد إبراهيم، محمد ابن إسماعيل عشيش، عبد اللّه بن علي بن إبراهيم. وقد قُدّمت هذه النصيحة للإمام في أوائل عام 1366هـ –1946، ونلاحظُ أن نصيحة العلماء ركزّت على إصلاحات عملية إجرائية، بينما ركزّت نصيحة سيف الإسلام على بناء مؤسسات الدولة لأن ثقافة العلماء المذكورين ثقافة دينية تقليدية، بينما ثقافة علي بن الإمام متأثرة بأفكار العصر المستنيرة. وقد نشرت «صوت اليمن» في عددها الرابع والخامس بتاريخ 28 نوفمبر 1946، و10 ديسمبر 1946 على التوالي النصيحتين..

وعندما قارنتُ الآن وأنا أكتبُ هذه الذكريات بين نصيحة الأمير علي بن الإمام يحيى، وبين الميثاق الوطني المقدس وهو دستور ثورة 48 الدستورية استغربت كيف لم يستفد الأحرار عندما كانوا يصوغون الميثاق الوطني المقدس من نصيحة الأمير علي الذي اقترح على الإمام إنشاء ثلاث مؤسسات للحكم، هي مجلس شيوخ القبائل، ومجلس شورى من الأكفاء، وحكومة «مجلس وزراء»، ولا شك أن مجلسا من مشايخ القبائل مهم في بلد كياناتها الاجتماعية قبلية، وهذا لم يرد في الميثاق الوطني. وقد يقول قائل إن الأحرار أغفلوا ذلك عمدا؛ لأن هدفهم تحويل التكوينات القبلية إلى مجتمعات مدنية، وهذا تفكير سليم لو أن المجتمعات القبلية مجتمعات هشة وليست عريقة قائمة منذ آلاف السنين، ولها أعرافها وعاداتها؛ بل وقوانينها. وها نحن بعد نصف قرن من قيام ثورة 26 سبتمبر 1962، وبعد تجارب دستورية طويلة، وبعد مرور أكثر من عشرين عاما من قيام الوحدة اليمنية، ومن صدور مبادئ وضوابط دستورية وقوانين ومؤسسات دستورية، وتعددية سياسية نرى أن مشايخ القبائل قد

سيطروا على مؤسسات الدولة الدستورية كاملة، وأصبحت العناصر المدنية المثقفة مهمّشة في مجلس النواب، أو أدوات لخدمة مصالح القبيلة والعسكر الذين تسيطر القبيلة عليهم؛ بل إن الحكومة تحوّلت إلى أداة تدعم القبيلة والعسكر.

إن تغيير المجتمعات لا يأتي بالتمنّي أو النوايا الحسنة، أو بالأفكار السطحية. إن التغيير يأتي بالتحايل على الواقع الاجتماعي العريق لا بتجاهله أو الاصطدام به، ولذلك فإن نصيحة الأمير علي بن الإمام كانت أعمق في فهمها وتقييمها للواقع اليمني، ولو اتبعنا هذا من قبل لما سيطرت القبيلة على مؤسسات الدولة، كما أن نصيحة السيف علي لوالده الإمام بعدم تولي إخوته جميعا مناصب حكومية في الدولة، مسألة مهمة، وهذا ما لم يرد في الميثاق الوطني المقدس لثورة 48 الدستورية.

أنا لا أعرف ماذا دار بين الإمام وأولاده، وعلى رأسهم الحسين وعلي، إلا أنني أحتمل أن الإمام قد حاور أولاده وأقنعهم بضرورة الاستيلاء على مناصب الدولة، بدلا من أن يتولّاها غيرهم؛ ولذلك رأيناه يعيّن ولده عبد اللّه وزيرا للخارجية، ويعيّن ولده إسماعيل وزيرا للمعارف، وأنشأ وزارة سماها وزارة الاقتصاد، وعيّن ابنه سيف الإسلام علي وزيرا للاقتصاد، وولّى سيف الإسلام القاسم وزارة الصحة، وكان الإمام في الماضي لا يسمي الوزارات وزارات، وإنما يسميها «نظارة»، ويسمّى من يتولّاها «ناظر»؛ ولذلك كان ابنه سيف الإسلام إسماعيل أو عبد اللّه يُسمى «ناظر المعارف» بدلا من وزير المعارف، وهكذا. أما رد الفعل الإمامي على نصيحة العلماء فقد كان في منتهى العنف، فأمر باعتقال زيد الديلمي في منزله لا يخرج منه، وأرسل عددا من العُكفة، ساقوا بقية العلماء إلى سجن غمدان، وأرسل نجارا يغلق أبواب محكمة الاستئناف، بتسمير قطع من الخشب في أبواب المحكمة، وبقي زيد الديلمي في بيته، وبقي الآخرون في سجن القلعة أياما، حتى هدأت غضبة الإمام يحيى، ووجد أن تصرفه أحدث ردّ فعل عند أكثر الناس، وتدخّل عدد كبير من العلماء ومن جلساء الإمام، بمن فيهم وزيره عبد اللّه العمري، وكذلك عبد اللّه بن أحمد الوزير وغيرهم، ولذلك أمر بإطلاقهم، ولكن محكمة الاستئناف ظلت مغلقة؛ لأن الناصحين له كانوا هم قضاة محكمة الاستئناف، وهم من أكبر علماء اليمن وأشهرهم. وأكاد أجزم أن حُجة الإسلام زيد الديلمي هو الذي صاغ نصيحة العلماء للإمام؛ لأن نفسه الصريح والجريء بارز في تلك النصيحة.

وبعد الإطلاق ذهب زيد الديلمي إلى ذمار غاضبا، ولما ألحّ عليه الإمام بالعودة

إلى صنعاء كتب قصيدة اعتذار، أرسلها إلى الإمام يقول فيها:

وإليكم من مبلغ
عني الإمام المؤتمن
صنعاء ما صنعت بنا
أوهت قواي والبدن

ولكن الإمام يحيى لم يسعده وأجاب عليه بأبيات على وزنها استهلها بقوله:

عودا بما عودتنا
يا أيها الظبي الأغن
أرضعتنا الوصل المشوب
بكل أفراح ومَن

حتى قال:

زيد . . وما زيد لقد
زانت به أرض اليمن
علما وإمضاء
لأحكام الرسول المؤتمن
أكرم بمقدمه السعيد
لقصد إحياء السنن
ورضاء خالقنا وإن
سخط العذول به . . وإنْ
في شهرنا الآتي يكون
قدومُه مستعجلا
فيما علمتم يا ضياء
الدين لا عدم يظن

وهكذا حدّد الإمام يحيى لعودة زيد الديلمي إلى صنعاء شهرا واحدا.

الفصل الثامن
تصدُّع قصر الإمام: انضمام الأمير إبراهيم إلى الأحرار

في الربع الأخير من عام 1946، كنا نعيش في حالة من الركود والتبلد والقرف، لا شيء إلا مطبعة قديمة، ربما من مخلّفات الأتراك تُطبع بها صحيفة بدائية، تتكون من أربع صفحات، وأحيانا من ثمان صفحات، نهاجم فيها الحكم الإمامي في الشطر الشمالي من اليمن، ونطبّق في نضالنا الوطني حكمة الأستاذ نعمان: «النضال الوطني جريدة ومنشور، وتبرعات، واشتراكات، وبس، وما جاء من نفسه حيّا به». كنتُ أسكن في غرفة أرضية لها نافذة على الشارع تقع في عمارة من ثلاثة أدوار، عليها لوحة كبيرة كُتب عليها «الجمعية اليمنية الكبرى»، كانت اللوحة وحدها هي الموجودة، إذ لا توجد لا جمعية يمنية كبرى أو صغرى، ولا شيء إلا الدار واللوحة وحارس عجوز، وشاب اسمه محمد عبد اللّه الفسيّل. كنتُ أسكن في الغرفة الأرضية واللوحة تطلُّ من فوقها، أتفرّج مع اللوحة على حركة الناس والسيارات في الشارع، وأطارد الذباب الذي يدخل الغرفة من النافذة، ولا يعرف الدخول إلى البيوت من أبوابها.

وفجأة.. بدأت رياح الثورة تهبُّ من قصر الإمام يحيى في صنعاء نفسه، فتطرد الركود والتبلد من «زريبة» المطبعة التي نصدر بها جريدة «صوت اليمن» الأسبوعية، فبعد مضي نحو شهرين من وصولي إلى عدن استدعاني القاضي محمد محمود الزبيري وقال لي: إن شخصية يمنية كبيرة من بيت حميد الدين ستنضمُّ إلى الأحرار في عدن، وسيكونُ لهذا ضجة كبيرة في الداخل والخارج، وتقفز بحركة الأحرار إلى النصر إن شاء الله. قلتُ له: إذا لم يكن الأمير إبراهيم الموجود الآن في أديس أبابا، فإن الأمير إسماعيل هو الذي يمكن أن ينضم إلى الأحرار؛ لأنه كان قد حاول الفرار في شهر ذي القعدة عام 1363هـ فبراير 1945، يرافقه الشيخ صالح مرشد المقالح،

وقد تم احتجازهما في قعطبة حينذاك. وحينها أبرق ولي العهد لأخيه الحسن في مدينة إب ألا يتعرض لأخيه إسماعيل، ويعجّل إرساله إلى تعز معززا مكرّما، وقد وصل إلى تعز واستقبله ولي العهد استقبالا حافلا، وأكرمه بكرمه المعهود، وكنتُ حينذاك في تعز، ونشأت بيني وبين الأمير إسماعيل علاقة استلطاف، وعند عودتي إلى صنعاء رافقته، وبقينا في مدينة إب أياما في ضيافة سيف الإسلام الحسن، ثم واصلنا السفر إلى صنعاء. قال الزبيري: ربما يلحق إسماعيل بأخيه إبراهيم. ثم أردف قائلا: «علينا أن نثير في صحيفة صوت اليمن موضوع امتناع ولي العهد عن زيارة أبيه في صنعاء، والإيحاء بأن هذا الامتناع تمرد غير معلن على أبيه، واستقلاله بلواء تعز، انتظارا لموت أبيه، وذلك بقصد إثارته ودفعه للطلوع إلى صنعاء، وإذا تأخر أثار الشكوك في نفس أبيه وإخوانه الأصغر منه. وفعلا عدتُ إلى المطبعة، وكتبت مقالا بعنوان: «تحقيقات صوت اليمن» لماذا لا يسافر سيف الإسلام أحمد إلى صنعاء، ولا يزور جلالة الإمام؟ وقد نُشر المقال في العدد الرابع من صحيفة «صوت اليمن»، يوم الخميس بتاريخ 5 محرم 1366هـ- 28 فبراير 1946.

سيف الإسلام الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى حميد الدين

وفي العدد نفسه نشرت الصحيفة خبر وصول سيف الإسلام الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى إلى عدن، في يوم الأربعاء 26 الحجة 1366- 24 نوفمبر 1946، ونزوله في قصر سلطان لحج، الأمير علي عبد الكريم فضل الذي استقبل الأمير إبراهيم في مطار عدن، قادما من أسمرة، مع مجموعة من الشخصيات وأعيان اليمن وعدن، في مقدمتهم الشيخ صالح جعفر والشيخ جازم محمد الأغبري، والخادم غالب، والشيخ

محمود عقيل فكري، والحاج عبد الكريم حسن علي، والأستاذ أحمد محمد سعيد الأصنج والحاج محمد علي الأسودي، والشيخ أحمد علي الجبلي العدني، والحاج أحمد عبده شولق والوجيه عبد القادر مهيوب. ثم امتطى الركب السيارات إلى قصر السلطان علي عبد الكريم؛ حيث نزل سموّ الأمير ضيفا كريما مع سكرتيره الخاص الأستاذ أحمد البراق، وقد أقام سموّه في القصر السلطاني ثلاثة أيام، ثم انتقل منه يوم السبت 27 ذي الحجة -1366هـ- 24 نوفمبر 1946، إلى فندق إحسان الله في عدن، شاكرا للسلطان كرم الضيافة.

وانضمّ الأمير إبراهيم إلى الأحرار بعد أن انتقل من قصر سلطان لحج إلى فندق إحسان الله، وكان إعلان انضمامه في يوم 30 نوفمبر 1946، وقد تصرّف القاضي الزبيري بمنتهى الذكاء والحكمة، واحتاط للمستقبل، فتفاهم مع الأستاذ البراق على أن يكتب الأمير بخطه رسالة إلى رئيس تحرير صحيفة «صوت اليمن»، يعلنُ فيها انضمامه إلى حركة الأحرار، وبهذا يكون الأمير هو الذي أعلن ذلك، ولا يستطيع أن يزعم صدوره من غيره.. بقي الاحتمال الثاني، وهو أن يكون وضع الأحرار المتواضع المغاير لما في خيال الأمير سببا في عودته إلى أسرته من أول فرصة. وقد جاءت هذه الفرصة في شخص صديقي منذ الطفولة أحمد محمد الشامي الذي وصل من تعز إلى عدن، محاولا إعادة الأمير إبراهيم والأستاذ البراق إلى ولي العهد.

وبالعودة إلى خلفية انضمام سيف الحق الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى إلى الأحرار، فقد حاول الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى القيام بانقلاب ضد أبيه، فلما فشل تظاهر بالمرض وانتقل إلى أسمرة، ثم إلى أديس أبابا في طريقه إلى روما للعلاج، ولكن روح الثورة هبّت في نفسه، لتدفعه إلى عدن، بدلا من روما. في يوم الخميس 29 نوفمبر 1946، انتقل من قصر سلطان لحج إلى فندق إحسان الله؛ ليعلن انضمامه إلى أحرار اليمن، وإلى «الجمعية اليمنية الكبرى» التي لم تكن لا كبرى ولا صغرى. وقد دفع انضمامه هذا، حركة الأحرار الراكدة بقوة إلى الأمام. وأخذت رياح الثورة تمتد من الداخل إلى الخارج، وتثير القلق في كيانات الدول القُطرية العربية، وإلى شمالها بالذات، وإلى شعبها المسالم، وإمامها المتخلف المستبد

العجوز، وإلى حركة الأحرار التي تحاولُ إحداث تغيير يستبدلُ حكم الإمام الكهنوتي بحكم إسلامي، يقوم على أسس دستورية، وسلطات دستورية مستنيرة وعادلة، وكان «الإخوان المسلمون» في مصر بقيادة إمامهم حسن البنا يحلمون بإقامة دولة إسلامية، يطبّقون فيها نظريتهم الإسلامية في أي بلد عربي.

كانت اليمن في نظر «الإخوان المسلمين» هي أكثر الأقطار العربية ملاءمة لذلك، و«الإخوان المسلمون» من أكثر المنظمات السياسية والدينية نشاطا؛ ولذلك فقد كانوا ينشطون في أوساط الطلبة العرب في مصر، ويتصلون باللاجئين السياسيين، وعندما يستطيعون إنشاء فروع لهم في أي بلد عربي، فإنهم يبادرون إلى دعم أي فرع ينشأ هنا أو هناك. وبما أنني لا أعرف الخلفية التي دفعت الأمير إبراهيم إلى الانضمام إلى «الجمعية اليمنية الكبرى»، أو على الأصح إلى الأحرار المعارضين لحكم والده الإمام، فقد رجعت إلى كتابين الأول كتاب «رياح التغيير في اليمن» الذي ألّفه صديقي أحمد محمد الشامي وسجل فيه ذكرياته؛ أما المصدر الثاني فهو كتاب الأخ علي محمد عبده «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين». وقد تابع صديقي الشامي في كتابه الظروف التي خرج بسببها الأمير إبراهيم وانضمامه إلى حركة الأحرار بعد زيارته لأسمرة والحبشة. وسوف أسجل ذكريات معايشتي للأمير إبراهيم في عدن حتى قيام ثورة 1948 الدستورية.

الأمير إبراهيم ورياح التغيير في اليمن

أود أن أنقل من كتاب صديقي الشامي كل ما ذكره حول الموضوع، فقد فصّله بأسلوبه الأدبي محللا، معللا، مسببا، ولكنه قد يخطئ في الرأي إذا قرن ذكر الحدث برأيه أو تحليله؛ ولذلك سيكون لي رأي في بعض آرائه، يحتملُ الصواب والخطأ، مع التأكيد على احترامي وإجلالي له ولآرائه. جاء في كتابه «رياح التغيير في اليمن» عن شخصية الأمير إبراهيم:[1] «الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى كان

(1) أحمد محمد الشامي، رياح التغيير في اليمن، ص 181–182 .

-فيما أعلم- لطيف الطبع، سمح الأخلاق، رزينا لا يتكلم إلا جوابا، ولا يضحك إلا تبسما.. وكان -كما يقولون- أكرم من الريح المرسلة، يصدّق ما يقال له؛ لأنه يكرّم الفطرة الإنسانية، وينزهها عن الكذب والبهتان، ويحمل الناس على السلامة. وكان حظه من مكارم الأخلاق أكثر من الفلسفة، وعلوم النحو، والفقه، والقوافي.

والأمير إبراهيم لم يلجأ إلى عدن ويلتحق بالزبيري ونعمان في حدود علمي؛ مضحيا بإمارته وأسرته، ولا غيرة على الوطن، كما يزعمون؛ بل بدوافع أخرى، ولأسباب عليّ أن أشرحها بصراحة؛ لأني وحدي الذي يعلمها، أو الذي يجرؤ على شرحها وإيضاحها، كما شرحتُ بصراحة الدوافع أو الأسباب التي دفعتني وزيد الموشكي والزبيري ونعمان للفرار إلى عدن، وهي أبعد ما تكون عن التضحية أو الغيرة على الوطن. وأنا حين أقول هذا عن الأمير إبراهيم أعلم أنه بصفاته الإنسانية التي ذكرت بعضها كان أكثر وطنية، وأكثر استعدادا للتضحية بكل غال ونفيس في سبيل بلاده مني، ومن فلان وفلان وغيرهما ممن لا يرقى الشك إلى وطنيتهم، ولا يمسّ الريب استعدادهم للتضحية في سبيل بلادهم؛ لكن ذلك شيء وذكر الواقع كما كان فعلا شيء آخر، ونحن يهمّنا أن نعلم الدوافع والأسباب كما حدثت؛ أما كيف تغيّرت وتطوّرت الأحداث الناتجة عنها حتى سُمّيت بأسماء تناسب ما جدّ من أمور فيستطيع الحصيف، والمؤرخ المحايد المنصف أن يميّز بين ما هو لوجه الحق والخير والحرية، وما كان لغير ذلك».

يواصلُ الشامي الحديث عن الأمير إبراهيم ومجلسه بالقول: «وكنا نقرأ أثناء جلسة (المتكا) دروسا في كتب التاريخ والأدب، وكان يتفاعل بما يسمع ويقرأ، وبالأحداث الجارية، ويشارك من ينتقدون الأوضاع، ولا يحاول الدفاع عنها، وكذلك كان أخوه الأديب الأمير علي، وإلى حد ما أخوهما الأمير إسماعيل، وهو مع الأمراء إبراهيم ويحيى وعبد اللّه أشقاء». وهكذا نرى أن صديقي أحمد الشامي في ذكرياته يؤكد أن الأمير إبراهيم كان يشارك من ينتقد الأوضاع، وهذا ما كان يفعله الأحرار بقيادة الزبيري ونعمان. وقد ذكرت نصيحة أخيه الأمير علي، وذكرت أن رؤيته في تكوين المؤسسات الدستورية من مجلس شيوخ القبائل ومجلس الشورى

من الأعيان والأكفاء، ومجلس الوزراء من الكفاءات مع استبعاد أولاد الإمام عن تولي المناصب، وهذه رؤية أعمق من رؤية الأحرار في ميثاقهم المقدس، وهو يتضمن الأسس الدستورية لثورة 1948، ولا شكّ أن الأمير إبراهيم كان متضامنا مع أخيه علي في تلك النصيحة، أي أنه كان يؤمنُ بمبادئ وطنية يضحّي من أجلها عندما تأتي فرصة أو فرص التضحية.

أما بالنسبة لصديقي الشامي ولزيد الموشكي والزبيري والنعمان، وفرارهم إلى عدن، لأسباب لا علاقة لها بالتضحية من أجل الوطن، فأعتقد أنه رأي شخصي يحتاج إلى مراجعة. صحيح أنه قد فرّ إلى عدن مع زيد الموشكي، ربما خوفا من تهديد ولي العهد، وربما في لحظة مغامرة غير محسوبة، ولم أفرّ معه، لأنني لم أكن أعرف أنه سيفرّ. بالنسبة لي وله، فقد كنا في مرحلة من العمر نستطيع أن نطلق عليها مرحلة التفكير في الذات أكثر من التفكير في الوطن برغم أن ثقافتنا، وتأثرنا بمعلمينا، والزبيري ونعمان كانت مرتبطة بهموم الوطن، ولكن الهموم الذاتية في تلك السن كانت البارزة.. كنا نفكر أن يبعثنا ولي العهد مع ابنه للدراسة في مصر، وجاء تهديد ولي العهد للعصريين حافزا أو مبررا للزبيري ونعمان للفرار، وتبعهما صديقي الشامي والموشكي، وزجّ بي ولي العهد إلى سجن معلّق في أعلى قمة جبل صبر. وكان زيد أكبر منا وأكثر علما وفقها وأدبا، ولكنه لم يشارك في نشاط منظم للأحرار، برغم أنه من أجرأ الأحرار في نصح الإمام، كما أنه لم يُسجن، ويتعلّم من السجن.

ولذلك فربما كان رأي صديقي عن نفسه وعن زيد، وربما عني حينذاك صحيحا، أما أن يشمل رأيه هذا الزبيري ونعمان فأمر يحتاج إلى إعادة نظر؛ لأنهما كانا في مصر ينشطان نشاطا وطنيا، وصل إلى مرحلة إنشاء كتيبة الشباب اليمني الأولى، وإلى نشر مقالات في صحيفة «الشورى» التي كان يصدرها المناضل الفلسطيني حينذاك محمد علي الطاهر. وباعتقادي أن التضحية من أجل الوطن هي التي دفعت الزبيري إلى إنشاء «جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وإلى العودة إلى اليمن، وإلى مواجهة الإمام يحيى؛ ليحاول تحقيق الأهداف الوطنية في

الإصلاح من داخل اليمن عن طريق محاولة إقناع الإمام، والضغط عليه بالخطب الدينية ونشر الوعي الديني والوطني. وقد تعرّض هو وزميله محمد أبو طالب الخطيب إلى القمع والإرهاب والزج بهما في أعماق سجن المشبك في الأهنوم. وبعد إطلاقهما التحق الزبيري وزيد الموشكي، والشامي ثم الفسيّل بولي العهد في تعز، في محاولة تهدف إلى ربط طموحات ولي العهد الذاتية في الحكم بطموحات وطنية إصلاحية..

وقد عرفتُ من القاضي محمد محمود الزبيري بعد فراري إلى عدن للالتحاق به وبزميله نعمان أن فكرة الفرار إلى عدن كان الترتيب لها يجري بواسطة الشيخ المناضل جازم الحروي قبل أن يعلن ولي العهد تهديده بسفك دماء العصريين، وأن التهديد حدّد فقط وقت الهجرة إلى عدن. وإذا كان فرار صديقي الشامي والموشكي إلى عدن لأسباب غير التضحية من أجل الوطن، فإن المبادئ الوطنية قد تعمّقت في أفكارهما ووجدانهما بعد الفرار، برغم عودتهما إلى ولي العهد، لأسباب لا تأثير لها على إيمانهم الوطني. كما أن السجن قد علّمني أن الفساد لا يصلحه الفاسد، وأن الحرية والديموقراطية لا يحقّقُها الديكتاتور الطاغية، وأن الطموحات الوطنية هي التي تتحقّقُ بها الطموحات الذاتية، وعندما التحقتُ بالزبيري ونعمان في عام 1946، كنتُ على يقين أنني أخطو أول خطوة في مشوار النضال والتضحية من أجل الوطن.

صحيح أن الأمير إبراهيم لم يخرج من اليمن ليضحّي بنفسه وبأسرته من أجل الوطن، ولكنه كان قبل أن يخرج ساخطا على الطريقة التي كان والده الإمام يحكم بها اليمن، وساخطا على الطريقة التي ينوب أخواه أحمد والحسن عن الإمام في ظلم الناس في لواء إب ولواء تعز. وكان يلتقي بالساخطين على الوضع ويشاركهم في انتقادهم للوضع، وكل هذا يؤكد أن الأمير إبراهيم كان على استعداد للتضحية من أجل الوطن، وجاءت الفرصة التي جذبته إلى موقع التضحية. وكان ما كان، ولهذا فإن انضمامه إلى الأحرار في عدن لم يكن اعتباطا أو مغامرة غير محسوبة، وإنما كان بدوافع وطنية عاشها فترة طويلة قبل الهجرة. ولو لم يكن الأمر هكذا فإن رجوعه إلى أخيه ولي العهد عندما حاول صديقي أحمد الشامي بتكليف من ولي العهد إقناع

الأمير إبراهيم بالعودة، وله كل الأمان، وكل ما يريد شخصيا، وقد فشل صديقي في هذه المهمة برغم أن الأمير إبراهيم كان يعرف أن «الجمعية اليمنية الكبرى» لم تدفع مستحقات فندق إحسان الله، مما اضطره إلى البقاء فيه، حتى دفع صديقي الشامي مستحقات الفندق والديون الأخرى التي كانت في ذمة الجمعية على الأمير، وذلك على حساب ولي العهد.

وأعودُ مرة أخرى إلى ذكريات صديقي أحمد الشامي الذي يصف فيها كيف كانت صنعاء تغلي وتهتز سخطا على أوضاع الإمام، فيقول: وقد قلتُ إن عرى الصداقة توثّقت بيني وبين الأمير إبراهيم أثناء اجتماعنا في مقام أخيه ولي العهد في تعز، فلما غادرها مع أخيه الأمير يحيى إلى صنعاء، وتبعته إليها وجدناها تغلي وتهتز، وتلاميذ المدرسة العلمية، والثانوية، وبعض شباب صنعاء قد كثرت أحاديثهم عن الحضارة والحرية، وضرورة تطوير الوضع السياسي والاجتماعي، وانتشرت كتب الدّاعين إلى الإصلاح مثل «العروة الوثقى» و«طبائع الاستبداد» و«أم القرى»[1]، وبدأوا ينتقدون الأوضاع بجرأة لا تنفع معها التهدئة، ولا يجدي أي نصح بالتعقل والحكمة، وتجنّب العثرات، وكثرت المنشورات بمختلف اللهجات، ومن عدة جهات، وفي بعضها تهديد ووعيد، وما يدعو إلى التمرد والثورة. واضطرب المجتمع الصنعاني بطموحات الشباب، وضاق حتى الشيوخ بتصرفات بعض الأمراء والوزراء، وشيخوخة الإمام الذي أشرف على الثمانين، وكنتُ متحمسا لرأيي، وأحاول إقناع الناس ولاسيما الزملاء بضرورة الالتفاف حول ولي العهد.

كان الأمير إبراهيم شبه يائس من أبيه وبعض إخوانه كالحسن والحسين وولي العهد أن يتغيّروا عن نهجهم الذي يرونه صوابا، أو أنهم لا يعرفون كيف يتخلّصون منه إلى ما هو أفضل. وكان لا يطمئنُّ إلى مستقبل اليمن إذا تولّى أخوه أحمد الإمامة بعد أبيه. والواقع أن جُلَّ أولاد الإمام أو كلهم عدا عليا كانوا لا يحبون أحمد،

(1) هذه آثار الأستاذ الشهيد أحمد حسن الحورش وآثار مكتبته .

ويتمنون أن يتولّى الملك غيره!! ومنهم من رشّح الحسين لفضله وعلمه، ومنهم من يرشّح عبد الله لكفاءته الإدارية وثقافته العصرية. لقد صرفتهم هذه الرغبة عن معرفة الواقع، وهو أن أحمد الذي هو أكبرهم – وكان حينذاك قد جاوز الخمسين عاما– هو أيضا أكثرهم علما وشجاعة وكفاءة، وأنه وحده الذي يمكن أن يحفظ الإمامة في بيت حميد الدين.

«مرض الإمام يحيى ومؤامرة إبراهيم»، هذا هو العنوان الذي انتقل به صديقي أحمد الشامي في مذكراته إلى الموضوع الأساسي الذي كان في كل ما سبق مقدمة له، وهو موضوع عاشه صديقي بكل أعصابه ومخاوفه، ولا أظنُّ أحدا من الذين كتبوا مذكراتهم أو ذكرياتهم قد تطرّق إليه بكل ما فيه من توتر وأجواء ملتهبة خطرة. يقول صديقي في مذكراته، ص184-185، ما يلي: كنّا في شهر ذي الحجة 1365هـ– أكتوبر ونوفمبر 1946، وكان الإمام يحيى في منتزه الروضة شمال صنعاء، وسيف الإسلام عبد الله مع أخيه يحيى ووفد يمني ضمنه السيد حسن بن إبراهيم، والسيد علي المؤيد، والدكتور عدنان ترسيسي، والقاضي محمد العمري، وهاشم بن هاشم وآخرون في مصر، وانتشرت إشاعة بأن الإمام يحيى مريض جدا، وعدتُ ذات يوم إلى البيت، فقيل لي إن الأمير إبراهيم قد مرّ عليّ «بعربته» وسأل عني، ثم ذهب مع أخي عبد الوهاب، والأخ محمد أحمد الشامي، وعندما أقبل أخي ظهرا قال: إن الأمير إبراهيم ذهب معهما إلى قصر السلاح، وأخبر مديره والمسؤولين أن يكونوا يقظين؛ لأن الإمام «ينازع» إن لم يكن قد مات، وأن أحد إخوانه علي أو إسماعيل سيصل إليهم إذا جرى أمر الله.. ثم عرّج على «عرضي النظام» ثكنة الجيش النظامي، وعلى «عرضي الجيش الدفاعي» وكلّم الأمير إبراهيم أمراءهم وضباطهم بنفس الكلام، وأسقط في يدي عندما سمعت الخبر، وذهبت إلى بيت الأمير إبراهيم فوجدتُ ابن عامل صنعاء محمد حسين عبد القادر خارجا من عنده وهو متغيّر الوجه، وقال لي مسرعا: خبر مهم، والحالة خطيرة. ودخلت على الأمير وإذا لديه أمير «الجيش النظامي» السيد علي بن إبراهيم وهو يقول له: نعم.. الإمام «ينازع»، وما

تجدّد سأخبركم.. لا تغادروا بيوتكم، وكونوا على يقظة واستعداد.

وعندما غادر أمير الجيش المجلس، قلتُ للأمير: ما هذا العمل وماذا تقول؟ ولماذا؟ قال لي: الإمام فعلا مريض، وأطلب منك أن تذهب فورا إلى أخي علي وتطلع معه لاحتلال القصر «قصر غمدان»، وأنا سأذهب إلى أخي إسماعيل، ليذهب إلى «العرضي» لإمساكه، وسأذهب إلى الروضة، لألقي القبض على الإمام وعلى أخي الحسين، وسيكون كل شيء تحت أمرنا!، قلت: وماذا سيعملُ ولي العهد؟ قال: لن يستطيع أن يعمل شيئا إذا ما مسكنا صنعاء، والجيش والسلاح والمال فيها، وسيصل أخي عبد الله وأخي يحيى، ويجتمع أهل الحل والعقد ليختاروا لهم من يرتضون إماما من بيت حميد الدين أو غيرهم؛ أما الإمام يحيى فقد كبرت سنه، وكثرت أمراضه، ولم يعد قادرا على إدارة شؤون الدولة، وكان يحدّثني بهذا ومعه حارسه خالد العبد، ورفيقه الخاص السيد أحمد، وضابطان آخران. قلت له: هذا هو الجنون بعينه؛ ولكن تعال أولا نذهب إلى سيف الإسلام علي لنتدارس الأمر». وعندما أخبرنا عليا بما كان صعق.. وقال: إذا وصل النبأ إلى أخي الحسين، وهو لدن الإمام في الروضة وأخبر الإمام، فسيأمر بإلقاء القبض علينا. قلت: وعليّ وعلى أخي عبد الوهاب، ومحمد أحمد الشامي؛ بل سيحمّلونني المسؤولية، أنا العائد من عدن، وسيقولون إنني سبب كل ما كان، وإنني إنما عدتُ لكي أتآمر على الدولة.

وبينما نحن نتحدّث وكان معنا السيد محمد بن عبد الرحمن الشامي وصل الأمير إسماعيل قلقا فزعا وهو يقول: ماذا فعلت يا إبراهيم؟ لقد جاءني بعض قادة الجيش، وحرس من قصر السلاح يعرضون استعدادهم للقيام بأية خدمة، وأخبروني بما قلتُ لهم! قال إبراهيم: ها أنتم أمام الأمر الواقع فاغتنموا الفرصة، وكونوا شجعانا، واحتلوا العرضي والقصر والمقام. وعليّ أن أذهب إلى الروضة، وألقي القبض على الإمام وعلى أخي الحسين، ونستدعي رجال الحل والعقد، وننقذ اليمن، قال إسماعيل: هذا خيال، وسنقضي على أنفسنا وعلى أصدقائنا، واعتقد أننا قد وقعنا في فخ، ولا مخرج لنا منه إذا كان الخبر قد وصل إلى الإمام، أو ولي العهد، أو أخي الحسين، قلت: الحمد لله ألا تلفونات في اليمن، ويلزمنا المبادرة بمداركة الموقف

قبل فوات الأوان. وكنتُ متوترا قلقا خائفا؛ بل موقنا بالهلاك؛ لأن التهمة -ولا شك- ستلقى على كاهلي.

قال علي: وماذا ترى؟ قلت: أرى أن يذهب الأمير إسماعيل فورا، ومعه الأخ محمد عبد الرحمن الشامي إلى الروضة، ويخبروا الإمام وسيف الإسلام الحسين بأن الأمير إبراهيم أُصيب بمرض خطير يشبهُ الصرع أو الجنون، فهو يهذي، وقد فعل كذا وكذا، ومن الضروري إسعافه بالأطباء. وعلى الأمير علي أن يكتب برقية مستعجلة إلى ولي العهد يخبره بنفس الخبر، وسأذهبُ فورا وأبعث برقية إلى ولي العهد، وأنقل إليه نفس المعنى، وهذا هو ما نستطيع أن نعمله الآن، أن نكون نحن الذين يبلغون السلطة التي نخشاها؛ لكي ننقذ أنفسنا؛ أما إذا وصلهم الخبر عن طريق أخرى فلا خلاص لنا، فالبدار البدار قبل فوات الأوان...

تظاهر الأمير بمرض الصرع والجنون

قال الأمير إبراهيم: ماذا أعمل أنا؟ قلت: تذهب إلى بيتك وتتظاهر بالمرض، وبالصرع والجنون أحيانا؛ فضحك الأمير إبراهيم، وقال: يعني أمثّل دور «المجنون»، قلنا: نعم. قال: لقد أديتُ واجبي، وهيّأتُ لكم الفرصة فضيعتموها، وما دام في تمثيلي دور المجنون نجاتكم فسأعمل أيها الجبناء. ومضى الأمير إسماعيل والسيد محمد عبد الرحمن الشامي على سيارته نحو الروضة، ودار حوار قصير بين الأميرين علي وإبراهيم تمثل فيه علي بقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني

ومما قاله لأخيه إبراهيم: ليست الشجاعة أن تلقي بنفسك إلى التهلكة، أو تثب من حالق، وإنما الشجاعة الصبر والثبات، ولم يأتِ المغرب إلا وبيت الأمير إبراهيم يغص بالأطباء والزوّار، وأمر الإمام وزيره عبد الله العمري، ووزير الخارجية راغب بك بالكشف مع الأطباء على ابنه إبراهيم، وأجاد الأمير إبراهيم تمثيل دور «المجنون»، وأقبل عيد الأضحى، وفي صلاته «بالمشهد» وبحضور الإمام خرّ الأمير إبراهيم

مغشيا عليه كأنه أصيب بنوبة صرع، وحُمل إلى داره، وحضر الأطباء، وقرروا ضرورة إسعافه إلى أسمرة، ثم إلى روما للعلاج. ثم نُقل على سيارة مع مرافقه الأستاذ أحمد البراق الذي اختير على أساس أنه يتكلم اللغة الإنجليزية إلى الحديدة، ومنها- ولا أذكر الآن- هل على سفينة إلى كمران، ثم على طائرة إلى أسمرة، أم وصلت لنقله طائرة إثيوبية أقلّته من الحديدة إلى أسمرة بأمر الإمبراطور هيلا سيلاسي الذي كلّف أحد أولاده الأمراء باستقبال «الأمير إبراهيم بن ملك اليمن»، وأنزله في قصره الخاص بأسمرة.

هذه هي قصة خروج الأمير إبراهيم من اليمن وأسبابها ودوافعها؛ أما ما حدث بعد وصوله إلى أسمرة، وكيف غيّر وجهة رحلته عن روما إلى عدن، ولماذا قرّر الالتحاق بالأحرار، والانضمام إلى المعارضة؛ بل وتزعّم حركتها ضد أبيه الإمام يحيى فلم يكن ذلك في حسبان أحد وهو في صنعاء.! وقد حدّثني الأستاذ أحمد البراق أنه هو الذي زيّن للأمير إبراهيم عمل ذلك.. هذه هي قصة خروج الأمير إبراهيم من اليمن إلى أسمرة والتحاقه بحركة الأحرار وتزعّمه لها، كما رواها صديقي أحمد الشامي في كتابه: «رياح التغيير في اليمن».

الأمير إبراهيم والنضال الوطني

ما يقوله صديقي الشامي من أن الكل في صنعاء لم يخطر ببال أحد منهم أن الأمير إبراهيم سيغيّر وجهة رحلته إلى عدن، بدلا عن روما حتى الأمير نفسه صحيح؛ لأن خروجه كان للعلاج من مرض ليس موجودا في جسم الأمير أو عقله. ولو لم تكن أحاسيسه وهمومه الوطنية أقوى من أحاسيسه الذاتية لاغتنم الفرصة، وواصل السفر إلى روما للنزهة والراحة والاستمتاع بالحضارة والجمال في أوروبا، كما يفعل كثيرون من الأمراء، ولكن هموم الأمير الوطنية كانت تصرف تفكيره وتحوّله من التمتع بروما إلى التضحية لإنقاذ وطنه اليمن، وتزعم حركة الأحرار المعارضة في عدن.

ولكن كيف حدث تحوّل رحلة الأمير إبراهيم من أسمرة فروما إلى أديس أبابا ثم

إلى عدن؟ سيكون مصدري الأساسي في هذا ما عرفته وعلمتُ به شخصيا، وما أشار إليه الأخ علي محمد عبده في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»، مع التنبيه إلى أن الأخ علي يعتمد فيما يكتبه على مراجع غير موثوقة، ويغفل الرجوع إلى مصادر أخرى، وقد يتوسع في التفاصيل المتعلقة بأحداث صغيرة لا أهمية لها، وقد يختصر أو يغفل ما هو أهم.

وسأبدأ بما أعرفه، ليكون ما ذكره الأخ محمد علي عبده مكملا له، فبعد انضمام الأمير إبراهيم إلى الأحرار في عدن التقيتُ به كثيرا، والتقيتُ بالأخ الشهيد أحمد البراق، وهو من أساتذتي، ومن أقوى الأحرار إيمانا وعملا، قال لي الأستاذ البراق ما معناه: عندما استدعوني في صنعاء لمرافقة الأمير إبراهيم، كمترجم في رحلة العلاج، لم أكن أعرف الأمير إبراهيم، ولا أعرف أنه يمثّل المرض وليس مريضا، وفي طريقنا إلى الحديدة اكتشفتُ أن الأمير إبراهيم لطيف دمث الأخلاق، تعامل معي وكأننا أصدقاء من زمن بعيد، وتحدّثنا في أمور كثيرة، وكنتُ أنتظر أن تأتيه نوبة صرع أو جنون، وهو المرض الذي خرج للعلاج منه، ولكنه لم يصب بذلك طيلة الطريق، وعندما انضمّ إلينا في الحديدة الأخ علي حُمَّد، وهو ممرض من أرتيريا، يعمل في مستشفى تعز، ليرافق الأمير إبراهيم كملحق صحي رأيتُ الأمير إبراهيم يُصابُ بالصرع، وأراد علي حُمَّد أن يسعفه «بشرنقة» ولكني نصحته ألا يتعجّل، ونحاول إسعاف الأمير بالماء البارد والتدليك «المساج» حتى يتم الكشف عليه في أسمرة أو روما؛ لكي لا يتأثر الكشف سلبا بما يستعمله الأمير من علاجات الآن، وكان رأيي هذا مستنبطا من ثقافتي العامة. وقمت مع الأخ حُمَّد برشّ الماء البارد على وجه الأمير، وتدليك يديه وقدميه حتى أفاق من نوبة الصرع، وبقينا في دار الإمارة حتى اليوم الثاني ننتظر وصول طائرة لتنقلنا إلى أسمرة.

وفي المساء أصيب الأمير بنوبة جنون، فقد أخذ يضحك ضحكا هستيريا، ويتنطط في الغرفة من زاوية إلى زاوية، ويطلّ من النافذة، وكأنه سيقفزُ منها فهرعنا وأبعدناه عن النافذة، فإذا به يبكي ويلطم وجهه كالطفل، ثم وثب واستلَّ جنبيته من حزامها المعلّق في الجدار وهددنا بالقتل إذا لم نخرج من المكان، وأصابني الفزع،

وقلت للأخ علي حُمَّد: تعال نخرج، وخرجت فعلا من الغرفة. كنتُ أعتقد أن الأمير مريض بالصرع وبالـجنون فعلا، وقلت لنفسي: هذا يحتاج إلى عسكر يربطوه لا إلى مترجم، وذهب علي حُمَّد وجلب ثلاثة أو أربعة من العسكر الـمرتبين، وحضر وكيل نائب الـحديدة، وبعض الـموظفين، ولكني نصحتهم أن يبقوا ساكتين في الـحجرة حتى تخفّ نوبة الـجنون، وكان الأمير إبراهيم يصرخ ويضحك ويبكي داخل الغرفة، ثم هدأ ولم نعد نسمع له صوتا، وقلت لعلي حُمَّد: ادخل إلى الغرفة وشوف حالة الأمير، ودخل بحذر فوجد الأمير ممتدا وسط الغرفة يصعّد أنفاسه ويشير له بأن يقترب، ويقول: «أدّ لي شربة ماء بارد»، وأسرع علي حُمَّد إلى ثلاجة في الغرفة، وأخرج قارورة ماء، وسلّمها للأمير الذي جلس وشرب كمية كبيرة من ماء القارورة، وقال: الـحمد لله.. أين أنا؟ قال له علي حُمَّد: نحن في الـحديدة، وسنسافر غدا إلى أسمرة، ثم عاد الأمير إلى حالته الطبيعية، وكأنه لم يصب بالصرع ولا بالـجنون، ودخلنا عليه، وإذا هو يبتسم وحدّثنا بعقل راجح، ومازح وكيل النائب قائلا: «أنتم تعشوا الضيوف أو تميتوهم جوع»؟!، وأجابه الوكيل: يا سمو الأمير العشاء جاهز، ولكن الـمرافقين لكم مقصرين. تفضلوا إلى العشاء، وبعد العشاء بقينا ندردش مع الأمير حتى حان وقت النوم.

وفي صباح اليوم التالي وصلت الطائرة الإثيوبية لتنقلنا إلى أسمرة، وفي أسمرة استقبلنا في الـمطار ابن الإمبراطور هيلا سيلاسي وأنزلنا في قصر الإمبراطور، وأقاموا لنا مائدة عامرة بما لذّ وطاب، حضرها كبار الـمسؤولين والضباط في أسمرة، وأعيان الـجالية اليمنية، وبقي ابن الإمبراطور مرافقا للأمير، وكنتُ أخشى أن يُصاب الأمير بنوبة صرع أو جنون، ولكن سلّم الله. واستدعاني الأمير وقال لي: يا أستاذ أحمد أنا صحيح العقل والبدن، وكل ما قمتُ به تمثيل في تمثيل، حتى يأذن الإمام بسفري إلى روما للعلاج، وضحكنا من تمثيله في الـحديدة، وقلت له: يا سمو الأمير، فبادرني بسرعة أرجوك خلّي التخاطب بيننا أخوي ناديني يا أخي، ثم رتّبنا له مقابلة رئيس الـجالية اليمنية وعدد كبير من أعيان الـجالية، واستمع إلى شكواهم من الـخطَاط والـمظالـم التي لا حصر لها في اليمن، مما اضطرهم إلى الهجرة. وألقى فيهم الأمير

خطابا مؤثرا، وعدهم فيه بالعمل لإزالة الظلم ورفع الخِطَاط، وقال لهم: ارفعوا أصواتكم بالشكوى وصوتي معكم. سأنقلُ شكواكم إلى والدي الإمام، وأعمل على تحقيق العدل لكم ولبلادنا اليمن.

وكان خطابه هذا في البداية قد شجّعني على الحوار معه حول هموم الوطن، وزارنا بعض المهاجرين المؤيدين لحركة الأحرار في عدن، وقدموا للأمير شكاوى إلى الإمام، وقلت لبعضهم سرا: ابرقوا للزبيري ونعمان يكتبوا للأمير رسائل يدعوه فيها لزيارة عدن عند عودته من روما. وسافرنا إلى أديس أبابا واستُقبلنا هناك من قبل الحكومة والجالية اليمنية استقبالا حافلا. وفي أديس أبابا زارني رئيس الجالية اليمنية، وعدد من أعيان الجالية، وسلموا للأمير رسالة مؤثرة من الزبيري ونعمان يدعوانه للانضمام إلى الأحرار وتزعُّم حركتهم. وقد استشارني الأمير في الموضوع وشجعته على زيارة عدن والاطلاع على الأوضاع، ثم يتخذ قرارا بعد ذلك، واقترحت أن نعود من روما عن طريق عدن، ولكن اجتماعاته بأعضاء الجالية اليمنية تركت فيه أثرا قويا، فدعاني وقال لي: إذا كنا سننضمّ إلى الأحرار في عدن، فلا لزوم للسفر إلى روما، أنا في أتم الصحة والأفضل أن نسافر إلى عدن مباشرة من أديس أبابا، واستغربتُ ألا يهتم أمير ملكي بزيارة روما، وهو لا يعرف إلا اليمن، ويفضل عليها الانضمام إلى الأحرار في عدن فوافقته على رأيه، برغم أنني شخصيا كنتُ أرغب في زيارة روما أولا. هذا ما رواه لي أستاذي أحمد البراق عن موضوع انضمام الأمير إبراهيم.

أما رواية الأخ علي محمد عبده عن انضمام الأمير إبراهيم إلى الأحرار، فقد رواها في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»[1]، أسباب خروج الأمير إبراهيم وانضمامه إلى الأحرار، معتمدا على قصة رواها أحد الأحرار اليمنيين المغتربين في الحبشة، وهي قصة لا يمكن الاعتماد عليها؛ لأن راويها استقاها من إشاعات، أكثرها بعيد عن الحقيقة. ويظهر أن الراوي وكاتب الرواية علي محمد

(1) علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة اليمنيين الأحرار، الجزء الأول، ص 265 وما بعدها .

عبده لم تكن لديهما فكرة عن «البروتوكولات» بين الدول، فقد ذكر أن إمبراطور الحبشة كان واقفا عند سُلّم الطائرة حال وصول الأمير عليها لاستقباله، وهذه واقعة لا يمكن أن تكون صحيحة؛ لأن المتعارف عليه أن رئيس أي دولة لا يستقبل إلا رئيس أو ملك الدولة الأخرى. وكان إمبراطور الحبشة من أشد الملوك تقيُّدا بالبرتوكول، وعندما سافر الإمام أحمد للعلاج في روما عن طريق الحبشة، أرسل الإمبراطور صهره باستقبال الإمام؛ لأنه لم يكن في زيارة رسمية.

تقول رواية الأخ علي محمد عبده: وصل أحمد عبده ناشر إلى دار الضيافة التي ينزل فيها الأمير إبراهيم، ودخل أولا إلى غرفة البراق، وكان قد عرفه في المطار، فرحّب به، وهو يقول: كنتُ أتوقّعُ زيارتك لنا نظرا لارتباطك بعدن، فأجابه: ها أنا قد جئتكم، ومعي رسالة من عدن للأمير، فاستصحبه البراق إلى غرفة الأمير، وسلّمه الرسالة، فناولها للبراق ليقرأها عليه، فاستبشر الأمير لمحتواها وقال: أنا مستعد لأن انضَمَّ إلى «الجمعية اليمنية الكبرى»، ولكن لا لإصدار «صوت اليمن» وغيرها من النشرات؛ بل للقيام بحركة لتحرير الشعب اليمني من الطغيان بعد أن أصبح الإمام آلة بيد أولاده، وبمقدوري تجهيز مئة ألف مقاتل، فقط أريدُ من رجال الجمعية المال والسلاح، فردّ عليه أحمد عبده ناشر بقوله: اطمئن، وأؤكد لك أنك متى تزعّمت الحركة، فإن السلاح والمال سيوجد. إن المهم أولا انضمامك إلى الحركة وتزعمها.

اقتنع الأمير برأيه وقال: تمام؛ ولكن لا بد من زيارتي للقاهرة أولا، للاتصال بالجامعة العربية، لأشرح وضع والدي الصحي والحالة في وطني قبل أن تحلَّ الكارثة بعد وفاة والدي، فكراهية المواطنين في ازدياد، والسبب الظلم النازل بهم من إخواني أحمد والحسن. فقال له: ربما يكون الإخوان في عدن على اتصال بالجامعة العربية، وملوك العرب، وقد يحدث تناقض في الأقوال، والأفضل وصولك إلى عدن، فإذا لزم قيامك بزيارة فستكون ممثلا للجمعية اليمنية الكبرى، ووافق الأمير على السفر إلى عدن عن طريق أسمرة التي ترك فيها أشياءه. وعندما قابل الأمير إبراهيم الإمبراطور أخبره بما ينوي القيام به!! فوافق الإمبراطور على ذلك، ووعده بالمساعدة،

وأهدى إليه ابن الإمبراطور ساعته الذهبية وهو يقول له: هذه رمز للصداقة، وبمثابة عهد منى إذا لزم لك أي حاجة فاكتب لي: وفعلا كتب الأمير إبراهيم رسالته للإمبراطور قبل ثورة 1948 بحوالي شهرين، حملها الأستاذ محمد حسن خليفة. انتهى. ويظهر أن هذه الإشاعات انتشرت بين المهاجرين في الحبشة بعد انضمام الأمير إبراهيم إلى حركة الأحرار، وهي كما يبدو من صنع الأخ أحمد عبده ناشر وزملائه لطمأنة المهاجرين اليمنيين بأن الإمبراطور يؤيد حركة الأحرار؛ لأنها رواية لا يمكن أن تكون صحيحة.

وتقولُ الرواية فيما يتعلّق بجمع التبرعات من المهاجرين للأمير: وفي اليوم التالي استلم أحمد عبده ناشر رسالة أخرى باسم الأمير إبراهيم من الأستاذين بعدن، فلما سلّمها له في غرفته خرج الأستاذ أحمد البراق لوداعه خارج الباب، وقال له: إن النقود التي حملها الأمير معه على وشك الانتهاء، وعليه أن يفكّر بالموضوع، وبذل جهد لجمع ما يمكن جمعه حتى يزداد الأمير ثقة، وينضمّ للحركة عن قناعة.

عدن قبيل اغتيال الإمام يحيى وقيام حكومة الدستور، وهم من اليمين أحمد البراق، أحمد الحورش، الأستاذ نعمان، الأمير إبراهيم، محيي الدين العنسي، الزبيري.

من جانبي، لا أستطيع أن أثق بهذه الرواية؛ لأن البراق قد روى لي تفاصيل انضمام الأمير إبراهيم إلى حركة الأحرار، ولم يشر إلى هذه الواقعة، وكان الأخ أحمد عبده ناشر ممن يجمعون التبرعات للأستاذ نعمان في الحبشة بوسائل متعددة في كثير من المناسبات. من جانبه، اتصل أحمد عبده ناشر برئيس الجالية العربية، وقال له: إن من واجبنا إكرام الأمير إبراهيم، فقال الرئيس: هذا لازم علينا، سنقيمُ له حفلة تكريم في الفندق، سندعو لها الوزراء والسفراء، فقال له أحمد عبده ناشر: «هذا غير كافٍ؛ بل يجب علينا أن نجمع له مبلغا من المال من الإخوة المواطنين»، ووافق الرئيس على ذلك بعد تردد، وطلب منه أن يكتب قائمة بأسماء الأشخاص.

وفي صبيحة اليوم التالي مرّ رئيس الجالية وأحمد عبده ناشر والحاج مطهر سعيد وعبد القوي مدهش الخرباش على بعض المواطنين الذين تجاوبوا معهم، وجمعوا مبلغا من المال، دفعوا منه تكاليف حفل التكريم، وبقي مبلغ (32000) ريال إثيوبي، تبرّع منها الأمير بمبلغ عشرين ألفا لكل من مستشفى «هيلا سيلاسي»، ومستشفى «يحلم اس» ابنته. وأعطى مبلغ (3500) ريال للسائق الذي يقود سيارة الإمبراطور، وموظفي دار الضيافة. هذا ملخص للرواية التي أخبرني بها أحد الأحرار. انتهى. ولا شكّ أن انضمام الأمير إبراهيم إلى صفوف الأحرار فرصة ذهبية لجمع التبرعات الكبيرة، وخصوصا في الحبشة وكينيا، وكان علي مرجان وأحمد حيدرة في كينيا أكثر من جمعوا تبرعات للأمير إبراهيم، وتم إرسالها بواسطة الأستاذ نعمان، كما تم جمع مبالغ كبيرة في عدن.

وقد أشار الأخ علي محمد عبده إلى إشكالية بروتوكولية، لا أظنُّ أنها حدثت؛ إذ ذكر أن الأستاذ البراق اقترح أن ينزل الأمير إبراهيم في قصر سلطان لحج في عدن، الذي نزل فيه الأمير الحسين عند سفره إلى لندن، ومعه سكرتيره الأستاذ البراق حينذاك، ونزل فيه ولي العهد عند زيارته لعدن، ولكن الرواية في كتاب الأخ علي تقول: وقد اعتذر السلطان عن إمكانية تحقيق ذلك؛ لأن إقامة الحسين، بصفته موفدا من قبل والده، وإقامة ولي العهد فيه لصفته الرسمية؛ أما بالنسبة للأمير إبراهيم ووصوله إلى عدن، فالأمر يختلف؛ لأنه سيصل إلى عدن بصفته الشخصية، ولا

يحملُ أي صيغة رسمية، وسيأتي إلى عدن ليعلن تمرده على حكم والده الإمام، ومعارضته له بانضمامه إلى الجمعية اليمنية الكبرى، ومع ذلك الجواب فقد اتصل الأستاذ البراق بالسلطان علي عبد الكريم فضل، سلطان لحج حول وصول الأمير إلى عدن، واتفقوا على أن يكون وصوله إلى القصر السلطاني نفسه، كضيف على السلطان عبد الكريم لبضعة أيام. انتهى.

وهذه الإشكالية البروتوكولية التي أشار إليها الأخ علي محمد عبده في كتابه لا أساس لها من الصحة؛ لأن السلطان عبد الكريم، سلطان لحج كان كريما، يستضيف كبار الشخصيات في قصره عند مرورها من عدن، استضافة شخصية، لا علاقة لها بالرسميات، ولذلك فإنه بمجرد إبلاغه بأن الأمير إبراهيم سيصلُ إلى عدن وجّه دعوة له، للنزول ضيفا عليه في قصره، بدون التفكير في التفريق بينه وبين أخيه الحسين أو أخيه أحمد، ولي العهد، فلم يكن الحسين موفدا من أبيه إلى سلطان لحج، وإنما كان موفدا إلى لندن، لتهنئة الأسرة المالكة البريطانية، كما أن ولي العهد لم يكن موفدا رسميا، لا إلى سلطان لحج، ولا إلى حكومة عدن البريطانية، وإنما وصل باسم العلاج في عدن، ثم إن فكرة انضمام الأمير إبراهيم إلى الأحرار لم تكن قد أُعلنت حتى يكون نزوله في قصر السلطان محرجا له، وكان معروفا من قبل أن السلطان عبد الكريم ممن يتعاطفون مع حركة الأحرار ويساعدونها سرا.

عندما تأكّدنا في عدن أن الأمير إبراهيم سوف ينضمُّ إلى الأحرار، ويقود حركتهم قبل توجهه من أديس أبابا إلى عدن، ذهبت إلى الأستاذ الزبيري وقلت له: إن انضمام الأمير إبراهيم إلى الأحرار وقياداتهم سيكون منعطفا حاسما للحركة، فهل درستم ذلك دراسة موضوعية عملية أنت والأستاذ، لأن الأستاذ هو «الجمعية اليمنية الكبرى»!، قال لي: كان همُّنا أن ندفعه للانضمام أولا، وبعد ذلك نواجه ما سيستجد. إنني أعرف أنه سينضمُّ إلينا، ولديه خيال بأننا قوة كبيرة لديها المال والسلاح، وأقدّر أنه عندما يأتي إلى هنا ويكتشف الحقيقة قد يُصاب بصدمة عنيفة، ولكن لن يكون أمامه إلا أن يختار موقفا من المواقف الآتية:

1. إما أن يعلن تنصله من صحة إعلان الجمعية وانضمامه إليها، ويعود إلى أسرته، وهذا احتمال قوي جدا .
2. وإما أن يحتمل الصدمة مؤقتا، ويتحين الفرصة لإعلان انفصاله عن الأحرار، ويعود إلى أسرته .
3. وإما أن يمتصّ الصدمة ويتأقلم مع وضع الأحرار، ويختار الوقوف معهم اختيارا حرا، كما اخترناه نحن، وبهذا تكونُ حركة الأحرار قد كسبت به قوة معنوية هائلة في الداخل والخارج.

قلت له: وإذا اختار الاختيار الأول أو الثاني، قال: لن نخسر شيئا، فسنعلنُ أنه أمير أراد أن يخدعنا فخدع نفسه، ونستشهدُ بالآية الكريمة: (لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إلا خَبَالا) سورة التوبة، وذهبت إلى الأستاذ وأخبرته بما دار بيني وبين القاضي- كما كنا نسمّيه- فقال لي الأستاذ: يا عزّي الموضوع لا يستحق هذا الاهتمام، من جاء جاء، ومن راح راح. وفكرتُ أن أستغلَّ الفرصة إذا اختار الأمير إبراهيم الوقوف مع الأحرار في إثارة موضوع إيجاد نظام أساسي للجمعية اليمنية الكبرى ومؤسسات لها.

في تلك الأثناء، كانت محاولة صديقي أحمد الشامي إعادة الأمير إبراهيم إلى أسرته محكا لعنصر الأمير ولوطنيته، ولإيمانه بحق الشعب في الحرية والعدالة، وحقه في دفع الظلم الذي يدمّره على يد والده الإمام يحيى وأسرته المالكة، ولو بإزاحة هذه الأسرة. فقد اختار بحريته الكاملة موقعه البطولي مع الأحرار والحرية، وضدّ الظلم والطغيان، اختار هذا الموقع وهو يعرف أن حالة الأحرار المادية مضعضعة، وإذا كان قد فكر في الانضمام إليهم، وفي ذهنه بأنهم قوة كبيرة تملك المال والسلاح، فإنه عندما انضمّ فعلا انضمّ وهو يعرف حقيقة أوضاع الأحرار، وفشل صديقي أحمد الشامي أن يغريه بالمال والمنصب والرفاهية، وقد فصّل صديقي الشامي قصة فشله في إعادة الأمير إبراهيم تفصيلا طويلا في كتابه «رياح التغيير في اليمن».

حوار مع الأمير إبراهيم عن واقع اليمن
الأرض والسكان والقوى الطامحة على الساحة

ذات يوم- ربما في شهر مايو سنة 1947- كنتُ أعطي ابنة الأمير دروسا في قواعد اللغة العربية وغيرها، وهممتُ بالخروج من صالون الجناح العائلي والانصراف، ولكني رأيتُ الأمير إبراهيم يشير لي أن أنتظر، ثم خرج واستدعاني للجلوس معه على كرسي مقابل له من كراسي مائدة الطعام، وبعد أن أحضروا لنا كأسين من الشاي الأحمر، وضع الأمير أمامه على الطاولة ورقة كان قد كتب فيها ملاحظات أو معلومات، ثم جرى بيننا حوار هذا معناه، مستخدما أكثر كلماته الحقيقية تقريبا. قال لي الأمير: ما رأيك أن ندردش بتلقائية، وبلا ترتيب فيما أعتقد أنه مفيد، قلتُ له: هذا ما كنتُ أتمناه؛ لأن معرفة كلٍّ بالآخر يجعل اشتراكهما في أي عمل أكثر إيجابية.

ثم دخلنا في دردشة لا أستطيع الآن أن أسجّلها بالنص، ولكن مضمونها بأكثر ألفاظها لا يزال واضحا في ذاكرتي. وبدأ الأمير «الدردشة» قائلا: كان لديّ في صنعاء مكتبة ممتازة، اشتريتُ كتبها، لتكون في ديوان الجلوس مظهرا للتباهي أمام الزوار أكثر من اهتمامي بقراءتها أو قراءة بعضها، وكان ديوان الجلوس هو المكان الذي أقضي فيه أكثر ساعات يقظتي. وبدأتُ أتصفّح بعض الكتب، وربما أقرأ المقدمة، ثم أنتقل إلى فهرس الموضوعات، لأعرف محتويات الكتاب، فإذا أعجبني المحتوى أغراني بقراءة الكتاب. وهكذا وجدتُ نفسي أتعوّد قراءة الكتب، وكلما ازددتُ ثقافة زاد نهمي للقراءة. كنتُ إذا قرأت كتابا في التاريخ أفكّرُ أو أحلم بأن أكون مؤرخا، فإذا قرأتُ ديوان شعر أفكّرُ أو أحلم بأن أكون شاعرا، وعندما أقرأ قصة للمنفلوطي مثلا أتمنى أن أكون أديبا أكتب القصص، كان هذا في البداية، ثم أصبحت القراءة والتثقيف الذاتي جزءا من حياتي. وفي هذا السياق، كنتُ أتصفّح الجرائد المصرية التي تصل إلينا بين فترة وأخرى. وكان لشخصية مدحت باشا، أبي الدستور العثماني، والمصلح الديني جمال الدين الأفغاني، وزميله الإمام محمد عبده أثر في توجهاتي. وكنتُ -بحكم الظروف- أدينُ

بالـمـذهب الزيدي، أو على الأصح مـذهب الإمـام الهـادي يحـيى بـن الـحـسين الرسّي، ثم وجـدتُ نفسي- بدون تفكيـر- أبتعـد عن تقليـد الـمـذهب إلى بسـاطة الإسـلام في القرآن والسنة، ولكن بقي الإمـام زيد بن علي مثلي الأعلى في الفكر الديني والاعـتـراف بخـلافـة أبي بكر وعـمـر، وحقّ أي مـسلم كفء في تولي الـخـلافة، والإيمان بمبـدأ الـخروج على الـحاكم الظالـم. ولذلك جلستُ مع والدي مرات ونصحته بضرورة التغيير، وأن يشكّل في حياته وتحت إشرافه حكومة من خيرة رجال اليمن، ومجلس شورى من العلماء والوجهاء والـمشايخ، وشاركني في ذلك أخي علي، وأحيانا أخي يحيى، وأخي إسماعيل، ولما يئستُ حاولتُ القيام بانقلاب بطريقة هوجاء، لا عقل فيها ولا تبصُّر. وها أنا الآن مُنضم إلى الأحرار في عدن، وهم حركة الـمعارضة الـمعلنة، وأي معارضة يجب أن تكون لديها دراسة وتصوّر لواقع الأرض والبشر في اليمن وخطة شاملة للتغيير، ومنذ وصولي إلى عدن، وأنا أفكّرُ في هذا، وأحب أن تشاركني في ذلك.

هذا مضمون ما قاله الأمير بأكثر ألفاظه، وكنتُ أنا مشغولا بتحويل «الـجمعية اليـمنية الـكبرى» من مجرد اسم إلى حزب سياسي، له قياداته، وكوادره، ونظامه، وأهدافه. وكنا جـميـعـا مستـغرقين في إصدار صـحيـفـة أسبوعيـة بدائيـة، من أربع صفحات وأحيانا ثمان صفحات، نهاجم فيها الوضع ونهاجم ولي العهد، دون أن يكون لهذا الهجوم أي تصوّر أو تخطيط للبديل، إلا تصوّر ضبابي لما هو موجود في مصر مثلا، قلتُ للأمير ما معناه: هذا رائع يا سيدي، ومن الـحكمة إشراك الإخوة الآخرين معنا؛ بل وإشـراك أحرار آخـرين في الداخل والـخـارج. قال: إن شاء الله سيكون ذلك، ولكن دعنا نجرّب أنت وأنا، فإذا صار لنا تصوّر مشترك دعونا الآخرين، ليـشاركـونا إياه. قلت: «على بركـة الله، ولكن -كـمـا أرى- لا نستطيع أن نتصوّر إلا سطح الأرض، وسطح البشر فيها، أما الأعماق فتحتاج إلى دراسة متعمقة منا وممن لهم خبرة بذلك». وهكذا بدأنا نحاولُ أن نرى واقعنا كما هو، واستحضرنا في أذهاننا موقع اليمن في أرض الله الواسعة، ووجدنا أنها تقع في أقصى الـجنوب الغربي من قـارة آسيـا؛ أي في أقصى شـبـه الـجزيرة العربية جنوبا. ووجـدنا أن البـحـر الأحـمـر

يحوّطها غربا من عسير شمالا وحتى المخا وباب المندب جنوبا، ووجدنا أن البحر العربي والمحيط الهندي يحوطانها من باب المندب في الجنوب الغربي؛ مارا بخليج عدن، وحتى خليج عمان شرقا، وهذا يعني أن اليمن تمتلك ثروة سمكية هائلة، وتمتلك بحارا إقليمية طويلة جدا، ولكنها مهدرة.

وعندما استعرضنا خريطة اليمن في أذهاننا وجدنا أن جبال السراة الشاهقة البركانية تمتدّ من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب في وسط الأرض اليمنية، وتتكوّن من دوائر تحيط بقيعان زراعية تُسقى بسيول الأمطار الآتية من الجبال المحيطة في مواسم الأمطار، وهي المصدر الأساس لما يحتاجه سكان الجبال من حبوب لطعامهم، ومن مخلفات تلك الحبوب يطعمون دوابهم الداجنة، وتوجد وديان وشعاب محاذية لتلك الجبال فيها غيول «ينابيع» تجعلها مناطق دائمة الخضرة، يزرعون فيها أشجار الفواكه وشجرة البن. وقد وجد سكان الجبال أن القيعان، الزراعية غير كافية، فبنوا بجهودهم الجبارة مدرجات في أماكن الجبال الصالحة لبناء المدرجات: كبيرة ومتوسطة وصغيرة، ونقلوا إليها التراب من القيعان وصارت هذه المدرجات صالحة لزراعة حبوب الذرة التي يأكلون حبوبها ويطعمون دوابهم بمخلفاتها؛ ولذلك يقول علي بن زايد: «الحب الذرة والبيت المرة».

كما أن أجدادنا الذين عاشوا في اليمن قبل آلاف السنين كانوا يعرفون أن مياه الأمطار الزائدة تتدفّق سيولا، لتضيع في مياه البحار المالحة أو إلى الصحارى الناعمة لتضيع تحتها، ولذلك فكّروا في بناء السدود، ووجدوا أن بناء السدود يحتاج إلى دولة أو دول مركزية تجمع الأموال لإقامة السدود وحمايتها، وكان لهم ذلك، وبنوا مئات السدود في أنحاء اليمن، عدّدها العالم الهمداني في منطقة واحدة بأكثر من مئة سد، أهمها سد مأرب، فلما انهارت دولتهم المركزية انهارت معها بالتدريج تلك السدود، وعجزت الدويلات الممزقة عن صيانتها، ولم يفكر الولاة فيما بعد إلا في جمع الأموال واختلاسها أو نهبها، وانتقلت اليمن من عهود الحضارة المزدهرة إلى حياة التخلف والمجاعات.

ولكن اليمن ليست جبالا شامخة بركانية فحسب، ففي سفوح الجبال سهول

زراعية واسعة من عسير وحتى المخا، على سواحل البحر الأحمر غربا. كما تمتدُّ سهول زراعية واسعة أخرى من سفوح جبال نجران في الشمال وحتى سهول المهرة شرقا، ولكن هذه السهول تعتمد في زراعتها على مياه الأمطار والسيول المتدفقة إليها من الجبال، ففي اليمن لا توجد أنهار، ولذلك فالمياه شحيحة فيها، ومياه الأمطار الموسمية هي المصدر الأساسي لأكثر من 90٪ من الأرض المزروعة، وقلة الأمطار أو انقطاعها في بعض السنين يتسبّب في حدوث القحط والجوع والموت لكثير من البشر والحيوانات. وقد تهطل الأمطار أحيانا بقوة، فتُسبّب الكوارث الطبيعية، وتجرف الأراضي الزراعية، وتهدم المدرجات الزراعية في الجبال، وقد تسبّب غرق قرى ومدن، وهدم مئات المنازل على رؤوس سكانها، ولكن هذا لا يحدث إلا نادرا.

وقد لجأ الناس في أكثر المناطق إلى حفر آبار سطحية، ينزعون منها الماء للشرب والاستعمال وزراعة مناطق محدودة بأشجار العنب والفواكه والخضار، وأحيانا بحبوب الحنطة أو العدس أو الحلبة، وفي الجبال والسهول يرعى الناس الأغنام والأبقار والحيوانات الأخرى في المناطق المعشبة، كما يعتمدون على الدجاج المدجنة التي تمدّهم بالبيض واللحم، وفي سواحل البحار يمتهن كثيرون صيد الأسماك غذاء وتجارة. ومع كل هذا فكلُّ شيء في اليمن بدائي، يتوارثه الناس جيلا بعد جيل، دون أن يطوّروا فيه شيئا مهما؛ بل بالعكس، فقد حلّت البداوة محلّ الحضارة في مناطق الحضارة القديمة.

كيف كان يرى الأمير إبراهيم اليمن

عندما وصلنا إلى هذه النتيجة ضحكنا، وقال الأمير إبراهيم: «هذه هي بلادنا وليس لنا بلاد غيرها، وإذا لم يغيّرها الإنسان اليمني فلن تتغيّر أبدا؛ لأن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم»، ثم فاجأني برأي لم أكن أتوقعه، حين أردف قائلا: لا أحد سيأتي ليغيّرنا غيرنا، لأن اليمن ليست مهمة استراتيجيا ولا اقتصاديا للقوى الاستعمارية، وشعبنا لا يقبل الدخيل. وتحيّرتُ كيف أرد عليه. كانت لديّ قناعة بأن اليمن من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم. وعندما وجدتُ أنه ينتظر ردّي

قلتُ له: قد يكون ما ترونه صحيحا، وإن كان يتناقض مع قناعتي وقناعة الكثيرين. كانت لديّ قناعة أن عدن منطقة استراتيجية، وأن باب المندب كذلك؛ لأنه يربط البحر الأحمر بالبحار والمحيطات الأخرى. من جانبه، قال الأمير إبراهيم: «أنا كنتُ مثلك ومثل الكثيرين أعتقد أن اليمن منطقة استراتيجية مهمة للقوى الاستعمارية، وذات يوم قريب وجدتُ نفسي استعرض البلدان العربية المستعمرة، فرنسا احتلّت الجزائر، وتونس والمغرب احتلالا كاملا، وحاولت أن تفرنس الجزائر على الأقل، واحتلّت سوريا ولبنان، وجيبوتي احتلالا كاملا، واحتلّت بريطانيا مصر والسودان شماله وجنوبه احتلالا كاملا، واحتلّت العراق وفلسطين احتلالا كاملا، وبسطت نفوذها الكامل على مناطق الخليج العربي، وعلى مصر، واحتلّت إيطاليا ليبيا والصومال والحبشة احتلالا كاملا».

وتساءلت: لماذا تعفّف المستعمرون الأوروبيون من استعمار اليمن، كل اليمن؟ وقد طلبت من الأستاذ نعمان أن يمدّني ببعض المراجع حول الموضوع، وبعد تحليلها اقتنعتُ بأن اليمن لا تُعتبر مهمة لهم. قلتُ له: قد يكون في هذا شيء من المنطق، ولكن ألا ترى أن وجود بقعة أو منطقة استراتيجية في أي بلد تجعل البلد كله استراتيجيا. عدن مثلا منطقة استراتيجية، ولذلك استعمرها الإنجليز، وأحاطوها بمحميات تسع، اكتفوا بنفوذهم فيها، بدلا من استعمارها، حماية لها من أي اعتداء داخلي تتحرّك به أي سلطة يمنية، وحوّلوا عدن إلى قاعدة عسكرية، تمنع القوى الاستعمارية الأخرى من العدوان على عدن؛ بل على اليمن المستقل، باعتباره بلدا يحمي وجودها الاستعماري في عدن. قال الأمير: قد يبدو الوضع في ظاهره هكذا، ولكن دعنا ننظر إليه من زاوية أخرى، فعندما احتلّ الإنجليز مناطق شاسعة في شرق الهند رأت الحكومة البريطانية تأسيس شركة تسمى «شركة الهند الشرقية» تستخدمها في استعمار واستغلال واستثمار تلك المناطق الهندية الشاسعة، فأسست لذلك تلك الشركة نحو عام 1600، وبقيت هذه الشركة تستخدم موانئ المنطقة، بما فيها ميناء عدن لرسو بواخرها ذهابا وإيابا، وتوفير ما تحتاجه من مؤن دون أن تفكّر في احتلال عدن مدة تزيد على 270 عاما.

وهذا يدلُّ على أن عدن ليست منطقة استراتيجية في ذاتها في نظر تلك الشركة، ولكنها منطقة ممتازة كميناء وترانزيت ومحطة تواصل بين الهند وبريطانيا. وكانت «شركة الهند الشرقية» قد استأجرت من حاكم عدن مخازن تخزّن فيها المواد، وخصوصا الفحم الحجري، لنقله إلى الهند. وقد صنعت الشركة باخرة نقل ضخمة لنقل ذلك، ولكن العمال العرب في المنطقة لم يتمكّنوا خلال أسبوع إلا من نقل كمية بسيطة من الفحم إلى الباخرة، الأمر الذي أقنع الشركة باحتلال عدن وإسكان عمال هنود فيها. أما بريطانيا العظمى فقد احتاطت للأمر، فعقدت اتفاقية مع سلطان تركيا تسمح لها باحتلال عدن، واتفاقية أخرى مماثلة مع حاكم مصر حينذاك محمد علي باشا. واحتلّت قوة صغيرة تابعة لشركة الهند الشرقية عدن، بعد أن رفض سلطان لحج الذي يحكمها توقيع اتفاقية مع ضابط الشركة تسمح للإنجليز باحتلال عدن، وبقيت عدن تابعة لإدارة الشركة من عام 1839 وحتى عام 1885 الذي تم فيه إلغاء شركة الهند الشرقية، وصارت الهند وعدن تابعة للتاج البريطاني، تُدار من قبل ولاة، تُعيّنُهم وزارة المستعمرات البريطانية، وأحاطت عدن بالمحميات التسع.

وإذن فعدن مجرد محطة تواصل، وميناء ترانزيت، وعندما تفقد بريطانيا مستعمراتها في الهند ستغادر عدن، توفيرا لما تنفقه على قاعدتها العسكرية كما أرى. قلتُ له: وما رأيكم في مضيق باب المندب؟ قال: هذا هو الموقع الإستراتيجي المهم في اليمن، فمن خلاله تدخل وتخرج السفن من المحيطات والبحار إلى البحر الأحمر. وزادت أهميته بعد شق قناة السويس، لتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، ولذلك فبمجرد أن احتلَّ الإنجليز عدن عام 1839 سارعوا باحتلال جزيرة ميون المرتفعة والمطلة على مضيق باب المندب، وبنوا فيها قلعة، وجلبوا إليها أربعمئة هندي مسلح لحمايتها، ولكنها غير صالحة للسكن، ولذلك اكتفوا ببناء الحصن فيها، رمزا لملكيتهم لها، وحمايتهم لما جاورها. وأظنُّ أن الإنجليز كانوا سيحتلّون باب المندب وميناء المخا، بدلا من عدن لو كانا تابعين لسلطان لحج، ولكن كان الأتراك يحتلّون المخا. ثم أردف الأمير: هذا هو ظاهر الأرض،

ويقولون إن في باطنها معادن لا حصر لها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والبترول وغيرها، ولكن هذا القول يقومُ على التخمين، وأحيانا على ظواهر سطحية، ولم يثبت علميا، والله أعلم بما في الظاهر والباطن.

ثم انتقلنا في الدردشة من الأرض إلى سكانها، ووجدنا أن دراسة البشر لا تكون في السطح، وإنما في الأعماق، لأن القوى الكامنة في الأعماق هي التي تصنع وتكيّف حياتهم على الأرض أفرادا وجماعات، وشعوبا وقبائل، وفيها تتفجّر مشاعرهم وأحاسيسهم وغرائزهم وأفكارهم وعقائدهم ودياناتهم ومذاهبهم وأطماعهم وطموحاتهم المتناقضة. واتفقنا أننا لسنا مؤهلين لرؤية أعماق البشر، وأن علينا التركيز لرؤية واقعنا على السطح. قلتُ له: يقولون إن عدد نفوس اليمن المتوكلية خمسة ملايين نسمة، يعيشون واقعا متخلفا راكدا في عالم متغير متطور، وهذا الواقع لا يمكن أن يستمر، إنه واقع مخيف.. إمام متحجر العقلية يكرّسُ التخلف، ومجتمع متخلف ممزق منقسم إلى طوائف: زيدي، وشافعي، وإلى فئات: سادة، وعرب، وعرب ينقسمون إلى فئات: قضاة ومشايخ قبائل، وتجار، ومزارعين، وبدو رُحَّل، ثم تأتي فئة أصحاب المهن الذين يعتبرون لدى الفئات السابقة ليسوا «أصول»: المزاينة والحلاقين والجزارين والقشامين، والحماميين والحوك والدباغين، والعصارين للزيوت. هذا الواقع المتخلف القائم اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لا يمكن أن يستمر في ظل المتغيرات الحضارية في العالم؛ لأنه يتعارض مع المساواة الإنسانية، ومع روح العصر، ومع الدين الإسلامي، إنه واقع تتفاعل في داخله عوامل الانفجار، أو عوامل التطور.

حول عقلية الإمام يحيى

قال الأمير إبراهيم: يا ليتنا نستطيع أن نجعل عوامل التطور هي وسيلة التغيير، بدلا من عوامل الانفجار. ثم أردف قائلا: إن الكثيرين يعتقدون أو يظنون أن عقلية الإمام متحجرة عقائديا، وهذا غير صحيح. إن عقليته من الناحية الدينية عقلية مرنة إلى أبعد الحدود، ومنفتحة إلى أبعد الحدود، ولكنه يتظاهر بالتحجر العقائدي،

إخفاء لتحجر عقليته سياسيا، إنه يخشى التطور، يخشى حدوث أي تغيير اقتصادي، أو اجتماعي، أو فكري، أو سياسي، لأن ذلك يهدّدُ حكمه الفردي المستبد في رأيه، ولذلك فسياسته في الحكم تقوم على تكريس التخلف الشامل تحت غطاء ديني.

قلتُ له: كنتُ قد سمعت قبل سنين رواية تقول: إن شخصية قالت للإمام يحيى: ألا تخشون تقلبات الدهر؟ فكان ردّ الإمام عليه: «نحن الدهر من رفعناه ارتفع، ومن خفضناه انخفض»، ولستُ متأكدا من صحة الرواية، ثم أخذنا نستعرض الخارطة السكانية على الأرض اليمنية. قلتُ له: يا سيدي.. إذا استعرضنا -بسرعة- أحداث التاريخ الكبرى في اليمن سنجد أن سكان الجبال هم الذين صنعوا تلك الأحداث:

1. مملكة سبأ تأسست في صرواح من جبال خولان، ثم بسطت سلطانها على اليمن، ونقلت عاصمتها إلى مأرب في القرن السادس قبل الميلاد.
2. دولة الحميريين في ظفار من جبال يريم، ونقلت عاصمتها إلى صنعاء، وأسست دولة أكسوم في الحبشة، في القرن الثالث قبل الميلاد.
3. الأسود العنسي الذي بدأ تمرّده من جبال عنس ضد عامل رسول الله في اليمن الذي كان من أبناء الفرس واحتل صنعاء وقُتل فيها.
4. في حكم بني أمية في دمشق ثار ضدهم إمام الخوارج الإباضية عبد الله بن يحيى الحضرمي؛ مستقويا بالعمانيين في جبال عمان، واحتّلّ اليمن والحجاز، محاولا إسقاط بني أمية في دمشق، ولكنه هُزم في الحجاز أمام جيش أموي تقدّم لمحاربته.
5. في أيام هارون الرشيد ثار عليه مضر بن عبد المجيد من جبل مسور وقطع الرشيد رأسه.
6. من جبال الرّس في الحجاز قام الإمام محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علي ابن أبي طالب، وعارض المأمون العباسي، وهو الذي أرسل الأمير إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق إلى اليمن، فجرت بينه وبين ولاة العباسيين والمعارضين له معارك وحروب، وكان سفاحا للدماء، حتى سُمّي الجزّار، ثم عاد إلى الحجاز.

7. خرج إلى اليمن من جبال الرس الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسّي عام 280هـ، وأسس دولة الأئمة ومذهبهم الزيدي أو الهادوي في القسم الأوسط من جبال السراة، الممتدة من صعدة في الشمال، وحتى سفوح نقيل سماره في قاع يريم جنوبا.
8. ظهر علي بن الفضل من جبال يافع، وجرت بينه وبين الهادي وأولاده حروب طاحنة لعدة سنوات؛ إذ كان علي بن الفضل قد برز ثائرا، باسم الفاطميين في مصر ضد العلويين في اليمن. وفي الوقت نفسه ثار زميله منصور بن حسن بن حوشب في جبل مسور وحاربهما الهادي وأولاده.
9. من جبال حراز انطلق الصليحيون واستولوا على أكثر اليمن.
10. من جبال تعز أسس الرسوليون ملكهم واستولوا على أكثر اليمن.
11. أسس الطاهريون ملكهم من جبال رداع على أنقاض الرسوليين.
12. أسس الحواليون ملكهم من جبال ثلا وكوكبان.
13. هزم اليمنيون جنود الشركس الذين بعثهم المماليك في مصر، وأجلوهم من صنعاء إلى زبيد.
14. احتلّ الأتراك اليمن في المرة الأولى، وكادوا أن يخضعوا اليمن كاملا، حتى برز الإمام المنصور القاسم بن محمد في جبل جديد قارة، من بلاد الشرف، وقاومهم، حتى عقدوا معه صلحا، ثم طردهم أولاده من اليمن، وذلك في عام 1006هـ- 1597.
15. عندما احتلّ الأتراك اليمن للمرة الثانية قاومهم الإمام الهادي شرف الدين من جبال صعدة، ثم الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين وابنه يحيى، وعقد معهم «صلح دعان» حتى تم خروجهم من اليمن بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، ثم استقرت الأمور كما نراها اليوم. وضحك الأمير إبراهيم وقال: ها نحن قد قطعنا من الزمن التاريخي لليمن ألفين وستمئة عام تقريبا، ووصلنا إلى اليمن اليوم. دعنا نرى واقعنا اليوم.

قلت له: هل تسمح بذكر نكتة أرويها بعد ذلك المشوار الطويل.

قال: هاتها.

قلت: كنتُ سمعت نكته لا أدري ممن، وعندما كنتُ من حاشية ولي العهد أحمد في تعز رويتها لبعض الأصدقاء، وبلغت ولي العهد، ولكنه ابتسم ولم يغضب.

النكتة تقول: إن ملك الموت أمر بعض أعوانه بأن ينزلوا إلى صنعاء اليمن، ويقبضوا روح يحيى بن محمد، وكان يوجد شخص اسمه يحيى بن محمد، مهاجرا يطلب العلم، ويسكن في منزله بمسجد الفليحي، فقبضوا روحه وعادوا بها إلى ملك الموت، فقال لهم: أنا أريدُ روح الإمام يحيى بن محمد حميد الدين «موش» روح هذا المسكين، وعادوا مرة أخرى، وأعادوا روح يحيى بن محمد المهاجر إلى جسمه، ودخلوا إلى دار السعادة، ووجدوا الإمام يحيى نائما، فجذبوا روحه من أصابع قدميه، ولكنها كانت تمتدّ في أيديهم ثم تفلت «كالربل»، وفعلوا ذلك عدة مرات، ثم انقطع نصفها في أيديهم، والنصف الآخر بقي أعلى جسم الإمام، وتعذّر عليهم إخراجها منه، فصعدوا إلى ملك الموت بنصف روح الإمام يحيى، وقالوا له هذا ما استطعنا قبضه من روحه، فقال ملك الموت: هذا علينا، والباقي على أهل الأرض، وإلا حكمهم إلى يوم القيامة.

وضحك الأمير إبراهيم، وقال: لا شكّ أن النكتة قد أعجبت أخي أحمد؛ لأنه مستعجل الانتقال إلى الإمامة، والآن دعنا نرى واقعنا ما دمنا قد وصلنا إليه. قلتُ له: هل تذكرون عهد الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وأولاده من بعده قبل قرابة أربعمئة عام؟، قال: نعم.. وبيت حميد الدين من ذريته. قلت: هل يوجد فرق كبير بين ما كان حينذاك وما هو قائم اليوم؟ قال الأمير: لا يوجد فرق كبير، دعا القاسم إلى نفسه، والأتراك يحتلّون اليمن، وقاومهم بعنف، وبسط يده على منطقة من شمال اليمن، ثم عقد مع الأتراك صلحا لمدة عشر سنوات، وله ما تحت يده دون أن يعترف بخلافة سلطان تركيا، بعدها قام الإمام المنصور محمد يحيى وابنه من بعده والأتراك يحتلون اليمن للمرة الثانية، فحاربهم حتى مات، وحلَّ محله ابنه الإمام يحيى، وعقد مع الأتراك «صلح دعان»، ثم خرج الأتراك، وحكم الإمام يحيى شمال اليمن مدة تزيد على أربعين عاما، ولا يزال واقعنا يشبه الواقع الذي كان قبل

أربعمئة عام، تعاقبت الأجيال والدول والأشخاص، وبقي واقع الأرض وواقع المجتمع كما هو تقريبا.! قلتُ له: يا سيدي يقولون إن اليمني ذكي بطبعه، فكيف عجز الحاكم والمحكوم خلال ألف عام وأكثر من تغيير الواقع إلى واقع أفضل.

قال الأمير: أعتقد أن الظروف كانت قوية عصية على التغيير، ثم إن موقع اليمن الجغرافي فرض عليه العزلة، فبيننا وبين العوالم الأخرى بحار ومحيطات وصحارى في الشرق والشمال والجنوب، وجاء الإمام يحيى ليفرض بسياسته استمرار العزلة، ولكنا الآن في عالم متغير متواصل متشابك المصالح والأفكار والسياسات حضاريا، والأحرار في اليمن هم المعارضة المعلنة، وعليهم أن يتفاعلوا مع تلك المتغيرات، وأي معارضة هي المعنية بتغيير ما تعارضه، وعلينا أن نتحمّل هذه المسؤولية، ونضع خطة شاملة للتغيير أفكارا وأسلوبا، وأن نتحرّك في محيط أوسع للمعارضة. هناك عناصر وقوى كثيرة ساخطة على حكم بيت حميد الدين، وهناك طامعون يريدون أن يحلّوا محل بيت حميد الدين، وهناك في أسرة بيت حميد الدين من يطمحون أن يكونوا البديل عن ولي العهد، وعلينا أن نتحرّك في هذه الأطر الواسعة.

كما أننا يجب أن نحدد موقفنا من القوى العالمية الكبرى، ففي عالم اليوم مذهبان اقتصاديان متضاربان: المذهب الاشتراكي الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، والمذهب الرأسمالي في أمريكا وفي غرب أوروبا، ولهما تأثير قوي في الدول العربية والإسلامية، وفي الدول التي تُسمّى دولا نامية؛ مجازا، ثم سألني: ما موقفنا من هذين المذهبين المتناقضين؟ وقد فاجأني السؤال ولم أكن قد فكّرتُ فيه بعمق، وبعد تفكير استمر دقائق قلتُ له: كان لديَّ قناعة بأن الحكم الديموقراطي هو أفضل ما توصّل إليه الإنسان حتى الآن، ولذلك فأنا أكره أي حكم لا يقوم على أساس ديموقراطي، وأرى أن الديموقراطية في أمريكا والغرب برغم مذهبها الاقتصادي الرأسمالي ستصل إلى تهذيب المذهب الرأسمالي لصالح الطبقات العمالية والفقيرة بأسلوب ديموقراطي.

أما غياب الديموقراطية في الاتحاد السوفيتي، فأرى أنه لن يُحقّق الاشتراكية

والـمساواة التي ينادي بها؛ لأن ديكتاتورية الـحاكمين سيحوَّل الاشتراكية إلى نهب إنتاج الطبقات الـمبدعة والعاملة لصالـح الـحاكمين تحت شعار الاشتراكية. وخلال فـترة التـثـقـيف الذاتي التي عـشـتُـها ولا أزال، تولّدت لديَّ قناعة بأن مـبدأ التكافل الاجـتـمـاعي في الإسـلام يمكن أن يكون مذهبا اقتصاديا واجـتـمـاعيا وسياسيا وسطا بين الـمذهبين؛ فالشيوعية في رأيي تتناقض مع طبيعة التكوين للإنسان؛ لأن الناس يختلفون في مواهبهم وقدراتهم الطبيعية، فهناك عباقرة وأغبياء، وهناك مبدعون ومخترعون، وهناك عمال ينفّذون ما يخترعه الـمبدعون، وكل ميسر لما خلق له، ومحاولة مساواه البشر تتناقض مع الفطرة. وكذلك الرأسمالية، فقد يكون الرأسمالي غبيا، أو لا يشعر بمسؤوليته في التصرف بالـمال بطريقة تفيده وتفيد الآخرين أو لا تضرّهم، ويستغل برأسماله جهود الكفاءات الـخلاقة والعمال من الناس.

ولذلك، فإن مبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام يمكن أن يكون مذهبا وسطا، يحـقّقُ العدالة الاجـتـمـاعية بطريقة ديموقراطية؛ لأن الـحكم في الإسلام يقوم على مبدأين أساسيين هما: العدل بكل أبعاده، والشورى بكل أبعادها الديموقراطية التي لم تُطبّق خلال العهود الإسلامية الـماضية، وقال الأمير إبراهيم قد يكون هذا من الناحية النظرية صحيحا، ولكن أوضاع الـمسلمين جميعا أوضاع متخلفة مضعضعة ممزقة، لا تسمح لهم بتحويل تلك النظرية الإسلامية إلى واقع محلي وعالـمي، أو إلى مذهب جديد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وسيظلّون تابعين، إما لتيار الغرب الرأسمالي، أو لتيار السوفيت الاشتراكي لأمد طويل، ثم انتقلنا من هذا الـموضوع الشائك إلى وضعنا في «الـجمعية اليمنية الكبرى»، قلتُ له: يا سيدي نحن «بتاع كلام»، كما يقول الـمصريون، ولسنا بوضعنا قادرين على التحرك. نحن كما يقول الأستاذ نعمان: نضالنا جريدة، ومنشور، واشتراكات وتبرعات، وما جاء من نفسه حيّا به، نحن قوة وهمية، لا فعلية، فكثير من الناس، وحتى الإمام وولي عهده يتوهّمون أننا قوة حقيقية، وقوتنا في الواقع تَوهُّمهم أننا أقوياء! وقال الأمير إبراهيم بأسلوبه الـمحبب الـمتواضع: يا عزي.. أنت توصلت إلى النتيجة التي كنتُ أبحث عنها وهي: أن قوتنا في الواقع تَوهُّمُهم.

لقد بدأ الآخرون يتحرّكون، ولأنهم يتوهّمون أننا قوة أساسية لا بدّ من التعاون معها، حتى ينجحوا في تحرّكهم. بدأوا يتواصلون معنا، وليس لدينا مانع من التجاوب معهم على أساس أهداف وطنية محددة، وخطة عمل لتحقيق تلك الأهداف متفق عليها. وعندما انتهى الأمير من كلامه شعرتُ أنني أحبه أكثر من ذي قبل، وأجلّه أكثر من ذي قبل. كان كلامي مقدمة لنتيجة مفادها أننا لسنا قوة قادرة على مشاركة الآخرين، ولكن الأمير بأدبه وتواضعه أراد أن يشعرني بأنني توصّلتُ إلى النتيجة التي كان يبحث عنها. قلتُ للأمير: هذا صحيح، ولكنا سنكون الحلقة الأضعف في أي تغيير تحدثه المعارضة الموسعة؛ لأننا لا نستند إلى قوة عسكرية أو قبلية أو قواعد جماهيرية منظمة تدعمنا وتحمينا. قال الأمير: هذا صحيح، ولكن لا تنس أن مجامع الأحرار في الداخل والخارج من أكفأ الرجال، وأقدرهم على ملء المناصب، وعلى التأثير في القوى الأخرى.

ثم أردف قائلا: في حالة موت ولي العهد أو قتله سنجد أن الطامحين أو الطامعين في تولي الإمامة هم بيت الوزير، وعلى رأسهم عبد الله بن أحمد الوزير، وعلي بن عبد الله الوزير، وبيت شرف الدين وعلي رأسهم علي بن حمود شرف الدين وحسين عبد القادر شرف الدين، وبيت حميد الدين وعلى رأسهم أخي الحسين، وأخي الحسن، فمع من يتعاون الأحرار لتوسيع المعارضة؟، قلتُ له: هذا الرأي يقوم على مجرد فرضية، وفي رأيي أن ولي العهد هو الذي سيتولّى الإمامة بعد أبيه؛ إذ لا توجد قوة تحولُ بينه وبين ذلك. قال: هذا صحيح، ولكننا لا ندري كيف تكون الأمور إذا توسّعت المعارضة. قلتُ له: هل يمكن أن يكون أخوك سيف الإسلام عبد الله ضمن المعارضة، وقد يلقى دعما من إخوانه علي، ويحيى، وإسماعيل، والعباس؟ قال: هذا أمر غير مؤكد، وقد يلقى معارضة من أخي الحسن والحسين ومن بيت الوزير.

قلتُ له: سؤالي ليس مجاملة، فأنا أتمنى أن ينتقل الحكم من بيت حميد الدين إلى أسرة أخرى، فيكفينا حكمها المتخلف الذي استمرّ نصف قرن من الزمن، ولكني أرى أن التعاون مع سيف الإسلام عبد اللّه على أساس دستور ومؤسسات

دستورية هو الأسلم، فقد كان دائما متعاونا مع عناصر فاعلة من أحرار الداخل مثل أحمد المطاع، وعبد اللّه العزب، وأحمد عبد الوهاب الوريث. ثم إن عقليته منفتحة على متغيرات العصر، ولا تزال أسرة بيت حميد الدين هي الأقوى في الساحة، وقد تؤيّدُه في هذه الحالة أسرة بيت شرف الدين، إضافة إلى تأييد الأحرار، وفي رأيي أن بيت الوزير سيجدون أنفسهم مضطرين لتأييد هذا التغيير ما داموا سيكونون جزءا من سلطة الدولة، خصوصا، وأن عقلية علي بن عبد اللّه الوزير منفتحة ومستنيرة. قال الأمير: أراك متحمسا لهذا الرأي، مع أنني يجب أن أتحمّس له أنا، باعتباري شقيق سيف الإسلام عبد اللّه، إن البديل عن بيت حميد الدين هم آل الوزير، وعلى رأسهم عبد اللّه أحمد الوزير المتطلع إلى تولّي الإمامة، ولكنني غير مرتاح له؛ لأن عقليته متحجرة عقائديا على مذهب الإمام الهادي، وفي هذه الحالة سيكون أسوأ من الإمام يحيى بكثير. قلتُ له: إن ولي العهد هو الخطر الحقيقي الذي يهدّدُ حاضر اليمن ومستقبله، والتخلص منه بأي طريقة سيفقد الإمام يحيى سنده القوي وهو في شيخوخته، وسيرتاح لذلك جميع إخوانه، وجميع القوى الأخرى. قال: دع ما في الغيب للغيب، وسأعمل ما استطعت لتحويل «الجمعية اليمنية الكبرى» إلى حزب سياسي قوي للمعارضة؛ له أهداف سياسية واجتماعية واقتصادية، تحقّق الحرية والعدالة والتكافل الاجتماعي. وهكذا انتهى هذا الحوار وسارت رياحُ التغيير بما لا تشتهي السفن.. وكان ما كان.

الأمير إبراهيم والأستاذ نعمان والموضوع المحرّم

بعد أن انضمّ الأمير إبراهيم إلى حركة الأحرار في عدن تحت اسم «الجمعية اليمنية الكبرى»، وبعد أن عرف كل أوضاع الجمعية، وأنها اسم بلا مسمّى، وبعد أن أصبحت قناعاته بأن حركة الأحرار هي التي يجب أن يكون جزءا منها، إذ لا بديل لها، وأنها الوسيلة الوحيدة للتغيير في اليمن، والطريق الوحيد إلى الحرية. وقد اختارني الأمير إبراهيم مدرّسا لابنته الكبيرة، الأمر الذي جعلني قريبا وجليسا للأمير في كثير من الأوقات. وفي إحدى الجلسات -وكان معنا سكرتيره الخاص الأستاذ

أحمد البراق- ناقشنا موضوع «الجمعية اليمنية الكبرى»، التي لا وجود لها في واقع الحياة، ولكنها الاسم الذي تتطلّعُ إليه مجموعات الأحرار في الداخل وفي المهاجر، ولذلك يجب أن تتحول من مجرد اسم إلى تنظيم سياسي، له قياداته ومؤسساته ونظامه وأهدافه المحددة، ومناقشة هذا الموضوع من المحرّمات المرفوضة لدى الأستاذ نعمان.

وقد انضمّ إلينا في جلسات أخرى القاضي محمد محمود الزبيري، وأكّد أن مناقشة هذا الموضوع مع الأستاذ نعمان كان دائما عامل تمزق للأحرار ولحركتهم، وكان يجد نفسه مع خطأ الأستاذ، حرصا على مظهر الوحدة الوطنية، وأضاف قائلا: «وربما يكون انضمام الأمير إبراهيم هو الفرصة الوحيدة التي قد تقنع الأستاذ نعمان، أو تجبره على التراجع عن أخطائه، ولكني أخشى أن تؤدي إلى التمزّق». من جهته، أكد الأمير إبراهيم أن التمزّق لن يحدث مهما كان موقف الأستاذ، ولكنا سنكون قد حاولنا وبرّأنا ذمتنا، وحمّلناها ذمة الأستاذ إذا أصرّ على استمرار الخطأ، وطلب من القاضي الزبيري التمهيد لدى الأستاذ وإقناعه بأننا لا نطلب منه كشفا بأسماء المتبرعين، ولا كشف حساب مالي، وإنما سنناقش معه تحويل «الجمعية اليمنية الكبرى» من مجرد اسم لا وجود له يملكه الأستاذ، إلى تنظيم سياسي حقيقي له نظامه، وأهدافه، ومؤسساته، وقياداته.

واقترح الأمير أن يناقش الموضوع وحده مع الأستاذ، وطلب من الزبيري تحديد موعد، لمناقشة الموضوع مع الأستاذ، على أن يقترن الموعد بدعوة للغداء في سكن الأمير، وقد ذكر الأستاذ نعمان في مذكراته التي نُشرت بعد وفاته تفاصيل جلسة النقاش مع الأمير إبراهيم، وهي تفاصيل تبرز الأستاذ كما هو في الواقع الذي قد لا يتصوّره الكثيرون من أنصاره أو معارضيه، وحتى لا يتهمني أحد بالتجنّي عليه أنقل بالنص، وبدون حذف أو زيادة ما قاله الأستاذ نعمان بلسانه الذي خلقه الله في فمه، وكتبه بقلمه وخطه الجميل، وبرغم أنه لم يكن صادقا في ذكر أسباب محاولة الأمير إقناعه بضرورة وجود أهداف ونظام أساسي للجمعية اليمنية الكبرى، وفي ذكر ما طلبه الأمير إبراهيم منه، وفي ذكر أسلوب الزبيري في تبليغ رغبة الأمير للقاء

بالأستاذ، وذلك بهدف تبرير موقفه إلا أننا نوردُ أقوال الأستاذ في مذكراته كما وردت، عدا العناوين. يقول الأستاذ في مذكراته[1] عن انضمام الأمير إبراهيم إلى صفوف الأحرار، وعن جلسة النقاش ما يلي: وبعد الاجتماع بالأمير إبراهيم سرا عدة مرات، للتفاهم على الانضمام إلى صفوف الأحرار وموافقته على ذلك وجدنا من الإنصاف له، والاستفادة الكبرى من انضمامه أن يلقى منا كل تكريم وإعزاز، وأن ننزله منزلا كريما بين المواطنين. وقد رحّب المواطنون به أعظم ترحيب، وأقاموا له حفلة تكريم في فندق إحسان الله، وألقيت الكلمات المناسبة للترحيب به، فأعلن في نفس الحفلة انضمامه إلى صفوف الأحرار بكلمة ألقاها، وبيان صدر عنه، ونشرت الكلمة والبيان في صحيفة «صوت اليمن»، وأحدث انضمامه دويا هائلا في الداخل والخارج، وكسبت حركة الأحرار قوة وانتصارا وثقة، وقطعت شوطا ما كان لها أن تقطعه خلال عشر سنوات. وتوثّقت الصلة بيني وبينه إلى حد بعيد، فقد كان صريحا واضحا صادق اللهجة، متحررا من روح الأنانية والاستبداد، تحررا جعل الآخرين الذين لا يعرفونه حق المعرفة يتهمونه بالضعف والجهل والغباء، وأنه مسيّر لا مخيّر.

وأعظم ما جعلني أثق بالأمير إبراهيم أن بعض الحاقدين كالفسيل والأسودي وغيرهما أرادوا أن يفسدوا العلاقة بيني وبينه ويشككوه في أمري، ويثيروا سخطه، فقالوا: «إن نعمان مستأثر بشأن الجمعية وأموالها وأسرارها والمرتبطين بها، وأنت مجرد زعيم للجمعية لا تعرف من شؤونها شيئا، ولا تعرف أحدا من أعضائها، فقال لهم: بالله عليكم لو لم يكن نعمان في عدن وله مكانته عند القوم أهل بلده، هل كان أحد يقوم مقامه في عدن؟ من الذي سيستقبلنا فيها، أو ينزلنا بهذه الدار، ويهيّئ وسائل العمل لنشر القضية في صحيفة ومطبعة ونفقة للعاملين المتفرغين؟ ولما أسكتهم بهذا المنطق ركزّوا على إقناعه بأن يكون هو وحده زعيما للجمعية، مطلعا على كل شيء، واقترحوا عليه أن يدعوني إليه، ويطلب مني المعلومات عن مالية

(1) مذكرات الأستاذ النعمان، ص 49–50، و251–253، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة .

الـجمعية وأعضائها والـمشتركين فيها والـمراسلين والرسائل إلى غير ذلك، وأظهروا له أنهم فقط خائفون فيما لو حدث للأستاذ نعمان أي حادث، وأنهم يشاركونه التقدير لنعمان والاعتراف له بالوطنية والإخلاص».

وتقوّل الأستاذ على الزبيري تبريرا لموقفه، فوجئتُ، وأنا في الـمطبعة، كما كنتُ دائما ملازما لها، أشرف عليها وعلى طبع الصحيفة وتصحيحها، وأستقبل في مكتبها الزائرين.. فوجئتُ بالأستاذ الزبيري، زميلي وأخي، والأستاذ البراق سكرتير الأمير يطلبان إليّ أن أقابل إبراهيم، فقلتُ لهم: «بعد الفراغ من عملي سأذهب»، فقال الزبيري: «دع العمل فإن الأمير غضبان، وربما يأتي بنفسه و«يلبجك»!، واللبج في اللغة العامية في اليمن معناه الضرب، فلم أتمالك نفسي من أن أرد عليه بأني لست عبدا له ولا لأبيه حتى «يلبجني»، وأنا لم أترك اليمن وأضحّي بكل عزيز عليَّ من مال وأهل وأولاد، لكي ألقى الهوان والذل على يد الأمير أو غيره!! فخرجا من عندي، وما هي إلا لحظات حتى عاد الأستاذ الزبيري لوحده، وكاشفني بما دار عند الأمير، وأنه أعجب بردّي عليه أمام سكرتير الأمير الذي كان ممن أيّد أولئك الحاقدين، وحاول التأثير على الأمير، وقال لي: لم أقل لك ما قلتُ إلا ليعرف البراق أني لم أكن متواطئا معك كما اتهموني! وقال لي: «إن الأمير تولّى الدفاع عنك بما لا يمكن أن تدافع به أنت عن نفسك، ومن رأيي أن تزور الأمير وتسمع ما عنده من حديث».

ويستمر الأستاذ قائلا: وقد زرت الأمير ووجدت عنده «الفسيّل» أحد هؤلاء الدسّاسين، فقلتُ له: «تفضل بالخروج، فإن عندي حديثا خاصا مع الأمير»، فحاول أن يبقى، ولكنني أصررتُ على خروجه فخرج. «وبدأت الحديث مع الأمير فأثار ما دار بينه وبين أولئك، مطالبا بأسماء أعضاء الجمعية وقال: لا يمكن أن أكون زعيما في جمعية لا أعرف أعضاءها، وأنا واثق منك، ولكنا نخشى أن تتعرض لحادث وكل شيء مسجل باسمك، المطبعة والصحيفة، ومقر الجمعية، وحتى السيارة التي أستقلّها؛ إضافة إلى مالية الجمعية». قلتُ له: «إن هذه أسرار وأنا مؤتمن عليها، ولا يمكن أن أبوح بها لأحد، ولا أعرّض أي مواطن لضرر أو أذى، والذين يحرضونك

يعرفون كل شيء». قال: ولماذا لا تطلعُ زملاءك؟ قلتُ له: هؤلاء ليسوا مكافحين، ولكنهم مرتزقة، قال: والأستاذ الزبيري؟ قلتُ له: كذلك، قال: وأنا؟ قلت: وأنت، وكانت هذه مني في حالة انفعال فقدت معه الصواب.. فصمت -رحمه الله- ولم يقل سوى هذه الكلمة، «لا رحم الله الإمام الذي اضطرنا لمواجهة هذا الموقف»، وقد ندمت أشد الندم وشعرت بغلطة كبرى، وتجمّدتُ على المقعد الذي أنا فيه، كأنني كنتُ مشدودا إليه بحبال وثيقة، وثقل لساني ولم أنطق بكلمة من شدة الخجل والندم، ولم أرفع رأسي لأنظر بعيني في وجه الأمير. وقد حضر خادم الأمير كأنه ينقذنا من سبات عميق وقال: إن مائدة الطعام أعدتها العائلة لكما قبل ساعة، وقد برد كل شيء، فأخذ الأمير بيدي، وانتقلنا إلى المائدة وجلسنا عليها لا يتكلّمُ أحد منا. وما كان أنبله حينما قال لي: يا هذا لننسى هذه الجلسة اللعينة البغيضة، ولنعد لصفائنا وثقة كل منا بأخيه. ولعن الله المفسد، وأرجو أن نعتبر كل شيء وكأنه لم يكن.. فتهلّل وجهي وزال عني الحرج، وأقبلتُ عليه بكل مشاعري، وهذه هي الجفوة الوحيدة التي قامت بيني وبينه رحمه الله. انتهى كلام الأستاذ نعمان بالنص.

وأستطيعُ أن ألخّصَ رأي الأستاذ نعمان في زملائه والمناضلين معه بالعبارات التالية: أحرار المنطقة الزيدية مرتزقة، أحرار المنطقة الشافعية رعية، أو حاقدون، برنامج ونظام وتنظيم الأحرار خلاصته عند الأستاذ نعمان: ثقوا بي وبس، والنضال الوطني: جريدة ومنشور واشتراكات وتبرعات وبس، ما يأتي من نفسه حيّا به.

الفصل التاسع
رياح الثورة تهب من مصر

كان في مصر عدد كبير من الطلبة اليمنيين، وأهم البارزين منهم حينذاك: الأستاذ محيي الدين العنسي، والأستاذ أحمد حسن الحورش، والأستاذ محمد صالح المسمري، ويحيى زبارة، وعبد اللّه بن الأمير علي الوزير، وكان التواصل بينهم وبين «الإخوان المسلمين» قائما؛ بل إن الأستاذ محمد المسمري كان منضما إلى منظمتهم، كما أن الأحرار اليمنيين في اليمن كانوا يؤيّدون «الإخوان المسلمين»، تجاوبا مع تأييدهم لقضية الأحرار في اليمن؛ ولكني أستطيعُ أن أؤكّد أن هذا التأييد المتبادل لم يكن يعني على الإطلاق وجود صلات تنظيمية أو وجهات نظر متطابقة بين الجانبين. كان أحرار اليمن بحاجة إلى من يؤيّد قضيتهم، وكان «الإخوان المسلمون» هم التنظيم الوحيد الذي كان يتعاطف مع القضية اليمنية، وهذا جذب إليهم عواطف الأحرار وتعاطفهم مع منظمة «الإخوان المسلمين» كحركة سياسية أكثر منها حركة دينية. وبعد انضمام الأمير إبراهيم إلى حركة الأحرار كثّف «الإخوان المسلمون» اتصالاتهم بأحرار اليمن، بكونهم الأداة أو الآلية التي تحقّقُ لهم ذلك الطموح، ولذلك قرّروا تكثيف اتصالاتهم بالأحرار اليمنيين في مصر، وعلى رأسهم الأساتذة محيي الدين العنسي، وأحمد حسن الحورش، ومحمد صالح المسمري.

الفضيل الورتلاني ورياح الثورة من مصر

في منتصف عام 1947، سنحت فرصة، سرعان ما اغتنمها «الإخوان المسلمون» في مصر، فقد خرج الأمير محمد البدر ابن ولي عهد اليمن إلى أسمرة للعلاج، وكان برفقته الأستاذ صالح محسن شرف، وهو من حاشية ولي العهد

المناضل محمد صالح المسمري

الفضيل الورتلاني

المقربين، ويُعتبر السكرتير الخاص لولي العهد، ولكنه كان أيضا من المتعاطفين المؤيدين لحركة الأحرار، وفي أسمرة استقبل المهاجرون اليمنيون البدر وكرّموه، وشكوا إليه ما يعانيه أهلهم في اليمن من مظالم لا حدود لها فوعدهم خيرا. وشجّعه الأستاذ صالح محسن على إرسال برقية إلى والده، يستأذنه في مواصلة السفر إلى مصر، لاستكمال العلاج، فأذن له بذلك.

وفي مصر استقبله الأحرار والطلبة اليمنيون، وكرّموه وتحاوروا معه في ضرورة إحداث إصلاحات ولو محدودة في أساليب الحكم، وانتدب «الإخوان المسلمون» السيد الفضيل الورتلاني، وهو مناضل جزائري لاجئ في مصر، وشخصية من أقوى الشخصيات تأثيرا في إقناع الآخرين، وصلته بأحرار اليمن قديمة ومستمرة، ليساعد في التأثير على الأمير محمد البدر، وسرعان ما أصبح الفضيل محل إعجاب البدر واحترامه وتقديره، فقد وجده من أكبر العلماء الإسلاميين ومن أقواهم حجة وأعظمهم تأثيرا.

ويبدو أن الفضيل الورتلاني كانت لديه معلومات واسعة ودقيقة عن اليمن واليمنيين، وعن الإمام يحيى وأسرة بيت حميد الدين الحاكمة، وكان همُّه من

الاتصال بالبدر الحصول على إذن من الإمام وولي عهده بالدخول إلى اليمن، ولهذا تجنّب الحديث في السياسة مع البدر، أو الإشارة إلى قضية الأحرار والحركة الوطنية، أو الإشارة إلى موضوع حالة التخلف في اليمن، أو تقديم النصح بضرورة إحداث تغيير إصلاحي في أسلوب الحكم، وركّز على الجانب التجاري الذي سيدرُّ على اليمن واليمنيين، وعلى الحاكمين فيه أرباحا ضخمة تزيدُ على ما تتحصّله الحكومة اليمنية من الزكاة والضرائب.

وفي آخر عهد الإمام يحيى، قبل مصرعه بثمانية أشهر، جاء إليه المناضل الجزائري العلامة الفضيل الورتلاني ولم يعد لدى الإمام أي وقت أو رغبة في مناقشة إصلاحات الحكم، ولهذا حمل الفضيل، إليه فكرة تشكيل شركة تجارية تدرُّ عليه أرباحا ضخمة، وركّز جهوده في التعاون مع كل المعارضين للإمام ولأسرته الملكية على وضع ميثاق وطني دستوري للإصلاح، وتكوين جبهة عريضة للمعارضة، مكوّنة من كل الساخطين والمستنيرين والطامحين للإمامة، وهي جبهة هشّة متناقضة، وقامت هذه الجبهة باغتيال الإمام يحيى، وتولّى الإمام الدستوري عبد اللّه بن أحمد الوزير الإمامة بالتحالف مع الأحرار والمستنيرين الذين كانوا قد أعلنوا معارضتهم للإمام يحيى علنا في منتصف عام 1944، وسيأتي تفصيل ذلك في الفصول التالية من ذكرياتي.

وقد كان لهزيمة الإمام يحيى في الحرب السعودية اليمنية عام 1934 ردود فعل لدى الكثير من الشخصيات اليمنية التي رأت أن هزيمة الإمام في هذه الحرب دليل على سوء إدارته وحكمه لليمن، كما كان لها رد فعل آخر لدى الإمام نفسه، فقد فكّر بعد الهزيمة أن يبني جيشا يمنيا قادرا على الحرب، واستقدم بعثة عسكرية عراقية لتدريب الجيش اليمني، كما أرسل بعثة طلابية للدراسة في الكلية العسكرية العراقية، كما سبق. غير أن هذه المبادرة كانت مجرد نزوة إمامية مؤقتة، لم تغيّر في وضع الجيش اليمني ولا في وضع حكمه أي تغيير؛ بل ظلّ التخلف هو الذي يحكم اليمن، ولم يستفد الإمام يحيى ولا استفادت اليمن من البعثة العسكرية العراقية، ولا من البعثة الطلابية العسكرية إلى العراق أي فائدة عسكرية؛ بل العكس

من ذلك، فقد استمرّ الإمام يحيى يفرض على الجميع حكمه الفردي، ويفرض على اليمن التخلف والعزلة، والفقر، والمرض، والجهل. وبدأت بعد ذلك الانتقادات والمنشورات ضد الإمام، ولكن بقي من البعثة العسكرية العراقية الضابط جميل جمال العراقي الذي كان له دور مهم في الإعداد لثورة 48 الدستورية، كما أن البعثة اليمنية إلى العراق قد أسهمت بقوة في نشر الوعي الوطني، وفي تفجير ثورة 48 الدستورية.

يروي المرحوم صالح محسن أن الفضيل صوّر للبدر الوضع التجاري في اليمن، وأن الواردات تأتي كلها من عدن، وتتحّكمُ فيها شركة «البس» وهو أجنبي أتى إلى عدن، فقيرا، وأصبح تاجرا عالميا من الأثرياء؛ لأنه كان يستورد كل ما تحتاجه اليمن إلى عدن، ويعيد تصديرها إلى أنحاء اليمن، شمالا وجنوبا، كما كان يستورد كل ما تصدّرُه اليمن إلى الخارج ويسوّقه في الخارج، وقال للبدر: «يا سمو الأمير: إذا كوَّنتم شركة تجارية يمنية تتصل مباشرة بالشركات والتجار في أنحاء العالم، وتستورد ما تحتاجه اليمن بدون وساطة شركة (البس)، فإن المردود عليكم سيكون ضخما، لا تستطيعون أن تتصوّروه الآن»، وأكّد عليه أن هذه الشركة اليمنية تحتاج إلى خبرة واسعة بالتجارة العالمية، واقترح عليه أن تكون شركة الحاج محمد سالم المصرية شريكا لليمنيين في الشركة المقترحة.

وكان محمد سالم من «الإخوان المسلمين»، ويملك أسطولا من الحافلات العاملة في أنحاء كثيرة في مصر، أما البدر فقد كان مأخوذا ومبهورا بشخصية الفضيل الورتلاني، يثق به ثقة مطلقة، ويرتاح إلى آرائه البعيدة عن السياسة والنصائح السياسية. وقد استقبل الأمير البدر الحاج محمد سالم في مقر إقامته، وتناقشا في موضوع إنشاء شركة تجارية يمنية للاستيراد والتصدير، ثم أقام له محمد سالم حفلة تكريم في فيلا ضخمة، يملكها وسط بساتين ومزارع واسعة في منطقة الفيوم، وحضر هذه الحفلة عدد كبير من قادة «الإخوان المسلمين» والتجَّار المصريين، وعدد من اليمنيين المقيمين والدارسين في القاهرة. وبعدها أرسل البدر إلى أبيه ولي العهد رسائل قدّم فيها الفضيل الورتلاني وفكرته في إنشاء شركة تجارية يمنية مصرية،

وطلب من أبيه الإذن بوصول الفضيل الورتلاني إلى اليمن، لإنشاء تلك الشركة. ويبدو أن ولي العهد حسَّن لأبيه الإمام يحيى فكرة إنشاء الشركة التجارية المختلطة، واستأذنه بدعوة الفضيل الورتلاني لزيارة اليمن. وخلال ذلك كان التواصل بين الأستاذين الزبيري ونعمان مع الإخوة محيي الدين العنسي، ومحمد صالح المسمري، وأحمد حسن الحورش في القاهرة مستمرا.

وفي منتصف عام 1947 وصل الفضيل الورتلاني إلى عدن في طريقه إلى اليمن للمرة الأولى، وقد اجتمع بالأستاذين الزبيري ونعمان اللذين كانا يترقّبان وصوله، واستقبله عند وصوله إلى عدن السيد حسين الويسي، وكيل ولي العهد في عدن، وسهّل سفره إلى تعز، ورافقه إلى هناك؛ أما أنا فلم أقابل الفضيل حينذاك. ويروي صديقي أحمد الشامي في مذكراته «رياح التغيير في اليمن» أنه عندما عاد من عدن إلى ولي العهد، بعد فشله في إعادة الأمير إبراهيم إلى أخيه ولي العهد أخبره أنه سمع في عدن أن الفضيل الورتلاني سيأتي إلى اليمن عن طريق عدن، مندوبا عن شركة الحاج محمد سالم، لتأسيس شركة تجارية يمنية مصرية، ولكنه يظنّ أن وراء مجيء الفضيل هدفا سياسيا يختفي تحت مشروع الشركة التجارية، وأن ولي العهد قال: نعم، سيصلُ غدا ومعه الدكتور أحمد فخري، برفقة حسين الويسي وستستقبلهما وترافقهما طيلة بقائهما في اليمن. فإذا صحت الرواية التي رواها الأخ علي محمد عبده في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين» بأن الفضيل وصل إلى عدن للمرة الأولى منتصف عام 1947.. وصحّت أيضا رواية الأخ أحمد الشامي فإن هذا يعني أن الأمير إبراهيم قد بقي في فندق إحسان الله ما يقرب من سبعة شهور، أي من 27 نوفمبر 1946، وحتى شهر مايو أو يونيو 1947 وفي هذا التاريخ انتقل إلى دار «الجمعية اليمنية الكبرى»، وسكن هو وعائلته في الدور الثالث. وهذا يعني أن الفضيل الورتلاني قد وصل إلى عدن في المرة الأولى منتصف عام 1947.

دور الفضيل في تفجير الثورة

إن رياح الثورة التي تحرّكت من داخل اليمن، ومن قصر الإمام يحيى نفسه

بخروج ابنه الأمير إبراهيم وانضمامه إلى الأحرار في عدن، قد حرّكت في الداخل طموحات متناقضة، فقد اقترنت طموحات الأحرار في الداخل والخارج بآمال كبيرة في تسريع الأحداث للوصول إلى تغيير ثوري أو إصلاحي لمصلحة الشعب، كما اقترنت طموحات أولاد الإمام يحيى المهمّشين بأن يكون التغيير في نطاق الأسرة ولمصلحتها، واقترنت طموحات الأسر الكبيرة المتطلعة إلى تولي «الإمامة» بأن يصعد بها التغيير إلى القمة، كبديل لأسرة بيت حميد، وأهم تلك الأسر: أسرة آل الوزير، وأسرة آل شرف الدين. ولكن رياح الثورة التي هبّت من الداخل، قد امتدّت إلى ما حولها، وأثارت طموحات «الإخوان المسلمين» في مصر بأن تكون اليمن البلد الذي يطبّقون فيها نظريتهم في إنشاء الدولة الإسلامية، ولهذا كثّفوا اتصالاتهم باليمنيين الموجودين في مصر وعلى رأسهم الأخوة الأحرار: محيي الدين العنسي ومحمد صالح المسمري، وأحمد حسن الحورش، وعبد اللّه بن علي الوزير، ويحيى أحمد زباره، وبواسطتهم تم قيام تعاون بين الأحرار في عدن وبين قيادة «الإخوان المسلمين» في مصر. وفي شهر رجب عام 1366هـ-أبريل 1947، عاد إلى اليمن السيد عبد اللّه بن علي الوزير من القاهرة، ولا أدري هل عاد بترتيب مع الأحرار في مصر؟ أم إنه قرّر العودة بصفة شخصية؟ وهو شخصية من الشخصيات الوطنية المستنيرة، يشارك في العمل الوطني بحماسة ونشاط وفاعلية، وكان من أهم الشخصيات التي تعاونت مع الفضيل الورتلاني في الإعداد للثورة وفي تفجيرها.

وعندما تحرّك الفضيل الورتلاني من مصر في طريقه إلى اليمن تحرّكت به ومعه رياح ثورة الدستور والحرية في اليمن من الخارج، وكنتُ أتمنّى لو أنني عرفت الفضيل وجالسته وتأثّرت به، ولكن هذه الأمنية لم تتحقّق، فعندما وصل إلى عدن للمرة الأولى في منتصف عام 1947، اقتصرت لقاءاته بالأمير إبراهيم والأساتذة نعمان، والزبيري، والبراق، ولكني عرفت أن شيئا جديدا قد طرأ على حالة «الجمعية اليمنية الكبرى»؛ لأن اجتماع قيادة الجمعية لبحث أمر من الأمور يعتبر شيئا لم يكن موجودا من قبل، وعقدهم لقاء جماعيا مع شخصية في حجم الورتلاني يُعتبر

شيئا جديدا، لم يكن ممكنا من قبل. ولم أكن أعرف ما دار في تلك الاجتماعات، ولكن القاضي الزبيري أخبرني بأن التعاون مع الإخوان المسلمين قد اتخذ طابع التخطيط، وعاد الفضيل الورتلاني إلى مصر عن طريق عدن، ثم عاد إلى اليمن للمرة الثانية والأخيرة في 13 أغسطس 1947، ولاحظتُ أن لقاءاته بقيادة الأحرار كانت مكثفة وتستمر ساعات، ولم أكن أشارك فيها، ولكني كنتُ مرتاحا ومسرورا، لأن قيادة «الجمعية اليمنية الكبرى» بدأت تجتمع، وأمَّلتُ أن تتطوّر اللقاءات إلى نظام وهيئات تنظيمية.

الفصل العاشر
الأحرار والبحث عن حلفاء

قامت سياسة الإمام يحيى على عزل اليمن عن العالم، وخصوصا الدول العربية، ولكنه في عام 1944 اضطرّ إلى اتخاذ قرار لم يكن يريد اتخاذه، وهو انتساب اليمن إلى جامعة الدول العربية حينذاك، وليس انضمام اليمن. وقد كان فرار الزعيمين الزبيري والنعمان إلى عدن، وتشكيل حزب الأحرار هناك من الأسباب التي دفعت الإمام يحيى للانتساب إلى الجامعة العربية. وكانت الدول العربية التي تُعتبر مستقلة، برغم وجود قوى خارجية فيها هي في ذلك الوقت: مصر، والعراق، والمملكة العربية السعودية، وسوريا، ولبنان، وشرق الأردن.

في يوم 25 سبتمبر 1944، اجتمع رؤساء تلك الحكومات في القاهرة، وقرّروا إنشاء جامعة الدول العربية، وأرسلوا إلى الإمام يحيى رسائل، يطلبون منه إرسال رئيس حكومة اليمن دون أن يعرفوا أنه لا تُوجد في اليمن حكومة أو رئيس حكومة، وتحت إلحاح هذه الدول العربية، قرّر الإمام تعيين السيد حسين الكبسي، ممثلا «ساكتا» لليمن، يستمع ولا يتكلّم؛ حتى انتشرت في كل البلاد العربية نكتة يقولها كل من لا يريد أن يتكلّم: «أنا اليوم كبسي»! وعندما أرسل الإمام يحيى موافقته على انتساب اليمن إلى الجامعة العربية، وتعيين مندوبه فيها، أقبل رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحّاس باشا وبشّر المؤتمرين قائلا: أبشركم يا حضرات السادة الزملاء المحترمين، بأن السيد حسين الكبسي الوزير اليمني المفوض في القاهرة، قد تلقّى اليوم برقية من حضرة صاحب الجلالة إمام اليمن نصّها كالآتي: «من ملك اليمن إلى الولد حسين الكبسي، آمركم بالاشتراك في اللجنة التحضيرية مع مندوبي البلدان الشقيقة، بشرط عدم التقيد بشيء إلا بعد العرض علينا، لنوافق على ما نرى

إن شاء الله الـموفق». وجلس الكبسي مستمعا فقط، لا يتكلّمُ إلا لرد التحية، ولكن هذا الكبـسي الصـامت ثار على صـمـتـه وعلى إمـامـه، وكـان من قـادة ثورة 1948 الدسـتورية التي اغـتـيل فـيـهـا الإمام يحـيى، وعُـيّن الكبـسي وزيرا للخـارجـيـة في الـحكومة الدستورية الـجديدة، وكان ما كان.

بعثة الأربعين التعليمية إلى لبنان

في آخر عام من حياة الإمام يحيى اتخذ قرارا بإرسال بعثة طلابية، للدراسة بمدارس الـمقاصد الـخيرية في بيروت؛ مكونة من أربعين طالبا يمنيا، تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة. وكان هذا القرار تحت ضغط حـمـلات الدعاية الـمعارضة لسياسة الإمام الانعزالية الـمتخلفة. وقد توجّه أفراد بعثة الأربعين من صنعاء إلى تعز، وقابلوا ولي العهد أحمد حميد الدين في شهر يوليو 1947، ثم انتقلوا إلى عـدن ونزلوا في جـبـل حـديد مـؤقـتـا، وكنتُ حـينذاك في عـدن، وقـد اهتـمّت «الـجـمعية اليـمنية الكبرى» بالتواصل مع أفراد هذه البعـثة، وزرتهم مرات عديدة، وزودناهم بنسخ من صـحـيـفـة «صـوت اليـمن»، ومن منشورات «الـجـمـعـيـة اليـمنية الكبرى»، ثم واصلت البعثة سفرها إلى بيروت، ومات الإمام يحيى، وهي هناك، وبعد سنة أمر الإمام أحمد بنقل البعثة كاملة للدراسة في مصر، وذلك في منتصف عام 1949.

وقـد أصـبـحت بعـثـة الأربعين هذه من أهم العناصـر الوطنيـة التي شـاركت في حركة الأحرار الـمنظمة في عدن وفي القاهرة، باسم الاتحاد اليمني. كما تولّى الكثير منهم مناصب مهمة في حكومات الـجمهورية العربية اليمنية، بعد قيام ثورة سبتمبر 1962، ومنهم على سـبـيل الـمـثـال: السـيـد مـحـسن العـيني، أول وزير جـمـهـوري للخـارجـيـة، والسـيـد حـسن مكي الذي تولّى عـدة مناصب جـمـهـورية، منها وزارة الاقـتـصـاد، ووزارة الـخـارجـيـة، ومنهم الـمـهـندس عـبـد اللّه الكرشـمي، أطول وزير للأشغال في عهود الـجمهورية.

مهمة في البيضاء

صورة السلطان حسين أحمد الرصّاص

عندما كنتُ أعطي ابنة الأمير إبراهيم بعض الدروس في صالون منزله جاء الأستاذ البراق، وتبعه القاضي الزبيري، والأستاذ نعمان، وخرج الأمير إبراهيم، وجلسوا على كراسي طاولة الطعام، وسمعتُ الأمير إبراهيم يقول: يجب التحرّك والعمل الجاد، لأننا نمرُّ بمرحلة حاسمة وخطيرة. ثم التفت إليّ وقال: لقد رأينا أن تسافر إلى منطقة البيضاء، وتتصل بالسلطان حسين أحمد الرصّاص، وتحاول إقناعه بالتعاون مع الأحرار، استعدادا لأي طارئ في المستقبل. وابتسمت، وتساءلت: هل الأستاذ نعمان مع هذا الرأي؟ وضحك الأستاذ نعمان وقال: لماذا لا توجّه السؤال إلى القاضي الزبيري؟ قلتُ له ضاحكا: لأن السفر بفلوس يا أستاذي العزيز. وضحكنا جميعا، وقال الأستاذ: الفلوس تجلبُ الفلوس، نعطيك مصاريف السفر، وتردّها أضعافا مضاعفة من السلطان الرصّاص، فقلتُ له: يا أستاذي العزيز، السلطان الرصّاص شافعي من المشرق مش من ذبحان. «يشا» منك فلوس على رد السلام، وضحكنا جميعا، ثم قلتُ لهم: دعونا نتناقش بجد. أنا مستعد أن أقوم بأية مهمة بشرط أن أعرف لماذا أقوم بها، وأعرف طبيعة المرحلة الحاسمة التي نمرُّ بها، وأعرف موقعي في هذا الدور.

قال الأمير إبراهيم: أنت واحد منا، ومن الآن ستشاركنا في كل الأمور، ونحن الآن على صلة بأسر يمنية كبيرة، وبمشايخ قبائل، وبالأحرار في الداخل، بهدف تجميع كل الساخطين على الأوضاع، لإحداث تغيير في الأوضاع، على أسس ميثاق وطني دستوري، كما أننا الآن على صلة وتعاون مع «الإخوان المسلمين» في مصر عبر إخواننا الأحرار في القاهرة، وأنت تعرف أن الإمام كثير الأمراض في شيخوخته، وقد

يموت في أي يوم، وإذا لم نستعد من الآن فإن أخي ولي العهد أحمد سيتولّى الإمامة، وهو أخطر على البلاد من أبيه، قلت: وماذا تريدون من الرصّاص؟ وبعد نقاش تحددت مهمتي في إقناع الرصّاص بالتعاون مع الأحرار، فإذا اقتنع سيكون الأحرار قد كسبوا قوة مسلحة يفتقدونها. وفي هذه الجلسة تقرّر أن يسهّل لي الأخ عبد اللّه عثمان السفر إلى مدينة لودر المحاذية لمنطقة البيضاء، ومن هناك احتال للوصول إلى منطقة مرخة التي يسيطر عليها السلطان الرصّاص.

ويظهرُ أن الأمير إبراهيم أكثر فهما لواقع اليمن منّا جميعا، وأكثر فهما لما تتطلّبه أي ثورة من إعداد وتخطيط؛ ففي نهاية الجلسة اقترح الأمير إبراهيم تعميم الخطة مع الرصّاص في مناطق أخرى من اليمن، وكلّف الأستاذ نعمان والأستاذ الزبيري بإرسال رُسل باسم «الجمعية اليمنية الكبرى» إلى كبار المشايخ في تعز، كالشيخ محمود عبد الحميد عثمان، وفي إب كالشيخ حسن الدعيس، والشيخ علي بن محسن باشا وآل دماج، وإلى الشيخ علي ناصر القردعي في مراد، وإلى الشيخ علي بن علي الغادر في خولان، وإلى الشيخ حسين الصّعر في عمران، والشيخ عبد اللّه أبو لحوم في نِهْم، وإلى مشايخ الحدا آل القوسي وآل البخيتي، وإلى مشايخ آنس آل المقداد، وإلى الشيخ علي المطري في بني مطر، وإلى آل الحباري وآل أبو غانم في أرحب.

وأثناء خروجي من الاجتماع فكّرتُ في الطريقة التي أتخفّى بها خلال سفري، حتى لا أنكشف، وقررتُ أن أتزيّا بزيّ آل الكاف، أو آل السقاف من سادة حضرموت، وأن يكون اسمي السيد إبراهيم بن عقيل السقاف، وكان لديَّ كتاب كبير في علم النفس، وفيه صور كثيرة تمثّل حالات الإنسان المصاب بأمراض نفسية، وصور الهيكل العظمي للإنسان، فقرّرت أن أخذه معي للمطالعة. ثم ذهبتُ إلى مكتبة، واشتريت كتابا عن أمراض المنطقة، وسألت بعض أهل البيضاء عن الأمراض المنتشرة في بلادهم، فأخبروني أن الملاريا أكثر الأمراض انتشارا، وذهبت إلى الصيدلية، واشتريت كمية من حبوب «السلفاطة»، وحبوب الأسبرين، وشراب ضد السعال والحميات عند الأطفال. كما اشتريتُ كمية من معلبات الحليب والفواكه،

وكمية من علب البسكويت، وحرصت أن أشتري قطعة من القماش «المريكني» المعروف في اليمن، وذهبت إلى من يخيطه ويحوّله إلى كيس أنام فيه، لأتقي البعوض «النّامس» والبق «الكتن» التي كنتُ أعرفها حتى ونحن في دار الناصر، دار ولي العهد أحمد، ثم عدتُ إلى غرفتي «المفرج» في دار الجمعية، ووجدتُ الأخ عبد اللّه عثمان ينتظرني، وبعد التفاهم معه أعطاني (500) روبية، وقال لي: هذه حوالة الأستاذ مصروف الطريق، ولكني قدّرتُ أنها غير كافية، وسلّمني خمسمئة روبية أخرى منه، وقال لي: ربما تحتاجُها، فحوالة الأستاذ قد لا تكون كافية. وهكذا وجدت في حوزتي ألف روبية بالتمام والكمال لأول مرة في عدن. وأخبرني الأخ عبد اللّه عثمان أنه قد رتَّب سفري على سيارة تاجر «بياع مشتري» من مدينة لودر، وسوف أسافر على السيارة يوم الخميس أي بعد يومين.

في يوم الخميس ربما 17 أكتوبر 1947، مرّت السيارة، ونقلت إليها شنطتي، وفيها كل حوائجي، وكنتُ قد لبست الثياب التي أبدو فيها من آل السقاف، وعندما تجاوزت بنا السيارة حدود مدينة عدن والشيخ عثمان بقليل شعرتُ أنني انتقلت من القرن العشرين إلى القرون الحجرية، فقد اختفت الطريق المعبدة، وبدأت السيارة تزحف في طريق ترابي بدائي، وتثير من حولها عاصفة من الرمال، تكاد أن تخفي السيارة، وكان علينا أن نغلق زجاج نوافذ السيارة ونتحمّل الحر الشديد، فهو أهون من الغبار؛ أما الركاب الذين في الجزء المكشوف من السيارة فكان على كل منهم أن يلتحف بلحافه أكثر ساعات السفر، ومرّت بنا السيارة على بعض المزارع هنا وهناك، ثم تدخل من جديد في الأراضي الرملية، وبعد ساعة أو أكثر وصلنا إلى مدينة زنجبار، وهي أشبه بقرية كبيرة ليس فيها كهرباء، ولا تلفون، ولا شوارع معبدة. واسترحنا قليلا، وأكلنا ما تيسّر من الإفطار، ولأول مرة شعرتُ ببشاعة الاستعمار؛ لأن حياتي في عدن وما فيها من مظاهر حضارية جعلتني لا أشعر ببشاعة الاستعمار، كما كنتُ أشعر ببشاعة حكم الإمام.

ثم اتجهنا إلى مدينة لودر، وكانت الرحلة شاقة، وهناك نزلتُ في بيت كانوا يسمّونه فندق، وبقيت يومين أسائل الركبان عن الطريق إلى مدينة الصومعة في بلاد

الإمام، وفي اليوم الثالث كنتُ قد استأجرتُ حمارا جيدا، إلى مرخة، بلاد السلطان الرصّاص. وكنتُ قد أخبرتُ المكاري أن اسمي إبراهيم بن عقيل السقاف، من آل السقاف في حضرموت. وفي الطريق كنتُ أضطرّ إلى النزول من على الحمار، والمشي مسافات قد تطول أو تقصر، وكنا نجد مسافرين معنا، ونجد على الطرق بعض الرعاة، أو بعض سكان القرى القريبة من الطريق، وعندما يخبرهم المكاري أنني من آل السقاف كان الكثير منهم يُقبلُ عليَّ ويُقبِّل يدي باحترام كبير، وبعضهم يطلب مني أن أقطع له من لحافي الأبيض ما يتبرك به، لأنني من أبناء رسول الله، وضحكتُ في سرّي، وقلت: كم من «السادة» تمسيدوا مثلي عبر أكثر من ألف سنة. بعد ذلك، توقّفنا في قرية اسمها دومان، وكلّفت المكاري أن يجد لنا محلا ننزل ونأكل وننام فيه ليلتنا، فقد فضلتُ أن ننام خارج حدود الإمام، ونبكر في الصباح بحيث لا ندخل مدينة الصومعة؛ بل نتجه مباشرة إلى مرخة.

ونزلنا في بيت، وأحضر لنا المكاري طعامنا وطعام الحمار، ونمت داخل الكيس، وفي الصباح الباكر صلّينا، ثم اتجهنا إلى مدينة الصومعة، وتجاوزناها بعد الظهر إلى قرية عرفنا أنها قد أصبحت من بلاد الرصّاص، ونزلنا فيها، لكي نرتاح من عناء السفر، وفضّلتُ أن ننام فيها، ولكنها لم تكن من القرى المهيأة لاستقبال المسافرين، وأمرت المكاري أن يتجه بنا إلى المسجد، ودخلنا إليه، ثم فتحتُ الشنطة وأخرجت منها «علبة فاكهة، وباكت بسكويت»، وأكلتها مع المكاري، بدلا من الغداء. وذهب المكاري، ليبحث لنا عن بيت ننزل فيه، ولكنه لم يجد، وحان وقت صلاة العصر ونحن في المسجد، وأتى بعض المصلين، وأمتهم في الصلاة، فلما عرفوا أنني من بيت السقاف أتوا وقبّلوا يدي، وأراد كل منهم أن أنزل في بيته، وشكرتهم ودعوت لهم بالصلاح، واخترتُ أن أنزل عند أكبرهم سنا، وقد أكرمني، وأراد أن يضيفني بكبش، ولكني طلبت منه أن يقدّم لنا الحاصل لديه من الطعام، وبعد ساعة أكلنا خبزا طريا، وشربنا مرق الدجاجة، وأكلنا لحمها، وحمدنا الله.

وحان وقت المغرب، وخرجنا وصلينا المغرب والعشاء، ثم عدنا إلى البيت،

وتعشّينا ما تيسّر، لأننا كنا قد أكلنا الدجاجة قبل المغرب. وفي الليل نمتُ في كيس النوم إلى بعد الفجر، ثم خرجنا وصلّينا الفجر، وعدنا إلى البيت وفطرنا إفطارا لذيذا؛ فتة من الخبز والحليب والسمن البلدي. وعندما كنا نتجهّز للسفر أصرّ مضيفنا أن يرافقنا إلى مرخة، وقد وصلناها قبل الظهر بساعتين تقريبا، ووجدنا أنها ليست مدينة ولا قرية، وبيوتها موزعة هنا وهناك، ويطلُّ عليها من أكمة مرتفعة حصن حربي، يتخذه السلطان حسين الرصاص مقرا للاستقبال. وأسرع مضيفنا الذي رافقنا إلى بيت السلطان وأخبره بقدوم إبراهيم بن عقيل السقاف لزيارته؛ ولعل ذلك كان في 25 أكتوبر 1947، وأقبل السلطان وبعض أولاده وحراسه، ورحّب بنا ترحيبا حارا، وأخذنا معه إلى بيته، لنرتاح فيه حتى وقت صلاة الظهر، وبعد أن صلّينا وتغدّينا وصلّينا العصر، طلبتُ من السلطان أن أجلس معه جلسة خاصة لوحدنا، ووجدتُ أنه شخصية ذكية. وقد أجّل النقاش معي، وقال: سنلتقي إن شاء الله فيما بعد؛ لأنك في حاجة إلى راحة من عناء السفر، وستنزل بجانب بيت أسرة توفّر لك كل ما تحتاجه. ودّعتُه شاكرا، ورافقني أحد أولاده إلى البيت الذي سأسكنه، وإلى العائلة التي ترعاني، وبعد أن تمّ ترتيب أوضاعي، ودّعتُ «المكاري» وحماره، وودّعتُ رفيقي الذي رافقنا من بيته إلى بيت السلطان. كان كيس النوم معي، ولكني لم أستخدمه، فلم يكن في البيت الذي نزلت فيه بعوض أو نامس، وكانت الأسرة التي كُلّفت برعايتي كريمة وخلوقة، وكان السلطان يرسلُ إليها يوميا ربع كبش، لتطبخه لي وللأسرة، ويرسلُ لي من بيته مقلى من «السُّوسي»، بداخله أقراص من الحنطة، وعليها السمن والبيض.

انتشر خبر وصولي إلى المنطقة، باعتباري إبراهيم بن عقيل السقاف، وبدأ الناس يتوافدون إليَّ بمرضاهم، وأولادهم المصابين بأمراض سوء التغذية، وأخرجتُ من شنطتي كل العلاجات التي كنتُ قد اشتريتها من عدن، وبدأتُ أوزعها على المرضى، بحسب تقديراتي التي لا تقوم على العلم، وإنما على ثقافتي العامة، ووجدتُ الكثير من زوّاري يطلبون مني كتابة «رُقية/عزيمة» لكل منهم، وهكذا كنتُ أكتب «الرقية» وفيها آيات قرآنية ودعوات للمريض بالشفاء، وأطويها وأضعها في

كيس صغير كانت نساء الأسرة تعدُّه لذلك، وأنصحُ المريض بأن يربطها في معصمه، ويصونها من النجاسة، وقد لاحظتُ أن أكثر الأمراض انتشارا في المنطقة هي الملاريا، وأكثر الأطفال مصابون بالزكام والسعال والحمى، ويبدو أن العلاجات، والرُّقى التي وزعتها قد أفادت الكثير من المرضى الذين أرادوا إكرامي بما يجلبونه من سمن أو عسل أو فلوس، ولكني كنتُ أشكرهم، وأدعو لهم، ولا أقبل منهم أي شيء يجودون به.

مرّت أيام دون أن يستدعيني السلطان، وانشغلت باستقبال المرضى وأطفالهم، وكنتُ أذهب إلى مسجد صغير في أوقات الصلاة وأصلّي بالناس إماما، وكان عدد المصلين محدودا. وذات يوم استدعاني السلطان لمقابلته في الحصن، وتوالت جلسات الحوار معه، وكان فيها حذرا يحاول أن يأخذ أكثر مما يعطي. من جانبي، كنتُ أتحدّث معه بحذر، وبقيت بهويتي الجديدة إبراهيم بن عقيل السقاف الذي وُلد في مدينة تعز، من أب هاجر إليها من حضرموت ومات فيها، وأنني ساخط على حكم الإمام وأولاده ومتعاطف مع حركة الأحرار في عدن، وعندما انضمّ إليهم الأمير إبراهيم سافرتُ من تعز إلى عدن باسم العلاج، ولكني اتصلت بالأمير إبراهيم وقيادة الأحرار، ووجدتُ أنهم ينتظرون موت الإمام يحيى قريبا، فقد أصبح شيخا كبيرا مصابا بأمراض قاتلة، ولهم اتصالات واسعة في الداخل والخارج، ويرتّبون أنفسهم للخروج إلى اليمن، بمجرد موت الإمام يحيى، وهم يخشون من أن يتولّى الإمامة بعده ولي عهده أحمد، وهو شخص ظالم مستبد، سوف يدمّر البلاد أكثر من أبيه.

ثم سكتُّ، لأرى ردّ فعله، وسألني: هل الإنجليز مع الأحرار والأمير إبراهيم؟ فأجبته: أنا لا أعرف، ولكنهم في عدن وفي حماية والي عدن، وأظن أن معهم حكومة مصر، وقد بلغهم أنك حاولت أن تكون وبلادك من المحميات البريطانية، ولكن الإنجليز تهرّبوا؛ لأن بينهم وبين الإمام معاهدة، ولذلك أرسلوني إليك للتفاهم فيما هو خير لك ولهم وللبلاد. وبقينا عدة أيام نتحاور، ووجدت أن السلطان الرصّاص شخصية ذكية ورصينة وحذرة، ويحاول في حواره استدراج الآخر، ليأخذ منه أكثر مما يعطي له، ولذلك بقيتُ أحاوره بحذر.

وقد تشعّبت موضوعات الحوار، فناقشنا مشكلة الحكم في اليمن، وتتمثّل في احتكار الإمام لكل شؤون الحكم، بعقلية منغلقة متخلفة همُّه جمع المال من الرعية، ظلما وعدوانا، وكنزه دون استثماره في مشاريع تعود بالخير على الناس، وانتهاج أساليب ظالمة في حكمه، ومنها أسلوب «الخِطَاط» ويعني أن يخطط العسكر في بيوت الرعية، يأكلون ويشربون ويخزنون بالقات على حساب الرعية الفقراء المقهورين، دون مراعاة لحرمات البيوت، وأسلوب إرسال «المخامنة» الذين يقدّرون الزكاة على ما يزرعه الرعية أضعافا مضاعفة، ثم إرسال المحصلين للزكاة التي تأخذُ أكثر مما يحصده المزارعون، ومنها أسلوب أخذ أولاد مشايخ القبائل وكبار الشخصيات رهائن يسجنهم في سجون الإمام مع القتلة واللصوص، الأمر الذي أدى إلى انتشار الجهل والفقر والمرض في البلاد، وكان سببا في هجرة مئات الآلاف من اليمنيين إلى مهاجرهم في أنحاء الأرض.

وبرغم مرور أكثر من أربعين عاما على حكم الإمام يحيى وبعض أولاده، دمّروا خلالها حياة البلاد والعباد، فإن الإمام رفض قبول أي نصح من العلماء والمفكرين، وكان مصير من ينصحه بالإصلاح السجن في أبشع سجونه، وحتى ما يقدّمه بعض أولاده من نُصح يهدف إلى تخفيف المظالم كان يقابله الإمام بالرفض والتهميش لهم، ومنهم الأمير إبراهيم الذي يئس من رجوع والده إلى الحق، فانضمّ إلى الأحرار في عدن.

والخلاصة أن استبداد الإمام وانفراده وسيطرته المتخلفة على شؤون الحكم هي المشكلة. ولا تغيير لذلك إلا بالرجوع إلى مبادئ الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية في الحكم، القائم على العدل والشورى، وحق الناس في اختيار حكامهم أو عزل حكامهم، ولن يكون ذلك إلا بتأسيس مؤسسات للحكم، تتمثلُ في مجلس الشورى المكوّن من العلماء والمفكرين ومشايخ القبائل، وفي مجلس وزراء؛ أي حكومة من أفضل رجالات البلاد المؤهلين لحكم البلاد والنهوض بها في جميع المجالات الاقتصادية والعلمية والثقافية والسياسية، وبناء المدارس والمستشفيات وتعبيد الطرق والشوارع واستخراج المعادن والبترول، وجعل الزكاة أمانة، ومنع

الـخِطَاط والتنافيـذ، وإلغاء نظام ظلم الرهائن وغـير ذلك، على أسـاس ميـثاق إسـلامي ينظّم العلاقة بين الـحاكم والـمحكوم، وبين مؤسسات الدولة التي تحدُّ من تسلط الإمام واستبداده، وهذا ما يدعو إليه الأحرار، وعلى رأسهم الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى.

ما يريده الأحرار، وما يريده السلطان

بعـد مناقـشة العـديد من الأمور والقـضـايا، وجّـه إليّ السلطان الرصّاص السـؤال التـالي: مـاذا يريد الأمـيـر إبراهيم والأحـرار مني؟ قلتُ له: يريدون أن تكون منهم بمن مـعك، ويكونوا منك، وأن تنضـمّ إليـهم وتتـعـاون مـعـهم من الآن، وعند مـوت الإمـام يحيى على إقامة دولة يحكمها الأحرار، وفق ميثاق إسلامي، يقرّه أهل الـحل والعقد في البلاد، منعا لاستيلاء ولي العهد أحمد على الإمامة، وهو طاغية أشد من أبيه. قـال السلطان: ليس لـديَّ مـانع، ولكـن لي شـروط إذا تعـهّـد لي بهـا الأمـيـر إبراهيم والأحــرار من الآن، قلتُ له: ومـا هي شــروطك؟ قـال السلطان: أولا: ألا يكون في البيضاء كاملة وجود للعسكر الزيود. ثانيا: أن أكون سلطانا ووواليا من قبل الدولة على كامل البيضاء، وأن يكون العسكر والـموظفون في البيضاء من أهلها. ثالثا: أن تكون الزكاة وعائدات الدولة من البيضاء أمانة، وأن تُصرف في مصالـح البيضاء. رابعا: أن يكون للبيضـاء من يمثّلها في الدولة. قلتُ له: لا شك أن من حـقك أن تعرف مـالك وما عليك، وأن تشـترط ما تراه، ولكني مـجرد رسـول يبلغ رسـالة، ويحمل ردّها، ومع ذلك، هل تسـمح أن نناقش هذه الشـروط مـجـرد مناقـشة بهـدف الوصـول إلى فـهم مشترك؟

قال: لا مـانع من الـمناقـشـة. قلتُ له: بالنسـبـة للشـرط الأول، وهو عـدم وجـود عسكر زيود في البيضاء، أعتقد أن حكومة الأحرار لديها خطة لتكوين جيش وطني لا زيدي ولا شـافعي، وإنما من كل أنحـاءِ اليـمن، وأن يتـواجـد هذا الـجـيش لـحـمـاية الـحـدود والدفاع عن الوطن من كل اعـتـداء، ولا دخل له في شـؤون الأمن والضـبـط، وتنفيـذ قرارات الدولة وأحكامـها، فهـذا من اختصـاص قوات الأمن؛ أي الشرطة أو البـوليس، وهو مـا سـتنشـئـه حكومـة الأحـرار، وسـتكون قـوة الأمن هذه -غـالبـا- من

شباب ورجال المنطقة نفسها، سواء البيضاء أو تعز أو أي لواء أو ناحية. ولكن لن يكون ذلك في يوم وليلة، أو بمجرد صدور قرار، وإنما يحتاج إلى وقت كاف، وتخطيط دقيق لتنفيذه. وبالنسبة للشرط الثاني، وهو أن تكون أنت سلطانا ووواليا من قبل الدولة على منطقة البيضاء فإنني أظنُّ؛ بل أعتقد أن حكومة الأحرار ليس لديها مانع من ذلك، ولكني أرى أن هذا ليس من مصلحتك شخصيا؛ بل مصلحتك أن تكون وزير دولة في حكومة الأحرار، تشارك في حكم اليمن كلها، بما فيها منطقة البيضاء، وتشارك في النهوض باليمن كلها؛ لأن خطة الأحرار أن يكون في اليمن مجلس شورى يُنتخب من الشعب، من كل المناطق، وهو السلطة التشريعية التي تشرّع وتقرُّ القوانين، وتراقبُ الحكومة وتحاسبها، بمن فيها الإمام نفسه، وأن تكون في اليمن حكومة من الكفاءات، تديرُ وتنفذ كل شؤون الدولة العسكرية والمدنية والمالية، ومشاريع التنمية، واستغلال ثروات البلاد البترولية والمعدنية، وأن يكون في ألوية اليمن نظام يعطى كل ألوية اليمن ومناطقها الحكم الذاتي؛ أي أن تختار مجالسها المحلية التي تتولّى في نطاق اللواء أو المنطقة إدارة الأمن والتعليم والصحة ومشاريع التنمية، وغير ذلك في حدود المنطقة، وهذه المجالس هي التي تختار رئيس المجلس المحلي الذي يديرُ شؤون اللواء أو المنطقة.

بالنسبة للشرط الثالث، تكون الزكاة والواردات المالية في البيضاء أمانة تصرف في البيضاء، أرى أن هذا الذي اشترطته لمنطقة البيضاء ستكون من موقع وزير الدولة أقدر على تنفيذه بالنسبة لكل مناطق اليمن. كما أن الحكومة سيكون لها إيرادات من كل أنحاء اليمن، وسوف تخصصُ منها دعما للمجالس المحلية في المناطق الأكثر فقرا، بما فيها البيضاء. وبالنسبة للشرط الرابع، أنت من منصب وزير الدولة تمثّل البيضاء في الدولة، وربما يكون في الحكومة وزراء آخرون من البيضاء، وسيكون للبيضاء، كما لغيرها من المناطق ممثّلون في مجلس الشورى. والخلاصة أن حكومة الأحرار ستغيرُ كل شيء في اليمن لمصلحة الشعب، وتحقيق حريته وكرامته والنهوض به في كل شيء. قال السلطان الرصّاص: ومن يعيّن العمال والحكام؟ قلتُ له: يعيّن العمال المجالس المحلية المنتخبة في كل منطقة؛ أما حكام الشرع فيتم

تعيينهم من قبل الحكومة بالتشاور مع المجالس المحلية، قال السلطان: على بركة الله، ولكني أريدُ تعهدا مكتوبا من الأمير إبراهيم بتنفيذ كل هذا، ومقابل ذلك أعطيه عهد الله وميثاقه أن أكون من الأحرار بأولادي ورجالي.

وخلال الحوار مع السلطان حسين أحمد الرصّاص بقيتُ أحاوره بحذر، وفجأة عرض عليّ السلطان عرضا لم أكن أتوقّعه، وبعيدا عما جئت له، قال: «أنا منذ فترة أريدُ أن أجد شخصا متعلما سياسيا ليكون مستشاري، أو وزيري، وقد وجدتُك ذلك الشخص الذي أبحث عنه، وأعرض عليك ذلك فإذا قبلت فسوف أعتبرك أحد أولادي، وأوفر لك كل ما تحتاجه من مال وحماية، ولن تجد مني ومن أولادي ورجالي إلا كل تكريم وتشريف. فوجئتُ بالعرض، وقلت له: هذا يشرّفني ويسعدني، ولكني كما تعرف رسول إليك، ولا بدّ أن أعود إلى الأمير إبراهيم والأحرار، وأنقل إليهم ما تم الاتفاق بيننا، وأظن أنني سأعودُ إليك مرة أخرى بما طلبته من الأمير. وبعد هذه الجلسة ودّعته، وتم ترتيب عودتي إلى عدن، ورافقني ثلاثة من رجاله إلى الحدود.

عندما وصلتُ إلى دار «الجمعية اليمنية الكبرى» في عدن، وربما كان ذلك في منتصف شهر ديسمبر1947، وقابلتُ الأمير إبراهيم، وقدمت له تقريرا مختصرا بمهمتي في البيضاء، اتصل الأمير بالقاضي الزبيري، وطلب منه الوصول مع الأستاذ نعمان والإخوة الواصلين، ولم أكن أعرف من هم الإخوة الواصلون، وذهبت لأغتسل من عناء السفر. ثم عدت وجلست مع الأمير إبراهيم، وشرحت له بالتفصيل رحلتي، ولقاءاتي مع السلطان الرصّاص. وقد قلتُ له: إن اسمي في الطريق إلى البيضاء، وفي منطقة الرصّاص هو إبراهيم بن عقيل السقاف من سادات حضرموت، وقد أصبحتُ بهذا الاسم وليا من أولياء الله، وعندما عرض عليّ السلطان الرصّاص أن أكون مستشاره أو وزيره قرّرت أن أقبل ذلك، تمهيدا لادعاء الإمامة؛ فضحك الأمير إبراهيم وقال: كم عملها غيرك من قبل!

في تلك الأثناء، وصل الأستاذ نعمان ومعه القاضي الزبيري، ثم دخل الأستاذ البراق، وفوجئت بدخول أستاذي أحمد حسن الحورش، ومعه الأستاذ محيي الدين العنسي، ووجدتُ نفسي أحتوي أستاذي الحورش بين يدي، وأخذتُ أقبّل يديه،

ولكنه أبعدها وضمّني إلى صدره قائلا: وأخيرا التقينا بعد فراق طويل. في ذلك اليوم، عقدت قيادة «الجمعية اليمنية الكبرى» -التي تكوّنت بحكم الواقع- جلسة برئاسة الأمير إبراهيم الذي سلّم تقريري للأستاذ البراق، وبعد أن أملاه على المجتمعين، كلّفني الأمير أن أشرح بالتفصيل مهمتي لدى السلطان الرصّاص. وبعد ذلك جرى نقاش حول ما ينبغي عمله، وكان أهمّ موضوع أثير في الاجتماع هو وضع الأحرار في الداخل وفي الخارج، بما فيه عدن والقاهرة، واعترفوا جميعا بأن الأحرار لا يستندون إلى جماهير منظمة، ولا إلى قوة عسكرية أو قوة قبلية، وأنهم سيكونون الحلقة الأضعف في أي جبهة للتغيير، إذا وقع.

وفي نهاية الجلسة أكد الأمير إبراهيم ضرورة العمل لكسب قوى قبلية في الداخل، واغتنام فرصة استعداد السلطان الرصّاص للتعاون مع الأحرار، وعودة العزي للسفر والتواصل معه حاملا رسالة مني، تؤكد له أن كل ما التزم به شفويا أو كتابيا هو التزام من الأمير والأحرار. وأردف الأمير إبراهيم قائلا: فإذا نجحنا في ذلك، فأقترح الاتفاق معه على انتقال الأحرار عند موت الإمام إلى صنعاء عن طريق البيضاء، ومعنا السلطان وألفان أو أكثر من رجاله المسلحين، كقوة تحمي الأحرار وتدافع عن حكومة الدستور.

أبدى المجتمعون حماسة لهذا الاقتراح، ولكني لاحظتُ أن الأستاذ نعمان كان يستمع دون أن يشارك في النقاش، وتقرّرت عودتي مرة أخرى إلى السلطان، حاملا رسالة من الأمير إليه، تؤكد التزامه والأحرار بكل ما اتفق معه عليه. من جانبه، قال القاضي الزبيري: إن قائد السرية النظامية في مدينة البيضاء من الأحرار، وبيني وبينه اتصالات، وأقترح أن يمرَّ العزي للقائد، والتنسيق بينه وبين السلطان الرصّاص إذا تم الاتفاق معه، وطلب الأمير إبراهيم من الزبيري والنعمان تعميم الخطة التي نفذها مع الرصّاص.

العودة إلى السلطان الرصّاص

تم ترتيب عودتي بالطريقة السابقة، وكانت العودة أسهل بكثير من المرة الأولى.

وأتذكّر أنني وصلتُ وقابلتُ السلطان الرصّاص في منتصف شهر ديسمبر1947، وقد سلّمته رسالة الأمير إبراهيم، وبعد أن قرأها قلتُ له ما معناه: إنني الآن مفوّض من الأمير والأحرار، وما نتفق عليه يصبح ملزِما للجميع، وقد لاحظتُ أن السلطان كان ينتظر أن أحمل له ذهبا أو نقودا من الربيات مع رسالة الأمير، ولكنه لم يصرّح لي بذلك. وبقينا أياما نتحاور، كان يبدي استعداده للتعاون مع الأمير إبراهيم والأحرار، ولكن من دون الوصول إلى تحديد طبيعة ذلك التعاون. وعندما بدأتُ أناقش معه موضوع انتقال الأمير والأحرار من عدن إلى صنعاء عن طريق البيضاء مع قوة مسلحة، لا تقلُّ عن ألفي مسلح من رجال السلطان، يقودهم هو أو أحد أولاده عند موت الإمام يحيى، وقدّرت أن الموضوع محرج لي وله، فبعد أن صمتَ طويلا وكأنه يفكّر، ردّ عليّ قائلا: هذا يحتاجُ إلى مال وسلاح، فهل الأمير مستعد أن يزودنا بذلك من الآن؟!

وكنتُ على يقين أن السلطان سوف يثير هذا الموضوع، وأن تعاون السلطان مع الأحرار يتوقّف على قدرتهم على تزويده بالمال والسلاح؛ ولذلك بقيتُ أقلبُ الأمور، وأنا في طريقي إليه، بحثا عن مخرج يبقيه متعاونا بلا مال ولا سلاح. قلتُ له: هذا موضوع أفضل أن نؤجّل مناقشته إلى أن يكون لدينا تصورات مشتركة لما هو قائم، وما يمكن أن يقوم. قال: وما هو تصورك؟ قلت: دعنا نتشارك في إيجاد التصور، إن الإمام قد أصبح شيخا مصابا بعدة أمراض، والكل ينتظر موته، وهناك ولي العهد الذي يُعدّ نفسه لخلافة أبيه، وهناك أسر هاشمية تطمع في إخراج الإمامة من بيت حميد الدين إليها، مثل آل الوزير، وآل شرف الدين، وهناك تنظيم الأحرار في الداخل والخارج، يعدّون أنفسهم منذ فترة للاستيلاء على الحكم في اليمن، ولهم علاقات بمشايخ القبائل، وضباط في الجيش النظامي؛ بل إن لهم علاقات حتى بالأسر الهاشمية الطامعة في الإمامة.

ولدى الأمير إبراهيم والأحرار أخبار بأن أسرة بيت حميد الدين ستخفي موت الإمام يحيى عند موته حتى ترتّب نفسها، لإبقاء الإمامة في الأسرة، ولكن الأمير إبراهيم له علاقات ببعض إخوته، ومتفق معهم أن يخبروه فورا بموت الإمام، ويتعاونوا مع الأحرار للاستيلاء على الإمامة. قال: من سيكون الإمام بعد يحيى؟ قلتُ له:

الترتيبُ أن يكون الأمير إبراهيم أو سيف الإسلام الحسين، وهو متعاون مع الأمير إبراهيم وبعض إخوته. قال: وما موقف ولي العهد أحمد؟ قلتُ له: يعد نفسه للانتقال من تعز إلى صنعاء، بمجرد موت الإمام يحيى، والاستيلاء على الإمامة، ولكن ترتيب الأحرار ومن معهم هو منعه من الوصول إلى صنعاء بكل الوسائل؛ بل إنهم يكونون قد استولوا على الحكم في صنعاء، بمجرد موت الإمام يحيى. قال: ولماذا يريد الأمير إبراهيم والأحرار الانتقال إلى صنعاء عن طريق البيضاء؟ قلتُ له: إنهم يستطيعون الانتقال إلى صنعاء مباشرة، ولكن الأمير والأحرار في عدن يرون أن الأحداث قد تفاجئُهم، ويريدون أن تكون لهم قوة مسلحة للاحتياط. إنهم لن ينتقلوا إلى صنعاء عن طريق البيضاء، إلا إذا كان الأحرار قد استولوا على صنعاء، وسيكون انتقالهم إلى صنعاء بقوة مسلحة من البيضاء، دعما لهم ولمن في صنعاء.

قال السلطان: وفي هذه الحالة سيكون الأمير إبراهيم والأحرار قادرين على إمدادنا بالمال والسلاح. قلتُ له: هذا محتمل، ولكن لا تنسَ أن هذا يحتاجُ إلى وقت، خصوصا والمواصلات في اليمن تكاد تكون مفقودة، وعلينا أن نتحرّك بسرعة، وبدون انتظار لأي شيء. ثم أردفت قائلا: يا أخي السلطان نريد أن نقلّد قبائل الزيود. في فترة سابقة كان بعض قبائل الزيود يبحثون لهم عن إمام يبايعونه، ويتقدّمون بأسلحتهم ومؤنهم ونقودهم معه للاستيلاء على الحكم، ثم يطالبونه إمدادهم بالمال والسلاح، ولو أنهم اشترطوا عليه مسبقا إمدادهم بالمال والسلاح لعجز وفشل وفشلوا معه.

إنني أعتقد أن الشيء العملي الذي يحقّق مصلحة الأحرار ومصلحتك ومصلحة اليمن هو أن تعدّ نفسك ورجالك المسلحين إعدادا ذاتيا، مثل قبائل الزيود، وبعد الوصول إلى صنعاء سيتم تعويض رجالك وإمدادهم بالمال والسلاح، وستكون أنت وزيرا في دولة الأحرار، ومشرفا على إدارة منطقة البيضاء. وسكت السلطان فترة كعادته، ثم قال: أترك لي أياما أفكّر فيها، وتفرّغ أنت لمعالجة المرضى، ومرّ أسبوع أو أكثر دون أن ألتقي بالسلطان، وبقيتُ في رعاية الأسرة التي كُلّفت برعايتي، وكنتُ أذهبُ في أوقات الصلاة إلى المسجد الصغير القريب من بيت الأسرة، لأصلي

بعدد قليل من المصلين، وغالبا كنتُ أصلّي منفردا، لعدم وجود مصلين.! ولاحظتُ خلال هذه الأيام توافد أعداد من الرجال ضيوفا على السلطان ليوم أو يومين، ثم يأتي ضيوف جدد، ولم يستدعني السلطان لمشاركة ضيوفه، وبعد مضي أسبوع أو عشرة أيام- لم أعد أذكر- أرسل السلطان أحد أولاده لاستدعائي إلى الحصن، وبعد السلام والاعتذار عن عدم مقابلتي خلال تلك الأيام، قال لي: خلال الأيام الماضية استدعيت عددا من رجالي المهمين، وناقشتهم فيما تناقشنا فيه، وقد وافقوا جميعا أن نقلّد قبائل الزيود، ونستقبل الأمير إبراهيم والأحرار، ونرافقهم في ألفي مسلح أو أكثر، على أن يدبّروا توفير أسلحتهم وتموينهم ونقودهم بأنفسهم، ثم يتم تعويضهم عند الوصول إلى صنعاء، وأكون وزيرا في دولة الأحرار، وهذا عهد مني لك وللأمير إبراهيم والأحرار على الوفاء بذلك. وتنفستُ الصعداء، وابتسمتُ وصافحته بحرارة، وعاهدته وأنا ممسك بيده على الوفاء والنقاء، وأن نكون يدا واحدة في السراء والضراء. ثم قلتُ له: إن أمير «البلك» في البيضاء من الأحرار، وأنا مكلّف بالذهاب إليه، للتنسيق فيما بينكما، وأرجو أن تسهل لي الوصول إليه.

من جانبه، سهّل السلطان الوصول إلى أمير «البلك»(*) في مدينة البيضاء، وقد تعمّدنا أن ندخلها بعد صلاة العشاء، وكان المرافق لي يعرف بيت أمير «البلك»، فذهبنا إليه، وطرقنا الباب، فأجابنا، ونزل إلى «دهليز» البيت وفي يده فانوس غاز، قابلني ودعاني للصعود، ولكنني اعتذرت، وبلّغته تحية القاضي الزبيري والأستاذ نعمان والأمير إبراهيم، وسلّمت له شفرة كنتُ قد كتبتُها، وأعطيت السلطان نسخة منها، بهدف التواصل بينهما، وأخبرته أن السلطان الرصّاص متعاون مع الأحرار، وبيننا وبينه عهد الله وميثاقه. وكنتُ في دهليز المناضل محمد حسن غالب المطري بملابس درويش من آل السقاف، ورأيت دموعا تملأ عينيه، ربما لحالتي الحالية، وهو يعرف أن آل الفسيّل من قضاة اليمن في بلاد بني مطر.

(*) البلك وحدة عسكرية مستقلة تتبع الجيش النظامي .

الفصل الحادي عشر
ثورة 48 الدستورية وسقوطها

عدتُ من مدينة البيضاء إلى السلطان الرصّاص في مرخة، ونقلتُ إليه ما قمتُ به مع قائد سرية الجيش النظامي، واستعداده للتعاون مع الأحرار عند انتقالهم من عدن إلى صنعاء عن طريق البيضاء. وودّعتُ السلطان، وسافرتُ مع المرافقين في طريقي إلى عدن. كنتُ أتمنى لو كان لي جناحان أطير بهما لأتخلص من وعثاء السفر، وأبلغ الأمير إبراهيم وقيادة الأحرار نجاحي في مهمتي، وعندما اقتربتُ من دار «الجمعية اليمنية الكبرى» وجدتُ الدنيا مقلوبة خارج الدار. مئات من اليمنيين يقفون حول الدار، وعدد من أفراد بوليس عدن بأسلحتهم يحرسون الدار، وعندما اقتربت من باب الدار منعني أحد رجال البوليس، ولكن حارس الدار أقبل وأخبره أنني من سكان الدار، وعندما وصلت إلى صالون الأمير إبراهيم وجدتُ القيادة لا تزال مجتمعة منذ الصباح الباكر كما عرفت، ولديها قناعة بصحة إشاعة موت الإمام يحيى.

وبعد أن حيّيتُ المجتمعين جلستُ على أحد الكراسي، وقدّمت تقريرا شفويا عن مهمتي، وعن استعداد السلطان حسين الرصّاص لاستقبال الأحرار عند موت الإمام يحيى، ومصاحبتهم إلى صنعاء في ألفين أو ثلاثة آلاف مسلح، وأنه لا يشترط على الأمير إبراهيم تزويده بمال أو سلاح إلا بعد الوصول إلى صنعاء، وأن محمد حسن غالب قائد سرية الجيش النظامي سيحاولُ مع جنوده دعم السلطان الرصّاص ومن معه من الأحرار، وقد شكرني الأمير إبراهيم على قيامي بالمهمة، وبدأ المجتمعون مناقشة الانتقال إلى صنعاء عن طريق البيضاء، واتفقوا جميعا على ذلك، وقد ظلّ الأستاذ نعمان صامتا.

«صوت اليمن» وخبر موت الإمام!

صورة الإمام الدستوري عبدالله أحمد الوزير قبل سقوطه

كان المجتمعون في الدار في انتظار وصول صحيفة «صوت اليمن» التي تأخر صدورُها حتى يتم تغيير محتويات الصفحة الأولى، لكي تنشر بعناوين بارزة خبر موت الإمام يحيى، ومبايعة الإمام عبد اللّه بن أحمد الوزير، ونبذة عن «الميثاق الوطني المقدس»، ونص برقية تأييد الأمير إبراهيم والأحرار للإمام الوزير، وذلك في العدد رقم (61) المؤرخ 15 يناير 1948– 4 ربيع الأول 1367هـ. وكان رأي الأستاذ نعمان عدم التسرّع في نشر الخبر، بينما كان أكثر المتحمّسين للنشر الأستاذ محيي الدين العنسي، والأستاذ أحمد حسن الحورش، وتم إبلاغ الإخوان الأحرار في القاهرة بالخبر، وكان «الميثاق الوطني المقدس» لديهم، فأسرعوا بنشره ونشر الخبر في صحيفة «الإخوان المسلمين».

وطار الخبر إلى ولي العهد في تعز، فقد حمل إليه وكيله في عدن السيد حسين الويسي على سيارته الخاصة أعدادا من «صوت اليمن»، وأعدادا من «الميثاق الوطني المقدس»، وكان لذلك وقعُ الصاعقة، فقد أحدثت المفاجأةُ نوعا من الشلل في صنعاء وتعز؛ لأن العدد الكبير من المسؤولين الإماميين المذكورين في الحكومة الدستورية كان مفاجأة، حيّرت الإمام وولي عهده؛ لأن من وقّعوا على «الميثاق الوطني المقدس» كان أكثرهم شخصيات مقربة من الإمام يحيى؛ الأمر الذي جعل الإمام وأسرته يتساءلون: هل كان هؤلاء جميعا متآمرين على قتل الإمام؟! كما أعطى للمتآمرين فيما بعد مبررا في أن الأحرار في عدن قد اختلقوا هذا وزوّروه، بهدف إحداث صدام بين الإمام وأسرته، وبين هذا العدد الكبير من أنصار الإمام وكبار موظفيه.

كان كل هذا في صباح يوم الخميس الموافق 15 يناير 1948، وفي مساء هذا اليوم كانت إذاعة الإمام يحيى في صنعاء تذيعُ لمدة ساعة إذاعتها الأسبوعية، وكنا في عدن نترقّب إذاعة صنعاء في كل يوم خميس، عسى أن نلتقط خبرا جديدا ننشره في صحيفة «صوت اليمن». وفي المساء استمعنا إلى إذاعة صنعاء، وإذا بها تذيعُ خبر خروج مولانا أمير المؤمنين يحيى بن محمد حميد الدين إلى حوش قصره، لمواجهة أصحاب الشكاوى والمراجعات والرد عليها، وخروجه للدورة وعودته بسلامة الله وحفظه.

كنا متحلقين جميعا حول جهاز الراديو نستمع إلى هذا الخبر، وأسقط في أيدينا، وشعرنا وكأنَّ دار الجمعية تدور بنا، وتذكّرنا معارضة الأستاذ نعمان لنشر الخبر، وقد استغربنا جميعا ألا يتذكّر أي منا أن إذاعة صنعاء ستذيع إذاعتها الأسبوعية في مساء يوم الخميس نفسه الذي نشر الأحرار فيه «الإشاعة» قبل نحو سبع ساعات من موعد إذاعة صنعاء، حتى الأستاذ نعمان الذي عارض النشر لم يذكّر الآخرين بضرورة الانتظار ساعات، حتى يستمعوا إلى إذاعة صنعاء التي كنا نراقبها كل أسبوع، لالتقاط بعض الأخبار التي قد تفيدنا. وقد ندم الجميع على نشر الإشاعة التي قد تصيب الكثير من الأسر والأشخاص الذين سيقعون في قبضة الإمام يحيى وأولاده، وكل ما استطاعوا فعله هو التظاهر بأنهم قد اختلقوا كل ما نشروه بقصد تفجير الوضع الإمامي لبيت حميد الدين من داخله.

لقد انتشرت إشاعة موت الإمام يحيى، وقيام الحكومة الدستورية بإمامة عبد اللّه أحمد الوزير وأنا عائد في طريقي من البيضاء إلى عدن، ولذلك فإن ما أكتبه عن الموقف في صنعاء والموقف في تعز بعد الإشاعة، وما أكتبه عمّا حدث في صنعاء وتعز بعد اغتيال الإمام يحيى وقيام حكومة الدستور هو مما سمعتُه من الإخوان الآخرين، ونحن في سجن نافع، ومما قرأته في ذكريات من كتبوا ذكرياتهم فيما بعد. وبرغم أنني تحرّيتُ فيما كتبته ما احتملت أنه أقرب إلى الحقيقة، إلا أنني لا أستطيع أن أجزم بصحة كل ما كتبه بعض من كتبوا مذكراتهم أو ذكرياتهم أحداثا ومعلومات، فلكل منهم أن يروي ما يراه، ولكل من يقرأ الحق في أن يقبل أو يرفض

أو يصحّح. وقد وجدتُ من الصعب عليّ أن أصحّح ما سمعتُه، أو ما قرأته، ووجدتُ من الحكمة أن أذكر ما اقتنعت بصحته، وأغفل ما دون ذلك، أو أبدي رأيي فيه إذا رأيت أن ذلك يخدم الحقيقة.

الموقف في عدن وصنعاء وتعز

بعد سقوط إشاعة موت الإمام يحيى، أصيب الأحرار في عدن بصدمة عنيفة مفاجئة، لكن سرعان ما امتصتها أعصاب مطلقيها وأفاقوا منها، محاولين تأكيد أنها عملية مدبرة لتفجير الوضع الإمامي من داخله، وليست مؤامرة حقيقية. ولأن الأحرار في عدن لم يكونوا تحت رحمة الإمام يحيى وولي عهده أحمد، فقد انحصرت مخاوفهم على المتآمرين في صنعاء وتعز الذين يواجهون خطر الاعتقالات والإعدامات؛ ولكن ردود الفعل سارت بأساليب دبّرها القدر أكثر مما دبّرها البشر! أما الموقف في صنعاء، فقد تطوّر بشكل دراماتيكي. كان أول من علم بالإشاعة في صنعاء هو مأمور اللاسلكي الذي تلقى برقية التهنئة والمبايعة للإمام عبد اللّه بن أحمد الوزير، المرسلة من الأحرار في عدن، وأسرع بها إلى الإمام يحيى الذي أرسلها بالشفرة إلى ولي عهده في تعز، وحثه على سرعة الوصول إلى صنعاء، فيما كان ردّ الفعل لدى الإمام يحيى مزيجا من القلق والغضب والتوتر.

بعد عصر يوم الخميس توجه عبد اللّه بن أحمد الوزير إلى مقام الإمام يحيى كعادته، إذ كان يحرصُ بعد عزله من منصب أمير لواء الحديدة أي «نائب الإمام» أن يصبح من جلساء الإمام، وكان الإمامُ يحيلُ إليه بعض قضايا الناس الشرعية، للنظر فيها وحلّها، ولم تكن الإشاعة قد بلغته. وبمجرد أن جلس في مجلس الإمام يحيى بعد السلام عليه فاجأه الإمام يحيى بأن رمى إليه برقية تهنئة الأحرار ومبايعتهم له بالإمامة، وقبل أن يفيق عبد اللّه الوزير من صدمة المفاجأة، قال الإمام يحيى: مبروك عليك الإمامة يا ولد عبد اللّه، وما نكره لك ذلك، ولكن الإمامة حمل ثقيل يا عبد اللّه، وأنت غير قادر على حمله، ثم رمى له بنسخة من «الميثاق الوطني المقدس»، وكان ولي العهد قد أرسله إليه بسيارة خاصة في صباح يوم الخميس،

وحاول عبد اللّه الوزير بكل ما يستطيع إنكار ما جاء في برقية التهنئة، وفي الـميثاق، مؤكدا أن الأحرار في عدن يريدون إحداث فتنة وخلافات بين الإمام والـمخلصين له، وعلى رأسهم بيت الوزير، والدليل على ذلك أنهم لم يتركوا أحدا من أعوان الإمام إلا زجّوه في هذا الذي سمّوه «الـميثاق».

وخلال ذلك أقسم مرات عديدة ألا علم له بذلك، ولا علاقة له به، وأظهر الإمام يحيى نوعا من الاقتناع بتأكيدات الوزير، وقال له: هل تقسم يا ولد عبد اللّه يمينا مغلظة أنك لا تعلم بشيء من هذا الذي نشروه؟، فاقسم الوزير يمينا مغلظة بذلك، وحرّر مبايعته لولي العهد أحمد بن الإمام يحيى بالإمامة بعد أبيه، وتم إرسالها في برقية لاسلكية إلى ولي العهد في مدينة تعز. وفي الـمساء بدأت إذاعة صنعاء التي تذيع لمدة ساعة واحدة في يوم الـخميس من كل أسبوع، وأذاعت في الأخبار خروج الإمام إلى مجلس الـمواجهة، ومقابلته لعدد كبير من الـمراجعين، والإجابة على مراجعاتهم، ثم خروجه «للدورة-للنزهة» وعودته بسلامة الله وحفظه، وأنه استقبل في مجلس الـمقيل عددا من الـمسؤولين وبحث معهم بعض الأمور التي تهمُّ البلاد والعباد.

أما الـموقف في تعز، فقد كان ولي العهد أحمد أول من علم بالإشاعة في تعز، وبكل تفاصيل الـمؤامرة، فقد أوصل إليه مندوبه السياسي في عدن السيد حسين الويسي نُسخا من «الـميثاق الوطني الـمقدس»، ومن صحيفة «صوت اليمن» عقب الإشاعة بساعتين. وكان الويسي في عدن يتعاونُ مع الأحرار سرا؛ بل كان يُعتبر واحدا منهم، برغم أنه الـمندوب السياسي لولي العهد في عدن، ولذلك نقل إلى ولي العهد بأن الأحرار في عدن قد أطلقوا الإشاعة، منتظرين تفجر الوضع الإمامي في اليمن من داخله، كما فهم من الأستاذ نعمان الذي كانت صلته به قوية، بموافقة ولي العهد.

وبعد أن اطلع ولي العهد على «الـميثاق الوطني الـمقدس»، وعلى الأسماء الواردة فيه، ابتداء بالإمام عبد اللّه بن أحمد الوزير، ورئيس الوزراء علي بن عبد اللّه الوزير، وأسماء الوزراء في حكومته، ورئيس مجلس الشورى الأمير إبراهيم بن الإمام

يحيى، وكل أسماء وأعضاء مجلس الشورى، وغير ذلك من الأسماء ذُهل في البداية، ثم تحوّل الذهول إلى «الحيرة» التي جعلته يتشكّك في صحة ما يراه؛ لأن أكثرية المتآمرين المذكورين في «الميثاق الوطني المقدس» هم أقربُ رجال الإمام يحيى وولي عهده؛ بل هم الخاصة الذين يعتمد عليها في تصريف أمور الحكم. وبرغم ذلك فإن ولي العهد كان يعتقد أن المؤامرة حقيقية، وليست مجرد إشاعة مفتعلة، لتفجير الوضع من داخله. وقد بادر ولي العهد بإرسال برقية بالشفرة إلى والده الإمام يحيى، يخبره فيها بمجمل ما ورد إليه، وأرسل إليه نسخا من الميثاق الوطني على سيارة خاصة، ولذلك فإن والده قد علم بالإشاعة وتفاصيلها قبل أن يعلم بها المتآمرون، بمن فيهم الإمام الدستوري عبد اللّه بن أحمد الوزير!!

روايات مختلفة حول إشاعة موت الإمام

في مجلس المقيل بعد عصر يوم الخميس 15 يناير 1948، كان ولي العهد وحاشيته، ومنهم زيد الموشكي جلوسا، عندما فاجأهم ولي العهد بتوجيه الخطاب إلى زيد الموشكي، فقد رمى له بنسخة من «الميثاق الوطني المقدس» قائلا له: «اقرأ هذا يا وزير العدل الدستوري.. قل لي ما تعلم وما ترى». كان منصب السيد زيد الموشكي في «الميثاق الوطني المقدس» مدير عام وزارة العدل، وتظاهر زيد بقراءة الميثاق، ثم قال لولي العهد ما معناه: «يا مولانا لقد بذل «الجماعة» في عدن مجهودا كبيرا في إعداد هذا الميثاق المُختلق، وأرى أن نتجاهل وجودهم، وتقوموا أنتم بتنفيذ الميثاق بعد تعديل الأسماء بما ترونه، فقال له ولي العهد: لا يمكن أن نقبل ذلك قط، لم يقبلها عثمان من قبل، قال له زيد: وهل تنتظرون مصير عثمان؟ وسكت ولي العهد مغتاظا، ويروي صالح محسن أن ولي العهد قال له وهما يصعدان سلم الدار: يظهر أن عنق زيد الموشكي «تحكه» إشارة إلى قطع رأسه.

كيف تورّط الأحرار في نشر «الميثاق الوطني المقدس» وكشف المؤامرة؟ هناك العديد من الروايات التي تتحدّث عن هذا الموضوع، فقد أشار إليها الأستاذ حسن إبراهيم المصري في كتابه «اليمن البلاد السعيدة»، وكان ما رواه بعيدا عن

الواقع، وتحدّث عنها الكاتب لي دوغلاس، في بحث تناول فيه التفسيرات المتعددة لطريقة إعلان ذلك النبأ، ومنها ما نقله عن والي عدن حينذاك السير رولاند شامبيون الذي ذكر بعض الوقائع الأخيرة، المقطوعة عما سبقها، مما يجعل الحقيقة فيها ناقصة. ومنها ما ذكره الأخ علي محمد عبده في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»؛ ولكن ما ذكره لا يعتدُّ به، فهو يستندُ فيما يكتبه على مصادر غير أمينة.

وأستطيع أن أسجل هنا الرواية التي رواها لي الأستاذ الشهيد أحمد حسن الحورش، وما رواه لي الأخ صالح محسن فيما بعد، وأدمجه بما رواه الكاتب «لي دوغلاس» عن رواية «السير رولاند شامبيون»، والي عدن حينذاك، لوجود ترابط بين الأحداث. وخلاصة ما رواه أستاذي الشهيد أحمد حسن الحورش تؤكّد أنه وزميله محيي الدين العنسي كانوا في صنعاء، وعندما اقترب موعد تنفيذ مؤامرة اغتيال الإمام يحيى كُلّفا بالنزول إلى تعز، للمشاركة في ترتيب اغتيال ولي العهد أحمد. وعندما وصلا إلى الحديدة قابلا الخادم غالب أحمد الوجيه، وهو من أهم الوطنيين الأحرار، ومن كبار التجّار في اليمن، ومن المشتركين في مؤامرة اغتيال الإمام يحيى، وسلّما له نسخة من «الميثاق الوطني المقدس»، وكان يثق بالقاضي حسين الحلالي، نائب الإمام في الحديدة ثقة مطلقة، فاقترح عليهما مقابلة النائب الحلالي، وأكّد لهما أنه مع الأحرار ويعرف كل شيء عن الحركة، وقد تردّدا في البداية، ولكنه ألحّ عليهما، وفعلا قابلا الحلالي وتحدّثا معه، ويبدو أن الخادم غالب أحمد الوجيه عرض عليه الميثاق، وحدّثه عن مهمة الحورش والعنسي في تعز، وعن اليوم الذي تحدد فيه اغتيال الإمام يحيى، وسافرا إلى تعز، وبمجرد وصولهما أمر ولي العهد بتسهيل سفرهما إلى عدن على سيارة خاصة بعد أن حوّل لهما مبلغا من النقود «زلاج» السفر أي نفقات السفر، وهكذا لم يترك لهما ولي العهد فرصة للبقاء في تعز، وبقيا في عدن انتظارا لقيام الثورة في صنعاء.

وحدّثني الأخ صالح محسن بأن الحلالي أرسل إلى ولي العهد شفرة يقول فيها: «توجه إلى تعز محيي الدين العنسي، وأحمد حسن الحورش، أستحسنُ

الخادم غالب الوجيه

تسهيل سفرهم إلى عدن فورا، وسوف أشرح لكم السبب فيما بعد، وأن ولي العهد نفّذ ذلك. ويظهرُ أن الخادم غالب الوجيه لم يكن يخفي على الحلالي أي شيء عن ترتيبات قيام الثورة، وترتيبات اغتيال الإمام يحيى وولي عهده، ولهذا تمكّن الحلالي من أن يلعب لعبته مع الأحرار، ومع ولي العهد، ومع الإنجليز في عدن؛ إذ كانت له صلة بهم، ومعرفة كبيرة بالوالي شامبيون. وكان يعرف من الخادم غالب أن اغتيال الإمام يحيى قد تقرّر أن يكون يوم الأربعاء الموافق 14 من شهر يناير سنة 1948، كما كان يعرف أن الخبر باغتيال الإمام يحيى سيكون ببرقية إلى مكتب الخادم الوجيه في عدن نصها: «نفدت كمية المريكني عجلوا بإرسال بضاعة أخرى»، و«المريكني» نوع من القماش القطني، وهذا الرمز يعني مات الإمام فعجّلوا إرسال نسخ من الميثاق.

ولكن لم يتم اغتيال الإمام يحيى في الموعد المحدد؛ لأن الشيخ علي ناصر القردعي قائد فرقة الاغتيال أصرّ على أن تصدر فتوى من علماء تحلُّ قتل الإمام، وقد أصدر الفتوى السيد حسين الكبسي وأيّده السيد زيد الموشكي فيما بعد، وهذا أدى إلى تأخّر اغتيال الإمام عن الموعد المحدد. ويضيفُ القاضي عبد اللّه الشماحي إلى هذا السبب الديني سببا آخر، وهو أن القردعي كان يشترط أن تضمّ فرقة الاغتيال أشخاصا من قبيلة حاشد وقبيلة بكيل، حتى يتفرّق دم الإمام بين القبائل، ولا تتحمّله قبيلة مراد وحدها، ولكنني أرى أن هذا الشرط لم يُنفّذ؛ أما الذي حدث بالفعل، فهو أن مكتب الخادم الوجيه في عدن تلقّى نص البرقية المتفق عليها في مساء الأربعاء يوم 3 ربيع الأول 1367هـ- 14 يناير 1948، فهل أرسلت البرقية من صنعاء أو من الحديدة؟ وسرعان ما نقلت إلى الأستاذ نعمان والزبيري؛ أما البرقية

التي أخبره مخبرُه بأن صديقهما المشترك قد تلقاها، وتدل على اغتيال الإمام يوم 15 يناير، فإن هذا يدل على أن المتآمرين في صنعاء كانوا مُخترقين لا بجواسيس الإمام أو ولي عهده، وإنما بثقة الخادم الوجيه بالحلالي.

وكان والي عدن قد أرسل في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الخميس مندوبا عنه إلى الأمير إبراهيم، قدّم له تعازي الوالي في موت والده الإمام يحيى، كما تواجد حول دار «الجمعية اليمنية الكبرى» عدد من شرطة عدن، لحراسة الدار التي يسكنها الأمير إبراهيم. وبمجرد أن تلقّى الأستاذ نعمان البرقية المرسلة إلى مكتب الخادم الوجيه تحرّك هو والزبيري، ومحيي الدين العنسي، وأحمد الحورش إلى الدار، لمقابلة الأمير إبراهيم، وصادف ذلك وجود مندوب الوالي لدى الأمير، بحضور الأستاذ أحمد البراق، يقدم له العزاء في موت والده، وهذا أكد أن البرقية المُرسلة إلى مكتب الخادم الوجيه صحيحة، وأن قتل الإمام يحيى قد تم، وأن الثورة الدستورية في صنعاء بقيادة الإمام عبد اللّه أحمد الوزير قد قامت بالفعل.

ويروي عن والي عدن حينذاك السير رولاند شامبيون قوله: في صباح يوم 14 من يناير يوم الأربعاء نقل إليّ مخبري؛ يقصد صالح جعفر، ما سمعه من صديقنا المشترك، يعني «الحلالي» بأن الإمام سوف يتم اغتياله اليوم، أو يوم الجمعة القادم المصادف 16 يناير، وبأنه سيتمّ قتل سيف الإسلام أحمد ولي العهد في تعز، بمجرد اغتيال والده. وفي الصباح الباكر من يوم 15 يناير نقل إليّ مخبري الخاص صالح جعفر أن صديقنا المشترك قد تسلّم في وقت متأخر من الليلة السابقة برقية مشفرة من صنعاء، وقد تم تفسيرها بأن الإمام قد قُتل بالفعل. وإذا صحّت الرواية عن والي عدن شامبيون حينذاك، فهذا يؤكد أن الحلالي كان على صلة مستمرة به، عن طريق الضابط الإنجليزي السياسي صالح جعفر، وأنه كان يعرف مؤامرة اغتيال الإمام يحيى وولي عهده، وأنها ستتم؛ إما يوم الأربعاء 14 يناير، أو يوم الجمعة 16 يناير، ويؤكّد أن الوالي قد تستّر على هذه المؤامرة. أما البرقية التي أخبره مخبره بأن صديقهما المشترك قد تلقاها، وتدل على اغتيال الإمام يوم 14 يناير، فإن هذا يدلُّ على أن المتآمرين في صنعاء كانوا مُخترقين لا بجواسيس الإمام، وولي عهده، ولكن بالثقة

المطلقة التي كان الخادم غالب الوجيه قد منحها لصديقه القاضي حسين الحلالي، نائب الحديدة، ولكن هل كان الحلالي يعرف أن اغتيال الإمام يحيى لم يحدث، وأنه تأخّر لسبب من الأسباب؟ أم أنه ظنّ أن الاغتيال قد نُفّذ بالفعل وسرّب الخبر إلى عدن؟

لا يوجد جواب أكيد لهذه التساؤلات. وقد أورد الكاتب لي دغلاس في مقال ترجمته السيدة بلقيس إبراهيم الحضراني عدة احتمالات لتسرّع الأحرار في عدن بنشر خبر الثورة ودستورها «الميثاق الوطني المقدس»، وهذه الاحتمالات- في رأيي- إما أنها بعيدة عن الحقيقة، وإما أنها تجعل الحقيقة مشوّهة، بحيث تختلط بما يفقدها مصداقيتها. من تلك الاحتمالات أن «الجمعية اليمنية الكبرى» في عدن كانت مخترقة بجواسيس لولي العهد أحمد، وأنه هو الذي أوعز للحلالي في الحديدة بتسريب الخبر الكاذب عن موت الإمام يحيى إلى والي عدن، مما جعل الأحرار في عدن ينشرون الخبر و«الميثاق الوطني المقدس»، وأستطيع أن أؤكد أن هذا الاحتمال غير صحيح. ومنها أن الحلالي أبلغ ولي العهد بالميثاق والمؤامرة، ثم اتصل بصالح جعفر الممثل السياسي البريطاني في الحديدة، وأبلغه بموت الإمام يحيى، فأبرق بذلك إلى والي عدن الذي سارع بإرسال مندوب عنه إلى الأمير إبراهيم، يُعزّيه في موت والده، مما أكد للأحرار صحة الخبر، فنشروه ونشروا الميثاق، وهذا الاحتمال يقتربُ إلى الحقيقة، ولكن ينقصه ترابطه بما قبله.

وقد استبعد لي دغلاس تلك الاحتمالات، ولكنه رجّح احتمالا فيه الكثير من الخلط، مما يُبعد ما حدث عن الحقيقة، فقد اعتمد على سجلات الإدارة البريطانية في عدن، وعلى أقوال السير رولاند شامبيون، والي عدن حينذاك، عن وصول رسول إلى عدن في مساء الجمعة التاسع من يناير، يحملُ نسختين من الميثاق المقدس، «ليقوم الزبيري ونعمان بطبعهما»، وعلى حسب رواية الأستاذ نعمان، فقد كان الرسول هو القاضي محمد عبد اللّه الشامي، ويقول الوالي شامبيون: وصل إلى عدن رسول إلى الممثل المحلي للمتآمرين، وهو تاجر من تهامة، ذو ذكاء وسعة أفق، عرفته وأحببته لسنوات عديدة -يقصد الخادم غالب

الوجيه- وكان صديقا لمخبري الخاص يقصد صالح جعفر، الممثل السياسي البريطاني في الحديدة، ولا أدري من أين جاء للكاتب لي دغلاس أن الأستاذ نعمان روى أن الرسول هو القاضي محمد عبد اللّه الشامي، فقد كنتُ في عدن حينذاك وأعرف أن الرسول هو الشهيد علي العتمي، زميلي في مكتب الأيتام أيام الطفولة، وأحد الذين شاركوا فيما بعد في اغتيال الإمام يحيى، وقطع الإمام أحمد رأسه عقب انتصاره على ثورة الدستور، وزيارته لعدن هذه هي الثانية، وكانت في شهر ديسمبر سنة 1947، يحملُ نسخة معدلة من «الميثاق الوطني المقدس»، احتلّ فيها الشهيد علي بن عبد اللّه الوزير منصب رئيس الوزراء، بدلا من منصب رئيس مجلس الشورى الذي كان موجودا في النسخة الأولى، وتولّى الأمير إبراهيم منصب رئيس مجلس الشورى، بدلا من منصب رئيس مجلس الوزراء في النسخة الأولى[1].

وقد عاد الرسول علي العتمي بجواب من قيادة الأحرار إلى صنعاء، بأنهم مصرُّون على بقاء المناصب كما كانت عليه، حتى لا يجتمع لبيت الوزير تولي سلطات الدولة التنفيذية، ممثلة في الإمام عبد اللّه أحمد الوزير، وفي رئيس الوزراء على الوزير، إلى جانب ما للإمام من حق في السلطة التشريعية، ولكن عبد اللّه الوزير أصرّ على ذلك التعديل، وحمل الأخ علي العتمي ردّ صنعاء، ومعه توصية من الفضيل الورتلاني، بقبول ما أراده الوزير، حتى لا يحصل انشقاق في جبهة المعارضين لبيت حميد الدين. وهكذا وافق الأحرارُ على مضض، وقد قابلتُ زميلي من مكتب الأيتام عند زيارته الأولى إلى عدن، وبرغم أنه لم يحدّثني عن مهمته، إلا أنني عرفت التفاصيل بحكم انضمامي إلى قيادة الأحرار بعد قيامي بمهمتي الأولى، في الاتصال بالسلطان حسين أحمد الرصّاص في منطقة البيضاء، ولعله لم يكن يعرف التفاصيل، لكونه رسولا فقط.

وهكذا نرى أن سجلات الإدارة البريطانية في عدن، وما رواه والي عدن

(1) للاطلاع على نص الميثاق الوطني وملحقاته، انظر الملحق الخاص بالوثائق .

-إن صحَّ- لم يكن دقيقا، ولعل القاضي محمد عبد اللّه الشامي قد زار عدن في تلك الفترة لمهمة أخرى، فاختلط الأمر على المخابرات البريطانية في عدن، ولم أعد أذكر -أو على الأصح- لم أكن أعلم أن القاضي الشامي قد وصل إلى عدن حينذاك، ولكن من الأكيد أن مهمته لم تكن حمل نسختين من «الميثاق الوطني المقدس» للأستاذين نعمان والزبيري لطبعه، وربما كانت تخدم هدف الحلالي، فقد بقي القاضي الشامي مقرّبا من الإمام أحمد كما كان من قبل مقرّبا من الإمام يحيى، وفيما بعد كان ممن حاول دفع الإمام البدر للقضاء على «الضباط الأحرار» قبيل قيامهم بثورة 26 سبتمبر 1962، وإعلان قيام الجمهورية.

اغتيال الإمام يحيى

عندما تم وضع «الميثاق الوطني المقدس»، ووقّع عليه من وقّع كانت قناعة الجميع هي تنفيذ الأسس الدستورية في ذلك الميثاق عندما يموت الإمام يحيى موتا طبيعيا، وكان الفضيل الورتلاني قد تمكّن من تشكيل جبهة من الطامعين في تولي الإمامة ومن الساخطين على الإمام وأسرته، ومن جماعات الأحرار في الداخل والخارج على أساس «الميثاق الوطني المقدس»، وهي جبهة يربط بينها السخط على الإمام وأسرته أكثر مما يربط بينها «الميثاق الوطني المقدس» وأهدافه، ولهذا فإن تلك الجبهة كانت جبهة هشّة، سرعان ما تتنافر وتتفكك عندما تتصادم مصالحها بعد التنفيذ.

كان الفضيل الورتلاني قد تمكّن من تأسيس الشركة التجارية اليمنية التي ساهم في تأسيسها تجار يمنيون، وبعض أولاد الإمام يحيى، وكذلك ساهم معهم من مصر الحاج محمد سالم، وبقي الفضيل في اليمن مندوبا عنه، وكان الحاج عبد اللّه السنيدار مديرا عاما للشركة. وقد أصدر الإمام يحيى مرسوما بتأسيس الشركة في 21 رمضان 1366هـ-7 أغسطس 1947، نصّ على احتكار الشركة لاستيراد الغاز والسكر. وكان الفضيل بشخصيته القوية الجذابة، وبمواهبه في الخطابة والإقناع، وبسعة علمه في علوم الدين والتاريخ والأدب، وثقافته الواسعة يخطبُ في المساجد، وخصوصا

الرئيس جمال جميل

يوم الـجمعة، ويفسّر آيات من القرآن تفسيرا يجعلُ الناس في حالة انبهار بما يسمعونه من ذلك الشخص القوي الجذاب الآسر، الذي جعل الإمام يحيى يضيقُ به، ويتوجسُّ منه شرا. كما أن الإمام يحيى بدأ يقتنع أن بيت الوزير، وعلى رأسهم عبد اللّه بن أحمد الوزير يتآمرون لتولي الإمامة، بدلا عن بيت حميد الدين، ولذلك استدعى ابنه وولي عهده أحمد للانتقال من تعز إلى صنعاء، وقد اشترط ولي العهد على أبيه أن يمنحه حرية التصرف ضد كل الطامعين والمتآمرين.

في صنعاء انقسم المتآمرون إلى قسمين، قسم الشباب ومنهم عبد اللّه بن علي الوزير الذي عاد من مصر، وعبد اللّه بن محمد الوزير، وأحمد محمد الشامي، وحسين الكبسي، وأحمد المطاع، والعزي صالح السنيدار وغيرهم، وهؤلاء كانوا يعملون ويتآمرون لاغتيال الإمام يحيى، لأنه برغم شيخوخته، وبرغم إصابته بمرض النقرس في أقدامه إلا أن صحته لا تزال جيدة، وقد قال مرة: إنني سأحكم اليمن خمسين سنة أخرى من نافذة غرفتي! أما القسم الآخر فهم من كبار السن، وعلى رأسهم الأمير علي عبد اللّه الوزير الذي عارض بشدة فكرة اغتيال الإمام يحيى، واقترح الخروج عليه، باعتباره ظالما على أن يخرج هو في الشمال والشمال الشرقي من اليمن، ويخرج عبد اللّه أحمد الوزير في ذمار ورداع والبيضاء والجهة الجنوبية، ويخرج محمد بن أحمد الوزير في الشمال الغربي من صنعاء، ولكن فكرة الخروج هذه رُفضت لأنها غير عملية، ولن يستجيب الناس للخارجين؛ لأن الإمام يحيى كان في نظر عامة الشعب شخصية مقدسة، وظلّ الله في أرضه.

وزادت مخاوفُ الإمام يحيى من آل الوزير وأنصارهم، كما زادت مخاوف آل

الوزير من الإمام وولي عهده، وبلغهم أن الإمام يعدّ في سجن القلعة، وسجن الرادع غرفا لاستقبال آل الوزير، وأن ولي العهد سيصل صنعاء قريبا، ولهذا انضمّ عبد اللّه بن أحمد الوزير إلى قسم الشباب الذي يتبنّى فكرة اغتيال الإمام يحيى. كما أن الفضيل الورتلاني بدأ يشعر أن الإمام يحيى يرى فيه خطرا، وأنه يتضايق من وجوده في اليمن، فقد بدأ في مضايقته، وقطع ما كان يجرى له كضيف عليه، ولذلك تبنّى فكرة اغتيال الإمام، وضغط في هذا الاتجاه بقوة شخصيته، حتى اختلف مع الزعيم جمال جميل العراقي الذي قال: إن الفضيل يسوقنا بعصاه إلى المجهول.

ولكن الذين يريدون قتل الإمام يحيى من الشباب، وجدوا أنفسهم أمام سؤال لا يجدون له جوابا عمليا.. من يغتال الإمام يحيى؟ في البداية اقترح عبد الوهاب الشامي، شقيق صديقي أحمد الشامي أن يتنكّر في ثياب امرأة، ويتسلل إلى قصر الإمام ويغتاله بمسدس، وتم استبعاد هذا، لأنه غير عملي كما ورد في مذكرات المناضل العزي صالح السنيدار. ثم حاولوا إقناع مجموعة من شباب المدرسة العلمية، للوصول إلى موقف مواجهة الإمام يحيى للناس في حوش قصره كعادته، على أساس أن لهم شكوى ضد إدارة المدرسة، ثم يحدثون فوضى وهرجا في الموقف، يتم خلاله اغتيال الإمام من أحدهم، وتم تكليف عبد الوهاب الشامي بترتيب هذه الخطة، ولكن تعذّر تنفيذها، كما ورد في ذكريات حسين المقبلي والعزي صالح.

وعندما أحسَّ عبد اللّه الوزير بخطورة الموقف تولّى تدبير مؤامرة الاغتيال بنفسه. وكانت كل القرائن تدلُّ على أن الإمام يحيى وولي عهده سيضربان أولا، وأصبح السباقُ محموما بين الطرفين، على من يضرب أولا.! وتوزّع المتآمرون إلى مجموعات، تقوم كل مجموعة بمهام معينة، وكانت المجموعة التي يمكن أن يُطلق عليها «القيادة» تجتمع في بيت السيد حسين الكبسي في حارة السلطان، القريب من بيت عبد اللّه أحمد الوزير، وتتكوّن من حسين الكبسي، وصديقي أحمد محمد الشامي، والسيد عبد اللّه بن علي الوزير، والسيد الفضيل الورتلاني، ويشاركهم أحيانا السيد عبد اللّه بن أحمد الوزير.

أما المجموعة الثانية فتتكوّن من السيد أحمد المطاع وأخيه محمد، ومن العزي صالح السنيدار وآخرين، ومهمتُهم تدبير المال ووسائل تنفيذ المؤامرة. وكانت المجموعة الثالثة بقيادة الرئيس جمال جميل العراقي، ومعه المشير فيما بعد عبد اللّه السلّال، والسيد أحمد حسين المروني والفريق فيما بعد حسن العمري، وضباط آخرون، ومهمتُهم إعداد فوج «النمونة» والجيش للسيطرة على صنعاء. أما المجموعة الرابعة فكانت مجموعة المنفّذين لاغتيال الإمام يحيى، ويجتمعون في بيت عبد اللّه بن أحمد الوزير، الإمام فيما بعد، وعلى رأسهم الشيخ علي ناصر القردعي، شيخ قبيلة مراد، ومحمد قايد الحسيني وأخيه من بني حشيش، وابن الشيخ محسن هارون من بني الحارث، وعلي العتمي من عتمه، وكان زميلي في مدرسة الأيتام، ثم سائق السيارة الكبيرة محمد ريحان، وهي سيارة تابعة للشركة اليمنية التي أسسها الفضيل الورتلاني.

وكان موعد التنفيذ المتفق عليه، والمعروف للأحرار في عدن هو يوم الأربعاء 18 يناير 1948، والمتفق عليه أن يتلقّى الأحرار -كما سبق ذكره- برقية إلى مكتب الخادم غالب الوجيه تقول: «نفدت بضاعة البز المريكني، أرسلوا بضاعة أخرى»، وتم تسليم هذه البرقية إلى الأستاذ نعمان، وتعني أنه تم قتل الإمام يحيى وقيام حكومة الدستور، وإرسال نسخ من الميثاق الوطني. ولا يُعرف حتى الآن المصدر الذي أرسل البرقية، والأرجح أن مصدرها هو القاضي حسين الحلالي، نائب الإمام في الحديدة؛ ولكن قبل الموعد المحدد لتنفيذ الاغتيال تردد الشيخ علي ناصر القردعي في التنفيذ، واشترط شرطين لذلك: الأول، أن يصدر حكم شرعي من علماء، يجيز قتل الإمام يحيى. والثاني، أن يشترك معه عدد من

الشيخ علي ناصر القردعي

رجال القبائل الأخرى، حتى يتوزّع دم الإمام بين قبائل عدة. وكان هذا سببا في تأخر اغتيال الإمام في الـموعد الـمحدد، وانتشار إشاعة موت الإمام يحيى، وهذا مجمع عليه، بمن فيهم القاضي عبد اللّه الشماحي.

وبرغم مرور أكثر من سبعين عاما على إرسال هذه البرقية، إلا أن مصدر إرسالها الـحقيقي لا يزال مجهولا حتى الآن! هناك تكهنات وتخمينات وقرائن، ولكنها لا ترقى إلى مرتبة اليقين. وكانت هذه البرقية سببا لتسرّع الأحرار في عدن، بإرسال برقية التأييد والـمبايعة للإمام عبد اللّه أحمد الوزير، وبنشر الإشاعة في «صوت اليمن»، ونشر أعداد من «الـميثاق الوطني الـمقدّس»، وإبلاغ «الإخوان الـمسلمين» الذين نشروا في صحفهم الـخبر، ونشروا «الـميثاق الوطني الـمقدّس»!

وقد تأخّر موعد اغتيال الإمام يحيى 33 يوما بعد الإشاعة، حتى تم تنفيذه في يوم الثلاثاء 7 ربيع الآخر سنة 1367هـ- 17 فبراير 1948، ففي هذا اليوم خرج الإمام يحيى لمواجهة الناس في موقف الـمواجهة في حوش داره كعادته، ثم ركب على عربيته التي تجرّها الـخيول ومعه حرسه من الـخيالة والراجلين، وخرج من «باب خزيمة» في سور صنعاء، وكان قد أرسل من يحضر سيارته، وركبها وهو خارج سور صنعاء ومعه أحد أحفاده ابن الـحسن، ووزيره القاضي عبد اللّه العمري، وابن خادمه محمد أحمد قلالة، وأمر الـحرس بانتظاره خارج السور حتى يعود، واتجه بسيارته إلى منطقة حزيز جنوب صنعاء، حيث تفقّد هناك أراضي زراعية اشتراها حديثا، ثم عاد صوب صنعاء، ولكن سائق السيارة توقّف؛ لأنه وجد عددا من الـحجارة الكبيرة تسدّ طريق السيارة، وكانت فرقة الاغتيال تتربصُ به، قابعة على سيارة كبيرة «مطربلة»، وعند توقف سيارة الإمام هبّت فرقة الاغتيال بقيادة الشيخ علي ناصر القردعي، وصبُّوا على السيارة ومن فيها وابلا من الطلقات النارية من بنادقهم، فقتلوا الإمام ووزيره وحفيده وابن خادمه قلالة، وبعد أن تأكدوا من قتلهم عادوا صوب صنعاء على سيارتهم «الـحمول الـمطربلة».

وعندما اقتربوا من صنعاء شاهدوا على دراجة هوائية «سيكل» شخصين هما حسن بن حسن العمري، وصديقي أحمد محمد الشامي، فأشاروا لهما بتنفيذ مهمة

الاغتيال، وعادا على الدراجة إلى صنعاء، وذهب صديقي الشامي إلى بيت عبد اللّه الوزير، وأخبره بالخبر الذي ينتظره. وقد أخبرني بذلك صديقي أحمد الشامي ونحن في سجن نافع، وذكره آخرون ممن التقوا بهم. وفي الحال نهض عبد اللّه الوزير، وهو في كامل هيأته وتأهّبه، واتجه إلى قصر السلاح «قصر غمدان» في الجهة الشرقية من صنعاء، ومعه مرافقه العسكري «عزيز يعني» من قبيلة بني مطر، يقود عددا قليلا من الحرس المرافقين. وفي باب قصر السلاح حاول الحارس أن يستوقفه ويسأله، ولكن الوزير نهره وأمره أن يمشي أمامه، ورتّب في البوابة حارسين من مرافقيه، واتجه إلى دار هناك واتخذها مقرا له، وسيطر على القصر بقوة شخصيته وشجاعته، وأعلن أن الإمام يحيى قد مات، وأنه الإمام الذي بايعه العلماء.. وعندما وصل ضابط وعدد من جنود فوج «النمونة» الذي أنشأه ودربّه الضابط العراقي جمال جميل لتدعيمه، كان الإمام عبد اللّه الوزير قد سيطر على قصر السلاح سيطرة كاملة.

وعندما وصل إليه الشيخ علي ناصر القردعي مع قرابة خمسين مسلحا من قبيلته «قبيلة مراد»، أمره الإمام الداعي- ثم استبدل الداعي بالهادي- أن يتجه إلى قلعة نُقُم، في قمة الجبل ويحتلها بأصحابه، ويدافع عنها كما جاء في كتاب محمد بن محمد الوزير المسمّى: كتاب الأمير علي بن عبد اللّه الوزير، وكان من أول إجراءات الإمام عبد اللّه الوزير منح الجنود عشرين ريالا إكرامية. وفي الوقت نفسه كان الرئيس جمال جميل العراقي قد تحرّك بجنوده، واحتلَّ المراكز الحساسة في مدينة صنعاء، وسيطر على الإذاعة وعلى اللاسلكي، واتخذ من مقر إدارة التجنيد، وهو في الطرف الغربي من سور صنعاء -وفيه الآن مركز شرطة ميدان التحرير- مقرا له.

وخلال ذلك كان سيف الإسلام الحسين وأخواه يحيى والمحسن قد احتلوا قصر الإمام يساندهم وجود مجموعة من العُكفة «الحرس الخاص للإمام يحيى»، فبادر الرئيس جمال جميل بمجموعته من جنود الفوج، واحتلَّ بناية كان الأمير علي بن الإمام يحيى قد بناها، لتكون مقرا لوزارة الاقتصاد التي كان وزيرا لها في الأيام الأخيرة من عهد أبيه، وتواجه جمال مع أولاد الإمام، وحصل حوار بينهم فأمره الحسين أن يأتي

إليهم للتفاهم، وطلب جمال منه ومن إخوته التوجه إلى قصر السلاح لمقابلة الإمام عبد اللّه الوزير ومبايعته، بدلا من إحداث فتنة؛ فأمر الحسين من معه من العُكفة بإطلاق النار على جمال، وأمر جمال جنوده بإطلاق النار على أولاد الإمام، وتبادل الطرفان إطلاق النار، وتم قتل الحسين والمحسن؛ أما السيف يحيى فقد انبطح أرضا ونجا من الموت، وتم إرساله إلى قصر السلاح؛ حيث يوجد الإمام الوزير، وذلك في الساعة الثالثة عصرا؛ أما أولاد الإمام يحيى الموجودون في صنعاء فقد تولّى صديقي أحمد الشامي إيصالهم إلى الإمام عبد اللّه الوزير، وهم سيوف الإسلام علي وإسماعيل والقاسم في قصر السلاح، وسيطرت الثورة على العاصمة صنعاء، وبدأت وفود العلماء ومشايخ القبائل تتوافد لمبايعة الإمام الهادي عبد اللّه بن أحمد الوزير.

مساء الثلاثاء 7 ربيع الآخر–17 فبراير 1948، تم تشغيل إذاعة صنعاء، وأذاع صديقي أحمد محمد الشامي خبر موت الإمام يحيى، وقيام الإمام الهادي عبد اللّه أحمد الوزير وحكومة الثورة الدستورية، وأذاع نص «الميثاق الوطني المقدّس»، الموقّع من الإمام عبد اللّه الوزير ومن كل الأسماء الواردة فيه: رئيس وأعضاء الحكومة وكذلك رئيس وأعضاء مجلس الشورى، وكبار موظفي الدولة. وفي اليوم الثاني بدأ العلماء وكبار القوم يتوافدون على قصر السلاح في صباح يوم الأربعاء، لمبايعة الإمام الهادي عبد اللّه بن أحمد الوزير، وقبل الظهر لبس الإمام الزيَّ التقليدي للإمام، وأعلن نفسه إماما، ودُفن الإمام يحيى على عجل وبدون احتفال رسمي، وفي اليوم نفسه تأكّد نجاة ولي العهد أحمد في تعز من محاولة اغتيال، وبنجاته توقّع الجميع اشتعال حرب بينه وبين الإمام الدستوري وأنصاره، وقد حلّقت طائرة إنجليزية في أجواء صنعاء على ارتفاع عال.

وفي اليوم التالي الخميس 19 فبراير 1948، أعلنت إذاعة لندن موت الإمام يحيى، وحلّقت طائرة إنجليزية أخرى في سماء صنعاء عدة مرات. وقبل منتصف الليل دوّت مئة طلقة مدفعية بمناسبة إعلان تنصيب الإمام الجديد عبد اللّه الوزير، وتم إعلان ذلك في خطبة يوم الجمعة في الجامع الكبير، وفي جوامع بعض المدن اليمنية، وفي اليوم نفسه تلقّى الإمام الجديد ردّا من الملك عبد العزيز بن سعود،

وكان الرد عبارة عن إشعار باستلام برقية الإمام الوزير، وأنه سيتخذ مع الآخرين في الجامعة العربية الإجراء المناسب.

وبخصوص مصير أولاد الإمام يحيى، فقد نجا ولي العهد أحمد واتجه إلى معقله في حجة. وتم اعتقال سيوف الإسلام علي، وإسماعيل، ويحيى، والقاسم، وقد بايعوا الإمام الوزير وصاروا من جلسائه إلى أن «ربطوه بعمامته»! وتمت محاصرة العباس في قصره بمنطقة السر بني حشيش، ولهذا كان أول من دخل إلى صنعاء من أولاد الإمام يحيى على رأس قوات الإمام أحمد عند سقوط صنعاء. أما الحسن والمطهر فقد كانا في منطقة القفلة يحشدان القبائل للزحف على صنعاء. وفي حين كان عبد اللّه في لندن، ينتظر أن يصل إبراهيم صنعاء قادما من عدن كان الحسين والحسن قد قتلا، أما عبد الرحمن فقد ظلَّ مع النساء في قصر الإمام يحيى، وقد رفض الاستسلام أو مغادرة القصر.

وخلال الأيام الأولى كانت الطائرات الإنجليزية تحلّق في سماء صنعاء مرات متعددة للاستطلاع. كما حلّقت يوم الاثنين 23 فبراير 1948، الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا طائرة مجهولة من نوع «داكوتا» فوق صنعاء، ثم اتجهت باتجاه الشمال الغربي، ربما لاستطلاع منطقة حجة، وبعد نحو نصف ساعة عادت وألقت منشورات على صنعاء ثم هبطت، ويبدو أنها الطائرة المصرية التي أوصلت إلى صنعاء مندوبين يمثّلون أمين الجامعة العربية، وطائرة عسكرية يقودها الطيار عبد اللطيف البغدادي. وفي اليوم نفسه رست أمام الحديدة طرادتان عسكريتان، إحداهما فرنسية، والأخرى إنجليزية، وقد استقبلهما نائب الإمام في الحديدة القاضي حسين الحلالي، وأذن لهما بالرسو.

وبعد اغتيال الإمام يحيى في يوم الثلاثاء 17 فبراير 1948، وقيام الإمام عبد اللّه الوزير في صنعاء ظلَّ الحلالي على صلة بصنعاء، ولكنه فقد الاتصال بولي العهد لمدة ساعات في ذلك اليوم؛ لأن ولي العهد في تعز كان قد جمع أكثر من مئتي عكفي من حرسه الخاص على سيارات، وركب سيارته الخاصة، وتحرّك الموكب إلى خارج تعز، فأمر بتوقف الموكب وخلع ملابسه واستبدلها بملابس العكفة،

ووضع العمامة في السيارة مع ملابسه وانتقل من سيارته إلى سيارة عليها مجموعة من العُكفة، وبهذا نجا من الكمين المكلف باغتياله، بقيادة النقيب حسين الشايف من مشايخ ذو حسين، وعند مروره بمدينة حيس ومدينة زبيد و«بيت الفقيه» رتّب الأمور لصالحه، ثم اتجه إلى الحديدة، وعندما اقترب بموكبه من مدينة الحديدة أرسل سيارة إلى نائب الحديدة القاضي حسين الحلالي الذي أسرع على سيارته، واستقبل ولي العهد في منطقة المخداشة جنوب الحديدة، وقابل ولي العهد الذي أوهمه أنه في طريقه إلى صنعاء لمحاربة البغاة القتلة، وأخذ الحلالي معه إلى مدينة باجل الواقعة شرقي الحديدة في الطريق إلى صنعاء، ومن باجل أرسل برقية تهدئة إلى عبد اللّه الوزير يوهمُه أنه في طريقه إلى صنعاء ويأمره بحفظ الأمن إلى وصوله.

وقد ردّ الإمام الوزير على برقية ولي العهد ببرقية يدعوه فيها إلى مبايعته، والدخول فيما ارتضاه عامة الناس، ونصها كما ذكر القاضي عبد اللّه عبد الوهاب الشماحي المجاهد:[1] «من أمير المؤمنين الهادي لدين الله عبد اللّه أحمد الوزير، إلى الأخ سيف الإسلام أحمد حفظكم الله، نعزيكم وأنفسنا بوفاة والدكم الإمام يحيى رحمه الله، وعلى إثر وفاته أجمع ذوو الحل والعقد على اختيارنا للإمامة، وكلّفونا للقيام بها، فلم يسعنا -نظرا إلى الموقف- إلا الإجابة مكلّفين غير مختارين، فليكن منكم الدخول فيما دخل فيه الناس، ولكم لدينا المكانة والاحترام، والسلام». ولم تبق برقية الإمام الوزير لولي العهد مجالا للمناورة والمراوغة؛ فأعلن نفسه إماما، وأرسل برقيات بذلك إلى عموم المراكز الحكومية في اليمن، وتكنّى بلقب الإمام المؤيد بالله الناصر، وذلك في يوم الخميس 19 فبراير 1948، ثم أرسل من باجل ردّا على برقية الإمام الوزير جاء فيها: «من أمير المؤمنين المؤيد بالله الناصر أحمد بن أمير المؤمنين المتوكل على الله يحيى بن أمير المؤمنين

(1) عبدالله عبدالوهاب الشماحي المجاهد، «اليمن.. الإنسان والحضارة»، ص 234. وفيما يتعلق بتاريخ نشرها، لعل ذلك تم في 9 ربيع الآخر 1367هـ- 19 فبراير 1948.

المنصور بالله محمد بن يحيى بن رسول الله، إلى الناكث الذليل الحقير عبد اللّه الوزير، لقد ركبتَ مركبا صعبا عن طريق الغدر والخيانة، وإنك ستسقط إلى الهاوية في القريب ذليلا حقيرا، وأنا زاحف إليك بأنصار الله الذين سترى نفسك تحت ضرباتهم معفّرا فريدا، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، والعاقبة للمتقين، والله المستعان».

ثم أمر الحلالي بالعودة إلى الحديدة، واتجه نحو مدينة الزهرة في الشمال الشرقي من الحديدة. ويروي صديقي أحمد الشامي في كتابة «رياح التغيير في اليمن» أن ولي العهد عندما اقترب من مدينة الزهرة أرسل يستدعي السيد ابن الهيج الذي يمتلك إقطاعات زراعية واسعة، وربما كان الإقطاعي الوحيد في اليمن، وكان ولي العهد يعرف أن ابن الهيج على صلة بالسعوديين، وبأمير جيزان خالد السديري حينذاك، وبقي ولي العهد بعيدا عن مدينة الزهرة، حتى أتى إليه ابن الهيج، فأخبره ولي العهد بحزن شديد بقتل والده الإمام يحيى وبعض إخوانه، وأنه قد استخار الله وقرّر ألا يثأر لمقتل أبيه وإخوانه، حتى لا يتسبّب في سفك دماء المسلمين، وأن يهاجر إلى مكة المكرمة ليقضي بقية حياته في جوار الكعبة، وطلب منه أن يرسل إلى الملك عبد العزيز بن سعود رسولا يخبره بهذا، ويطلب منه الإذن له بالدخول إلى المملكة والسكن جوار الكعبة، وأخبره أنه سيذهبُ إلى مدينة حجة، لأخذ بعض النساء، وما يحتاجه للعيش في جوار الكعبة المشرفة، وقد رحّب ابن الهيج بولي العهد، وأخبره أنه تحت خدمته، وسوف يرسل رسولا خاصا، لنقل رغبة ولي العهد إلى الملك عبد العزيز، فشكره ولي العهد وقال له: سوف أنتظر أياما في حجة حتى يأتيني خبر منك. ويظهر أن ولي العهد أراد بهذا مخادعة الملك عبد العزيز آل سعود الذي يعرف أنه يميل إلى آل الوزير، ويعتقد أن ولي العهد كان وراء المجموعة التي حاولت اغتيال الملك عبد العزيز في الحرم أثناء أدائه فريضة الحج في عام 1935. وبمجرد وصول ولي العهد إلى حجة أشعل الدنيا، وأثار في نفوس القبائل الغضب ضد قتلة أبيه، الإمام يحيى، وأغراهم بالطمع لنهب صنعاء التي أباحها لهم. انتهى ما رواه صديقي أحمد الشامي.

أما القاضي الحلالي نائب الحديدة فقد ظلّ ينفّذ أوامر صنعاء وأوامر ولي العهد في الوقت نفسه حتى سقوط صنعاء. ويروي صديقي الشامي في كتابه «رياح التغيير في اليمن»، أن الخادم غالب ظلَّ يتردّد على مجالسة الحلالي، ويثق به ثقة عمياء، وأنه دخل عليه في اليوم الذي سقطت فيه صنعاء في يد ولي العهد، فأمر الحلالي الجنود بأخذ الخادم غالب إلى السجن، وكانت المفاجأة عنيفة، لم تترك له قدرة على قول أي شيء، وهو يرى الجنود يجرُّونه بعنف إلى السجن. وبعد انتصار ولي العهد أحمد الذي أصبح إماما، وتلقّب بالإمام الناصر هبط من حجة إلى الحديدة، وأخذ معه القاضي حسين الحلالي إلى تعز، وعيّن نائبا آخر للحديدة هو العمري، عامل مناخة حينذاك. وفي تعز عيّن الإمام القاضي الحلالي في منصب الكاتب الأول في مقامه الشريف، وهو منصب لم يكن معروفا من قبل، يشبه منصب وزير الديوان الملكي، ولكن الإمام أراد بهذا تجميد الحلالي من مزاولة أي عمل حقيقي ووضعه تحت المراقبة، ربما لأنه لا يثق به، وبقي هكذا حتى أذِنَ له الإمامُ بالسفر إلى صنعاء في عام 1950، وبقي في بيته حتى مات في عام 1953 . لقد كان الثعلب الذي كان ضد الكل ومع الكل، واستطاع بما يملكه من قدرات أن يأكل دجاج الكل. رحم الله القاضي حسين الحلالي وغفر له.

الموقف في عدن بعد قيام ثورة الدستور

عقب الإشاعة الكاذبة التي تقدّم ذكرها كادت الصلات بين الأحرار في عدن، وبين من في صنعاء وتعز تنقطع، وعندما قُتل الإمام يحيى في يوم الثلاثاء 7 ربيع الآخر سنة 1367هـ–17 فبراير 1948، وخلفُه الإمام الدستوري عبد اللّه الوزير بعد ذلك، لم يتلق الأحرارُ النبأ إلا في المساء، بعد مرور ساعات من وقوع الحدث.

في صباح اليوم التالي الأربعاء، كنتُ أول من التقى بالأمير سيف الحق إبراهيم بن الإمام يحيى؛ لأنني أسكن في الدار نفسها التي يسكنها مع عائلته، فقد استدعاني في الصباح الباكر، وصعدتُ إليه في الدور الثالث، وأخبرني بقيام ثورة الدستور، وأن قيادة الأحرار ستجتمع بعد ساعة، فاقترحتُ عليه أن يستدعي بعض

التجّار المؤيدين للأحرار لحضور الاجتماع، فربما يقتنعون بتمويل الأحرار في انتقالهم إلى منطقة البيضاء، والانضمام إلى السلطان حسين الرصّاص، فاقتنع بذلك، واستدعى -بناء على اقتراحي- الإخوة: عبد القادر أحمد علوان، وهو شخصية لها مكانتها في عدن، ومؤيد للأحرار، ومحمد علي الأسودي، وهو تاجر متحمّس في تأييد حركة الأحرار، ومحمد أحمد شعلان، وهو كالأسودي كان تاجرا ويؤيد الأحرار، وآخرين لم أعد أذكرهم. وفعلا استدعاهم الأمير إبراهيم، وحضروا اجتماع القيادة، فقد جاء القاضي الزبيري والأستاذ محيي الدين العنسي، وأحمد حسن الحورش، وأحمد البراق، وبقينا ننتظر وصول الأستاذ نعمان، ولما تأخّر اتصل الأمير إبراهيم بالأستاذ عبد اللّه عبد الوهاب نعمان وسأله عن الأستاذ نعمان، فأخبره أنه ذهب لمقابلة والي عدن. وكان هذا الخبر كافيا لإحداث توتر وإثارة شكوك لدى المجتمعين.

ولأول مرة أرى الأستاذ الزبيري منفعلا، فقد قال بانفعال شديد: لقد تحمّلتُ وصبرتُ على تصرفات الأستاذ، حفاظا على الوحدة الوطنية التي تتمثّل في بقائنا معا؛ أما أن يذهب الأستاذ نعمان منفردا لمقابلة والي عدن في غفلة منا جميعا، وفي هذا الوقت بالذات فذلك يثير الشك في وجود مؤامرة ضد الوحدة الوطنية. وتكهرب جوّ الاجتماع، وبقيتُ صامتا، وبعد قليل استأذن عبد القادر علوان وانسحب، وتبعه عبد الرحمن عبد الرب -لم أعد أذكر اسمه كاملا- ثم انسحب الأخ محمد أحمد شعلان، ولم يبق معنا من التّجار إلا الأخ محمد علي الأسودي.

واقترح الأستاذ البراق على الأمير إبراهيم الاتصال بسلطان لحج علي عبد الكريم، وطلب مساعدته في تمويل خروج الأحرار إلى البيضاء ولو قرضا، ولكن الأمير إبراهيم رفض الاقتراح، ورأى أن نطلب ذلك من حسين الويسي، وكيل ولي العهد في عدن الذي أصبح وكيلا للحكومة الدستورية، واستمر الاجتماع متوترا أكثر من ساعتين، وبعدها وصل الأستاذ نعمان، وقوبل من الجميع بانتقاد وشكوك في وجود مؤامرة مع الإنجليز، لتمزيق اليمن إلى دولة شافعية ودولة زيدية، ولكن الأستاذ نعمان قابل ذلك بهدوء، وظل مبتسما برغم ظهور الانفعال في قسمات وجهه؛ ثم قال وكأنّه يحدّث

نفسه: «أنتم فين.. وإحنا فين! لقد حاولتُ إقناعه بأن تعترف الحكومة البريطانية بالوضع الجديد في صنعاء، ولكنه رفض حتى يُثبت الوضع الجديد أنه يسيطر على كل مناطق اليمن». ثم التفت الأستاذ إلينا، ووجه نظراته إلى الأستاذ الزبيري قائلا: فهمت من الوالي أنه وحكومته ضد التغيير في اليمن، وكان غير مستعد أن يناقش معي أي موضوع، لا دولة شافعية ولا دولة زيدية، ولا يحزنون، أراد مني معرفة تفاصيل المؤامرة؛ أي أرادني مجرد مخبر، لا زعيم اليمن»، ووجد المجتمعون من الحكمة تغيير الموضوع، فطلب الأمير من الأستاذ تدبير سفر الجميع إلى صنعاء، عن طريق البيضاء، طبقا للخطة المقرة من قبل.

ولكن الأستاذ رفض فكرة السفر إلى صنعاء عن طريق البيضاء مع السلطان الرصاص، وأصرّ أن ننتقل جميعا إلى تعز، وحصل جدال حاد معه؛ لأن إصراره أثار الشكوك في وجود مؤامرة مع الوالي من جديد. وبقي الأستاذ على موقفه، ولم يقل لماذا يصرّ على الانتقال إلى تعز، وخشي الزبيري أن يتفّجر موقف الأحرار في عدن، واقترح أن نذهب جميعا إلى تعز، إرضاء للأستاذ نعمان، وهناك نفكّر فيما نعمل. وهكذا جرّنا الأستاذ جميعا إلى تعز دون أن ندري لماذا، وكنتُ أظن أن الأستاذ قد رتّب لنا في تعز قوة أضمن من السلطان الرصّاص وقبيلته، يقودها معنا إلى صنعاء.

وقد انتقل الأمير إبراهيم والأحرار إلى تعز في موكب ضخم، وذلك في صباح يوم الثلاثاء 24 فبراير 1948، تقلهم ثلاث وأربعون سيارة، ومعه السيد حسين الويسي وزير المواصلات، والشيخ الأستاذ أحمد محمد نعمان وزير الزراعة، والقاضي محمد محمود الزبيري وزير المعارف، والأستاذ أحمد البراق سكرتير مكتب رئيس الوزراء، ومئة وتسعة وسبعون شخصا من كبار الأحرار، ومن ضمنهم الأستاذ الكبير محمد علي لقمان، والمحامي الأستاذ محمد حسن خليفة وغيرهم، ونزلوا جميعا في ضيافة أمير لواء تعز السيد محمد بن أحمد باشا. وقد وصلت – فيما بعد– إلى مطار عدن طائرتان مصريتان إحداهما حربية، والأخرى مدنية. وفوجئتُ –ونحن في طريقنا إلى تعز–بالشاب المتحمّس عبد السلام عمر يصاحبنا، ومعه قرابة أربعون شابا، بعضُهم بسلاح ناري، وبعضهم بالسكاكين أو بالعصي، وحتى الآن لا أعرف

كيف حدث هذا؟ كما لا أعرف من أطلق على هذه المجموعة صفة الفدائيين؟ ولكنهم قد رافقونا إلى تعز، ثم إلى إب ويريم، حتى تم وقوعنا جميعا في أسر عسكر الإمام أحمد في ذمار، ولهذا حديث آخر.

وفي تعز تفرّقنا إلى فرقتين، الأولى تقرّر عودتها إلى عدن، ومنها على الطائرة المصرية المدنية إلى صنعاء، وهم الأمير إبراهيم، والقاضي الزبيري، وأحمد البراق، ومحيي الدين العنسي، وأحمد حسن الحورش، ورافقهم الصحفي المشهور محمد علي لقمان وآخرون. أما الفرقة الثانية فقد بقيت أياما في تعز، ثم سافرت إلى صنعاء برا. ولم يبق من مجموعة عدن إلا الأستاذ نعمان ومحمد الفسيّل، ورافقنا عبد السلام عمر وفرقة الفدائيين، بعد أن تم تسليحهم بالبنادق في تعز، وانضمَّ إلينا من تعز القاضي أحمد قاسم العنسي، والأستاذ صالح محسن شرف، سكرتير ولي العهد، ولكن لماذا أصرّ الأستاذ أن ننتقل من عدن إلى تعز!

عندما تحرّكنا من تعز إلى مدينة إب، وهي أول مرحلة في طريقنا إلى صنعاء تبيّن لي أن إصرار الأستاذ نعمان بانتقالنا من عدن إلى تعز لم يكن لديه أي فكرة للانفصال الشافعي على الإطلاق، ولم يكن قد بدأ في ترتيب قوة بديلة لقوة السلطان الرصّاص في البيضاء، وحاولتُ أن أجد جوابا للسؤال، فلم أجد له جوابا منطقيا. وفي تقديري أن الأستاذ نعمان قد قاد حركة الأحرار بعقلية الفقيه الزبيدي، لا بعقلية المناضل السياسي، ولولا أن عبد السلام عمر قائد الفدائيين الذين لا يزيدون على أربعين شخصا كانوا يرافقوننا في السفر، ولولا انضمام القاضي العنسي، والأستاذ صالح محسن معنا، لوجدت أنني أنا والأستاذ نعمان فقط ننهض بقضنا وقضيضنا لإنقاذ صنعاء من حصار القبائل الطامعين، وهممتُ أن أسأل الأستاذ جوابا عن سؤالي: لماذا أصرّ على انتقالنا إلى تعز، بدلا من الانتقال إلى السلطان الرصّاص وقبائله في البيضاء، ولكني لم أفعل حتى لا أثير حنقه بدون فائدة، وبقي سؤالي بدون جواب.

العودة إلى صنعاء والاعتقال

من الأحداث الغريبة التي لا أجد لها تفسيرا معقولا في هذا الصدد أن الأحرار في عدن تسرّعوا بنشر «الـميثاق الوطني الـمقدس»، ونشر خبر موت الإمام يحيى، ومبايعة الإمام الدستوري عبد اللّه أحمد الوزير، خلفا له وحكومته الدستورية بكل أسمائها، ومجلس الشورى بكل أسمائه كما جاء في الـميثاق الوطني، وذلك صباح 15 يناير 1948، بمجرد وصول برقية مشبوهة، ترمز إلى ما كان مفروضا حدوثه ولا تفصح، ولو أنهم انتظروا عشر ساعات حتى يسمعوا إذاعة صنعاء التي تذيع مدة ساعة واحدة في مساء كل يوم خميس من كل أسبوع، من الساعة السابعة إلى الساعة الثامنة لما تسرّع الأحرار في نشر إشاعة خبر موت الإمام يحيى ومبايعة الإمام الدستوري عبد اللّه بن أحمد الوزير. وكان الأحرارُ في عدن يحرصون على سماع إذاعة صنعاء مساء كل خميس، ليستفيدوا من بعض الأخبار، ولكنهم تسرّعوا ووقعوا في الفخ صباحا وكذَّبتهم إذاعة صنعاء مساء، فقد أذاعت خروج الإمام يحيى لمواجهة الناس وتصريف شؤونهم، ثم خروجه للدورة، أي النزهة، وعاد بسلامة الله إلى قصره العامر، ونزل هذا الخبر نزول الصاعقة على الأحرار في عدن وفي مصر.

أما الحادث الثاني الغريب فقد جاء من الإمام يحيى نفسه الذي كان يحسُّ قبل أن ينشر الأحرار ما نشروا بوجود مؤامرة ضده وضد أسرته، ومن آل الوزير بالذات، وكان يلحُّ على ولي عهده بالوصول إلى صنعاء، ويُعدّ غُرفا في سجن القلعة، وغُرفا في سجن الرادع، لاستقبال آل الوزير وأنصارهم. فبعد أن نشر الأحرار في عدن ما نشروا، وكشفوا المؤامرة بكل أبعادها وكل رجالها، وبعد مرور (33) يوما من كشف المؤامرة لم يتخذ الإمام أو ولي عهده خلالها أي إجراء، ويصبح السباق بينه وبين المتآمرين سباقا محموما على من يضرب الضربة أولا. وفي هذا المناخ يخرج الإمام يحيى على سيارته للدورة – كما سبق– ومعه أصغر أحفاده وكاتبه أو وزيره الأول والوحيد القاضي عبد اللّه بن حسين العمري، وخادمه ابن قلالة، وكانت عادته إذا خرج للدورة على السيارة أن يأمر حرسه من الخيّالة والعكفة بالانتظار لعودته منها تحت سور صنعاء، واتجه بسيارته إلى منطقة حزيز في الضاحية الجنوبية من صنعاء، لتفقّد

أراض زراعية جديدة، اشتراها أخيرا، وفي عودته إلى صنعاء وجد في الطريق إليها حاجزا من الحجارة منع سيارته من السير، وتقدمت نحوه سيارة حمول «مطربلة»، هبط منها عدد من الرجال المسلحين، يقودهم الشيخ علي ناصر القردعي من قبيلة مراد، وصبُّوا على سيارة الإمام وابلا من الرصاص، وبعد أن تأكّدوا من قتله ومن معه عادوا بسيارتهم نحو صنعاء.

وعند وصولنا إلى إب وقت الظهر من يوم الاثنين 23 فبراير 1948، وجدنا في استقبالنا السيد يحيى علي عبد القادر، القائم بأعمال نائب الإمام والقاضي عبد الرحمن الإرياني، وصديقي العزيز القاضي أحمد عبد الرحمن المعلمي، والشيخ حسن الدعيس، ومجموعة كبيرة من الموظفين الحكوميين ومن الأعيان. وبعد الصلاة والغداء والراحة ذهبنا إلى ديوان المقيل في دار الحكومة، ووجدناه مكتظا بالناس، وأبدع الأستاذ نعمان -كعادته- في حديثه أو أحاديثه التي أثارت إعجاب الحاضرين. وقال الشيخ حسن الدعيس: إن الإمام وأسرته كان لهم 99٪ في صنع الثورة؛ أما الواحد الباقي فقد صنعه الأحرار.

وهنا تذكّرتُ الأمير إبراهيم وتوجيهاته للأستاذ نعمان والقاضي الزبيري بأن يعملا على تعميم الخطة مع السلطان الرصّاص في لواء تعز، ولواء إب، وأن يشجع الشيخ حسن الدعيس والشيخ علي بن محسن باشا على تكوين قوة تكون جاهزة لدعم الثورة، وكان صديقي المعلمي بجانبي فهمستُ له بأن يقنع الشيخ الدعيس بتجهيز قوة مسلحة من رجاله، ورجال الشيخ علي بن محسن باشا، وبيت دماج وغيرهم بأسرع ما يمكن، ليكونوا صحبة الأستاذ نعمان في الوصول إلى صنعاء كقوة للأحرار، وللدفاع عن صنعاء إذا حاصرتها القبائل، وقد اقتنع صديقي المعلمي وأثار الموضوع مع الشيخ حسن الدعيس الذي اقترح على الأستاذ نعمان البقاء في إب لمدة أسبوع أو عشرة أيام، يتم خلالها تجهيز ألفين أو ثلاثة من المسلحين ينهض بهم إلى صنعاء، ليكونوا قوة له وللأحرار وللثورة، ولكن الأستاذ رفض الاقتراح، وقال للدعيس: لا لزوم للتعب، وإذا لزم ذلك بعد وصولنا إلى صنعاء فسوف نبرق لكم، وصمّم على السفر في صباح اليوم التالي.

وفكّرتُ أن أبقى في مدينة إب مع صديقي المعلمي، واستأذنت الأستاذ، ولكنه رفض بأسلوبه المرح الذي يخلط الجد بالهزل قائلا: «يا عزّي.. لم يبق معي من قيادة الأحرار العليا إلا أنت.. (والعيب من فلّت رفيقه)». وفي الصباح تحرّك ركبنا في طريقه إلى المرحلة التالية، حيث وصلنا مدينة يريم وقت العصر. وبعد أن صليّنا وتغدّينا تجمّعنا في ديوان المقيل بالحكومة، ولم أعد أذكر من كان العامل فيها ومن استقبلنا عند وصولنا، ولكنني أحسستُ وقت المقيل أن الجو غير طبيعي، فقد كان أفراد من العسكر يدخلون إلى الديوان، ثم يخرجون بصورة توحي بأنهم يبيّتون شرا. وخرجتُ إلى حجرة الديوان، لأراقب ما يحدث، ولكنني وجدتُ عبد السلام قد رتّب أصحابه الفدائيين بطريقة تمنع الغدر بنا، ولعله قد أحسّ نية الغدر من العسكر، فظلّ يحرسنا حتى سافرنا في الصباح الباكر.

ولم تكن دار الحكومة في يريم مهيّأة لاستقبال الضيوف؛ ولذلك فقد نمنا في ديوان المقيل بعد أن فرشوا لنا فيه أربعة فرش واحد للأستاذ، وواحد للقاضي العنسي، وواحد للأستاذ صالح محسن، ونمتُ أنا على الفرش الرابع، ولكن نومي كان متقطعا، لأنني لم أكن أشعر أننا في مكان آمن. وبعد أن صلّينا الفجر، ثم أكلنا ما قدّموا لنا من إفطار، قلتُ للأستاذ نعمان: «يا سيدي الأستاذ اقترح أن نعود أدراجنا إلى إب، وهناك نفكّر ماذا نعمل؛ أما توجهنا إلى صنعاء ففيه مجازفة لا معنى لها على الإطلاق، فمنذ وصولنا إلى يريم وأنا أشعر بالخطر»، ورد علي الأستاذ بسخرية: «يا عزّي.. هذا من أوهامك المعهودة، فأنت كثير الأوهام والشكوك، شفاك الله منها، قم وجهّز بغلتك لمواصلة السفر إلى صنعاء»، وفكّرت أن أجهّز بغلتي وأعود بها إلى إب، ولكنني خشيتُ أن يتبعوني ويعتقلوني. وكان لدينا أربعة بغال من تعز، واتجهنا إلى المحطة القادمة، وهي مدينة ذمار، وكنا قد نزلنا عن بغالنا وتوقفنا قليلا حتى يرتاح الفدائيون المرافقون لنا. وخلال ذلك رأينا من بعيد فارسا على حصانه يرافقه شخصان راجلان، وعندما اقترب منا قال لنا: إن العسكر في ذمار قد قاموا بانقلاب مؤيدين ولي العهد، وسجنوا العامل ونصّبوا الحاكم بدلا منه، وأنصحكم بالعودة إلى تعز أو إب، وتبيّن لنا أن الشيخ الذي نصحنا كان اسمه الشيخ زيد عمران من مشايخ يريم.

واقتربتُ من الأخ صالح محسن، واقترحت عليه أن يقنع الأستاذ بالعودة إلى إب، أو الاتجاه إلى رداع، ومنها إلى لودر في المحميات، ومنها إلى عدن. وقد حاول صالح محسن إقناع الأستاذ بذلك، فردّ عليه بأن الشيخ أراد أن نعود ليأسرنا ويسلّمنا هو لولي العهد، وأن ما حدث في ذمار هو خلاف بين العامل والحاكم، وسنصل ونحاول حل الخلاف بينهما، ثم ركب بغلته وتحرّك نحو ذمار دون أن يناقش رأينا، وعندما اقتربنا أكثر من ذمار رأينا العسكر وهم يراقبوننا من بعيد، فإذا اقتربنا منهم تراجعوا إلى الخلف حتى دخلنا ذمار، فرحّب بنا العسكر إلى دار الحكومة.

وقد نزلتُ عن البغلة، ورأيتُ القاضي أحمد العنسي يسيرُ راكبا بغلته، بعيدا عن الأستاذ وجماعته، فمشيتُ بعد القاضي ووجدتُ عبد السلام عمر يمشي معي، وعندما وصل القاضي العنسي إلى باب بيت من بيوت ذمار، ونزل عن بغلته ودخل إلى البيت وعدد من الأشخاص يرحّبون به، فدخلت مع عبد السلام بعد القاضي إلى البيت، وصعدنا بعده إلى الدور الثاني. وتحدّثنا معه بأن الأستاذ وأصحابنا الآخرين ضيوف على العسكر في دار الحكومة، ويظهر أنهم معتقلون أو شبه معتقلين، وبعد قليل دقَّ باب البيت مجموعة من العسكر، وطلبوا مجيء القاضي أحمد العنسي معهم إلى دار الحكومة؛ ولكنه بدلا من أن يستجيب ويتركنا، أمرنا بالخروج من البيت، وقلنا له: إنهم لا يعرفون أننا معه في البيت، ولكنه أصرّ على خروجنا، وقد خرجنا ولم يعترضنا أحد من العسكر، واتجهنا إلى شارع جانبي، مبتعدين عن بيت القاضي العنسي وعن دار الحكومة، ولكنا رأينا بعض البيوت وفي سطوحها أفراد من العسكر بأسلحتهم وقلت لعبدالسلام عمر: يا أخي إننا لا نعرف إلى أي جهة نسير، وأخشى أن يشتبه العسكر بنا ويقبضوا علينا، وقد يضربوننا أو يهينوننا، وما دمنا لا نعرف المدينة فسوف نقع في يد العسكر لا محالة، وأرى أن نذهب إلى دار الحكومة، و«بين أخوتك مخطي ولا وحدك مصيب»، واتجهنا إلى دار الحكومة التي كانت قريبة منا، وهناك منعنا العسكر من الدخول؛ لأنهم لا يعرفون أننا من جماعة الأستاذ، فأخبرناهم أننا من الجماعة، ودخلنا إلى ديوان واسع فيه الأستاذ والأخ صالح محسن وبقية الفدائيين بلا سلاح، وبعد قليل دخل القاضي

الشاعر أبراهيم الحضراني

العنسي إلى الديوان وقدموا لنا الغداء، وبعده استدعوا الأستاذ نعمان ورأيناه من النافذة وهو جالس في الحوش والعسكر يدقّون القيد في قدميه، وهكذا أخذونا واحدا بعد الآخر، ووجدنا أنفسنا جميعا نُساق بقيودنا إلى الشارع، ومن حولنا جموع غفيرة من أهالي ذمار «يدردحون» بنا الدرداحة الذمارية المشهورة: «جرّ عاق والديه.. جر الملعون الدستوري.. يا دستوري.. يا ابن..» إلى آخر الدردحة الذمارية، حتى دخلنا سجن ذمار. ولعل ذلك كان في يوم الخميس 26 فبراير 1948، وكانت صنعاء لا تزال صامدة؛ ولكنها محاصرة بعشرات الآلاف من رجال القبائل المسلّحين الذين أباح لهم الإمام الناصر نهب صنعاء.

وبعد يومين أو ثلاثة، ونحن في سجن ذمار سمعنا أصوات الدرداح الذماري يدردح بقادم جديد، وعندما اقتربوا من السجن سمعنا أصوات الدرداح بالشاعر الكبير إبراهيم الحضراني الذي جيء به من قرية حضران القريبة من مدينة ذمار، هذا يهودي من حضران.. يا حضراني، يا نصراني، يا دستوري، يا ملعون.. إلى آخر الدرداح.! ودخل أو أُدخل إبراهيم الحضراني إلى السجن وهو مربوطُ اليدين إلى الخلف، وتم وضع القيد في قدميه، وأقبل علينا يرسف في قيوده بقامته الطويلة، وجسمه الرشيق، «وزنّته» القصيرة التي لم يبق على جسمه إلا إياها بعد أن سلبوا كوته، إن كان له كوت وهو يبتسم بسمته الساخرة اللطيفة قائلا لنا: أنتم السابقون ونحن اللاحقون، وخفّف قدوم الحضراني عنّا كآبة السجن بروحه الخفيفة، وأسلوب حديثه المرح. وفي اليوم التالي سمعنا أصوات الدرداح تزفُّ قادما جديدا، تبيّن أنه القاضي محمد الربيع الذي جيء به من قريته عراس.

الفصل الثاني عشر
سقوط حكومة الدستور وبداية عهد الإمام أحمد

في يوم السبت 3 جمادى الأولى 1367هـ – 13 مارس 1948، بشّرنا حرس السجن أن صنعاء قد سقطت ودخلتها جيوش الإمام الناصر، وتم إلقاء القبض على الإمام الدستوري عبد اللّه الوزير، وعلى كل الدستوريين في صنعاء، وأمرونا أن نستعدّ للرحيل، أمرنا السجانون في سجن ذمار أن نستعدّ للرحيل. كنتُ أحفظ حديثا نبويا شريفا يقول: إن السفر قطعة من العذاب، فكيف يكون سفر المأسورين صحبة زبانية الإمام؟!

وبعد يوم أو أيام– لم أعد أذكر– وجدنا السجّانين يُخرجوننا فرادى واحدا بعد الآخر وهكذا، ولم نكن نعرف أين يسوقوننا، وعندما أخذوني، وكنتُ آخر من خرج، وجدتُ أن كل المساجين قد أصبحوا مجموعات، كل مجموعة مربوطة رقابها في سلاسل حديدية، كل سبعة أو عشرة في سلسلة، ووجدوا أنه لم يبقَ لي مكان في أي سلسلة، فجلبوا مغلقة من الخشب، مصنوعة بطريقة معينة، وأدخلوا يديّ كل واحدة في فتحة موجودة في قطعتي المغلقة، ودقّوا المسامير في أطراف المغلقة، وصارت يداي محجوزتين داخل مغلقة الخشب، ثم أعادونا إلى داخل السجن ونحن في هذه الحالة.

كانت مشكلة من في السلاسل أنهم لا يستطيعون أن يتحرّكوا إلا معا، ولا ينامون إلا معا، ولا يبولون أو يتغوّطون، أو يتوضّؤون إلا معا. أما مشكلتي مع المغلقة فقد اكتشفتها بعد أن أدخلونا – ونحن في هذه الحالة– مرة أخرى إلى داخل السجن. لقد ذهبت إلى ما يسمّونه «المستراح» أي الحمام، وحاولت أن أرفع ثوبي، أي «زنتي»، لكي أتبوّل، ولكني اكتشفت أن ذلك مستحيل؛ أما خلع السروال فهو

أكثر استحالة، وشعرت بالانهيار. أعصابي ونفسي منهارة، وأفكاري مشلولة. كل شيء في كياني منهار. وخرجت من «المستراح» وأنا في منتهى الفزع، وتواريتُ عن أصحابي عندما وجدتُ نفسي سأصرخ مولولا من الفزع، وعندما بدأتُ أهدأ قليلا واستعدتُ قدرتي على التفكير، قلتُ لنفسي بصوت خافت: كيف تنهارُ من وجود مغلقة تقيّد يديك وأنت في طريقك إلى طاغية قد يعذّبك بأنواع العذاب التي لا يطيقها بشر حتى الموت؟ لقد كان الأحرار في صراع مع الطاغية، وقد انتصر عليهم، وأصبحوا أسرى في قبضته، وهو قادر أن يفعل بهم ما يريد، وعليك أن تملك إرادة أقوى من كل ما قد تواجهه من الطاغية، وشعرت بقوة جبارة تنبعث في نفسي، وعدتُ إلى وسط زملائي، ضاحكا ساخرا من المغلقة الرهيبة التي تمنع يدي من أي عمل؛ مستعدا لمواجهة كل ما ألاقيه من أساليب التعذيب بإرادة قوية لا تلين.

وبدأت رحلة العذاب

نادانا الجنود للخروج من السجن، وخرجنا كل مجموعة في سلسلة، تربط أعناقهم وتربطهم إلى بعضهم بعضا، وكنتُ وحدي أحمل مغلقة تقيّد يدي. خرجنا من السجن، ووجدنا رجالا ونساء يودّعوننا بدرداح ذماري أصيل، وبعضهم يحاول البصق في وجوهنا، ورأيت مجموعة من كلاب ذمار تشارك أهلها في الدرداح، كان نباح الكلاب أجمل من درداح بني آدم. وتجاوزنا مدينة ذمار مشيا إلى مدينة معبر في الطريق إلى صنعاء، وكان الجنود الذين يحرسوننا يمشون معنا والشمس تلهب جلودنا، وكانت المغلقة في يدي تشعرني أني أحمل في يدي طنا من الحديد، كانت تُحدث عندي توترا عصبيا يزيد من إرهاق السفر. كنتُ أتمنى أن يعتري القبائل المحيطة بنا نخوة قبلية فيهبُّوا لنجدتنا.

عندما وصلنا إلى معبر كان عاملها قد حشد الناس في المدينة، ومن سكان القرى المجاورة، ليساهموا في زفة الدرداح بنا إلى سجن معبر، واكتشفنا أن «درداح» معبر تقليد وليس أصليا. وفي السجن ذهب «المُسَلسلون» إلى «المستراح» جماعات مترابطة، وعرفت أن الجنود كانوا يفكّون واحدا من السلسلة، ثم يعودون به إلى سلسلته،

ويفكّون آخر إلى أن يتمكّن من في السلسلة من التبول والتغوط في المستراح؛ أما أنا فقد تأخرتُ ودخلتُ المستراح، وحاولتُ رفع ثيابي فلم أستطع، وكنتُ وأنا في الطريق إلى معبر أشعر أن فتحة المغلقة في يدي اليمنى تسمح ليدي بالحركة داخل فتحتها، وبدأت أجرب إخراج يدي اليمنى من المغلقة، وتمكّنت بمشقة، واستطعت أن أمارس حقي في التبول، ثم حاولت إدخال يدي اليمنى إلى داخل المغلقة، ولكني فشلت، فما كان مني إلا أن استعملتُ كل ما في فمي من ريق في يدي اليمنى، وحاولتُ أن أدخلها بلا فائدة، فوضعت يدي اليمنى تحت المغلقة الخشبية وعدت أدراجي، وجلست وسط أصحابي أحاول إخفاء يدي من ملاحظة العسكر، لكنني كنتُ أخشى أن يلاحظوا ذلك فيضربوني، ويركّبوا مغلقة أخرى في يدي. وحضر الأكل، فطلبتُ من زميلي المسلسل الذي أجلس بجانبه أن يقوم بمساعدتي على تناول الطعام، مع أنني كنتُ أقدر على تناوله بيدي التي أصبحت طليقة.

طلبنا من العسكر أن يسمحوا لنا بصلاة الظهر والعصر جمعا، ووجد المُسَلسلون صعوبة في ذلك، وبعد مساومة مع العسكر قرّروا أن يفكّوا السلسلة من عنق واحد من المُسلسلين، يذهب محروسا، ليتوضّأ ثم يعود إلى السلسلة بعد الصلاة، وهكذا. أما أنا فعندما ذهبتُ لأتوضأ في حراسة أحد الحرس لاحظ أن يدي اليمنى ليست داخل فتحة المغلقة، وصاح في وجهي: من أخرج يدك من المغلقة؟ ورفعت المغلقة وقلتُ له: انظر إلى المسامير فيها كما هي، كانت يدي صغيرة، فأخرجتها من المغلقة، قال: لماذا لا تردّها؟ قلتُ: حاولت إدخالها ودردحت بها، قلتُ لها: ادخلي يا «عقة والديش»، ولكنها رفضت. وقالت لي: أخرجتني ولن أدخل مرة أخرى. وضحك العسكري، وضحكت معه. وقال لي: أنت دستوري؟ قلت: أنا «درويش» وجدتُ الجماعة في الطريق فدخلت بينهم آكل وأشرب وأتنعّم معهم، ولكن كانوا «مدسترين»، ولا أنا داري، ووجدت نفسي معهم في السجن، وفي المغلقة، أمرهم إلى الله. وضحك العسكري، ويظهر أنه صدق كلامي، ولم أجد من يضايقني من العسكر، وظلت يدي اليمنى طليقة، ويدي اليسرى سجينة تحمل المغلقة، كان هذا ونحن في ناحية معبر.

وأقبل الليل، وحان وقت النوم لنرتاح من عذاب السفر، ولكن الـمُسَلسلين من أصحابي وجدوا أن النوم كان يهرب من أعينهم كلما تحرّك واحد منهم في السلسلة، ووجدنا جميعا أن «الكتن» وجدتنا وجبة دسمة تأكلها، وكلما قتلنا واحدة هجمت علينا عشرات من «الكتن» القافرة. وجاء الصباح وصلّينا، ثم أكلنا ما قدّموا لنا من أكل، وبدأنا من جديد رحلة العذاب، وخارج قرية خدار صلّينا الظهر، وأكلنا طعاما جافا، وواصلنا السير حتى وجدنا أنفسنا خارج أسوار صنعاء قبل غروب الشمس، ورأيت أكثر البيوت الـمرتفعة داخل السور، وقد نهب القبائل نوافذها الـخشبية. لقد «نصّر» أهل صنعاء للإمام الناصر على خراب بيوتهم، فقد نهب القبائل كل شيء في صنعاء، وارتكبوا الكثير من الفظائع والفضائح.

وكنتُ أظنّ أنهم سيُدخلوننا إلى سجن من سجون صنعاء، ولكنهم ساروا بنا من خلف سور صنعاء الشرقي، حتى وصلنا إلى الروضة، وأدخلونا إلى سجنها، وكان في السجن ثلاثة أو أربعة مساجين، واحد منهم من بيت الشايف، وقد أخذوه معنا إلى حجة. وكان سجن الروضة غير مُهيَّأ لاستقبال عدد كبير من الـمساجين، ولذلك «عفرنا» بالتراب وصلّينا الـمغرب والعشاء جمعا، وربما نمنا بدون عشاء، وفي الصباح وجدنا من الـماء ما يكفي للشرب والوضوء، وبعد صلاة الفجر وشروق الشمس قدّموا لنا صبوحا أقراصا من الـخبز، ومقالي من «الشفوت». وهي أكلة يمنية معروفة، ولا أدري من أين جاءوا لنا بهذا الإفطار؛ لأن الروضة ليست مُهيَّأة لتدبير ذلك. وبقينا في الروضة ثلاثة أيام، ثم وصلت شاحنة «سيارة كبيرة» وحملتنا إلى عمران، وحملت معنا الـمسجون من بيت الشايف.

في مدينة عمران وجدنا وضعا يختلف عما كان في ذمار ومعبر، فقد كان الناس يتفرّجون علينا دون أن نسمع منهم زفة الدرداح، ولم نسمع أي كلمة نابية، وجاء من يرحّب بنا: ارحبوا في ضيافة بيت الصعر، حيث أدخلونا إلى بيت الشيخ حسين دحان الصّعر ولم يدخلونا السجن، وظننا أن تغييرا قد حدث، ثم أدخلونا إلى ديوان طويل مريح، ووجدنا مائدة عامرة موزع فيها عدد من الكباش الـمحنوذة ومقالي السوسي، والسلتة الصنعانية اللذيذة، والـخبز والـملوج، ولم نتأكّد أن الإمام الناصر لا

يزال موجودا إلا عندما سمعنا من يرحّب بنا: «ارحبوا في ضيافة بيت الصعر، والله يحفظ مولانا الإمام الناصر لدين الله». كانت عمران بالنسبة لنا قطعة من الفردوس، وكان بيت الصعر بيت الشهامة والكرم والنبل، والشيخ حسين دحان الصعر كان من الشخصيات اليمنية البارزة قبليا ومدنيا، وكان جده الشيخ حزام من المقربين إلى الوالي التركي في اليمن، ومندوبا في إسطنبول، ولم يبايع الإمام المنصور محمد حميد الدين حتى مات.

في عمران قبل أن نتحرّك إلى مدينة حجة معقل الإمام الناصر أعادوا يدي اليمنى إلى داخل المغلقة من جديد، وحشرونا في الشاحنة المتهالكة، وتحرّكت تخضُّنا خضّا، حتى وصلتْ إلى قمة جبل مسور. كان الطريق الذي تسير فيه السيارة طريقا بدائيا يحتاج من سائق السيارة أن يكون بهلوانا يتحايل على تجنب مزالقه، ويتجنّب الأعداد الهائلة من الصخور المتناثرة على امتداده، وحين توقّفت السيارة لمدة ساعة تقريبا، رأينا خلالها مئات من الرجال والنساء يجرون نحو السيارة، ويتحلّقون حولها يتفرّجون، ويصبُّون لعناتهم علينا.

عندما بدأت السيارة الهبوط من قمة الجبل كانت تمرُّ من منعطفات قريبة من هاويات سحيقة، وتحرّكنا يمينا وشمالا بعنف، وفي كل منعطف كنا نتوقّع سقوط السيارة بنا إلى أعماق الهاوية، وأخذنا نكبّر ونهلّل ونتلو الشهادتين طيلة هبوط السيارة. لم نكن نصدّق أننا سنصل إلى وادي «شرس» وهو فعلا شرس؛ لأنه ليس واديا، وإنما هو سائلة تتدفّق إليها السيول الهابطة من الجبال المحيطة عند هطول الأمطار ثم تذهب مياه الأمطار إلى البحر الأحمر، مخلفة في الوادي كمية كبيرة من الحجارة والرمال. وتوقّفنا في سائلة شرس مدة لترتاح السيارة وسائق السيارة، ونرتاح معهما من خضّات وهزّات الطريق، ثم عدنا إلى السيارة، نتحاملُ على أنفسنا، وتحرّكت صاعدة الجبل إلى مدينة حجة؛ حيث يقيمُ الإمام، المنتصر علينا وعلى الإمام الدستوري عبد اللّه الوزير. وعندما كانت السيارة تمرّ في شوارع المدينة، في طريقها إلى دار الإمام الناصر، كان الناس يدردحون بنا، وكانت النساء والفتيات يتطلعن من نوافذ البيوت سافرات، ويبدو أن الكثيرات من نساء حجة جميلات،

ونحن في هذه الحالة نسمع رفيقنا «الدخيلة» من آل الشايف يصرخ: «قمارى والله قمارى»، ويشير إلى الفتيات المطلات من النوافذ. ووجدنا أنفسنا نضحك، وقال له الأستاذ نعمان: هنيئا لك، أنت فين.. ونحن فين؟! وتعالت نغمات الدرداح «جرّي عق والديه».. الخ. وتجمّع العسكر الذين يحرسوننا داخل السيارة وأخذوا ينشدون زاملا يقول:

يا سيدي يا قائد المهجم
والله ما جينا بجيش أردم
النصر لك والعز والبشرى
جينا بحكم العصبة الشورى

وهكذا أصبحت الشورى سبة ولعنة يوصم بها «المُدسترون». ومضمون الزامل تحقير لنا؛ لأننا مجرد عصبة الشورى، ولسنا جيشا هزموه في القتال.

في ساحة قصر الطاغية

خارج قصر الطاغية الإمام الناصر المنتصر أخذ العسكر يدفعوننا إلى خارج الشاحنة بعنف وقسوة، مع ما تيسّر لهم من اللعنات. ودخلنا إلى ساحة القصر ووجدناها مكتظة بمئات من المُسَلسلين في الجنازير، والمُمَغلقين بالمغالق الخشبية الذين سيقوا من صنعاء، والحديدة وغيرها من المدن، وكان صديقي أحمد محمد الشامي، وبجانبه القاضي عبد اللّه عبد الوهاب المجاهد الشماحي من المُمغلقين. كنا جميعا في غاية الإرهاق، وكانت أشعة الشمس وقت الظهيرة تحرق أجسامنا، وكان الطاغية مطلا من النافذة يتلذذ بما نعانيه، ووقعت عيناي في عيني صديقي أحمد الشامي، وهو في غاية الإرهاق، ورأيته يحرك شفتيه فخيل إليّ أنه يقول: ولو، فحرّكتُ شفتي وقلت: ولو، وكنتُ أعني بها: ولو حدث ما حدث، فقد صرعنا الطاغية الأول.

وبعد أكثر من ساعة من وقوفنا تحت أشعة الشمس الحارقة، وتحت نظرات الإذلال التي يسلطها الطاغية من النافذة، وجدنا القاضي أحمد الجرافي- وهو

شخصية محترمة من أكبر العلماء، وكان من المقربين إلى الإمام يحيى- يرفع صوته ويقول للطاغية: يا مولانا، لم يكن جدك رسول الله يعذّب الأسرى هكذا، أرهقنا التعب، وأحرقتنا الشمس، فارحمنا يرحمك الله. وهنا تحرّك الإمام وأومأ يجرّنا إلى السجون، وساقنا العسكر إلى سجن نافع، وفي طريقنا إليه كان أهل حجة يدردحون بنا: «جرّي عق والديه.. جرّي عق والديه» بالإمالة الحجية، ويبدو أن أهل حجة لا يُحسنون الدرداح، مما أثار سخط الأخ عبد اللّه يحيى السلّال -المشير فيما بعد- فقال بصوت مسموع: «جني.. شلوا منهم فرقة تتدرّب على الدرداح في صنعاء أو ذمار». ووجدنا أنفسنا نضحك في أصعب موقف أراد الطاغية أن يذلنا به.!

سبب سقوط حركة 48 الدستورية

هذا العنوان تأخّر في ذكرياتي هذه، نتيجة عنف الأحداث التي حدثت عقب سقوط حكومة الدستور، ودخول القبائل إلى صنعاء ونهبها وما حدث فيها من جرائم، وما حدث لنا في ذمار، ورحلة العذاب من ذمار إلى أن زجّ بنا الإمام إلى سجن نافع، وما بعد ذلك حتى إطلاقنا خلال حركة الثلايا في مارس 1955. وقد وردت في كل مذكرات أو ذكريات من نشروا ذلك أسباب سقوط حكومة الدستور، وعددّوا لها أسبابا كثيرة، حتى إن بعضهم ذكر عشرين سببا لفشل ثورة أو انقلاب أو حركة 48 الدستورية. وفي رأيي أن السبب الحقيقي هو أن الإمام عبد اللّه بن أحمد الوزير ومن معه، والمتحالفين معه من الأحرار كانوا جميعا غير مؤهلين للقيام بثورة أو انقلاب أو حركة، وتأتي الأسباب الأخرى داعمة لذلك السبب الحقيقي.

كان ما حدث من الناحية النظرية ثورة متكاملة، فقد تم إنجاز وإقرار «الميثاق الوطني المقدس» المشتمل على الأسس الدستورية، وتم اختيار الإمام الدستوري عبد اللّه بن أحمد الوزير إماما، وتم تشكيل مجلس الشورى برئيسه وأعضائه كسلطة تشريعية، وتم تشكيل مجلس وزراء برئيسه ووزرائه، وهذا يعني من الناحية النظرية اكتمال عناصر وأعداد الثورة الدستورية. وإذا كانت واجهات المؤسسات الدستورية من علماء تقليديين معروفين للشعب، فإن الثورة الدستورية حرصت على عصرنة

التقليديين باختيار الصف الثاني المسؤول عن التنفيذ من الشباب المستنيرين في كل الوزارات ومجلس الشورى، وأمراء الألوية «المحافظات» فكان مثلا صديقي أحمد الشامي أمين عام مجلس الوزراء، وكان محيي الدين العنسي مدير عام وزارة الخارجية، وكان أستاذي أحمد حسن الحورش مدير عام وزارة المعارف، وكان السيد زيد الموشكي مدير عام وزارة العدل، وهكذا بقية الوزارات والمؤسسات.

ولكن هذه النظرية، وكل الترتيبات لتنفيذها كانت موجودة في الورق، صاغها ورتّبها العبقري الفضيل الورتلاني الثائر الجزائري، العالم الكبير الإخواني، بالتعاون مع عناصر يمنية مستنيرة، ومع قيادات الأحرار ومن وقّعوا على الميثاق، على أساس أن يتم تنفيذها عقب موت الإمام يحيى موتا طبيعيا، ولكن ما في الورق لا علاقة له بواقع الحياة، ما في الورق يهدف إلى إحداث ثورة دستورية تُنهي وتُغيّر حكم أسرة بيت حميد الدين المتخلف الرجعي المستبد الفردي، بخلف دستوري ديمقراطي تحكمه مؤسسات دستورية عادلة وتقدمية، ذلك ما في الورق؛ أما ما في واقع الحياة، فإنه يختلف عما في الورق، ولهذا انهار ما في الورق خلال أيام، بمجرد تطبيقه على أرض الواقع. كان الإمام عبد اللّه أحمد الوزير وأنصاره غير مهيّئين لتنفيذ ما في الورق؛ بل كانوا أكثر تخلفا ورجعية من الإمام يحيى وأسرته، وكان حلفاؤه من الأحرار والمستنيرين غير مهيئين لمشاركة حليفهم مشاركة حقيقية، فهم مجموعة محدودة من المثقفين، لا يستندون إلى قوة عسكرية أو قبلية أو قواعد جماهيرية، ولذلك تم تجاهلهم.

كان الإمام عبد اللّه بن أحمد الوزير يرفض الأحرار والمستنيرين رفضا عقائديا متحجرا؛ بينما كان الإمام يحيى وأسرته يرفضونهم رفضا سياسيا مرنا، وهكذا كان الإمام الوزير وأنصاره، وكان الأحرار جماعات غير متلاحمة، وهذا جعلهم أعجز من أن يواجهوا عاصفة الثورة المضادة التي قادها الإمام الناصر أحمد بن يحيى حميد الدين، المتمرس على شن الحروب والملقب: «أحمد يا جناه». هذا هو السبب الحقيقي لفشل ثورة 48 الدستورية؛ أما ما ذكره الجميع من أسباب أخرى فهي مجرد أسباب ثانوية لذلك السبب الحقيقي، وهو أن الإمام الوزير وأنصاره،

وحلفاءه الأحرار كانوا عاجزين وغير مهيّئين لإحداث ثورة، وربما كان اغتيال الإمام يحيى هو السبب المساعد الأساسي لسقوط حكومة الدستور.

إن تراجع الإمام الوزير عن تنفيذ قراره الحازم بالخروج إلى ذمار، للأسباب التي ذكرتُها سابقا يدلّ على أنه كان قد أصيب بحالة من الإحباط والخذلان، فهو لم يعد يثق بأحد ممن حوله، إلا حارسه الخاص عزيز يعني المطري، وحبس نفسه داخل الدار، المكونة من ثلاثة أدوار، كان الإمام يحيى قد بناها من قبل في ساحة من ساحات قصر غمدان «قصر السلاح»، لسبب لا أعرفه، ربما لسجن عبد اللّه الوزير وآل الوزير، وبقي في هذه الدار لا يخرج لمقابلة عامة، كما كان الإمام يحيى وولي عهده يفعلان، ولا يدخل إليه من رجال حكومته أحد إلا بعد أن يأذن له، حتى صديقه وشريكه في مؤامرة اغتيال الإمام يحيى حسين الكبسي، وزير الخارجية، الذي وصل وبلّغوا به الإمام، فاعتذر عن مقابلته، كما يذكر ذلك المرحوم حسين المقبلي في مذكراته. وقد وصل الأمير إبراهيم ومعه الشهداء محمد محمود الزبيري وأحمد حسن الحورش ومحيي الدين العنسي، وأحمد البراق، وأتى بعدهم على الطائرة المصرية محمد المسمري، وهم وزراء ومسؤولون كبار في حكومة الدستور؛ ولكن الإمام عبد اللّه الوزير تجاهل وصولهم. وخلال أيام الحكم الدستوري من 17 فبراير، وحتى يوم 14 مارس 1948، لم تجتمع حكومة الدستور، ولا مجلس الشورى حتى سقطوا جميعا!

بعد إشاعة موت الإمام يحيى في عدن، وكشف كل تفاصيل المؤامرة، ووصول عبد اللّه الوزير إلى مجلس الإمام يحيى دون أن يعرف بخبر الإشاعة، رمى له الإمام برقية التهنئة و«الميثاق الوطني المقدس»، فصُدم الوزير صدمة مفزعة، وأقسم مرات أنه لا يعلم بشيء. قال له الإمام: يا ولد عبد اللّه ما نكره لك ذلك، ولكن الإمامة في اليمن حمل ثقيل، وأنت لا تقدر على حمله، فأبعد «تشعوبة» الإمامة من رأسك. فهل كان الإمام يحيى يقيّم الإمام الوزير تقييم العارف بأن الوزير يحمل روح موظف لدى الإمام، لا روح إمام؟ وهل برقية الإمام أحمد الجوابية العنيفة التي أرسلها للإمام الوزير من باجل قد هزمت نفسيته، فبقي حابسا لنفسه في الدار حتى سقط؟

في رأيي أن الإمام عبد اللّه الوزير لم يكن مقتنعا باغتيال الإمام يحيى، ولكنه

اضْطر لذلك خوفا، وأنه لم يكن مقتنعا بالتعاون مع الأحرار، وصار لا يثق حتى بأصدقائه الذين شاركوه في التآمر لاغتيال الإمام يحيى، ومنهم وزير خارجيته حسين الكبسي وعبد اللّه بن علي الوزير، وربما بالأمير علي الوزير نفسه، وهو في الوقت نفسه يواجه خصمه العنيف أحمد يا جناه، وبذلك ربما أصيب بحالة من الإحباط والخذلان والخبل، ولذلك صار يجالس ويؤاكل أولاد الإمام: يحيى، علي وإسماعيل، المعتقلين لديه حتى استقطبوا كل العسكر الذين كانوا يحرسونه، وعند سقوط صنعاء دخلوا عليه وربطوه بعمامته؛ إذ لم يبق معه إلا مرافقه عزيز يعني، ومحمد حسين زيد، والحاج حمود الحسيني، والقاضي محمد السياغي الذين استسلموا كما استسلم الإمام الدستوري. وبرغم سقوط إمام وحكومة الدستور إلا أن فكرة الثورة ظلت باقية تتفاعل، حتى أقدم الشهيدان عبد اللّه اللقية ومحمد العلفي على محاولة اغتيال الإمام أحمد في 25 مارس 1961، بمستشفى الحديدة، وأصابوه إصابات بالغة، بقي يعاني منها حتى مات في 18 سبتمبر 1962، وتفجّرت ثورة 26 سبتمبر 1962، التي أنهت الإمام والإمامة في اليمن، ربما إلى الأبد.

في سجن «نافع» الرهيب

في سجن نافع كان العسكر يجرُّوننا واحدا بعد الآخر، وكنا نراهم يدقّون القيود في أقدام من سبقونا. كانت قيودا ثقيلة لها أسماء متعددة، تدلُّ على كل منها: «القيد السيار» وهو أخفها، «القيد المرود»، «القيد الثقالة»، «القيد السك» وهو أبشعُها. إنه قطعة غليظة مستطيلة من الحديد، في طرفيها ثقب، يُدخلون فيه حلقة حديد، يضعونها في قدم المسجون ويدقونها، وبهذا لا يستطيع المقيد بالسك أن يمشي إلا بصعوبة، والسك يُبعد قدميه عن بعضهما بشكل مؤلم ومتعب ودائم، وأغرب تسمية للقيود هي «القلم»، إنه ابن القيد السيار، ولكنه ابن أعنف من أبيه، برغم أنه أصغر قيد، وقد انفرد بحمله وتحمّل عنفه ولؤمه أستاذنا أحمد محمد نعمان. هذا القيد الصغير العنيف يقيّدون به المسجون أولا، ثم يقيّدونه بالقيد السك، وهكذا يتعاون القيد القلم بتقريب قدمي المقيد به إلى بعضهما، بينما يقوم

السك بإبعاد القدمين عن بعضهما، وبهذا لا يستطيع المقيّد بهما أن يمشي بقدميه على الإطلاق، ويظلّ في حالة عذاب بهما ما دام مقيّدا بهما، وهكذا لم يتم إدخال الأستاذ نعمان إلى داخل السجن إلا محمولا يتوجّع من الألم، وقد استبشعنا ذلك جميعا برغم ما نعانيه.

وبالمثل تم وضع القيود والأغلال على قدمي القاضي عبد الرحمن الإرياني، ما دعا الشاعر إبراهيم الحضراني للتعبير عن هذا المشهد تعبيرا دقيقا، مشيرا إلى السجان ناصر علي جرامة والقاضي الإرياني:

ويجرُّ رجلا لو يقاس نعالها بجبين سيده لكانت أرفعا

وعندما جاء دوري، وجلستُ مادّا قدميَّ لوضعها على حجرة خاصة، يتم عليها دق القيود، وجد السجان أنني أصغر المساجين سنا وربما أنحفهم جسما، فوضع في قدمي القيد السيار، وعندما نهضتُ رآني أحد عكفة ولي العهد في تعز الذي صار إماما في حجة، وقال لي: «وأنت معهم يا فسيّل؟ كنتَ في مقام مولانا مكرّم محترم، معك بغلة وعسكري معها، ما دستر بأبوك»! وكان هذا سببا كافيا دفع السجان لدقّ قيد السك مع قيد السيار في قدمي، ونهضتُ أجرّ نفسي إلى داخل سجن نافع جرا.

وعندما هبطنا إلى أعماق سجن نافع اكتشفنا أنه مكوّن من قسمين: القسم الأعلى، والقسم الأسفل، وكنتُ ممن رحّبوا بهم إلى القسم الأسفل. كنا أكثر من مئة شخصية، بينما لا يتسع السجن لأكثر من ثلاثين، وكان علينا أن نعيش وأن ننام داخل هذا السجن. كان القسم الأسفل مبنيا في حفرة تحت الأرض بقرابة خمسة أمتار، تتوسطه ساحة صغيرة، عرضها تقريبا ثلاثة أمتار، وطولها قرابة ستة أمتار، وتستطيع أن ترى بمساحتها مساحة في السماء، وحول هذه الساحة بنوا في الجهة الشرقية ما يشبه الإسطبل، أو بتعبير العزي صالح السنيدار «سمسرة» عرضها متران، وطولها أربعة أمتار تقريبا، وفوقها بنوا سمسرة أخرى بحجمها، وفوقها بنوا غُرفا أو سمسرة للرهائن، وهم أبناء بعض مشايخ المنطقة، يرهنونهم لدى الإمام أو نائبه ضمانا لولائهم، وبابها خارج السجن، وكانت السمسرة السفلى غير صالحة للسكن؛ لأنها مليئة بمخلّفات المساجين السابقين الذين كانوا يبولون ويتغوّطون فيها، وعلى

هذه المخلّفات سكن المناضل العزي صالح السنيدار، وعلي عامر، والسيد محمد المطاع، وربما كما أذكر الشيخ أمين عبد الواسع، ومجموعة ممن كنا نسمّيهم «الفدائيين»، بقيادة المناضل عبد السلام عمر، وفي السمسرة العليا سكن مجموعة أخرى من المساجين، ومنهم صديقي أحمد الشامي وأنا والأستاذ محمد الحلبي ومحمد غالب سري والصفي محبوب وعبد اللّه الشماحي وعبدالسلام عمر والدحان وإبراهيم الحضراني وغالب الشرعي وعلي الشرعي، وانضمّ إلينا فيما بعد علي تلها والشيخ محسن هارون.

وفي الجهة الغربية بنوا ثلاث غرف، وبنوا فوقها غرف القسم الأعلى من سجن نافع، وقد سكن في الغرفة الأولى الأستاذ نعمان الذي حملوه إليها حملا؛ لأن اجتماع القيد السك والقيد القلم يمنعانه من استخدام رجليه، وسكن معه محيي الدين العنسي وأحمد حسن الحورش ومحمد صالح المسمري، وجازم الحروي، وانضم إليهم فيما بعد وكيل الشريعة «المحامي» القاضي علي الآنسي، وبرغم أن هذه الغرفة صغيرة تجعل الذين سكنوها يتزاحمون فيها، إلا أن المساجين لم يفرضوا أنفسهم على هذه الغرفة، تقديرا للأستاذ نعمان وزملائه فيها.

أما الغرفة الثانية، وهي لا تزيد على ثلاثة أمتار في مترين فقد سكنها في البداية القاضي أحمد العنسي، وعبد اللّه السلّال، وحسن العمري، ومحمد الفسيّل قبل انتقاله في اليوم التالي إلى السمسرة العليا وثلاثة آخرون لم أعد أذكر أسماءهم، ربما من الفدائيين. وكانت الغرفة لا تتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص في الحالة العادية، لا في حالة المقيّدين بالقيود والأسكاك والثقّالات. وعندما حاولنا أن ننام وجدنا أنفسنا كالسردين في علبتها، متلاصقين بعضنا فوق بعض، ولهذا خرجت ونمت في الساحة مع آخرين، ثم انتقلت إلى السمسرة العليا. وفي الغرفة الثالثة كان القاضي عبد السلام صبرة، والشيخ عبد الوهاب نعمان، وأحمد المطاع، وعزيز يعني، والقاضي محمد السياغي، وأحمد المروني فيما بعد.

وبنوا في الجهة الشمالية غرفتين صغيرتين جدا، كان اليهودي سالم عمران يسكن إحداها من سنوات طويلة، وسكن السيد علي عقبات الغرفة الأخرى، ولم

يزاحمه أحد فيها. وأما الجهة الجنوبية فقد بنوا فيها حوضا واسعا عمقه أكثر من متر، وهذا الحوض هو المكان الذي كان علينا جميعا أن نبول ونتغوّط ونتوضّأ ونغتسل ونغسّل ثيابنا إلى داخله، وكان له مجرى «ساقية» إلى خارج السجن، وعندما سدّتها مخلّفاتنا بدأ ما فيها يفيضُ إلى داخل الساحة، ورفض مدير السجن فتح الساقية، وبعد أن تدخل الشيخ جازم الحروي والشيخ علي محسن باشا، ودفعوا رشوة كبيرة للمدير ولناصر علي جرامة جلبوا خادما وفتحوا الساقية، ونظّفوا ما كان قد فاض إلى ساحة السجن، وهكذا كنا نعيش مع كل هذا الكم من القاذورات.

في الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع الأولى في سجن نافع، كان جميع المساجين متساوين في الفقر والمعاناة، وحتى الذين أخفوا في ثيابهم بعضا من الريالات لم يستطيعوا استخدامها لتحسين حالتهم، فكل من في السجن من الرسَم السجانين يتعامل معنا بغضب وكراهية واحتقار. ثم بدأت أحوال بعضنا تتحسن نوعا ما بعدما بادر أهلهم وأصدقاؤهم بإرسال مساعدات مادية لهم، وكان ممن تحسّنت أحوالهم، وقدّموا مساعدات لمساجين آخرين الشيخ غالب الوجيه في السجن الأعلى، والشيخ جازم الحروي في السجن الأسفل، وهما من أنبل وأكرم من عرفتهم اليمن.

حالتي في السجن.. أنموذجا

كانت حالتي في سجن نافع في منتهى التعاسة. لقد بقيت ألبس الثياب نفسها التي عشتُ بها ثلاثة أسابيع في سجن ذمار، وقرابة عشرة أيام في عذاب السفر إلى حجة، وبقيت بها أكثر من شهرين في سجن حجة. أعيش بها نهارا وأنام فيها ليلا؛ لأنني لا أجد ثيابا غيرها، ولا أملك إلا المساعدة المقررة من الإمام، وهي أقل من الكفاف. ووجدت أنني لا أعيش وحدي داخل هذه الثياب، فقد دخلتْ إليها بدون استئذان أعداد من «القمل» تمتصُّ من دمي، وتفرّخ بيضها في تلافيف ثيابي، وكنتُ أحكُّ جلدي باستمرار عندما تمتصُّ دمي تلك الأسراب من القمل. كان جسمي خلال أكثر من ثلاثة أشهر لا يعرف الاغتسال، وكانت ثيابي مثلي لا تعرف الغسيل، ولكن ليس أمامي إلا أن أتعايش مع فظاعات السجن وقاذوراته، ومع جسمي المتلبد

بإفرازاته، ومع الأعداد الكثيرة من القمل التي تتغذّى من دمي دون أن أجد وسيلة للانتقام منها، ومع ثيابي المتسخة التي لا تفارقني ليلا أو نهارا.

وفي يوم من أيام شهر مايو سنة 1948، سمعتُ صوت السجان العتيد ناصر على جرامة ينادي باسمي، فأسرعت إليه بسكي وقيودي، وناولني صرّة كانت بيده، وعدّ في يدي خمسة ريالات فضية طبعتها ملكة «النمسا» في أوروبا اسمها «ماري تريزا»، وشاهدتُ أخي أحمد خارج باب السجن، ولم يُسمح له بالدخول والسلام على أخيه، وأشرت إليه بالسلام وقلت: بلّغ أمي سلامي، وقل لها تسامحني، وتدعو الله أن يفرّج عني ما أنا فيه. وهبطت الدرج إلى أعماق السجن، وكان الكثير من زملائي يتفرّجون عليّ وأنا أهبط و«الصُّرة» في يدي؛ أما الريالات فكنتُ قد وضعتها في جيب كوتي المتسخ.

وكالعادة كان صديقي الشامي قد جاءه ما فرّج عنه قبلي، ودخلتُ إلى مكاني، ووجدتُ الفرش التهامي المصنوع من سعف النخيل ممدودا في المكان، ولا أدري كيف امتلكتُ هذا الفراش في اليوم الثالث أو الرابع من هبوطنا إلى سجن نافع؟ ولا من تصدّق به وبأمثاله على كل المحابيس؟ ولكن العزي صالح السنيدار في مذكراته ذكر أن الخادم الوجيه هو الذي أسعفه بذلك الفرش الذي كنا نسمّيه حصيرة. وجلست على الفراش وفتحت «الصرَّة»، وكان صديقي الشامي بجانبي، ووجدت فيها كوتا جديدا، وثوبا من القطن، وسروالا طويلا، وفنيلتين من القطن. وقررتُ أن أتصرّف تصرف الملوك والأمراء، فاستدعيت سالم عمران اليهودي، وأخرجت من جيبي ريالا مستديرا مثل القمر المتلألئ، وسلّمته لصديقنا وزميلنا سالم وقلت له: هذا ريال «سَلَمْ» أريد منك أن تفكّه إلى بقش وأعشار الريال وربع الريال وتعيده مفككا.

وأخرجتُ ريالا آخر وسلّمته للصديق الطيب سالم عمران اليهودي وقلت له: هذا تشتري به «حزمة» حطب، وسكر، وقشر البن، وصابون، وتنكة ماء صافي من الغيل لا من بركة «الزعبلي»، ونصف تنكة فارغة، وما بقي «رديته»، وما نقص وفّيته من الفكة. وبعد ساعة عاد زميلنا سالم بعد أن أنجز المهمة، وسلّم لي فكة الريال

وتنكة الماء من الغيل ونصف تنكة فارغة، وقليلا من السكر وقشر البن، وقطعة الصابون، وحزمتين حطب، فأعطيته ربع ريال، «يحن حنين»!

وقرّرتُ أن أنتقم من القمل انتقاما لئيما، فملأتُ نصف التنكة بماء الزعبلي، ووضعتُ بعض الحطب في الموقد، وأشعلتُ النار، ووضعتُ نصف التنكة على النار حتى إذا «فار» الماء نزعتُ سروالي، ولبستُ السروال الجديد وخلعتُ «الزنة» الملتصقة بجسمي، ولم تفارقه لا نهارا ولا ليلا، وقتلتُ عددا من القمل بشجاعة نادرة، انتقاما لما فعلته بي؛ أما بقية القمل فتركتها في الزنة وغمستها في الماء المغلي لتموت في جهنم، وتموت بيضها معها، ثم ذهبتُ لأغتسل بالماء الصافي والصابون في الحوض المليء بالماء، ومخلّفاتنا تسبحُ فيه كالسمك الميت، وبرغم أنني لم أستطع إزالة كل ما تراكم في جسمي من إفرازاته، إلا أنني أزلتُ الكثير، وشعرتُ بالانتعاش، وعدتُ لأغسل ثيابي وأزيلَ منها آثار القمل، ثم تركتها لتجف، وذهبتُ لألبس زنتي الجديدة، وكوتي الجديد.

وهنّأني الكثير من زملائي على هذه الانتقالة الرائعة في حياتي، وأصبحت لديّ بدلتان من الملابس، البدلة السابقة والبدلة الجديدة، وقررتُ أن «أفَلّي» الزنّة التي ألبسها يوميا من القمل التي قد تتسرب إلى داخلها بدون حق. هكذا كانت حالتي خلال الثلاثة الأشهر الأولى في سجن نافع، وقد حاولتُ وصفها بأسلوب غير كئيب، فما نحن فيه لا يحتمل مزيدا من الكآبة.

وكان الشيخ جازم الحروي يعيش في سجن نافع، بجانب زعيم اليمن بحق، وصانع القضية اليمنية الأستاذ أحمد محمد نعمان، بسكه وقيده القلم، والشيخ جازم إنسان فاضل ووطني عظيم، كان دوره دورا فعالا في تمويل وتنشيط الحركة الوطنية، وفي تفجير ثورة 48 الدستورية؛ بل إنه هو الذي ألحّ على الأستاذين الزبيري ونعمان بالفرار إلى عدن، وهو الذي قام بجولة في المهاجر اليمنية، ابتداء من عدن وإثيوبيا وكينيا لجمع تبرعات لشراء مطبعة للأحرار في عدن، ثم سافر إلى مصر سرا، واشترى مطبعة قديمة اسمها مطبعة «النهضة» وشحنها إلى عدن، وتولّى الأستاذ نعمان الإشراف على استئجار محل لتركيب المطبعة فيه، وسمّاها مطبعة «النهضة

اليمانية»، وهي المطبعة التي كان الأحرارُ يطبعون فيها صحيفة «صوت اليمن» وأدبياتهم ومنشوراتهم في عدن، ولكن المناضل جازم لم يعلن انضمامه إلى حزب الأحرار أو «الجمعية اليمنية الكبرى» فيما بعد، وبقي في داخل اليمن يمارسُ أعماله التجارية. عرفته شابا رشيقا وسيما، على شفتيه دائما ابتسامة مشرقة، تكسب ملامح وجهه براءة نبيلة، إلا أن علاقتي به ظلّت محدودة جدا، وبرغم أنه عاش عيشة شبه مرفهة إلا أنه كان صبورا متماسك الإرادة عند الشدائد.

وفي سجن نافع الرهيب في حجة لاحظتُ أن حارس السجن ناصر علي جرامة بدأ يتعامل معنا بشيء من اللّين، وأن عددا من المساجين الفقراء المنقطعين قد تحسّنت أحوالهم، وعرفتُ أن الشيخ جازم كان يرسل هدايا إلى زوجة حارس السجن، وإلى زوجة مدير السجن الحاشدي ويكرمهما، ويكرم أولادهما، وأنه كان يساعد الكثير من المساجين المحتاجين بمساعدات خفّفت عن معاناتهم، وبرغم أن كرمه لم يصل إليّ حينذاك، ربما لأنه كان يرى أن هناك من هم أكثر مني حاجة إلى العون، فإن موقف جازم النبيل هذا جعلني أكثر حبّا له، وأكثر تقديرا وإجلالا، ووجدتُ نفسي أكتب قصيدة عبّرتُ فيها عن مشاعري نحوه، ولكنني لم أبلغه بها، أو أبلغ غيره ما عدا صديقي الشامي.

وقد قابلتُ جازم بعد قيام الجمهورية في 26 سبتمبر 1962، وأخبرته بالقصيدة وأمليتُها بين يديه وعنده عدد من أصدقائه، وذلك في قاهرة مصر عندما كان هناك. وقد استحسن القصيدة، وكان لها أثر كبير في نفسه، وقال لي: لماذا لم تخبرني بذلك في وقته؟ فقلتُ له: لقد عبّرتُ بها عن مشاعري نحوك، وخشيت لو أبلغتك بوقته أن تغمرني بكرمك، أو تظن أو يظن الآخرون أنني أردتُ بها الحصول على مصلحة شخصية كنتُ بحاجتها حينذاك؛ أما الآن فقد تغيّرت الظروف؛ واستأذنته في نشر القصيدة، وقد نشرتها بالفعل في ديوان شعري، وها أنا أنشرها هنا، تخليدا لبطل عظيم من أبطال اليمن الأحرار. رحم الله الشيخ النبيل جازم الحروي، وإلى روحه أرسل تلك القصيدة المعبرة؛ هذه القصيدة كتبتُها في سجن نافع عام 1948، وكان السجن مكتظا بمئات من خيرة رجالات اليمن الأحرار، وكان الشيخ جازم الحروي

المناضل العظيم جازم الحروي

أحد هؤلاء المساجين، وهو شخصية فريدة ومتميزة ومحبوبة من الجميع، للُطفه وكرمه ونبل أخلاقه، وكان تاجرا ناجحا، بذل من أمواله وأرباح تجارته الكثير في سبيل الخير بأوسع معاني الخير، بما فيها دعم حركة الأحرار الوطنية.

وفي سجن نافع لم يقتصر كرم الشيخ جازم الحروي على مساعدة إخوانه المساجين؛ بل استطاع أن يخفّف عنهم شرور السجانين، فكانت هداياه الثمينة لعائلة مدير السجن والسجانين من أهم الأسباب في تلطيف شراستهم. وفي أبشع سجون الطغاة «سجن نافع» ناجيتُ ذلك الإنسان العظيم المناجاة الصادقة التالية دون أن يعرف ذلك إلا بعد ثورة 26 سبتمبر 1962:

رحمةٌ أنت في الورى أم مكارمْ؟
أم ملاكُ الحنانِ سمّوه «جازِمْ»؟
أم شعاعٌ من الفراديس طلّ على
الدنيا بثغرٍ من الأماني البواسمْ
أنت أنسُ القلوبِ كالأملِ الحلوِ
وضوءُ العيونِ كالفجرِ باسمْ
أنت كفّ للخيرِ لو لامستْ
للشر قلبا لصار قلبَ المراحمْ
ولقد صاغك الإله من
الرحمة والخيرِ والندى والمكارمْ

***

أنت أَلهـمـتَني القـوافي فَـخُـذْها
نغَـمـا راقـصـا كـسـجع الـحـمـائمْ
كطلوعِ الصّـبـاح في مـوكبِ النور
وكـالـزهرِ شُقّ عنه الكمـائِمْ
أنت «أوقـفت» قلبكَ الـحـرّ
للخـيـرِ وجنّدتَهُ لرفع الـمظالِمْ
وأبيتَ الـحـيـاة ذُلا وكـذباَ
وانشـغـالا بتـرهاتِ الـمـزاعمْ
بل عـشـقت الـخلودَ في نصـرةِ
الـحقّ بقلب حـرّ قـوي الشكائمْ
كم ليـال سـهـرتَ فـيـهـا لتـرعى
مُـوجـعـا إذ سـواك في الليلِ نائمْ
وَلَكم عـشـرة أقلتَ وضَـمّـدتَ
جـراحـا.. وكم حـملتَ مـغـارمْ؟
كم.. وكمْ من فـضـيلة كنتَ فـيـهـا
العلَم الفـردَ والزعـيم الـمـلائمْ
ولقـد حُـزتَ كل فـضل إلى أن
أصـبح الفـضلُ والفـضـيلةُ (جـازمْ)
كَـرُمَتْ نَفْـسُـهُ وطابتْ سـجـاياهُ
فَـعَـفَّى على مـآثرِ حـاتمْ
وسـمت روحُـه على هذه الدنيـا
فـأضـحى في عـالـمِ الـخلدِ حـائمْ
هو مـثلُ الـمـسـيح يحـمل قلَبـا
في يديه لَكلِّ جـرح.. مـراهمْ

واصطبـــارٌ على الرزايا بحـــزم
تتـــلاشى لديهِ أقـــسى القـــواصمْ
وســجـايا كـمـا تروم الـمـعـالي
لـم ينلْهـــا إلا الكرامُ الأعـــاظمْ
وإذا الـحـــــرُّ أخلص الـحبَّ
للمـــبـــدأ هانت لديهِ كلُّ العظائمْ
ولو انَّ الإخـلاص يظهـر شـخـصـا
بمعـانيـه لم يكن غـيـرَ «جـازمْ»
رجل طـلَّقَ الـوجـــــاهـةَ زُهدا
وارتضى أن يكون للشـعبِ خـادمْ
وبأخـــلاقـــهِ النبـيلة أضـحى
مـــالكا للقلوبِ دون مـــزاحمْ
يُشـرقُ الفـألُ من مـحـيّـاه حـتّى
لستَ تلقـاهُ غـاضـبـا مـتـشـائمْ
هادئا كـالضّـيـاءِ يخـتـرق الآفـاقَ
صـافي الضـمـيـرِ عـفّـا مـسـالـمْ
باسم الثـغـر دائمـا، رابط الـجـأش
قـــوي الإيمانِ، ثبْت العـــزائـمْ

***

عـشتَ يا منبعَ الفـضـيلة رمـزا
للمـــعـــالي وقـــدوة للأكـــارِمْ
قـد ربحتَ الـخلود في «مـتـجـرِ»
التـاريخ والناسُ يربحـون «الدراهمْ»
ولقـد صـار مـجـدُك اليـوم ذكـرا
عـاطرا شـائعـا بكلِّ العـواصمْ

***

كانت تلك الأيام صعبة للغاية، فقد اكتشفنا أن مدير السجن عندما فرض علينا ماء ماجل «الزعبلي» كان يريد أن يموت عدد من المساجين بالأمراض، ليتقرّب بذلك إلى مولاه. وكان كل يوم يسأل من مرِض من المساجين؟ وعندما يخبرونه لا أحد منهم قد مرض يظهر الأسف.!! كان يريد أن يتكرّر معنا موت أكثر من أربعمئة أسير من قبيلة الزرانيق، ماتوا جميعا في سجن نافع. وفي يوم من الأيام أصيب زميلنا المناضل عبد السلام عمر بمرض غريب فقد انتفخ وجهه بالورم حتى لم نعد نرى عينيه، وتورّم جسمه، وانتظرنا أن يموت، ولكنه قال لنا: إن الله لا يرضى أن أموت بالمرض، وزملائي يموتون شهداء، سأكون شهيدا إن شاء الله، ومرّت أسابيع وحالته كما هي، وكان مدير السجن الحاشدي يسأل عنه كل يوم، انتظارا لموته. وفجأة وبدون أي علاج ما عدا «السليط» الزيت الذي كنّا نتبادل دهن جسمه به، مع مساج في عموم جسمه، ووجدنا أن جسمه بدأ يعود إلى حالته الطبيعية، وخاب أمل الحاشدي في موته.

ومن أول يوم هبطنا فيه إلى أعماق سجن نافع وجدنا أن مدير السجن قد فرض علينا قذارة أخرى، مجلوبة من خارج السجن، فرض علينا ماء حوض ماجل «الزعبلي» الذي تسيل وتتجمّع فيه مياه الأمطار وتجرف إليه معها أوساخ الطريق، ومخلّفات الناس، ومخلّفات كلاب حجة، وليس أمامنا إلا أن نشرب هذا الماء، ونتوضّأ ونغتسل ونطبخ به طعامنا! كنا نعيشُ في محيط قذر إلى أبعد حدود القذارة، محيط كله ميكروبات؛ ولكنا نتعايش معها دون أن نمرض أو يموت أحد منا، وتذكّرتُ معلومة كنتُ قد قرأتها فيما قرأته تقول: إن الله الذي خلقنا وخلق الميكروبات القاتلة لنا قد خلق معها ميكروبات قاتلة للميكروبات القاتلة رحمة بنا.

منذُ وصولنا سجن نافع، كنا نشعرُ بوطأة المأساة، كنا نشعر أن نضال الأحرار عبر عشرات السنين قد انهار، وكان أعظم رجالات اليمن وأشرف مفكريها، وأقوى المناضلين لتحريرها قد أصبحوا أسرى في قبضة الطاغية. كانت كل الظروف التي نعيشها لا تسمح لنا في بؤرة سجن نافع أن نفكّر في أي شيء، أو أن نستنكر أي شيء، كان التوقع لما سيفعله الطاغية هو هاجسنا الوحيد، ولم يطل الانتظار فقد بدأ الطاغية المجزرة التي كنا نتوقّعها.

وقد بلغنا أن الإمام أحمد قد أمر ابنه البدر محمد أن يكون في حجة، وأن يحضر مهرجانات الإعدام في ميدان حورة مع نائب الإمام عبد الملك بن إسماعيل الشهاري المتوكل ووكيله العجا، وأن البدر كان يشيرُ للسياف عند قطع رؤوس الأحرار بأصبعه السبابة بأن يقطع الرأس بضربة واحدة تخفيفا، وبضربتين أو ثلاث أو خمس ضربات تعذيبا. وكنتُ أعرف البدر من قبل معرفة كاملة، كنتُ مع صديقي الشامي وصديقي الشاعر اللطيف إبراهيم الحضراني، وصديقي الشاب المتزن هاشم طالب زملاء دراسة صحبة البدر، وكنا نسكن جميعا دار الناصر بتعز. كان البدر شابا نبيل الأخلاق، متواضعا حسن المعشر، يحملُ في نفسه مشاعر إنسانية خيّرة، ولكن والده حينذاك مارس معه عنف الأبوة لا ودّ الأبوة، وكان البدر يخاف من والده، ويحاولُ أن يتجنّبه بقدر ما يستطيع، كانت شخصيته ضعيفة مهزومة أمام أبيه، ولهذا اشتهر في محيط الأسرة والحاشية والناس بأنه شخص ضعيف. وعندما انتصر والده الإمام أحمد وفكّر في أن يكون ابنه البدر وليا للعهد أراد أن يجعله شخصا قويا، أو بعبارة أدقّ شخصا طاغية، ليكون طاغية بن طاغية، وهذا يذكرني بنكتة مصرية كنتُ أعرفها. تقول النكتة، كان في مصر شخص يربّي الكلاب ويبيعها، وأخذ معه في بعض الأيام إلى السوق كلبا كبيرا وجروا «كلبا» صغيرا، وجاء إليه من يرغبُ في شراء كلب، سأله المشتري: كم ثمن الكلب الكبير؟ قال له: بجنيه واحد. قال له المشتري: وكم ثمن الكلب الصغير؟ فقال له: باثنين جنيه، وعندما استنكر المشتري وقال: لماذا الكلب الصغير أغلى من الكبير؟ فقال: لأن الكبير كلب، ولكن الصغير كلب بن كلب، فضحك المشتري، ودفع جنيهين ثمن الكلب الصغير، وقال: كلب بن كلب أفضل من كلب وبس، وهي نكتة مصرية، يتداولها الكثير من اليمنيين.

في صباح يوم الخميس 29 جمادى الأولى عام 1367هـ-8 إبريل1948، سمعنا موسيقى الجيش تعزفُ لحنا تركيّا قديما حزينا، لا نعرف ما اسمه، ولا المناسبة التي لُحّن بسببها، ولكنا سمّيناه لحن الموت، وقد عرفتُ فيما بعد أن هذا اللحن التركي القديم كان بمناسبة هزيمة الأتراك في طرابلس الغرب في ليبيا. وخلال سماعنا

لـحن الـموت أخبـرنا واحـد منا- لم أعـد أذكـر من هو- بأن السجّـانين قـد أخـرجـوا السيـد زيد الـموشكي والسيـد حسين الكبسي من سـجن نافع الأعلى إلى خـارج السجن، ولا نعرف إلى أين ذهبوا بهما، وبعد ساعة أو أقل ظهر نذير الشؤم من وراء القضبان الـخشبية لباب بؤرة سجن نافع، ظهر مدير السجن علي الـحاشدي يُـبشّرنا بأن الـمجزرة قد بدأت، وبأن إمامنا الدستوري عبد اللّه أحمد الوزير قد قطع العبد الأسود رأسه، وقطع القاتل الـمسجون العرّي رأس زيد الـموشكي، وعُلّقت الـجثامين والرؤوس في الـمشنقة الـمركبة في ميدان حورة، ثم عرفنا أن رأس عبد اللّه الوزير قد نُقل إلى صنعاء، ليُعلّق في ميدان شرارة «ميدان التحرير الآن».

وقد بلغنا فيما بعد أن العجا عندما ذهب إلى غرفة الإمام الوزير ليجرّه للذبح حاول الإمام الوزير إقناع العجا بتأخير إعدامه ساعات، حتى يرسل إلى الإمام أحمد برقية مراجعة، ولكن العجا والسجانين رفضوا ذلك، وربطوا سواعده إلى الوراء، وسمحوا له بكتابة وصيته، ثم أخذوه إلى خلف قلعة القاهرة وفكّوا قيوده، وأتى العبد الأسود وقطع رأسه بالسيف في حضور البدر ونائب حجة. أما زيد الـموشكي فكان له موقف آخر؛ فقد سأل الـحاضرين ومن حولهم من الـحرس: أين الـحكم بقتلي؟ فأبرزوا له التلغراف الواصل من الإمام بقطع رأسه ورأس الوزير؛ فقال لهم: أنا لا أخاف الـموت، ولكني أخشى عليكم وعلى اليمن، كيف تنفّذون أمرا بقتلي، أو قتل أي إنسان بلا محاكمة ولا حكم شرعي؟ إن هذا يخالفُ شريعة الله، وإذا نفّذتم قتل النفس التي حرّم الله قتلها إلا بالـحق بأمر تلغرافي من الإمام فإنكم تعوّدون الإمام والـمسؤولين على العبث بحياة الناس، ارفضوا تنفيذ هذا الأمر وقولوا للإمام: إن زيد الـموشكي يريدُ حكما شرعيا ننفّذه، لا أمرا في ورقة صفراء. وكان هذا كافيا لأن يضربوه ضربا مبرحا، ويسبُّوه بكل ألفاظ السب، ثم يعذّبوه عندما أمروا السياف العرّي بأن يقطع رأسه بخمس ضربات، حتى يتعذّب قبل الـموت، رحم الله الشهيدين الإمام الوزير والثائر الـموشكي.

ولم يترك لنا الطاغية فرصة طويلة للحزنِ على الشهيدين؛ ففي اليوم التالي -وقبل صلاة الـجمعة بساعات- سمعنا لحن الـموت من جديد، وتحفّز كل منا،

استعدادا للشهادة، لم نكن نعرف من يأمر الطاغية بإعدامه منا بأمر في تلغراف، في ورقة صفراء تقول: يكون قطع رأس فلان وفلان!، ومضت ساعة أو أكثر ولحن الموت تردده «مزيقة» الجيش، ثم رأينا باب السجن الأسفل يُفتح وينادي السجّان باسم أحمد مصلح البراق، ويأمره عندما اتجه إلى الباب بالخروج، ورأيناهم يربطون ساعديه إلى خلفه، ثم يفكّون قيوده، ورأينا أربعة آخرين يخرجونهم من سجن نافع الأعلى، كانوا خمسة في طريقهم إلى الشهادة، يمثّلون الشعب بكل فئاته السيد محمد بن علي الوزير من العلماء، وأحمد مصلح البراق من المفكرين المثقفين، والشيخ حسين بن صالح الشايف من مشايخ قبيلة ذو حسين، والنقيب عبد اللّه حسن قايد أبو رأس وأخيه محمد من قبيلة ذو محمد، وصعدت أرواح الشهداء الخمسة إلى باريها، بينما علّق الطاغية رؤوسهم وجثثهم في المشانق المركبة بميدان حورة. وكانت جموع المصلّين تتحلّقُ حول الجُثث السبع المشنوقة قبل دخولهم إلى المسجد، وبعد خروجهم منه، وأكثرهم يصبُّ اللعنات، والقليل منهم يغالب دموع الحزن.

ولا أدري كيف حلّ في نفوسنا جميعا شعور بالطمأنينة، لم نعد معه نخشى الموت، أو نحزن حزنا كثيرا على من استشهد أو يستشهد. وكان السيد علي عقبات الخطيب المصقع، هو الوحيد الذي يخافُ من الموت، فمجرد أن يسمع لحن الموت يدخل إلى محله ويأخذ قطعة الحصير التي يفترشُها ويحوّلها إلى ما يشبه الكيس، ثم يدخله، وكأنّ الحصيرة ستمنع عنه الموت، كنا نشعرُ أن الموت بالشهادة صديق عزيز، ننتظر قدومه ليرافقنا إلى ميدان حورة، ويصعدُ بأرواحنا إلى باريها عقب قطع رؤوسنا. ولكننا كنا نشعر في الوقت نفسه أن الطاغية، وهو يذبح أعظم رجال اليمن، إنما كان يذبح حاضر اليمن ومستقبله، وكنا على يقين أن الشعوب قادرة أن تنجب رجالا عظماء، ولكن ذلك قد يحتاج إلى وقت يطول أو يقصر. سوف تنجبُ اليمن أحرارها الشرفاء من جديد، وسوف ينهارُ الطغيان وتتحقّق الحرية، ولكن متى؟

هل تحتاج اليمن إلى جيل، أو جيلين، أو ثلاثة أجيال، أو أكثر حتى يتحقّق ذلك؟

كانت هذه الهواجس أو الأفكار تمرُّ أمامي وأنا استعرض رفاقي في السجن. إنني لم أتزوّج وأنجب أطفالا، ولم ينجب صديقي أحمد الشامي أطفالا، ولم يتزوّج أستاذي العظيم أحمد حسن الحورش وينجب أطفالا، وآخرون لم يتزوّجوا وينجبوا أطفالا، كنتُ أتمنى أن يكون لنا أطفال يكبرون ويشاركون أو يشارك أبناؤهم في تحقيق الحرية والعدالة والديموقراطية في يمن المستقبل. وعندما كانت تلك الخواطر تمرُّ في فكري سمعتُ «لحن الموت»، فطارت الخواطرُ وحضرت التوقعات، من منا سيكون من الشهداء الجدد؟ كان ذلك في يوم الثلاثاء 5 جمادى الأخرى 1367هـ-13مايو 1948.

واستمر لحن الموت أكثر من ساعة، وكل منّا يهيئُ نفسه للشهادة بسيف الجلاد، وظهر ناصر علي جرامة ينادي الشيخ عبد الوهاب نعمان، عم الأستاذ نعمان، ثم ينادي السيد أحمد المطاع، وكانا قد تهيّآ للموت، فتسابقا إلى باب السجن بشجاعة نادرة، ثم التفتا إلينا، وسمعتُ الشيخ عبد الوهاب يخاطبنا جميعا: لا تحزنوا علينا، سنموتُ شهداء، ولكن دماءنا ستُغرقُ الطاغية والطغيان بإذن الله. وسمعنا السيد أحمد المطاع يقول: خاطركم جميعا، ثم التفت إلى العزي صالح السنيدار، وقال له: احفظ وصيتي، فقد تحتاجها. لقد رأيناهما يجلس الواحد بعد الآخر لفك القيود من أقدامهما وربط أيديهما إلى الخلف، وسارا بشجاعة نادرة إلى ساحة الإعدام، وتذكّرتُ الزبيري والنعمان، كانا يجسّدان الوحدة الوطنية في رحلة النضال، وها نحن نرى الشيخ عبد الوهاب نعمان الشافعي وزميله أحمد المطاع الزيدي يستشهدان معا، هل سيموتُ الأستاذ نعمان شهيدا لوحده، بعد أن نجا رفيقه الزبيري من الوقوع في قبضة الطاغية؟

وبلغنا أن الشهيد المطاع وهو في طريقه إلى الموت كان يُحدّث من حوله، وينشد بيتين من الشعر هما:

كم تعذّبت في سبيل بلادي
وحملتُ الهموم والأخطارا
وأنا اليوم في سبيل بلادي
أبذلُ الروح راضيا مختارا

وظن البعض أن البيتين من شعر المطاع، ولكني كنتُ قد سمعتهما قبل ذلك من الشاعر المناضل إبراهيم الحضراني، وهو يتصوّر أنهم يجرّونه للذبح في حورة.

ومرت ساعة أو بعض ساعة، وإذا بوجه النحس الحاشدي يطلُّ علينا من باب السجن، ويده وثيابه ملطختان بدم الشهداء، وقال لنا وهو يضحك: لقد قطعنا رأس المطاع ونعمان، وقطعنا معهما رأس عبد اللّه بن محمد الوزير، ولي عهد الباغي الوزير، وقطعنا رأس محمد بن محمد الوزير رئيس الاستئناف، ووددت في تلك اللحظة لو أنني أستطيع أن أبصق في وجه الحاشدي، فلم أرَ في حياتي من هو أحقر وأقذر منه في تلك اللحظة. وكان بيت حميد الدين وأنصارهم قد أشاعوا أن عبد اللّه بن محمد الوزير هو ولي عهد الإمام عبد اللّه الوزير، وهو ابن أخيه محمد أحمد الوزير، وكان شابا ذكيا وسيما، مهيب الطلعة، لم يتجاوز عمره السابعة عشرة سنة، وكان مُلمّا بعلوم الفقه، وبالأدب والشعر والتاريخ، كان مثقفا ثقافة واسعة برغم صغر سنه. وعندما أخرجوه للإعدام في حورة، طلب وهو في ساحة الإعدام السماح له بركعتين لله، ثم انتصب بشخصيته المتكاملة طولا وجمالا وذكاء وشجاعة، وقال بصوت مسموع: اللهم اشهد أنهم سيقتلونني ظلما وعدوانا وانتقاما، اللهم عليك بالظالم، وضجّت النساء والفتيات بالبكاء وصرخن: لا تقتلوه إنه بريء، وتجاوب الكثير من الرجال مستنكرين قتل هذا الشاب الصغير، غير أن السياف سارع بإشارة من العجا، أو من البدر بذبح عبد اللّه محمد الوزير، وكان ذبحه نقطة تحوّل في الرأي العام ضد الإمام، ولصالح المساجين والأحرار.

وبدأتُ أستعرض من قتل الإمام من رجال اليمن، وأستعرض من بقي منهم في قبضته، وأتصوّرهم يذبحون مجموعة بعد مجموعة، فشعرت بشيء من التشاؤم برغم أنني كنتُ قد عاهدتُ نفسي ألا أدع للتشاؤم فرصة يخترق بها إرادة التحدي في نفسي، ولكني في هذه اللحظة تساءلت كم احتاجت اليمن من الوقت لتنجب هذه الكوكبة من رجالها الأحرار العلماء المفكرين المناضلين الأبطال، لقد احتاجت إلى أكثر من نصف قرن من الزمن، فكم ستحتاج اليمن من الوقت لتعوّض من ذبحهم الطاغية من رجالها الأحرار. وعندما كنتُ أفكّر في هذه الخواطر تذكّرتُ

الأستاذ رشيد سنو، وهو صحفي لبناني لا أدري كيف جلبه الإمام من لبنان إلى اليمن، ليتولّى الإشراف على جريدة «الإيمان» التي كان الإمام يحيى يُصدرها في أربع صفحات من الحجم المتوسط، ويطبعها في مطبعة قديمة من مخلّفات الأتراك، وحاول رشيد تحسين أو تطوير هذه الجريدة، ولكنها كانت كصاحبها غير قابلة للتطور، فتركها وترك الإمام يحيى، وعاد إلى لبنان عن طريق عدن.

وفي عدن اتصل بالأحرار وقابل الأمير إبراهيم والأستاذين الزبيري والنعمان، وتفجّرت ثورة 48 الدستورية وهو في عدن، فعاد معنا إلى تعز، ومنها إلى صنعاء وأسروه معنا في ذمار، ولكنهم لم يُدخلوه معنا إلى سجن ذمار، وشاهد جموع الذماريين يدردحون بنا الدرداح الذماري الأصيل. وكان له في صنعاء صديق من الأحرار، كان يتناقش معه في أحوال اليمن، وفي الثورة القادمة على الأوضاع المتخلفة، وحينذاك قال له الأستاذ رشيد سنو: الأوضاع المتخلفة في اليمن تحتاج إلى 200 سنة حتى تقوم فيها ثورة تغيّرها، وعندما وصل من ذمار إلى صنعاء أمر سيف الإسلام الحسن بإطلاقه، فذهب إلى بيت صديقه ودقّ عليه الباب فجاوبه من في الباب؟ فرد عليه: صديقك رشيد سنو، لا تفتح الباب، جئتُ لأقول لك زد على الصفرين صفر، وبذلك تصير المئتان ألفين 2000، وتركه وعاد إلى لبنان.

ورحل شهر جمادى الأخرى إلى رحم الزمن من جديد، ودخل علينا شهر رجب وهو من الأشهر الحُرم، واعتقدنا أن ذلك سيريحنا ويريح السيافين من قطع رؤوس الأحرار، ولكنهم نسوا أن من يستحلُّ قتل النفس البشرية التي حرّم الله قتلها إلا بالحق لا يمكن أن يحترم الأشهر الحرم التي حرّم الله القتل والاقتتال فيها، حتى قتل الصيد حرّمه الله فيها. وفي أول جمعة من شهر رجب الموافق 24 مايو 1948، سمعنا لحن الموت من جديد، وتحفزنا جميعا انتظارا للوجبة الجديدة التي قرّر الطاغية ذبحها في أول جمعة من شهر رجب، وهي جمعة شبه مقدّسة لدى اليمنيين؛ لأنهم يعتقدون أن اليمن دخلت الإسلام في هذا اليوم على يد الصحابي الجليل معاذ بن جبل. وقبل أن يأتي السجّان ويستدعي من قرّر الإمام

ذبحهم، رأينا ونحن في حالة تأهُّب السيد الجليل العظيم حسين الكبسي يُدخلونه إلى أمام غرفة السجان ناصر علي جرامة، ويجلس على درجة مرتفعة هناك، لقد أتوا به من قاهرة حجة للذبح؛ لأن ذراعيه كانتا مربوطتين إلى خلفه. وعندما ظهر السجّان جرامة من باب السجن رأى الأخ عبد اللّه السلّال -المشير فيما بعد- يمشي أمامه، فأشار له أن يصعد للذبح، فقال له السلّال: أنا المطلوب؟ فأشار له: نعم؛ فالتفت السلّال ونادى حسن العمري- الفريق فيما بعد- يا حسن أنا في طريقي إلى الشهادة، فلا تنسَ وصيتي.

ويذكر صديقي أحمد الشامي في ذكرياته أن الأستاذ أحمد الحورش كان قد روى لهم أنه رأى رؤيا بأنهم ساقوه مع ثلاثة آخرين، وقطعوا رؤوسهم في ميدان حورة. وأن روحه وهي تصعد إلى باريها حاولت التعرف على الشهداء الثلاثة الآخرين ولم يكن السلّال منهم، وكان الحورش يملك حذاء، واعتقد أنه سيكون الشهيد القادم فأعطى السلّال حذاءه، وعندما أشار له السجّان جرامة أن يصعد للذبح، كان لابسا ذاك الحذاء، ولذلك نادى الأستاذ الحورش صائحا: يا أحمد.. يا أحمد «جي» لحذاتك، أنا المطلوب للذبح والشهادة، ولستَ أنت، وسمع الحورش ذلك فقفزَ ناسيا القيود التي تُثقل أقدامه، وقال للسجّان: أسماء من تريد خروجهم، فقال: محيي الدين العنسي وأحمد الحورش ومحمد المسمري، وسمع المطلوب خروجهم فتسابقوا لملاقاة الشهادة، وقال الأستاذ الحورش لزميله السلّال وهو يبتسم: عد بحذاتك فهي فدى السجّان الذي دعاك. وقال السلّال للسجّان جرامة: أمرك إلى الله.. قتلتني قبل أن يأمر الإمام بقتلي! وهكذا مشى إلى المذبحة أربعة رجال من أعظم الرجال، وأشرف الرجال، وأقوى الأحرار المناضلين الذين أنجبتهم اليمن، ذبحهم الطاغية في جمعة رجب المقدسة، وفي شهر من الأشهر الحرم التي حرّم الله القتل والقتال فيها.

وكان رد الفعل لدينا عنيفا، وقد ذكر صديقي أحمد الشامي في مذكراته «رياح التغيير.. في اليمن» صفحة 355 ما يلي: وقلت لزميلي إبراهيم الحضراني: أخشى أن الإمام قد التفت اللفتة الرهيبة، وجاء دور العلماء والأدباء، وإذن فدورنا وشيك.

وهذا يدل على أن صديقي الشامي هو الذي أخبرنا بلفتة الإمام الرهيبة لقتل العلماء والأدباء، ولستُ أنا كما ذكر في موضع آخر، سيأتي عند «حزوية»[1] الانتحار. وتذكّرتُ الآن أنني خرجتُ من مكاني إلى قرب زميلي السلّال بدافع الفضول، وجاء القاضي أحمد بن قاسم العنسي، وهو من علماء اليمن المشهورين، ومن حاشية ولي العهد في تعز، جاء ربما بدافع الفضول، وبمجرد أن وقعت عينا السجان عليه أومأ إليه بالخروج، فقال له: أنا مطلوب للإعدام؟ فقال له السجّان جرامة: نعم أنت. وسمعتُ القاضي العنسي يتمتم قائلا: «أمونه مدكوم» أي أن الإمام مجنون باللهجة اليهودية. في هذه اللحظة كان الأستاذ الحورش والأستاذ محيي الدين العنسي قد خرجا من مكانهما وواجها السجّان، وقال محيي الدين للقاضي أحمد العنسي: أنا المطلوب لا أنت، وعاد القاضي أحمد بعد أن قال لمحيي الدين: لو استطعت أن أفديك بنفسي لفعلت، ولكنها إرادة الله.

وبالمناسبة أذكر أن أستاذي أحمد حسن الحورش قال لي: لقد أرسل صديقنا محمد المسمري برقية إلى الإمام يقول له فيها: لقد نصرك الله، وخير لك ولليمن أن تجعل النصر نصرا للإصلاح، لا نصرا للانتقام، وأن الإمام قد أجاب عليه: من الإمام إلى محمد المسمري من أرسل البرقية من مصر إلى عدن، يقول فيها ابدأوا بمن في تعز قبل من في صنعاء؟ أفيدوا. وقال لي الأستاذ الحورش: لقد تركنا في دار الجمعية اليمنية في عدن شنطة مغلقة فيها الكثير من أوراقنا، وكان أصل البرقية التي أشار إليها الإمام بخط الأستاذ المسمري في الشنطة التي أرسلها برقيّا من القاهرة إلى القاضي الزبيري في عدن، فمن أوصل الشنطة إلى الإمام؟! وبقي السؤال بلا جواب حتى هدأت رغبة الإمام في الانتقام، وذات يوم فوجئنا بضيف جديد في السجن هو الأخ علي تلها، وجاءنا إشعار من الأستاذ أو ابنه محمد بأن القادم الجديد عليكم، هو الذي أوصل شنطة الشهداء المسمري والحورش ومحيي الدين إلى الإمام فاحذروه.! وكان حارس الأمير إبراهيم -وأصله من إفريقيا- والذي بقي

(1) حزوية لفظة بلهجة أهل صنعاء تعني القصة أو الحكاية .

يحرسُ دار «الـجمعية اليمنية الكبرى» هو الذي أخبر الأستاذ بأن علي تلها هو الذي جاء إلى عدن هاربا ونزل في دار الـجمعية، وهو الذي أخذ الشنطة إلى الإمام.

في تلك الأثناء، وبرغم أجواء سجن نافع الرهيب، كتبنا كتابا خطيرا سمّيناه «كيف نفهم القضية اليمنية»، لقد مضت خمسة أشهر تقريبا منذ زجّ بنا الإمام أحمد إلى أعماق سجن نافع، وخلال هذه الأشهر كنا نرى زملاءنا الأحرار يُجرّون من السجن إلى ميدان «حورة»، وتُقطع رؤوسهم بسيف الجلاد، وكنا ننتظر قطع رؤوسنا بسيف الجلاد في أي لحظة. وعندما جرّ الجلادون أربعة من أعظم الرجال في اليمن، وذبحوهم في ميدان حورة، وعلقوا رؤوسهم وجثثهم في المشانق: ذبحوا حسين الكبسي، ومحمد المسمري، وأحمد حسن الحورش، ومحيي الدين العنسي في أول جمعة مقدسة من شهر رجب، وتحديدا في 6 رجب 1367هـ- 14 مايو 1948، شعرنا بصدمة عنيفة، فهؤلاء الشهداء هم أساتذتنا الذين حوّلونا أحرارا، وحينذاك التفت صديقي الشامي إلى صديقنا إبراهيم الحضراني، وقال له: «أخشى أن الإمام قد التفت اللفتة الرهيبة، وجاء دور العلماء والأدباء والمفكرين، وإذنْ فدورُنا وشيك». وسألني صديقي أحمد الشامي بانفعال شديد: في العالم جمعيات كثيرة للرفق بالحيوان، فلماذا لا يكون فيه جمعيات للرفق بالإنسان؟ لماذا لا يرتفع صوت في العالم يستنكر ذبح الإنسان اليمني في وطنه؟، قلتُ له: لأن العالم لا يعرف أن في الأرض قطعة تسمّى اليمن، لقد أبقانا الإمام مخفيين في «زُغن/ إبط» الأرض في جنوب غرب آسيا!

كنا نرى زملاءنا الأحرار يُجرّون من السجن إلى ميدان حورة، وتقطع رؤوسهم بسيف الجلاّد، ونرى أنفسنا ومئات من خيرة رجالات اليمن في أعماق سجن نافع الرهيب. وكنا في وضع رهيب لا بدّ أن نخلق لنا فيه أملا- ولو من الخيال- يعيننا على الصمود، ويبعث في نفوسنا قوة التحدي من جديد. قال صديقي أحمد الشامي: لماذا لا نكتب كتابا بعنوان: «كيف نفهم القضية اليمنية» لنُعرّف العالم باليمن ومأساة اليمن؟، تساءل صديقي، وهو يعرف أننا في أعماق سجن نافع، لا يوجد فيه قلم ولا ورق؛ وحتى لو وُجد القلم والورق، فأين نجد المكان الذي نكتب

فيه دون أن يُفضح أمرنا؟، ولكن غريزة الحياة في كياننا جعلت العقل الباطن يخلقُ في نفوسنا أملا خياليا، كنا نعتقد أنه أمل حقيقي.

وبدأنا نفكّر كيف نكتب كتاب: «كيف نفهم القضية اليمنية»، ومن أين نجد الورق، وبدأنا نجمع أوراق علب السجائر، وتمكّن الشيخ المناضل العظيم أمين عبد الواسع نعمان من إيجاد أقلام من الرصاص، لكي نكتب بها. وبقي المكانُ الذي نكتبُ فيه الكتاب في سجن مليء بالمساجين. وكنتُ قد صنعتُ لنفسي عندما كنا في تعز في مقام الإمام أحمد ولي العهد حينذاك خيمة من قماش، يسمّى «المريكني»، استخدمها، بدلا عن الكيس وقاية من «الكتن» والنامس والقمل، وهكذا صنعتُ خيمة لي وخيمة لصديقي أحمد الشامي.

واشتريتُ «تنكة» كان التجار يستوردون فيها «القاز/الكيروسين»، وصنعتُ منها لوحين، واستخدمتُ الدخان لتلوين اللوحين باللون الأسود، وكلّفنا سالم عمران بإدخال مادة «الغضار» البيضاء، كما أدخل لنا قصبة صغيرة من «الحلال» صنعتُ منها أقلاما، وقلت لصديقي الشامي: ها نحن قد جهّزنا كل متطلبات الكتابة؛ المكان داخل الخيمة، واللوح والغضار والقلم للكتابة الأولية، وأوراق السجائر وقلم الرصاص للكتابة النهائية. قال لي: يجبُ أن نصنع شفرة نكتب بها ما نريد كتابته، وقمنا بوضع شفرة، ودخل كل منا إلى الخيمة مكان الكتابة، وبدأنا نكتب الكتاب مشفرا في ضوء «قزازتين»، بهما القاز، وكان دخان ضوء القزازة يملأ الخيمة ويملأ أنوفنا ورئاتنا بالدخان. لم يمرّ وقت طويل، حتى اكتشفنا أن الكتابة بالشفرة مستحيلة، فقررنا الكتابة بدون التشفير، وهكذا كنا نكتب في اللوح، ونتبادل الألواح حتى نوحّد ما نكتبه ونقرأه، ثم ننقل ما في اللوحين إلى أوراق السجائر، ونسلّمه إلى الشيخ أمين عبد الواسع نعمان، بعد أن نحتفظ بنسخة منها في مكان خفيّ حفرناه تحت فراشنا.

كنا كلما تقدّمنا في الكتابة نشعرُ بأمل لا حدود له بأن ما نكتبُه سوف يُطبع قريبا، وينتشر في عموم اليمن، ويشعل ثورة الشعب ضد الإمام. كان هذا الخيال يبعثُ الأمل، وكان الأمل يدفعنا إلى الكتابة، وكانت الكتابة تمدنا بقوة الصمود والتحدي. وأذكر أن صديقي أحمد الشامي في بداية الكتابة أعطاني لوحة، ووجدتُ

فيه نشيد الأحرار الذي كتبه في اللوح، ثم صرنا في السجن ننشده في كثير من الأوقات، ولا زلت أحفظه حتى اليوم، ونصه الآتي:

بالأمة نقسم والجمهور
والعزة والقدر المقدور
وبما في مصحفنا مسطور
أن نطلب لليمن الدستور

***

لن نرهب عادية الزمن
وقوارع أهوال المحن
إنّا للأمة والوطن
نهوى الحريّة والدستور
سنموتُ لتحيا أمتنا
فحياة الأمة غايتنا
أمنيتنا وإرادتنا
تحيا الحرية.. والدستور

***

الظالم قد تربت يده
وهوى ما كان يشيده
والباطل ذل مؤيده
وأضاءت أنوار الدستور
سنموت لتحيا أمتنا
فحياة الأمة غايتنا
أمنيتنا وإرادتنا
تحيا الحرية.. والدستور

***

ورجالُ الشورى والميثاق
ملأت أصواتهم الآفاق
كل يشدو جذلا مشتاق
تحيا الحرية.. والدستور
سنموت لتحيا أمتنا
فحياة الأمة غايتنا
أمنيتنا وإرادتنا
تحيا الحرية.. والدستور

***

سنحارب كي نحيا سعدا
ونضحي بالأرواح فدا
بدماء الأبطال الشهدا
تحيا الحرية.. والدستور
سنموت لتحيا أمتنا
فحياة الأمة غايتنا
أمنيتنا وإرادتنا
تحيا الحرية.. والدستور

وإذا كان صديقي أحمد الشامي قد كتب «نشيد الدستور» في أعماق سجن نافع، فإنه كان قبل قيام ثورة 48 الدستورية قد كتب بخطه دستور الثورة «الميثاق الوطني المقدس» بعد أن شارك في صياغته، ولذلك كان حينذاك من أكثر الأحرار إيمانا بضرورة وجود دولة يمنية دستورية تحكمُها مؤسسات دستورية، بدلا من الحكم الإمامي الملكي الاستبدادي الكهنوتي.

من سجن نافع كيف فهمنا القضية اليمنية؟

أما كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية»؟ فقد بدأناه بلمحة تاريخية تحليلية عن

الحضارة اليمنية القديمة، ثم سقوطها، وآثار ذلك على اليمن ووحدة اليمن، وصراع الأسر، ودخول اليمن في الإسلام، والإمامة والأئمة، والاستبداد وطبائعه، والتضليل واستغلال الدين. وكنتُ وصديقي أحمد الشامي في عام 1948، ونحن في أعماق سجن نافع الرهيب ندعو في هذا الكتاب إلى استبدال نظام الإمامة بالنظام الجمهوري الديموقراطي؛ لأنه لا وجود لنظام إمامة ولا شروط إمامة في الواقع. وأنقل فيما يلي نبذا من الكتاب تُبيّن كيف كان الأحرار يفكّرون في ذلك الوقت.. فقد ورد في صفحة 96 تحت عنوان «الإمامة»:

«ولو نظرنا النظرة الصحيحة في التاريخ الإسلامي لرأينا أن الخلافة الحقّة لم تكن ممثلة تمثيلا يطابق الدين والمصلحة العامة إلا في الخلفاء الراشدين، ثم صارت بعد ذلك ملكا عضوضا، يتوارثه المستبدون، وأفراد الأسر المتغلبة، وخصوصا في اليمن، فقد استطاع الأئمة ودعاتُهم أن يزوّروا الحقائق، ويضلّلوا العقول، ويصوّروا الإمامة بصورة مقدّسة تجعل للقائم بها يدا ليس فوقها إلا يدُ الله، وأن الإمام ظِلّ الله في الأرض، وله الحق الكامل أن يتصرّف بأموال الناس وأجسامهم وعقولهم وأرواحهم كيفما يشاء، وكلُّ ما يعمله صادر من الله، وأمره من أوامر الله، وقضاؤه من قضاء الله، وهو وارث الإمامة والحكم عن علي بن أبي طالب، عن رسول الله، عن جبريل، عن الله. هذه هي العقيدة التي غرسها الأئمة في عقول عوام اليمنيين، وبها سادوا وتحكّموا؛ أما شروط الإمام فهي مطوية في بطون الكتب، تلوكها ألسنة الفقهاء، ويكفي أن يتسمّى القائم أميرا للمؤمنين، وإماما للمسلمين، وبذلك تكون هذه الألقاب هي الشروط، وصاحبها هو الإمام المعصوم من الخطأ، المنزه من الزلل، ويتناسى الناس مدلول الألفاظ ومعانيها، وتتلاشى في شخصية الإمام المقدّسة الذي هو ظِلُّ الله في الأرض، اختاره الله للعباد، وخصّه من بينهم بالكمال، ومكّنه من الحكم، وجعله خزانة لأسراره، وأمينا على ملكوته، وحافظا لدينه في الأرض، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. «هكذا ذابت الإمامة وشروطها في الإمام، وأصبحت خرافة في شخص مطاع، وتحوّلت الشريعة والدين في شخص الإمام كهانة ودجلا». هكذا كنا نفكّر في عام 1948، لا وجود للإمامة وشروطها؛ لأنها تلاشت في شخص الإمام المستبد.

وفي هذا السياق أجد من المناسب أن أنقل هذا الجزء من كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية»؟! تحت عنوان «الاستبداد وطبائعه» الدعوة لقيام نظام جمهوري ديموقراطي، يحلُّ محلَّ نظام الإمام المستبد الكهنوتي، كما يلي: «إن التاريخ البشري لا يزالُ ينقلُ لنا صورا شتى لأنواع الحكومات والأنظمة المختلفة، من ملكية ديموقراطية، إلى جمهورية شعبية، إلى ديكتاتورية استبدادية». «وإننا إذ نلاحظُ أن الحكومات الديموقراطية والجمهورية في كل العصور، وفي كل الأمكنة تختلفُ قوانينها، وتتباين دساتيرها، وتظهر في شتى المظاهر على حسب البيئات التي تحيط بها، وبقدر نضوج الأمة ورقيها العقلي، واستعداد أفراد مجتمعاتها، وفهمهم وثقافتهم ووعيهم القومي، وخبرتهم السياسية. ولكن هذا التباين والاختلاف في الأنظمة الديموقراطية والجمهورية تتفق في الغاية والغرض، وتتحد في الهدف والمرمى؛ إذ تجعل سعادة الأمة ورقيّها، وإصلاح البلاد، وانتشار الأمن والاطمئنان في أنحائها، وتمكين الناس جميعا من الحياة الحرة، والعمل والإنتاج، والسعي لنيل السعادة والرخاء. كذلك نلاحظُ أن الاستبداد وتحكّم الفرد له صورة واحدة مدى الأجيال، تنتقل معه في كل زمان ومكان، وتبدو في كل عصر محتفظة بشكلها الأول الذي لا يتغير مهما تغيرت الظروف».

«أما طبائع الاستبداد المتجددة في كل مستبد فهي نتيجة طغيان الأنانية والأثرة، وطغيانها على كل الغرائز والتفكير المجبولة في الإنسان، وسيطرتها على جميع تصرفات الشخص المستبد وأعماله». وبعد أن حلّلنا طبيعة الاستبداد والمستبد في عام 1948، وفي أعماق سجن نافع، وصلنا إلى نتيجة تقول: باستحالة وجود ما أطلق عليه أبو العلماء المجددين جمال الدين الأفغاني «المستبد العادل»؛ لأن العدل والاستبداد نقيضان لا يجتمعان، وكانت آخر عبارة في الكتاب تقول: «الواقع أنه من الخطأ استخدام كلمة «المستبد العادل»؛ إذ لا يمكنُ أن يكون المستبد عادلا أبدا؛ فالاستبداد والعدل نقيضان لا يلتقيان أبد الدهر».

هذه الأفكار والمعلومات التاريخية، وتحليلها التي كتبناها، ونحنُ في أعماق سجن نافع الرهيب عام 1948، وسيف الجلاد يقطع رؤوس زملائنا الأحرار، ونحن ننتظر في

كل يوم متى يجرُّنا الجلادون إلى ساحة الإعدام تُعدّ نموذجا، يبيّن ثقافة الأحرار حينذاك، وأفكارهم وأحلامهم. وعندما انتقلنا إلى سجن قاهرة حجة، نقلتُ من أوراق السجائر ما كتبناه في نافع، وخرج من أيدينا إلى الخارج، ولم يعد ما كتبناه في سجن نافع موجودا معي، فكتبت رسالة «نحو النور» في عام 1953. وفي عام 1986، قمت بطبع الرسالتين أو الكتابين: «كيف نفهم القضية اليمنية» و«نحو النور» في كتاب واحد؛ باعتبارهما تراثا فكريا من تراث الحركة الوطنية، وكتبتُ في أولهما توضيحا لقصة كتابتهما بعنوان: «قصة هذا الكتاب»، وهي مليئة بأحداث ووقائع وذكريات تستحق الذكر؛ وإذا كان الكتاب جزءا من تراث الحركة الوطنية، فإن قصة الكتاب في مقدمته جزء من تاريخ اليمن الحديث. وأنا أعتقد أن الكتابين أو الرسالتين من أهم التراث الفكري والأدبي والثوري لحركة الأحرار. ولم أعد أذكر لماذا توقّفتُ وصديقي الشامي عن الاستمرار في كتابة «كيف نفهم القضية اليمنية» ولكني أرجّح أن سبب ذلك هو الخروج من حالة الخيال الواهم بأن ما نكتبه سوف يُنشر ويفجّر ثورة شعبية تعصف بالطغيان، وتُمكّنُ الأحرار من حكم اليمن، وتُخرجنا من السجون أبطالا منتصرين، والعودة من ذلك الخيال الخادع إلى الواقع الذي نحن فيه..!

بالعودة إلى مسلسل الإعدامات، كان الإمام قد أمر النائب والعجا بأن يتم حجز أخيه الأمير إبراهيم في بيت ملحق بقصر سعدان، وجرت مكاتبات بينه وبين الإمام، وبينه وبين نائب الإمام في حجة سأشير إلى بعضها فيما بعد. وقد أراد الإمام إعدام الأمير إبراهيم بالسيف، ولكن المحيطين به من رجال ونساء الأسرة نصحوا الإمام بألا يعدم الأمير إبراهيم حتى تبقى الأسرة مهابة في نظر الناس، وحتى لا يُحدث إعدامه انشقاقا داخل الأسرة؛ ولذلك لجأ الإمام إلى قتل أخيه إبراهيم بالسُّم الذي دسه العجا له في الماء الذي يشربه الأمير إبراهيم. وهكذا سمعنا في يوم الاثنين 22 شعبان 1367هـ–29 يونيو 1948، أن نائب حجة وكبار المسؤولين قد تجمّعوا في دار سعدان، لتشييع جثمان الأمير إبراهيم الذي وافته المنية في مساء اليوم السابق. رحم الله الأمير إبراهيم، لقد كان من أشرف وأنبل الرجال الذين ضحُّوا بحياتهم في سبيل الله، لإنقاذ الشعب اليمني من طغيان أسرته المستبدة المتخلفة.

وكان الأمير علي بن عبد اللّه الوزير ممن عارضوا بشدة قتل الإمام يحيى، وعندما قُتل الإمام يحيى كان الأمير نائبا عن الإمام في قضاء المحويت، ولم يكن في صنعاء عندما قُتل الإمام يحيى، ولا علم له بقتله، وعندما فكّر الإمام في إعدامه راجعه بعض الجلساء بأن الأمير علي الوزير لم يتآمر على قتل الإمام يحيى، ولكن الإمام أحمد قال لهم: إنه أخطر من الإمام الباغي على أسرة بيت حميد الدين. وقبل يومين من إعدامه كان الإمام قد أمر بنقل الخادم الشهم غالب الوجيه من سجن نافع إلى سجن القاهرة، وذلك في يوم 20 شعبان 1367هـ- 27 يونيو 1948. وفي 23 شعبان جرّ الجلاّدون الأمير علي بن عبد اللّه الوزير، والمناضل غالب الوجيه من سجن قاهرة حجة إلى ميدان حورة، وتم قطع رأسيهما، وعُلّقا مع جثتيهما في المشنقة. وفي ميدان حورة، وقبل أن يذبحوا الأمير علي بن عبد اللّه الوزير أخرج من جيبه مصحف القرآن الكريم وسلّمه إلى العجا قائلا له: هذا أمانة لديك، سلّمه لصاحبك الإمام، وقل له: هذا بيننا وبينه يوم القيامة.

وبعد مرور قرابة ثمانية أشهر توقّف ذبح الأحرار في حجة. وعندما أقبل عيد النصر في 7 ربيع الآخر 1368هـ-27 فبراير1949، سمعنا لحن الموت تعزفه «مزيقة» الجيش، وجاء السجّان جرامة، ودعا عزيز يعني ومحسن هارون، وكان عزيز يعني يقرأ القرآن الكريم يقرأ الآية: (أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)، سورة النحل. وفي ميدان حورة ذبح الطاغية الشيخ محسن هارون، وهو شيخ في الثمانين من عمره؛ أما عزيز يعني فقد تم ذبحه وهو في عنفوان الشباب؛ وعُلّق رأساهما وجثتاهما في مشنقة ميدان حورة.

كان أول شهر رمضان- وكان يوم الشك- هو يوم الاثنين الموافق 5 يوليو 1948، وفيه أُدخل إلى سجن نافع الحاج علي محمد السنيدار، وكان مديرا للشركة اليمنية المصرية التي أسسها الفضيل الورتلاني، وعلى سيارته الكبيرة التي كان يقودها السائق محمد ريحان كان الشيخ علي ناصر القردعي وجماعته الذين اغتالوا الإمام يحيى، ووجدنا أن الأخ علي السنيدار مثلنا لا يعرف الحقائق، وإنما يسمع الإشاعات.

كان الخبر الذي فرحنا به هو فك قيود الأستاذ نعمان في يوم السبت السادس من رمضان 1367هـ-10 يوليو 1948، ونقله إلى قاهرة حجة، ولكنا خشينا أن يكون مصيره مصير الخادم غالب الوجيه. ومن حسن الحظ أن ذلك لم يحدث؛ بل تم فيما بعد إطلاقه إلى مدينة حجة، ليعيش مع بعض أفراد عائلته في بيت أمر الإمام به له، وصار مدرّسا في مدرسة «الدخاري» وهي المدرسة الوحيدة في حجة، وكان من تلاميذه فيها محمد عبد الملك المتوكل، ابن نائب الإمام في حجة، وصارت لوجود الأستاذ وابنه محمد آثار واسعة في نشر الوعي والفكر المستنير لدى الكثير من شباب العائلات في حجة؛ بل له أثر لدى عبد الملك المتوكل نفسه، وأصبح ابنُه حمود شابا مثقفا ثقافة واسعة يتعاطف مع أفكار الأحرار، وحتى كبار الموظفين والحكام في حجة، تأثّروا بالأستاذ نعمان، وكُتُب الأستاذ نعمان.

وأذكر أن الأخ عبد الوهاب حسن الشماحي كان على رأس مجموعة من شباب حجة المستنيرين الذي ساعدوا في التخفيف على المساجين، ومنهم شباب من آل نصّار، والأخ ناجي ماتع، والأخوان عبد الرحمن وعلي حُمِيد، ومن شباب المسؤولين حمود ومحمد عبد الملك المتوكل، ابنا نائب الإمام، وآخرون لم أعد أذكرهم الآن. وحتى بعض الأشخاص العاديين كان للأستاذ نعمان أثر في تحويلهم إلى أحرار مستنيرين، ومنهم أحمد واصل، وهو جندي في فرقة الموسيقى، فقد قدّم للمساجين، ولمن يزور حجة من الأحرار خدمات كبيرة، وسوف أذكره عند الحديث عن فراري من سجن حجة.

وقفة مراجعة مع الصديق الشامي

قبل أن أبدأ في كتابة ذكرياتي هذه كنتُ قد اطلعتُ على الكثير من مذكرات أو ذكريات من سبقوني إلى نشر ذكرياتهم، وربما أفرد لذلك فصلا أو بابا في ذكرياتي هذه، ولكني أشيرُ إلى أن مذكرات المناضل الكبير العزي محمد السنيدار هي أصدق وأدقّ وأخف روحا بلهجته البسيطة المحببة في نظري. كما أن مذكرات القاضي عبد الرحمن الإرياني-الرئيس اليمني فيما بعد- كانت قمة المذكرات جميعا.

كان اهتمامي بذكريات صديقي الشامي أكثر، لما كان بيني وبينه من علاقة صداقة حميمة منذ الطفولة وحتى الشيخوخة، برغم ما شابها من تناقض فيما بعد، بسبب تعارض المواقف، وتناقض الاتجاهات الوطنية والسياسية، فعندما طالعتُ كتابه: «رياح التغيير في اليمن» استغربتُ أن ذاكرته قد خانته كثيرا عند كتابته لذكرياته، وأخطر من ذلك أنني اكتشفتُ أنه أيضا قد خان ذاكرته مرات عدة حين نسب إليها أحداثا من صنع رغباته، لا من محصّل ذاكرته. وقد تردّدتُ -وأنا أكتب مذكراتي- في تصحيح ما جاء في ذكريات صديقي أحمد محمد الشامي من أخطاء، احتراما لما كان بيننا من صداقة وود واحترام واشتراك في النضال الوطني، وصولا إلى التغيير، أو إلى رياح التغيير التي هبّت في اليمن. ولكن صديقي الشامي ليس شخصا عاديا، فهو من أهم الشخصيات اليمنية، وسياسي لامع، له أدواره في التاريخ اليمني الحديث، وهو عالم وأديب وشاعر ومثقف، ولذلك فإن ما جاء في ذكرياته من أخطاء سيأخذها الناس كوقائع صحيحة إذا لم تجد من يصححها، واعتقد أنني المعني بتصحيحها، فقد ذكرني كثيرا في ذكرياته بالحق والباطل، ومن حقي أن أصحّح ما جاء فيها من أخطاء، وأثبت الصحيح منها.

كما سبقني صديقي أحمد الشامي في الخروج إلى الدنيا، وفي زفة ختم القرآن الصغرى، وفي لبس العمامة، وفي زفة الزواج الكبرى، وفي النزول إلى تعز، وفي الفرار إلى عدن، فقد سبقني فيما بعد بالابتعاد عن السياسة والتفرغ لكتابة التاريخ، وكتابة الشعر، وكتابة الأدب والنقد الأدبي. كما سبقني في كتابة ذكرياته في كتاب سمّاه: «رياح التغيير في اليمن»، وهو اسم رائع لكتاب صاغه بأسلوب أدبي رائع، وقد قرأته باهتمام وشغف، ووجدتُ أنه قد عبّر عن وجهة نظره بوضوح في سرده للأحداث، وفي تحليلها واكتشاف أبعادها من وجهة نظره، برغم وجود بعض الأخطاء، وبرغم أسلوب السرد القصصي الخيالي لأحداث لم تحدث. وهو في كتاباته يكتب بأسلوب الأديب المتمكّن، وشفافية الشاعر الملهم، ورصانة العالم المتبحر، ولكنه في كثير من محطات أو فصول كتاب ذكرياته لم يستطع التخلص من آثار موقفه «الملكي» برغم أنه قد «جمهر» بعد المصالحة، وصار عضوا في مجلس الرئاسة

الـجـمـهـوري، ثم سـفـيـرا للجـمـهـورية العـربـيـة اليـمـنـيـة في لندن، ومن هنا تأتي بعض الأخطاء التي تفتقر إلى الالتزام بالـموضوعية. ولا ننسى أنه لم يكن يكتب مذكرات سـجّلها في حـينه خـلال أكـثـر من نصف قـرن، وإنما كـان يكتب ذكـريات لأحـداث حدثت قبل عشرات السنين، وربما تشابكت ذكرياتُها في ذاكرته عند الكتابة، فيذكر أشـيـاء مـرتبطة بأحـداث، بينـمـا تكون تلك الأشـيـاء مـرتبطة بأحـداث أخـرى، وبهذا يحـصل الـخطأ، وأحـيـانا ترى ذاكـرته بعض الأحـداث من خـلال غـبـار مـرور الأيام والأعوام، فتبدو غير واضحة له، ولكنه كان يحاول توضيحها بالتخمين والـخيال، ربما بدون اختياره، ولذلك يغلبُ عليها الـخيال جاعلا منها الـحقيقة.

وقبل أن أشتري نسخة من ذكريات صديقي أحمد محمد الشامي «رياح التغيير في اليمن»، كان بعض الأشخاص عندما يلقونني يُـحدّثونني عن بعض ما ورد في الكتاب عني، وخصوصا قصة اقتراحي عليه الانتحار في سجن نافع، فأسرعت إلى الـمكتبة واشتريت كتاب صديقي، وقرأته بإمعان، ووجدتُ أنه قد ذكرني في كثير من محطات ذكرياته، وأن ما ذكره عن طفولتنا أكثر وضوحا وصدقا من ذكرياته في عهود الشباب والكهولة والشيخوخة؛ لأن اختلاف الـمواقف والـمصالـح يبدأ بعد مرحلة الطفولة، فخلال قراءتي لمذكرات صـديقي أحـمـد الشامي عندما يردُ ذكري كنتُ أجد نفسي حائرا إلى حد الذهول؛ لأنه لم يترك فرصة إلا وأساء لي فيها، حتى كلمات الـمديح، فإنه كان يجعلها ستارا ومدخلا لذكر شيء فيه إساءة لي..! فكثيرا ما يُحَرّف الـحادثة الصحيحة تحريفا يحوّلها إلى نوع من الكذب والاختلاق، بقصد الإساءة؛ بل إنه أحيانا يختلقُ قصصا خيالية، لا أساس لها من الصحة إطلاقا، مثل قصة اقتراحي عليه الانتحار، وقد تردّدتُ كثيرا في تصحيح ما ذكره عني لأنني كنت- ولا أزال- أعتبرُ صديقي الشامي توأم روحي وعقلي منذ الطفولة وحتى بعد موته، وأكنُّ له من الـحب والصداقة والتقدير منذ الطفولة وحتى الآن ما لا أكنه لأي صديق آخر، ولكن كتابه قد انتشر وقرأه كثيرون؛ لذلك وجدتُ أن من حقي أن أصحّح بعض الأخطاء التي ذكرها عني بالـحق وبالباطل مع أنه -غالبا- كان يحوّلُ الـحق إلى باطل..!

هذه ملاحظات تصحيحية على شهادة صديقي أحمد محمد الشامي في شهادته التاريخية عن أحداث تاريخ اليمن الحديث التي أدلى بها في كتاب ذكرياته: «رياح التغيير في اليمن». إن هدفي من هذه الملاحظات هو التصحيح لا التجريح؛ لأنني عشتُ أحداث التاريخ اليمني الحديث كما عاشها صديقي الشامي؛ بل كنا معا نشاركُ في صنع كثير من تلك الأحداث. وصديقي الشامي من أهم الشخصيات اليمنية البارزة على الساحة اليمنية منذ خمسينيات القرن الماضي، وحتى توفاه الله -غريبا- في بريطانيا. ولهذا فأي خطأ ورد في شهادته سينعكسُ سلبا على حقيقة الأحداث الواردة في شهادته، ووجدتُ أن من واجبي تصحيحها في شهادتي على أحداث اليمن الحديث، وخصوصا أن بعض تلك الأخطاء قد وردت فيما ذكره عن علاقتي به وعلاقته بي. وكنتُ قد فكّرت أن أبدأ ملاحظاتي على ما أورده صديقي أحمد محمد الشامي في ذكرياته بملاحظات عامة عن مجمل ما ورد في ذكرياته، ولكني تجنّبتُ ذلك، حتى لا توحي الملاحظاتُ العامة بوجود تحيز، لذلك وجدتُ من الإنصاف لي وله أن أبدي ملاحظاتي على ما جاء في ذكرياته عند ذكر ما نطالعه فيها.

ذكر صديقي أحمد الشامي أنني - محمد الفسيّل- أول صديق عرفه في حياته، وعمرنا معا حينذاك ست سنوات، وهو لا يعرف كيف التقينا. هو يظنُّ أن أول لقاء تم بيننا كان سنة 1348هـ- 1929، وهذا ظن غير دقيق، لأنني انتقلت مع أمي وأخي إلى صنعاء عندما كنتُ في بداية السنة السابعة من عمري بعدما قضيتُ السنة السادسة أدرس في معلامة قرية الجراف، وكان صديقي قد سبقني للدراسة في معلامة الفليحي، والراجح عندي أننا التقينا في عام 1351هـ-1933. وتحت هذا العنوان ذكرني صديقي في مذكراته في صفحتي 317 و368، قائلا: «والفسيّل- كما قلتُ في فصل سابق- أقدم أصدقائي؛ بل لا أبالغ إذا قلتُ أنه أول حيوان ناطق عرفته في حارة الفليحي بصنعاء عند وصولي إليها من الضالع». وأعجبني هذا التعبير منه عني، فقد كان الناس يُعرّفون «الإنسان» بأنه حيوان ناطق، وقد اعتبر بعضُ الناس أن صديقي أراد به السخرية منّي، وهذا يناقضُ ما أراد؛ فقد أراد به

التعبير عن عمق ما بيننا من صداقة واحترام. وإذا كان التعريف السابق للإنسان قد استبدل بتعريف أدقّ، يقول: «الإنسان حيوان يكتب تاريخه». وها هو صديقي أحمد الشامي قد أصبح بعد كتابة مذكراته «حيوانا يكتب تاريخه»، وها أنا الآن أكتب تاريخ حياتي في هذه المذكرات، وبذلك أكون وصديقي الشامي كلانا حيوانا ناطقا، يكتب تاريخه...، ولكن مع الأسف وجدتُ أن ذكريات صديقي الشامي تحتوي على كثير من الأخطاء والتحريف والمبالغات التي تفقده المصداقية، سواء بالنسبة لي أو بالنسبة لغيري، ومن هذه المبالغات التي كنتُ أتمنى لو أن صديقي تجنّبها العبارات التالية:

- وكان الفسيّل- ولا يزال- سيء الحظ لا يوحي لأصدقائه غيري بالمودة والثقة، ولا يستطيع كسب الأصدقاء، ويقف في الاتجاه المعاكس لزميلنا وثالث جوقتنا الشاعر إبراهيم الحضراني، والحبّوب بكل ما في الكلمة من معنى كما يقولون. وكنتُ أعزّه وأودّه وأدافع عنه، ولقد وصفتُ في فصل سابق مواقفه المتعنتة في تعز قبل فراره إلى عدن.
- ولقد ظللتُ أحملُ المودة والتقدير لصديق الصبا والشباب محمد الفسيّل وأعلم إخلاصه لوطنه وما عاناه وكابده، وكنتُ كما قلتُ أدافع عنه، ويشهد الله ما تضايقت منه إلا في موقفه معي من «نشر» بعض فصول كتابنا، وفي محاولته أن يجعل ذلك تهديدا لي، ووسيلة للانتفاع، وأنا صديقه العتيق، أو من موقفه مع صديقه الكريم صاحب الفضل عليه، والذي عاش على حسابه زمنا طويلا، وقد سجلت ذلك شعرا في اللزوميات. انتهى.

نقلتُ هذه العبارات من ذكريات صديقي أحمد الشامي، كدليل على تعمّده المبالغات التي تفتقد المصداقية، فهل صحيح أن محمد الفسيّل لا يوجد له صديق واحد في هذه الحياة إلا أحمد الشامي؟ إن للفسيل عشرات؛ بل مئات الأصدقاء عبر حياته من الطفولة إلى الشيخوخة، وله آلاف من المعجبين والمحبين له في أنحاء اليمن، وسوء حظه لا يكون إلا مع السلطات المتسلطة في عهود الملكية وفي عهود الجمهورية؛ لأنه ظلَّ طيلة حياته يناصرُ قضايا الشعب. ولم أفهم

ماذا كان صديقي أحمد الشامي يقصده من عباراته التالية: «ويشهد الله أني ما تضايقت منه إلا من موقفه معي في نشر بعض فصول من كتابنا، ومحاولته أن يجعل ذلك تهديدا لي ووسيلة للانتفاع وأنا صديقه العتيق»..

لم أفهم ماذا قصد بهذه العبارات وما بعدها؛ لأن هذا لم يحدث قط، وليس له طيلة صداقتنا فضل «مادي» عليّ. لقد كان ما بيننا منذ الطفولة حتى الآن بالنسبة لي هو الصداقة الصادقة، والحب الطاهر، والوفاء والفضل المعنوي المتبادل، وقد نشرت كتابنا المشترك: «كيف نفهم القضية اليمنية» في عام 1986، بعد أن صار صديقي عضوا في المجلس الجمهوري، ثم صار سفيرا في باريس وفي لندن، ونشرُ الكتاب في هذه الحالة كان في العهد الجمهوري، وليس في العهد الملكي، ويعود على صديقي بفائدة معنوية كبيرة لدى الجمهوريين.

كما أنني لم أفهم من هو الصديق الكريم صاحب الفضل عليّ، الذي عشت على حسابه زمنا طويلا؟ هل يقصد صديقي الشامي نفسه؟ لا يوجد في حياة الفسيّل شخص في الدنيا عاش على حسابه إلا أمه العظيمة التي يعرفها وتعرفه منذ الطفولة، وبعض الأصدقاء الذين كانوا يرسلون لي مساعدات مادية كريمة عندما كنتُ في سجون حجة، ومنهم الصديق الشهم الكريم علي سعد الحكمي من زبيد، وقد كسبتُ صداقته عندما زجّ به الإمام أحمد إلى سجن نافع، وبعد إطلاقه ظلّ يرسلُ لي مبالغ أعانتني على الحياة في السجن. ومنهم الصديق العزيز الأخ حسين عبد اللّه المقدمي، والصديق الشهيد عبد اللّه اللقية، والصديق الشهيد محمد العلفي، والأخ الكريم عبد الوهاب بن حسن الشماحي، ولم يكن صديقي أحمد الشامي ممن ساعدوني ماديّا لا قبل السجن، ولا بعد إطلاقه من السجن، ولهذا فإن ما ورد في مذكراته عن «الصديق الكريم» الذين عشتُ زمنا طويلا على حسابه مجرد خيال، لا صلة له بالحقيقة، ولا أظن أن أحدا من الناس قد عاش على حساب صديقي أحمد الشامي زمنا طويلا أو قصيرا حتى شقيقه عبد الوهاب.

وأنا في هذا التوضيح لا أتجنَّى على صديقي أحمد، وإنما وجدتُ أن من حقي توضيح الحقيقة، لما ذكره صديقي عني من خيال. وقد حاول صديقي أحمد

الشامي في ذكرياته أن يظهرني بمظهر الذي ظل يعادي الأستاذ نعمان، ويُظهر نفسه في مظهر الذي ترفّع عن ذلك بعد سقوط الجميع في يد الطاغية، وهذا نوع من اللمز في حق صديقه، فخلال نشاطنا الوطني كان الخلاف بيننا على أسلوب قيادة الحركة الوطنية، لا على أهدافها، وبعد سقوط ثورة 48 الدستورية ووقوعنا جميعا في قبضة الإمام انتهى الخلاف بيننا وبين الأستاذ، وبقيت المبادئ المشتركة، وكنتُ ممن يثقون به، ويراسلونه، ويأمنونه على ما نكتبه من آراء، ومن أبحاث سياسية وتاريخية، وكتاب ابنه الشهيد محمد أحمد نعمان: «من وراء الأسوار» شاهد على ذلك، وسيأتي فيما بعد الكثير عن علاقتي بالأستاذ نعمان، سواء في عدن، أو في سجون حجة، فيما كتبته من ذكرياتي هذه. ثم كيف يستقيم ما يقوله صديقي من استمرار علاقة العداوة بيني وبين الأستاذ النعمان، وهو عميد آل نعمان، ونحن وصديقي الشامي نسلّم للشيخ أمين عبد الواسع نعمان أوراق ما كتبناه من كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية»؟ بخطي وخطه، والأستاذ نعمان لا يزال في زاوية بقيوده التي لا يستطيع معها المشي، وأعتقد أن تلك الأوراق لا تزال محفوظة ضمن أوراق الأستاذ نعمان الأخرى، منذ كان في حجة حتى اليوم.

وكنتُ قد كتبت قبل أن أقرأ ذكريات صديقي مقدمة لكتابنا معا «كيف نفهم القضية اليمنية» الذي نشرته في عام 1986، ولم يكن في نشره حينذاك أي تهديد أو ابتزاز، لا لصديقي أحمد الشامي ولا لغيره، فقد انتهت الملكية التي كان يقف في صفها، وأصبحنا معا جزءا من الجمهورية، وكان فيها أرفع منصبا مني، وليس في الكتاب ما يُعتبر معارضة للجمهورية، حتى يكون تهديدا له. ولعلّ ما أثار صديقي من نشر الكتاب هو رفض الكتاب لنظام الإمامة، وإدانته للأئمة الذين حكموا اليمن أكثر من ألف عام، فقد أصبحت مصالح صديقي الشامي وأفكاره مرتبطة بالإمام والإمامة منذ إطلاقه من سجن قاهرة حجة في عام 1953، وعودته إلى حظيرة الإمام، مستشارا لولي عهده البدر، وهذا يتناقض مع ما كتبناه معا في سجن نافع. وأنقل فيما يلي ما ذكرته في مقدمة كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» عندما نشرته في عام 1986، حول الكتاب، وعلاقتي بصديقي الشامي، جاء في صفحات 49–53 ما

يلي: «إن قصة هذا الكتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» ترتبط ارتباطا وثيقا بالصداقة التي تربطني بصديقي أحمد محمد الشامي منذ الطفولة حتى اليوم، ولكن قدرنا فيما بعد قد شقّ لكل منا طريقا، تختلف عن طريق الآخر، بل تتناقض معه!

لقد جمعتنا صداقة الطفولة والشباب، وجمعتنا زمالة الدراسة والتنافس الخلاق فيها، وجمعتنا ميول مشتركة تتذوق الأدب والشعر، وجمعتنا ثقافة متجانسة لا تقف عند حدّ أو اختصاص معين، وجمعتنا قضية وطنية واحدة كنا نناضلُ من أجلها معا، وإن اختلفت الأساليب، ولكن كان الهدفُ واحدا، وكانت الطريقُ لتحقيق الهدف واحدة، وجمعتنا ثورة الدستور نصرا وهزيمة، وجمعتنا سجون حجة بكل ما فيها من معاناة وقسوة، ثم بدأ القدرُ يشقُّ لكل منا دربا، يتناقض مع درب الآخر.

في سجن نافع كان دربنا واحدا، فاشتركنا في تأليف كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» وفي سجن قاهرة حجة بدأ الدرب الواحد يتفرّع إلى طريقين لا يلتقيان أبدا، إلا إذا تراجع أحدنا عن طريقه إلى النقطة التي افترقنا منها، وكانت بداية الافتراق كتاب آخر، انفرد بكتابته صديق الطفولة أحمد محمد الشامي في سجن قاهرة حجة عن: «شخصية الإمام أحمد». ولم أكن أتصوّر أن هذا سيكون بداية الافتراق، وإنما كنتُ أعتقد أنه وسيلة من وسائل الاستعطاف للخروج من السجن، وكانت هذه الوسيلة مشروعة ما دامت مجرد وسيلة لا تتحولُ إلى هدف يتناقض مع أهداف قضيتنا الوطنية التي ناضلنا من أجلها، ونجحت الوسيلة، وأُطلق صديقي من السجن، والتحق بخدمة ولي العهد البدر، وانقطع عن السجن ومن في السجن، وحدثت حركة الجيش في عام 1955، وجاء البدر إلى حجة، ومعه صديقي، وأيضا الأستاذ أحمد محمد نعمان، وخرجنا من السجن، واعتقدتُ أن درب الجميع لا يزالُ واحدا؛ ولكني اكتشفتُ أن القدر قد شقّ الدرب الواحد إلى دربين، درب يؤدي إلى الثورة، بكل ما فيه من معاناة وأخطار، ودرب آخر يرتبط «بشخصية الإمام أحمد»، وبنظام الإمامة نفسها، بكل ما فيه من يسر ومغانم آنية، وسرتُ في الدرب الأول، وسار صديقي أحمد الشامي في الدرب الثاني.

وفي عام 1956، عندما كنتُ هاربا مشرّدا في عدن، وكان صديقي عضوا في مجلس الاتحاد بين الحكم الملكي الإمامي المتخلف الرجعي في اليمن، وبين حكم الثورة التقدمية القائم في مصر كان صديقي يمثّل الإمام في مجلس الاتحاد بمصر، وكنتُ أنا لا أزال مع قضية الشعب في الاتحاد اليمني بعدن، وأشهد أن صديقي كان وفيا، فقد وصلتني رسالته من مصر، يُذكّرُني بما بيننا من صداقة وروابط، ويعرضُ عليَّ الانتقال من الدرب الذي أسيرُ فيه إلى دربه الذي سلكه هو من قبل، ويقنعني بأن دربه هو الدرب الوحيد الذي يؤدي إلى الهدف الذي آمنا به ولا نزال نؤمن به معا؛ لأن التجارب قد أثبتت أن أسلوب العنف الثوري قد فشل، ولا أمل في نجاحه، وأن أسلوب الإصلاح عن طريق إقناع الإمام هو الذي يؤدي إلى الهدف.

كان هذا هو المعنى الذي احتوته رسالة صديقي، وكنتُ في وضع مادي ومعنوي لا أحسدُ عليه. لقد انتقلتُ من معاناة السجن إلى معاناة التشرد، وكان الاتحاد اليمني في عدن لا يزالُ يعيشُ في المناخ غير الصحي نفسه الذي عايشته من قبل تنظيمات «حزب الأحرار» و«الجمعية اليمنية الكبرى»، وكان هذا المناخ الذي أعيشه كفيلا بأن يقنعني «شخصيا» بصحة القناعات التي اقتنع بها صديقي أحمد الشامي، وحاول إقناعي بها؛ ولكني كنتُ دائما لا أخلط بين قناعتي بموقف يخدمني شخصيا، وبين قناعتي بموقف يخدمُ القضية الوطنية التي آمنتُ بها. وكنتُ قد تجاوزتُ من زمن بعيد مع بقية الأحرار، أو من بقي حُرا مرحلة التفكير في تغيير الأوضاع عن طريق إقناع الإمام بالتغيير الإصلاحي. كانت هذه مرحلة الطفولة الوطنية، كما سماها الأستاذ الزبيري، وقد تجاوزناها من زمن بعيد، تجاوزناها قبل أن نصرع الطغيان الكهنوتي في شخص الإمام يحيى بالعنف الثوري، وسيبقى العنف الثوري هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الطغيان.

لقد أيقنا باستحالة أي إصلاح على يد الطاغية، فالبالوعة العفنة لا تنبت زهورا تنفث العطر. صحيح أن طريق الثورة مليء بالأشواك والمخاطر.. إنه طريق المعاناة؛ ولكنه الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف الوطنية، وأجبت على صديقي أحمد الشامي

برسالة لا أذكر الآن محتواها، ولكنها اشتملت على قناعاتي، وذكّرته بأن هذه القناعات هي قناعاته التي جمعتنا في كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» وهي قناعات آمنّا بصحتها عندما كنا نعيشها بتجرد كامل من المصلحة الذاتية. أما الآن فإن التجرد لم يعد موجودا بعد أن حلّت محله «المصلحة الذاتية» عندما أصبحت الظروف مواتية. قلتُ لصديقي: إذا كنتَ قد آمنت بشخصية الإمام أحمد فإنني لا أزال مؤمنا بأهداف كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» الذي كتبناه معا. وكان هذا الكتاب حينذاك لا يزال مفقودا، ولم أعثر عليه إلا بعد أن قضت الثورة على الإمام والإمامة، ليحلّ محله النظام الجمهوري. ولكن الدرب الذي تفرّع إلى دربين ظلَّ يفرّق بيني وبين صديقي أحمد الشامي، أنا جمهوري، وهو ملكي.!

ومرّت الأيام والشهور والأعوام حتى التقينا من جديد، لقد انتصرت الثورة والجمهورية إلى الأبد، وانتهت الملكية والإمامة إلى الأبد أيضا. وهكذا تراجع صديقي عن الدرب الذي سار فيه بعيدا عن دربي، تراجع إلى نقطة الافتراق، ثم سار في الدرب نفسه الذي كنتُ أسيرُ فيه مع الأحرار من الجيلين الأول والثاني، ومع الشباب الثوري الحر الذي أفرزته الأجيال الجديدة، حتى طلع فجر الثورة بعد ليل طويل، استمر عشرات السنين، وانتهى إلى غير رجعة في صباح يوم مشرق لا ينتهي نوره إلى الأبد. كان ذلك في صباح يوم 26 سبتمبر سنة 1962 . لقد التقيتُ مرة أخرى مع صديقي أحمد محمد الشامي بعدما أصبح جمهوريا، وأرجو ألا نفترق أبدا.

صديقي الشامي خيانة ذاكرة أم عدم وفاء

صديقي أحمد الشامي شخصية يمنية قوية، من أبرز الشخصيات اليمنية في التاريخ اليمني الحديث، ويمتلكُ مواهب وقدرات ذاتية، أستطيع أن أقول إنها غير عادية، وقد بلورتها وأطلقتها ثقافته الواسعة في الأدب والشعر والفلسفة، وتبحُّره في علوم الدين والتاريخ، فهو أديب ناقد، وكاتب مبدع، وهو شاعر متمكن، وعالم ومؤرخ. وهو مع ذلك سياسي ديناميكي النشاط والحركة، سريع البديهة، عميق

التفكير، قوي الحجة والمنطق في الحوار، قادر على التأثير، كفء في تصريف الأمور، يتمتع بصفات الزعامة. شخصية بهذا الحجم لا بدّ أن تكون طموحاتها المشروعة في الوصول إلى القمة، ومن حقه ذلك، ولكنه بعد فشل ثورة 48 الدستورية، ووقوعنا جميعا أسرى في سجون الإمام أحمد، قدّر بعد أن نجا من الإعدام أن طموحاته لن تتحقق إلا من خلال موقع ملائم في حكم الإمامة الملكية، وبدأ يسعى للوصول إلى هذا الموقع بعد انتقالنا من سجن نافع إلى سجن قاهرة حجة.

بحكم ما بيننا من علاقات لا حدود لها، كنا نتناقش في كل شيء، صغير وكبير، وقد سألته مرة: من هو مثله الأعلى من الزعماء؟ فأجابني بدون تفكير: «فرانكو ديكتاتور إسبانيا»؛ ولم أسأله لماذا؟ وأظنُّ أنه احتمل أنني قد فهمت أبعاد ردّه على سؤالي. وهذا ما حدث بالفعل، فقد فهمتُ أنه يسعى لكسب ثقة الإمام والخروج من السجن، وخدمة ولي عهده، ومن هذا الموقع يصل إلى القمة، كما فعل فرانكو في إسبانيا، فمن خلال موقعه في الجيش تولّى إخماد الثورة الشعبية في إسبانيا ضد الملك والملكية، وبعد أن أخمد الثورة نفى الملك وأسرته، وأصبح فرانكو حاكم إسبانيا الديكتاتور، وقبل أن يموت أوصى بعودة النظام الملكي إلى إسبانيا، وحلت الملكية الديموقراطية محل حكم الديكتاتور بعد موته!

وفي تقديري أن صديقي أحمد الشامي كان يمكن أن يحقق طموحاته المشروعة الفرنكوية لو أنه فهم أن لعبة «الجنرال» فرانكو لعبة عسكرية، بينما ينبغي أن تكون لعبة «المستشار» الشامي لعبة سياسية، وهي لعبة لا يمكن أن يلعبها وحده مع البدر، ولا يلعبها مع الحسن والحسين، وإنما يلعبها ومعه كل من لعب معهم اللعبة السياسية الفاشلة في ثورة 48 الدستورية ومن أتى بعدهم، فهذا هو مناخه الذي بدونه لا مناخ له، فلماذا حاول أن يلعب اللعبة السياسية وحده؟! هل رغبة «الاحتكار» وخُلة «البخل» وحب «التفرد» من صفات قيادات ثورة 48 الدستورية؟!

ورد في ذكريات صديقي ذكر أحداث يظهر أنها تشابكت مع أحداث أخرى، ولم تستطع ذاكرته أن تتبيّنها ربما بسبب مرور الزمن، فاختلطت عليه في الذاكرة،

ولذلك لجأ إلى التخمين، وكتبها بأسلوب الخيال القصصي، لا بأسلوب المؤرخ الموضوعي، وبتأثير موقفه الملكي السابق، لا موقعه الجمهوري، وفيما يلي بعض تلك الأحداث:

- **حادث التفتيش في سجن قاهرة حجة**: أورد صديقي الشامي في صفحتي «366-367» من كتابه «حادث التفتيش» الذي حدث في سجن قاهرة حجة، وهو حادث حقيقي، ولكن صديقي الشامي ذكره بتفاصيل لا صلة لها بما حدث فعلا، وأورد فيها من الحوار معي ما لم يحدث على الإطلاق، وليس فيما رواه صحيحا إلا المقدمة التي ذكر فيها ما يلي: «وذات يوم جاء تحذير من السيد حمود ابن نائب حجة أو أخيه محمد إلى القاضي عبد الرحمن الإرياني، يقول إن الإمام أمر بتفتيش السجن، فلنكن حذرين إن كان ثمة أوراق أو مراسلات يخشى عليها».

هذا هو الصحيح فيما رواه صديقي عن حادث التفتيش؛ أما ما جاء بعده فقد التبس الأمر عليه، فذكر ما لم يحدث قائلا: «وخلال ساعة وصل وكيل الإمام الشيخ يحيى العجا، واتجه رأسا نحو مكاني وفتش أشيائي، وأخذ صندوقي وأوراقي، ثم اتجه إلى مكان محمد الفسيّل وفتّش أشياءه، ولم يكن يملك صندوق أوراق!، ولم يتعرضوا لأحد غيري وغيره، ولم يكن أحد يعلم أني قد هرّبت «الكتاب» إلى صنعاء، وبعد وصول تحذير ابن نائب حجة كنتُ قد نظّفتُ الصندوق، وأفنيتُ بعض الأوراق، ولم أُبق غير مسودة كتابي «شخصية الإمام أحمد حميد الدين»، وبعض القصائد في مدحه، وقد انتفعت بما صنعت، وكما يقولون: «رب ضارة نافعة».

ويومها ذهبت الظنونُ بالفسيّل كل مذهب، وقد زعم أن أحمد نعمان هو الذي وشى بنا إلى الإمام، وكان الإمام قد أخرجه من السجن وضمَّ إليه زوجته وأولاده، وعينه أستاذا في مدرسة حجة، وقد جادلتُ الفسيّل وقلتُ له: إنّ ابن النائب هو الذي حذّرنا، وهو تلميذ الأستاذ نعمان، ورفيق ابنه محمد، ولا شكّ أنهما اللذين أوعزا إليه بتحذيرنا، فقال الفسيّل: إنما أراد نعمان تحذير الإرياني وأصحابه داخل الدار، وقد كان من حسن الحظ أن جاء الرسول وأنت في مكان الإرياني، فعلمت وبادرت فأنذرتني، ولو لم تكن هناك لما أنذرونا. فقلت: وماذا سيجنون من وراء ذلك؟

قال: «رأسي ورأسك لو اطلع الإمام أحمد على الكتاب»، فاسترجعتُ وحوقلت، ولم أورّط نفسي في سوء الظن بالناس، وحمدتُ الله على ما حدث، فقد كان ذلك من أسباب إطلاق سراحي، لما اطلع الإمام على كتابي وقصائدي فيه» انتهى.

هذا ما رواه صديقي أحمد الشامي عن حادث التفتيش بتفاصيل دقيقة وحوار و«حوقلة»، ويؤسفني أن أقول إن ما رواه صديقي لا أساس له من الصحة إطلاقا، فلم يأتِ العجا خلال ساعة ويفتّشُ مكاني ومكانه فقط، ولذلك فلم يكن هناك أي صحة لما دار بيني وبينه من حوار. أما الذي حدث فإن وصول أي خبر عن تفتيش السجن كان يُعمّم على جميع المساجين في الحال، وهكذا أصبح الإنذارُ بالتفتيش معروفا لدى جميع المساجين حال وصوله. وقد قام السجّانون بتفتيش كل أمكنة المساجين، ولم يجدوا شيئا؛ لأننا كنا قد تصرّفنا قبل التفتيش؛ أما العجا فقد جاء إلى سجن قاهرة حجة بعد ثلاثة أيام في مهمة أخرى، وليس للتفتيش. وهكذا نجد أن ذاكرة صديقي الشامي في ذكرياته كثيرا ما تخونه، فيلجأ إلى التخمين والخيال القصصي، ليمدح نفسه و«يحوقل» من خلال ذم غيره!

وما دمت أنا المفترى عليه في رواية صديقي الشامي عن حادث التفتيش، فإنني أترك لصديقي وصديقه أحمد عبد الرحمن المعلمي رواية الحادث كما حدث، لا كما «تخيّله» صديقي الشامي؛ فقد ذكر المعلمي في كتابه: «الصديقان الإرياني.. والمعلمي» حادث التفتيش وأنقلها بالنص بعنوان: «صورة من صور الرعب»، حيث أكد الصديق المعلمي ما ذكرته من أن التفتيش تم من قبل الرسَم «حرس السجن» على جميع غرف المساجين، وليس من قبل العجا، وأن العجا جاء بعد أيام إلى سجن قاهرة حجة، لا للتفتيش، وإنما لأخذ مجموعة من أغلفة قنابل المدافع، وهي من النحاس، لتحويلها إلى عملة نقدية معدنية، جاء في كتاب صديقنا المعلمي ما يلي[1]: للدلالة أذكر هنا صورة من صور الرعب، وهذه الصورة

(1) لمزيد من الاطلاع، انظر: أحمد عبدالرحمن المعلمي، «الصديقان الإرياني.. والمعلمي»، ص 247-252.

لهـا صـور عـديدة مماثلة؛ لكنـي اختـرتها لا لكونهـا أعظم أو أشـد مـا توقـعناه، ولكن لطرافتها وغرابتها، ولسبب آخر سأذكره فيما بعد وفي الـمستقبل ربما أنقلُ إلى القُراء ما يشابهها في الـمرارة والفزع والتوقع.

كنا نكتب ونقول الشعر ونقرأ الكتب، وتمرُّ علينا فترات نشعرُ بشبه اطمئنان، وكنتُ والأستاذ محمد الفسيّل والأستاذ الـمروني وغيرنا، كل واحد يحتفظُ بمذكرات مثيرة، وكنا قد قمنا بتدوين وثائق، وقصائد ومقالات، وكشفنا عن أسرار، وعن علاقات بمن في عدن أو صنعاء أو إريان أو تعز، وكان لنا تحريضات ومحاولات ودعوة إلى مواصلة النضال، وإثارة الشباب وبث الوعي، ومعنى كل هذا لو وصل إلى الإمام فإنها القاضية، بينما نحن في كامل الاطمئنان والأمن؛ إذ حدث ما أزعجنا أولا، ثم أرعبنا رعبا شديدا. فاستمعوا للقصة: دخل علينا واسطتُنا في تلك الفترة، وبدا لنا أنه سينذرُ بشر، فقد كان الانفعال باديا عليه، رغم حرصه على التمسك بالهدوء، وسلم إلى القاضي عبد الرحمن وريقة، كانت عبارة عن إشعار من السيد محمد ابن نائب حجة رحمه الله يقول: حذّروا الإخوان حالا، فقد وصلت شفرة من الإمام آمرا بالتفتيش، بعد أن بلغ الإمام من مصدر يثقُ به، أن الـمساجين يكتبون ويراسلون، وأن الـجرائد تدخل إليهم و....، وهذا على غفلة من «الرسَم». ويضيف الإمام: ابعثوا إلينا بكل ما يُعثر عليه بحوزتهم. هذا ملخص ما حمله إلينا واسطتنا أطال الله في عمره، فهو لا يزال حيا؛ فقمنا في فزع نجمع ما عندنا ثم أين نذهب به؟! ولم يكن عندنا الوقت الكافي، ولاسيما ونحن محاطون بالحرس. ثم إنه يجب الإسراع مع الاحتفاظ بهدوء الأعصاب، وألا يظهر علينا الارتباك، وأن نبدو عاديين. كان الوقت قرابة الحادية عشرة صباحا؛ أي قبل الظهر، فجمعنا كل ما عندنا ولففناه بقطع من قماش وهو الأهم، وما عدا ذلك فأتلفناه في الـمرحاض وما لفننا في قطع القماش التزم الأستاذ الفسيّل بحفظه في مخبأ لا يهتدي إليه أحد فيما بدا «لعبقريته»، ومع لوثتنا الفكرية وقلقنا النفسي وانزعاجنا الـمكبوت، ونظرا لأن الأمر يحتّم السرعة سلّمنا «الرزمة» إليه، وقام هو بحركة تمثيلية تظاهر بها، وخرج من غرفتنا قاصدا غرفته التي يأوي فيها مع بعض الزملاء، وكنا قد نشرنا الخبر سرا، بحيث وصل إلى كل

واحد منهم، ليأخذ كل واحد حذره وبسرعة، فإذا وقع التفتيش مباغتا ولم يعثر على شيء تبيّن للإمام أن ما وصل إليه ليس إلا مجرد وشاية. وكان يوجد ممر، لا يدخل إليه الضوء بكامل حريته إلا في بعض أوقات النهار، كنا نستطرق هذا الممر يوميا، ولأكثر من مرة، وكان يوجد فيه ما يشبه «المواسير» «خراطيش» نحاسية مركومة من أرضيته إلى سقفه، يقرب عددها من مئتي «خرطوشة»، وكانوا يسمونها «معابر» وكانت خالية، وقد قالوا لنا فيما قالوا: إنها من «خراطيش» المدافع الإيطالية التي استُعملت في الحرب العالمية الثانية 1939-1944، لا أدري كيف كان الحصول عليها ولا كيف نُقلت ولماذا، إلا أننا عرفنا فيما بعد -كما كشفت لنا حادثتنا التي سنشرحها- بأن الإمام أمر بشرائها.

ذهب الأخ الفسيّل إلى هذه «الخراطيش» في غفلة ووضع «اللفافات» في أحد هذه «الخراطيش»، بعيدا عن متناول أية يد، وكانت «الخراطيش» ضخمة وقابلة للتسلق لمن يكون في حجم الأخ الفسيّل، وعاد مرتاح البال، متهلل السريرة، فقد نجح -كما يبدو- في مهمة هي من الصعوبة بمكان، نظرا للسرعة التي يقتضيها الموقف؛ إذ ليس أمامه غير هذا العمل، وإلا فقد كنا أحيانا ندفن في الأرض، وأحيانا نتمكّن من الإرسال إلى الخارج، أعني خارج حيطان السجن وأسواره، وكانت لنا أكثر من وسيلة، ولكن الوقت ضيق والمباغتة منتظرة بين دقيقة وأخرى.

وارتاح بال كل واحد منا لما قام به الفسيّل، وكان التفتيش بدقة وعبث ومباغتة، كما بدا للمفتشين. وقد اجتهد حراسنا كعادتهم في كل ما يؤمرون به، فإذا أمروا بالتشديد على أحد منا، نال الآخرين بعض أذاهم، اجتهادا، وإذا أُطلق سراح واحد يتوقعون الإفراج عن آخرين، فيخفّفون من وطأتهم؛ أما إذا أُعدم أحد منا فيا ويحنا...! وقد اجتهدوا وكرروا التفتيش، وكنا باجتهاداتنا نتوقّع ذلك منهم، فلا نطمئن إلا بعد مدة قد تطول، وقد تقصر، بحسب مقاييس وأحاسيس ومفاهيم معينة، ومضت ثلاثة أيام، وتأتي المفاجأة اللعينة والصدفة الغريبة، كان يحيى العجا الوكيل المالي للإمام في حجة هو من يعتمد عليه. هو الذي يحتفظ للإمام بكل شيء مخزون، وعليه مراقبة كل شيء، وحتى ما يُعطى لنا كقوت، كان يأتي عن طريقه، وبأوامره،

وكان للإمام أمينا، ومخلصا أكثر من اللازم، ولهذا ائتمنه على كل شيء يملكه في حجة.

جاء يحيى العجا، ومعه جماعة من العسكر العمال، وفتح له حراس القلعة «قاهرة حجة» أبوابها بترحاب، واتجه بمن معه إلى ذلك الممر الذي يهمنا كثيرا ما فيه، وقلنا في أنفسنا: ربما جاء لتفتيش تلك «الخراطيش» أو إعادة تفتيشنا، وإذا به ومن معه لم يفتشوا، وإنما جاءوا لغرض آخر. يا للعجب.. ماذا؟! ونحن في أماكننا محتجزون مُسمّرون لا يسمح لأحد منا بالحركة، فقد زار سجننا العجا، وهو ممثل الإمام، ولا يصل إلى السجن إلا لأمر هام، وقد سبق له أن حضر إلى ساحة «قلعتنا» عندما أعدم فيها من أعدم، فهو لا يحضرُ إلا في المناسبات الهامة جدا والسيئة جدا، لم يدخل إلى أية غرفة ولا كلّم أحدا منا، ولا التفت إلى أحد من الحُرّاس، لا من صغارهم ولا من رؤسائهم، فالتقطيبُ من طباع بعض من يصلون إلى السلطة، والغطرسة لازمة في بعض المواقف، لتزيد من الهيبة ورفع الشأن. كان اهتمامُه مُركّزا على «الخراطيش تلك التي تشبه المواسير النحاسية»، فأمر بنقل عدد منها بسرعة إلى «دار سعدان»، دار الإمام في مدينة حجة، ورأيناهم من النافذة يحملون بعضها، وكانت الواحدة قد لا يحملها إلا ثلاثة متعاونين لثقلها، هنا نترك للقارئ أن يتصور مقدار فزعنا ورعبنا، وما بيدنا لا حول ولا قوة. إن أوراقنا ستصبح – ولا شك– بين يدي صاحب الجلالة الإمام، يا للهول ماذا سنلاقي؟! وكنا نخشى أن تقع «اللفافات» أرضا وتسلّم ساعتها للعجا الذي سيتصرّف مبدئيا قبل الرجوع إلى مولاه، وإبلاغه بكل شيء، ومضى العمال في مهمتهم، وما كادوا ينقلون أكثرَ من ربع الكمية حتى أمرهم بالتوقف، وقال: في ذلك الكفاية، وخرج بمن معه، لم نتنفس الصعداء، فالراجح أن الأوراقَ خرجت فيما خرج، واحتمال بقائها في إحدى «الماسورات» المتبقية احتمال ضئيل. إن التشاؤم هو الذي ينبغي أن نحسب له حسابه، والآن علينا ألا نيأس من رحمة الله، فلعلّ، وربما، ولكن ما هو السبيل إلى البحث ولا يزال تحركنا مراقبا؟ حالة نفسية عصيبة، وفترة امتحان مريرة، وما منا من يعرف مكان الأوراق، ومن سنحت له الفرصة بمرور انفرادي بجانب «الخراطيش»

المتبقية إلا وتلمّس بعضها، بحثا سريعا عن الأوراق، ويعود في كل مرة خائبا، ويزيد ذلك من قلقنا ورعبنا، وتتصاعد توقعاتنا ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، وكانت المواسير لم تعد على وضعها الأول، فالعاشرة لم تعد مكانها، والصف الأول من فوق قد زال تماما، ومن جانب آخر قد حملوا كمية ربما كانت الأوراق فيها، وبقينا أياما نضربُ أخماسا في أسداس، وهدأت رغبة الحرس التفتيشية، وخففوا من رقابتهم، أو على الأصح ملُّوا، وذلك ما مكننا من البحث بدقة، فعثرنا على ماسورتنا المفضلة، وحمدنا الله على حفظها، وتنفّسنا الصعداء، ولكن بعد أن كان التوقّع أشد من الوقوع، وبادرنا بتهريب الأوراق إلى خارج السجن، والذي عرفنا فيما بعد أن تلك المواسير النحاسية أُخرجت لغرض هام، فقد صارت بيد الناس «عملة» مسكوكة متداولة، تحمل اسم «صاحب الجلالة» ولقبَه، «بُقش ونصف بُقش». انتهى

هذا ما رواه صديقي وصديق صديقي عن حادث العجا والتفتيش، أوردتُه كاملا لأبيّن به عدم صحة ما رواه صديقي الشامي عن تفتيش العجا له ولي، وعمّا رواه عني في روايته غير الصحيحة. هذه رواية صديقي المعلمي الصحيحة لحادثة التفتيش، وتلك رواية صديقي الشامي للحادثة نفسها، فهل خانته الذاكرة؟ أم خانه الوفاء لصديقه، فشهد في روايته للحادثة زورا، وتقوّل على صديقه أقوالا لم يقلها، بقصد الإثارة لما تجاوزناه، وتجاوزه الزمن! وهي إثارة من آثار موقعه الملكي السابق لا من آثار موقعه الجمهوري اللاحق.

وما دام صديقي الشامي قد روى حادث التفتيش رواية غير صحيحة لبث «الحزازات» بين الجمهوريين، فلا بدّ لي أن أذكر حادثا جعلني أتشكّك في صلة الأستاذ نعمان به، برغم أننا كنا قد تجاوزنا كل خلافات الماضي، وأصبح الأستاذ نعمان من نأتمنه على أسرارنا وأوراقنا السياسية والتاريخية. وقد ذكرت في هذه الذكريات قصة تأليف كتاب «الرجل الشاذ» الذي كتبتُه ضد ولي العهد أحمد، قبل أن يصبح إماما، وطُبع في عدن أواخر عام 1947، وقيام الأستاذ نعمان ببيع جميع نسخه من ولي العهد، بواسطة المرحوم حسين الويسي وكيل ولي العهد السياسي في عدن حينذاك. وبعد نقلنا من سجن نافع إلى قاهرة حجة بفترة، طُبع كتاب

«الرجل الشاذ» في الخارج طبعة جديدة من دون علمي، وفي شهر جمادى الثانية 1372هـ- 1953، أرسلت برقية مراجعة إلى الإمام أشكو فيها الأمراض وأرجو نقلي إلى مستشفى حجة فجاء رده: «من الإمام إلى محمد الفسيّل عافاكم الله.. كم بقي لديكم من نسخ الرجل الشاذ»؟! وبعد هذا الجواب بلغني أن هناك في الخارج من طبع الكتاب طبعة جديدة، فظننت أن للأستاذ نعمان يدا في ذلك، وهذا يضرني ضررا شديدا، ويثيرُ غضب الإمام عليّ؛ بل شعرتُ أنني لم أعد تحت رحمة الإمام، وإنما تحت رحمة الأستاذ نعمان، فكتبت له رسالة، وأجاب عنها، وقد نشرها الأخ علي محمد عبده في كتاب «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»، وهو من أكثر محبي الأستاذ نعمان، ونشر معها رد الأستاذ نعمان في صفحات (282-284)، كما نشر رسائل عدة لي وأنا في السجن إلى الأستاذ نعمان، وذكر في كتابه «أنه اطلع على رسالة من الجبلي إلى الإمام أحمد يخبره فيها أن الأحرار في الحبشة أعادوا طبع الكتاب، وأن الذي أشرف على طبعه أخبره بذلك، وقد وافق على عدم توزيع الكتاب، وتسليمه إلى الجبلي مقابل ألف جنيه استرليني». انتهى.

وقد أخبرني الأخ حسن السحولي عام 1998 في القاهرة أن الذي أشار بطبعه، ودفع تكاليف الطبع هو الأخ أحمد محمد باشا، بحسن نيّة، وأن الذين قاموا بطبعه أحمد عبده ناشر وبعض زملائه، وهم من أنصار الأستاذ نعمان، وهكذا نرى أنهم قد استلموا تكاليف الطبع، ثم باعوا نسخ الكتاب بألف جنيه من الإمام بواسطة الجبلي، وأمرهم إلى الله. وقد أشرتُ في ديواني الذي طبعته في 1 يونيو 1999 إلى الرسائل بيني وبين الأستاذ نعمان، حول طبع الكتاب مع قصيدة في مدحه مطلعها:

أنت يا أيها الزعيم ملاك
طاهرُ الروح، مشرق وجدانُه

وقد سبق في هذه الذكريات ذكر نص رسالتي إلى الأستاذ حينذاك، ونص رده على الرسالة.

- **محمد الفسيّل وفكرة الانتحار**: هذا هو العنوان الذي أورده صديقي الشامي في ذكرياته، وهو حادث مختلق لا أصل له قط. وتحت هذا العنوان ذكر

صديقي أحمد الشامي أشياء كثيرة، منها اشتراكنا في كتابة كتاب اسمه «لـــــــو» في سجن نافع، واشتراكنا في كتابة كتاب: «كيف نفهم القضية اليمنية» ولم نكن قد وصلنا فيه إلى ذكر المشايخ، بمن فيهم مشايخ آل نعمان، ولا سلاطين الجنوب، حتى يلفق صديقي ما ذكره عني من هجوم ضد الظلمة من مشايخ بيت نعمان، وضد غيرهم؛ لأننا لم نكن قد ذكرنا في كتابنا هؤلاء المشايخ؛ ولكن صديقي أراد أن يمدح نفسه، ويلمز من حق صديقه، ويثير الحزازات بين من ظلوا على المبادئ الوطنية. ثم عاد إلى موضوع العنوان، وذكر عني في قصة مختلقة، لا أساس لها من الصحة، ذكر في كتابه أنني حاولتُ إقناعه بأن ننتحر عقب إعدام حسين الكبسي، وأحمد الحورش، ومحيي الدين العنسي، ومحمد صالح المسمري في يوم الجمعة من شهر رجب سنة 1367هـ-1948، لا خوفا من الإعدام، ولكن خوفا من التعذيب والصلب، كما قال إنني قلتُ ذلك له، وهذا لا أساس له من الصحة، لعدة أسباب:

أولا: أنني لا يمكن أن أفكّر في الانتحار في أي ظرف من الظروف، لأن الانتحار محرّم في الإسلام، ومصير من يقتل نفسه النار. وثانيا: أن انتحار الإنسان يدلُّ على الجبن والخور، وأنا لم أكن في حياتي جبانا ولا خوّارا، ولم أصل مع الأسرى الآخرين إلى حجة إلا وعندي إرادة جبارة لمواجهة أي شيء ينزله الطاغية بي. وثالثا: إن الإمام لم يكن يعذّب أحدا من المساجين في ذلك الوقت، فقد كان يجرّهم إلى ساحة الإعدام من دون تعذيب، فمن أين جاء لصديقي في ذكرياته أنني لم أكن أخاف الإعدام، وإنما كنتُ أخاف التعذيب الذي لا وجود له؟! وقد ساق صديقي الشامي هذه الرواية التي نسبها إليّ بأسلوب خيالي قصصي، لا يمت للحقيقة بصلة، وبدأ الرواية الخيالية بأنه كان يؤمّنا في الصلاة، وختمها بصلاة الوتر وتلاوة الورد، ونزول الوحي عليه في الرؤيا...!!

وأسوق فيما يلي ملخص القصة الخيالية التي رواها عني وعنه في ذكرياته بأسلوبه الأدبي الخيالي الرائع، وكما يقولون في الشعر «أروع الشعر أكذبه» يمكن أن

نقول: أروع الخيال أكذبه. وقد بدأ صديقي الشامي قصته الخيالية بعبارات تدلُّ على مدح بطل القصة، تمهيدا لتصوير بطل القصة في أبشع صور الجبن والخور والجهل والغباء، فقد خاف أن يموت شهيدا بسيف الطاغية، لتصعد روحه إلى الجنة، وفضّل الموت بشفرة، ينتحرُ بها وتصعد روحه إلى النار...! ولا أدري أي دوافع دفعت كاتب القصة أن يختار لصديق عمره من الطفولة إلى الشيخوخة هذا المصير البشع، بعد أن جعله بطل قصته في اليقظة، وفي «الرؤيا» معا...! وفيما يلي أنقلُ ملخص القصة الخيالية التي لا أساس لها إطلاقا، المنشورة في ذكريات صديقي الشامي، كما صاغها بأسلوبه الأدبي الخيالي، من صفحة 368 وما بعدها، وملخصها كما يلي: عنوانها: «الرؤيا التي أنقذتني من النار».. وبدأها بالآتي:

- «الفسيّل حلو الحديث، ماهر في الإقناع، لا يهابُ الجدل ولا إثارة المخاوف، وعندما كانت الرؤوس تتطايرُ، وكلّ منا ينتظر دوره، وكنتُ أقيم مع محمد الفسيّل في «طارود» واحد يضمُّ أكثر من خمسة عشر سجينا منهم عبد اللّه الشماحي وإبراهيم الحضراني، وعزيز يعني، وغالب الشرعي، وعلي الغفري، وعلي تلها، ومحمد الحلبي، وكان مرقدي في الزاوية الشمالية؛ أي القبلية، ولذلك وبحكم موقعي فقد كنتُ أؤمُّ الإخوان في صلاتي المغرب والعشاء».
- ثم سرد القصة التي لا أساس لها، وذلك أنني تسلّلتُ إليه في الليل، وأقنعته بأن ننتحر الاثنين، لا خوفا من الموت، ولكن خوفا من التعذيب، وساق تفاصيل كثيرة حول الموضوع. ثم ذكر أنه نام ورأى في المنام ما أعتقد أنه النبي الخضر وحذره من الانتحار، وقرأ عليه آيات من القرآن، وتحاور معه حول هذه الآيات. وأنه استيقظ وأخذ يستغفر ويحوقل، وكان في تلك الليلة لم يصلِّ الوتر، فقام وصلّى الوتر، وتراجع عن فكرة الانتحار بتلك الرؤيا التي جاء له فيها النبي الخضر، وكان يشبه عمه عبد الرحمن...! وأنني جئت إليه قبل صلاة الفجر، وقلتُ له: إنني أعددتُ له كل شيء للانتحار، شفرة الحلاقة التي يقطع بها كلّ منا وريده، وأحضرتُ أيضا «الدست» وهي كلمة

تركية، تعني إناء كبيرا من النحاس، وحاولتُ مرة أخرى إقناعه بالانتحار، ولكنه نصحني بأن أتوب إلى الله، وأبتعد عن هذه الأفكار.. إلى آخر القصة.

ويبدو أن القصة كاملة كان الهدف منها إظهار نفسه بأنه كان يؤمُّ العلماء في الصلاة، وأنه يأتيه الوحي في المنام في شخص النبي الخضر الذي تحاور معه حول آيات القرآن، وأنه استيقظ وصلّى صلاة الوتر، وأنه ردّني عن فكرة الانتحار. وهذا يجعله من أصحاب المعجزات التي كان الأئمة في اليمن ينشرونها عن أنفسهم، مثل الإمام «المظلل بالغمام» والإمام الذي معجزته أنه من أهل الخطوة، ينتقل إلى مكة بخطوة واحدة، ويعود بخطوة واحدة. وهكذا صديقي الشامي يأتيه الوحي في منامه كما سبق، وهي قصة لا أساس لها من الصحة، ولم أجد تعليلا لاختلاقه هذه القصة، إلا أنه اختلقها تحت تأثير هزيمته كملكي أمام صديقه الجمهوري. لا أنكر أن صديقي الشامي كان كاتبا مبدعا، وشاعرا كبيرا، ومؤرخا مطلعا، وباحثا مدققا، لكنني كنتُ أتمنى لو أنه ارتفع في ذكرياته إلى مستواه الرفيع.

لقد حزنتُ كثيرا بعد أن قرأت هذه القصة الخيالية؛ لأن صديق طفولتي وصديق عمري كله أحمد الشامي لم تردّه الصداقة، ولا العلم والثقافة، ولا ملكة الشعر والأدب، ولا الحياء والورع من الإسفاف إلى هذا الحد...! وقد حاولت أن أمنع نفسي من تصحيح بعض الأخطاء في ذكريات صديقي، حفاظا على ما أكنه له من صداقة وتقدير. ولكني وجدت الكثير من أصدقائي ومعارفي يذكرون ما جاء في مذكراته عني، ووجدت أن من حقي تصحيح القصص والحزاوي الكاذبة التي تعمّد بها الإساءة البالغة إليّ؛ لأنني من الجمهوريين السابقين، وهو من الجمهوريين الطلقاء، وسقطت حساباته أمام حساباتي. ومن هذه الأشياء ما رواه عني-كذبا- بأنني قلتُ له: إن الأستاذ نعمان -ونحن في طريقنا معه من إب إلى صنعاء- لحق الشيخ علي محسن باشا إلى المخادر، وهو يقود حملة حينها من إب، وأقنعه بالتأخر حتى يصل هو وزملاؤه الأحرار إلى صنعاء. ويروي صديقي الشامي عني ما يلي:

«وروى لي الأستاذ محمد الفسيّل الذي كان مرافقا للأستاذ نعمان حتى ألقي

القبض عليهم في ذمار أن الأستاذ نعمان قال للشيخ علي بن محسن باشا في المخادر: دع الإمام الزيدي يأكلُ الإمام الزيدي. ثم سيأتي دورنا وننقذ اليمن من الجميع. هكذا قال لي، والله أعلم» صفحة (227) من كتابه «رياح التغيير في اليمن». وهذه الرواية مختلقة، وغير صحيحة؛ لأنني في صحبة الأستاذ نعمان، قد وصلنا إلى إب في الأيام الأولى للثورة، ولم يكن الشيخ علي محسن باشا قد فكّر في التجنيد، أو طُلب منه ذلك، ولم يكن موجودا في مدينة إب عند وصول الأستاذ نعمان ومن معه إليها، ورفض الأستاذ الاقتراح بأن يبقى في إب عشرة أيام، يتم خلالها تجنيد ثلاثة آلاف مقاتل، يزحفُ بهم إلى صنعاء، وقد أسرونا في ذمار، فكيف لم تنقذنا الحملة التي كانت موجودة قبلنا في المخادر كما يزعم صديقي؟! وهكذا روى عني صديقي الشامي رواية، لا أساس لها من الصحة والله أعلم بمراده.

تحقيقات مع بعض المعتقلين وخطأ الذاكرة

كان الإمام يأمر نائبه في حجة السيد عبد الملك المتوكل أن يطلب إليه بعض المُعتقلين للتحقيق معهم، وكان أسلوب التحقيق أسئلة يطلب من المعتقل الرد عليها، لا يصاحبها عنف أو تهديد بالعنف. وقد حقّقوا مع صديقي الشامي أكثر من مرة، وحققوا مع الأستاذ أحمد محمد نعمان مرة واحدة، وحقّقوا مع الشهيد جمال جميل العراقي، وحقّقوا مع المناضل العزي صالح السنيدار، وحقّقوا مع الشيخ محسن هارون. وكانت هذه التحقيقات فردية وفي أوقات مختلفة، ولم تكن -في الغالب- تحقيقات شاملة؛ بل كان التحقيق ينحصر في مواضيع بعينها. ولكن صديقي الشامي في صفحة (347) من ذكرياته: «رياح التغيير في اليمن»، وتحت هذا العنوان أورد حادثا لم يحدث على الإطلاق، فجاء فيه ما نصه: وفي اليوم التالي لإعدام عبد اللّه الوزير والسيد زيد الموشكي؛ أي في 30 جمادى الأولى، الموافق 9 أبريل 1948 وصل إلى سجن نافع خمسة عشر قاضيا وكاتبا من رجال الإمام أحمد الذي كان قد غادر حجة إلى تعز، واستدعوا إلى العشة والأماكن الخارجية في «نافع» بضعة عشر رجلا منا، كنتُ أحدهم، وبينهم الأساتذة: أحمد محمد نعمان،

الـمسمري، والعنسي، والـحورش، وإبراهيم الـحضراني، ومحمد الفسيّل، وعبد اللّه السلّال، ومحمد الـمطاع، ومحمد الغفاري، وحسن العمري، وغيرهم من الزملاء.. ودفعوا إلى كل واحد منا ورقة فيها عدة أسئلة، ووقف على رأس كل واحد جندي، لكي يجيب عن الأسئلة، دون أن يتحدّث إلى أحد من زملائه، أو يشاوره، ولا يسمح له حتى بالاستفسار عن السؤال إذا لم يفهمه.!! ولا أذكر الآن نصوص تلك الأسئلة لكني أظن أنها كانت بصيغة واحدة، وكأنها موجهة لشخص واحد، لا تميز بين من كان في صنعاء أو تعز أو عدن أو مصر، مدنيا كان أو عسكريا، ولذلك فقد حصلت مفارقات غريبة، وكان أهم هذه الأسئلة: من هم الأحرار وما علاقتك بهم؟ وهل كنتَ عضوا في حزب الأحرار؟ أين كنتَ يوم قُتل الإمام الشهيد؟ ومن تعرف من القتلة والـمتـآمرين؟ هل وقّعت على الـميـثـاق الوطني؟ ومن الذي ألّفه؟ ما علاقتك بالورتلاني وبجمال العراقي؟ هل تعرف الزبيري ونعمان؟ وما دورهما في الـمؤامرة؟ من هم الذين كانوا يريدون قتل الإمام أحمد في تعز؟ إلى أسئلة أخرى تبلغ نحو العشرين تدور حول «الـمتآمرين» والأحرار ومنشوراتهم.

وقد أجبتُ عنها جميعا، وأذكرُ أني بدأت الدفاع بخطاب وجهته إلى الإمام، أقول فيه: «إنني أعترف بذنبي، وهو أنني أنكرتُ إحسانكم، وجحدتُ فضلكم، وأيّدتُ الوزير وحزبه، وخطبت وشعرت، وأذعت، وكنتُ معتمد الوزير وكاتب شفرته وإلى آخر ما قمت به من أعمال، وأني -لا شك- أستحقُ أي عقوبة تنزلونها بي، إذا لم يسعنا عفوكم، منّا وإحسانا، والشيء الذي أناشدكم الله فيه الحكمة والإنصاف والعدل هو ألا تؤاخذوني بتهمة مشاركتي في اغتيال الإمام الشهيد يحيى، أو قتل أحد من أولاده، أو الـمؤامرة عليه، فإن ذلك لم يكن. وأنا أطالب بمحاكمتي إذا اتهمني أحد بذلك إلى أي شريعة سماوية أو أي قانون أرضي وسأحاججكم يوم القيامة إذا لم تعملوا ذلك؛ أما إذا كنتم ستأخذونني- وقد فعلتم- بذنوبي الأخرى- وهي كثيرة- فلن يلومكم أحد، وأنا جدير بها؛ لأني لم أكن حصيفا، ولا دينا، ولا عارفا بطبيعة اليمنيين». هكذا قلتُ لأنني أعرف الرجل الكبير.

ثم أجبتُ عن الأسئلة بكل اطمئنان، فقلت: لقد كنتُ أحد مؤسسي حزب

الأحرار في عدن، كما تعلمون، وقد رجعت وصفحتم عني. ويوم اغتيال الإمام يحيى كنتُ في صنعاء، وعملت ما تعرفون من تأييد للوزير وحكومته، وأما القتلة فلا أعرف أحدا منهم، وها هم في قبضة يدكم، وبالرغم من أنهم قتلة، لا تُقبلُ شهادتهم، فها أنا أصدّق أي كلمة تصدرُ من أحدهم، بأنه يعرفني، أو جلس معي، أو حرّضته أو شاركته، وأخشى ما أخشاه أن تصدّقوا خصومي من إخوانكم سيوف الإسلام الكرام، فأنتم تعرفون المنافسات التي كانت بيننا وأسبابها، ويعلم الله أني ما اخترت أن أكون أنا الذي يتولّى إطلاعهم من دورهم إلى القصر وحفظهم فيه إلا خشية أن يقوم بذلك غيري من العساكر والأجلاف، فيلحق بهم شيء من المكروه أو الإيذاء، وهم أهلي ورحمي، والله العالم.

وأما الميثاق فأنا كاتبه، وقد وقّعته مع المئات من العلماء والأدباء، وأعترف أنني قد عملتُ ذلك راضيا مختارا، وأعتقد صحة كل ما ورد فيه؛ بل واقترحتُ أن تكونوا أنتم الإمام الذي تبايعكم الأمة على ما فيه، وقد يكون ذلك من أخطائي، ولكنني أعترفُ أن ذلك ما كان، ولا أدري بالضبط من مؤلفه، ولكن أول نسخة منه اطلعتُ عليها كانت بيد الفضيل الورتلاني، فأنتم من أمرني بمرافقته ومزاملته، وكنتُ أرفع إليكم كل ما يقوم به من نشاط ما عدا الميثاق، فقد تكفّل الأخ حسين الويسي -وهو الآن في مقامكم يعيش- بأنه سيطلعكم عليه، فاسألوه. وأما الزبيري ونعمان فقد كنتُ رفيقهما في الفرار إلى عدن، وكان ما تعلمونه، ولا أعرف لهما علاقة بمؤامرة أو صلة باغتيال الإمام يحيى، وأنتم تعلمون ما كان بيني وبينهم من اختلاف وخصومة أدبية، سياسية، وأقسم بالله أني لا أدري عمن كان يريد اغتيالكم في تعز شيئا، فاسألوا من كان في تعز، إلى آخر الأجوبة. وكنتُ أول من فرغ منها وسلّمها إلى رئيس لجنة التحقيق، السيد عبد اللّه عبد الكريم، صهر الإمام وكان من أعز أصدقائي.

واستمرَّ صديقي الشامي في سرد تفاصيل هذه الواقعة التي لم تحدث قط فقال: ومن المفارقات الغريبة ما دار بين أحد الكتبة المحققين، والشيخ محسن هارون، شيخ بني الحارث، فإنه أميّ لا يقرأ ولا يكتب، فعندما سلّموا له ورقة الأسئلة لم

يفهم ما فيها فقال لهم: ماذا تريدون؟ فأنا لا أعرف القراءة، ولا أحفظ إلا الفاتحة وثلاث أو أربع سور، وأذكار وأدعية الصلاة. فقال الكاتب: من هم الأحرار..إلخ و«الحرُّ» في اليمن هو المكان الأرضي في البيوت، وجمعه «أحرر»، والأماكن السفلية تُخصّص عادة للدواب، والحيوانات والدواجن، والحطب، والحشائش، ولا تُسكن من قبل العوائل، فظن الشيخ- وكان قد جاوز الثمانين- أنهم يسألونه عنها فقال: عندنا في البيت الكبير أربعة: واحد للثور، وآخر للدجاج، والثالث للحطب والرابع للعلف، وأما الحمير والبقر والحبوب فهن يحفظن في «أحرر» خارج البيت. قالوا له: نقصد الأحرار الذين حاربوا الإمام من عدن، وكانوا يكتبون ويوزّعون المنشورات والجرائد ضد الحكومة. قال الشيخ: هذه أول مرة أسمع فيها بالأحرار، والناس كلهم أحرار، مملوكون لله سبحانه. وعندما سألوه عن الورتلاني، وجمال، والزبيري ونعمان، وأمثالهم قال: لا أعرفهم ولا أسمع بهم. قالوا والشامي؟ قال: سيدي عبد الرحمن الشامي، نسب الإمام، الله يطول عمره فيه البركة والخير، قالوا: نقصد أحمد الشامي هذا الذي بجانبك، قال: والله ما رأيته ولا عرفته إلا في «نافع» ثم قال: قولوا للإمام يخاف الله، ويرحم أولادي. انتهى.

لقد نقلتُ آنفا ما ذكره صديقي أحمد الشامي في مذكراته. نقلتُه بنصّه دون أي تدخل، أو زيادة، أو حذف، أو تغيير. وقد استغربتُ أن تخون ذاكرة صديقي ذكرياته، أو يخونها بذكر ما ليس فيها، وقد خان صديقي الشامي ذاكرته مرات عدة في كتابه المذكور، واستغربت أن يروي صديقي الشامي في ذكرياته هذه الواقعة التي لم تحدث قط، ولا أساس لها من الصحة لا من قريب ولا من بعيد، واستغربت أن يرويها بكل تلك التفاصيل، وبحضور سبعة عشر قاضيا، وبذلك العدد من المساجين، وقد حشرني معهم، أو حشرهم معي بدون أن يكون هناك حشر ولا محشر...! أنا أعرف أن من يكتب أو يروي ذكرياته بعد مرور فترة زمنية طويلة قد تتداخل في ذاكرته الأحداث زمانا ومكانا، فيبرزها في غير زمانها أو في غير مكانها، ويبرزها بنقص مُخل فيها، أو يحاول إكمال ما نسيه بذكر ما ليس صحيحا. أما أن يُدخل المتذكّر إلى ذاكرته أحداثا ليست فيها، ثم يرويها على أساس ذكريات من الذاكرة، فهذا يعتبر

تزويرا على الذاكرة، لا تداخل الذكريات الموجودة فيها، وفي هذه الحالة تعتبر شهادته شهادة زور، لا شهادة إثبات. ومما يؤكد ذلك أن العزي صالح السنيدار لم يشر إلى حدوث ذلك، وأن القاضي عبد الرحمن الإرياني لم يذكر تلك الواقعة، وإنما ذكر العزي السنيدار والقاضي عبد الرحمن التحقيقات الجماعية التي ذكرتها هنا، وقد وقعت بعد مرور عام من انتصار الإمام أحمد، وليس عقب إعدام الإمام الوزير، والثائر الموشكي.

أما التحقيقات الجماعية التي حدثت في سجن نافع، فقد تمت في عيد النصر الأول، بتاريخ 7 ربيع الآخر 1368هـ- فبراير1949، فبعد مغرب هذه الليلة استدعى السجّانون الآتية أسماؤهم: الصفي أحمد محبوب، عبد السلام صبرة، حسن بن حسن العمري، عبد اللّه بن يحيى السلّال، السيد محمد المطاع، السيد أحمد محمد الشامي، عبد اللّه عبد الوهاب الشماحي، العزي صالح السنيدار، السيد أحمد حسين المروني، السيد محمد بن حسين عبد القادر، السيد غالب الشرعي، القاضي علي محمد السنيدار، السيد عبد القادر أبو طالب، محمد عكارس، غالب سرّي، الحاج حزام المسوري.

هؤلاء هم من تم استدعاؤهم في تلك الليلة، والأمر بالتشديد عليهم وتفريقهم والتحقيق معهم، وكان المحققون معهم ثلاثة قضاة أو ثلاثة أشخاص، وصلوا إلى السجن وهم: السيد عبد الله عبد الكريم- السيد أحمد جحاف- النقيب زامل. هؤلاء هم الحكام الذين حضروا لاستنطاق المساجين، وبعد الاستنطاق أمر الإمام بجلد أربعة منهم، جلدا مبرحا، حتى يعترفوا بالحقيقة وهم: أحمد حسين المروني، أحمد محمد الشامي، العزي صالح السنيدار، محمد عكارس. وقد تم جلدهم لمدة خمسة أيام؛ إذ كانوا يستدعونهم إلى سطح عشة ناصر علي جرامة، الذي كان يقوم بجلدهم، وقد أحدث ذلك ردّ فعل عنيفا لدى الناس ضد الجلد وتعذيب المساجين، الأمر الذي جعل ناصر علي جرامة يقوم بجلدهم داخل السجن، بدلا من سطح العشة، وكان جلدهم في هذه الحالة صوريا، بعد أن يكونوا قد لبسوا ما يقيهم من عصا الجلاد. وقد بلغنا حينذاك أن نساء من حجة ذهبن إلى زوجة ناصر

علي جرامة، وإلى زوجة مدير السجن علي الحاشدي وحذرنهن من عذاب الله ونقمته، وأن زوجة ناصر علي جرامة جاءت بأولادها إلى باب السجن، ورمت لزوجها مفاتيح البيت بعد أن قرّرت مغادرة حجة إلى بيت أهلها في منطقة الحيمة، ولم تتراجع إلا بعد أن أقسم لها بألا يجلد المساجين جلدا موجعا، وقد أمر الإمام بوقف جلد المساجين بعد أن أبلغه نائبه بأن من الحكمة عدم تعذيب المساجين؛ لأن الناس يستنكرون ذلك. هذا هو ما حدث بالفعل في عيد النصر الأول 7 ربيع الآخر 1368هـ- فبراير 1949، كما عايشته بنفسي، وكما ذكره المناضل العزي السنيدار.

وكنتُ أعتقد أن الإمام أحمد عقب انتصاره سيهتم بالتحقيق مع المعتقلين قبل أن يباشر المجازر في حجة وصنعاء وتعز؛ لأن التحقيق عادة هو البداية لمعرفة الكثير من المعلومات التي يستفيد منها المنتصر على المنهزم؛ ولكن الإمام أحمد لم يهتم بالتحقيق، وكانت رغبته في إعدام من أعدمهم بأسرع ما يمكن هي التي جعلت التحقيق معهم غير ذي أهمية لديه. وأنا أميلُ إلى أن أسباب ذلك، أو أهم الأسباب هي:

1. تجمّعت لدى الإمام أحمد من قبل ومن بعد انتصاره معلومات كثيرة عن المؤامرة والمتآمرين، وصار لديه قناعة بأن ذلك يكفي للإسراع بإعدام خصومه، بدون حاجة للتحقيق معهم .
2. سياسته التي اتبعها طيلة حياته في الحكم هي اتخاذ إجراءات عنيفة صارمة، تجعله شخصية رهيبة مخيفة لا تُقاوم، وكان بحاجة إلى أن يعدم أكبر عدد من أعدائه عقب انتصاره، وهذا ما كان. فقد أعدم الإمام عبد اللّه الوزير، والثائر زيد الموشكي، والأمير علي الوزير، وكل من أعدمهم دون أن يحقّق معهم، ما عدا المباشرين لقتل الإمام يحيى كما بلغني. وقد أمر الإمام أحمد في البداية بالتحقيق مع الأستاذ أحمد محمد نعمان، ومع صديقي أحمد الشامي، ومع العزي صالح السنيدار، ومع جمال جميل، ولم يكن الهدف منه التحقيق الشامل؛ وإنما كان هدفه الحصول على معلومات معينة ومحددة..

وكان هدف التحقيق مع الأستاذ نعمان هو معرفة أسماء المهاجرين الذين كانوا يمدونه بالاشتراكات والتبرعات المالية، والحصول منه على موافقة خطية، بنقل مطبعة النهضة التي كنا نطبع بها جريدة «صوت اليمن» من عدن إلى تعز، وقد وجّه الأستاذ نعمان بنقل المطبعة من عدن إلى تعز، ولكنه رفض رفضا قاطعا أن يذكر أي شخص كان ممولا لحركة الأحرار، أو أي شخص كان متواصلا مع الأحرار، وقال للمحققين كما جاء في ذكرياته: بلّغوا الإمام أنني لن أذكر أي شخص ساعد الأحرار، حتى ولو عذّبوني حتى الموت، فأنا مؤتمن، والمؤتمنُ لا يخون الأمانة. وقد وصل الأستاذ إلى عشة السجّان ناصر علي جرامة، محمولا بسبب السك والقيد «القلم»، وبعد التحقيق قال للحاشدي: هل تعمل معروفا وتأمر بفك القيد القلم حتى أعود إلى مكاني ماشيا، لا محمولا؟ فأمر الحاشدي بفك القيد القلم من أقدام الأستاذ، وعاد ماشيا، بدلا من أن يعود محمولا.

كان الإمام أحمد على يقين من أن المؤامرة كانت حقيقية، وأن من وقّعوا على «الميثاق الوطني المقدس» قد وقّعوا باختيارهم، وهاله أن يكون أكثر من وقّعوا الميثاق هم المقربون منه ومن أبيه الإمام يحيى، ومن يعتمد عليهم في دعم حكم بيت حميد الدين، وتساءل: هل كان كل هؤلاء متآمرين على قتل الإمام يحيى! وكان الإمام يعرف أن صديقي أحمد الشامي هو الذي كتب الميثاق الوطني بخطه، ولذلك أبرق إلى ابنه البدر في حجة بأن يسأل صديقي الشامي عن ذلك. وذات يوم بعد إعدام الوزير والموشكي ظهر الحاشدي من وراء شجع السجن «باب مشبك خشب» ودعا صديقي الشامي، وخرج إلى العشة وأطلعه على برقية الإمام، ولكنه رفض الجواب وقال له: أنا لن أجيب عن السؤال إلا للإمام، أو لابنه البدر مباشرة.

وقد ذكر صديقي الشامي مقابلته لكاتب الإمام، وما جرى بينهما من احتكاك وتنابز في صفحة (350) من ذكرياته، وحصر صديقي الشامي سؤال الإمام له عن «شفرة» الوزير التي بخطه. هذا ما قاله في ذكرياته، ولكن ما أخبرني به بوقته هو الصحيح؛ لأن الإمام وكاتب أي شفرة معقدة لا يستطيع أن يحفظها في الظروف العادية، فكيف يهتم الإمام بسؤال صديقي عن «شفرة» بخطه، وهو يعرف أن صديقي

القاضي محمد المجاهد

قد زُجَّ به في سجن حجة في حالة لم يبق معه فيها لا ورقة ولا قلم، وكل أوراق الوزير كانت بين يدي الإمام؟! كان الإمام يريد من صديقي جوابا عن الموقعين على الميثاق.. هل كلهم تآمروا على قتل الإمام؟ وعندما حقّق البدر مع صديقي الشامي كان رده على ذلك - كما أخبرني في وقته- بأن كل من وقّع على الميثاق الوطني لم يكن متآمرا على قتل الإمام يحيى، وإنما كان مقتنعا بمحتوى الميثاق وتنفيذه بعد موت الإمام يحيى موتا طبيعيا، وإن المؤامرة على قتل الإمام يحيى جاءت فيما بعد من المتآمرين المحدودين. وقد فصّل صديقي الشامي مقابلته للبدر وما جرى بينهما، وما كتبه مفصلا من اعترافات وذلك في صفحتي (351-352) بأسلوبه الخاص.

وفي يوم من الأيام وصلت من الإمام برقية إلى الأخ عبد اللّه يحيى السلّال -رئيس الجمهورية والمشير فيما بعد- ونصها: «من الإمام إلى عبد اللّه السلّال.. أفيدوا مصير مبلغ أربعين ألف ريال استلمته من مدير القصر». وكان السلّال قد استلم ذلك المبلغ عندما عيّنه جمال جميل قائدا للحملة التي قرّر الإمام عبد اللّه الوزير الخروج بها من صنعاء، لمتابعة ولي العهد أحمد في تهامة، أو محاصرته في حجة، ثم تراجع الوزير، وبقي المبلغ في عهدة السلّال. وقد أجاب السلاّل على الإمام بقوله: «مولانا أمير المؤمنين أيّدكم الله: مبلغ الأربعين ألف ريال استلمته من مدير القصر، القاضي محمد المجاهد، وأعدته إليه بوقته، ولم أستلم منه سندا بذلك، فاسألوه». وقد سأل الإمام القاضي محمد المجاهد عن ذلك، فأفاد القاضي أن السلّال أعاد له مبلغ الأربعين ألف ريال كاملة، وأنه قيّد ذلك في دفتر الوارد بوقته؛ فأمر الإمام بوصول القاضي المجاهد إلى تعز. ومع ذلك فإن الإمام لم يفكّر

في التحقيق مع السلال، ولم يسأله عن سبب استلامه للمبلغ؟ وعن علاقته بجمال العراقي، وأين كان عندما قتل جمال أخويه الحسين والمحسن؟ وقد كان السلال بجانب جمال في تلك اللحظة، ولم يسأله عن علاقته بالمؤامرة.

وهذا يؤكد أن الإمام لم يكن حينذاك قد فكّر في استجواب المساجين، أو التحقيق معهم؛ لأنّ همّه كان منصبا على إعدام خصومه بوحشية، وتعليق رؤوسهم وجثثهم في مشانق ميدان حورة بحجة، وميدان شرارة بصنعاء، وميدان العرضي في تعز، ففي حجة قطع الإمام أكثر من عشرين رأسا من رؤوس رجالات اليمن، وفي صنعاء أعدم الإمام خمسة ممن باشروا قتل الإمام يحيى وهم: الشيخ محمد قايد الحسيني من بني حشيش، والشيخ مصلح محسن هارون من بني الحارث، وأحمد العنجبة من بني مطر، والشيخ زيد الذيب من بني مطر، والحاج علي سنهوب من صنعاء.

كما أعدم الإمام أحمد الشهيد جمال جميل العراقي في أول شهر رمضان 1368هـ، وبلغنا أن الإمام قد أمر بمحاكمته محاكمة علنية، وصدر حكم بإعدامه، وأن الإمام أرسل الحكم إلى الحكومة العراقية التي وافقت على تنفيذ الحكم، وكان الإمام قد أعدم بالسيف في ميدان العرضي بمدينة تعز الشيخ عبد اللّه صالح الحسيني، وولده محمد عبد اللّه صالح الحسيني، والشاب علي العتمي، وسائق السيارة محمد ريحان، وكان العتمي من زملائي في مكتب الأيتام، وهؤلاء كانوا من المباشرين لقتل الإمام يحيى. كما أعدم الإمام في تعز بالسيف العقيد محمد سرّي شائع الذي عُيّن خلال الأيام القصيرة لثورة الدستور مديرا لأمن مدينة تعز، أعدمه بدون حق إطلاقا.

من واجبي أن أذكر هنا للحقيقة والتاريخ أن من أعدمهم الإمام أحمد بعد انتصاره على ثورة 1948 كان لديه معلومات باشتراكهم في اغتيال أبيه، ما عدا من ذكرتهم لاحقا. وهناك من بيت حميد الدين من يزعم أن الإمام أحمد لم يقتل من ثوار 1948، إلا من ثبت تآمره على قتل الإمام يحيى بحكم شرعي، ومن هؤلاء السيدة تقية بنت الإمام يحيى زوجة السيد عبد اللّه بن علي الوزير، في كتابها

علي عبدالله الوزير

«يتيمة الأحزان». وهناك من يزعم أن الإمام أحمد كان يقتل ثوار 48 عشوائيا، بقصد الانتقام والإرهاب. وهناك من يرى أن الإمام أحمد كان يجمع المعلومات الموثقة عن المتآمرين، وينصّبُ من نفسه حاكما، ويصدر أمرا بإعدام من أعدمهم بدون محاكمة، وبدون تحقيق أو استنطاق في الغالب.

وأنا أميلُ إلى هذا الرأي الأخير، وأستطيع أن أقول للحقيقة والتاريخ إنني عندما استعرضتُ من أعدمهم الإمام أحمد من ثوار 48 وعددهم اثنان وثلاثون شهيدا أعدمهم بالسيف، وواحدا أعدمه بالسّم هو أخوه الأمير إبراهيم، وآخر أعدمه بالرصاص داخل سجن حجة هو الشيخ أحمد ناصر القردعي، شقيق الشيخ علي ناصر القردعي، فوجدتُ أن الإمام أحمد لم يعدم من ثوار 48 إلا من لديه معلومات باشتراكهم في التآمر على اغتيال أبيه، إلا خمسة لم يكن لديه أي دليل على اشتراكهم في مؤامرة قتل أبيه وهم: الأمير السيد علي عبد اللّه الوزير، الذي لم يكن متآمرا على قتل الإمام يحيى، وعندما طرحتُ عليه فكرة قتل الإمام يحيى عارضها بشدة، وقال: إن الإمام يحيى إمام ظالم يجوز الخروج عليه، لرده عن الظلم أو إسقاطه، ولكن لا يجوز قتله، وقد حاول بعض المقربين من الإمام أحمد مراجعته، ولكن الإمام قال لهم: إن بقاءه خطر على أسرتنا، وأُعدم بدون حق. والنقيب عبد اللّه حسن قايد أبو رأس، وأخوه محمد حسن قايد أبو رأس اللذان أعدمهما الإمام أحمد في حجة، ولم يكونا من المتآمرين على قتل الإمام يحيى، ولا من الكمين المكلف بقتل الإمام أحمد، ولكن الإمام أحمد أعدمهما لسببين: الأول إرهاب القبائل، والثاني احتياطا من تآمرهما لاغتياله في المستقبل؛ لأن أختهما كانت زوجة الأمير علي عبد اللّه الوزير، وأم أولاده إبراهيم، وزيد، ومحمد، وقاسم

علي عبد اللّه الوزير. أما الشهيد الرابع فهو العقيد محمد سري شايع؛ فلم تكن له أية صلة بالأحرار في عدن أو في الداخل، ولم تكن له أية صلة بالمتآمرين في صنعاء. كان عقيدا عسكريا، لا صلة له بالسياسة.

وقد عُيّن خلال أيام ثورة 48 الدستورية، مديرا للأمن في تعز، وخلال أيام الثورة رأته نساء الإمام وهو مار أمام القصر، راكبا حصان الإمام أحمد، وعندما انتقل الإمام أحمد من حجة إلى تعز، قالت له النساء: إن سري شايع كان يمرُّ أمام القصر، راكبا حصان الإمام، يغيظ به من في قصر الإمام، فطلبه الإمام من حجة وأعدمه بالسيف أمام القصر، لتشاهده النساء اللاتي أغاظهن ركوبه على حصان الإمام...! أما الشهيد الخامس، فهو الشيخ أحمد ناصر القردعي الذي أمر الإمام بقتله بالرصاص داخل سجن نافع، دون أن يكون لدى الإمام أي دليل على تآمره، وقد قُتل احتياطا. أما بقية الشهداء الذين أعدمهم الإمام أحمد من ثوار 48 وعددهم 27 شهيدا، فعندما أستعرضُ أسماءهم تتولّد لديّ قناعة بأن الإمام أحمد كانت لديه معلومات موثقة، تؤكد تآمرهم على قتل الإمام يحيى. ولكن الإمام لم يحاكم أحدا من هؤلاء؛ بل كان ينصّبُ نفسه حاكما ويصدرُ أمرا تلغرافيا، لا حكما بقطع رأس فلان وفلان.

بل إن الإمام أحمد لم يعدم الأستاذ أحمد محمد نعمان، ولم يعدم صديقي أحمد محمد الشامي؛ لأن للإمام رأيا حسنا فيهما؛ بل كان يودّهما. وقد أبرق بعض علماء صنعاء إلى الإمام يحرّضونه على إعدام الأستاذ نعمان، فرد عليهم بالآية القرآنية: (مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذا لَظَالِمُونَ) سورة يوسف. وعندما ألحّ عليه كل رجال وكل نساء الأسرة بقتلهما رد عليهم: «ليس لدي ما يثبت تآمر الأستاذ نعمان على قتل أبي، كان نعمان «يبقبق» في جريدة ولم يتآمر». وعندما ألحّوا عليه في إعدام صديقي الشامي لأنه متآمر، وكتب الميثاق الوطني بخطه، وكان أقرب المقربين إلى الوزير، وصوته كان أول صوت وآخر صوت في إذاعة صنعاء، وسمعه الناس يقول:

وللحـــرية الـحـــمـــراء بابٌ
بكل يدٍ مـــضـــرجـــة يدقُّ

ردّ عليهم الإمام أن كتابة الـميثاق بخط الشامي، وتعاونه مع الوزير، وإذاعته في إذاعة صنعاء جرائم ارتكبها، ولا تثبت تآمره على قتل الإمام يحيى. أنا أعرفه، ولكن «زاد» عليه الورتلاني، وهو الآن في السجن الـمغلظ، بسبب تلك الـجرائم التي لا يستحق الإعدام بسببها. هذه شهادة للتاريخ وقد كان ما كان، والله خير الشاهدين.

في شهر رمضان عام 1368هـ-يوليو 1949 أمر الإمام بنقل الأستاذ أحمد محمد نعمان من سجن نافع إلى سجن قاهرة حجة، وخشينا أن ينتقل منها إلى ميدان حورة، ليقطع رأسه وحيدا من دون زميله الزبيري الذي نجا بأعجوبة كما سبق، وعند نقله كان الإمام قد أمر بنقل السيد عبد الـملك الـمطاع شقيق الشهيد أحمد الـمطاع، والسيد حسين الـحوثي، والسيد علي عقبات، والقاضي محمد العلفي، والقاضي أحمد العنسي إلى قاهرة حجة. وكان القاضي عبد الرحمن الإرياني في شهر رمضان هذا مريضا بحمى «التيفود»، حتى أشرف على الموت، وعندما أمر الإمام بنقله إلى قاهرة حجة في شهر شوال 1368هـ- أغسطس1949 حملوه إلى القاهرة، ومعه القاضي محمد علي الأكوع، والقاضي أحمد عبد الرحمن الـمعلمي، والقاضي عبد اللّه عبد الإله، والصفي محبوب.

وفي يوم 7 ربيع الثاني 1369هـ، 26 يناير1950 وهو ذكرى مرور عامين على اغتيال الإمام يحيى اكتفى الإمام «بالدريس-قراءة القرآن» على روحه في الـمساجد، وبعد أيام أمر الإمام بإطلاق الأستاذ نعمان من قاهرة حجة إلى بيت في مدينة حجة، يقيم وأهله فيه نهارا، والعودة إلى سجن القاهرة ليلا. وقُبيل يوم 3 جمادى الأولى 1369هـ، استدعى الإمام الأستاذ نعمان لمقابلته في تعز، بمناسبة الذكرى الثانية للانتصار، وفي الحفل ألقى الأستاذ خطبة من خطبه الرنانة مجّد فيها الإمام، وشكره على عفوه عنه، وطلب منه العفو عن بقية الـمساجين. وبعد الخطبة أمر الإمام بعودته إلى حجة، ليقضي نهاره مع أهله في بيته، ويعود ليلا إلى سجن القاهرة، حتى تم إطلاقه فيما بعد.

وفي أوائل العام الثاني من الكارثة، وربما في شهر جمادى الأولى 1368هـ- مارس 1949، لاحظنا تحركات غير عادية لمدير السجن والسجّانين خارج محيط

المساجين، وتوقّعنا سماع لحن الموت تطلقه «مزيقة» الجيش، إيذانا بجر مجموعة منا لقطع رؤوسهم في ميدان حورة، وأخذ كلٌّ من في السجن منا يتحرّك، استعدادا للموت. ومرت دقائق لم نسمع فيها لحن الموت، ولكنا رأينا أمام عشة السجّان المشهور علي ناصر جرامة أربعة أشخاص، أدخلوهم من باب السجن الخارجي إلى ساحة العشة، ولم يطل وقت تساؤلنا عمن هم هؤلاء الزملاء الجدد؟ فقد تم دقّ القيود في أقدامهم، وفتح باب العشة، وزُجّ بهم في عمق السجن. كانوا أربعة من مدينة زبيد وهم: اثنان من أولاد الجمالي، ومحمد بن محمد الإرياني وعلي سعد الحكمي. واكتشفنا -منذ البداية- أن ولدي الجمالي كانا في حالة رعب مما حدث لهما، وربما كان أصغرهما مريضا بمرض السّل. كما اكتشفنا أن محمد بن محمد الإرياني كان مصابا في قدمه بجرح قد تحوّل إلى غرغرينا لا علاج له، وكنتُ أكثر من اهتمَّ به، أحاول تطهير جرحه مرة أو مرتين في اليوم، وقد جعله هذا الجرح سريع الانفعال، فأرسل إلى الإمام برقية شديدة اللهجة يصفه بالطاغية الذي يسجن الناس بدون حق، ويقتل الناس بدون حق، ويهدم البلاد والعباد. وقد حاولنا أن نثنيه عن إرسال هذه البرقية، ولكنه أصر على إرسالها، وفعلا أرسلت، ولم يرد الإمام عليها، وكرّر إرسال برقيات أخرى بالمضمون نفسه.

أما رابعهم علي سعد الحكمي فقد كان شخصيه قوية متماسكة، ولاحظتُ أنه يرعى زميله ولدي الجمالي والإرياني رعاية كريمة، وبعد أن أصبح صديقا عزيزا عليَّ عرفتُ أنه أديب وشاعر، كان يكتبُ في صحيفة «النصر» الحكومية مقالات لها طابع اجتماعي، وأحيانا ينشرُ أبياتا من شعره، ومن ذلك قوله في صديق كان يظنه من الأحرار، ولكن تكشّف له أنه ذَنَب للطغاة، فقال فيه:

ألا قل لمن بـــــاع أخـــــلاقـــــه
... رخـيـصـا وهرول خلف الطغـاة
ســـــتـــــعلم أنا على مـــبـــــدأ
... لـفظنـاك من أجـلـه كـــــالـنّـــواة

ومنها:

كـــــمن يدّعي الطهـــــر في ثوبه
... ورجــلاه مــغــروســـــة في أذاه
فطبّل وزمّـــــــر ولا تـنـثـنـــــــي
... ستـبكي دمـا يوم فـجـر الـحـيـاة

ومرّت أيام من وصول مساجين زبيد، ووجدتُ أن صداقة حميمة قد نشأت بيني وبين الأخ علي سعد الـحكمي، وأصبحنا نقضي ساعات نتحاورُ فيها ونتجاذبُ الأحاديث في كل شيء، وربما كان السبب قيامي بمعاجلة جرح الغرغرينا في جسم الأخ محمد الإرياني، وكان الأخ الحكمي يعطي كلا من زملائه الثلاثة خمسة ريالات «فرانصي» في بداية كل شهر، ووجدته يعطيني خمسة ريالات في بداية الشهر، وحاولت إقناعه بأن تكون صداقتنا إنسانية، لا تشوبها المادة، ولكنه قال لي: «هذا المبلغ نذر نذرته لك أمام الله، يستمر طيلة بقائك في السجن، وهو نذر لا صدقة ولا مساعدة». وبهذا النذر بدأت ظروف حياتي في السجن تتحسن، واستمر مبلغ النذر يصلني في بداية كل شهر.

وعرفتُ منذ بداية صداقتنا أن صديقي النبيل علي سعد الحكمي مصاب بشك الوضوء، إذ كان يتوضّأ مرات عديدة عند كل فرض من فروض الصلاة، وبرغم أنه مثقف ومستنير التدين، إلا أن شك الوضوء قد لازمه منذ سنوات طويلة، وتناقشنا في هذا نقاشات متقطعة، في محاولة مني لإقناعه بأن شك الوضوء حالة نفسية، لا حالة دينية، وكان يعرف هذا، ولكن كان شك الوضوء قد تغلّب عليه. وذات يوم قلتُ لصديقي النبيل أريدُ أن أروي لك نكتة حول شك الوضوء، بقصد «التنكيت» لا بقصد «التبكيت» ورويت له النكتة:

كان شخص من أهالي صنعاء مصابا بشك الوضوء، وكان يتوضّأ خمس مرات أو أكثر في كل أوقات الصلاة، وذات مرة توضّأ وتوضّأ حتى أحس في إصبعه السبابة بشيء خارج من فرجه، فغسل يده بالصابون عدة مرات، واستخدم عدة مطهرات بدون أن يقتنع بأن أصبعه قد تطهّرت، فذهب إلى صديق له مهنته النجارة، وطلب

منه أن يقطع أصبعه السبابة، لأنها نجسة، برغم محاولته تطهيرها بكل وسائل التطهير، فقال له صديقه: هل طهرتها بالتراب؟ فقال: لا. فأخذ حفنة من التراب، وطهّر سبابة صديقه الشكاك بالتراب، وقال له: الآن صارت سبابتك طاهرة، ولكن الشكّاك أصرّ أنها نجسة لا تطهر، وطلب من صديقه النجّار قطعها «بالقدوم»، قال له صديقه: ضع سبابتك على هذه الخشبة، فوضعها ورفع النجار «القدوم» وضرب السبابة بالجهة غير الحادة من القدوم ضربة مؤلمة، وبدون شعور رفع الشكّاك يده وأدخل سبابته في فمه، ومصّها من الألم، فقال له صديقه: الآن أصبحت سبابتك طاهرة بريق فمك...!! ثم استطرد قائلا: «لو أن النبي وأصحابه أصابهم الشك الذي أصابك لقطعوا سباباتهم جميعا». «الشك من عمل الشياطين، لا عمل الملائكة»، واقتنع الشكّاك أن سبابته قد أصبحت طاهرة، وزال الشك منه. وعندما رويتُ النكتة لصديقي الحكمي وجدته يضحك حتى كاد أن يستلقي على ظهره، وبدأ الشك يزول منه بالتدرج، حتى زال نهائيا. وخلال هذه الفترة توفي ابن الجمالي الصغير في السجن، وبقي محمد الإرياني مصابا بالغرغرينا. ولم أعد أذكر متى أطلق صديقي الحكمي وابن الجمالي الكبير من سجن نافع، هل تم إطلاقهما عندما هطلت أمطار غزيرة جدا على منطقة حجة أم قبل ذلك بأيام؟

الفصل الثالث عشر
ثورة فكرية في سجن نافع الرهيب

في شهر شوال سنة 1369هـ-يوليو 1950، هطلت أمطار غزيرة جدا وخشينا أن ينهدم السجن على رؤوسنا، إذ ظهرت في بعض جدرانه تشققات، بسبب الأمطار، فأحدثنا ضجة كبيرة، وأرسلنا برقيات إلى الإمام أحمد، نناشده إنقاذنا من الموت تحت أنقاض السجن ولو بالسيف، كما أرسلنا مذكرات إلى نائب حجة، وكنا نتجمّعُ داخل السجن ونُشهّد ونهلّل بأصوات مرتفعة كانت تجعل الناس من خارج السجن يتوقفون ويتعاطفون معنا، وقد أمر الإمام نائبه في حجة ووكيله العجا بالكشف على السجن، ومعرفة حقيقة ما يشكوه المساجين، وقد حضر النائب والعجا، ومعهم أربعة «أساطية/عمّارين»، وكشفوا على السجن وقرّر الأساطية أن السجن خطر على المساجين؛ لأن الخلل في جدرانه كبير. وهكذا أمر الإمام بنقل المساجين من سجن نافع، بعضهم إلى قاهرة حجة، والبعض الآخر إلى دار الضيافة «المنصورة»، بجانب الطريق إلى بيت نائب حجة في أعلى أكمة هناك. وقد انقسم المساجين في نافع إلى ثلاثة أقسام: قسم تم نقلهم بأمر الإمام إلى قاهرة حجة، وقد اختارهم الإمام للبقاء في السجن مغلظا عليهم. والقسم الثاني المخفف عليهم وقد أمر الإمام بنقلهم إلى المنصورة دار الضيافة. أما القسم الثالث فقد تم استمرار حبسهم في سجن نافع، ويبدو أنهم قد اختاروا ذلك بمحض إرادتهم.

وفيما يلي أسماء المساجين المنقولين إلى قاهرة حجة، السيد أحمد محمد الشامي -الأستاذ محمد عبد اللّه الفسيّل- السيد أحمد حسين المروني- القاضي محمد أحمد السياغي-القاضي محمد أحمد صبرة- القاضي عبد السلام صبرة-

المشير عبد اللّه يحيى السلّال- اللواء حمود بن حمود الجائفي- السيد محمد الغفاري- القاضي محمد بن محمد الإرياني- الفريق حسن بن حسن العمري- القاضي علي عامر- الملازم علي الغفري- القاضي علي تلها- اللواء محمد حسن غالب المطري- السيد عبد القادر أبو طالب. وبخصوص أسماء المساجين المنقولين إلى دار الضيافة «المنصورة»، فهم: السيد محمد حسين عبد القادر شرف الدين- القاضي علي بن محمد السنيدار- القاضي إسماعيل بن علي الأكوع- أبو فارع (من مشايخ حاشد) - القاضي أحمد الصرفي-عبد الرحمن باكر-الشيخ أمين عبد الواسع نعمان-العقيد غالب سرّي-المسوري-الشيخ ناشر عبد الرحمن-محمد الصعر-القاضي محمد الزهيري-السيد محمد هاشم جرانع-علي حمود السمة- عبد اللّه عبادي- السيد علي الشرعي- السيد غالب الشرعي- الضابط محمد الحلبي مدير الأمن- أبناء الرمّاح. أما أسماء المساجين الباقين في سجن نافع، فهم السيد محمد علي المطاع «الشاعر»- الأستاذ قاسم غالب- الشيخ صالح مرشد المقالح- محمد عكارس- الشيخ علي محسن باشا- الشيخ عبد الحميد مقبل-أحمد الجلال-مرشد المرولة-لطف السعيدي- محمد حسن الفسيّل-أحمد علي عاطف-الشيخ محمد حزام خالد-العزي صالح السنيدار.

الحضراني يرحب بنا شعرا

بعد وصولنا إلى قاهرة حجة تسرّبت إلينا ورقة، استلمها صديقي أحمد الشامي، ووجدنا فيها أبياتا نظمها الشاعر المحبوب إبراهيم الحضراني، ترحيبا بوصولنا من نافع إلى قاهرة حجة ونصها:

كيف لا نحتفي بإخوان صدق
وأخلاء فكرة وشعورِ
قد رأيناكم فما إن شككنا
إن هذي مشاعل من نورِ

طلعت من وراء تلك الدواهي
كطلوع البـــدور في الديجـــورِ
وتمشت فـــــــلاح للحق نور
صـــغـــرت عنده حـــيـــاة الغـــرورِ
خـرجت كـالسُّـيـوف من وهج النار
وجـاءت كـالعـسـجـد الـمـصـهـورِ
إنـه لا يـضـــــــــر نـفـس أبـيّ
باتَ حـر الضـمـيـر جـسمُ أسـيـرِ

28 شوال 1369هـ– 4 يوليو 1950

وكان لهذه التحية أثر قوي في نفوسنا؛ لأن أوضاعنا البائسة كانت بحاجة إلى كلمات إشفاق أو تشجيع.

وقد حمل إلينا حامل التحية أوراقا وأقلاما من إخواننا في الدار، وهي من الممنوعات، وكنتُ مشتاقا للقاء إبراهيم بالذات، لما بيني وبينه من صداقة، ولذلك أجبت على تحيته الشعرية بأبيات أرسلتها إلى إبراهيم في اليوم الثاني ونصها:

أخـــيـــال مـــجنح طار بالأرواح
في لجـــة الفـــضـــاء الـمنيـــرِ
أم تهـــاويل ســـاحـــر نافـــذ النظرة
تلقى على فـــتى مـــســـحـــورِ
أم أهازيج شـــاعـــر عـــبـــقـــري
قـدسيّ الوجـدان، حـر الضـمـيـرِ
أرسلت لحنهـــا الســـمـــاوي عـــذبا
رائعـــا، هز خـــاطري وشـــعـــوري

***

أنت يا إبراهيم لحن من الخلد
جميل يختال عبر الأثيرِ
ألفته الأملاك من نغم الطير
طروبا.. ومن غناء الحورِ
وأطلت به على الأرض كالفجر
نديا، وكالنسيم العطيرِ
فسرى في القلوب كالأمل الباسم
قد أنعشته بشرى البشيرِ
تتراءى لنا الحقائق كالأوهام
يفنى فيها هدى التفكيرِ
أحقيق تغيرت دورة الفلك؟
ولانت رفقا يد المقدورِ؟
وصحيح أنا خرجنا من القبر؟
وحق؟ أم خدعة المغرورِ؟
أم رؤى حالم تجلت علينا؟
أم خيالات عاشق مخمورِ؟

***

جذبتنا أرواحكم فالتقينا
كالتقاء الأضواء في الديجورِ
واعذروا الفكر إن خبا فظلام
السجن يجثو في خاطر المأسورِ
لا يرى غير صورة الرعب والخوف
وعصف الفنا وهول القبورِ

ووحوش صيغت من اللؤم والخبث
وقُـــدّت قلوبهـــا من صـــخـــورِ
غـيـــر أنا نلوذ بالـمـبـدأ الســامي
وبالـخـــــالق العظيم القـــــديرِ

29 شوال 1369هـ-5 يوليو 1950

كانت أول مشكلة واجهناها في «حرّ البقرة» هي العطش فلا توجد قطرة ماء نشربها، وماء البرك محرّم علينا، ورفض الظفري أن ينقل لنا الماء بقيمته، ربما بإيعاز من الشاوش النهدي. فانتدبنا الأخ محمد حسن غالب لحل المشكلة مع الشاوش، ولم أعد أذكر هل قدّمنا له رشوة أم لا؟ وعاد زميلنا بحل مؤقت، وهو أن نغترف من البركة الكبيرة «تنكتين» في اليوم لمدة أسبوع، ونقدّم مراجعة للعجا، ليعيّن من ينقل لنا الماء من السوائل، وفعلا أرسلنا مراجعة إلى العجا، وانتظرنا الجواب، وقد عادت مراجعتنا إلى القاضي عبد الرحمن الإرياني، وفيها إحالة العجا إلى النائب، وإحالة النائب إلى الحاشدي، وبدلا من إرسالها إلى الحاشدي أرسلت إلى القاضي عبد الرحمن الإرياني. وأثارت هذه الإحالة إلى الحاشدي مخاوفنا، وقرّرنا عدم المراجعة، وتمكّنا من الحصول على الماء عن طريق الظفري بموافقة الشاوش، وكان ما كان.

وعندما أردنا تنفيذ هذا القرار اكتشفنا بشاعة أحوالنا...! كنا قد تأقلمنا على بشاعات سجن نافع، وكنا قد تأقلمنا على ما قرره الإمام لنا، وهو أقل من الكفاف، وكنا قد تعوّدنا على أكل غذاء لا يُغذّي، ولكن يعصمنا من الموت جوعا. وهذا وذاك أنسانا ما نحن فيه من بؤس وفقر مدقع. لقد اكتشفنا أننا جميعا لا نملك قيمة ثلاثة مواقد للنار، ولا نملكُ قيمة الحطب، ولا قيمة عدد قليل من طناجر الطبخ، ولا قيمة قزازة نستضيء بها، أو قيمة تنكة للماء...! وكنا في سجن نافع نشتري ما نحتاجه من السوق بواسطة اليهودي سالم عمران، وهذا أمين لا يختلس أي شيء من القيمة، ولكننا الآن سنشتري ما نحتاجه بواسطة «الرسَم/السجانون»، وقيمة ما نحتاجه أقل من أجرة الرسَمي.

اكتشفنا هول هذه الحقيقة التي كانت غائبة عنا، ولم أعد أذكر بالتأكيد من هو

الذي اقترح علينا عقد مؤتمر في «حرّ البقرة»، للبحث عن حلول لما اكتشفناه، واخترنا الصفي محبوب ليرأس الاجتماع، وطلب منا الصفي محبوب أن يتقدّم أحد، ويقول لنا ما يراه لحل المشكلة، ثم نناقش ذلك، وبقينا نحو عشر دقائق دون أن يتقدّم أحد منا؛ إذ لا يوجد أي حل في هذه الحالة. ثم قام المشير السلّال، وقال عندي اقتراح أقدّمه للنقاش، واستبشرنا خيرا، ثم قال: نرسل برقية للإمام نراجعه أن يأمر بنقل سالم عمران اليهودي من نافع إلى القاهرة، وعندما يأمر الإمام بذلك نكلّف اليهودي ابن اليهودي بنقل مواقدنا وتناجرنا وتنكاتنا معه، ويتولّى شراء ما نحتاجه كالعادة...! وضحكنا جميعا للاقتراح، ولكن السلّال تمالك نفسه وحاول ألا يضحك، ثم قال: ما لكم ضحكتم؟ عندكم حل ثاني؟ قال الأستاذ المروني: أنا أعرف أنه لا يوجد حل، وما دمنا قد عقدنا مؤتمرا فلنجعله مؤتمرا للضحك.

ثم اقترح أن يستخدم رئيس المؤتمر روحه، لتجلب روح بقرة بني إسرائيل التي سكنت هذا «الحرّ» قبلنا، ليسألها كيف حلّت مشكلتها، وكيف نحل مشكلتنا؟ وضحك بعضنا وابتسم البعض الآخر، وقام محمد حسن غالب، واتجه إلى الباب وهو يقول: نحن سنموت من الجوع مش من الضحك، وخرج من الباب دون أن يقول لنا أي شيء، ورأيناه يتجه إلى مكان «أبو الهول». وبعد قليل عاد ومعه أبو الهول وثلاثة من أصحابه يحملون موقدين وثلاث حزم حطب وثلاث تناجر طبخ، وقزازة مملوءة بالقاز، وتنكة مملوءة بالماء. وقال لنا أبو الهول هذه الأشياء «عارة»، واكتبوا ما هي حاجاتكم في نافع، وأنا أكلّف أصحابي ينقلونها لكم بالأجر لا بالأجرة، وقال حسن العمري: يا نقيب صالح كل حاجاتنا في نافع يعرفها سالم عمران اليهودي، كلّفوه يجمعها كلها وطلعوها، وقال له الصفي محبوب: ضاعف الله سبحانه وتعالى لك ولأصحابك الأجر في الدنيا والآخرة. وبهذا حلّ محمد حسن غالب المشكلة، وقد كان آمر سرية من النظام ويعرف التعامل معهم.

وغادرنا أبو الهول وأصحابه، وقام السلّال وضم إلى صدره محمد حسن غالب، وقبّله في جبهته، ثم التفت إلينا وقال: سلام وتصفيق مربع لمن حلّ المشكلة، وكنا قد أخذنا معنا علب تونة، وعلب زيت وسمن، وملح وحوائج وعدة فناجين «أكواب»

صيني وأشياء صغيرة، لا أذكرها مثل الملاعق، والحلاّقات، كما أنهم كانوا قد صرفوا لنا الكدم المقررة لكل واحد ثلاث كدم. أما أنا فقد انبريت بمهمة طباخ هارون الرشيد أهيئ المواقد للنار، والتناجر للطبخ، وأجمع الكدم، ولما رآني السيد محمد الغفاري، والأخوة حسن العمري وعلي الغفري، وعلي تلها «أفتُّ» الكُدَم إلى التناجر هبُّوا يساعدونني، وبعد قليل تصاعد الدخان من الموقدين وكنا نستنشقه وكأنّه دخان العود، لا دخان العيدان، وارتفع اللهب تحت التناجر، وأحضرنا السمن والملح وعلب التونة. وبعد ساعة كنا قد حضَّرنا أكلة لذيذة، يأكل الواحد أصابعه بعدها...! إنها عصيدة الكدم مطورة ومطعمة بالتونة والسمن. وقد أكلناها بالكامل حتى إن المشير السلال استولى على إحدى التنجرتين وأخذ «يحلط» ما في أسفلها بيده و«يمدخ»، قائلا: إن ما في أسفل التنجرة هو ألذّ ما فيها من الأكل.

ويبدو أن صديقي الشامي قد تأثّر بكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره عندما اكتشفنا ما نحن عليه من بؤس وفقر وظلم، فأخذ نفسه إلى المسجد، وكتب رسالة طويلة بأسلوبه الأدبي المؤثر والمتأثر إلى إخواننا في الدار، يصف فيه حالتنا، بأسلوبه الذي يوحي ولا يصرّح، ويرمز ولا يوضّح، وخلاصتها أن إخوانكم في خارج الدار يحتاجون حتى إلى الكلمة المواسية، قائلا فيها: إنني أقل منهم بؤسا وفقرا، ولكني كتبت هذا لأذكّركم بهم. وكنتُ أعرف بالتخمين أن صديقي الشامي كان يصله بين حين وآخر عدد من الريالات لا تزيد على أصابع اليد، وكذلك السيد محمد الغفاري، وهي مبالغ بسيطة لو طبّقنا عليها النظرية العلمية الاشتراكية الشيوعية، وأممناها وقسّمناها على شعب المعتقلين، لحرمنا صاحبها منها، ولما استفاد منها من تقسم عليهم، وقد أجاب من في الدار على الرسالة، بإرسال خمسين ريالا فرانصيا. كما أن السيد الكريم حسين الحوثي قد نزل إلى الحوش، وشاهد ما نحن فيه من بؤس وفقر، فكتب إلى الإمام من دون علمنا البرقية التالية: «مولانا أمير المؤمنين أيّدكم الله.. الذين مننتم بنقلهم من نافع إلى القاهرة حُفاة عُراة خمصاء بائسون. تطفلت بالتذكير والسلام عليكم»، ولكن لم يعد جواب البرقية.

وبعد مرور أقل من شهر من نقلنا إلى قاهرة حجة، واستقرارنا في «حرّ البقرة»،

استدعاني أبو الهول الشاوش صالح النهدي إليه، وسلّمني ورقة صغيرة، مكتوب فيها: «أخي وأستاذي محمد عبد اللّه الفسيّل حيّاك الله، صدر مع هذا خمسة عشر ريالا مصروفكم النذر لمدة ثلاثة أشهر، وسيصلكم إن شاء الله مثلها كل ثلاثة أشهر. تحياتي، ملاحظة: ومع المبلغ صرّة فيها ثياب. أخوك علي الزبيدي 18 القعدة 1369هـ». وعرفت أن الرسالة والريالات والثياب من صديقي في سجن نافع علي سعد الحكمي الذي كان ونحن في نافع قد نذر لي بمبلغ خمسة ريالات شهريا، وكان يسلّمها لي في نهاية كل شهر، كما ذكرت سابقا إلى أن أطلق قبل أيام من انتقالنا إلى سجن قاهرة حجة، وسلّمني الشاوش الرسالة وخمسة عشر ريالا، وفتح الصرّة ووجدنا فيها كوتا وزنتين وسروالين وأربع فنايل ومنشفة، وقد دفعت منها ريالين للشاوش، وعدتُ وأنا أشعر أن قلبي غارق في الدموع، لا فرحا بالمبلغ والصرّة، وإنما تأثرا بنبل وكرم وشهامة ذلك الإنسان، فقد كنتُ مقطوعا من أخي وأهلي وأصدقائي جميعا، مغضوبا عليّ من الإمام، وأكثر من حول الإمام، كنتُ معتقلا أرسف في القيود، بائسا فقيرا مظلوما.

ولا أدري لماذا أثار كرم ذلك الإنسان النبيل في نفسي كل مشاعري الحزينة، وكل شعوري بالظلم، وفي عودتي لم أتجه إلى زملائي الذين كانوا ينتظرونني بفارغ الصبر، ليسمعوا خبرا مفرحا، ولكني اتجهت إلى البركة الكبيرة المليئة بماء المطر، وجلستُ عند حافتها، وبعد أن هدأت مشاعري دعوت الله سبحانه أن يكتب لصديقي الأجر، وأن يعوضه مالا وصحة وسعادة. ثم اتجهت إلى زملائي، وهم يرون صرّة الثياب في يدي، ولكنهم لا يرون ولا يسمعون «صرير» الريالات في جيب كوتي. وسألوني عن الأخبار فقلتُ لهم: لا خبر إلا ما في الصُّرة. ودخلنا إلى «الحرّ»، وفتحت الصُّرة، ليتفرج زملائي على ما فيها، وكانت مشاعر الحزن لا تزال مطلة من قسمات وجهي، ولهذا حاول المشير السلّال تبديدها، فأخذ: «يفرد الثياب ويقول: ما شاء الله كل شيء بالدّبل يا عزّي، فرفش واضحك للدنيا تضحك لك.. ما لك مبرطم مثل طبل المزمّر»! وضحكنا جميعا لطبل المزمر، وكان المشير السلّال -ربما من صغره- لطيف المعشر، خفيف الروح، سريع النكتة، حتى في مواجهة النكبات.

عندما خرجنا من سجن نافع في طريقنا إلى قاهرة حجة تبيّن لنا أن جبل حجة قد انشطر في قمته إلى شطرين ضخمين: كل شطر يشبه الجبل فوق الجبل، الشطر الأول في الشمال الشرقي، وعليه قلعة قاهرة حجة، والشطر الثاني ويقع في الشمال الغربي، وعليه حصن ظفير حجة. ووجدنا أن مدينة حجة قد بُنيت في مدرجات بعضها فوق بعض، في سفوح الشطرين بدون تخطيط. وبعد أن استقررنا في «حرّ البقرة»، وتم ترتيب أمورنا المعيشية، تقسّمنا إلى أربع حِدر، والحِدرة مجموعة من الأشخاص يدبّرون معا موضوع أكلهم وشرابهم وأدوات الطبخ ويأكلون معا، وأذكر أن حدرتنا كانت مكونة من ستة، هم الأستاذ المروني، وصديقي الشامي، والأخوة عبد اللّه السلّال، ومحمد حسن غالب، واللواء حمود الجائفي، وأنا سادسهم. ولم أعد أذكر كيف ترتّبت الحدر الأخرى بالتأكيد، ولعل الحدرة الثانية قد تكونت من السعادة الخالدة عبد السلام صبرة، والشاب الأديب محمد أحمد صبرة، والقاضي محمد السياغي، والسيد محمد الغفاري، وحسن بن حسن العمري. واكتشفنا أننا «حِدر» ليس لديها مواقد النار، ولا تناجر الطبخ، ولا مواد الأكل، ولا تنكات الماء، وكما يقول المثل: «ما تفعل الكاملة في الديمة العطل»! فعند نقلنا من سجن نافع لم يكن لدينا الوقت ولا القدرة لنقل ذلك، ولو أردنا نقلها من نافع بواسطة رسَم القاهرة لكانت تكاليف النقل أضعاف القيمة الأصلية، وقرّرنا أن نشتريها من السوق، وقد حلَّ المشكلة الأخ محمد حسن غالب كما ذكرت سابقا.

وبعد أن تم ترتيب أمورنا المعيشية قرّرتُ أن أكتشف قاهرة حجة وما فيها ومن فيها، وكنتُ – ونحن في طريقنا إليها– قد شاهدتُ جزءا من سورها، وهو سور ضخم، مبني بالحجارة المهندمة «الموقصة» وقدّرتُ أن ارتفاعاته تتراوح بين سبعة وعشرة أمتار، وفي سوره تبرزُ «نوب» الحراسة متباعدة، بطريقة تسمح لكل نوبة حماية ما يجاورها من نُوب الحراسة. وتبدو القاهرة من الخارج وكأن مساحتها صغيرة ضيقة، وعندما تجاوزنا بيوت المدينة صعدنا عدة درجات ضيقة، وبعدها مشينا في طريق لا يزيد عرضها على ثلاثة أمتار، ولا يزيد طولها على عشرة أمتار، ثم صعدنا عدة درجات، طول كل منها أكثر من ثلاثة أمتار، لنصل إلى باب ضخم جدا، صُنع من

الخشب المحلي الذي نسميه «طنب»، والباب ثقيل جدا، لا يستطيع عشرات الرجال حمله، وأظن أن النجارين قد صنعوه في المكان نفسه الذي رُكّب فيه، وندخل من الباب إلى ردهة مسقوفة، وفوق سقفها غرفة شاوش القاهرة صالح علي النهدي، وبجانبها ثكنات العسكر. وقد عرفنا فيما بعد أن عدد العسكر التابعين للشاوش ستة وثلاثون جنديا، ومن الردهة نصعد درجات عدة، نصل بعدها إلى بداية ساحة القاهرة في الجهة الجنوبية، ومنها إلى «حرّ البقرة» الذي سكناه بدلا منها، وكنا خير خلف لخير سلف...!

وقد ألقيتُ نظرة سريعة على ساحة القاهرة، فوجدتُ أنها واسعة، وطولها من الجنوب إلى الشمال أقدّره بنحو مئة متر، وعرضها من الغرب إلى الشرق وأقدّره بنحو خمسين مترا، ويوجد بها بركة كبيرة شرقي البوابة، وقريبة من «حرّ البقرة» شمالا بغربي مملؤة بماء المطر الصافي، حفرت في الصخرة، وثلاث «برك» صغيرة غيرها، ولكن الماء الذي تمتلئ به يتسرّب منها، وفي الجهة الشرقية من الساحة تم بناء مسجد صغير مساحته (3×3) وبجانبه بركة تمتلئ بماء المطر، ونتوضّأ منها، وتأتي بعده شرقا دار مكوّنة من ثلاثة أدوار، أمر ببنائها الإمام يحيى، وبجانبها جنوبا ثكنات عرايف البرانية، والتابعين لهم من البرانيين، وتطلُّ الدار على الجزء الأكبر من مساحة القاهرة.

وبدون اختيار أو قرار، وجدنا أنفسنا قد حوّلنا «حرّ البقرة» إلى معهد ثقافي عالي المستوى، فقد أرسل إلينا إخواننا الذين سبقونا كتاب «حياة محمد» لمؤلفه الدكتور محمد حسين هيكل، فقرّرنا أن نقرأه معا بالتناوب، بحيث يقرأ أحدنا صفحات عدة منه، ويستمع الآخرون له، وكان القاضي محمد السياغي غالبا يصحح ما يقع فيه القارئ من أخطاء نحوية، ونتوقّف قليلا، لنستعيد قواعد النحو، وهكذا تذكّرنا مكتبة الأستاذ الشهيد أحمد حسن الحورش، ولا شك أن القراءة الجماعية في «حرّ البقرة» كانت أكثر فائدة وعمقا. واستمررنا نقرأ كتابا بعد الآخر بهذه الطريقة، وكان لذلك فائدة كبيرة في توسيع ثقافتنا، وفي تعميق مشاعر الصداقة والزمالة بيننا، وأذكر أن الأخ حسن العمري سرعان ما ابتعد عن مشاركتنا، واستطاع أن يتقرّب من شاوش

القاهرة أبو الهول، ويصير من جلسائه وجلساء العسكر. أما الأخ حمود الجائفي فقد خاف أن يؤدي نشاطنا الثقافي إلى مشاكل نحن في غنى عنها، ولذلك كان يبتعد إما إلى المسجد، أو إلى نوبة قريبة في السور.

ولم أعد أذكر من منا اقترح أن نتمرّن على إقامة المحاضرات والخطب الارتجالية، وربما يكون أستاذنا المناضل أحمد حسين المروني هو الذي اقترح هذا، وهكذا أضفنا مجالات أخرى في نشاطاتنا الثقافية، وكان المشير السلّال أكثرنا نشاطا في الخطب الارتجالية، ولعله -دون أن يدري- كان يتخذ من هذا النشاط رصيدا، استفاد منه عندما أصبح مشيرا ورئيسا للجمهورية، فخلال فترة رئاسته كان خطيبا في أكثر المناسبات، وأذكر أننا أعددنا له خطابا مكتوبا بمناسبة الذكرى الأولى لثورة 26 سبتمبر 1962، وقرأ منه قليلا، ثم ضاق بالقراءة، وأخذ يخطب ارتجالا والجماهير تصفّق له.

الصفي محبوب والكرة الأرضية

كان من الممنوعات علينا في «حرّ البقرة» الثقافي الدخول في السياسة، فلا يجوز لأي منا انتقاد الإمام وحكم الإمام، أو الدعوة لإصلاحه، أو انتقاد بعضنا بعضا، أو انتقاد الآخرين تجنبا للمشاكل. وكان لديّ انطباع بأن كل الأحرار في اليمن -وخصوصا من في السجون-قد ورثوا ثقافة تراثية قديمة، مدعومة بثقافة عصرية حديثة، ولكن تبيّن أن هذا الانطباع غير دقيق، وذات يوم اخترت موضوعا أحاضرُ به زملائي في المعهد، وكان بعنوان «ثورة الإصلاح الديني المسيحي في أوروبا»، وقد اخترت هذا الموضوع، لقربه مما نحن فيه، وكنتُ أحاضر من الذاكرة، ولذلك فقد أذكر ثورة مصلح محدد، ولكنني لم أعد أذكر اسمه، كما أن زمن الأحداث قد لا يكون دقيقا، وأذكرُ أنني أثرت في هذه المحاضرة موضوعات متعددة منها:

عندما أبلغ المسيح عيسى بن مريم قومه من اليهود أن الله قد أرسله نبيا إلى قومه، ليجدّد في الدين، ويزيل منه ما أحدثوه فيه من خرافات وتزييف وتحريف وفساد، كذّبوه وحاربوه وآذوه ولم يؤمن به منهم إلا عدد قليل، التفوا حوله، يتعلّمون

منه الحكمة والموعظة، ويُسمّون الحواريين، وعندما صعدت روح المسيح إلى باريها، تولّى الحواريون نشر دين المسيح، وأسس بولس الأول -وهو أحد الحواريين- أول دير مسيحي سري سماه: «الكنيسة الجامعة»، وكان القسسُ فيها دعاة يعلّمون الناس، ويعيشون عيشة الزهد والتقشف، ولم يدّعوا اللاهوتية، وأخذت الأديرة السرية تنتشرُ في فلسطين ولبنان وسوريا والأردن ثم تدخل سيناء والإسكندرية ومصر. وكانت هذه البلدان تابعة للإمبراطورية الرومانية في روما، وقد واجهت كنائس المسيحيين السرية وأتباعها موجات اضطهاد روماني ويهودي خلال القرون الأول والثاني والثالث. وكانت المسيحية في بداياتها ديانة لا تختلف عن اليهودية، فيما يتعلق بوحدانية الله، وفي كثير من تعاليمه الأخلاقية، ولكن بدأت تدخل عليها بدع ليست منها، كما حدث في اليهودية وفي الأديان الأخرى.

ففي أوائل القرن الثاني الميلادي ظهرت فرقة تحاولُ تحويل التعاليم المسيحية إلى عقيدة كونية غامضة، فقدت بها عقيدة التوحيد، وأدخل عليها الأقانيم الثلاثة «الأب، والابن، وروح القدس» أي الله والمسيح ابن الله المساوي له في الألوهية، وروح القدس مريم العذراء أم المسيح. ومرت العصور، وفقدت المسيحية عقيدة التوحيد، وروح التسامح، وأصبح أكثر القسس يسيطرون على البشر بدون علم، ويحملون عقولا متحجرة متخلفة، أدت إلى تدمير العقيدة وتسخير الفلسفة والعلوم والفنون، لخدمة عقيدتهم المنحرفة وأفكارهم المتحجرة. ولكن ظهر منهم قسس مصلحون، يدعون إلى إصلاح الدين، ويحاربون فساد الكنيسة وجمودها وتخلفها المتمثل في الكنيسة الكاثوليكية في روما، وقد انشقت منها كنائس البروتستانت في بريطانيا وألمانيا وبلدان أخرى، وهي أكثر تحررا؛ ولكنها تؤمنُ بالثالوث.

وكان من أوائل هؤلاء المصلحين الراهب الكنسي «هس» في أوائل القرن الرابع عشر، وقد تم إعدامه حرقا حتى تفحّمت جثته، وبعد قرن ظهر الثائر المصلح الديني الألماني «لوثر»، وكاد مصيره يكون كمصير «هس» ولكنه نجا، وكان له إسهام كبير في إصلاح الدين والكنيسة؛ ولكن بعد مضي أكثر من ألف عام فرضت خلاله الكنيسة جمودها وتخلفها وفسادها على العالم المسيحي، وكان لظهور الإسلام أثر بالغ في

الصفي محبوب

زعزعة سلطة الكنيسة. وظهر في عهود التخلف المسيحي علماء مثل برونو الذي ذهب إلى أن في الكون ملايين الشموس والنجوم والكواكب، وقد حكمت عليه الكنيسة بالموت وأحرقته في روما. وظهر جاليلو في روما، وهو عالم فلكي، وأعلن أن الأرض كوكب كروي الشكل، يدور حول الشمس، بينما كانت الكنيسة تعتقد أن الأرض مبسوطة، وأن الشمس تدور حولها؛ ولذلك حاكمت جاليلو، وحكمت عليه بالموت حرقا، وقد أصبحت نظريته صحيحة لا شك فيها.

وقبل أن أواصل محاضرتي، لأصل إلى فوز ثورة الإصلاح، وفصل الكنيسة عن الحكم المدني سمعتُ العلامة الصفي محبوب يصرخ في وجهي، قائلا: ما هذا يا «عزّي» الأرض كرة تدور حول الشمس؟!! هذا مخالف للدين، يقول الله سبحانه: (وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) سورة الشمس. قلتُ له: يا سيدي الصفي، لو كانت الأرض مسطحة وثابتة تدور الشمس حولها لما غربت الشمس عن سطح الأرض أبدا، ولكان هناك نهار دائم بلا ليل، ولكن تعاقب الليل والنهار يأتي من دوران الكرة الأرضية حول الشمس، ولذلك تشرق الشمس من المشرق على واجهة من الأرض دون واجهات أخرى، ثم تدورُ الأرضُ حول الشمس فتبدأ في الابتعاد عن الواجهة المشرقة نهارا وتغرب فيها، وتقترب من واجهات أخرى، بفعل دوران الكرة الأرضية حول الشمس، فقبل أن تشرق الشمس على بلادنا والأقاليم القريبة منا تكون قد أشرقت في إندونيسيا –مثلا– قبل أن تشرق علينا بخمس ساعات، ولا تشرق على أمريكا إلا بعد شروقها علينا بنحو تسع ساعات، وهذا يؤكد أن الأرض كروية تدور حول الشمس.

وقلت له: يا سيدي، إن الله يقول: والأرض وما طحاها، ولم يقل وما بسطها، وهناك علماء يقولون إن معنى طحاها أي كوّرها، وحتى عندما نتأكد أن معنى طحاها أي بسطها فهذا لا يمنع أن تكون الأرض كروية؛ لأن ضخامتها تجعل كل جانب من جوانبها مسطحا مبسوطا، لا ترى العين المجردة منه إلا جزءا بسيطا جدا من السطح، فهي كروية ومبسوطة في الوقت نفسه، وهنا غضب العلامة الصفي محبوب، ونهض صارخا في وجهي، وأخذ بتلابيبي يهزني، طالبا مني العودة عمّا أقول؛ لأنه مخالف للدين، ولأنه كفر. قلتُ له: أنت من علماء الدين، وتعرف أن الإسلام يحرّم تكفير المسلم الذي ينطق بالشهادتين، حتى ولو كان منافقا، فكيف أجزت لنفسك تكفيري وأنا مسلم، وأنت عالم؟ وتدخّل الإخوان الآخرون وهدّأوا الموقف، ولاموا الصفي محبوب، وبعد أن هدأ الموقف، وعاد إلى مكانه قلتُ له: يا سيدي الصفي إن جميع رهبان المسيحين في أنحاء الأرض تؤمن الآن بنظرية جاليلو، وإن جميع أحبار اليهود يؤمنون بنظرية جاليلو، وإن علماء الأزهر وشيخ الأزهر وأكثر علماء المسلمين في كل مكان يؤمنون بنظرية جاليلو، وإن أستاذنا إبراهيم خليل قد علّمنا في مكتب الأيتام أن الأرض كروية، تدور حول الشمس، وعمري أقل من ثلاث عشرة سنة، وإن في اليمن كثيرا من علماء الدين يؤمنون بنظرية جاليلو، ومنهم القاضي عبد الرحمن الإرياني والقاضي أحمد المعلمي، والقاضي محمد علي الأكوع، والقاضي محمد السياغي، وأشرت إليه.

يا سيدي الصفي: لقد تعايش رسول الله والمسلمون، مع المنافقين من أهل المدينة، وهو يعرفهم ويتلو آيات الله القرآنية فيهم، ومع ذلك لم يجد له سبيلا لتكفيرهم، لأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله كذبا ونفاقا، وهم غير مؤمنين، وعندما قتل خالد بن الوليد رئيس قبيلة نقضت العهد بعد أن جاء إليه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، استنكر الرسول والمسلمون ما فعله خالد، وعندما عاد وقابل رسول الله لامه على ما فعل، فاحتج خالد بأن الرجل أسلم تقية، وهو غير مؤمن، قال له رسول الله: هل اطلعت على ما في قلبه؟ كيف لك بلا إله إلا الله يا خالد؟ ورددها عليه مرات. يا سيدي الصفي.. من حقك أن تكذّب نظرية جاليلو،

ولكن ليس من حقك أن تكفّر ملايين العلماء وغير العلماء، إذا صدّقوا وآمنوا بنظرية جاليلو.

وكان الصفي محبوب قد عاد إلى مكانه، واستمع إلى ما قلته بهدوء، ثم نهض واتجه نحوي، وظننت أنه سيضربني وهو قوي البنية، وأنا ضعيفها؛ ولكنه أخذ رأسي بين يديه، وقبّلني في جبهتي قائلا: أشهد لله أنك أفضل مني وأعلم مني فسامحني، وقد ذكرت هذه الحادثة، لأبيّن أن بعض الأحرار في اليمن قد ناضلوا ضد الإمام يحيى وأسرته من خلال عقيدتهم وثقافتهم التراثية التي لم تتأثر بثقافة العصر وروحه.

وعندما كان الاختلاط أو التواصل بيننا وبين من في الدار ممنوعا، كنتُ أخرجُ وأرسفُ في قيودي غاليا قبل طلوع الشمس عندما يكون أكثر الحرس لا يزالون نائمين، وأتسلّلُ إلى خلف الدار من الجهة الشمالية، وفي الدار كوة صغيرة، كان صديقي القاضي أحمد المعلمي يأتي ويطلّ منها نتحدث، وقد يرمي لي بأوراق فيها أخبار، وذات يوم قمتُ بهذه العملية، وعندما اقتربتُ من الدار متسللا رآني أبو الهول الشاوش صالح النهدي وأنا أسرع الخطى بقيودي، فصاح: شوفوا، شوفوا السبوة «تتقمبع» إلى خلف الدار، وسمعته، ولكني بقيتُ أمشي مسرعا إلى خلف الدار، وغبت عن ناظر «أبو الهول»، ولكني ابتعدت عن الدار مسافة حتى رآني بعيدا عن الدار، وكان زملائي يتابعون المشهد، وعندما عدت استجابة لطلب «أبو الهول»، وصلتُ إلى زملائي، وهم يضحكون جميعا ويدعونني «السبوة»، والسبوة في اللغة الدارجة بنت العنزة الصغيرة التي تتقفز أمام أمها مرحا وحيوية. وقد استدعاني النهدي وحقق معي، فقلتُ له: يا نقيب صالح أنا خرجت أتمشى من «الضبح»، لو كنتَ أنت المسجون وأنا الشاوش لبقيت تمشي طول اليوم من «الضبح»، وبدلا من أن أسميك السبوة، آمر بفك القيد من رجليك، وأسميك الضابح. يا شاوش عيب تسميني سبوة، وأنا إنسان، فضحك «أبو الهول»، وقال: اسم على مسمى، أنت «تتقمبع» مثل «السبوة».

قاهرة حجة تحوّلت لمجمع تعليمي

مرّت الأيام والشهور، وبدون اختيارنا وجدنا أن قاهرة حجة قد تحوّلت إلى مجمع تعليمي، ابتداء من المرحلة الابتدائية، وحتى المرحلة الجامعية. وأن المساجين قد أصبحوا أساتذة وطلبة في هذا المجمع، وجدنا أن الأولاد: إبراهيم ومحمد بن محمد الوزير ومحمد بن الإمام عبد اللّه الوزير وعلي بن عبد اللّه السلّال، وعبد اللّه عبد السلام صبرة، وأحمد محمد الغفاري وآخرين لم أعد أذكرهم قد كوّنوا تلاميذ المرحلة الأساسية الأولية، ووجدنا إبراهيم بن علي الوزير وإخوانه زيد وقاسم ومحمد وبعض المساجين يشكّلون طلبة الجامعة التي تشبه جامعة الأزهر، ووجدنا أننا جميعا نثقّفُ أنفسنا ذاتيا، وندرس بعض الكتب في علوم الدين، وعلوم التاريخ، وفنون الأدب والشعر على من هم أكثر منا علما، ومنهم القاضي عبد الرحمن الإرياني، والأستاذ أحمد حسين المروني، والقاضي محمد علي الأكوع، وصار المسجد الصغير مسجدا للعبادة وقاعة للدراسة.

وذات يوم استدعاني صديقي الشامي وسلّمني قصاصات، كنا قد كتبنا فيها مسودة كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» الذي اشتركت معه في تأليفه، واستغربت، وقلت له: كيف تنقله معك إلى سجن قاهرة حجة، وأنت تعرف أنهم سيفتشّوننا تفتيشا دقيقا؟ قال لي: عندما توقّفنا عن كتابته كان لديّ مخدّة محشوة بالقطن، فأخرجت القطن منها، ووضعتُ الأوراق داخل القطن، وأعدته إلى كيس المخدّة، وبقي فيها حتى انتقلنا إلى القاهرة والمخدّة معي، وتناولتُ منه الأوراق، ونقلت ما فيها إلى أوراق عادية، وقد كتب صديقي صفحة واحدة، وكتب السعادة الخالدة عبد السلام صبرة صفحات عدة، أما جلُّ ما في الأوراق فقد نقلتها بخطي، ثم نسيتُ كيف تم إخراجه إلى خارج القاهرة، حتى وجدته عند أخي أحمد عقب قيام ثورة 26 سبتمبر 1962، ونشرته في عام 1986، ولا تزال مسودته بخطي حينذاك موجودة معي حتى الآن.

وبعد أن استقررنا في «حرّ البقرة» عرفنا أن الحرس الذين يتولّون حراسة القاهرة وما فيها ومن فيها من المساجين هم الشاوش صالح علي النهدي، وتسعة وثلاثون

من العسكر النظاميين التابعين له، وهؤلاء يحتلّون باب القاهرة، ويعتبرون أنفسهم المسؤولين الأساسيين في القاهرة، وكل ما يدخل إليها، أو يخرج منها يجب أن يفتّشوه ويعرفوا ما فيه، ويمنعوا أو يسمحوا به، وكانت الرسائل منا أو إلينا تُعرض على الشاوش، ويكتب فيها: عرض، ويعرض على مولانا النائب، وعرفنا أن هناك حرسا آخرين يسكنون قرب الدار، وهم عرائف البرانيين وأصحابهم، وهؤلاء من حجور والأهنوم، والعرائف هم الشيخ ناجي جعمان، والشيخ حزام عايض البرغشي، وكانوا أميين، ويفكرون بعقول متخلفة غبية، وأما الشيخ ناجي فهو نصف مجنون، يتخذ القرارات بدون تفكير، وينقضها ربما في اللحظة نفسها بلا تفكير، أما الشيخ البرغشي فبرغم جهله وغبائه، إلا أنه ذكي في الشر، وكثيرا ما يؤذي المساجين أو بعضهم بلا سبب إلا لؤمه. وأقلُّ العرائف سوءا كان الشيخ علي محمد عايض الضاعني، ففيه رجولة وعزّة نفس، وعندما قالوا له: إن اختلاط المحابيس فيما بينهم ممنوع، وممنوع أن يتحدّث أحدهم مع صاحبه قال لهم: هذا مما لا يطاق، وهم في محيط ضيق، وقد سلّموهم لي لحفظهم، حتى يطلقهم الإمام أو يعدمهم بالسيف، وإذا فُقد أحدهم فأنا المسؤول، ولكن اكتشفنا أن عرائف البرانيين يتغيَّرون، فالشيخ قد يعود إلى البلاد بعد أن يجعل ابنه أو أخاه، أو أيا من أقاربه بدلا منه، وهكذا. وكان الإمام قد قرّر لكل عريفة مبلغ ستين ريالا شهريا عقب انتصاره، وعيّنهم في القاهرة، ولكنه بعد مرور عام أو أكثر جعل المرتب ثلاثين ريالا بدلا من ستين.

ويبدو أن عرائف البرانيين قد قرّروا أن يكونوا هم المسيطرين على القاهرة، بدلا من الشاوش والنظام، وبدأوا اتخاذ قرارات، لإيذاء المساجين، إثباتا لسلطتهم. ومن خلال ممارسات الحرس معنا تأكد لنا أن الشاوش أكثر فهما وذكاء وحذرا من العرائف؛ بل كان أقل شرا وأكثر تسامحا، واستدل على ذلك بحادثة حدثت لي، فبعد فترة استطعنا أن نوسّع حلقات القيود على أقدامنا، بحيث نستطيع أن نخلع القيد أو نركبه من جديد، وكنا غالبا نخلع القيود في الليل. وذات يوم في المساء دخلتُ إلى خيمة النوم، وأزلتُ القيد من رجلي، وخلال ذلك دخل الشاوش أبو الهول ورآني أخلع القيد، فصاح: «معطت» القيد يا فسيّل، بيننا الصباح، ثم خرج من «حرّ

البقرة»، وتركني للهواجس طول الليل أفكر فيما سينزله بي في الصباح، لكنه تجاهل الموضوع، وتبيّن أنه كان يعرف أننا جميعا نخلع قيودنا في المساء، ولكنه كان يتجاهل ذلك.

باعتقادي أن الإنسان حيوان «مدندن»؛ أي يغني بأصوات عند الفرح أو الحزن أو الضجر، حتى قبل أن يخترع اللغة، وحتى بعد أن اخترع اللغة، ولا يجد كلمات يغني بها، يلجأ إلى أصل الأغنية وهي «الدندنة». وكان صوت زميلنا المشير السلال صوتا قويا مقبولا عندما يتمرّنُ على إلقاء الخطب الرنانة، ولكن صوته كان رديئا عندما يغني الدندانة، ولذلك كان يذهب إلى نوبة بعيدة من نوب قلعة القاهرة، وهناك يغني وحده لنفسه ويدندن...!

وذات يوم كنتُ أتمشّى مع أستاذي أحمد المروني، ووصلنا إلى النوبة البعيدة، ووجدنا المشير السلال يغني دون أن يرانا أو يسمعنا، ووقفنا نسمعه يدندن، وبعد أن أحسّ بنا توقف عن الدندنة، فقال له أستاذي أحمد المروني: أحسنت بالدندنة بعيدا عن السكّان، لأنك تجرّب الغناء بعيدا، كما يجرّبون القنبلة الذرية، فقال المشير: روح لك مني يا مروني.. بعدي بعدي من العراق إلى نوبة القاهرة، وضحكنا الثلاثة. وعدنا إلى «حرّ البقرة» وحاولنا إقناع المشير بأن يغني لنا فيها، ولكنه رفض. وكان أستاذي أحمد المروني عندما يلعب مع الآخرين لعبة البطة أو غيرها يأخذ اللعب بجد، فهو إذا انهزم يشعر بنوع من الغضب، وعندما ينتصر يشعرُ بنوع من الفرح.

وذات يوم كنا نلعب البطة أنا مع السيد محمد الغفاري، وأستاذي مع الأخ علي الغفري، وبدأنا ننتصر في اللعبة، وبدأ أستاذي يشعر بنوع من الغضب، وعندما تأخر الغفاري قليلا قبل أن يطرح ورقة البطة قال له أستاذي: العب يا «ضفدعة».. وبكل برود قال له الغفاري: ما لكم يا سيدي الصفي «تقطبون» بوجه مثل خريطة تركيا كلها مضايق؟! فضحك أستاذي من الجواب وضحكنا معه، وقال للغفاري: ما ذكّرك بتركيا؟ فقال: وجهكم يا سيدي الصفي، شوفوه في «المراية» أي المرآة. وفي قاهرة حجة اكتشفت أن صديقي أحمد عبد الرحمن المعلمي كان أكثرنا حيوية ونشاطا

وعطاء في الأدب، والشعر، والسياسة، والفكاهة. كان كالنحلة تمتصُّ الرحيق من الزهور، ثم تحوّله إلى عسل فيه شفاء للناس، دون أن تؤذي الزهرة. وبعد أن صار التواصل بين من في «حرّ البقرة»، ومن في الدار سالكا، والاختلاط مسموحا به في كثير من الأحيان أخذت علاقة الصداقة بيني وبين صديقي المعلمي تتعمّق وتقوى وتأخذ طابع المشاركة في كل شيء، إنه شخصية في ذاتها شخصيات متعددة، فقد كان مثقفا ذا ثقافة واسعة، ومتبحرا في علوم الدين ومستنيرا عميق الفهم، وأديبا وكاتبا وشاعرا ولديه مقدرة على الحفظ، وكان حلو الحديث، سريع البادرة، يجيد النكت والمرح، ومناضلا وطنيا ليس لطموحاته الوطنية حدود. والمعلمي تولّى القضاء بين الناس في أول شبابه، وفي السجن أصبح طبيبا يداوي المساجين والرسَم والمجانين. إن أفضل ما يمكن أن يقال عن المعلمي إنه عرك الحياة، وعركته فأخضعها لإرادته. هذا بعض من شخصيات صديقي المعلمي صرف الله عنه شياطين الإنس والجن، وفي مواضع أخرى سوف أذكر صديقي المعلمي؛ لأن العلاقة بيني وبينه تطورت بشكل لا حدود لها، حتى توفاه الله، وقد رثيته بقصيدة حزينة.

ومن نشاطات وإبداعات صديقي المعلمي إصداره مجلة «السلوة» في قاهرة حجة، قبل نقلنا إليها من سجن نافع بشهور عديدة، ويبدو أن مجلة «السلوة» لم تدم طويلا، فقد أُطلق من «القاهرة» الأستاذ أحمد محمد نعمان، وأُطلق عبد الملك المطاع، ولم يتعوّد القاضي عبد الرحمن الإرياني وزميله القاضي محمد علي الأكوع على كتابة المقالات الصحفية، ولذلك كما يبدو وجد رئيس التحرير أن مجلته بدون محررين. وبعد أن تلاشت الممنوعات، وأصبح التواصل والاختلاط بين من في «حرّ البقرة»، وبين من في الدار مسموحا عرض عليّ صديقي المعلمي النسخة الوحيدة الباقية معه من مجلة «السلوة»، وجاء في أول صفحتها الأولى ما يلي: «السلوة، الافتتاحية، العدد الأول»: بدون تاريخ وبدون تعريف أن «السلوة» مجلة. وليست عنوان موضوع، ويبدو أن صديقي المعلمي كانت لديه قدرة على كتابة المقالات الصحفية، ولكن لم تكن لديه معرفة بفن إصدار الصحف في البداية، وكان المقال الرئيس بعنوان: «اضحك وما «طن.. طن»»، ويعقّب المعلمي على

كل مقال، ويبدو أنه في عدد مجلة «السلوة» ربما الثاني، قد تنبّه إلى إخراجه صحفيا فتضمن المعلومات الأساسية على هذا النحو: «السلوة: مجلة أسبوعية، أدبية، اجتماعية، تاريخية، فكاهية -تصدر في سجن قاهرة حجة-العدد الثاني- الخميس 1369/7/2هـ».

«هل السجن يوفر العقل»؟ كان هذا هو عنوان المقال الرئيسي، ويبدو أن مجلة «السلوة» قد توقّف صدورها بعد هذا العدد، وقد اطلعنا على العددين بعد وصولنا إلى «حرّ البقرة» بفترة قصيرة. وعندما انكسر حاجز منع التواصل والاختلاط بين من في «حرّ البقرة»، وبين من في الدار جلس معي صديقي المعلمي، وكان أسلوبه في مناقشة أي موضوع أسلوبا محبّبا متميزا، قال لي: أريدُ أن أناقش معك موضوعا بأسلوب «أهل مدخل»، قلتُ له: ومن هم أهل مدخل؟ قال: النصارى في أوروبا. قلتُ له: هؤلاء «أهل مخرج» لا «أهل مدخل»، قال: قُتل الإمام يحيى وهو يسمّيهم «أهل مدخل» وسيبقى ابنه الإمام أحمد يسمّيهم «أهل مدخل»، والشعب معه إلى أن يموت أو يقتل. ثم أردف: بعد انضمامكم إلينا في قاهرة حجة أصبحنا مجموعة من العلماء والأدباء والشعراء والباحثين، ولو أننا أصدرنا مجلة ثقافية تصدر بأقلام هذه الكوكبة من المثقفين لكانت مجلة راقية، تقتربُ من مجلة «الرسالة» للزيات، أو مجلة «الثقافة» لأحمد أمين، وأيّدته بحماس، فأخذتُ ورقة وقلما وكتبتُ ما يلي: «مجلة «الندوة» الثقافية-مجلة يمنية تُعنى بالثقافة والأدب والفنون- صاحب الامتياز.. رئيس التحرير أحمد عبد الرحمن المعلمي- هيئة التحرير.. مجموعة من المثقفين في السجن، وتناولت منه القلم والورقة وكتبت عنوانها كالآتي: مجلة «الندوة» الثقافية- مجلة مستقلة لا شرقية ولا غربية- صاحب الامتياز - ص. و. م- هيئة التحرير- مثقفون «محاصرون»، وسألني صديقي المعلمي: من هو «ص. و. م»؟ قلتُ له: صفي الإسلام ابن وجيه الإسلام المعلمي، وضحك دون تعليق، وسألني: لماذا قلتُ «محاصرون» ولم تقل «محصورون»؟ قلتُ له: محصورون عددا، ومحاصرون في المعتقل. قال: ولكن لها معنى آخر في اللهجة الصنعانية، وضحكنا للمعنى الآخر.

وصدرت مجلة «الندوة»، وشارك في تحريرها أكثرُ الـمساجين، وخصوصا أستاذي أحمد حسين الـمروني، وصديقي أحمد محمد الشامي، وزميلنا عبد اللّه السلال، والشاب الأديب محمد صبرة، وكان السعادة الـخالدة عبد السلام صبرة يكتب أحيانا موضوعا قصيرا كعادته. وكذلك القاضي عبد الرحمن الإرياني، والقاضي محمد السياغي. وكانت مجلة «الندوة» كما أذكر تصدرُ في قرابة 30 صفحة، من القطع الـمتوسط، ويتولى كتابتها صاحب الامتياز رئيس التحرير الـمعلمي، وكنتُ أعاونه أحيانا في الكتابة. كانت تصدر في نسختين: الأولى تبقى يتناولها الـمتعلقون في قاهرة حجة، والثانية كان الـمعلمي يحتفظ بها لديه؛ ليرسلها إلى القاضي فضل الإرياني، لحفظها، ولم أعد أذكر كم عددا صدر منها، وكان رئيس التحرير الـمعلمي يعلّق على كل ما ينشر لأعضاء هيئة التحرير تعليقات خفيفة الروح والدم.

وفي العددين الأخيرين من مجلة «الندوة» ثار فيها نقاش حامي الوطيس، حتى فار كما تفور «جمنة» آل الكبسي. وكان موضوع الفوران هو الإنسان: هل هو خيّر بطبعه؟ أم شرير بطبعه؟ وقد بدأ الفوران صديقي أحمد الشامي وختمه حين كتب مقالا عن الإنسان، توصل من خلال التحليل أن الإنسان خيّر بطبعه، لأنه خُلق على الفطرة التي فطره الله بها، خيّرا موحدا به، وإنما أبواه ينصرانه أو يهودانه. وفي العدد نفسه أبديت ملاحظات على مقال صديقي، لا تقرّه إلى ما ذهب، وقلت فيه إن فطرة الإنسان التي فطره الله بها هي القوى التي أودعها فيه، للدفاع عن بقائه نوعا وجسدا وروحا وفكرا وغرائزا، ولا دخل لها في موضوع الـخير والشر؛ لأن الـخير والشر صناعة اجتماعية، وليست فطرة إلهية، فالإنسان الذي يهدم قوانين ومبادئ الـمجتمع بما فيها تعاليم الأديان والشرائع السماوية لمصلحته الذاتية يكون شريرا، بحكم قوانين وتقاليد الـمجتمع، وأما الإنسان الذي يراعي مصلحته من دون الإضرار بمصالـح الآخرين في الـمجتمع فيكون خيّرا. ولكن صديقي الشامي تحمس لرأيه حتى كفّر من يخالفه. ولما رأى القاضي الإرياني أن الـموضوع قد تعدى آداب النقاش إلى التعصب والتكفير أمرنا بإغلاق مجلة «الندوة»، وكانت مجلة ناجحة بكل الـمقاييس، بفضل صديقنا جميعا القاضي الـمعلمي.

ومن نشاطات صديقي المعلمي طلوعه إلى سطح الدار، يزاولُ حركات رياضية عند طلوع الشمس، وقد رآه العريف ناجي جعمان، وهو ينحني ويستقيم في حركاته الرياضية، فملأ الدنيا صياحا بأن المعلمي يعبد الشمس في كل يوم من دون الله، وحاول أن يكتب برقية إلى الإمام بذلك، وطلع وأغلق باب سطح الدار، وأمر بدقّ قيد آخر في رجل المعلمي، وبعد مراجعات ودفع رشوة أتى العريفة وفتح باب السطح، وفك القيد من رجل المعلمي.

وأقبل رمضان عام 1370هـ وعلاقتي بصديقي أحمد المعلمي أقوى وأعمق ما تكون الصداقة، فقال لي: ما رأيك أن نقرأ القرآن في هذا الشهر الكريم بتأمل الدّارس لا بأسلوب «الدريس»؟ قلتُ له: ذلك أقربُ إلى الله، ولكن أرى ألا نستعين بأي تفسير للقرآن، وأن نستعين بمصحف يذكر معنى الكلمات، وبكتاب أسباب النزول، لنعرف ظروف نزول الآيات. قال لي: أسباب النزول ستجعلنا نتوه في الأسباب، بدلا من تأمل الآيات. وهكذا بدأنا نتأمّلُ آيات القرآن، بعيدا عن التفاسير وأسباب النزول، وكان شهر رمضان هذا أفضل رمضان صمتُه في حياتي. وقد استفدنا من تأمل آيات القرآن الكريم فائدة كبيرة، ووجدنا أن الإنسان قد ورد في كثير من آيات القرآن، وفكّرنا أن نكتب كتابا بعنوان: «الإنسان في القرآن»؛ لنؤكد أن الله قد خلق الإنسان حُرا، وأنه مخيّر لا مسيّر، فهو الذي يجعل نفسه شريرا أو خيّرا، عادلا أو ظالما، مؤمنا أو كافرا. وفي سورة الشمس أقسم الله بنفس الإنسان: (ونَفْس وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا).

ومرت الأيام والشهور والسنون، وأنا لا أعرف مصير كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» وقرّرتُ في أوائل عام 1953 أن أكتب كتيبا، أو رسالة بمعنى الكتاب، ولكن بأسلوبي، فكرا وكتابة. وكتبتُ خلال أيام رسالة «نحو النور» ثم عرضتها على صديقي أحمد المعلمي، فاستعرضها ثم احتفظ بها. والغريب أنني نسيتُ هذا الكتيب أو الرسالة، ولم أعد أذكر أنني كتبتها، لأنني دخلت مع صديقي المعلمي في كتابة كتاب ضخم، استغرق منا أكثر من عامين، فقد كنتُ أجلس مع صديقي المعلمي نتناقش في كل شيء أدبا، وشعرا، وفلسفة، وأشتاتا من الثقافة العامة،

وكانت السياسة والقضية الوطنية اليمنية تأخذ جُلَّ ما نناقشه.

وفي هذا الجو انفجرت ثورة 23 يوليو 1952 في قاهرة مصر، وانشغلنا جميعا بإقامة مهرجانات ثقافية وشعرية في قاهرة سجن حجة، تأييدا لثورة مصر، وقد أصدر صديقي المعلمي بعد ثورة 26 سبتمبر في عام 1407هـ-1986 كتابا بعنوان: «الثورة المصرية في الأدب اليمني»، وفيما يلي مقتطفات من الكتاب، جعلت لها العنوان التالي: «الثورة في قاهرة مصر، والمهرجانات في سجن قاهرة حجة»، وفي شهر يوليو 1952 كنا في سجن قاهرة حجة، نشعرُ بأن الإمام قد قرّر سجن المعتقلين فيه سجنا مؤبدا، ولا أمل لنا في الخروج من السجن.

وفجأة حدث ما لم نكن ننتظره، فقد فجّر مجموعة من ضباط الجيش المصري ثورة ضد الملك فاروق والملكية، بقيادة اللواء محمد نجيب، وفجّرت ثورة مصر ثورة في نفوس المعتقلين في سجن قاهرة حجة، وآمالا كبيرة لدى كل الأحرار في اليمن، تتطلع لانفجار ثورة جمهورية يمنية. وفي سجن قاهرة حجة، أقام المعتقلون مهرجانات مؤيدة لثورة مصر، وداعية لثورة في اليمن، وكانوا مجموعة من الأدباء والشعراء الأحرار الذين شاركوا في ثورة 48 الدستورية، وسقطوا بسقوطها تحت أقدام الطغيان مرة أخرى، وسقط إمام الدستور عبد اللّه الوزير، وانتصر إمام الطغيان أحمد حميد الدين. وجاءت ثورة 23 يوليو 1952 في مصر فرحّب بها المعتقلون في سجن قاهرة حجة في مهرجانات خطابية، وقصائد شعر ثائرة، جمعها -فيما بعد- القاضي الأديب الشاعر أحمد عبد الرحمن المعلمي في كتاب نشره في عام 1407هـ-1986 بعنوان: «الثورة المصرية في الأدب اليمني». وكان صديقي المعلمي كالنحلة التي تبحثُ عن رحيق الزهور، لتحوّله إلى عسل، فيه شفاء للناس دون أن تضرّ بالزهور. وكانت المهرجاناتُ الأدبية المؤيدة لثورة مصر في سجن قاهرة حجة فريدة من نوعها، لا يماثلها أي مهرجانات أدبية حتى في مصر الثائرة. وأتذكّرُ الآن تلك المهرجانات التي أقمناها في السجن لأيام عديدة. أتذكرها الآن بعد مرور خمسين عاما، وكأنها لا تزالُ بكل حماستها وثورتها وفرحتها تنبعث في نفسي، وفي فكري، وفي ذاكرتي الآن حيَّة دفّاقة بالمشاعر.

وقد أورد صديقي المعلمي في كتابه هذا خمسة عشر شاعرا أديبا أحيوا المهرجانات بخمس عشرة قصيدة من الشعر الرفيع، عدا الخطابات المرتجلة حينذاك وهم: الأديب الشاعر صديقي أحمد محمد الشامي، وقصيدته «ثورة مصر» -الأديب الشاعر أحمد عبد الرحمن المعلمي، وقصيدته «الملك الطريد»- الأديب الشاعر محمد صبرة، وقصيدته «مصرع الطغيان» -الأديب الشاعر محمد عبد اللّه الفسيّل، بعنوان: «سقوط فاروق»- الأديب الشاعر أحمد حسين المروني، وقصيدته «سقوط الملك فاروق»- الأديب الشاعر الشاب زيد بن علي الوزير، وقصيدته «صوت الحرية»- الأديب الشاعر الشاب قاسم بن علي الوزير، وقصيدته «نشيد الانقلاب المصري»- الأديب الشاعر إبراهيم بن علي الوزير، وقصيدته «آية التمجيد»- الأديب المناضل علي الغفري، وقصيدته «سقوط فاروق» -الأديب الناشىء محمد بن الإمام عبد اللّه الوزير، وقصيدته «فجر الحرية»- الأديب الناشئ محمد بن علي الوزير، وقصيدته «سقوط فاروق» -الأديب إبراهيم بن محمد أحمد الوزير، وقصيدته «اللواء محمد نجيب» أو «بطولة الإخلاص» -الأديب الشاعر عبد الصمد بن محمد الوزير، وقصيدته «تحية لنجيب أو يا شرق صفق»- السيد العلامة أحمد بن محمد بن علي الوزير، وقصيدته «الطواغيت المحطمة» -الأديب محمد عقيل الإرياني «لم يكن من المعتقلين كما أذكر»، وقصيدته بعنوان: «فاروق الملك الطريد». وقد تقدّم هؤلاء الشعراء في المهرجانات المؤيدة لثورة مصر واحدا بعد الآخر.

- هذا صديقي أحمد محمد الشامي يلقي في المهرجان قصيدة رائعة تتكوّن من مئة واثنين وعشرين بيتا من الشعر الرائع، يقول في مطلع القصيدة:

أي صوت دوّى فهزّ الوجودا
وأنابت له العقول سجودا
أي صوت تفزَّعت خيفة منه
عروش وأوشكت أن تبيدا

ويستمرُّ صديقي الشّاعر يلقي قصيدته في المهرجان إلى أن يصل إلى البيت 72 من قصيدته فيقول:

وقف الدهر خاشعـــــــا «لنجيب»
وهو يحـــدو إلى الـخلود الأســـودا
وينـادي الـمليك أن يخلع التـــاج
وأن يهـــجـــر البـــــلاد طريـــدا
قـــبل أن تحطم الرصـــاص ضلوعـــا
حـــبـــست تحـــتـــهـــا فـــؤادا بليـــدا
فـــاســـتطار الـمليك ذعـــرا وأمـــضى
ذلك الصك واجـــــفـــــا رعـــــديدا
وعـــيـــون الأقـــدار ترمق كـــفّـــا
كـــان سلطانهـــا رهيـــبـــا شـــديدا

وبعد أن أنشد بصوته الثائر مئة وبيتين من القصيدة، جلجل صوته بالبيت الثالث بعد الـمئة..

أيها الظالـمون قد مات عـهد الظلم
فـــاســـتـــبـــدلوا شـــعـــارا جـــديدا
شـــرعـــة القـــيـــد لم تعـــد ترهب النا
س ولـكـن يـبلونهـــــا تـفـنيـــــدا
والقـــــوّي الـجـــبّـــار لم يبق ربّا
مـــبـــدئا في رقـــيـــقـــه ومـــعـــيـــدا
والســـلالات قـد هوت بالـمـــســـاوا
ة وأمـــسى الورى عليـــهـــا شـــهـــودا
إنهـــا حكمـــة «الشـــريعـــة» تأبى
أن ترى الناس ســـيـــدا ومـــســـودا
فاهبطوا من عـروشكم واسكبوا الـما
ضي دمـوعـا وحـســرة وسـجـودا

واجـرعـوا الذل من كـؤوس عـصـرتم
خـمـرها مُـرّة، ومـوتوا عـبـيـدا
فلكم في «الفـاروق» عـبـرة حـال
ضل في أمـره ضـلالا بعـيـدا

- وبعد صديقي الشامي يقومُ في المهرجان صديقي الآخر المعلمي، وبروحه المرحة يخاطبنا خطابا عن عبرة سقوط فاروق، ثم ينشد قصيدة رائعة بعنوان «الملك الطريد» تتكون من 59 بيتا من الشعر الرائع، ومطلعها:

صُـرع الـجـور واضـمـحلت عـهـوده
وتـولّـت أعـلامـه وبـنـوده
ومـضى تائهـا زمـان الفـراعـ
ـين طـريـدا ممـزقـات بـروده
رفعت مصر معول الحق ضد الظلم
والـحـق لا يُـفَـلُّ حـديـده
لقّنت درسـها البليغ شـعـوبا
صـدّها الـحـاكـمـون عـمّـا تريده
عـرّفـتـهـا بلاغـة الـجـد فـيـمـا
يتـقى نحـسـه ويُرجى سـعـوده
ضلّ من يحكم الشـعـوب بما لا
ترتضـيـه وفي يديهـا قـيـوده
والـمـلايين سـخطهـا القـدر الغـا
لـب، والـدهـر عـونـه وجـنـوده
وأمـاني الشـعـوب مـوج عـتيّ
لـيس شـيء يرده أو يبـيـده
لا يبـالي بأي عـات ولـو كـا
نت إلى الأنبـيـاء تنمى جـدوده

لا يرعك البـركـان يقـذف إعـصـا
را، وحـاذر شـعـبـا تثـور حـقـوده
تسـتنيم الشـعـوب دهرا فـإن هبّت
أتت بالطاغي أسـيـرا تقـوده
كم مليك يظن جـهـلا بأن
الناس خـدام بابه وعـبـيـده
بات في أسـره الألوف وأضـحى
وهو في الأسـر لا تفك صـفـوده
أو شـريدا يسـيـر في وهج السـخط
إلى حـيـث لا يُحسّ وجـوده
وطريد الشـعـوب تصـحـبـه اللعنة
يمـضـي يـرودهـا وتـروده
يا شـبـاب العـروبة الـحـر كـونوا
مـثـلا صـالـحـا يدوم خلوده
ليـست الأرض للضـعـيف ولا
الـمـجـدُ لمن لان عـزمـه وحـديده
فـاعـصـفـوا بالعـروش إن هي لا تر
ضى لشـعـب أن الفـخـار يسـوده

- وفي الـمهرجان تقدّم الشاعر الـمناضل الـحر الأستاذ أحمد حسين الـمروني، وبصوته الـمؤثر بدأ قصيدته الرائعة البالغ أبياتها 140 بيتا من أروع الشعر، وكنتُ أريد أن أسجل هنا هذه القصيدة الرائعة كاملة لولا خشية التطويل، ومطلعها:

حي عـهـد التـحـرير نورا ونارا
وابتكرها تحـيـة لا تجـارى
وتخـيّـر من الـقـوافيَ أحـلا
ها رنـينـا وخـيـرها تـكرارا

من نشيد الأحرار في حومة المجد
وقد توَّجوا الطغاة الشفارا
من سنا الشمس بعدما أسفر الصبح
وأجلى عن العيون الغبارا
من بريق السيوف سُلّت على الظلم
وقد أوسعته ذلا وعارا
فلقد هبّت «الكنانة» كالبر
كان حقدا يطارد الأشرارا
وإذا بالأبطال تهتف لبيك
وأكرم بمثلنا أحرارا
وإذا بالجنود حول «نجيب»
يتلقون أمره الجبارا
وهو يرنو إلى حمى الملك
المُترف والشعب يسكن الأغوارا
فمشى في شجاعة نحو «قصر
التين» يُضفي التُقى عليه وقارا
يرسم الخطة الجريئة للقبض
على الجور عنوة واقتسارا

ومنها يخاطب فاروق:

سر إلى حيث لا تعود ولا تأ
مل رُجعى ولا تُرَجَّى انتصارا
وانصح الظالمين كي يستفيقوا
ويروا فيك عبرة وادكارا
قل لمن يملك الشعوب: ترفّق
بالرعايا ولا تكن جبّارا

كـيف تسـتـعـبـدون ناسـا براهم
خـــالق الكـون في الورى أحـــرارا؟!

ويخاطب ثورة مصر:

إيه يا منحـــــة الإله لكل النـاس
كـــوني مـــثل الشـعـــاع انتـــشـــارا
وادخلي كل مـــهـــجـــة وضـــمـــيـــر
واسكني كـــالأشـــعـــة الأبصـــارا
ثم طوفي كـــــالـشـــــمس كل بلاد
واجـعلي غـــاية الشـعـــوب مـــدارا

إلى أن يقول مخاطبا ثورة مصر:

أنتِ لـلـمـــــــبـــــــدعـين أمّ رؤوم
أرضـــعـــتـــهم لِبـــانهـــا أنوارا
فـمـتى يا حـبـيـبـة الروح والعـقل
تـزورين شـــــعـــــبي الـخـــــوارا
ومـــتى تبـــعـــثين في دمـــه رو
حـــا قـــويا يفـــيض نورا ونارا
ومـتى تشـرقين شـمـسـا على قـو
م يعـيـشـون في الظلام حـيـارى
ومـتى تعـصـفين يا شـعلة الـحق
بعـــرش يغـــالب الانـهـــيـــارا
شـــادهُ الوهـم والـخـــرافـــة غـــولا
«هاشـمـيـا» يسـتـخـدم الأسـحـارا

إلى أن يقول مخاطبا الثورة إنقاذ الشعب اليمني:

أدركـيـه فطالـمـا فـاض بالـخـيـر
وأحـــيـــا الشـــعـــوب والأقطارا

وبنى للتـــاريخ مـــا أدهش الفكر
حـــصـــونا تقـــاوم الإعـــصـــارا
وقـصـــورا لا زالت اليـــوم رمـــز الفن
والـهـــــمـــــة الـتي لا تجـــــارى
ومـشى في مناكب الأرض أعـلامـا
لنور الـحـــجى وخـــاض البـــحـــارا
أدركـــــيـــــه وأدركـــــينا فـــإنّا
قـد سـئـمنا الـحـيـاة ذلا وعـارا
واذكـــري أننا عـــصـــفنا بشـــيخ
الـمـســتـبـدين عنوة واخـتـيـارا
واحـتـملنا غـرامـة الفـشل الأعـمى
عـــذابا وخـــيـــبـــة ودمـــارا
واذكـــري من شـــبـــابنا نخـبـــة نا
دى بهـا الشـعب يا حـمـاتي البـدارا
حـــملوا راية النبـــيين يبـــغـــو
ن لأوطانهم عُـــلا وفـــخـــارا
ومـشـوا فـوق مـارج من لظى البـغي
وخـــاضـــوا إلى الـخلود النارا
فـــتلقـــتـــهم يد لا تبـــالي
أن تحـيل الروض الـخـصـيب قـفـارا
ورمـــتـــهم للمـــوت أبطال صـــدق
فـطـواهـم أعـــــزّة أطـهـــــارا
خـرجـوا نحـو سـاحـة الـموت في عـز
م وبـأس يحـــــيّـــــر الأفكـارا

ليس فـــيـــهم إلا فـــتى يتـــغنى
باســمـا فـاض وجـهـه اسـتـبـشـارا
«كم تغـــرّبت في ســـبـــيل بلادي
وتعـــرضت للحِـــمـــامِ مـــرارا»
«وأنا اليـــوم في ســـبـــيلِ بلادي
أبذل الروح راضـيـا مـخـتـارا»[1]

وختمها بقوله:

يا شـبـاب الأوطان ليس سـوى الثـو
رة تبـني العـــــلا وتعلي الـديارا
ليس إلا الدمـاء تُسـقى بهـا الـحـرّ
ية اليـــوم فـــابذلوها غـــزارا
أنتـم إن أردتم العـــيش رغـــدا
وخلودا فـاسـتـرخـصـوا الأعـمـارا
لقنوا الـمـسـتـبـد درسـا جـريئـا..
واهتكوا عنه ثوبه الـمـسـتـعـارا
غـيـبـوه عن العـيـون ظلامـا
لتـروا بعـده الـحـيـاة نهـارا..
وأبيـــدوا جـــذوره إنهـــا سمّ
يبـــيـــد الزروع والأثـمـــارا..

(1) البيتان بين قوسين كان الشهيد محيي الدين العنسي ومن قبله الشهيد السيد أحمد الـمطاع ينشد كلاً منهما وهو في طريقه لقطع رأسه في ميدان حورة هذين البيتين وهما من شعر الشاعر الـمناضل إبراهيم الـحضراني .

وأقـيــمــوا من بعـده دولة الشـورى
لـتـلقـى بهـــا الـعـــقـــول ازدهارا
أنتم في الشـعـوب إيماضـة الـحق
تـبـث الـحـــــيـــــاة والأنـوارا
أنـتـم الـقـــــــوة الـتـي أودع الـلـه
بهـــا ســرّ غـيـبـه واخـتـــارا
أنتم عنصـر الـحـيـاة الذي يسـري
بأعـــراقـــهـــا دمـــا فـــوارا
اجـعلوا غـضـبـة الكنانة درسـا
وأبينوا من مـــجـــدكم مـــا توارى
واغـضـبـوا مـثلهـا لمجدكم الـمـهـدور
وامـــحـــوا عن الشـبـــاب العـــارا
حـاولوا اليـوم أن تعـيـشـوا كـرامـا
أو فـــمـــــوتوا أعـــزة أحـــرارا
يا شـبـــاب الإســلام مـاضـيكم
ضـخم فكونوا لمجـده اسـتـمـرارا

- وفي مهرجان التحية لثورة مصر تقدم محمد عبد اللّه الفسيّل، وبعد أن حيّا ثوّار اليمن الـمعتقلين بشّرهم بأن ثورة اليمن ستهبُّ قريبا، ثم ألقى قصيدته الـمكونة من 122 بيتا من الشعر الثائر، ومطلعها:

امـلأ الأرض والسـمـا بالأغـاني
وترنم بـأعـــــذب الألحـــــان
فـخـلاص الشـعـوب من قـبـضـ
ـة الطغـيـان وحيّ مـرتل الأوزان

هـذه ثورة الـتـــــحـــــرر هبّـت
من وراء الســـدود والـقـــضـــبـــان
ومـــضت تســحق القـيـــود وتجـتـ
ـاح حـصـــون الإجـــرام والطغـيـــان

أيـن «فـــــاروق» خـــــانـق الـروح
في مـصـــر بروح الـحـديد والنيـران
كـــــان كـــــابوسَ مـــحنة وبـلاء
جـــاثمـــا في الوهاد والكثـــبـــان
عـصـر الدمع أكـؤسـا واحـتـسى من
عـــرق الكادحين خـــمـــر الدنان
إلى أن يقول عن فاروق مجسّما في الإمام أحمد:
دينه شـــــهـــــوة تأجج كـــــالنا
ر وأفـكـاره هـوى الـشـــــــــيطـان
يحكم الشـــعب والعـــبـــاد بقلب
كـــافـــر بالضـــمـــيـــر والوجـــدان
لا يبـالي بالـحق.. بالدين.. بالشـعـ
ـب ولا بالدســـتـــور والبـــرلمان
كم له من خـــواطر.. إنَّهـــا الشـــرّ
فـــأفنت جـــيـــلا وهدّت مـــبـــاني
تنفث الـمـــوت في الضـــمـــائر
حتى يستحيل الإنسان كالـحيوان

غـــرّه منظرُ الـجـــمـــاهيـــر تعنو
خـــاشـــعـــات تخـــر للأذقـــان

خنقت صـــوتَهـــا يداه فـــمـــاتت
كلمـــات الشكوى بكل لســـان
واســـتـــحـــالت إلى جـــحـــيم من
الـحـقـد تغـذيه شـدة الـحـرمـان
وهو لاه أعـــمـــتـــه شـــهـــوته عن
وثبـــات الأبطال في الـمـــيـــدان
كـان مـستـهـتـرا ببـغض الـجـمـاهيـر
بلـيـــــدا في غـــــفلة السكران
وصـــحـــا حين هبَّ في وجـــهـــه
الثـوار صـحـو الـمـخـبل الـحـيـران

إلى أن يقول:

وقـــفـت دورة الزمـــان وأصـــغت
لحظات واســـتـــشـــرف الهـــرمـــان
حين نادى «نجـــيـب»: فـــاروق هيئ
نفـــسك اليـــوم وارتحل بأمـــان
إننـا هـهـنـا نمثل شـــعـــبـــا
أيـدتـه الـســـــمـــــاء بالإيمان
وإذا بالفـــاروق يفـــزع غـــضـــبـــا
ن ويهـذي: مـاذا دهى؟ من دعـاني؟
أنا فـرعـون مـصـر يعنو لوجـهي
ســاكنوها ويســجـد الشـاطئـان
الـمـــلايين خـــشع تحت أقـــدامي
فـــلا يخـــرجـــون عن سلطاني

أخـضـعـتـهم إرادتي فـتـلاشـوا
وتلاشت قـواهم في كـيـاني
من هو الشعب؟ أيها الأحمق المأ
فـون.. اخـسـأ فكلهم عـبـداني
من هو الـجـيش؟ أيهـا الـخـائن
الغِـرُّ سـوى ثلة من القطعـان
هل تجـرّأت أن تقـول ليـسـقط
عـرش فـاروق؟ آه مـاذا دهاني؟
أنا فـاروق قـد خنقت المـلا
يين وأصليـتـهم عـذاب الهـوان
شبحي وحده قوى تهزم الأعصاب
والإنجليـز من أعـوانـي
سـوف تدري إذا شنقـتك يا غـر
غـدا مـا عـواقب العـدوان

هكذا قـال رب مـصـر ورب
التـاج رب الإيوان والصـولجـان
وأصـاخت أذناه وارتعـشت
كـفّاه خـوفـا، واصـفّرت الشـفـتـان
وتناهى إليـه صـوت يُدوِّي
فـيـه لحن الأجـيـال والأزمـان
قف قليـلا «فـاروق».. قف وتمهّل
صَـهْ فلسنا في سـاعـة الهـذيان
دمك اليـوم إن تأخـرت مـسـفـو
ك مـبـاح تدوسـه القـدمـان

أنـت أفـــــــســـــــدت كـل شـيء
وأضـعـفت قـوانا بالغـدر والـخـذلان
أنت في مـصر مصـدر الشرّ والإجـرام
أصـل الشـــــقـــــاق والـشـنـآن
فـــتـــهـــيـــأ للطرد والنفي إني
ها هنا باسم مـــصـــر ألقي بيـــاني
وإذا شـــئت أن تخـــرَّ صـــريعـــا
فـــاعـــتـــصم بالعناد أو بالتـــواني
ذهب الـخـــــائنون عنك فـــــلا
تفـــزع إلى الإنجليـــز والطليـــان
ودنت ســاعــة الرحـيل وفـيـهـا
عـــبـــرة للعـــقـــول في كل آن
خـرج الـمـسـتـبـد في ثوب بحّـار
ومن خلفـــه مـــشى حـــارســـان
قلبــه واجف من الـخــوف والـحــز
ن وجـــــــــفـنـاه بـالأسـى ذابـلان
ثـم نـاداه ضـــــابط رابط الـجـــــأ
ش، قـــوي الفـــؤاد صلب الـمـــران
طأطئ الرأس للجـــمـــاهيـــر يا فـــا
روق واركع لشـعـبك الغـضـبـان
ذلّ من تغـضب الشـعـوب عليـه
حين تصـحـو من هجـعـة النعـسـان
إلى أن يقول مخاطبا الشباب:
يا شـبـاب البـلاد أين الفـدائيـو
ن؟ أيـن الأبـيُّ مـن إخـــــــوانـي؟

أتســـامـــون كل خـــسف وتحـــيـــو
ن حـــيـــاة الأنعـــام في الأرســـان؟
أتعـيـشـون كـالعـبـيـد أذلاّء وأنتم
أهـل الإبـا والـطـعـــــــــــان؟
مـا أقل الـحـيـاة، مـا أتفـه العـيش
إذا كـــان في جـــحـــيم الهـــوان
كـيف لا تثـأرون حين ترون البـغي
فـــــيـكـم مـكـشـــــر الأسـنـان
اشـــعلوا في دمـــائكم شـــعلة الروح
وغـــذوا فـــيـــهـــا لظى الثـــوران
أحـرقـوا الـمـسـتـبـد في جـاحم الثـو
رة حـــــتى يـذوب وسط الدخـــــان
لقنوه درســا يظل مــدى الأجـيـال
أسـلـوب كـل حـــــــــــرّ يمـانـي
لا تـقـــــــــولـوا لـه تـرفق ولـكـن
خـــــاطبـــــوه بمدفع أو سنـان
هو أعـــمى أصمُّ لا يســـمع الشكوى
ولا يـرعـــــــــــوي إلـى بـرهـان
هو قلب مـــغلّف قـــد خـــوى من
كل خـــيـــر أو رحـــمـــة أو حنان
داس دمع الـمـــعـــذبين فـــدوســـو
ه وضـــجـــوا من فـــوقـــه بالأغـــاني
ثم يخاطبُ الـملوك قائلا:
أيهـــا الـجـــالســـون فـــوق عـــروش
الظلم والـلابســـون للتـــيـــجـــان

عـــربدوا يا ملوك إن الـمـــلايين
لـكم بالـمـــرصـــاد في كـل آن
عـربدوا كـيـفـمـا تشـاءون قـد آن
بـأن تشـــربوا كـــؤوس الهـــوان

***

أنـتـم لـلـهـــــوان والـطـرد والـنـفـي
وأنـتـم لـلـذل والـخـــــســـــران
قـــد نشـــأتم على الـجـــرائم والإثـم
وعـــشـــتم للإفك والبـــهـــتـــان
عِـــبَـــر كلهـــا الـحـــيـــاة ولكن
لا عـــــقـــــول لكـم ولا عـــــينـان

ثم تقدم الرباعي أبناء الأمير علي الوزير واحدا بعد الآخر:

5- فأنشد إبراهيم علي الوزير قصيدة مكونة من 79 بيتا، استهلّها:

لك يا مـصـــر آية التـــمـــجـــيـــد
مـــلأت بالسنا ســـمـــاء الـخلود

ومنها:

يا عـروش الطغـيـان في الشـرق قـد آن
أوان الـفنا فـــذوبي ومـــيـــدي
هيكـل الظلم قـــد تحطّم وانهـــا
ر إلى هوة الشـــقـــاء الـمـــبـــيـــد
فـــأفـــيـــقـــوا فللحـــقـــيـــقـــة تيّـــا
رٌ صـخـوبٌ كـدمـدمـات الرعـود

- وجاء بعده شقيقه زيد بن علي الوزير وأنشد قصيدة بعنوان «صوت الحرية» مكونة من ثمانين بيتا من الشعر الشبابي مطلعها:

قف في حـــمى الـحق الغلوبْ
وأنشـــدِ الشـــعـــر الـخلوبْ

ومنها:

«فـــــــاروق» طـأطـئ رأسـك
الـمـأفـون للشـعب الغـضـوبْ
يا مـــصـــر أنتِ حـــضـــارة
التـــاريخ والذخـر الـخـصـــيبْ
حـيِّ الـبـطـولـة فـــــــذّة
زهراء فـي البطل «الـنجـــــيبْ»
واســتـــقـبلي فـجـر الـحـيـاة
بقلب مـــشـــتـــاق طروبْ

– ويتقدّم بعد زيد شقيقه القاسم بن علي الوزير وهو لم يبلغ سن البلوغ ليحيي ثورة مصر بقصيدة رائعة تتكون من 51 بيتا مطلعها:

لاح للحق والعـــدالة فـــجـــر
فـــتـــلاشى به ضـــلال وكـــفـــر
وتوارى ليل وأســـفـــر صـــبح
وتـغـنـى طـيـــــــر ولألأ زهـر..
ليس ينسى التـاريخ مـجـد «نجـيب»
والهـــدى في يديه نور وفـــخـــر
ومـــشى بالـجنود نحـــو مليك
فـــحنى الدهر رأســـه ليـــمـــروا
عـامـــر النفس رابط الـجـأش يأبى
أن يرى مـــصـــر للقـــيـــود تُجـــرُ
ثم نادى الـمليك: قم فـــاخلع
التـــاج وإلاّ فـــالتـــاج نار وجـــمـــر

عن لسـان الـمـصـري عن مـهـجـة
الشـــعب أنادي وكلهم لك زجـــر
فـــتـــراءت له جـــرائمـــه الســـو
داء هيـــهـــات أين منهـــا الـمـــفـــر؟

وحـنـى الـرأس ثـم أقـــــــبل يـرتـا
ع وفي مـــقلتـــيـــه غـــدر ومكر
ورمى نظرة يودّع عـــــرش «النيل»
والكون حـــــوله مكـفـــــهـــــر
ومـــشى يمخـر العـــبـــاب ولا يدري
مـــقـــرّا، قـــد ضـــاع منه الـــمـــقـــر
خـــــرّ من عـــــرشـــــه طريدا فلم
ينقـــــذه بحـــــر ولم يقـــــابله بر
آثروا تـركـــــــه شـــــــريدا طـريدا
لعنات الســـمـــا عليـــه تخـــر

رب مـاذا دهى «السـعـيـدة» فـالدنيـا
وجـــــوم والكون صـــــمت وفكر؟
إعـــــولي يـا زوابع الـريح وأفـــــشي
ســـر شـــعب بلواه في الكون ســـر
هو في القـــيـــد لا يطيق فكاكـــا
«أهـلـه ورّثوه ثـكـلا ومـــــــــرّوا»
أمـــــة ترشف النجـــيع لكي يسـ
ـعـد حكامـهـا.. لهـا الذّل وكـر

دهرها كـــافـــر وأيامـــهـــا زو
ر وســـاعـــاتهـــا ضـــلال وخـــســـر
أهلهـــا في مـــجـــاهل الأرض تاهوا
لا قـــرار لهـم ولا مـــســـتـــقـــر
غـادروا أرضـهـم حـيـارى يضـجّـو
ن فـــمـــأواهم ظلام وقـــفـــر
ومـــتـــاهات أمـــة غـــالـهـا البـــؤس
وأودى بهـــا شـــقـــاء وفـــقـــر

يا طغـــام الـحكام قـــد حطم الله
عـــروشـــا إلى الـجـــحـــيم تخـــر
فـــاهبطوا من عـــروشكم وأنيـــبـــوا
فـــالزمـــان الـحـــديث بالعلم حـــر
يا «نجـــيب» الأبطال أهدي تحـــيـــا
تي نشـــيـــدا أنغـــامـــه لك شكر
أنا عـن أمـــتي أحـــيـــيك والكو
ن زهـور والـدّهـر نـفـح وعـطـر

– ثم تقدّم إلى واجهة الـمهرجان إبراهيم محمد أحمد الوزير، وألقى قصيدة تتكون من 37 بيتا بعنوان: «بطولة الإخلاص» بعد أن قدم لها بكلمة نثرية، ومنها:

يا أيهـــا الـخـــضـــراء هل أبطالنا
أحـيـوك بالـمـيـثـاق أم قـبـروك؟
كـلاّ فـقـد وضـعـوا الأساس وقـدمـوا
في رفـعـه الـمـهج التي تحـيـيك

هي في دمـاء الـجـيل أقـوى عنصـر
حـي يـقـــــوم بـنـصـــــره بـاريـك
كـــوني لأشـــبـــال العـــروبة غـــابة
حـــمـــراء تزأر في القنا الـــمـــشـــبـــوك
وتوجـــهي نحـــو الشـــبـــاب بقـــوة
تدعـــو إلى تطهـــيـــر من قـــتلوك

- وتقدّم الشقيق الرابع محمد بن علي الوزير، وألقى في مهرجان الترحيب بالثورة الـمصرية قصيدة مكونة من 37 بيتا بعنوان «سقوط فاروق»، ومطلعها:

أغُـــــــــررت يـا «فـــــــــاروق»
بالتـــمـــجـــيـــد والـملك الكبـــيـــر؟

ومنها:

يـا أيـهـــــا الأحـــــرار هبّـــــوا
واغـــــسلوا دنس الـفـــــتـــــور
وتعـــانقـــوا فـــرحين بالدســـتـــور
والـــمـــــجـــــد النضـــــيـــــر

- ويتقدّم في الـمهرجان محمد بن الإمام عبد اللّه الوزير ويلقي قصيدته الـمكونة من 49 بيتا، ومطلعها:

أقـبـل الفـجـر فـلا تخش الظلامـا
ولقـد لاح شـعـاعـا وابتـسـامـا

ومنها:

أيهـــا «النيل» ســـلامـــا طيـــبـــا
من فـــــؤاد كَلِف بالـنيل هامـــــا
يا ضـــفـــاف النيل غنينا فـــقـــد
ذهب الـدهر «بـفـــاروق» حطامـــا

قم أبا الهـــول وودّع ظالـمـــا
ناشب المـخلب كم ضام اليـتـامى
أيهـــا الظالـم كـــفكف دمـــعـــة
نزلت من قلبك البـــاكي ضـــرامـــا
طالـمـــا أبكيت خلقـــا وهم
كـجـمـال الفـجـر طهـرا وابتـسـامـا
إن صـــوت الـحق لـم يذهب ســدى
فـصـداه يحـمل الـمـوت الزُّؤامـا
يا ملوك العـــرب هذى عـــبـــرة
أين (فـاروق) لقـد صـار حطامـا
ركب الـجـور جـوادا جـامـحـا
فـــرمـــاه حين لـم يرع الذمـــامـــا
كـــان يهـــوى عـــودة الظلم الذي
كـــان بالأمس على الفكر لجـامـا
أيهـــا الظالـم ذقـــهـــا مُـــرّة
هذه الثـــورة يقظى لـن تنامـــا
إنهـــا حـــرية قـــد حُـــبِـــسَت
ثم ثارت ترشق الظلم ســهـــامـــا
إنهـــــا ثورة شـــــعب خلقت
من سنا التـفكيـر نارا وحـمـامـا
إنه الشـــــعب إذا ثار فـــــلا
تسع الظالـم بِيـــد تتـــرامى

– وأخيرا تقدم الثائر علي الغفري بقصيدة مكونة من 49 بيتا بعنوان «سقوط فاروق» وجاء فيها:

أيقظ الشـرق من سـبـات عـمـيق
وضـــــلال يئنُّ فـي أغـــــلالـه
تتـــحـــدى الأهوال فـــيـــه نفـــوس
لـم يـرعـــهـــا الزمـــان في أهواله

ومنها:

كـل قلـب فـــيـــه نجـــيـب يريـه
نهـــجـــه في ســـمـــوه وكـــمـــالـه
يا زعـــيـم الأحـــرار يا قـــبلة الوا
دي وأولاه مـن بـنـيـــــــــه وآلـه
صحت بالبغي صيحة الحق حتى
أوقـــعت كل غـــادر في حـــبـــالـه

وهكذا نرى أن الثورة في قاهرة مصر ومهرجانات تأييدها في قاهرة سجن حجة، حتى ثارت اليمن ثورتها الجمهورية في 26 سبتمبر 1962. وقد احتلت التطورات السياسية على الساحة المصرية جانبا من نقاشات الثوار، فعندما حصل الخلاف في مجلس قيادة الثورة المصرية بين الرئيس محمد نجيب، وبين مجلس قيادة الثورة بقيادة جمال عبد الناصر، انقسم المعتقلون في قاهرة حجة، فأكثرهم أيّدوا جمال عبد الناصر، وكنتُ وصديقي أحمد المعلمي نؤيد محمد نجيب؛ لأنه كان يدعو لعودة الديموقراطية، والحريات العامة؛ أما المؤيدون لعبدالناصر فكانوا يرون أن الثورة يجب أن تستمر؛ لأن العودة إلى الديموقراطية والحريات العامة عودة إلى ما قبل الثورة، دون أن يتنبّهوا إلى أن الثورة ستصبح مجرد شعار يخفي ديكتاتورية عدد محدود من الضباط الذين أحكموا قبضتهم على السلطة باسم الثورة، والذين أبعد الرئيس جمال عبد الناصر أكثرهم بعد تكوين أجهزة المخابرات المتعددة التي ساقت إلى الهزائم المدمرة، والمغامرات الرعناء.

من حكايات الثوار في «حرّ البقر»

ذات يوم قال لي أحمد المعلمي: ما رأيك أن نكتب كتابا ضخما عن قضية اليمن، يجمع بين التحليل الموضوعي، والأسلوب الأدبي، والحماس الخطابي للقضية اليمنية من أقدم العصور حتى يومنا هذا؟ قلتُ له: على بركة الله.. نحن في السجن «فَرَغ»، لا مهرة ولا دهرة كما يقولون. قال: دعنا نبحث عن اسم الكتاب، حتى يجرّنا الاسم إلى تصور أبواب وفصول الكتاب. قلتُ له بعد تفكير: نسمّيه: «اليمن.. من عهد دولة سبأ إلى عهد الإمام الناصر». قال لي: لديّ اسم آخر هو: «اليمن.. داؤها.. ودواؤها»، قلتُ له: هذا الاسم ثقيل دم، برغم أن من اقترحه خفيف الروح. قال: سنجعله بأفكارنا وأسلوبنا في الكتابة خفيف دم ونصف. وبعد مناقشات وحوارات قلتُ له ذات يوم: قم نتمشّى قليلا، وأخذنا نرسفُ في قيودنا، ثم توقّفنا وقلت له: انظر إلى قدمي إنها مثقلة بالقيود، ولذلك أقترح أن نجعل الكتاب في ثلاثة أجزاء: الجزء الأول: أغلال الماضي، الجزء الثاني: أغلال الحاضر، الجزء الثالث: كيف نحطّم الأغلال، فوافقني صديقي المعلمي على هذا التقسيم.

في تلك الأثناء، يبدو أن الصراع بين عرائف البرّانية وشاوش النظام للسيطرة على القاهرة قد انتقل من محيط العجا والنائب إلى الإمام مباشرة، فقد عرفنا أن عرائف البرانية قد بلّغوا الإمام أن الشاوش النهدي ليس من يؤتمن على القاهرة والمساجين، ووصل إلى الإمام من النهدي كذلك. وقرّر الإمام تعيين الشيخ ناصر طيور مع ثلاثين من أصحابه مرتبين في قاهرة حجة، ولكنه تأخر في الوصول عندما بلغه أن الإمام لم يعيّن معه من البرانيين إلا خمسة، بدلا من ثلاثين، وظل الجميع في انتظار وصول طيور، ويبدو أن القلق من مجيء طيور لم يكن لدى المساجين وحدهم، وإنما كان الشاوش والنظام، وعرائف البرانيين وأصحابهم يشعرون أن الإمام أراد بتعيين طيور الحد من سيطرتهم جميعا لحساب طيور.

وبينما كنا ننتظر وصول طيور بكثير من القلق والتوجس يفاجئنا الإمام مفاجأة سارة، لم نكن نتوقعها ففي يوم 2 رجب 1372هـ- 17 مارس 1953، أقبل النهدي إلى «حر البقرة» يبشّر صديقي الشامي بالإطلاق. وكان الشامي لا يزال متباعدا عني

وعن الجميع، ولا يلتقي بنا إلا إذا فرضت الضرورة اللقاء، وتفرّغ لشهور طويلة لمراجعة الإمام شعرا ونثرا، وأرسل إلى الإمام قصيدة مدح واستعطاف من أروع قصائده، وتضمن جواب الإمام عليه لوما على ما فعل، وفي آخره بيت شعر نظمه الإمام يقول:

لا در در صفي الدين ما زرعت

يمينه من بذور الكفر في وطنه

وعندما عرض الجواب عليّ متشائما يائسا، قلتُ له: يجب أن تتفاءل؛ لأن جواب الإمام عتاب في ثياب لوم، والعتاب بداية الرضا. وقد عرض عليّ قصيدته «التائية» التي أجاب الإمام عنها، وهي قصيدة رائعة؛ فأكدتُ عليه أن يكرّر المراجعة، وفعلا كتب قصيدة ثانية أخرى وأرسلها إلى الإمام. وفي هذه الجلسة حاولتُ أن أعرف سر تباعده عن الجميع بالمداورة لا بالمجاهرة، وكنتُ بحكم صداقتي له منذ الطفولة أقرأ ما في رأسه من أفكار، وغالبا تكونُ القراءة صحيحة أو قريبة من الصحة، وإضافة إليها كنتُ أستشف من بعض ما يقول ما وراء القول. وقد أخبرني في هذه الجلسة أن زوجته تعيشُ في قصر خالها الإمام أحمد في تعز. وفهمت منه أنه يفكّر في تأليف كتاب عن الأئمة في اليمن والمعارضين لهم عبر التاريخ؛ سواء من المفكرين أو الأمراء أو رؤساء القبائل.

واستنتجتُ من كلامه هذا أنه قد راجع كل مواقفه في الحياة، ووصل إلى قناعة بأن مواقفه الأخيرة في تأييد ثورة 48 الدستورية، وارتباطه بالأحرار في هذا العمل كان أكبر خطأ ارتكبه في حياته، وكاد ينهي حياته بسيف الجلاد، ولو أنه بقي على موقفه من تأييد وخدمة ولي العهد أحمد لكان اليوم أقرب المقربين إليه، ولتفتّحت له الطريق لتحقيق كل طموحاته التي يحلم بها، ولم يخبرني أنه قد ألّف كتابا عن الإمام أحمد، يمجّده ويستعرض بطولاته. ومرّت الأيام، وإذا بالإمام أحمد يفاجئنا بإطلاق صديقي أحمد محمد الشامي للعلاج في مستشفى الحديدة، في يوم 2 رجب 1372هـ-17 مارس 1953، واختلطت فرحتنا بإطلاقه بآمال وحسابات تذهب إلى أننا سنُطلقُ واحدا بعد الآخر، ولكنني قلتُ لصديقي المعلمي: إن

حسابات الإمام تختلفُ عن حساباتنا، ومع ذلك فالأمل خير من اليأس.

كانت فرحتنا بإطلاق صديقنا الشامي مقرونة بالقلق من وصول طيور، وبالتوقع لردود الفعل الناتجة عند صراع شاوش النظام وعرائف البرانيين. كنا نتابعُ الصراع بين الشاوش والعرائف؛ لأنه ينصبُّ على رؤوس المساجين. وكان الإمام يرتاحُ لمثل هذا، فإذا حام حول المساجين اهتمّ الإمام له واتخذ إجراء احتياطيا. وقد أبلغوا الإمام أن المساجين الموجودين في الحوش؛ أي في «حرّ البقرة» تحت إدارة الشاوش النهدي تصلهم كتب وجرائد، ويتواصلون مع من في خارج القاهرة بتساهل الشاوش والنظام التابعين له. ويبدو أن الإمام قد صدّق هذا، وهو يعرفُ أن عسكر النظام أكثر فهما من البرانيين، ولذلك فهو يعتمد على البرانيين أكثر من اعتماده على عسكر النظام، وقد أدخلونا «حرّ البقرة» في الحوش؛ لأن الدار لا تتسع إلا لمن فيها من المساجين؛ بل إننا في «حرّ البقرة» أحسن سكنا ممن في الدار، وكانت الكتب والصحف والأخبار تأتينا من الدار وليس العكس، وبمجرد أن بلغ الإمام أننا في «حرّ البقرة» مصدر للتواصل مع خارجها، اهتمّ بالأمر واتخذ إجراءات مشددة.

وبعد فرحتنا بإطلاق صديقنا أحمد محمد الشامي بأربعة أيام فقط، نتفاجأ في يوم 6 رجب 1373–21 مارس 1953 بوصول الشاوش النهدي الذي أخبرنا أن أمرا بنقلنا من «حرّ البقرة» إلى الدار، وعلينا أن نستعد لذلك يوم غد صباحا. وفي صباح اليوم الثاني حدث الزلزال.. الشاوش بعساكره والبرانيون بعرائفهم تجمّعوا حول «حرّ البقرة» وأمرونا بالانتقال فورا إلى الدار، وخرجنا نرسف في قيودنا نحمل أدواتنا وفرشنا وثيابنا وحطبنا وسودنا ومواقدنا وتناجرنا، ونسيرُ وكأننا جيش منهزم أسره العدو، ودخلنا إلى الدار، ونحن حوالي عشرين مقيّدا، ومعنا عدد من أطفالنا، ووجدنا أن البرانيين قد أمروا من في الدار بالبقاء في أماكنهم، وعدم الاختلاط أو التحدث معنا، ووجدنا أننا جميعا سنسكن في غرفتين: الأولى تتسع لستة أشخاص مزحومين، والثانية تتسع لثلاثة أشخاص في ضيق شديد. وتكدّسنا في الغرفتين وفي الحجرتين التابعة لهما، وبرغم أننا قد جلسنا الجلسة الخولانية، إلا أن عددا منا ظلّوا وقوفا لضيق الحيز؛ أما أدواتنا فقد تركناها خارج الدار.

وبعد مراجعات وما صاحبها من إتاوات، سمحوا لنا بالتفاهم مع أصحابنا السابقين، وتفضّل السيد محمد أحمد الوزير باستضافة الأولاد ابن السلّال وابن صبرة، وابن الغفاري مع أولاده ومعهم الشاعر الأديب محمد صبرة في غرفته، وكان فيها سرير مرتفع، نام تحته بعض الأولاد، وسمحوا للصفي محبوب وآخرين بالسكن في المفرج، وسكن ستة منا في إحدى الغُرف؛ أما الغرفة الضيقة الصغيرة فقد سكنت فيها والأستاذ المروني والأخ حمود الجائفي. وكان زميلنا اللواء حمود الجائفي متوتر الأعصاب، ينطوي على نفسه في أكثر الأوقات، وعندما كنا في «حرّ البقرة» كان يهربُ منا إلى نوبة من نوب الحراسة في سور القاهرة. أما في هذه الغرفة الضيقة بعد نقلنا إلى الدار فلم يجد له مهربا منا، ففي الدار كانت عرائف البرانيين قد منعونا من الاختلاط، وفرضوا علينا البقاء في أماكننا.

كان نقلنا إلى الدار قد وتّر أعصاب زميلنا وجعله أكثر انطواء وتشاؤما، وكنتُ أنا وأستاذي المروني نشاركه هذه الغرفة الضيقة، وفكّر اللواء الجائفي في طريقة يهربُ بها منا، ولم يجد وسيلة، فأخذ كتابا أو مصحفا -لم أعد أذكر- وأخذ يقرأه بالمقلوب ووجهه داخل الكتاب...! وبقي يوما كاملا على هذه الحال، وكان بين فترة وأخرى يخرج بعض وجهه من الكتاب المقلوب، ليلمح ماذا نعمل، وفكّر أستاذي المروني في وسيلة يخرجنا مما نحن فيه، فأخذ كتابا وبدأ يقرأه بالمقلوب، ويخرج بعض وجهه من الكتاب المقلوب، ليلمح زميله الجائفي الذي كان يلمحُ زميله المروني أيضا، وبعد عدة مرات أغلق الجائفي الكتاب وضحك قائلا لنا: اتركوني في حالي، أين أهرب منكم؟ قال أستاذي: لا مفر لك منا يا زميلي في العراق.

اضـــــحك ومـــــا طن طن
واســـخـــر بكل الـمـــحن
وارطـــن مـــع مـــن رطـــن
واهتف ليـــحـــيـــا الوطن

وتحسّنت نفسية زميلنا اللواء الجائفي لفترة.

لقد عشنا في بؤرة سجن نافع ما يقرب من عامين ونصف العام. كانت أسوأ

وأبشع وأفظع ما يعيشه الإنسان في حياته، زجُّوا بنا فيه في يوم 12 جمادى الأولى1367– 22 مارس 1948. وواجهنا كل قذاراته وفظاعاته وبلاويه، وواجهنا الموت يخيّم على رؤوسنا، وفي أعماق نفوسنا.

أكثر من عام كان الجلاد خلاله يجرّ أعزّ زملائنا وأعظم رجالات اليمن مثنى وثلاث ورباع، ويقطعُ رؤوسهم في ميدان حورة، ويعلّقها ويعلّق جثثها في مقاصله البشعة. وبعد مرور عام رأيناه يجلد أساتذتنا وخيرة شبابنا بعصاه الغليظة التي كادت تحطم عظام ظهورهم؛ ولكنا واجهنا كل ذلك بصمود وإرادات تتحدى كل تلك المظالم، ولم يضعف أحد منا. أما أنا وصديقي أحمد محمد الشامي فقد واجهناه كما وصفته في موضع آخر من هذه الذكريات.

وعندما انتقلنا من سجن نافع إلى سجن قاهرة حجة قبل ظهر يوم 26 شوال 1369هـ– 2 يوليو 1950 واجهناه كما ذكرته في مواضع أخرى من هذه الذكريات، وحوّلنا «حرّ البقرة» إلى معهد ثقافي عالي المستوى، ثم حوّلنا قاهرة حجة إلى مجمع تعليمي من المرحلة الابتدائية إلى مرحلة جامعة الأزهر. وكان القاضي عبد الرحمن بن يحيى الإرياني مرجعنا جميعا بدون اختياره، وبدون اختيارنا؛ لأنه كان أكبرنا، وكان أكبر علماء اليمن في إتقان علوم الدين، وهو أديب وكاتب وشاعر ومؤرخ ومناضل وطني وسياسي لامع.

الفصل الرابع عشر
ولاية العهد وتداعياتها

خلال اعتقالنا في قاهرة حجة فكّر الإمام أحمد أن يثبّت ولاية العهد لابنه البدر، وهذه الفكرة كانت سببا في إثارة الخلافات داخل أسرة بيت حميد الدين، فقد عارضها سيف الإسلام الحسن بن الإمام يحيى ومعه الكثير من رجال الأسرة، والكثير من رجالات اليمن المرتبطين بالإمام يحيى وابنه الحسن؛ بل إن كثيرين من هؤلاء كانوا غير راضين عن الإمام أحمد الذي أبقى بعض الأحرار ولم يعدمهم، وقد أبرقوا إليه ينبّهونه إلى خطر بقاء نعمان وأصحابه ويحرّضونه على قتلهم، فردَّ عليهم الإمام بالآية القرآنية: (مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ) سورة يوسف. ويذكر القاضي عبد الرحمن الإرياني في مذكراته أن البدر قد اتصل به وبالأستاذ نعمان سرا، وأنه أرسل مبلغا من المال إلى الأستاذ، لمواساة المنقطعين من المساجين، ولكني لم أعرف ذلك إلا من مذكرات القاضي الإرياني[1].

وقد أطلق الإمام حينذاك القاضي عبد الرحمن الإرياني من سجن قاهرة حجة، وكلّفه بأخذ البيعة لابنه البدر، وبدأ القاضي عبد الرحمن أخذ البيعة من نائب حجة عبد الملك المتوكل، ومن العلماء والوجهاء والمشايخ في حجة، ثم توجّه إلى الحديدة، وكان في كل محطة من المحطات يأخذ بيعة المسؤولين والوجهاء والمشايخ حتى وصل الحديدة، ثم توجّه في طريقه إلى تعز، وأخذ البيعة في مدينة «بيت الفقيه» ومدينة زبيد ومدينة حيس ثم مدينة تعز. وقد فصّل القاضي عبد الرحمن الإرياني تلك الأحداث في ذكرياته التي نُشرت بعد موته. ولكن الإمام أحمد تراجع

(1) مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني، الجزء الأول، ص 192 .

عن الاستمرار في تثبيت البيعة لابنه البدر، ومنع القاضي عبد الرحمن من استمرار أخذ البيعة، وبرغم ذلك، كان الإمام قد نفى أخاه سيف الإسلام الحسن إلى أمريكا، وأُشيع في ذلك الوقت أن الإمام أحمد قد قتل أخويه المطهر ويحيى بالسُّم.

كل هذه الأحداث أحدثت خلخلة كبيرة داخل بيت حميد الدين، مما أضعفها أمام تيارات التغيير، وجاءت حركة الثلايا والإمام عبد اللّه بن يحيى حميد الدين في شهر مارس 1955 وسقوطها، وإعدام الإمام لعشرات من شخصيات ومشايخ اليمن، كما قطع بالسيف رأسي أخويه عبد اللّه والعباس.

حركة الثلايا وسقوطها تطلقنا من سجون حجة

بينما كنا نعيش في سجون حجة بأمل ضعيف في إطلاقنا حدث فجأة ما لم نكن نتوقّعه في عام 1955، فقد خرج عدد من أفراد الجيش النظامي في تعز إلى قرية «الحوبان» القريبة من مدينة تعز يحتطبون حطبا منها، فمنعهم أهل القرية؛ لأن الحطب ملكهم، وحصل أخذ وشد بينهم وبين العسكر، وتطوّر إلى اشتباكات، جُرح أو قتل فيه أحد الجنود، فحمله أصحابه منعوشا إلى عُرضي تعز «ثكنات الجنود»، فاحتشد جميع الجنود غاضبين، وأخذوا أسلحتهم، مسرعين إلى القرية، وقتلوا بعض أهلها وأحرقوا عددا من بيوتها، ثم عادوا إلى ثكناتهم، وعندما بلغ الإمام ما حدث غضب غضبا شديدا، وهدّد الجنود بإجراء حد الحرابة على من هجموا على القرية، وأمر باعتقال معلم الجيش الثلايا وعدد من العسكر.

وهنا تجمّع من في «العرضي» من الجنود، وخرجوا بأسلحتهم وحاصروا قصر الإمام، وأطلقوا عليه وابلا من الرصاص من أسلحتهم النارية، وهجم بعضهم على السجن، وأطلقوا قائدهم الثلايا. واستغل الثلايا وأخو الإمام السيف عبد اللّه الموقف واستمر حصار قصر الإمام وإطلاق الرصاص عليه، حتى أجبروه على تحرير تنازل عن الإمامة لأخيه عبد اللّه. وهدأت ثورة العسكر، وبقي الإمام في قصره؛ بينما اتخذ الإمام الجديد عبد اللّه بن الإمام مقرا له في «عُرضي» الجيش، وجلب العسكر

العلماء والوجهاء، لمبايعة الإمام الـجديد. وكان ولي العهد محمد البدر بن الإمام نائبا للإمام في الـحديدة، وقرّر الإمام عبد اللّه إرسال الأستاذ أحمد محمد نعمان برسالة إلى البـدر في الـحـديدة، وأقلّته طائرة من تعـز إلى الـحـديدة. واسـتـقـبله في مطار الـحديدة صديقي أحمد الشامي، مستشار البدر وأقرب الـمقربين إليه، وكان في عام 1944 زميل الأستاذ نعمان في عدن، وأسسوا حزب الأحرار الـمعارض للإمام، ثم اختلفوا وعاد الشامي والـموشكي إلى ولي العهد في تعز حينذاك، وسجن في سجون حجة بعد سقوط حكومة الإمام الدستوري عبد اللّه الوزير، ونجا من قطع رأسه وبعد نحو خمس سنوات أُطلق ليكون الـمستشار القريب إلى ولي العهد. وذكر صديقي الشامي في ذكرياته «رياح التغيير في اليمن»: أنه أخذ الأستاذ نعمان من الـمطار شبـه معـتقل، وأوصله إلى البدر، وسلّم للبدر رسالة عـمـه الإمام عـبـد اللّه، وأعلن انضمامه إلى البدر ضد من أرسله.

تقرّر طلوع البدر وحاشيته وبعض عكفته إلى مدينة حجة، عندما كان الإمام مُحاصرا في قصره بمدينة تعز، وكان معه صديقي أحمد الشامي مستشاره السياسي، والأستاذ أحمد محمد نعمان زعيم الأحرار، وكان أول ما فعله البدر في حجة هو إطلاق بقية الـمساجين الأحرار من سجونها، وعرفنا تفاصيل ما حدث في تعز، وعرفنا أن قائد الانقلاب هو أحمد الثلايا، وهو من جماعة الأحرار؛ ولكن ما حدث في تعز كان انقلابا تحت ستار الإمام عبد اللّه بن الإمام يحيى. وكان علينا أن نحدّد موقفا مدروسا، وأن نجتمع ونناقش، هل نكون مع الانقلاب؟ أو مع البدر الذي وصل إلى حجة، ليجعلها قاعدة الـمقاومة والهجوم على عمه، وعلى الـجيش في تعز؟ ولكنـّا لم نجتمع، ولم نتناقش.

وجدنا أنفسنا مُساقين بدون موافقة أو رفض لتأييد البدر. وبعد صلاة الـجمعة في مسجد حورة وقف الأستاذ نعمان يخطب في الناس بأسلوبه الـمؤثّر، ويصوّر لهم أولئك الرعاع من العسكر الذين اعتدوا على أمير الـمؤمنين وحاصروه في قصره، وأفزعوا نساءه القابعات في زوايا القصر؛ خوفا من رصاص العسكر العصاة، وأخذ يبكي وهو يصوّر النساء الـخائفات الـمحاصرات اللواتي لا يجدن طعاما ولا شرابا،

ولا تكتحل عيونهن الباكيات بالنوم من شدة الخوف والفزع...! وكان الأستاذ نعمان يبكي بحرارة، وحاولتُ أن أدقّق في ملامح وجهه، لأرى كيف يتقنُ التمثيل، ولكنني تأكّدت أنه لا يمثل، إنه مسترسل في مخاطبة الناس والدموع تتدفّق من عينيه بعفوية لا تكلّف فيها؛ بل إنه كان مندمجا بكل عواطفه في هذا الموقف الذي يقفه خطيبا. فقلت لنفسي: أي أحاسيس وجدانية تتفجّرُ في نفس الأستاذ نعمان؟ إنه -بلا شك- لا يبكي من أجل الإمام، ولا من أجل نساء الإمام، هو يعرفُ أن الإمام لن يمسَّه سوء ما دام أخوه عبد اللّه هو الإمام من بعده، ولولا هذا لكان الإمام قد قُتل في أول جولة له مع العسكر، وهو يعرف أن نساء الإمام في أمان، وربما توفرت لهن حياة الترف في أيام الحصار أكثر من أي يوم آخر...!

وحاولتُ أن أستشفَّ من خلال دموع الأستاذ الينبوع الوجداني الذي تتدفق منه تلك الدموع...! هل تذكّر الأستاذ شهداء «حورة»، وهو يخطب في جامع «حورة»؟ هل أحسّ بهول الكارثة، وبظلم الأيام وقسوتها عليه، وهو يجد نفسه مضطرا للدفاع عن الجلاد الجزار، الذي قتل إخوانه وأبناءه الأحرار على باب المسجد، الذي يدافع فيه الآن عن ذلك الجزار الذابح لهم واحدا إثر واحد؟ هل تصوّر في تلك اللحظات مذابح جديدة يرتكبها الإمام أحمد إذا انتصر، أو يرتكبها أخوه الإمام عبد اللّه إذا استقرت له الأمور؟ عبد اللّه الذي كان بعد هزيمة ثورة الدستور عام 1948 يلّحُّ على أخيه الطاغية أن يذبح بقية الأحرار.. أن يذبح الأستاذ نعمان بالاسم، وأن يذبح أحمد الشامي بالاسم؟ تصوّرتُ الأستاذ نعمان، وهو يخطب بدموعه وصوته الباكي، وكأنّ قسوة الموقف كانت تذبح كل خلجة من خلجات عواطفه ذبحا بطيئا يجعلها ترتعشُ من الألم كالطير الذبيح، تصورته هكذا.. وكأنَّ سيف الجلاد كان في تلك اللحظات يذبح في أعماق الأستاذ المفجوع الحياة بكل معانيها، يذبح الماضي، ويذبح الحاضر، ويذبح المستقبل...! يذبح الحرية والأحرار.. يذبح كل الأمل، ويذبح كل الأحلام التي عاشها الأستاذ نعمان نضالا وعذابا ومعاناة.. هكذا تصوّرتُ الأستاذ نعمان، وهو يبكي في ذلك الموقف البائس الساحق؛ بل إن الأستاذ منذ وصوله هو والصديق أحمد الشامي إلى حجة صحبة البدر، كان يبدو

وكأنّه يغالبُ في أعماق نفسه مأساة يعيش مرارتها لوحده. كان يبتسم ابتسامة كأنها تنتحبُ من الحزن، وكان ينظرُ إلينا وهو يصافحنا ويعانقنا نظرات أحسستُ أن فيها الكثير من الحيرة والكثير من العتاب، ولم أستطع أن أفهم ما وراء نظرات العتاب في تلك الأيام.

وبعد سنوات طويلة امتدت من عام 1955 حتى عام 1984 خُيّلَ إليّ أنني بدأت أفهم نظرات العتاب تلك من خلال ذكريات صديقي أحمد الشامي التي يصفُ فيها كيف استقبل الأستاذ نعمان في مطار الحديدة عند قدومه من تعز، حاملا رسالة من الإمام عبد اللّه بن الإمام يحيى، شقيق الإمام أحمد إلى البدر.. خُيل إليّ أنني بدأت أفهم نظرة العتاب تلك، وكأن الأستاذ نعمان يقول لنا من خلالها: «كلكم شامي.. كلكم مثله»، فالصديق الشامي -كما يروي هو نفسه في ذكرياته- قد استقبل الأستاذ نعمان في مطار الحديدة حينذاك، ومعه عدد من «العُكفة»، ثم أخذه معه على سيارة واحدة معتقلا أو شبه معتقل، وظل شبه معتقل، ربما حتى سقطت حركة 1955، وانتصر الإمام أحمد، هل أحسّ الأستاذ نعمان- وهو شبه معتقل في يد زميله أحمد الشامي- بشعور من الغربة والاغتراب يمزّقه داخل النفس، فكانت نظرة العتاب تلك تعبيرا عن ذلك الشعور؟!

وهل كانت بعض دموع الأستاذ نعمان، وهو يخطبُ في جامع «حورة» تعبيرا عن ذلك الشعور بالغربة والاغتراب، حتى خُيّل إليّ -حينذاك- أنه كان يبكي لوحده، في خلوة، لا يرى ولا يحسّ فيها بوجود أحد غيره في ذلك الجامع المليء بالمصلين؟! إذن، فالأستاذ نعمان عندما كان يخطب في جامع «حورة»، بدموعه التي تتدفّق بعفوية لم يكن يُمثل، وإنما كان يعاني من قسوة الموقف بكل مراراته. وبرغم ما بيني وبين الأستاذ نعمان من خلافات حول أساليب العمل الوطني، لا حول الأهداف الوطنية، فإنني-حينذاك- قد شاركتُ الأستاذ وعانيت معه قسوة الموقف بكل مراراته.

وتلفتُّ حولي، لأرى ردّ فعل الناس من خطاب ودموع الأستاذ نعمان، وساورني القلق وأنا أرى وجوه أكثر الجنود من حولي، ووجوه الجنود الذين يقفون لحراسة

البدر، لقد كانت وجوهُهم تنطق بالسخرية من الأستاذ، ومن دموعه وخطابه؛ بل إن عيونهم كانت تعبّر عما هو أكثر من السخرية. كان في نظراتهم نوع من التحدي الذي يسبق الفعل. ماذا يضمرُ هؤلاء الجنود؟ وتذكّرتُ الشاوش «النهدي» مدير سجن قاهرة حجة عندما تلقى أمر البدر بإطلاق سراحنا، فقد وجّه إلى بعضنا -وكنت منهم- سؤالا فيه حيرة وارتباك: «قولوا لنا ما موقف العسكر في تعز فنحن منهم، قولوا لنا ما نعمل»؟ هذا السؤال كان يحمل الكثير من المعاني التي تطلُّ الآن من عيون الجنود في المسجد.

وفي عصر اليوم الرابع أو الخامس من حدوث الانقلاب في تعز جاء إليّ الأخ أحمد واصل وهو من الأحرار المجهولين، وجندي من الجنود، وقال لي: قل لأصحابك «يلّفوا حالهم، فإن العسكر في حجة سيقومون الليلة بانقلاب، ويقبضون على البدر وأصحابه، تأييدا لإخوانهم العسكر في تعز»، وكانت حركات العسكر في قصر «سعدان» -الذي ينزل فيه البدر وننزل فيه معه ومع بقية مرافقيه- حركات مريبة بالفعل...! ونقلتُ ما سمعته وما رأيته إلى بقية الزملاء. وقررت أن أبتعد عن القصر وألا أذهب إلى جهاز الإرسال الذي تحوّل إلى إذاعة، وكنتُ مع الأخ الأستاذ أحمد حسين المروني نذيعُ منه نداءات التحريض ضد انقلاب عبد اللّه بن الإمام على أخيه الإمام أحمد. ومضت ساعات، وغربت الشمس، وبدأ الليلُ يخيمُ بظلامه المليء بالتّرقب والقلق.. وفجأة تغيّر كل شيء، فقد سقط انقلاب تعز، ووقع إمامه وضباطه ومشايخه ورجالاته في قبضة الإمام أحمد الذي خرج على حصانه الأصيل مُمتشقا سيفه، يصول ويجول، ويصرخ في الناس صرخات هستيرية متوحشة!

ووقع أكثر الانقلابيين في تعز في قبضة الإمام أحمد بمن فيهم أخوه الإمام عبد اللّه والعقيد أحمد الثلايا، وعشرات من المشايخ، ومن كبار الأسر، ومنهم السيد محمد حسين عبد القادر شرف الدين، ابن عامل صنعاء، والقاضي يحيى السياغي، وأخوه حمود، الذين قطع الإمام رؤوسهم. وقد نجا القاضي عبد الرحمن الإرياني من قطع رأسه وهو في ميدان العرضي، مجلوبا لقطع رأسه. كما فرّ إلى عدن

القاضي يحيى السباغي

صديقي القاضي أحمد المعلمي وصديقي الضابط محمد علي الأكوع. ومن مشايخ اليمن الذين قطع الإمام رؤوسهم في تعز عام 1955 الشيخ علي المطري شيخ بني مطر، والشيخ عبد الرحمن الغولي من غولة حجة، ومحسن الصعر من مشايخ عمران، والشيخ معصار من نِهْم، والشهيد أحمد الدفعي، والشهيد حسين الجدري وغيرهم. وفي حجة قطع رأس أخيه الإمام عبد اللّه ورأس أخيه العباس الذي أيّد الإمام عبد اللّه بن الإمام يحيى. ولكن هذا النصر العظيم الذي انتصر به الإمام على أعدائه كان آخر مسمار في نعشه ونعش حكم أسرته ونعش الإمامة.. وكان ما كان...! هذا ما حدث في تعز؛ أما نحن في حجة فلم نكن نعرف ما يجري في تعز حتى حمل اللاسلكي خبر انتصار الطاغية أحمد إلى ولده البدر في حجة، واشتعلت نيران النصر «التنصيرات» على أسطح المنازل، وعلى قمم الجبال، وماتت فكرة الانقلاب العسكري الذي كان عسكر حجة يدبرونه تأييدا لإخوانهم العسكر في تعز، وغادر الأحرار مدينة حجة، كلٌّ إلى الوجهة التي يريدها.

كيف سألقى أمي بعد سنوات الفراق!

وعندما تأكّدتُ أنني أصبحتُ حُرا طليقا، وأنني سأتجه من حجة للقاء أمي العظيمة الحزينة في صنعاء بعد فراق دام ما يقرب من عشر سنوات، شعرتُ أن نفسي غارقة في حزن شديد، فقد سببتُ لأمي آلاما وأحزانا وذلا لسنوات عديدة بدون اختياري، وتذكّرتُ كلمات أخي أحمد في عدن: «أنا لأمي، وأنت للوطن».. كانت هموم الوطن أهم وأكبر مني، وأهم وأكبر من أمي. كنتُ حزينا وكأنَّ مشاعري وأحاسيسي غارقة في الدموع، وقد عبّرتُ عن ذلك بما كتبته حينذاك بعد فترة زمنية

محمد حسين عبدالقادر شرف الدين

الشهيد حسين الجدري في ساحة الإعدام عام 1955
وهو يتوعد الطاغية أحمد بالتخاصم أمام ملك الملوك

طويلة. سافرتُ إلى صنعاء، لألتقي فيها بتلك المرأة العظيمة الطيبة الصابرة التي ولدتني وربتني، وكانت لي أُما وأبا في آن واحد. كانت- كأي أم- تتوسمُ في ولدها النجابة، وتحلمُ بأن يكون في المستقبل رجلا عظيما، يوفرُ لها أسباب السعادة؛ ولكنني لم أحقّق لها ذلك الحلم، فقد كان قدري أن أكون حُرا أصارع الطغيان الكهنوتي، كجندي من جنود الحرية، وكان قدري وقدر الأحرار أن يكونوا الجانب المنهزم في ذلك الصراع، وأن أتشرّد وأُسجن مع من تشردوا وسُجنوا.

لكن تلك الأم المؤمنة الصابرة ظلت برغم كل ذلك تتشبثُ بحلمها في مستقبل ابنها بعناد مستميت. كانت تسمع في مجالس النساء من يلعنُ الدستوريين البغاة، وأحيانا تسمع سؤالا خبيثا من امرأة جاهلة: «صحيح يا مريم أن ابنك في الحبس مع الدستوريين!» وتجيب الأم بتحد وكبرياء: «صحيح؛ ولكن ابني سيعود إليّ رجلا كبيرا». وعندما تعودُ إلى منزلها تبكي، وتبكي وتتصورني أمامها وتسألني في استنكار وإشفاق: «لماذا.. لماذا «دسْترت» يا محمد؟ هل أنت دستوري كما تقول نساء الجيران؟ لماذا تذلني أمامهن؟ قل إنك غير دستوري. كن أي شيء إلا هذا الذي يسمّونه «دستوري»! قلبي يحدّثني بأنك غير «دستوري»، لا شك في ذلك. إنك لا تعرف أن كلمة دستوري حين أسمعها من جاراتي تعني سكينا حادة مسمومة، تنغرسُ في قلبي..»

كانت أمي تقول هذه المعاني بلهجتها العامية البسيطة. كانت تحدّثني وفي أعماق نفسها انفعال شديد. وكنتُ أرى في عينيها الحانيتين بكل حنان الأمومة أحاسيسها المجروحة تطلُّ مرتعشة كالطير المذبوح، وهي تقول لي: «محمد.. هل أنت دستوري حقا...؟ قل لي ما معنى دستوري عندكم؛ أما معناه عند جاراتي فإنني أعرفه معرفة تامة، لأنه سكين مغروسة في قلبي»...! وكدتُ أن أبكي من شدة التأثر، ولكنني تمالكت نفسي، وأخذتُ أواسيها حتى هدأت، ثم شرحتُ لها معنى الدستور، ومعنى الدستوري بأسلوب ولهجة عامية تستطيع أن تفهمها وتستوعبها. فقالت لي: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يكون الناس جميعا دستوريين؟ قلتُ لها: هل سمعت قصة نبينا محمد عليه السلام؟ إنه على حق بلا شك، فلماذا حاربته قبيلته قريش حتى أخرجته منها هاربا متخفيا، لماذا لم يتبعوه ويسلموا...؟!

في بداية كل دعوة حق يوجد أناس يخافون على مصالحهم منها فيحاربونها، ويشوهون معانيها. أتدرين أن قريشا كانت تعيّر من يؤمن برسالة رسول الله فتسمّيه «محمدي»؟ وكانت تعني لديهم لعنة يوصمُ بها المسلم، تماما كما يحدثُ الآن بالنسبة للدستوري...! هل تخافين وأنت المسلمة أن يعيّرك الكفار حين يقولون لك يا «محمدية»؟ طبعا لا.. إنك تفخرين وتعتزين بأنك «محمدية».. كذلك أنا. إنني أعتزُّ وأفتخرُ بأنني «دستوري»، وعليك أن تشعري بالعزة والفخر عندما يقولون لك: «إن ابنك دستوري». كان من الصعب عليها أن تستوعب هذا؛ ولكنها هزت رأسها كالموافقة، وقالت على خيرة الله.. الله يوفقك ويرعاك. ونهضت من جلستها، ومشت خطوات، ولكنها توقّفت برهة، ثم استدارت نحوي وقالت: «ولكن أمّ أحمد الشامي لا تصدق هذا؛ لأنها تهرب من مقابلة النساء، خوفا من أن تسمع ذكر ابنها «الدستوري»...!

وفيما كنتُ مستغرقا في لقاء أمي، لم أنتبه إلى أننا في بيت آخر غير بيتنا الصغير في حارة الفليحي. لقد باع أخي أحمد بيتنا في الفليحي، وبيتنا في الجراف بحوشه وحظيرة العنب والفواكه والبير واشترى بيتا آخر في حارة الخراز بصنعاء، قريبا من مسجد ابن الحسين. وكان بجانب بيتنا الجديد دار كبيرة غير مسكونة، ربما كانت مملوكة لأحد الأئمة، أو أحد جلسائهم، واستغربتُ خلوها من السكان، فقال لي أخي: هذه الدار غير مسكونة من عشرات السنين، ويُشاع أن واحدا من الجن يسكنها، ولذلك بقيت غير مسكونة ببني آدم، ويتناقل الناس أن أحد رجال القبائل دخل إلى صنعاء ولم يجد له مسكنا فجاء إلى هذه الدار ودخلها، ووجد أبواب غرفها مغلقة، وكان في يده «صميل» فضرب به باب غرفة ضربة قوية فصاح الجني من داخل الغرفة: جني فجعتني، ونام القبيلي مع الجني بعد أن رحّب به الجني...! وقد سكن هذه الدار بعد قيام الثورة القاضي العرشي وزوجته بنت الأمير صمصام وهو عبد من عبيد الإمام يحيى من إفريقيا، وبنته زوجة العرشي سوداء كأبيها، وكان العرشي وزوجته من ألطف الناس يثيرون المرح والضحك في الحارة.

ومن جيراننا في حارة الخراز أسرة بيت أبو الرجال ومنهم القاضي علي أبو

الرجال، وهو أصغر مني سنا، وأسرة القاضي أحمد الجرافي وأولاده محمد وعلي، وكان علي الجرافي صديقا للأخ علي أبو الرجال، ونشأت بيني وبينهما علاقة صداقة وعلاقة ثقافة واستمرت إلى اليوم. كما كان من جيراننا بيت الوجيه، وهم من السادة ذوي المناصب لدى الإمام، وبيت السيد إسماعيل غمضان التاجر الفاضل الكريم. كما كان من جيراننا أستاذي العظيم عبد اللّه الخروش الذي كان له فضل في تربيتي في مدرسة الأيتام، وقد زرته في بيته مرارا وقبّلتُ يده بكل إجلال، وتذكّرنا أيام زمان. ومن جيراننا القاضي محمد التهامي، إمام مسجد ابن الحسين، وله أبناء صالحون كأبيهم. وكان بيت القضاة آل العرشي في حارة القزالي قريبين منا، وابنهم عبد الوهاب الذي ضربني ونحن أطفال، عندما قام أولاد حارة الفليحي بغزو أولاد حارة القزالي، ودارت معركة بين أطفال الحارتين، غلبني فيها عبد الوهاب العرشي الذي أصبح قاضيا رزينا، لا يضاربُ أحدا، وفي فترة من الفترات كان عاملا للإمام أحمد في ناحية جبل مسور عند فراري من سجن نافع 1961 .

مع الإمام وجها لوجه والفرار لعدن

قد ذهب أكثر المُطْلَقين- إن لم أقل كلهم- لزيارة الإمام في تعز بعد انتصار الإمام على الانقلاب في تعز. ولم أذهب لزيارة الإمام، فقد بلغني أنه كان ساخطا عليّ، وعاتب البدر على إطلاقي، فقرّرتُ ألا أزوره، وأن الجأ إلى البدر الذي كنتُ زميلا له في دراسة علوم الدين في دار الناصر بتعز. وذهبت إلى البدر وقلتُ له: «لا ملجأ لي بعد الله إلا إليك، وأنا مستعد أن أعود إلى السجن، إذا كان هذا يرضيك ويرضي الإمام». قال لي بلطف: «لن أتخلّى عنك، وأرى أن تعمل في إذاعة صنعاء مؤقتا إلى أن نرى». وأذعتُ من إذاعة صنعاء، وسمع الإمام صوتي فأرسل إلى ابنه البدر برقية يقول فيها: سمعنا صوت محمد الفسيّل من الإذاعة، إنني غير راضٍ عن إطلاقه، فكيف تسمح له بذلك؟

واستدعاني البدر وعرض عليّ برقية الإمام، وأصدر أمرا بتعييني مديرا عاما لمدارس لواء الحديدة، وذهبتُ إلى الحديدة، وزاولتُ عملي هناك عدة أشهر، وجاء

الإمام إلى الحديدة، وفتح ديوانه لاستقبال كل الموظفين في الحديدة، وكل العلماء، والوجهاء، والمشايخ، وكان لا بد أن أزوره مع الموظفين، وفعلا ذهبت مع مئات من الموظفين، وعندما اقتربت منه أخذت يده وصافحته دون أن أقبّلها، أو أُقبّل ركبتيه كما يفعل الجميع تقريبا، لم أتعمّد ذلك، وكان تصرفي تلقائيا، وهنا رفع الإمام رأسه ورآني وقال لي: أنت هنا في الحديدة؟ قلت: نعم يا مولاي. وفي عصر ذلك اليوم في جلسة المقيل مع الكتّاب وكبار المسؤولين أعلن غضبه عليّ بصوت مرتفع قائلا: يوظّفه البدر في الحديدة هذا الذي كتب «الرجل الشاذ»، مع أنني لست راضيا بإطلاقه. وكان الحسن بن سيف الإسلام علي موجودا، فاتصل بصديقي حسين عبد اللّه المقدمي، مدير مستشفى الحديدة وأخبره بموقف الإمام مني، فقرّرتُ الفرار، وذهبتُ إلى نائب الإمام في الحديدة، وكان حينذاك محمد أحمد باشا المتوكل، واستأذنته في زيارة أهلي في صنعاء، فأذن لي.

ذهبتُ إلى صنعاء، وبقيت مع أمي أياما، واشتريت حمارا، وفررتُ إلى عدن في أوائل عام 1956، وبقيت فيها إلى عام 1957، وأصدرتُ في منتصف عام 1956 جريدة «القات» الأسبوعية الذي كان الأخ علي ناجي محسن من لحج قد حصل على رخصة رسمية لإصدارها، لتعبر عن تجّار القات المستورد من الحبشة، ومن لوائي تعز وإب، وحوّلتها إلى جريدة سياسية كادت بسببها السلطات الإنجليزية في عدن تعيدني إلى الإمام. وقد نجحت صحيفة «القات» وانتشرت؛ لأنها كانت تحوي مقالات سياسية واجتماعية، والكثير من الفكاهات، ولذلك فكّرَ نعمان الابن أن يستولي عليها، بالشراء من مالكها إلا أن محاولته فشلت. كما أن الإمام أحمد حاول أن يُغلق جريدة «القات» بواسطة إبراهيم الوزير في القاهرة، متعاونا مع الوزير اليمني المفوض في القاهرة عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب، كما كانت هناك محاولة لإغلاق الصحيفة بواسطة أحمد عبد الرقيب حسان الذي كان في ذلك الوقت رئيسا للاتحاد اليمني في عدن.

وفي ربيع الآخر سنة 76هـ-أكتوبر سنة 1956، أبرق الوزير المفوض المذكور إلى الإمام برقية نصها: «جلالة أمير المؤمنين أيّده الله، بلغ أن جريدة النضال

السورية نشرت مقالا هاجمت فيه اليمن هجوما عنيفا في ثلاث صفحات، كما بلغ أن محمد أحمد نعمان يحاولُ شراء جريدة القات من مالكها وصاحبها علي ناجي محسن، بهدف إبعاد محمد عبد اللّه الفسيّل منها، وقد رتّب إبراهيم الوزير محاولة إقفال جريدة القات، وكان نعمان يسعى لشرائها، وأحمد عبد الرقيب حسان يسعى لإقفالها والقيام بحركة معارضة. ولدكم الحقير». وقد ردّ الإمام عليه ببرقية جاء فيها: «الولد عبد الرحمن.. إذا صح ما بلغكم عن جريدة النضال فتلك نتيجة وصول نعمان والزبيري إلى سوريا، وهل تمت محاولة إبراهيم الوزير وأحمد عبد الرقيب لإقفال جريدة القات»؟

وكنت أكتب المقالة الافتتاحية فيها بعنوان «تخديرة قات» لأعالج بها أي موضوع سياسي، أو أهاجم فيها الإمام أحمد ونظامه. وخلال العدوان الثلاثي كتبتُ في جريدة «القات» مقالا افتتاحيا هاجمت فيه «إيدن» رئيس الحكومة البريطانية وسياسة بريطانيا خلال العدوان الثلاثي على مصر، وبسبب ذلك استدعى المستر «هوبسن» سكرتير الوالي علي ناجي محسن، مالك ورئيس صحيفة «القات» وأثار معه موضوع افتتاحية الصحيفة، فأخبره أن الأستاذ الفسيّل مدير التحرير هو الذي يتولّى كتابة الافتتاحية ويشرفُ على الصحيفة. واستدعاني سكرتير الوالي وحقّق معي، فقدّمتُ إليه طلبا أطلب فيه السماح بإصدار صحيفة اسمها «الحرية»، تعالج قضايا الشمال اليمني. وخلال اللقاء قال لي: أتدري أنك بموجب القانون أجنبي في عدن، وبموجبه نستطيع أن نعيدك إلى اليمن؟! فقلت له: إذا خرجنا إلى الشارع معا، وسألنا الناس من هو الأجنبي، فإنني لن أكون الأجنبي، فضحك وقال لي إنه سيذهب في إجازة، وبعد عودته سيعيد النظر في منحي رخصة إصدار صحيفة.

من «دسترة الإمامة» إلى «الجمهورية الديموقراطية»

حال وصولي إلى عدن في عام 1956، انضممتُ إلى الاتحاد اليمني، وسكنت في داره، وكان زميلي في السكن الأخ محمد علي الأكوع. وبرغم الخلاف مع

النعمانيين على أسلوب العمل إلا أن علاقتي معهم كانت قوية، وكنتُ أجد في نعمان الابن من الحيوية وعمق التفكير، وقوة النشاط ما يقرّبني إليه ويقربه مني. وكانت جلساتنا وحواراتنا لا تنقطع. قلتُ له يوما: في ذهني تساؤل لا يبرحه هو: هل للإمامة التي حكمتنا ألفا ومئتي عام وجود كنظرية وعقيدة؟ أم أن الموجود هو الإمام كشخص، لا الإمامة كنظام؟ وأخذنا نناقش هذا السؤال مستعرضين تاريخ الإمامة في اليمن من الهادي يحيى بن الحسين، إلى الإمام أحمد حميد الدين في جلسات متواصلة.

وقد توصلنا إلى قناعة بأن الإمامة لا وجود لها عمليا في عقيدة الشعب. يوجد «إمام» ولا يوجد «إمامة»، وحتى شروط قيام الإمام له أربعة عشر شرطا لدى الهادوية، ولكن لا يوجد شرط واحد لوجود الإمامة لدى الأئمة ولدى الشعب! وقلتُ له: هذه الحقيقة كنتُ قد توصّلتُ إليها مع صديقي أحمد الشامي، ونحن نكتب كتاب «كيف نفهم القضية اليمنية» عام 1948، ونحن في أعماق سجن نافع، ودعونا في هذا الكتاب إلى تجاوز الإمام والإمامة إلى النظام الجمهوري. وما حدث في ثورة 48 الدستورية، ثم ما حدث في حركة الثلايا والإمام عبد اللّه حميد الدين يؤكد أن الإمامة لا وجود لها، يوجد إمام مقدس قداسة زائفة، كالإمام يحيى، أو إمام طاغية رهيب «يا جناه»، كالإمام أحمد، أو إمام ضعيف، كالإمام الوزير! وقال لي نعمان الابن بحماسة: آن الأوان أن نتجاوز الإمامة والإمام، ونعلن أن البديل هو النظام الجمهوري. لقد جرّبنا في ثورة 48 الدستورية استبدال إمام مستبد بإمام دستوري من أسرة أخرى،

العقيد أحمد الثلايا قائد حركة 1955 في ميدان الإعدام

وسقطت التجربة بكل ما فيها من مآس، وقلنا إن السقوط كان نتيجة اعتياد الشعب على حكم بيت حميد الدين، ونظرته لآل الوزير كأتباع للإمام لا كأئمة.

وجاءت حركة مارس 1955 بقيادة الثلايا وإمامة الإمام عبد اللّه بن يحيى حميد الدين. وسقطت الحركة خلال أيام، وانتصر الإمام أحمد مرة أخرى، فمن الغباء أن يبقى تفكيرنا قائما على استبدال إمام بإمام؛ لأن الإمام هو الموجود لا «الإمامة»، ولا بدّ من ثورة جمهورية تتجاوزُ الإمام والإمامة. هذا ما قاله نعمان الابن في أواخر عام 1956 بعد سقوط حركة الثلايا وإمامة عبد اللّه الوزير، وكنتُ معه في هذا، ولكني سألته: كيف نحقّق ذلك؟ ومن رجاله؟ قال: علينا أولا أن نتبنى المبدأ الجمهوري، ونعلنه ونبحث عمن يؤيّده. قلتُ له: إن قيادة الأحرار في 48 الدستورية هي القيادة نفسها الآن، فهل تعتقد أنها مؤهلة لتبني المبدأ الجمهوري لا مجرد إعلانه؟ قال: ماذا تقصد؟ قلتُ له: سؤالي يحتاجُ إلى جواب، لا إلى سؤال. قال: لا شك أنهم مؤهلون لذلك. قلتُ: لإعلانه أو تبنيه؟

ونظر إليّ النعمان وهو من أذكى الرجال وأعمقهم لماحيّة وتفكيرا، وبذلك عرف ما أرمي إليه، وقال لي: دعنا نبحث عن جواب لسؤالك معا، وأريدك أن تبدأ بالبحث. قلتُ له: إن مبدأ الجمهورية مبدأ ثوري، فهل لدينا ولدى قيادتنا الفكر والإرادة الثورية؟ أنا أعتقد أننا حتى الآن لسنا مؤهلين لذلك؛ لأن أسلوبنا في العمل لا يزال أسلوب استقطاب «المدكنين»، لا استقطاب المفكرين والجماهير. قال: يا أخي لماذا تذهب بعيدا، إننا على صلة بالشيخ حميد بن حسين الأحمر وأبيه، وأنت تعرف أن القبائل هم القوة المنظمة الشعبية الحقيقية، فإذا أقنعناهم بالمبدأ تبنّوه معنا. قلتُ له: من يكون رئيس الجمهورية في هذه الحالة؟ قال: حميد الأحمر كواجهة للأحرار. قلتُ له: معنى هذا أن الأحرار هم الذين «يزملون» و«يبترعون» أمام القبائل...! إن الإمام أو القائد الثوري هو الذي له قواعد جماهيرية مدنية وقبلية؛ أي أن قوته تأتي من تأييد قواعد المشايخ لا المشايخ؛ لأن حكم المشايخ قد فشل في الماضي لحساب الإمام والأئمة، وسيكون حكم المشايخ أسوأ من حكم الأئمة، وعبر التاريخ فشل مشايخ القبائل أن يكونوا دولة. آل الضحاك فشلوا في حاشد،

والحواليون فشلوا في كوكبان، وحتى الصليحيون فشلوا برغم واجهتهم الدينية الفاطمية، وانتهى آل زياد، وانتهى الرسوليون، وانتهى آل طاهر، وبقي الأئمة الذين ارتكزوا على عقيدة دينية. إننا نحتاجُ إلى أن نجعل المبدأ الجمهوري عقيدة سياسية للجماهير، تقترن بالعقيدة الدينية ولا تعارضها. وهذا يحتاج إلى تفكير ودراسة وتحليل عميق، وتنظيم للجماهير.

لقد ظل المشايخ والقبائل يزملون أمام أي إمام قوي أو أي إمام ضعيف؛ لأن الإمام كان حاكما مدنيا، لا ينتسبُ إلى القبائل، وإنما تنتسبُ القبائل إليه، ولذلك يجب أن يكون الحكمُ مدنيا، يحلُّ العلماء فيه والمثقفون محل الإمام. ويجبُ أن نعيد النظر في قدرة الأحرار، بمن فيهم الزبيري والنعمان والإرياني وصبرة بأن يحلُّوا محلَّ الإمام الذي لا ينتسبُ إلى قبيلة، وإنما يحكم القبائل كقائد مدني، وسيكون الأحرارُ في هذه الحالة حكاما لا ينتسبون إلى قبيلة، وإنما ينتسبون إلى الوطن، وأرى أن الاقتراح الذي قدّمه سيف الإسلام علي إلى أبيه هو الأنسب للحكم في اليمن، وكان هذا الاقتراح يتضمّن خمس مؤسسات للدولة هي: مؤسسة الإمامة كرمز مدني للحكم. مؤسسة الحكومة التنفيذية. مؤسسة مجلس المشايخ الذين يتابعون مصالح مناطقهم ضمن خطة عامة للوطن. مؤسسة مجلس الشورى الذي يضم أصحاب الخبرة، والعلماء، والمثقفين، والوجهاء. مجلس الشعب، الذي يُنتخب مباشرة من قبل المواطنين في كل المناطق.

كان هذا الحوار كما أذكر في أوائل عام 1957، وقد اقتنع نعمان الابن بما ذهبت إليه في الحوار. وكتب نعمان الابن إلى أبيه خلاصة الحوار، وطلب منه تبني مبدأ الجمهورية، بدلا من «الإمامة»، وقد ردّ الزعيمان الزبيري والنعمان عليه بأن من الصعب عليهم في الوقت الحاضر تبني ذلك، ولكنهم لا يمانعون من تبني الصف الثاني من الأحرار لفكرة الجمهورية. كان نعمان الابن أكثر ديناميكية، وأوسع علاقات مني، فكتب مقالا باسمه، نُشر في صحيفة «اليقظة» وصحيفة «الفكر»، أعلن فيه تبني الأحرار لمبدأ الجمهورية الديموقراطية، بدلا من دسترة الإمامة. والغريب أن المعارضة لفكرة الجمهورية جاءت من المرتبطين بالشيوعية العالمية،

وعلى رأسهم عبد اللّه وعبد الرزاق باذيب، فقد نشروا مقالات يهاجمون نعمان الابن والأحرار وفكرة الجمهورية، باعتبار أن الفكرة جاءت من برجوازيين يدعون لجمهورية، يرأسها شيخ قبلي، هو أكثر رجعية من الإمام. وقد انتقل عبد اللّه باذيب إلى تعز، وبدعم من الإمام أحمد أصدر صحيفة «الطليعة» في تعز التي تهاجمُ الأحرار وجمهوريتهم، وتؤيدُ الإمام وحكمه.

بعد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، ولأسباب ضاغطة قرّرتُ السفر إلى مصر، وكان الطيران إليها متوقّفا، ولذلك قرّرت السفر على باخرة إلى السعودية، ومنها إلى مصر، ودبّر لي الأستاذ نعمان الابن جواز سفر مزوّرا، وسوف أذكر ذلك في موضع آخر، تحت عنوان: «الرجل الشّاذ يتبعني إلى السعودية ويعيدني إلى سجن نافع». وفي أوائل عام 1961، وأول يوم في شهر رمضان سنة 1380هـ، فررت من نافع كما سيأتي، ووصلت إلى عدن في يوم 15 مارس 1961، وفي مساء هذا اليوم قام اللقية والعلفي بإطلاق النار على الإمام أحمد في مستشفى الحديدة، وإصابته إصابات أدت – فيما بعد– إلى موته في 18 سبتمبر 1962. وفي عام 1986 كتبت مقدمة «كيف نفهم القضية اليمنية» ورسالة «نحو النور» وطبعتهما في كتاب واحد، وكتبت لهما مقدمة ذكرت فيها قيام حركة 1955، ومحاصرة الإمام أحمد، ووصول البدر إلى حجة، وإطلاقنا من سجون حجة في مارس سنة 1955، وسقوط حركة الثلايا، وقد كتبتُ في مقدمة الرسالتين عن حركة الثلايا وإطلاقنا وسقوط الحركة.. وكان ما كان!

الفصل الخامس عشر
قصتي مع كتاب «الرجل الشاذ»

في يوم 25 نوفمبر 1946، قدّمتُ للأستاذ الزبيري مقالا أثرتُ فيه امتناع ولي العهد من الوصول إلى صنعاء وتهرّبه من زيارة أبيه، تنفيذا لتوجيهاته، باعتباره رئيس التحرير، وبعد أن قرأه أُعجب به وقال لي: اسمع يا عزيزي واكتم السر.. إن حركة الأحرار الآن في مرحلة حاسمة، والإمام يحيى عجوز مريض، وليس في أولاده من يهدّد مستقبل اليمن إلا السيف أحمد، وعندي رسائل عديدة تصلني من الداخل، وفيها هجوم عليه، وذكر لتاريخ ماضيه، فما رأيك أن أعطيك تلك الرسائل، وتكتب كتابا عن السيف أحمد ننشره في هذه المرحلة الحاسمة؟! قلتُ له: ليس لديّ مانع.

وتركني وقام إلى غرفته الخاصة في منزله، ثم عاد وسلّمني مظروفا فيه تلك الرسائل، وأخذتها معي، وقرأتها بإمعان، وبدأتُ أكتب بحثا أو كتابا عن ولي العهد بعنوان: «الرجل الشاذ»، وبعد أن انتهيتُ من كتابته سلّمته للقاضي الزبيري الذي راجعه وخفّف بعض العبارات، وأرسله إلى الأستاذ نعمان الذي راجعه، ثم استدعاني إليه، وقال بلهجته الأبوية التي لا تعرف جدها من هزلها: «أصلحك الله يا عزي إن «الموظّف» النشيط يفكّر ويعمل من نفسه ما يطوّر به العمل المسؤول عنه، وهذا الكتابُ عمل وظيفي، باعتبارك موظفا في جريدة «صوت اليمن»، وسوف يُطبع الكتاب، وحقوق الطبع محفوظة لصوت اليمن». وكان يتكلّمُ مبتسما، وعندما وصل إلى العبارة الأخيرة تقمّص روح الجد، كمدير للصحيفة وللمطبعة. قلتُ له وأنا أضحك: يا أستاذي العظيم، أنت المدير «حقنا» وتعرف أن وظيفتي في الصحيفة محرر ومصحح بروفات، وليس مؤلف كتب. قال لي بسرعة: خلاص يا أستاذ

خلاص، ننشره مقالات في الصحيفة، وبهذا لا يبقى لك لا حق ولا باطل عند «صوت اليمن». وأردف قائلا: سوف ننشره، تشجيعا لكاتب مبتدئ، ونعطيك يا عزي جائزة تشجيعية، وأقول لك الصدق: أنت كاتب مبدع بامتياز؛ ولكن قل لي من علّمك الكتابة؟! قلتُ له: تعلّمتُ من خطاباتك الرنانة في ميدان عرضي تعز يا «خطيب الشعب»، وضحك الأستاذ، وظل في مزاحه الخفيف اللطيف وقال: ولكن خطاباتي كانت تقديسا، وتمجيدا ومدحا لولي العهد، فكيف حوّلتها ذما، وقدحا، و«مرمطة»؟! قلتُ له: تكفيرا عن موقفك هناك، وتأييدا لموقفك هنا، قال الأستاذ متقمصا صرامة المدير: «انتهت الجلسة، قم شوف شغلك يا أستاذ».

تم طبع ألفي نسخة من كتاب «الرجل الشاذ» في مطبعة «النهضة اليمانية»، في أواخر عام 1947، ووضع في صناديق، ولم يخرج منه إلا ثلاث نسخ: واحدة في بيت الأستاذ، والأخرى في بيت القاضي، والثالثة سلّمها الأستاذ للسيد حسين الويسي، وكيل الإمام في عدن. كنتُ في هذا الوقت غائبا عن عدن، بعد أن تسلّلتُ في مهمة، كُلفتُ بها إلى منطقة مسورة في لواء البيضاء، للتفاهم مع السلطان حسين أحمد الرصّاص، كما ذكرتُ ذلك فيما سبق. أما مصير كتاب «الرجل الشاذ» فقد بلغني بعد عودتي أن الأستاذ أخذ نسخة منه، وذهب إلى السيد حسين الويسي، وهو وكيل الإمام السياسي في عدن، وكان يتعاطفُ مع الأحرار، وسلّمه النسخة، قائلا له: لقد طبعنا منه ألفي نسخة، هذه واحدة منها، ولديّ نسخة أخرى، فهل نسلّمها للمؤلف وذكر اسمي أم نبيعها له من ولي العهد؟ وأخذ الويسي النسخة إلى ولي العهد في تعز، وبعد أن قرأها فوّض الويسي في شراء ألفي نسخة، إلا ثلاث نسخ من الكتاب، ولا أدري حتى الآن كم دفع الويسي للأستاذ نعمان، ثمنا لنسخ الرجل الشاذ! أما المؤلف فلم يحصل حتى على نسخة من الكتاب، ولم يأخذ «شلنا» واحدا من القيمة، وسامح الله الأستاذ، وغفر له.

بعد نقل الصناديق الخشبية التي تحتوي على نسخ «الرجل الشاذ» إلى مقام ولي العهد في تعز، أدخلوها مغلقة إلى زاوية من زوايا مكتبته هناك. وكان قد كلّف السيد النبيل محمد الوريث بترتيب مكتبته، وخلال قيامه بهذه المهمة وجد

الصناديق، وقام بفتح واحد منها، ووجد أن الصناديق تحتوي على نسخ «الرجل الشاذ» الذي اشتراها ولي العهد من الأستاذ نعمان بواسطة الويسي، وأخذ نسخة منها إلى ولي العهد قائلا له: «يوجد في المكتبة عدة صناديق من هذا الكتاب، فكيف نتصرّف بها»؟ قال له ولي العهد: «قبح الله محمد الفسيّل، أحرقوها ما عدا نسخة واحدة، تبقى في المكتبة». وبعد شهور قليلة قامت ثورة 1948 الدستورية، ولم تدم إلا ثلاثة أسابيع، وسقطت في أوائل شهر مارس 1948، وانتصر الإمام أحمد، ووقع في قبضته المئات من الأحرار، بمن فيهم الأستاذ نعمان، ومجموعة كبيرة ممن كانوا معه، وكنتُ واحدا منهم، وأسرونا في مدينة ذمار، وسيق إمام الدستور عبد اللّه أحمد الوزير، وعلي الوزير، وصديقي أحمد محمد الشامي، وإبراهيم الحضراني، والقاضي أحمد العنسي والأساتذة أحمد الحورش ومحيي الدين العنسي، ومحمد المسمري، ولا مجال هنا للحصر أو للشرح.

في سجن نافع تم حشر مئات من الأحرار وسط عدد من المساجين بتُهم جنائية، وكنتُ واحدا من الأحرار المعتقلين. وكان يوجدُ في السجن الأعلى مسجون غير سياسي اسمه محمد حسن الفسيّل، سجنه الإمام أحمد عندما كان وليا للعهد في سجن «شبكة تعز»، لتزويره عددا من الأوامر بتوقيع ولي العهد، استولى بها على مبالغ من صناديق حكومية، أو على أموال ممن زوّر لهم أوامر لمصلحتهم، وبعد أن تولّى الإمام أحمد الإمامة ساق محمد حسن الفسيّل من سجن «شبكة تعز» إلى سجن نافع حجة، مع من ساقهم من الأحرار. ولم أكن أعرف أن محمد حسن الفسيّل مسجون معنا في سجن نافع، ولكن في القسم الأعلى، وقد أرسل برقية مراجعة إلى الإمام، لإطلاقه فأجاب عليه الإمام، باعتباره مؤلف «الرجل الشاذ»، ولكن محمد حسن ذكرَّه أنه ليس محمد عبد اللّه الفسيّل السياسي، وإنما هو مزوّرُ الأوامر، وقد سُجن سنوات طويلة، ولم أعرف بهذا الأخذ والرد إلا فيما بعد.

مراجعاتي إلى الإمام

ربما كان الأخذ والرد بين الإمام وسميي محمد حسن الفسيّل كافيا لتذكير

الإمام، وإثارة غضبه عليّ في وقت لم تجف فيه دماء الشهداء الأحرار الذين ذبحهم في ميادين المدن اليمنية، وخصوصا ميدان حورة في مدينة حجة، ولو كنتُ أعرف بذلك، لما أرسلتُ مراجعة إلى الإمام. وذات يوم كنتُ جالسا في درج قرب باب السجن الداخلي، وكنتُ أصغر مسجون في السجن بجسمي النحيل، وشكلي البائس، وفجأة أطلَّ عليّ مدير السجن علي محمد الحاشدي، ويظهر أنه استغرب وجودي بين المساجين السياسيين المدسترين، فسألني: ما اسمك؟ قلت: له محمد عبد اللّه الفسيّل. قال: من بني مطر؟ قلت: نعم. قال: لماذا حبسوك بين هؤلاء الأشرار المدسترين؟! قلتُ له: كنتُ مسافرا فوجدتُ مجموعة كبيرة، ومشيت معهم، فقبضوا عليهم وأنا بينهم، وساقونا إلى هذا الحبس، قال أرسل برقية مراجعة إلى الإمام، فربما يطلقك. وقد اكتشفتُ أن المسجون ينساق وراء أي بارقة أمل للإطلاق، حتى ولو كانت غير معقولة، وفعلا ظننتُ أن الحوار مع مدير السجن لا بدّ أن وراءه أملا في الإطلاق.

وأمر مدير السجن بفتح «باب الشجع»، وهذا هو اسم الباب الداخلي للسجن، ودعاني للخروج، وخرجت إلى عشة ناصر علي جرامة، وهو بواب سجن نافع العتيد، وكأنه حجرة ضخمة من حجارته، وأعطاني المدير ورقة وقلما، وكتبتُ برقية ربما نصها كالتالي: «مولانا أمير المؤمنين أيّدكم الله وحماكم.. هدّني العذاب والأمراض.. رحمتكم بإطلاقي، وصلوات الله عليكم»، خادمكم محمد عبد اللّه الفسيّل. وعاد جواب الإمام على المراجعة بعد أيام ونصها: «من الإمام إلى محمد الفسيّل عافاكم الله.. من هو الرجل الشاذ»؟ احمد اللّه. وظهر الحاشدي من باب الشجع، مرة أخرى وهو يصيح: ادعوا الفسيّل، وسمعت الصوت، وجريت بقيودي وسكي نحوه، وعندي أمل أن إطلاقي في الورقة التي رأيتها في يده.

وعندما وصلت إلى باب «الشجع» كان ناصر علي قد فتحه فخرجتُ إلى العشة، وسلّمني الحاشدي الجواب، وشعرتُ بالفزع، وقمت لأعود، ولكن الحاشدي صرخ في وجهي. اجلس يا خبيث.. «جوّب» على سؤال مولانا الإمام...! وجلست وأنا أتطلع إلى عيون الحاشدي علّني أعرف ما يخفي جواب الإمام، وأعطاني قلما وورقة،

أخذتهما وأجبت عن سؤال الإمام ونصه: مولانا أمير المؤمنين أيّدكم الله، ذلك عمل مشترك كان نصيبي منه تصحيح «البروفات» وعلى كل:

مولاي أنت البحر من
في وسعه تكدير صفوك
هب لي ذنوبا كالجبالِ
فأين منها حسن عفوك

خادمكم محمد عبد اللّه الفسيّل

ولعل هذه المراجعات كانت في أواخر عام 1948 أو أوائل عام 1949، وقرّرتُ بعدها ألا أرسل مراجعات أخرى. وعندما قرأ الحاشدي الجواب لم يكن يعرف ما معنى «الرجل الشاذ» في جواب الإمام، ولم يكن يعرف ما معنى «تصحيح البروفات» في جوابي، ولكنه أُعجب بالبيتين في آخر المراجعة، وأعادني إلى داخل السجن. ونُقلنا من سجن نافع الرهيب إلى سجن قاهرةِ حجة في 26 شوال سنة 1369هـ– 2 يوليو 1950؛ حيث إخوان لنا قد نقلوا إليها من قبل بأمر الإمام تخفيفا؛ لأن سجن نافع من أبشع وأقذر السجون. وكانت شهوة القتل في نفس الإمام قد هدأت، وغرقت في بحر من دماء الشهداء، وتشجّع زملائي وأرسلوا مراجعات عديدة إلى الإمام، ولكني بقيت خائفا من إرسال مراجعة، لأن ذنبي يثير حساسية الإمام الشخصية ضدي، فبمجرد ذكر اسمي لديه يذكّره مباشرة بكتابي ضده «الرجل الشاذ»، وهو كتاب كتبته وأنا في عنفوان الشباب، مندفعا متحمسا من دون مراعاة أو حكمة، ولذلك فإن كتابي كان جارحا له إذا ذكره أو تذكّرني أثار في نفسه جرحا لا يندمل، يزيده سخطا عليّ، ولذلك قرّرت ألا أُذكّرهُ بشخصي، وأن أرضى بقدري مسجونا سجنا مؤبدا.

ومرّت الأيام وأنا في سجن قاهرة حجة، منشغلا بطلب العلم، دارسا ومدرّسا، وكان السجن مليئا بالعلماء والشعراء والأدباء، وبعدد من الدارسين أبناء المساجين. لقد وجدتُ في صحبتهم جميعا ما خفّف عني قسوة السجن والسجّانين، وعلى

رأسهم القضاة والسادة والضباط: عبد الرحمن الإرياني، وأحمد المعلمي، ومحمد السياغي، والصفي محبوب، ومحمد صبرة، وعبد السلام صبرة، وأحمد محمد الشامي، وأستاذي أحمد حسين المروني، والسيد محمد أحمد الوزير، ومحمد الغفاري، وعبد اللّه يحيى السلّال، وحمود الجائفي، ومحمد حسن غالب، وغيرهم. ومن تلاميذنا كان أولاد الشهيد علي عبد اللّه الوزير: إبراهيم، وزيد، وقاسم، ومحمد، وأولاد بعض المساجين، ومنهم علي السلّال، وعبد اللّه عبد السلام صبرة، وأحمد محمد الغفاري، ومحمد عبد اللّه الوزير، وإبراهيم ومحمد بن محمد الوزير، وآخرون.

كنتُ مقتنعا أن الإمام لن يطلقني، وأن غضبه عليّ يوازيه حلمه الذي أبقاني حيّا، ولكن التوازن بين غضبه وحلمه إذا اختلّ فسيكون لصالح الغضب، وحينئذ يسلّمني لسيف الجلاد، ولذلك فكّرتُ أن يبقى التوازن قائما؛ لكي أبقى حيّا، فأرسلتُ إليه مراجعة أخرى تتضمن اعترافا بذنبي بواسطة الأخ القاضي أحمد العنسي الذي كان قد أُطلق والتحق بمقام الإمام أحمد في تعز، وضمت المراجعة الأبيات التالية وكنتُ قد أرسلتها برقيا إلى الإمام، ثم أرسلتها مرة أخرى بواسطة القاضي العنسي.

مـــــولاي.. عـــــبـــــد تائب
صـــرعـــتـــه أهوال مـــهـــيلة
قـــد طهّـــرته الـــحـــادثات الهـــوج..
مـــــن دنـــــس الـــــرذيـــــلـــــة
فـــامـــــسح بعطفك دمـــعـــــه
وارحم ضـــــراعـــــتـــــه الذليلة
واغـــفـــر.. فـــإنك قـــد عـــفـــوت
عن الـــحـــقـــيـــــرة.. والـجليلة

وقد قدّمها القاضي العنسي إلى الإمام في يوم الأربعاء 2 جمادى الأولى 1370هـ-1951، مشفوعة برجاء منه، فكان جواب الإمام عليه: «هل هذا هو الذي ألف الرجل الشاذ، ولم يحترم عرضا ولا دينا؟ أفيدوا لإجراء ما يلزم»، وهذه العبارة

الأخيرة تعني الإعدام. فأجاب عليه القاضي أحمد العنسي «المملوك لا يعلم، وجميع من حُبس معه لم يفصح أحد منهم بذنبه، حتى أشدّ الناس صداقة له، وكل واحد انطوى على نفسه، واشتغل بالضراعة والدعاء، وصاروا لا مطمع لهم إلا الخلاص، ووو.. والمذكور قد لاقى ما لاقى وهو القائل وحكى الأبيات المذكورة آنفا. وكما يقولُ القاضي أحمد العنسي في كتابه السري الذي أرسله إلى المعتقلين في قاهرة حجة، إن هذه الأبيات أحرزت إعجاب مولانا أمير المؤمنين وصرّح له تحريرا عن إعجابه بها. والرسالة السرية التي أرسلها القاضي أحمد العنسي إليَّ في معتقل قاهرة حجة جاء فيها: «يجب عليك نصح بعض المعتقلين وزجرهم عن الدس بإخوانهم، فإن ذلك لا يزيدهم لدى مولانا صاحب الجلالة غير ازدراء واحتقار، فمولانا -أيّدهم الله- قد صاروا يكرهون الواشين والنمّامين»، وهذا موضوع آخر، ربما يأتي في صفحات أخرى من هذه الذكريات.

وبعد وصول رسالة القاضي أحمد العنسي، فكرتُ أن أستغلَّ الموقف، فأرسلتُ للإمام برقية مراجعة قلتُ له فيها: «أرجو التكرم بمنحي فرصة أكفّر فيها عن طيش الشباب، وأذكّركم بأن مكتبتكم الضخمة الغنية بالعلوم في حجة شبه مهملة، وأنا تحت خدمتكم لترتيبها والعناية بها، وأذكّركم بضراعتي السابقة، وأعدتُ ذكر الأبيات السابقة»، وأرسلتُ هذه المراجعة في أواخر شهر جمادى الأولى 1370هـ- مارس 1951، ورجع الجواب في اليوم التالي ونصه: من الإمام إلى محمد الفسيّل عافاه الله.. كم بقي لديكم من نسخ «الرجل الشاذ» أفيدوا؟ وبلغني فيما بعد أن الإمام كان قد أجاب على والدتي التي راجعته بإطلاقي أو تقرير ما تعيشُ به بما نصه: «ما نظنُّ الرجل الشاذ يستاهل».

طبعة جديدة من «الرجل الشاذ»!

في اليوم التالي عرفتُ السبب، فقد بلغنا أن هناك من قام بطبع كتاب «الرجل الشاذ»، طبعة جديدة، وأعتقدتُ أن الأستاذ نعمان هو الذي أوعز بطبعه إثارة للإمام وإضرارا بي، فكتبتُ له رسالة ترونها في الرسائل المتبادلة الآتية فيما بعد. وقبل أن

أذكر الرسائل المتبادلة، لا بدّ أن أكون صريحا، بعد أن هدأت موجة الإعدامات وانتقل من بقي في سجن نافع إلى معتقل قاهرة حجة أو المنصورة، وأُطلق الأستاذ إلى حجة، وتحسّنت العلاقات بينه وبين الإمام من جديد كنتُ أخشى أن تكون الخلافات بيني وبين الأستاذ في عدن لاتزال آثارها تثيرُ حنق الأستاذ عليّ، بينما لم يبقَ لها في نفسي أي أثر؛ فقد كنتُ أعتبر تلك الخلافات خلافات في الرأي، لا خلافات شخصية، ولا أثر لها على المبادئ الوطنية التي كنا جميعا نؤمن بها، وكنتُ أخشى أن يكون لتلك الآثار في نفس الأستاذ ما يفسد للود قضية.

وعندما عاد جواب الإمام بعد طبع الكتاب المشؤوم حمّلتُ الأستاذ مسؤولية الطبع، وقررتُ أن يكون همّي محاولة إرضاء الأستاذ أكثر من محاولتي إرضاء الإمام، وكتبت له الرسالة الآتية، ورسائل أخرى، وكنتُ صادقا فيها؛ لأن خلافاتنا السابقة في الرأي قد انتهت بانهيار كل شيء عند سقوط ثورة الدستور، ووقوع الأحرار في قبضة الإمام أحمد.

والأستاذ نعمان كان زعيم الأحرار وأنا منهم، وكان قائد الحركة اليمنية، واستمر قائدها حتى تحققت في ثورة 26 سبتمبر 1962. كنا نختلفُ في أساليب العمل لتحقيق أهدافنا الوطنية التي لا خلاف عليها، وقد انتهى الخلاف بعد سقوطنا جميعا في يد الإمام المنتصر. وكان كتاب «الرجل الشاذ» القشة التي يمكن أن تقصم رقبتي، لا ظهر البعير في أي لحظة، وطبع الكتاب من جديد قد يكون تلك اللحظة، وكان من المعقول أن أشك في معرفة الأستاذ بفكرة طبع الكتاب، فقد كان من قبل ومن بعد سقوط ثورة 48 الدستورية صاحب التأثير الكبير على الأحرار، أو المؤيدين للأحرار في الخارج. ولذلك كتبت له الرسالة التالية:

الحمد لله.. سيدي ووالدي العظيم حفظكم الله وتولاكم. شكرا لكم، وكنتُ قد هممتُ قبل شهر أن أكتب إليكم في أمر يهمني، ولكن حدث ما أخرني، ذلك أنه بلغني قبل مدة أن ذلك الكتاب المشؤوم قد أُعيد طبعُه مرة ثانية، وصُدّر بأبيات قيل إنها مُقذعة، وأنا يا سيدي لا أبالي أن يضحّى بي في سبيل مصلحة عامة، ولكن ما هي الفائدة من كلام فارغ، لا فائدة منه إلا الإضرار بشخص يقدّس بلاده

ولم يسيء إلى أحد. يا سيدي لا أدري من الذي أعاد طبعه؟ هل هو فرد أراد بذلك استغلالا ماديا؟ أم جماعة لهدف آخر؟ وعلى كلٍّ فالنتيجة واحدة، وهي ألا فائدة إلا الإضرار بي، وأنا آسف يا سيدي؛ لأن بعض إخواننا الشوافع لا يفرّقون بين الزيود، فهم يحقدون حتى على الذين قد أصبحوا شوافع أكثر من الشوافع، وأنا كما تعرفون أكثر شافعية منهم، أو كما يقولون ملكي أكثر من الملك.

يا سيدي إنني أخشى أن يُطبع الكتاب طبعة ثالثة إن لم يكن قد طبع. وأنا الآن تحت رحمتكم أكثر من أن أكون تحت رحمة القدر أو رحمة الإمام وأنا واثق من وطنيتكم وسمو نفسكم، وأنتم تستطيعون أن تحولوا بين طبع الكتاب بما لكم من مكانة وقوة تأثير، فأناشدكم الله أن تعملوا ذلك، فأنتم تعرفون أن الشرف والوطنية تحولُ بيني وبين الدفاع عن نفسي لدى جلالة الإمام، حتى ولو بلغ الضر إلى المشنقة، ولا أظن أن من رأيكم طبع الكتاب؛ أما إذا كان رأيكم ذلك فأرجو أن تبيّنوا لي الحكمة ليطمئن قلبي.

يا سيدي، لقد يئست الآن فارتحت، وسوف ألتزم الصبر والصمت إلى أن تحلَّ الأقدار مشكلتي، وأنا مؤمن بالقضاء والقدر، ولكن ألا ترون يا سيدي أن القدر إنما هو سلسلة الأسباب والمسببات، وإلى ذلك أشار الخليفة عمر رضي الله عنه، حين قال، وقد قيل له حين فرّ من الطاعون: أتفرُّ من قضاء الله وقدره؟ فقال: نفرُّ من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره».. فإذا عدمنا الأسباب التي نُرضي بها الإمام فلا أقلّ من ألا نعمل الأسباب التي تثيرُ غضبه وسخطه. يا سيدي، إنني تحت رحمتكم، فاعملوا ما يرضي ضميركم، وأنا أقدّر نفسية إخواننا الشوافع، ولا أجد في نفسي غيضا إذا أساؤوا إليّ بعدم تقديرهم لظروفي، ولكنكم تعرفونني، فأرجو أن تحولوا بين عمل يضرني، ولا يفيد القضية. يا سيدي، سأصمتُ حتى أُطلق بيد القدر، فإن أمكنكم أن تخفّفوا عني آلام السجن وضجره بإرسال بعض الكتب والصحف لمطالعتها وإعادتها فلكم الفضل. وأخيرا أرجو العفو، وسلام الله عليكم، وبلّغوا أخي محمد تحياتي، كذلك الرجل الأمين، أمين. ولدكم (م).

وقد أجاب الأستاذ نعمان على تلك الرسالة بالجواب الآتي: ولدي، ما أظنك

تحتاج إلى عهد وميثاق بعدم علمي بما أشرت، ولكن لكي تطيب نفسك أكتب القسم بخطي الصريح. والله وبالله وتالله إنني ما علمتُ ذلك إلا من إشارتك هذه، وأؤكد لك القسم مرة أخرى، والله وبالله وتالله عالم الغيب والشهادة أني أجهلُ كلَّ ما أشرت جهلا تاما، وأن ذلك لا يرضيني، ولا أقرُّه، وأسجل هنا لعنة الله وملائكته ولعنة اللاعنين على من يسعى بضر أخ مسلم، أو يكيد له، أو يعمل على إحباطه، ولا يطبع ذلك إلا من لا دين له ولا رجولة فيه إن صح ذلك، وأنا لا أعتقد. وأعيذك بالله أن يخطر في بالك أن مثل هذا يرضيني أو أني أقرّه.

يا ولدي، متى.. متى ستزول عنك الشكوك فيمن واللهِ لا يرضى بضر أعدائه ولا يفكّر بالشر والأذى؟ وكأنّي بك تظن أن الذين يتعمّدون الإساءة إليّ فيصابون بالضر، أن ذلك عن كيد لهم مني، والله ما أتخذُ من الأعداء سوى الحيطة والحذر، وأكِلُ إلى الله جزاءهم، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. هذا موقفي من أعدائي، أما أنت- والله يعلم- أنك من ضمن أولادي وإخواني، وإني أحبُّ لك من الخير ما أحب لنفسي، والله على ذلك شهيد، وسلامي عليك.

والدكم أحمد النعمان

وقد بلغني فيما بعد أن طبع الكتاب قد تم من دون علم الأستاذ، أو أحد من أسرته، وإنما الذي أوعز بطبعه هو الأخ أحمد محمد باشا بحسن نية، وقد أخبرني بهذا مؤخرا الأخ والزميل حسن السحولي في القاهرة عام 1998، ويؤكد هذا ما نشره الأخ علي محمد عبده في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين» من أنه سأل بعض المغتربين في الحبشة الذين كان لهم اطّلاع على الموضوع، وصلة بمن أشرف على طبعه فأكد لي ذلك، وأفادوني بأن إعادة الطبع كانت بناء على طلب من الأحرار البارزين من أهالي مدينة تعز آنذاك، وقد تم بيع أكثر ما طبع بمبلغ ألف جنيه إسترليني، من وكيل الإمام الشيخ علي الجبلي.

الرجل الشاذ يعيدني إلى سجن نافع

خلال حصار الإمام أحمد في حركة الثلايا والإمام عبد اللّه حميد الدين وصل

البدر إلى حجة، وأطلق المساجين السياسيين من سجونها، ثم انتصر الإمام أحمد خلال أيام بعد إطلاقنا، وكان البدر قد عيّنني مديرا لمدارس لواء الحديدة، ولكن الإمام كان لا يزال ساخطا عليّ، ففررتُ من جديد إلى عدن في أواخر عام 1955، ولهذه الأحداث حكايات تأتي في موضعها. وأركز الآن على العنوان.. فبعد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 فكّرت في السفر إلى مصر، وبرغم الخلافات مع الأستاذ وابنه محمد من قبل ومن بعد إلا أن علاقتي الشخصية والفكرية ظلت قائمة، وكثيرا ماكنتُ أقضي ليالي طويلة، وأوقاتا طويلة مع المرحوم الشهيد محمد أحمد نعمان الابن. وتنفيذا لفكرة الهجرة إلى مصر اقترح محمد أحمد نعمان تسهيل سفري، وأعطاني جواز سفر مزورا باسم علي صالح المطري، وسافرتُ على باخرة «الوجيه» إلى السعودية، وفي السعودية زارني الأخ حسن مرفق في الفندق الذي نزلتُ فيه، وكان زميلا لي في المدرسة العلمية، وعندما وصلت إلى السعودية كان مديرا للمكتب اليمني في السعودية «أي المفوضية أو السفارة»، ومعه موظف في المكتب هو الأخ علي الجناتي، زميلي في المدرسة المتوسطة، وزميلي في «مفرج» دار «الجمعية اليمنية الكبرى» في عدن الذي حاول الانتحار كما جاء في موضع آخر، والأخ يحيى اليدومي، وهو موظف آخر في المكتب، وبعد السلام والكلام أبدوا استعدادهم لمساعدتي.

عندما قرّرتُ السفر من عدن إلى مصر عن طريق السعودية حدثت ملابسات لم أجد لها تفسيرا أكيدا حتى الآن، فقد اتفقت مع الأخ الشهيد محمد أحمد نعمان في عدن على ترتيب السفر، وبرغم خلافاتنا على أسلوب العمل في الاتحاد اليمني إلا أن الثقة كانت- على الأقل من جانبي- قائمة بيني وبينه، وتم الاتفاق على أن يزوّدني بجواز سفر يمني مزوّر باسم علي صالح المطري، وأن يُرتّب سفري بشكل سري، على باخرة الجبلي التي تنقل الكباش إلى السعودية، وألا يعرف هذا غيري وغيره، ورافقني إلى الميناء في التواهي، ثم ودّعني وغادر بعد أن حملوا شنطتي إلى الباخرة، كان ذلك في الأسبوع الأول من شهر شعبان 1376هـ-1957، وفي الباخرة جاء شخص لا أعرفه وقال لي: أنا محمد الحيمي، لاسلكي الباخرة، وأنت من

الأحرار، وكان خط سير الباخرة إلى جدة مباشرة، ولكن وصل من الإمام برقية إلى الباخرة، يأمر بتوجهها أولا إلى الـمخا، وأنصحك ألا تواصل السفر بالباخرة، فربما أن الغرض هو إلقاء القبض عليك في الـمخا، إذ لا يوجد أي مبرر لمرور الباخرة أولا على الـمخا.

ومحمد الـحيمي هذا هو الذي أصبح بعد قيام ثورة 26 سبتمبر 1963 مدير بلدية صنعاء، ثم رئيس مجلس إدارة شركة الطيران اليمنية. وقد سهّل نزولي من الباخرة مع الشنطة، وعدتُ إلى دار الاتحاد اليمني، واستغرب صديقي وزميلي الأخ محمد علي الأكوع عودتي من الباخرة؛ لأن الأخ محمد نعمان أخبره بأنني قد غادرت عدن على باخرة الـجبلي، وليس صحيحا أن بعض الإخوان ومنهم الأخ محمد الأكوع قد حضروا إلى الـميناء لتوديعي، وأنهم حاولوا إقناعي بعدم السفر؛ لأن الشخص الوحيد الذي ودّعني في الـميناء هو الأخ محمد أحمد نعمان، الابن؛ أما ما نشره الأخ العميد محمد علي الأكوع أخيرا في عدد من صحيفة «الثقافية»، بأنه كان في ميناء التواهي، مُودّعا لي، ومحاولا إقناعي بعدم السفر مع آخرين، فهو مقال للنشر والترفيه والتنويه، وليس لذكر الـحقيقة..! ولا يزالُ السؤال: «من بلّغ الإمام بسفري إلى السعودية على باخرة الـجبلي»؟ بلا جواب حتى الآن!

بعد نزولي من باخرة الـجبلي وعودتي إلى عدن قرّرتُ أن أرتّب سفري على باخرة الوجيه دون أن أخبر أحدا حتى الأخ محمد أحمد نعمان، وتم الترتيب وذهبت منفردا إلى ميناء التواهي، وركبت على باخرة الوجيه، وكان لا بد أن يعرف الإخوان في دار الاتحاد سفري إذا غبت ساعات طويلة عن التواجد في الدار، ولذلك سرعان ما عرفوا سفري على باخرة الوجيه، ولم أصل إلى السعودية إلا وقد سبقتني برقية من الإمام إلى مدير الـمكتب اليمني في جدة الأخ حسن مرفق، نصها كما يلي، وهي بخط الإمام نفسه، وقد عثرنا على أصول هذه البرقيات الـمتبادلة ضمن الوثائق التي عُثر عليها في تعز بعد قيام الثورة.

برقيات بين ملكين لإعادتي إلى الإمام

البرقية رقم (1)

40-667

«القاضي حسين مرفق.. سيصل من عدن على باخرة، محمد عبد اللّه الفسيّل، صاحب كتاب «الرجل الشاذ»، لا سامحه الله، يلزمكم إما التوسل لخروجه إلينا بكل صورة، ثم حفظه الحفظ الكامل، والانتباه الشديد جدا، أو البقاء بجواره وإحباطه وإرجاعه إلينا». والسلام. وبرقية الإمام بخطه دون تاريخ، ولكن الأخ حسن مرفق أجاب عليه كالآتي:

البرقية رقم (2)

جده 18 شعبان 76 مستعجل

65-117

«مولانا صاحب الجلالة أمير المؤمنين، رقم 765 وصل جدة، محمد عبد اللّه الفسيّل، وطلبنا من السلطات القبض عليه وتسليمه إلينا، لإعادته إلى اليمن، باعتباره جاسوسا بريطانيا».

المملوك حسين مرفق

وجوابا عليه من الإمام بخط أحد الكتاب وأكمله الإمام بخطه نصه:

البرقية رقم (3)

44-705

إلى القاضي حسين مرفق حرسه الله

«أحسنتم بالإيضاح، واهتموا في المطالبة بقبض محمد عبد اللّه الفسيّل، وتسليمه إليكم، لتعجيل إرساله إلينا. الله الله لا يفوتكم.. «تتمة بخط الإمام» وأفيدونا لإرسال طائرة إليكم للمذكور إن شاء الله» 17 شعبان.

وبهذه البرقيات نتأكد أن هناك من بلّغ الإمام أنني قد سافرتُ على باخرة الوجيه

قبل وصول الباخرة إلى ميناء جدة. فمن بلغ الإمام مرة أخرى؟ سؤال لا يوجد له جواب أكيد حتى الآن.

وفي الباخرة وجدت السيد السراجي، وهو أحد جيراننا في حارة الفليحي، وكان لاسلكي الباخرة المخصصة لنقل الحيوانات، وليس فيها إلا ثلاث كبائن واحدة لقبطان الباخرة، وواحدة لموظف اللاسلكي، وواحدة لمساعد القبطان والمشرف على الباخرة. وقد وسّع لي الأخ السراجي مكانا ضيقا في كبينته الضيقة، وأنا متأكد أنه لم يبلغ الإمام بوجودي في الباخرة، وأن التبليغ كان بطريقة ما من عدن. وهو نفسه من بلغ الإمام بركوبي على باخرة الجبلي التي نزلت منها قبل إبحارها.

وظل «الرجل الشاذ» يلاحقني في جدة حتى أعادني إلى سجن نافع...!

البرقية رقم (4)

هذه برقية من الملك سعود إلى الإمام أحمد نصها: «الشنطة الحجازية 118

28 شبعان سنة 76 رقم 3713

«صاحب الجلالة الأخ أحمد حفظه الله

نرجو لجلالة الأخ وأسرته الكريمة دوام الصحة والسعادة. وبعد لقد طلب مندوب جلالة الأخ في جدة إلقاء القبض على محمد عبد اللّه الفسيّل وتسليمه إليه، وقد ألقي القبض على الشخص المذكور، وأمرنا بتسليمه إلى مندوب جلالتكم في جدة حسب طلبه. أحببنا إخبار جلالتكم بذلك والله يحفظكم». سعود

البرقية رقم (5)

وأجاب الإمام عليه بالبرقية التالية:

«إلى صاحب الجلالة الأخ الملك سعود حفظه الله.. أرجو لجلالة الأخ دوام الصحة والرفاهية ولأسرته الكريمة.

فقد تلقيتُ برقية جلالة الأخ العزيز المفيدة بإلقاء القبض على محمد عبد اللّه

الفسيّل وتسليمه لمندوبنا بجدة. وإني أشكركم، وأقّدر جميل إخائكم. والمذكور من الفئة الجاسوسية، عملوا أعوانا على حساب اليمن، وجعلوا من أنفسهم عملاء مأجورين للإنجليز المستعمر. حفظكم الله تعالى ذخرا، وقد أمرنا مندوبنا بجدة بإرساله على أول طائرة إلينا». 26 شعبان

البرقية رقم (6)

وفي اليوم نفسه تلقى الإمام من حسين مرفق البرقية التالية:

جده 174 28 شعبان 76

«مولانا صاحب الجلالة ملك اليمن المعظم حفظه الله.. سبق إليكم أن الفسيّل قُبض عليه، ولكن لم تظهر النتيجة حول تسليمه إلينا، فأرجو تأخير إرسال الطائرة إلى عند الإفادة إن شاء الله. ارجو الإفادة بوصول البريد». المملوك حسين مرفق

البرقية رقم (7)

وأرسل له الإمام الجواب التالي بخط أحد الكتاب وبخطه:

إلى القاضي حسين مرفق جده رقم 764–49

قد وصلت برقية من صاحب الجلالة الأخ الملك سعود حفظه الله مفادها أن جلالته قد أصدر أمره بقبض الفسيّل وتسليمه إليكم، وستصل الطائرة ظفار إليكم غدا لنقل السفير التشيكي ومن معه، وفيها «نفرين/ نفران» من الحرس لاستلام الفسيّل، وإيصاله إلينا مع ظفار. قضية نفقة السفير ومن معه نفقاتهم على حساب حكومتنا بتاريخ 26 شعبان «وأضاف الإمام بقلمه» وقد عجبنا كثيرا من قولكم لم تظهر النتيجة حول تسليم الفسيّل إليكم، ولو أخذتم الحقيقة عنه من القاضي علي اليدومي والأستاذ الجناتي لعرفتم النتيجة.

البرقية رقم (8)

ويلاحظ أن برقيات الملك سعود، وحسين مرفق مؤرخة 28 شعبان بينما يؤرخ الإمام 26 شعبان.

كما يلاحظُ أن الإمام قد كلّف حسين مرفق واليدومي والجناتي لمتابعة القبض عليّ، وذهب مرفق إلى الرياض للمتابعة، بينما بقي اليدومي والجناتي يتابعون في جدة، وكانا أسرع في تبليغ الإمام بما أخبره به الملك سعود؛ لأنهما تلقيا التبليغ من مكتب الخارجية السعودية في جدة، بينما كان مرفق في الرياض، وهناك لم يبلغه أحد ببرقية الملك سعود، لأن التبليغ يأتي عادة إلى مكتب الحكومة اليمنية في جدة.

بعد أيام من وصولي إلى جدة زارني شخص سعودي، وطلب مني الخروج معه للدورة، وفي سيارته تجوّلنا حوالي ساعة، وهو يحقّق معي، ويطلب مني الجواب الصحيح عن أسئلته، وفجأة وقف بي أمام مبنى تبيّن لي أنه مركز أمن جدة، واستلمني بعض رجال الأمن، وأدخلوني إلى ضابط يظهرُ أنه من أصل تركي أو إيراني، وأمرني بالجلوس وقال لي بمنتهى العنجهية والعجرفة: «اسمع إحنا هنا لا نسمح لأي واحد أن يخادعنا.. اتكلم بالصدق قبل أن يجعلك الكرباج تتكلم». كان يتكلم وأنا أفكّر كيف أتصرّف في هذا الموقف الذي لم يكن في حسباني، وقرّرتُ أن أجابهه بقوة؛ لأن ضعفي سيغريه بإهانتي ولا فائدة منها فقلت له: «أنا لا أقبل هذا الكلام، وليس من حقك أن تخاطبني وكأنك جبار في الأرض، أنا شخصية وطنية سياسية تعرفني اليمن كلها، وليس من حقك أن تحقّق معي، الذي يحقق معي شخص أو هيئة سياسية، وأنت رجل أمن من حقك فقط احتجازي لديك، إلى أن يأتي من يحقق معي». وفوجئ الضابط بجوابي وارتبك وسألني ما اسمك؟ قلتُ له: «لا جواب عندي لأي سؤال. احتجزني حتى يأتي مختص سياسي فيسألني». وتراجع الضابط عن تهديده، وأمر بوضعي في غرفة، منفردا، وجعل على نوافذها وبابها حرسا، أُمروا بألا يتحدّثوا معي. وقلتُ له وأنا أهمُّ بالمغادرة، فضلا أرسل لي فراشا وملايات.

أدخلوني الغرفة، ثم جاءوا بفرش وملايات ومخدتين، وبرغم أنها كانت غرفة نظيفة، ويتبعها حمام مقبول، إلا أنني اكتشفتُ بعد قليل أنها أفظع من سجن نافع. لقد كانت مليئة بآلاف البعوض «النامس» الذي لا يهدأ وزيزه في جو الغرفة، وله جرأة في مهاجمة وجهي ويديّ وقدميّ، وإذا قتلتُ منها واحدا أو أكثر دخل من النافذة أضعاف ذلك. وحاولتُ أن أتفاهم مع الحرس القريبين من النافذة، ولكنهم امتنعوا عن الكلام معي. واستمرت معركة غير متكافئة بيني وبين آلاف البعوض المدربة على الهجوم واللدغ، ومرت ساعات كنتُ خلالها أستخدم «الطراحات» والملايات كسلاح أدافع به عن نفسي، وأظلُّ أجري من زاوية إلى زاوية، أطاردُ جيشا جرّارا من النامس. وكلما جندّلتُ مئة أو مئتين منها هبّت النجدات الاحتياطية من الخارج، مقتحمة النوافذ التي لا زجاج لها.

وأخيرا شعرتُ أنني لم أعد قادرا على المقاومة بعد أن أظلم الليل، فاقتربت من البوليس الذي بجانب النافذة وقلتُ له: يا أخي أنا مسلم وأنت مسلم، وأنا عربي وأنت عربي، فتلفّت يمنة ويسرة وقال لي: أنا من نجران.. قلتُ له: أريدُ أن تبلّغ الضابط بما أعاني من النامس، وأن تشتري لي خيمة اختبىء فيها من النامس، وأن تشتري أي طعام، وقارورة أو أكثر من الماء. قال الماء لديك في الحمام، وسأذهب إلى الضابط وأخبره. قلتُ له: هل أعطيك فلوس؟ قال: بعدين، بعدين. قلتُ له: قل للضابط إنني قلتُ لك: هل أمر الملك بأن يجعلوني طعاما للناموس؟ وعندما جاء عسكري آخر، ذهب الأول، ووجدتُ أن وجهي منتفخ من لدغ مئات النامس.

ومرت ساعة تقريبا، وإذا بذلك العسكري يعودُ ومعه عسكري آخر وقال لي: معك ريالات؟ قلتُ له: نعم.. ومددتُ يدي إلى جيبي وأعطيته خمسمئة ريال سعودي، لأنني كنتُ أحتفظ بكل أموالي في جيبي، وهي ليست كثيرة. عاد العسكري حاملا أكلا وخيمة أستطيع تركيبها وأنام داخلها. وقمت بتركيب الخيمة بربط أطرافها إلى مسامير كانت في الجدران، وجيش البعوض يهاجمني بشراسة قبل أن أحتمي منه داخل الخيمة، وأدخلت الطعام إلى داخل الخيمة وأكلته.. ثم خرجت منها وذهبت إلى الحمام وتوضّأتُ، وكانت فرصة للبعوض لمهاجمتي في

جسمي المكشوف عند الوضوء، وشربت من الحنفية، وعدت مسرعا، ودخلت إلى الخيمة، وتمكّنتُ من قتل عدد من البعوض، دخل معي إلى داخلها، وصلّيتُ المغرب والعشاء قاعدا. وبعد الفجر خرجتُ إلى الحمّام وتوضّأتُ، ووجد جيش البعوض فرصة للانتقام مني خارج الخيمة، وعدت إليها لأصلّي صلاة الفجر قاعدا. وفي الساعة الثامنة جاء العسكري وقدّم لي طعام «الصبوح» وأنا أفضّل كلمة «الصبوح» على كلمة الإفطار. وخرجت بسرعة من الخيمة، وأخذت «الصبوح» وعدت إليها بسرعة، وقبل أن أباشر الأكل قمتُ بقتل عدد من البعوض، رافقني إلى داخل الخيمة. وكنتُ أستغربُ كيف يعيشُ الناسُ في جو تملؤه أسراب من البعوض لا حصر لها؟!

وفي الساعة العاشرة أتى مجموعة من الرجال، وأخرجوني من الغرفة إلى حجرتها، وقاموا بتركيب شبك على النوافذ لمنع دخول البعوض، وبعد ذلك جاء من رش الغرفة والحمام بمادة قاتلة للبعوض، وبعد قليل أعادوني إلى الغرفة، وقاموا برش الحجرة والممرات والغرف الأخرى بتلك المادة المبيدة، وبعد أن دخلت الغرفة رأيت الخيمة وأرض الغرفة، وقد امتلأت بجثث آلاف البعوض.. وصفّقتُ صائحا. يحيا العلم.. يحيا الوطن.. يحيا الملك، وأنا أضحك وأقفز آمنا داخل الغرفة، والعسكر يتفرّجون عليّ ويضحكون، واقتربتُ من النافذة، وقلتُ لهم: أيوة يا أبطال.. اضحكوا وفرفشوا، واهدروا هدرة يسمعها من في السماء ومن في الأرض. كلموني.. أنا إنسان طيب. أنا إنسان بريء أنا «موش» مجرم...!

وبعد هذا أصبح العسكر يكلمونني وأكلمهم؛ ولكنهم لم يسألوا أي سؤال عن اسمي وبلدي، ولماذا حجزوني؟ وبقيت على هذه الحال ثلاثة أسابيع، دون أن يزورني أحد، أو يحقق معي أحد. وذات صباح شعرتُ بحركة غير عادية، وإذا بذلك الشخص الذي ركبتُ في سيارته، في جولة تحقيق يدخل إلى غرفتي ويدعوني للخروج، وصافحته وقلتُ له: في جولة جديدة؟ قال: نعم، إلى المطار، قلتُ له: أين جوازي؟ وكان قد أخذه مني في الجولة السابقة، قال: لا تحتاجه؛ لأنه مزوّر. قلت: زوّره الذي وداني في داهية. وفي المطار أصعدوني إلى الطائرة اليمنية، وسلّموني

إلى أربعة من عُكفة الإمام، عرفتُ صور بعضهم؛ أما هم فكانوا يعرفونني.

ورأيتُ في الطائرة رجلا أوروبيا وبجانبه أشخاص آخرون، وقال أحد العُكفة لأصحابه بصوت مسموع: نربطه؟ والتفتُّ إليه وأنا أضحك وقلتُ له: عيب تربط «النصراني»؛ يقولوا عنا متوحشين، وضحكوا، وقال صاحبهم لي: نربطك أنت. قلتُ: لا مانع، ولكن عيب أمام النصراني، أنا وأنتم في الطيارة، والطيارة تحرّكت وطارت في الهواء، تعتقدوا أنني سأهرب من الطيارة إلى فين؟ ثم حصلت الألفة وأخذنا ندردش إلى مطار الحديدة، وكنتُ قد عرفتُ أن «النصراني» هو السفير التشيكي غير المقيم لبلاده في بلادي. ومن المطار أخذني العُكفة على سيارة بدون النصراني ورفقائه إلى مقام «مولانا»، واستقبلني في الحوش سكرتير الإمام الخاص عبد الملك العمري، وصافحني وقال: جالس يا عزي «زنقول»؟ احمد الله وأخلص للإمام واجلس في بلادك؛ لكن «زنقول». وقد كانت بين العائلتين قرابة نسب فقلت له: يا أخ عبد الملك بلّغ الإمام عني أن يكون ملكا كريما فيعفو؛ أو ملكا لئيما فيقتل؛ لأن تعذيب المسلم في السجون حرام. وأدخلوني إلى «كاوش» العُكفة، وهو المكان الطويل لسكن الجنود، والكلمة «جلوبة» الترك.

وكان وصولي إلى كاوش مقام الإمام في الحديدة، على ساحل البحر يوم الخميس 29 شعبان 1376هـ-18 مارس 1957، وخصصوا لي «قعادة»؛ أي سريرا محليا من صنع تهامة، وفي الكاوش أكثر من عشر قعائد، واحدة منها على يساري، وعليها عكفي قصير نحيل، وعلى يميني قعادة عليها عكفي طويل قوي البنية. قال لي إن اسمه أحمد علي السواري، أو علي أحمد، «لا أتذكّر»، وسرعان ما زالت الوحشة بيني وبين العُكفة. قال لي السواري: أتعرف من على يسارك؟ قلت: لا. قال: هذا صانك الله «الوشاح». وهي عبارة تحقير، وكنتُ أعرف أنه كان يقطع رؤوس الأحرار في ميدان العرضي في تعز، عقب فشل حركة الثلايا عام 1955، فالتفتُّ إلى الوشاح وأنا أمد يدي إلى عنقي، وأقول له: انظر إليها، إنك لا تحتاج إلا إلى ضربة خفيفة، تريح يدك وتسقط رأسي إلى الأرض. ثم قلتُ له: عهدي بك في مدينة تعز، فأجابني: إن الإمام طلب وصولي إلى الحديدة ولا أعرف السبب، وضحكتُ؛ لأنه

يعرف السبب، ولكني قلتُ له: مولانا أمير المؤمنين بحثوا عمن يخطب غدا خطبة الجمعة ويصلّي بالناس جماعة، فلم يجدوا أنسب منك. يا أخي استدعاك الإمام لتقطع رأسي! انظر إلى عنقي، إنه نحيف جدا، لا يحتاج منك إلا ضربة خفيفة، وبعدها ترى رأسي قد سقط إلى الأرض قبل سقوط جثتي!

ومضى يوم الجمعة، وكان أول يوم في رمضان 1367هـ، ولم يأمر الإمام بقطع رأسي، وكان طعام السحور وطعام العشاء يأتيني من مطبخ الإمام، وهو أفضل بكثير من طعام عكفة الإمام، وكنتُ أجد حرجا لذلك، ولكني كنتُ أنضم بطعامي إلى مجموعة العُكفة في أوقات الأكل. كنتُ مسجونا وشبه مطلق، لا أشعر أن أحدا من العُكفة مسؤول بحفظي أو مراقبتي. مرّت الجمعة بسلام، وأعقبها السبت ثم الأحد، وأنا والوشاح ينتظر كل منّا دوره، ولا أدري لماذا كان الوشاح متضايقا من البقاء في الحديدة، وعندما أظهر لنا ضيقه، قلتُ له: أرسل برقية إلى الإمام تقول له فيها: «طلبتوني من تعز، أنا تحت خدمتكم.. نظركم». ونفّذ الوشاح اقتراحي، وكنتُ أريدُ أن أعرف من جواب الإمام عليه مصيري، وقد عاد الجواب عليه من الإمام بما نصُّه كما أذكر: «الولد علي عبد القادر يكون عودة الوشاح على الطائرة التي ستنقل بعض العائلة إلى تعز، وسلموا له عشرة ريالات مصروف»، وبقيت في كاوش العُكفة في حوش قصر الإمام النصف الأول من رمضان، وقد فكّرتُ خلالها أن أستعطف الإمام بقصيدة أو مراجعة، ولكني ترددتُ وقلتُ لنفسي: إذا كنتُ سأموت شهيدا فمن الحكمة أن أموت مرفوع الرأس، وبعد مرور أيام من عودة الوشاح إلى تعز، وجدتُ أن الإمام لم يقطع رأسي، ولم يأمر بنقلي إلى السجن، وبقيتُ في حوش مقامه، وقدّرت أنه ينتظر مني مراجعة، ولذلك أخذتُ القلم والورق، وكتبت مراجعة لا أزال أتذكّرها ربما بنصها الذي كتبته قلتُ له فيها:

«مولانا أمير المؤمنين أيّدكم الله.. أنا أعرفُ أن ذنبي عظيم.. عظيم.. عظيم، وها أنا أسير في قبضتك وتحت رحمتك، وفي وسعك أن تغسل ذنبي بدمي، أما إذا وسعني حلمك وعفوك الذي وسع من قد يكون ذنبه أعظم من ذنبي، فإنني لا أطلبُ إلا الأمان المطلق منك الذي لا خوف معه، والرضا المطلق منك عني الذي لا قلق

معه، وأعاهدك الله أن أكون خادمك المخلص الأمين مدى الحياة في أي موقع تضعني فيه، والله على ما أقول وكيل، وسلام الله عليكم»، خادمكم محمد عبد اللّه الفسيّل، 10 رمضان 1376هـ. ووضعت المراجعة في جيبي، انتظارا لمرور الأخ عبد الملك العمري، سكرتير الإمام حينذاك، وعندما مرّ تردّدتُ في تسليم المراجعة إليه، وبقيت في جيبي.

وفي اليوم الخامس عشر من شهر رمضان 1376هـ-3 أبريل 1957، أتى ضابط من العُكفة كان يعرفني وأعرفه من قبل سنين عندما كنتُ من حاشية ولي العهد أحمد حينذاك في تعز، وأخبرني أنه مكلّف مع أربعة من العُكفة بنقلي إلى سجن حجة، وأن عليَّ أن أستعد للسفر عقب صلاة الفجر، وسكت قليلا ثم أردف قائلا: إن المرافقين لك معي من العُكفة يريدون أن تخرج من هنا مربوطا، ولكني أقنعتهم بأنني سأكون المسؤول عنك، فهل تعاهدني ألا تحاول الفرار؟! قلتُ له: جزاك الله خيرا، وأعاهدك الله ألا أفارقك حتى تسلّمني لمن أمروك في حجة، وهيّأتُ نفسي للسفر إلى سجن حجة. وفي الطريق إلى حجة أخرجت من جيبي المراجعة التي كنتُ قد كتبتها للإمام، كما ذكرت سابقا ومزّقتُها، وفكّرتُ وأنا أمزّقها لو أنني قدمتها إلى الإمام وعفا عني وأطلقني كيف كانت حياتي ستكون؟ وقدّرتُ في هذه اللحظة أن الإمام كان سيطلقني ويعفو عني، لأنه تركني خمسة عشر يوما في رمضان في كاوش العُكفة من دون قيد أو تشديد، وكان طعامي يأتي من مطبخ الإمام، ولكني وقد بلغت الآن السادسة والتسعين من عمري الميلادي، وبلغت المئة عام من عمري الهجري، ومرّت حياتي كما مرّت وأصبحتُ راضيا عن ضميري خلال هذه الحياة، أتساءل لو أنني قدّمتُ المراجعة وأطلقني الإمام لتغيّر مسار حياتي تغيُّرا كاملا، ربما لا يرتاح ضميري لتلك الحياة التي أحمدُ الله أنها لم تحدث. وقد اكتشف الضابط العكفي الذي رافقني أن «تصدوري» إلى نائب حجة كان في ظرف مفتوح لم يُغلق، وأخرج «التصدور» من الظرف وأطلعني عليه، فوجدت فيه بخط الإمام ما يلي: «الصنو نائب حجة عافاكم الله.. صدر إليكم محمد الفسيّل يكون إيداعه سجن نافع ولا تُذكّروني به».

في غرفة واحدة مع اللقية والعلفي

ها هي بوابة سجن نافع الرئيسية تفتح لي ذراعيها، وتستقبلني بشوق تعوّدته منها منذُ عشرات السنين، وقبل أن أدخل منها إلى ساحة عشة السجّان العتيد ناصر علي جرامة، تمنيتُ لو أن الإمام قد أمر الوشاح بقطع رأسي في الحديدة، بدلا من حياة بائسة أقضيها إلى الأبد في سجن نافع الرهيب، كما يقضيها القتلة واللصوص معي، والفرق بيني وبينهم أن لديهم أملا في الإطلاق؛ أما أنا فلا أمل لي إلا في رحمة الله. وعندما كان ناصر علي جرامة يدقُّ القيد في أقدامي كان هاجس الفرار من السجن يسكنُ في تفكيري؛ ولكن كيف، وكل شيء يجعل الفرار مستحيلا؟! ومرّ الشهر الأول، والشهر الثاني، وحالتي تسيرُ من سيء إلى أسوأ. ليس معي إلا ربع الريال المقرر من الإمام والثلاث كدم، وطردتُ هاجس الفرار من فكري واستسلمتُ للواقع الذي أعيشه، وأصبح همّي الحصول على كتب أقرؤها. وقد أعطاني الأخ عبد الملك الطيب أو الأخ عبد الوهاب الشماحي -لم أعد أذكر- كتابا للكاتب السوري منيف الرزاز -لم أعد أذكر اسمه أيضا- ولكنه كان يدورُ حول الأمة العربية ورسالتها الإنسانية، وحول القومية العربية والوحدة العربية، وحول الحرية وضماناتها، والعدالة الاجتماعية وتحقيقها، وتكرر شعار: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، وشعار: «الوحدة، والحرية والاشتراكية» في كتاب الرزاز. وقد أعجبتُ بما في الكتاب من أفكار وتحليل، ولم أكن أعرف أنه كاتب بعثي من قادة حزب البعث؛ بل لم أكن أهتم من قبل إلا باليمن وقضية اليمن، وقد درستُ الكتاب مع الزميلين الشهيدين عبد اللّه اللقية ومحمد العلفي اللذين أُرسلا إلى سجن نافع، بأمر البدر، وسكنا في الغرفة التي أسكنُ فيها.

من جانبي، كاشفتُ الأخ عبد الملك بفكرة الفرار، ووافقني على ذلك، وكانت الطريقة لذلك هي محاولة الخروج من باب السجن خلسة، بترتيب من داخل السجن ومن خارجه؛ وخصوصا وقد استعنت ببعض «المقاطيع» في السجن، لتوسيع حلقات القيد بحيث أستطيع إخراج قدمي من حلقتي القيد بسهولة، كلما أردت ذلك. ومرّت شهور وتغيّرت ظروف الأخ عبد الملك الطيب، فقد سُمح له

بالـخروج للدورة، وهو شاب وسيم ومكتمل الشخصية، ويبدو أن ابنة مدير السجن النقيب علي الـحاشدي، كانت تراقبه من النافذة، وأشارت إليه وهي سافرة الوجه، فـتوقّف ليسـمعها تقول له: لو أنك تتـقدم لوالدي خـاطبا لـي للزواج لوافـقتُ ووافق والدي. وهكذا وجدتُ صـديقي عبد الـملك، وقد أصبح عريسا مـتزوجا ابنة مدير سجن نافع، وأصبح له بيت في حجة يسكنه مع زوجته الـجميلة، ولم يعد بحاجة إلى الفرار من السجن؛ بل إنه صار قلقا من أن أتمكّن من الفرار، ولكنه لم يخبر أحدا بذلك، غير أنه كان يراقبني خفية، خشية أن يؤثّر فراري على وضعه الـحالي.

كنتُ أعاني قسوة الفاقة، وقسوة السجن، وقسوة الزمن، وليس لديّ أمل حتى في أخي وشقيقي أحمد، ولكن ثقتي بالله جعلتني أقوى من قسوة الزمن، ومرّ ما يقربُ من شهرين وأنا في هذه الـحالة، وفجأة دعاني السجّان ناصر علي جرامة، وذهبتُ إليه فأخبرني أن رسولا خارج باب السجن يريدُ أن يسلّمك رسالة، وخرجتُ معه، ووجدتُ شخصا لا أعرفه، أخبرني أنه رسول من السيد حسين الـمقدمي مدير مستشفى الـحديدة، وسلّمني «صُرّة» فيها ثياب، ومعها خمسة عشر ريالا «فرانصي»، واستلمت منه ذلك وكتبتُ له إفادة بوصولها، وعدتُ إلى داخل السجن بعد أن سلمتُ ريالين للسجّان، وعندما فتحت الصرّة وجدت في داخلها كوتا جديدا وزنتين وسروالين وظرفا صغيرا داخل جيب الكوت، وفتحت الظرف، ووجدت في داخله رسالة بتاريخ 15 ذو القعدة 1376هـ. تقول بعد الديباجة: «صدر إليكم خمسة عشر ريالا النذر القديم، وسيصلكم مثلها في كل ثلاثة أشهر إن شاء الله، فدبّروا صرفه بحكمة»، أخـــوك علي الزبيدي، 15 ذو القعدة 1376هـ. وعرفتُ أنها مرسلة من الصديق النبيل علي سعد الـحكمي، واستمر النذرُ يأتيني كل ثلاثة أشهر، وهذا خفّف من قسوة الفقر، وأعاد إلى نفسي ثقتها في الله، وثقتها في الناس.

وبعد شهور قليلة أطلق الإمام عبد الرحمن جابر الذي كان يسكن الغرفة قبلي، وبقيتُ في الغرفة وحدي، ولكن ناصر علي جرامة، السجّان العتيد أخبرني أن محمد بشير «عبد الإمام»، سيتم نقله من قسم نافع الأسفل إلى غرفتي في قسمه الأعلى، واستقبلتُه مُرحّبا، وكان خلوقا لطيف الـمعشر، ويبدو أنه ابن لعبد من عبيد الإمام،

أصله من الحبشة، وتم إطلاق محمد بشير بعد شهر أو شهرين، وصرت وحدي في الغرفة.

ومرت الأيام ثقيلة كئيبة، وفي يوم من الأيام، ولعلّ ذلك في شهر ذو القعدة 1376هـ – أبريل 1958، أقبل إلى غرفتي السجّان العتيد ومعه سجينان جديدان، وقال لي مشيرا إليهما: هذا وهذا أرسلهما ولي العهد البدر إلى سجن نافع، ولا يوجدُ مكان مناسب لنزولهما أفضل من هذا المكان الذي أنت فيه، وإن كان ضيّقا. ورحّبتُ بالزميلين الجديدين، وبعد التعارف عرفتُ أن أحدهما اسمه عبد اللّه محمد اللقية، والثاني اسمه محمد عبد اللّه العلفي، وأنهما ضابطان تخرّجا من الكلية الحربية، وعملا في «فوج البدر» وهو وحدة عسكرية متميزة ومتطورة حينذاك، وقد وجدت أن اللقية والعلفي من خيرة الشباب، وثقافتهما واسعة، واستعدادهما للمزيد من الثقافة لا حدود له. وهكذا قضينا شهورا في القراءة والدرس والنقاش المتعمق، وكان أكثر ما كنا نناقشه يدور حول قضية اليمن المشتركة، وأفكار ومبادئ وأساليب حدوث التغيير الجذري الواقعي.

وبعد أن تحوّل التآلف بيننا إلى صداقة صادقة خلال فترة قصيرة، قلتُ لهما يوما: إنني من الجيل الثالث من أحرار اليمن الذين صارعوا الأئمة والإمامة في اليمن، وأنتما من الجيل الرابع أو الخامس، ولذلك فأنا بحاجة إلى أن أجدّد نفسي من خلال معرفة تجاربكما وأفكاركما ونجاحاتكما، وفشلكما في الحياة، وأقترح أن نفتح حوارا بلا قيود عن تجارب جيلي وتجارب جيلكما، بهدف وضوح رؤيتنا للمستقبل. قال اللقية: هذا اقتراح جيد، وأقترح أن نبدأه باستعراض الأجيال المتعاقبة؛ لأنني وزملائي نعتبرُ أنفسنا الجيل الثالث، وليس الرابع. ودخلنا في حوارات ونقاشات مفتوحة، استمرت أياما طويلة، أستطيع أن أسجّلها بمعناها لا بنصها، ولكني أظنُّ أن ما أسجّله الآن يحتوي على كثير من نصوص العبارات. قلتُ لهما: أريدُ أن نتصارح.. هل لديكم وعي بأنكم امتداد لحركة الأحرار؟ أم أنكم تعتبرون أنفسكم بداية جديدة لحركة، أو فكرة التغيير؟ وردّ العلفي: إن الأخ عبد اللّه محمد اللقية أقدر مني على الحوار، ولذلك أرجو أن يتولّى ذلك، وعندما أجد لديّ جديدا سوف أبديه في حينه.

وقال اللقية: الواقع أن جيلنا كان مرتبطا بالشهيد جمال جميل، وحمود الجائفي وعبد اللّه السلّال أكثر من ارتباطه بحركة الأحرار، بزعامة الزبيري ونعمان، وهو ارتباط تلاميذ بأساتذة، وليس ارتباطا تنظيميا. قلتُ له: هل أنشأتم تنظيما لمن يشاركونكم، أو تشاركونهم المشاعر والأفكار؟! قال: فكّرنا وتحدّثنا في ذلك؛ ولكن الفكرة لم تخرج إلى واقع الحياة بالشكل المطلوب. قلتُ له: ما هي التجارب التي مررتم بها، وأثّرت في حياتكم تأثيرا نفسيا أو فكريا أو اجتماعيا أو سياسيا؟ قال: أقسى وأعنف تجربة مررنا بها وعشنا مأساتها، وقاسينا الظلم والعذاب فيها هي سقوط حكومة الدستور، فقد شاهدنا الانهيار الكامل لكل آمال الأحرار، وسقوط خيرة رجال اليمن تحت أقدام الإمام أحمد، وهو طاغية متعطش للدماء، وكنا نحن ضباط وأفراد فوج «النمونة» الذي شكّله المرحوم جمال جميل في أوائل أعوام شبابنا، وعندما كنا نعيشُ صدمة انهيار كل شيء، نجدُ أنفسنا في السجن بأمر السيف الحسن، نائب الإمام في صنعاء، ثم أمر بنقلنا من السجون إلى بلاد حاشد، وسخّرنا لشق طريق للسيارات في جبل الغولة، وكنا نعمل ما يقرب من 12 ساعة يوميا بأيدينا، وبأدوات بدائية في شق الطريق، في ذلك الجبل تحت حرارة الشمس المحرقة، نعاني العذاب وسوء التغذية، وكانت هذه التجربة من القسوة بحيث تمنينا الموت، بدلا من حياة العذاب هذه.

وقد فكّرتُ في الفرار منها، وأخبرتُ زميلي حميد القماسي بذلك، وتمكّنا من الفرار، بمساعدة الشيخ حسين بن ناصر مبخوت الأحمر وابنه حميد، ولجأنا إلى الإمام في تعز، وقدّمنا له شكوى بما عانينا وما يعانيه زملاؤنا، ويبدو أن الإمام قد تجاوب معنا، خصوصا وقضية ولاية العهد لأبنه البدر كان يقابلها معارضة من السيف الحسن وأيضا الحسين. وقد أمر الإمام بإطلاق زملائنا، وعيّنني وزميلي القماسي ضباط أمن في المستشفى الوحيد في تعز، وبقينا في المستشفى مدة عامين، كنا خلالها نبحثُ عن فرصة تعيدنا إلى الجيش؛ لأن هذا يعطينا المناخ الذي نعمل من خلاله، لإحداث تغيير في اليمن إلى الأفضل. وجاءت الفرصة.. فقد استقدم الإمام بعثة عسكرية مصرية، لتكوين فرقة عسكرية حديثة، يرتّبها على الحدود مع

الوجود الاستعماري الإنجليزي في الجنوب والشرق، وكلّف العقيد أحمد الثلايا مدرب الجيش النظامي في تعز التعاون مع البعثة العسكرية المصرية وتسهيل مهمتها؛ وبهذا جاءت الفرصة؛ فقد تمكّن الثلايا من إقناع الإمام بإعادة فوج «النمونة» وضباطه، لتكوين فوج جديد يدربه المصريون.

وعدنا إلى الجيش وبدأ تكوين الفوج الجديد، ولكن الإمام سرعان ما اعترته مخاوفه وشكوكه، فأحبط عمل البعثة المصرية، وشتت الفوج وضباطه، ووجدت نفسي عائدا إلى صنعاء، بدون موقع أعمل فيه، وفي صنعاء تمكّن الزعيم -الزعيم رتبة عسكرية حلت محلها رتبة العقيد- عبد اللّه السلال من إقناع البدر بتكوين فوج جديد باسم فوج البدر، يقوم بحراسة البدر وحمايته ودعمه، لإضعاف معارضة الحسنيين. وتم تكوين الفوج وتجمّعنا للعمل فيه، ولكن مستوى تفكير السلطة حتى البدر نفسه كان يريد فرقة عسكرية حديثة بضباطها وأفرادها، أرقى من مستوى الجيش النظامي، لكن بقاءها في المستوى نفسه جعل الكثير من الضباط والأفراد يتذمّرون ويطالبون بتحسين أوضاعهم، ووصل الأمر إلى حدّ الإضراب.

وبدلا من دراسة الموقف ركبت ولي العهد عقدة الشعور بأن الناس يعتقدون أنه ضعيف فواجه تلك المطالب والمواقف بصرامة وعنف، وأمر بزجّ عدد من الضباط والأفراد الناشطين في السجن، وكان نصيبنا النفي إلى سجن نافع، وها نحن معك نقضي الأيام دون أن نعرف للاعتقال نهاية، وعلينا أن نحوّل السجن إلى معهد تأهيل وتطوير لأفكارنا ووسائل تطبيقها عمليا. قلتُ له: يا بني، ليس لي أولاد؛ لأنني لم أتزوج، وأنا أعتبر كل الشباب في جيلكم أولادي، وأريد أن أعرف ماذا استفدتم من تجاربكم القاسية؟ قال اللقية: لقد أقنعتنا تلك التجارب بأن الإمام وأسرة بيت حميد الدين هي السبب الرئيسي في كلّ ما نزل وينزلُ بالشعب من مآس وتخلف شامل، وظلم شامل، وفقر شامل، وجهل شامل، ولذلك يجب حشد كل الجهود للقضاء على هذه الأسرة.

قلت له: إن أسرة بيت حميد الدين هي امتداد لأسر أئمة حكموا اليمن، أو أجزاء من اليمن عبر ألف ومئتي عام تقريبا، والتاريخ اليمني يقول: إن ثلث أئمة

اليمن قد ماتوا قتلا، أي أن فكرة قتل الإمام أو إسقاطه كانت حاضرة أو تراثا شعبيا يمنيا، ورثناه جيلا بعد جيل، وورثنا معه أن قتل أو إسقاط الإمام يكون لحساب إمام جديد. ولكن المشكلة بقيت قائمة، وفي رأيي أن العلة أو السبب تكمنُ في فقه الإمام الهادي، أو فقه الزيدية كما يسمّونه. هذا الفقه اشترط لاختيار الإمام ومبايعته أربعة عشر شرطا كلها سليمة، ما عدا شرطا واحدا، هو أن يكون الإمام علويا فاطميا؛ لأنه جاء بهدف احتكار الحكم لهذه الفئة، وجعل الآخرين محكومين محرومين من امتلاك الحكم إلى الأبد؛ باعتبار تلك الفئة محتكرة للحكم بأمر الله، طبقا للفقه الهادوي أو الزيدي. ولا شك أن هذا لا علاقة له بالله ولا برسوله، ولا بالإسلام، ولا بزيد بن علي عليهما السلام. وقد ناقشتُ موضوع الإمامة أو الخلافة من قبل عند التطرق عن حديث سقيفة بني ساعدة.؛ ولكن المشكلة في الفقه الزيدي، أو على الأصح الهادوي أنه حصر الشروط الواجب توفرها في الإمام، وأغفل إيجاد أي شروط «للإمامة» كنظام حكم؛ أي أنه يقوم على إيجاد إمام مطلق الصلاحية، لا يحدّه أي ضابط خارج ذاته. ومن هنا، كان أكثر أئمة اليمن طغاة مستبدين، يبنون أُسرهم على حساب بناء الشعب، وحتى عندما يوجد إمام عادل، فإن عدله نابع من ضميره الديني، لا من مؤسسات يقوم عليها نظام الإمامة.

لا شك أن ثورة 48 الدستورية كانت أول تغيير في تاريخ اليمن، يقوم على شروط للإمامة كنظام، إلى جانب الشروط التي يجب توفرها في شخص الإمام، ولهذا أسمّيها ثورة الدستور؛ لأنها ألغت القداسة الدينية المزعومة للإمام، وربطته بميثاق، أو دستور فرضه الشعب عليه؛ أي ربطت شرعية وجوده بشروط الإمامة؛ أي بالدستور ومؤسساته. وهذا مكسب ثوري يجبُ ألا يفرط فيه جيلكم والأجيال المتعاقبة، وإذا كان إمام الدستور وحكم الدستور قد سقطا لأسباب ليس هنا محل ذكرها، فلا شك أن بعضها كان كامنا في الإمام الدستوري نفسه؛ لأنه لم يستطع أن يتكيّف مع فقه شروط الإمامة بمؤسساتها الدستورية التي تلغي مبدأ حصر الإمامة في أولاد البطنين، وظلَّ يتصرّف كإمام يستمد شرعيته من السماء، لا من البيعة والدستور ومؤسساته.

كما أن الأحرار في الداخل والخارج اقتصروا في نشاطاتهم على الطلائع

والـمثقفين القلائل، والتجّار الذين لهم قدرة على دفع تبرعات واشتراكات مالية، ولا علاقة لهم بقواعد جماهيرية من العمال والـمزارعين والطلبة، وهذه نقطةُ ضعف، ربما كانت من أسباب سقوط إمام الدستور، والدستور و«الـمدسترين»! وعلى الـجيل الـحالي أن يستفيد من هذه التجربة وتلك التجربة، وينظّم نفسه على أساس قواعد عسكرية وقبلية ومدنية، قادرة على التحرك عند قيام أي ثورة أو انتفاضة، ويجب أن ينطلق التنظيم من مجموعات الـمثقفين والتجّار إلى نطاق الـجماهير في الـمدينة، والقبلية في الريف.

قال محمد عبد اللّه العلفي: إن هذه عملية طويلة، قد تحتاج إلى سنين طويلة، والأمورُ تسيرُ من سيئ إلى أسوأ، وأرى أن التركيز على تدبير مؤامرة لاغتيال الإمام هي أسرع طريق للتغيير، ولن أتردّد في اغتيال الإمام بنفسي. قلتُ له: لنفرض أن اغتيال الإمام قد حدث بدون ترتيب لما بعده، كيف سيكون الوضع بعده؟ قال: لن يأتي بعده ما هو أسوأ منه، إن بقاءه يُبقي على كل عوامل التخلف التي تسحقنا سحقا، وعند اغتياله سيضطرُّ الناس لإيجاد وضع أفضل، وأيّده عبد اللّه اللقية، وكنتُ في قرارة نفسي أميلُ إلى هذا الرأي، لما أعرفُ من صعوبة تدبير ثورة شعبية، كما حدث في ثورة 48 الدستورية؛ ولكني قلتُ لهما: إذا عدتم مرة أخرى للعمل في الـمجال العسكري فعليكم أن تجرّبوا تشكيل تنظيم ثوري للضباط، وليستمر تواصلكم بحذر مع عناصر قبلية فاعلة، وعناصر مدنية، ومع من بقي من أحرار 48، ومع الأحرار في الـخارج بقيادة الزبيري والأستاذ نعمان، واستمروا في التواصل مع الشيخ حميد بن حسين الأحمر، ومع مشايخ آخرين بواسطته أو مباشرة، فربما ينجح جيلكم الشاب في تفجير ثورة منظمة، تُسقط الطغيان، وتسقط الإمام والإمامة، وتقيم حكما جمهوريا دستوريا عادلا.

قال عبد اللّه اللقية: هل من رأيك أن الوقت قد حان لتجاوز نظام الإمامة، واستبداله بنظام جمهوري؟ قلتُ له: عقب سقوط إمام الدستور وحكومة الدستور، ووقوع أكثرية الأحرار والـمستنيرين في قبضة الإمام أحمد وسجونه صارت لديّ قناعة بأن نظام الإمامة لا وجود له لا في عقيدة الشعب ولا عقيدة العلماء أو الأئمة

أنفسهم. كان الـموجود هو الإمام وسلطته الـمطلقة؛ لكن لا وجود لشيء اسمه نظام الإمامة، فإذا تجاوزنا الإمام فقد تجاوزنا الإمامة، فلا توجد إمامة، وفي فترات من التاريخ تجاوز آل يعفر والصليحيون والرسوليون والطاهريون من بعدهم الإمام الزيدي في اليمن، وأقاموا ممالك بأسمائهم، استمرت مئاتِ السنين؛ فإذا أسقطنا الإمام بثورة منظمة نكون قد أسقطنا الإمامة التي لا وجود لها في الواقع، وأقمنا نظاما بديلا، والنظام البديل الآن وفي هذا العصر هو النظام الجمهوري الدستوري، وليس نظام أسرة من الأسر. وقد سجلنا أنا وصديقي أحمد الشامي هذا الرأي في كتاب كتبناه في أعماق سجن نافع عام 1948 عقب سقوط حكومة الدستور.

قال اللقية: ومن سيكون رئيس الجمهورية؟ قلتُ له: التنظيم هو الذي سيفرزُ رئيس الجمهورية، وكل قيادات الحكومة الجمهورية. وأريدُ أن أذكر لكم تجربتي في سجن دار النصر المعلّق في أعلى جبل صبر في تعز، فعندما كنتُ من حاشية ولي العهد عام 1943 و1944، لم أكن قد مارستُ أي عمل سياسي ضد الإمام وولي عهده وأسرته، كنتُ أحلمُ أن يبعثني إلى مصر للدراسة، وبعد فرار الزبيري والنعمان، ثم الموشكي والشامي إلى عدن لم أفر معهم، وطلعت إلى قصر ولي العهد في العرضي أنتظر الإذن بدخولي إلى مجلس ولي العهد كالعادة، لكوني من كتّابه، وأنتظر أن يسألني: لماذا لا أهرب مع صديقي الشامي، ولكني وجدت عكفة يجرّونني إلى سجن دار النصر في جبل صبر، وفي الطريق كنتُ مصدوما. وقلتُ في نفسي: هذا الذي التفّتْ حوله كوكبة من خيرة رجال اليمن، ليحاولوا إثارة طموحات وطنية في نفسه، إلى جانب طموحاته الذاتية، ومدحوه بأروع القصائد، ومجّدوه بأبلغ الخطب في المهرجانات الشعبية، ولكنه هدّدهم بلا سبب بأن يلقى الله ويده مخضبة بدمائهم. وها هو يجرّني إلى سجن معلّق في رأس «جبل صبر» بلا سبب، بدلا من أن يبعثني للدراسة في مصر...!

وفي السجن اقتنعتُ أن الديكتاتور الطاغية لا يمكن أن تتحقق الحرية والعدالة على يديه، وأن الفساد لا يمكن أن يصلحه الفاسد، وأن الثورة التي تقتلع الطغيان والفساد هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق الحرية والعدالة. هذه قناعة اقتنعتُ بها وأنا

في سجن الطاغية ولي العهد حينذاك، في عام 1944، وها هو قد أصبح إماما يسفك الدماء ويدمّر الوطن. وعندما كان يقطع رؤوس الأحرار في ميدان حورة في حجة أمر ابنه البدر أن يبقى في حجة ويحضر مهرجانات قطع رؤوس الأحرار؛ ليكون طاغية ابن طاغية، ولهذا فمن الخطأ التعاون مع البدر لتحقيق الحرية والعدالة، فهو بحكم تكوينه سيكون طاغية بعقدة الضعف، وهذا أخطر من طغيان أبيه بسطوة القوة. في الإمكان أن تلعبوا معه لعبة سياسية تؤدي إلى إزاحته لا إلى تدعيمه.

وتمرُّ الأيام ونحن نتناقشُ نقاشات بلا حدود، ولكن بقيت فكرة اغتيال الإمام حاضرة في نقاشاتنا، برغم اقتناعهما بأن يُجرّبا فكرة التنظيم السري. وفي يوم من الأيام قلتُ لهما: يقال إن الإمام يلبس عند الخروج درعا واقيا من الرصاص، ولذلك فيجب عند اغتياله التركيز على وجهه؛ لأنه الذي لا يكون عليه الدرع الواقي من الرصاص. وخلال هذه الفترة أبلغنا الأخ أحمد واصل بأن الشيخ حميد الأحمر في حجة، وقد كتبنا له رسالة اقترحنا فيها استمرار التواصل مع الضباط؛ لأنهم عنصر فعّال في أي نشاطات تؤدي إلى التغيير. وكان الشيخ أمين عبد الواسع نعمان لا يزال في حجة مع عائلته، ولا أدري هل استروح البقاء في حجة أم أن الإمام هو الذي فرض عليه البقاء في حجة.

في أوائل عام 1958 تم إطلاق الزميلين، وكانت الألفة والصداقة والحب والتقدير فيما بيننا قد أشعرتني بما سألاقيه من فراغ بعد سفرهما إلى صنعاء. كان فرحي بإطلاقهما ممزوجا بحزن عميق لفراقي إياهما، ولكن كان أملي أن يكون التغيير في اليمن بأيدي هذا الجيل الجديد. لقد بقيا معي في السجن أكثر من ستة أشهر، كانت من أخصب أيام حياتي تفكيرا، وأعادت إلى نفسي آمالا كانت الصدمة قد غيّبتها. وظلت الصلة بيني وبينهما قائمة عبر الرسائل، وعرفتُ أن عبد اللّه اللقية كوّن تنظيما للضباط الذين يثق بهم، وكان كل منهم يدفع ريالين شهريا من مرتبه، اشتراكا في التنظيم، واشترى اللقية طابعة يدوية ومطبعة بدائية لطبع المنشورات، كما فتح دكانا في شارع «العلمي» للبيع والشراء، تغطية لطبع المنشورات داخل الدكان، وتغطية لنشاطاته ومن معه من الضباط. وقد حاول توسيع نشاطاته بإيجاد

صلات مع الأخ عبد السلام صبرة، وحسن العمري، وحمود الجائفي، وبعض مشايخ القبائل، ومنهم الشيخ سنان أبو لحوم، وهو شيخ قبيلة نِهْم، ولكنه بذكائه ونشاطاته صار من أهم المشايخ في اليمن.

وفي منتصف عام 1958 كان عبد اللّه اللقية لا يزال يعمل في دكانه الذي تحوّل في الواقع إلى مقر لنشاط وطني تحت ستار دكان للبيع والشراء. وسيأتي ذكر عبد اللّه اللقية ومحمد العلفي مرة أخرى عند محاولتهما اغتيال الإمام أحمد في مستشفى الحديدة يوم 8 شوال 1380هـ-25 مارس1961 .

صديقي النبيل!

وبعد مرور شهر من دخولي سجن نافع للمرة الثانية، وصلت لي من النبيل علي سعد الحكمي من زبيد ثياب جديدة، وقارورة عسل زبيدي، وقارورة سمن بلدي، وخمسة عشر ريالا فرانصيا. وجلستُ أستعرض علاقتي بهذا الإنسان النبيل، وما غمرني به من إحسان يعتبره نذرا وحقّا من حقوقي لديه عندما التقينا في سجن نافع في عام 49-1950، وبعد إطلاقه، وعندما زجَّ بي الإمام في سجن نافع مرة أخرى. بعد إعادتي أسيرا من السعودية عاد صديقي علي سعد الحكمي يرسل لي في كل ثلاثة أشهر خمسة عشر ريالا؛ وهو النذر الذي نذره في سجن نافع، وشعرتُ بعواطفي تتفجرُ شوقا للقاء هذا الأخ المشفق والصديق الوفي والإنسان الذي لا حدود لنبله وشهامته.

وفي هذه اللحظة أخذتُ القلم وكتبتُ إليه قصيدة بعنوان: «حنين»، وخلال ساعة كنتُ قد أنهيت كتابتها، وأرسلتها إليه في زبيد بواسطة الصديق العزيز حسين عبد اللّه المقدمي، وأودعتُ فيها كلَّ مشاعر المحبة والأخوة والامتنان والحنين للقاء ذلك الإنسان الذي غمرني بإحسانه. وقد اكتنف صياغة هذه القصيدة واختفائها، والعثور عليها مصادفات غريبة، فبعد أن أعادتني السعودية إلى الإمام، وأعادني إلى سجن نافع في 16 رمضان 1376هـ- 4 أبريل 1957، وجدتُ نفسي في غرفة واحدة مع الأستاذ عبد الرحمن جابر، من تهامة الذي أُطلق بعد شهور. وفي 1

محرم 1379هـ–5 يوليو 1959، صغتُ قصيدتي وأرسلتها إلى الإنسان النبيل علي سعد الحكمي في زبيد، واختفت مع ما اختفى من أوراقي خلال سنوات الصراع. وفي أوائل عام 1999 قام الأخ العزيز الأستاذ المناضل أحمد جابر عفيف بجمع ما وجده من شعري ونُشر في 1 يونيو 1999، ولم تكن تلك القصيدة ضمن ديوان الشعر بعنوان: «ديوان الشاعر محمد عبد اللّه الفسيّل». وبعد نشر الديوان بأيام أو أشهر أرسل الأستاذ عبد الرحمن جابر القصيدة في ظرف إلى الأستاذ أحمد جابر عفيف ويقول فيه عن القصيدة: «من الأخ الأستاذ محمد الفسيّل إلى علي سعد الحكمي، ولم تنشر في ديوانه». وهكذا عثرتُ على تلك القصيدة بعد مرور أربعين عاما من صياغتها.

كيف وصلت القصيدة إلى زميلي في السجن الأستاذ عبد الرحمن جابر، مع أنه أُطلِق قبل صياغتها؟ وكيف عرف أنها موجهة للإنسان النبيل علي سعد الحكمي مع أنني رمزت له بالأحرف الأولى (ع. س. ح)؟ هل حصل عليها من علي سعد نفسه؟ أنا لا أدري، ولكني أحتمل وصولها إليه مع أوراق أخرى في أواخر عام 1963 عقب خروجي مع الشهيد محمد محمود الزبيري، ومعنا الإخوة عبد المجيد الزنداني، وعبد الملك الطيب إلى جبل برط، وقد أمر الأخ رئيس الجمهورية حينذاك المشير عبد اللّه السلّال بتفتيش منزلي ومصادرة ما فيه، وتم مصادرة الأثاث إلى الهيئة العامة لأملاك الدولة؛ أما الأوراق المصادرة فقد سُلّمت لمكتب المشير وكان الأستاذ عبد الرحمن جابر موظفا في هذا المكتب، وربما حوّلت الأوراق إليه لمعرفة ما فيها، وربما كانت هذه القصيدة مع الأوراق، ومنها كما أذكر قصة بعنوان «راعي الغنم الحكيم»، أو «الفيلسوف»، وها أنا الآن أنشر القصيدة في «ذكرياتي» وأبعثها مرة أخرى إلى روح ذلك الإنسان النبيل علي سعد الحكمي، رحمه الله رحمة الأبرار، بعد مرور قرابة (55) عاما من صياغتها وإرسالها إليه من سجن نافع، وكانت بعنوان «حنين»، رحم الله أخي وصديقي وحبيبي النبيل علي سعد الحكمي وإلى القصيدة:

حنـــين

إلى أخي «ع. س. ح»

أي قلب حـــملتـــه يا صـــديقي
بين جنبـيك كـالشـعـاع نقـيّـا؟!
وضـمـيـر يقـدس الـمـثل الأعلى
ويســـمـــو به مكانا عليًّـــا؟!
أي نفس تفـــيض طهـــرا ونبـــلا
وفـــؤاد يضج بالـخـيـر حـيـا؟!
عـشـقت روحك الســمـو وهامت
بالـمـعـالي فـعـشت حـرا أبيـا

***

يا أخـي قـــــدّســـــتك روحي
ووجـداني كـمـا قـدّس التّـقي نبـيـا
عـــصف الـدهر بي فـــبـــددت
بالنبل شـقـائي وكنتُ خِـلا وفـيّـا
كنت لي في ظلام يأسي وحـبـسي
ضـــوء فـــجـــر من الرجـــاء نديّا
كنت بالـحب والإخـــاء مـــلاكـــا
طاهرا يسكب الـحنان عليًّـــا
ويداوي الـجـــراح في قلبي الدامي
ويمحـــو الدمـــوع من مـــقلتيًّـــا
كنت في مـــحنتي وفي نكبـــتي
الهـــوجـــاء أحنى عليَّ من والديَّا

كنت تعطي من كفك المال جزلا
وتواسي بكل شيء حييًّا
كنت تعطي فلا أحس وراء
الجود إلا روح الإخاء حفيًّا
لا رياء فيما تجود ولا منّا
بطي العطاء يأتي خفيًّا
فكأني شريك مالك تعطيني
حقوقي أعيش منها غنيًّا
هكذا كنتُ في الحياة كريما
وصديقا حيَّ الضمير وفيًّا
يا أخي هَزني إليك حنين
جارف ثار في فؤادي قويًّا
وأهاج الذكرى وأطلق فكري
في وجود من الخيال سنيًّا
فتصورت أننا قد تلاقينا
فأهفو شوقا وتهفو إليًّا
وكأني حُرا أراك فأجري
مسرعا باسطا إليك يديًّا
هاتفا باسمك الحبيب إلى
نفسي يفيض السرور من ناظريًّا
وتخيلت أننا في عناق
أخوي نذوب فيه سويّا
هكذا أبدع الخيال لفكري
عالما رائع الرُّؤى قُدُسيًّا

ثم ولّى فـارتد فكري إلى السِّـجن
مـهـيض الـجناح غـاف شـقـيًّـا

أخوك م.ع
5 محرم 1379هـ.

وأخذت شهور عام 1958 تمرُّ شهرا بعد شهر، ثقيلة كئيبة وأنا في سجن نافع الرهيب، محكوم عليّ بالسجن المؤبد بأمر الإمام، وبعد إطلاق الزميلين اللقية والعلفي كلّفني السجّان العتيد ناصر علي جرامة بتعليم ابنه الكبير القرآن والخط والإملاء والحساب، وقد قمتُ بهذا الواجب بطريقة جعلت السجّان العتيد يتعامل معي باحترام وتقدير. وخلال هذه الفترة كنتُ قد رتّبت أموري في السجن بشكل خفف من بشاعته، فلم يعد القيد في قدمي إلا عندما أتحرّك خارج غرفتي، وصار دخول الرسائل والكتب ميسورا، والتواصل مع الشباب المستنيرين في حجة بدون قيود، ولكني كنتُ أجد صعوبة ومضايقة عندما أغتسل في «مستراح» السجن؛ لأن الرياح وخلع الملابس، ولبس غيرها كان يضايقني كثيرا.

وفكّرتُ في حل ينهي هذه المشكلة، وذلك ببناء «دكّة» مجوفة في زاوية غرفتي القريبة من بابها، ووضع ستارة عليها من القماش، والاغتسال فيها، وماء الغسل يتسرّب إلى «تنكة» في جوف الدكَّة، وأقنعت تلميذي ابن ناصر جرامة أن يساعدني في ذلك، وقد تمكّن من إقناع والده، وتم إدخال الحجارة المطلوبة وإدخال الخشب والأسمنت، وبنيتُ الدكّة وجهّزتها وأصبح محلا مريحا أغتسل فيه، وأغسلُ فيه ثيابي. وفي هذه الفترة كنتُ قد تمكّنتُ من إدخال راديو صغير الحجم، تمكّنت به من متابعة ما يجري في العالم من أحداث.

ولم أعد أذكر في أي يوم وجدتُ ناصر علي جرامة يجرُّ إلى غرفتي مسجونا جديدا، وقد سررتُ بذلك ورحّبتُ به، وسرعان ما تحولت علاقتي به إلى نوع من الألفة والاستلطاف، ثم إلى صداقة ومحبة، وبدأنا نقرأ ما يصلنا من كتب، ونتناقش نقاشات أدبية وتاريخية وفكرية، ولكنّا تجنّبنا أي نقاش سياسي، احتراما لرغبته، وحتى إنني لم أسأله من سجنه وما أسباب سجنه! ولا أزال حتى الآن لا أعرف من

سجنه، ولا أسباب سجنه بعد مرور نحو 60 عاما. كما أن علاقتي بالأخ زميل السجن محمد حمود الصرحي الذي كان يعيش في الغرفة المجاورة بقيت محدودة، مراعاة لرغبته، فقد كان مصدوما، ولم أعرف سبب سجنه في نافع إلا بعد ثورة 26 سبتمبر 1962 بسنين طويلة، عندما نشر مذكراته، بتاريخ 17 ديسمبر 2001 في كتاب سماه: «مسيرة نضال».

وانقضت شهور عام 1958، ونحن نعيش في هذا السجن، وكان وضعي المادي معقولا، فقد بقي ذلك الإنسانُ النبيل علي سعد الحكمي يرسل لي من زبيد خمسة عشر ريالا كل ثلاثة أشهر، بواسطة الأخ حسين عبد اللّه المقدمي، مدير مستشفى الحديدة، وأصبح الأخ أحمد واصل في مدينة حجة الواسطة الآخر الذي يرسل لي المبلغ من دون علم السجّان العتيد.

الإمام أحمد في روما والتمرد في اليمن

ها هو الإمام «أحمد يا جناه» الذي جعل من حياته وأسلوبه فيها أسطورة رهيبة واجه بها المؤامرات، وشنّ الحروب، وعصف بالعلماء والمثقفين، وأذلّ قبائل اليمن، وأضعف أسرته حين قتل أخاه إبراهيم بالسّم، وقطع رأسي أخويه عبد اللّه والعباس، ويقال إنه قتل أخويه المطهر ويحيى بالسّم، وأبعد أخاه الحسن خارج اليمن؛ تمهيدا لتثبيت ابنه البدر وليا للعهد. وقد جعلته هذه الأحداث يعيشُ قلقا متوترا، مضطرب النفس والفكر، لا يستقر على رأي، فما يراه اليوم قد ينقضه في الغد، وكان في الماضي يستعمل إبر المورفين بشكل متباعد، ثم أدمن إبر المورفين، واعترته الأمراض، وعجز عن تصريف الأمور بنفسه، وتقرّر سفره إلى روما للعلاج، وعندما تحرّك موكب الإمام إلى مطار تعز، وكان الإمام محمولا إلى السيارة، ومحمولا منها إلى الطائرة، وذلك في يوم الخميس 8 شوال 1378هـ–16 أبريل 1959، وفي المطار كانت تنتظره خمسُ طائرات يمنية وإثيوبية، وحُمل الإمام إلى إحدى الطائرات حملا، ورافق الإمام في رحلة العلاج عدد من رجال الحاشية البارزين، ومنهم أخوه سيف الإسلام علي وابنه الحسن بن علي، والسيد أحمد زبارة، زوج

ابنة الإمام، والسيد عبد اللّه بن عبد الكريم، من أقرب المقربين إلى الإمام، والقاضي عبد الرحمن الإرياني، وحملت الطائرات أكثر من ستين امرأة من نسائه ومحظياته وجواريه الإفريقيات، لتسبّب له فضائح في إيطاليا وفي أوروبا؛ بل تسبّب له وللشعب اليمني سمعة سيئة.

وخلال غياب الإمام أحمد للعلاج في روما، صار ابنه البدر نائبا له في اليمن، وحاول الحسنيون أن يلتفّوا حوله ويحتووه لمصلحة عمه الحسن، ولكن الأحداث فاجأت الجميع، ففي 18 مايو 1959، أي بعد سفر الإمام بشهر ويومين، حصل حريق لقصب الذرة المخزون في «العرضي»؛ أي ثكنات الجيش، واتهم العسكر بيت العمري، وخصوصا القاضي يحيى عبد اللّه العمري بتعمد إشعال النار في القصب، وقامت مجموعة من الجيش بالهجوم على بيت العمري، ونهبوه وأشعلوا فيه النار، في تمرد يشبه تمرد الجيش على الإمام في 1955 بقيادة العقيد أحمد الثلايا، وإمامة الإمام عبد اللّه بن الإمام يحيى. وسارع البدر بالوصول إلى صنعاء في يوم 22 مايو 1959، واستدعى القاضي أحمد السياغي، وعيّنه المسؤول الأول، أي ما يشبه رئيس الوزراء، وخوفا من تمرد الجيش عليه سارع البدر بطلب قوى قبيلة، على رأسها الشيخ حسين ناصر الأحمر، وابنه حميد، وعلي بن علي الرويشان من خولان، وسنان أبو لحوم من نِهْم، وعاطف المصلي من همدان، وغيرهم، وزحف رجال القبائل إلى صنعاء، وتوقف تمرد الجيش، وتم حل المشكلة وديا.

وقد طالبت قبيلة الحدا بالثأر ممن اعتدوا على بيت العمري، وتم حل هذه المشكلة، ومع ذلك فقد بقي آلاف من رجال القبائل والمسلحين في صنعاء وحولها، وصار وجودهم مشكلة أكبر من مشكلة تمرد الجيش، فهم بحاجة إلى التموين بالمؤن والتمويل بالمال، بل تجاوزوا ذلك إلى طلب السلاح، ولم يعد تمرد الجيش قائما. وبينما كان البدر والسياغي، ومن معهم يحاولون تهدئة الجيش في صنعاء، وإقناع رجال القبائل المسلحين بالعودة إلى قبائلهم بصرف مبالغ كبيرة من المال، إذا بالبدر ومن معه يُفاجؤون بحادثة أبشع مما حدث في صنعاء، فقد قامت مجموعة من الجنود في تعز في يوم 12 يونيو 1959، بالتمرد، وألقوا القبض على

القاضيين أحمد وعلي محسن الجبري وقاموا بقتلهما وسحل جثتيهما في الشوارع، والقاضيان أولاد محسن الجبري من قبيلة بني جبر في رداع التي تحرّكت ومعها قبيلة خولان؛ طالبة الثأر ممن قتل وسحل القاضيين.

وقد وصل وفد من جيش تعز إلى صنعاء بقيادة المقدم شرف المروني، شقيق الأستاذ أحمد حسين المروني، واستقبلهم البدر، وألقى خطبة قال فيها: يقولون إنني ضعيف، وأنا لست ضعيفا، ولكني أجامل، ولكن إذا احتاج الموقف إلى القوة، فسأكون الأقوى. كما تحرّك فوج «النمونة» من تعز، لدعم موقف الجيش في صنعاء، وتم أخذ سلاحهم، وسُجنوا كما سُجن معهم شرف المروني. ثم حاول البدر إقناع آلاف المسلحين من القبائل الموجودين في صنعاء بالعودة إلى مناطقهم، ووزّع عليهم مبالغ كبيرة من الريالات الفرانصي ومن الأسلحة، وكان لهذا ردُّ فعل سلبي، فبدلا من عودة القبائل إلى مناطقهم تحرّكت الأطماع في نفوسهم، وطلبوا تزويدهم بالمزيد من المال والمزيد من السلاح. وهذه عادة القبائل اليمنية عبر التاريخ، وقد أشار إلى ذلك ابن زياد عامل المأمون العباسي قبل أكثر من ألف عام بقوله:

إذا نحن زدنا من عطاء قبيلة
لنُكفي أذاها زاد فينا انتقامها
فأطماعها نار وإن عطاءنا
لها حطب إن زاد زاد ضرامها

كانت تلك الأحداث تبلغ الإمام وهو في روما، ويبدو أن الأطباء الإيطاليين قد تمكّنوا من معالجة الإمام، وشعر بأن صحته قد تحسّنت، وقرّر العودة إلى اليمن، وكان غاضبا على ابنه البدر، وعلى القاضي السياغي، وعلى المتمردين من الجنود، وعلى مشايخ القبائل الموجودين في صنعاء. وكان قد بلغه أن ابنه البدر ربما تآمر مع الرئيس جمال عبد الناصر على القيام بانقلاب ضد الإمام، وتولّي الإمامة بدلا منه؛ بل بلغه ما هو أكثر من ذلك، فقد سُرّبت إليه وشايات بأن القاضي أحمد السياغي الرجل الثاني بعد البدر بدأ يتطلع إلى إقامة دولة «قحطانية» جمهورية، بالتآمر مع ضباط ومشايخ، ومع الأحرار في الداخل والخارج، وكانت الأحداث قد أقنعت

الإمام بأن هذه الوشايات أقرب إلى الحقيقة، ولذلك كان في قمة الغضب على ابنه وولي عهده البدر، وعلى السياغي والأحرار الذين أطلقهم البدر من قبل في حركة الثلايا عام 1955، وعلى مشايخ القبائل، وعلى رأسهم حسين ناصر الأحمر وابنه حميد، وسنان أبو لحوم وغيرهم، وعلى رؤوس الفتنة في الجيش.

في أوائل شهر يوليو 1959 قرّر الإمام العودة إلى اليمن في طائرة خاصة، ومعه سيف الإسلام الحسن الذي كان قد قدم من أمريكا إلى روما للزيارة، والحسن بن علي و«ابن محمود» الطفل المدلل، وأمر بركوب حاشيته على طائرتين أخريين إلى القاهرة. وكان قد مضى عليه في روما أكثر من ستة وسبعين يوما. وعندما كانت طائرته تحلّق فوق مدينة أثينا عاصمة اليونان، أرسل إلى قبطان الطائرة يأمره بالعودة إلى روما، وقد رفض القبطان تنفيذ الأمر، بحجة حاجة الطائرة إلى التزود بالوقود، ولكن الإمام طلب مثوله بين يديه، وكان مُتمنطقا بحزام الرصاص وبين يديه بندقية، وقال له: إذا لم تعد الآن إلى روما فسوف أفجّرُ الطائرة ونذهب جميعا إلى الجحيم. وهكذا عاد الطيار إلى روما دون أن يعرف أحد سرَّ قرار الإمام بالعودة إلى روما، وبقي في روما أكثر من عشرين يوما، حتى استأجر له الجبلي باخرة تنقله إلى ميناء الحديدة، وأمر أخاه الحسن بالعودة إلى مقر عمله في أمريكا. ولعل إصرار الإمام أحمد على العودة إلى روما هو التخلص من رجوع الحسن إلى اليمن، استمرارا للصراع على ولاية العهد، وخوفا من القبض عليه أو اغتياله في المطار عند وصوله إلى اليمن إذا صحت الوشايات.

ولا يزال السؤال قائما، هل كان الحسنيون وراء الأحداث والوشايات؟ هذا السؤال كان مطروحا منذ حريق القصب في عرضي الجيش بصنعاء، هل كان الحسنيون وراء ذلك، ووراء الاعتداء على بيت العمري؟ وهل كان الحسنيون وراء قتل وسحل القاضيين أحمد وعلي محسن الجبري في تعز، ووراء التمرد فيها؟ وهل كان الحسنيون وراء الوشايات التي بلغت الإمام عن تآمر ابنه البدر مع عبد الناصر؟ وعن طموحات أحمد السياغي في إقامة دولة قحطانية؟ أنا لا أستبعد هذا وذاك؛ لأن الحسنيين كانوا قد نظّموا أنفسهم أكثر من البدر ومعه السياغي والأحرار والمشايخ

الإمام أحمد والرئيس المصري جمال عبد الناصر في وضع غريب

وفوج البدر؛ لأن الـحسنيين فئة واحدة، مصالـحها واحدة، بينما البدر وأصحابه فئات مصالـحها متضاربة.

عندما توقّفت باخرته في قناة السويس، حاول عبـد الناصر استضـافته، ولكنه رفض فأبلغوه أن عبد الناصر سيزوره في الباخرة، وكان متقلدا سلاحه الناري، وحاول الـحسن بن علي إقناعه بالتخلي عن ذلـك، ولكنـه رفض، فاقترح محمد محمود، ابن الإمام الـمدلل بالتبني أن يتمنطق هو بسلاح الإمام، ويقف وراءه فوافق الإمام، وعندما وصل عبد الناصر لم يقم الإمام لاستقباله، وبقي جالسا، وصافح عبد الناصر، وهو نصف قائم، وظهرت الصورة في غـير صالـح الإمام، فقـد ظهر فـيها وكـأنه يريدُ تقبيل ركبتي عبـد الناصـر على غـير مـا أراده الإمام! وفي يوم الثـلاثاء 10 أغسطس 1959، وصل الإمام إلى الـحديدة، ومعه كلٌّ من كان معه في روما، وكانوا قد وصلوا إلى القـاهرة في أوائل يوليـو 1959، وانتظروا وصـول باخـرة الإمـام وتوقّـفـهـا في قناة السويس.

وكان ابنُه ولي العهد البدر والقاضي أحمد السياغي وآخرون في استقبال الإمام،

وقد تمكن البدرُ من استرضاء الإمام عنه، ورتّب الإمام مهرجانا جماهيريا دون أن يُخبر البدر أو السياغي أو حاشيته التي رافقته في إيطاليا عند العودة إلى الحديدة. وبعد يومين من وصوله -وكان ذلك يوم الخميس 12 أغسطس 1959- خرج الإمام على حصانه، متقلدا سيفه، يصول ويجول وهو على حصانه أمام الجماهير المذهولة في الحديدة. ثم أوقف حصانه، وبدأ يلقي خطابا ناريا هدّد فيه وتوعد واستلّ سيفه من غمده قائلا: إنه «سيشدخ» بسيفه رؤوسا هدّامة، ويجدع أنوفا «متغطرسة» تطمع إلى السلطة... إلى آخر الخطبة، وأنهاها بصوت رهيب: ما على الذين يطمعون إلى الحكم وانتزاع الأمر من أهله إلا أن يبرزوا «وهذا الفرس، وهذا الميدان ومن كذب جرّب» وهو يلوح بسيفه!

وجاء من يخبر البدر ومن معه ومنهم القاضي أحمد السياغي والقاضي عبد الرحمن الإرياني بأن الإمام يخطب في مهرجان جماهيري، فأسرع بمن معه إلى حيث كان الإمام في المهرجان بعد أن أكمل خطابه الناري، فقال لهم الإمام: لماذا تأخّرتم عن حضور المهرجان؟ واعتذر البدر عن الجميع بعدم معرفتهم إقامة المهرجان، ثم التفت إلى القاضي أحمد السياغي، قائلا له: كان يستحسن أن تسمع الخطبة يا قحطاني، أنا سأقحطن رأسك، وقد فوجئ السياغي بهذا، وتأكّد أن الإمام سيأمرُ بقطع رأسه، ولكن المفاجأة الأخرى هو قول الإمام له: اذهب إلى المطار، وانتقل بالطائرة إلى صنعاء، وعد عليها ومعك شرف المروني ومن معه من العسكريين في حبس القلعة، وأسرع السياغي إلى المطار، وأرسل شرف المروني ومعه عدد من ضباط وشوش وعرائف إلى الإمام في الحديدة؛ أما هو فقد فرَّ إلى بيحان، ثم إلى عدن ولحج خلال ساعات من وصوله إلى صنعاء، بتدبير الشيخ سنان أبو لحوم وبعض المشايخ. وقد أمر الإمام بتنفيذ حد الحرابة في شرف المروني، بقطع كفه اليمنى، وقدمه اليسرى، وعند التنفيذ مد المروني يده اليسرى، وتمّ قطع كفه اليسرى، وبذلك بطل إكمال قطع قدمه اليسرى. وأرسل الإمام بقية العسكريين إلى سجن نافع، وكانوا أكثر من عشرين سجينا في أواخر عام 1959، أو أوائل عام 1960، لم أعد أذكر.

الشيخ حسين ناصر مبخوت الأحمر والشيخ حميد بن حسين الأحمر
أعدمهما الإمام عام 1959

وكان الإمام قد أمر بخروج الـجيش بقيادة عبد القادر أبو طالب؛ لإخضاع قبيلة حاشد، واعتقال الشيخ حسين ناصر الأحمر وابنه حميد، وإرسالهم إلى الإمام، ووصل الـجيشُ إلى مدينة عمران، ويبدو أن قبيلة حاشد قد تخاذلت؛ الأمر الذي دفع الشيخ حسين لمقابلة عبد القادر أبو طالب، وطلب الأمان من الإمام، ودفع ابنه حميد للفرار من القبيلة، ولكن قبض عليه أشراف الـجوف يوم 16 ديسمبر 1959، وسلّموه إلى الإمام الذي كان في السخنة، كما تم اعتقال الشيخ عبد اللطيف بن قايد بن راجح الـخولاني، وهو من أعيان خولان، وإن كان ساكنا مع أجداده في لواء إب. وساقهم الإمام مخفورين إلى قلعة القاهرة في حجة، وتم إعدامهم في شهر رجب 1379هـ- فبراير 1960، وكنتُ في سجن نافع عند إعدامهم، وصُدمت صدمة عنيفة؛ لأن إعدامهم كان دليلا على وجود خلل كبير في العلاقة بين الـمشايخ وقبائلهم. إنهم يستطيعون تجنيد قبائلهم لدعم السلطة، أو دعم من يدفع الـمال والسلاح، ففي هذا مصلحة لهم، ولكن يبدو حتى في هذه الـحالة وجود شكوك لدى أفراد القبيلة بأن شيخهم لا ينصفهم كما ينصف نفسه، ولهذا يتخاذل رجال القبائل في الوقوف

لحماية شيوخهم من الإمام أو الحكومة، لضعف العلاقة بينهم وبين شيخهم.

بعد عودة الإمام من روما وخطابه الناري ضد الجميع، وتهديده للقاضي أحمد السياغي، وفرار السياغي إلى عدن أصبح همُّ الجميع هو النجاة بأنفسهم، وبعد أن تماسك بعضهم وعادوا إلى صنعاء صار همُّ الجميع هو اغتيال الإمام في حمام السخنة، وتم ترتيب عدة محاولات فاشلة. وأخيرا تم الاتفاق أن يكون عدد المكلّفين باغتيال الإمام محدودا من أولاد المشايخ، أو المشايخ أنفسهم، ومنهم كما يذكر الشيخ سنان في مذكراته أو ذكرياته النقيب حمود بن محمد أبو راس، واثنان معه من «ذو محمد»، والشيخ عبد الولي القيري، وأخوه محمد من خولان، وعلي شويط، وعبده كامل من حاشد، ومحمد وعلي عبد اللّه أبو لحوم من نِهْم، وجار الله القردعي، وعلي طُريق من مراد، وقد أرسلوا إلى الأخ المرحوم حسين عبد اللّه المقدمي، مدير مستشفى الحديدة حينذاك للتعاون مع الواصلين، وكان الأخ المقدمي من خيرة الوطنيين الأحرار الذين أدوا أعمالا وطنية كبيرة في حركة التغيير في اليمن.

وقد روى المقدمي في ذكرياته حول الموضوع روايتين: الأولى وصول السفير المصري مصطفى الدسوقي، ومعه محمد عبد الواحد، الدبلوماسي المرتبط بالمخابرات المصرية، والذي صار القائم بالأعمال فيما بعد وصولهما إلى الحديدة، للاتفاق مع اللواء حمود الجائفي على التعاون مع مصر، للقيام بانقلاب عسكري لتغيير النظام في اليمن، وقد رفض الجائفي الفكرة لأن الجيش غيرُ مهيّأ؛ ولأن أي دعم خارجي سيثيرُ القبائل ضده، وأكد أن موضوع التغيير يحتاج إلى وقت طويل لتهيئة الشعب، ويبدو من هذا أن اهتمام مصر بهذا الموضوع قديم.

أمّا الموضوع الآخر الذي ذكره الأخ المقدمي فهو موضوع مؤامرة اغتيال الإمام، وقد وصل من ذكرناهم سابقا، واتجهوا إلى السخنة، لاغتيال الإمام، مرسلين من المناضل عبد السلام صبرة، ولكنهم أحسّوا أن أمرهم قد انكشف، أو أنهم تردّدوا فتفرّقوا وعادوا إلى صنعاء، وفي رأيي أنهم لم يكونوا مؤهلين ومدربين على عمليات الاغتيال ولذلك فشلوا، ويروي الأخ المقدمي أن عبده كامل وعلي ناصر شويط والآخرين قد وصلوا لتنفيذ الفكرة في عيد النصر؛ لكنهم تردّدوا في آخر لحظة، وروى

له عبده كامل أنه كان قد فكّ أمان بندقيته، استعدادا لإطلاق الرصاص على الإمام الذي كان أمامه، ولكنه عجز وتردّد عن إطلاق الرصاص، ويذكر أن أخبار الاغتيال تسرّبت إلى الإمام فاتخذ حذره، وخرج إلى المسجد، وهدد القبائل الموجودين في السخنة، ومنهم عبد اللّه بن حسين الأحمر.

سعيد إبليس في قبضة الإمام

يروي الأخ المقدمي حادثة وقوع «سعيد إبليس» في قبضة الإمام، فقد وصل سعيد، وفي شنطته قنبلة كان يريد أن يفجّرها في الإمام عندما تلوح له الفرصة، وزار الأخ المناضل حسين عبد اللّه المقدمي في الحديدة، وأخبره بما عزم عليه، ولكن الأخ المقدمي حذّره وأنذره بأن العملية قد فشلت، وأنه مطلوب للقبض عليه، ولكن الأخ سعيد أخبره أنه سيذهب إلى عبد اللّه بن حسين الأحمر، ويبحث عمن بقي من الأشخاص الذين كانوا مكلّفين باغتيال الإمام، وأنه سيتعاون معهم، وطلب من الأخ المقدمي كتابة رسالة إلى الشيخ يحيى منصّر، شيخ قبيلة الزرانيق وابنه محمد، ولكنه رفض كتابة الرسالة، وقال له: إن هذا الشيخ وابنه قد أصبحوا حرسا للإمام ولا يُركن عليهم، وحذّره من الذهاب إلى السخنة أو البقاء في الحديدة، وأتى الأخ محمد الرعيني وكان مدير أمن الحديدة، وأبلغه بوصول برقية من الإمام بإلقاء القبض عليه، وأنذره وألزمه بالركوب على الطائرة المسافرة إلى أسمرة، وأظهر لهم سعيد أنه قد اقتنع بالسفر إلى أسمرة، وأخذه محمد الرعيني إلى المطار ومعه تذكرة السفر، ولكن سعيد دخل إلى المطار واختفى إلى أن أقلعت الطائرة ثم عاد إلى الحديدة.

واختفى أياما لدى الأخ المناضل أحمد جعمان، ثم قابل الأخ حسين المقدمي الذي استغرب عودته من أسمرة، فأخبره أنه لم يسافر على الطائرة، وإنما عاد من المطار؛ لأنه لا يريد السفر، وأصرّ على السفر إلى السخنة، لتحريك من بقي من المكلفين باغتيال الإمام وتنفيذ العملية، ومعه قنبلة مستعد أن يشارك بها، وطلب منه رسالة من جديد إلى يحيى منصّر وابنه، ولكن المقدمي حذره ورفض

كتابة الرسالة، وأكد له أنه مطلوب لاعتقاله؛ فأكد للمقدمي أنه متفق مع الشيخ أمين عبد الواسع نعمان، وسافر فعلا إلى السخنة، وذهب إلى يحيى منصّر وولده إلى العريش الخاص بهم كحرس للإمام، وبلّغه التحية مني ومن الأخ هاشم طالب وآخرين، وطلب منهم التعاون في حال اغتيال الإمام فخافوا منه، واعتقدوا أنه جاسوس عليهم، وبلّغوا الإمام وتم إلقاء القبض عليه، وفتّشوا شنطته، ووجدوا فيها القنبلة اليدوية، ورآه يوسف هبة عبد اللّه، وهو من الأحرار ويعرفه، فأسرع إلى الحديدة وأبلغ المقدمي والرعيني والآخرين، فخافوا أن يعترف بكل علاقاته الواسعة في الحديدة وتعز وصنعاء وعدن، وقد أمر الإمام بمراقبة المناضلين المقدمي وهاشم طالب؛ أما سعيد إبليس فبعد إلقاء القبض عليه في السخنة قام أصحاب يحيى منصّر وابنه بتعذيبه بطريقة مؤلمة جدا، ولكنها لا تتركُ أثرا ظاهرا في الجسم، وحاولا استنطاقه لمعرفة المتآمرين معه، ولكنه أصرَّ على أن يحيى منصّر وابنه هما اللذان شجعاه على اغتيال الإمام، ثم خافا ووشيا به، وعندما شددوا في تعذيبه واستجوابه ذكر أسماء كثيرة، ليس فيها أي شخص من المتآمرين معه، ولكن الإمام قال: هذا يكذب ويريدنا نختلف مع من نثق فيهم، وأمر بإرساله إلى سجن نافع، وكنتُ مسجونا فيه مع الأخ حسن السحولي، حتى هربنا معا وانتحر، كما سأذكر ذلك في موضع سيأتي عند فرارنا من سجن نافع.

صورة المناضل سعيد حسن فارع (إبليس)

الفصل السادس عشر
الفرار من السجن وسنوات الحسم الثوري

عاد هاجس الفرار مرة أخرى، فقد احتلّ السجناء الجدد من الجنود الذي أرسلهم الإمام إلى سجن نافع، احتلوا مكانا واسعا في السجن الأعلى، وبدأت أجسُّ النبض مع من أتوسم فيه الرغبة في المغامرة، وكانت الفكرة هي إحداث ثقب كبير في المكان الذي هم فيه إلى الخارج، والفرار الجماعي من السجن، واستمرّت محاولتي بكل حذر وكتمان عدة شهور بلا فائدة.

«إبليس».. في سجن نافع

ذات يوم في عام 1960 سمعنا أن إبليس قد بعث به الإمام إلى سجن نافع، وقيّدوه بقيود ثقيلة وزجّوا به في قسم نافع الأسفل بتهمة محاولة اغتيال الإمام. كان اسمه الحقيقي سعيد حسن فارع من ذبحان الحجرية، ولا أدري من أطلق عليه اسم «سعيد إبليس» قبل محاولته اغتيال الإمام، وبعد أن يئستُ من الفرار مع العسكريين بقيتُ أفكّر في الفرار دون أن أخبر أحدا، واقتنعتُ بأن الفرار لن يكون إلا من سطح المكان الذي أسكن فيه مع الأخ حسن السحولي، وأقنعتُ ناصر علي جرامة بأن «الذّر/ النمل» قد بنت لها بيتا في سقف غرفتي يسبب سقوط المطر إلى الغرفة، وسمح لي بالطلوع إلى السطح وطرد الذّر وسدّ الثقب، وطلعت إلى سطح الغرفة فوجدتُ أمامها غرفة يسكنها ثلاثة من رسَم السجن، وفي شرقها الشمالي محراس مرتفع يتداول الرسم الحراسة فيه، وهو يطلُّ على سطح غرفتي وعلى كامل السجن، وكان النمل موجودا بالفعل، فقتلتها وطردتها بالبترول، وسددت الثقب الذي أحدثته، ووضعتُ في البقعة لوحا من تنكة «القاز» ثم عدت إلى غرفتي.

ولم يكن أمامي إلا مصارحة الأخ السحولي بفكرة الفرار، وبدأت أثير معه الموضوع بحذر، وجدتُ أنه يفكّر في الفرار أيضا، ولكن كيف؟

ثم أخبرني أن سعيد إبليس في السجن الأسفل من نافع يفكّرُ في الفرار، ولكن الفرار من سجن نافع الأسفل مستحيل، قلتُ له: إن هاجس الفرار قد لازمني من أول لحظة دخلت فيها إلى هذا السجن، ولا يوجد مكان للفرار منه إلا من سطح غرفتنا، فإذا تعاونا على ذلك فلا يوجد ما يجعل الفرار مستحيلا. وقرّرنا العمل على نقل سعيد إبليس من قسم نافع الأسفل إلى غرفتنا لأنه قادر على تمويل عملية الفرار، وفعلا تم نقله إلى غرفتنا برغم أننا سننام شبه متلاصقين، لأن الزاوية الثالثة كان فيها دكة الاغتسال، وكنا نعرف مقاطيع قضوا سنوات طويلة في السجن وأصبحوا يخرجون من السجن بدون حراسة ويتاجرون في شراء وبيع القات، وفيهم الأخ قايد دعقين من وادي شرس، وهو قاتل لا أدري لماذا لم يُنفّذ فيه القصاص أو الإطلاق؟ أما المقطوع الثاني فهو محمد الثلايا، وهو قاتل أيضا وهما من حجة ويعرفان شعابها، وتم الاتفاق معهما أن يرافقانا في الفرار عند تنفيذه.

ووضعنا خطة الفرار، سنعتمد على أحمد واصل في مدّنا بما نحتاج، وقد أمدنا بحبال تم إدخالها قطعة بعد قطعة، وتم إدخال مسدس إيطالي مع الرصاص، وتم إدخال ملابس قبائل، وتكفّل الأخ السحولي بتدبير من يقطع أسلاك سلك التلغراف، واقترحت شراء حمار واحد قد نحتاج له إذا تعثر أحدنا في المشي، ولكن سعيد إبليس رفض فكرة شراء الحمار، وبعد أن أمسينا جاهزين للفرار قلتُ لهما: بعد غد أول أيام شهر رمضان، وعلينا إعداد أنفسنا للفرار في هذا اليوم، ولم أكن قد كشفت لهما طريقة الصعود إلى سطح الغرفة، وكانا يظنان أن ذلك سيتم عن طريق أحد الرسَم، ولكني قلتُ لهما: علينا خلال اليومين القادمين أن يصعد أي منّا إلى دكة الاغتسال ويقف لإزالة أصابع خشب السقف بطريقة تبقيها موجودة تمسك التراب، ويمكن إزالتها بسهولة عند إزالة التراب والصعود إلى السقف، وكنتُ قد كلّفت الأخ أحمد واصل تدبير إبعاد الرسَم من الغرفة الموجودة أمام سطح غرفتنا، وفعلا كلّف بطريقته أحد أصدقاء الرسَم باستضافتهم للعشاء لديه أول شهر رمضان، وتم ذلك

بالفعل، وبقي الحارس في النوبة وقدّرنا أنه سيكون مشغولا بالعشاء في رمضان، وتم إزالة أصابع السقف الخشبية، وإسقاط التراب وفتح البقعة التي نصعد منها إلى السقف، كما تم ربط قطع الحبال إلى بعضها، ووضع ملابس التنكر في صرّة من القماش، وصعدت إلى السطح أولا، وكنتُ قد وجدتُ من قبل خشبة بارزة من سقف مكان الرسَم قريبة إلى محل هبوطنا، فوضعتُ حلقة في طرف الحبل في هذه الخشبة ومددته إلى مكان الهبوط، وأشرت للزميلين بالصعود.

وفي هذه اللحظة كان الحارس في النوبة الرسَمي قايد الجعدبي كان مشغولا بإعداد نار «المداعة» وتبديل الماء فيها، وهبطتُ مستعينا بالحبل إلى خارج سجن نافع، وكنتُ حذرا عند الهبوط بالحبل، فقد كنتُ أمسكه باليد ثم باليد الأخرى إلى أن وصلت إلى الأرض، وتبعني الأخ السحولي، وقد أحدث الحبل في كفيه جروحا، وتبعه سعيد إبليس، وجرينا بعيدا عن السجن، وكان كل ما حولنا خاليا من المارة لانشغال الناس بالعشاء في أول شهر رمضان. ثم وجدنا قائد دعقين ومحمد الثلايا، ومعهما السيد أحمد الشامي الذي طلب والده سجنه في نافع بحجة عدم طاعته له -وهو غير صديقي الشامي- ولذلك لم يكن سجنه مغلظا، وهبطنا جميعا نحو الوادي في طريقنا لصعود جبل مسور العملاق، وكنا جميعا نجري بسرعة.

وعندما وصلنا إلى أسفل الجبل دخلنا إلى ما يشبه المحراس، وغيّرنا ثيابنا فيه، ثم واصلنا المشيء بسرعة، وفجأة وجدنا الأخ سعيد إبليس يتوقّف عن السير، ولم يكن في رجله كسر أو جرح يمنعه من السير -كما أعرف- ويبدو أن مكوثه مدة في السجن بدون تمرّن على المشي قد أثر عليه ومنعه من المشي، ونحن نسمّي هذه الحالة بأنه «ثَبَّر» وعندما حاولنا أن نساعده على المشي، وكان واقفا بجانب صخرة كبيرة، قال لنا: نحن هاربون، ومن عجز فلّتوه، فدعوني أهبط إلى «الحول» القريب تحت الطرق. وخلعت بالطو عسكرية كنتُ لابسا لها، وفيها المسدس وأعطيتها له، مع صرّة صغيرة فيها كعك وساعدناه على الهبوط، وواصلنا المسيرة.

وكان كلٌّ منا يحمل «إتريك يد» مصباح بالبطاريات، فإذا تأخّر قليلا في الظلام دلّه ضوء الإتريك على من تقدّمه من زملائه. وكنا نمشي جريا خوفا من أن يكتشف

الرسَم فرارنا فيلحقونا، وعندما قطعنا ما يقرب من نصف جبل مسور تأخّرت قليلا عن زملائي، ولم أعد أرى ضوء «إتريكهم»، ووصلت إلى ساقية يجري فيها ماء الغيل «النبع» ولم يخطر في بالي أن زملائي قد قفزوا فوق الساقية ليواصلوا الجري، ووقفت أتلفت يمينا وشمالا علّني أرى ضوء الإتريك ولكن بدون فائدة!

وقفتُ حائرا، وشربتُ من ماء الساقية، وقرّرتُ أن أبحث لي عن مكان أختفي فيه، بدلا من السير في طريق لا أعرفها.. تلفّتُّ في كل الاتجاهات، ورأيت محراسا كبيرا قريبا مني، ورأيت بيوتا في «الأكمة»، وذهبت إلى المحراس ووجدت بابه المرتفع أو نافذته؛ لأنه بدون باب، والنافذة مسدودة بأحجار بعضها فوق بعض بدون مادة تجعلها متماسكة فدفعت حجرة كبيرة إلى الداخل، وهكذا حتى فتحت من النافذة ما يسمح لي بالدخول، ودخلت، وإذا المحراسُ مملوء بقصب الذرة، وأصبحت في الداخل كحزمة من القصب وأعدت الحجار كما كانت، ووضعت حزما من القصب بطريقة أستطيع أن امتدّ وأنام، وأختفي وسط حزم القصب.

وقدّرتُ أن وسط هذه القصب ثعابين أو حيّات تشاركني الاختفاء، وقد يُغضبها وجودي معها فتهاجمني وأموت ملدوغا، بدلا من أن أموت بالسيف، ولكن لا حيلة لي إلا الاختفاء في هذا المكان، ومرّت بقية ساعات الليل، وأقبل النهار وخشيتُ أن يأتي أصحاب القصب ليأخذوا شيئا منها. ومرّت ساعات النهار حتى المغرب، وقد صلّيتُ الصلوات الخمس بالإيماء وبدون وضوء، وبعد المغرب خرجتُ بالطريقة التي دخلت بها، وذهبتُ إلى ساقية الغيل وشربتُ حاجتي من الماء، وفكّرتُ أن أبحث عن نباتات آكل منها، وفعلا قطفت أوراقا عريضة من نبات على حافة الساقية، وبدأت أمضغه، ولكنه كان مُرّا وخشيتُ أن يكون فيه مواد سامة، فأخرجته من فمي وغسلته بالماء، وعدتُ مرة أخرى إلى حزم القصب الحنونة التي كانت تضمني برفق. ومضى الليلُ دون أن أنام فيه، وقبل الفجر خرجتُ إلى ساقية الغيل، وشربت من مائها، وتوضّأتُ وصلّيتُ الفجر وعدتُ إلى سرير القصب مرة أخرى، وبقيتُ طيلة ساعات النهار أنام نوما متقطعا، وبعد المغرب خرجتُ وشربت من ماء الساقية، وتوضّأتُ وصلّيتُ المغرب، وعدت مرة أخرى أحاول النوم في سرير

القصب. وكنتُ خلال هذه الساعات كلها أرهفُ سمعي، عسى أن أسمع حركة الثعابين، وخوفا من سماع أناس يمشون بقربي، وكنتُ أخافهم أكثر من الثعابين؛ لأن الثعبان لا يلدغ إلا إذا آذيته.

ومرّ نهار اليوم الثالث وأتى الليل وخرجت إلى ساقية الماء، وشربت منها، وقلتُ لنفسي لو بقيت على هذه الحال لمتُّ جوعا، وقرّرتُ أن أطلع إلى القرية القريبة مني، ودققت أول باب بيت وجدته، وأجابتني امرأة قلتُ لها أنا عسكري مرتب في حرض، وأريد أي شيء من الطعام، قالت: ادخل إلى الديوان، وكان باب البيت مفتوحا، فدخلت إلى الديوان، ووجدتُ فيه أكثر من عشرين رجلا، وأتوا لي بلحوح ومطيط المعروف في اليمن، وعندما بدأت الأكل ونزل إلى أمعائي شعرت بجسمي وكأنَّه في حالة تبخر، وخلال الأكل سمعت رجلا يقول: يمكن هذا من الهاربين الذين سمعنا عنهم؟ ولكن شيخا كبيرا ردَّ عليه: هذا لا يعنينا، حتى لو كان من الهاربين، فكم في السجن من مظاليم!

وخرج الناس لصلاة العشاء، وخرجت معهم وأنا لا أعرف كيف أتصرّف فلا معرفة لي بالطريق، ولكني وجدتُ واحدا من الجماعة يتابعني، ثم قال لي: «أنت من الهاربين» قالها بصيغة الخبر لا بصيغة السؤال، ووجدت نفسي أرد عليه: افرض يا أخي أنني من الهاربين، وافرض أنك وأصحابك قبضتم عليّ وسقتموني إلى سجن نافع، ماذا ستستفيد من ذلك؟ لا شيء؛ أو مكافأة بسيطة مقابل إنسان سقته إلى الموت. ثم قلتُ له: اسمع.. أنت متزوج؟ قال: نعم، قلت: عندك أولاد؟ قال: أربعة، ولدان وابنتان، قلتُ له: إذا أوصلتني إلى أهلي في صنعاء فسوف أكسوك وأكسو زوجتك وأولادك كسوة العيد، وأعطيك خمسين ريالا فرانصيا، ومع ذلك أجر من الله في الدنيا والآخرة. قال هيّا الحق بعدي، ومشى ومشيتُ وراءه، وأوصلني إلى مكان واسع تحت صخرة مجوفة، وجوفها مليء بالقصب. وقلتُ في نفسي: من القصب إلى القصب نعود، وأدخلني إلى محل مرصوف بالقصب، وقال لي: اختفِ في هذا المكان، وسوف آتيك بالأكل والشرب، فهذا القصب ملكي، ولا أحد يأتي إليه إلا أنا. وتعاملتُ مع حزم القصب، وهيّأتُ لي فيها مكانا للجلوس والنوم كما

فعلت من قبل، واكتشفت فيما بعد أن أصحاب القصب يرصون الحزم فوق بعضها حتى تكوّن جدارا فاصلا بينما يملكه صاحبه وما يملكه جاره، وهكذا.

وبقيتُ طيلة الليل هادئا ممتدا في سرير القصب، وجاءني صاحبي قبل الفجر وأعطاني قطعة من خبز الذرة «القفوعة» و«كوز/كُعْدَة» مملوءة بالماء، ومرّت ساعات من النهار وإذا بي أسمع نساء يتحادثن من خلف جدار القصب، وشعرت بالخوف، وبقيت مكاني لا أتحرّك، حتى أخذت النساء حزما من القصب الموجود خلف جدار القصب، وعُدن إلى حيث لا أدري. وكانت الصخرة الضخمة المجوفة جزءا من الطريق يمرُّ عليها الناس، وهكذا بقيت أسمع مرور الناس من فوقي وأسمع أحاديثهم، وكان بعضهم يتحدث عن فرار المساجين من سجن نافع. ولذلك بقيت طيلة الوقت أعيش متوتر الأعصاب، وأتوقّع أن يهبط إلى مكاني أي شخص أو عدد من الأشخاص. وعندما أتى صاحبي بعد المغرب وأعطاني قطعة من قرص «الجحين» أخبرته أنني لا أستطيع أن أعيش في هذا المكان، فقال سأنقلك إلى بيتي بعد يومين، حتى أرتّب الأمور، وعندما انتقلتُ إلى بيته اكتشفت أن هذه القرية تعيش في قاع الفقر...! إنها قرية بيت صلاح، وهم أسرة يتوالدون في هذه القرية ويعيشون معا.

واكتشفتُ أن قطعة «القفوعة» أو «الجحينة» التي كان صاحبي يعطيها لي عند السحور، والإفطار كان نصف نصيبه في الأكل الجماعي، وكان الإدام لديهم إما المطيط، وإما فتة النشوف المعروفة في اليمن. كانوا في قاع الفقر، وهذا حال أكثر من 90٪ من سكان اليمن حينذاك...! عرفت أن اسم صاحبي أحمد، ولم أعد أذكر اسم أبيه، وربما كان اسمه أحمد حمود صلاح، ووجدتُ أنه قد فرش لي فرشا أجلس وأنام عليه، فيما نسميه «الديمة» أي المطبخ؛ إذ لا يوجد لي مكان آخر في البيت لضيقه، ووجدتُ أن اقتسامي حصته من القفوعة أو الجحينة ظلم له ولي.

قلت لصاحبي أحمد حمود صلاح: هل تعرف أشخاصا في مدينة حجة؟ قال: نعم، قلت: هل تعرف القاضي حسن الشماحي وابنه عبد الوهاب؟ قال: نعم. قلتُ له: سأرسلك إلى القاضي عبد الوهاب، وستجده في صلاة الجمعة، وبعد الصلاة

تعرض عليه هذه الساعة، وأخرجتها من جيبي وأعطيتها له، وكانت ساعة يد لونها ذهبي ماركة «GINI» سويسرية معروفة لدى أصحابي وقلتُ له: عندما تقابل القاضي عبد الوهاب اعرض عليه هذه الساعة وانتظر ما يقول لك. وفعلا ذهب صاحبي إلى مدينة حجة على حماره، ولقي الأخ عبد الوهاب الشماحي، وعرض عليه الساعة، فأخذه إلى خارج المسجد وسأله: أين صاحب الساعة؟ قال له: عندي في البيت، وسلّمه رسالة صغيرة مني أقول له فيها: أنا بحاجة مأكولات وسكر، وقشرة البن، وبعض النقود، وبعد أن قرأها قال لصاحبي: اسمع، هذا أصحابه من عدن، لو وقع عليه أي شر سوف يلغّموا بيوتكم انتبه عليه.

وعاد صاحبي أحمد حمود صلاح وحماره محمّل بكمية كبيرة من علب الفواكه، وعلب البسكويت، والسكر، والقشر، أوصلها صاحبي إلى البيت في الليل، وسلّم لي معها عشرين ريالا فرانصيا، وكلها مرسلة من الإنسان الشهم عبد الوهاب بن حسن الشماحي. كان صاحبي فرحا بما حمل، وتغيرت نظرته لي، فبدلا من مسجون هارب، أعتقد أنني كنتُ من كبار المسؤولين قبل سجني، ووضعنا كل ما حمله في «الديمة» التي كنتُ شبه مسجون فيها، حتى لا يعرف أطفاله بوجودي، كان هو وزوجته من يعرف ذلك. وقد أخبرني أحمد حمود صلاح بعد عودته من حجة أن سعيد إبليس الذي هرب معنا قد انتحر في «الجربة» التي نزل إليها من الطريق، وأتى الرسَم وأخذوا جثته إلى حجة، وكان معه كمية من حبوب الذهب تقاسمها مدير سجن نافع وبعض الرسَم.

ومر أسبوع وإذا بصاحبي يطلب مني الاستعداد للسفر إلى صنعاء، وقد حاولتُ إقناعه بأن البحث عن المساجين لا يزال جاريا وأن نقاطا من رجال القبائل موجودة في الطريق، وأن أفضل وقت للسفر هو قبل عيد رمضان بأسبوع، ولكنه كان مصرا على السفر، ولم يكن أمامي إلا تنفيذ ما يريد. وخلال يومين كنا نمشي مشيا في طريقنا إلى صنعاء، وقد خرجنا من بيته في الليل، وقبل الفجر بساعتين كنا قد وصلنا إلى مركز الحكومة في جبل مسور، وكان العامل فيها صديق الطفولة والدراسة القاضي عبد الوهاب العرشي، وقد فكّرتُ أن أفاجئه، ولكن رفضت الفكرة خوفا من

عواقبها المجهولة. وقلتُ لصاحبي أحمد حمود صلاح: يا أحمد أُفضّل أن نذهب إلى المسجد، ونتسحّر معا بما أخذناه معنا من علب وبسكويت ثم نواصل السفر، ولكنه أصرّ أن ننزل المقهاية أو سمسرة المسافرين، ونطلب من «المقهوية» أن تذبح لنا دجاجة وتخبز لنا خبز «بر» أي حنطة مدهون بالسمن. قلتُ له: دعنا نأكل في السفر أي شيء، حتى نتجنّب المخاطر، ولكنه أصرّ على رأيه، وتم ذلك.

ودخلنا إلى المقهاية، وجلست في المكان مع آخرين، وتظاهرتُ بالنوم، وغطيت رأسي ووجهي باللحفة، وفجأة دخل الرسَمي في سجن نافع أحمد الشوخي، وجلس بجانبي، وجرى حديث عن الهاربين من سجن نافع، وشعرتُ بالخطر، ولكن بقيت أتناوم، وعندما خرج الشوخي قمت وذهبت إلى محل تكون فيه الحمير أو البغال، ولحقني صاحبي، وكانت المقهوية قد طبخت لنا الدجاجة، وخبزت أقراص الحنطة، ودهنتها بالسمن البلدي، وأكلنا طعامنا بعيدين عن ديوان الجلوس، وبعد الأكل انتقلنا إلى المسجد قبل الفجر وتوضّأنا فيه، ولم نصلّ إلا في الطريق، وواصلنا السفر، ولكني شعرتُ بتعب شديد؛ لأننا لم ننم في الليل.

وقبل الظهر رأيتُ الرسَمي قايد الجعدبي، وهو قادم من بعيد، فقلت لصاحبي: سوف أبتعد عن الطريق لكي أتبوّل، وحاول أن تغالط هذا العسكري القادم، وعندما كنتُ أتبوّل وصل الجعدبي إلى صاحبي، ويظهرُ أن صاحبي كان معروفا في حجة، وسأله هل سمع شيئا عن المحابيس الهاربين...؟ قال له: سمعتُ أنهم قبضوا عليهم في طريق تهامة، فتحرّك الجعدبي بسرعة نحو مدينة حجة وسلّم الله، وبعد أن غاب قلتُ لصاحبي: قد أخبرتك أن البحث عنّا لا يزال قائما، وعلينا أن نسافر بحذر. وواصلنا السير ووجدنا نقطة تفتيش من رجال المنطقة، وقد سألوا صاحبي من معه فقال لهم: ابن عمي أريد أن أعالجه في صنعاء، وكان صاحبي معروفا لديهم فتركونا نمرّ.

وبعد العصر أشرفنا على قرية «حبابة» وكنتُ في غاية الإرهاق، ووجدنا محراسا قريبا من الطريق، فقلتُ له: سأبقى في هذا المحراس، وأنت ادخل إلى القرية واكتشف من في المقهاية، ثم عد إليّ، وتعفّرت بالتراب، وصلّيتُ الظهر والعصر

معا. وعاد صاحبي وقال لي: إنه قد رتّب لنا غرفة مستقلة في المقهاية، وطلب من المقهوية ذبح دجاجة، وخبز ممتاز بالسمن. ودخلنا إلى الغرفة الخاصة، ثم ذهبت إلى المستراح مع «كتلي» إبريق مملوء بالماء، واسترحتُ وتوضّأتُ وعدتُ إلى الغرفة، وأغلقت بابها ومعي صاحبي، وحاولت أن أنام، ولكن الوقت كان قبل المغرب، وبقينا في الغرفة حتى صلينا المغرب، وأحضرت المقهوية لنا الأكل وقمنا بتناول طعام العشاء، وخرج صاحبي ثم عاد وأخبرني أن الرسَمي محمد اليازلي مساعد مدير السجن الحاشدي موجود في غرفة أخرى، وعليّ أن أغلق باب الغرفة من الداخل وأنام. ولا أدري هل كان اليازلي في حبابة يتابع الهاربين من سجن نافع؟ أم أنه في طريقه إلى قرية يازل لقضاء إجازة؟ ولكني قرّرتُ أن أحتاط أكثر.

قلتُ لصاحبي: هذه عشرة ريالات اذهب إلى السوق واشتر ملابس امرأة زنة «فستان» نسائي، و«مقرمة»، ومصارات، وسروال نسائي، وستارة نسائية، واستأجر حمارين إلى صنعاء يأتي بهما المكاري إلى مكان خارج قرية حبابة بعد صلاة الفجر، وذهب صاحبي ينفذُ المهمة، ونمت بعد صلاة العشاء مع صاحبي، وباب الغرفة مغلق من الداخل، وأيقظتنا المقهوية، لتناول السحور؛ لأن صاحبي يهتمّ بالأكل كثيرا بعد ذلك، ذهبتُ إلى المستراح وتوضّأتُ، وعدتُ لأصلي الفجر في الغرفة، ثم قمتُ بخلع ملابسي الرجالية، ولبستُ ثياب المرأة التي أتى بها صاحبي، وبعد أن تأكّدتُ من أنني أصبحت متنكرا في ثياب امرأة بطريقة سليمة قمت بخلع ثياب المرأة، ولبست ثيابي وخرجنا إلى خارج قرية حبابة، ودخلت إلى محراس هناك، وخلعت ثيابي ولبست الملابس النسائية، وانتظرنا حتى جاء المكاري بحمارين، وركب صاحبي على حمار، وركبتُ على الحمار الثاني، وقال صاحبي للمكاري: هذه أختي مريضة وسنذهب لمعالجتها في صنعاء.

وهكذا تحولّت إلى «أخت» صاحبي، وأعتقد المكاري أنني أخت صاحبي، وهذا جعلني أطمئن نوعا ما، وسافرنا ولم نجد في الطريق أي مزعجات، حتى وصلنا إلى خارج سور صنعاء، وأنا أخت صاحبي، وذلك بعد صلاة العصر، رأيت زميلي في سجون حجة القاضي محمد السياغي، والسيد محمد أحمد الوزير، شقيق الإمام

الدستوري يمشيان خارج السور، في دورة يعتاد أهل صنعاء القيام بها في أكثر الأيام. دخلنا إلى صنعاء من باب شعوب، واتجهنا إلى سمسرة قريبة من «سوق العرج» وفيها يبيع الناس حيواناتهم الداجنة، البقر، والأثوار، والماعز والكباش، وحتى الدجاج والبيض. «ودبّر» صاحبي غرفة خاصة في الدور الثاني من السمسرة ونزلنا فيها، وشرحت لصاحبي موقع سوق الكوافي القريب من السمسرة، وأمرته أن يذهب إلى هذا السوق ويسأل عن دكان أحمد عبد اللّه الفسيّل، ويخبره أنني سأنزل إلى بيتنا بعد صلاة المغرب، وعليه أن يخبر أمي بذلك إذا لم يبحثوا عني لديهم.

وعاد صاحبي وأخبرني أن أخي أكّد له أن أحدا لم يبحث عني، وسينتظرني بعد المغرب في البيت، وبعد المغرب خرجتُ بملابس المرأة، وعندما وصلنا إلى مسجد قريب دخلتُ وخلعت ملابس المرأة ولبست ملابسي، ولم أعد أخت صاحبي، وكانت الشوارع خالية من المارة؛ لأن الوقت وقت «الفطور». ووصلت إلى بيتنا، وكان لقائي بأمي ممزوجا بالفرحة والحزن على ما سبّبتُ لها من متاعب وأحزان، وبعد العشاء كلّفت أخي بالذهاب إلى الأخ القاضي عبد السلام صبرة، يخبره بوصولي وتدبير مكان آمن أختفي فيه، وكلّفته بأخذ صاحبي إلى السوق وشراء ما يريده من ثياب له ولزوجته وأولاده، ويسلّم له خمسين ريالا، ولكن صاحبي طلب أن أعطيه ساعة «جنّي» الذي ذهب بها إلى الأخ القاضي عبد الوهاب الشماحي، وأعطيتها له بلا تردد، فقد أنقذني من الموت، وودّعته بعد أن عاد أخي من بيت عبد السلام صبرة، ومعه ابنه عبد اللّه عبد السلام وصهره صالح الأشول، وتم نقلي إلى بيت الأخ الفريق فيما بعد حسن بن حسن العمري، وبقيت لديه بقية أيام شهر رمضان، وخلال ذلك تم الاتصال بالأخ محمد عبد اللّه أبو لحوم، شقيق الشيخ سنان أبو لحوم الذي «دبّر» لي جملا قويا ومرافقا لي من بلاده نِهْم اسمه أحمد الجميدر، وبعيدا عن «باب شعوب» ودّعني، ومعه الأخ ناصر الكميم، وسافرنا في طريقنا إلى بيحان، المحمية البريطانية. ولا أدري من أين جاء لرفيقي أحمد الجميدر أنني «خمّار»، أصنع الخمر وأبيعه وأنني هارب من الحجري، الذي يعتقل الخمّارين. وقد ارتحت لذلك لأن تهمة الخمّار أخف من تهمة السياسي، وكان الإمام قد كلّف

القاضي عبد اللّه الحجري بحبس الخمّارين، وأكثرهم من بني حشيش منطقة العنب بألوانه المختلفة.

القاضي عبد السلام صبرة

وصلنا إلى بيت الشيخ صبر في نِهْم، واستقبلنا مرحّبا، فقد كان لديه خبر بأنني سأصل إليه، واستضافنا بذبح كبش نِهْمي، وصلّيتُ الظهر والعصر جمعا، وبعد الغداء توكّلنا على الله بعد أن ركب «الخمّار» على الجمل، وطلبتُ من رفيقي الجميدر الركوب معي على الجمل الذي كان مجهّزا لركوب شخصين، ولكنه فضّل المشي، والمشيُ أفضل من ركوب الجمل، وبعد ساعات وصلنا-بعد المغرب- إلى بلاد الشيخ ابن كعلان، وبعد أن نزلنا في بيت صديق لمرافقي الجميدر وصلّينا فيه المغرب والعشاء جمعا، وكان مرافقي يستغرب أنني «خمّار» ويصلّي! عرفت ذلك دون أن يصارحَني به! وكنتُ متعبا فنمت إلى الصباح، أما رفيقي الجميدر فقد ذهب إلى الشيخ ابن كعلان، وأخبره بأن أحد الخمّارين هارب من الحجري إلى بيحان، وهذا سبّب لي مشكلة؛ لأن الشيخ طلب أن أعطيه نقودا، ولم يكن لدي إلا عشرة ريالات، وكان الإخوة ناصر الكميم وعبد السلام صبرة، وحسن العمري قد جمعوا لي تبرعات واشتروا بها 6 حبات ذهب «جنيهات»، أخفيتها بطريقة معينة في سروالي.

وفي الصباح أخبرني مرافقي الجميدر أن الشيخ يريد مني «قروش»، وإلاّ فلن يسمح لنا بالسفر، فقلتُ له: يا أخ أحمد أنت مرافق لي برضاك واختيارك وعرف القبيلة أن تخرجني إلى محل الأمان، وأنا لا أملك إلا عشرة ريالات، فإذا منعنا الشيخ بن كعلان من السفر فردّني إلى بيت أبو لحوم أو بيت صبر، وذهب إلى الشيخ، ولا أدري ما دار بينهما من حديث، ولكنه عاد وقال لي: توكلنا على الله. ولن أتركك

إلا في بيحان، وعرفت منه أن موقفه مع الشيخ ابن كعلان كان حاسما بسُلف القبيلة، ووافق على سفرنا بدون «قروش».

وتوكلنا على الله، حتى وصلنا إلى منطقة رملية صحراوية بعد صلاة العصر، واكتشفنا أننا قد توغّلنا في الصحراء، وأننا قد سافرنا بدون أن نملأ «القربة» ماء نشربه، وهذا معناه أن نموت في الصحراء. وقال لي رفيقي بعد أن «بَرَّكَ» أناخ الجمل: اجلس بجانب الجمل إلى أن أحاول إيجاد ماء، وأخذ يجري من مكان إلى آخر، ويحفر الرمال بيديه ويشمّها، ثم يجري ويحفر وهكذا، وأنا استغرب على حركاته التي أعتقدت ألا معنى لها، وهيّأتُ نفسي للموت عطشا، وبعد فترة طويلة عاد رفيقي مشرق الوجه، وقال لي: وجدت الماء، ومشينا ومعنا الجمل إلى مكان حفر فيه رفيقي حفرة لا تزيد على نصف متر، ورأيت الماء في الحفرة، وأنزل رفيقي القربة المعلقة في «زهاب الجمل» وملأها بالماء وشربنا وشرب الجمل، وتوضّأنا وصلّيتُ الظهر والعصر جمعا، ولاحظت أن رفيقي لا يصلّي، وبعد الصلاة أحضر رفيقي دقيقا من حبوب الذرة، وحطبا كان على الجمل، وجلد عنزة مدبوغ عجن فيه الدقيق، وأشعل النار، وأحضر حجارة مدورة كانت في جراب على الجمل، ووضعها في النار، ثم أخرجها وغلف بها العجين، ورماها مرة أخرى إلى النار حتى نضج ما عليها من عجين الدقيق، وأخرجها من النار، وأزلنا ما يمكن أن نسمّيه «قفوعة» من على الحجارة، وأكلنا أكلة غريبة معجونة في جلد عنز غير نظيف، وعليها كمية من رماد النار، وأوحيت لنفسي أنها أكلة لذيذة، وفعلا كانت لذيذة، فلا يُوجد غيرها.

وحان وقت المغرب، وبعد الصلاة لجأنا إلى تحت كثبان من الرمال، تشبه الأكمة، ونمنا تحتها بعد أن غطّينا أجسامنا بلحافات كانت موجودة على الجمل، وبَرَّكَ الجمل بجانبنا، وفي الليل بدأنا نحسُّ أن كثبان الرمال تحرّكها الرياح وتطير من فوق أجسامنا المغطاة، وفي الصباح وجدنا أن أكمة الرمل التي نمنا تحتها قد انتقلت إلى مكان آخر.

وصنع لنا رفيقي أكلة أخرى بالطريقة نفسها، وكان صبوحا لذيذا؛ إذ لا أكل سواه، وندمتُ أنني لم أفكّر في شراء بسكويت ومعلبات فواكه، وذكرتُ أننا تركنا في

بيــت رفيقـي أحمد حمود صلاح كمية كبيرة من ذلك، مما أرسله القاضي الشهم عبد الوهاب الشماحي، وكأننا سنفتح بها دكانا للبيع والشراء.

وصلنا إلى بيـحان، ولم أعـد أذكـر هل نمنا مـرة أخـرى تحت كـثبـان رمل أم لا؟ الـمهم أننا قد وصلنا إلى بيحان، ونزلنا فيما ينزل فيه الـمسافرون، وكنتُ أعرف أن زميلي في قرية الـجراف ونحن أطفال محمد بن يوسف الـمؤيد قد أصبح كاتبا لدى شريف بيحان، فأرسلت رفيقي الـجميدر برسالة قصيرة إليه أخبره بوصولي هاربا من سجن نافع الرهيب، وأطلب مساعدته لنقلي إلى عدن، وقد وجده رفيقي وسلّمه رسالتي فاهتمَّ بها، وجاء مع رفيقي إلى حيث كنتُ نازلا، وبعد الـمصافحة، طلب مني أن أنتقل معه إلى بيته، حتى يصل الشريف حسين، وحاولت أن أعتذر، ولكنه أصرّ على انتقالي إلى منزله. وقد اندهش رفيقي من اهتمام وزير شريف بيحان بشخصي هذا الاهتمام، وخصوصا عندما لحقت به سيارته الخاصة، وتهيّأنا للانتقال إليها.

وأخذني رفيقي الـجميدر على جنب وقال لي مندهشا: من أنت؟ أنت «موش خمّار» أنت مسؤول كبير؟ وأريد منك تطلب من الشريف إعطائي بندقا ورصاصا، قلتُ له: سأحاول وأعطيته خمسة ريالات من العشرة الـموجودة معي، لكنه قال لي: لن أسافر إلا ببندق ورصاص، وتأخّر وصول شريف بيحان، وأقنعتُ زميل الطفولة والصبا أن يُسهّل سفري إلى عدن، وبقي رفيقي الـجميدر يتردّد عليّ للحصول على بندق ورصاص، وأخبرت الـمؤيد بذلك، فأعطاه مئة رصاصة «طلقة نارية»، ودبّر لي سيـارة نقلتني من منطقـة النقب إلى مـدينة بيـحـان ومـعي رسـالة إلى الأخ علي العليمي، وهو عميد أسرة من العلماء في مدينة القصاب التي تعتبر عاصمة بيحان. وقبل أن تتحرّك السيارة التي أقلتني إلى القصاب أعطاني السيد محمد يوسف الـمؤيد ظرفا وجدت فيه ألف شلن، وسرّني ذلك لأنني لم أكن أعرف ماذا يواجهني في عدن، وفي القصاب استضافني القاضي علي العليمي يومين، وفي اليوم الثالث وصلت الطائرة من عدن، وخرج معي إلى الـمطار، ومعه عدد من أهله وأصحابه، وودّعني عند سلم الطائرة، وبقي حتى دخلتُ إلى داخل الطائرة.

وصلتُ إلى عدن في يوم 8 شوال 1380هـ- 25 مارس 1961، ربما في الساعة 11 قبل الظهر، واتجهتُ بسيارة أجرة من المطار إلى دكان الأخ محمد شعلان، وقابلته ورحّب بي، وكان في دكانه بالدور الثاني مكان مجهّز للنوم، وبه حمام كان يستخدمه إذا تأخر في الدكان فأنزلني فيه، وبعد أن صلّيت الظهر والعصر جمعا، وتغدّيت في مطعم قريب عدتُ إلى الغرفة في الدكان، ونمتُ نوما عميقا إلى ما بعد المغرب، وصلّيت المغرب والعشاء، وهبطت إلى الأخ محمد شعلان في دكانه المليء بأنواع العطور الراقية، وطلب مني أن أكون محاسبا لديه، أقيّد في سجل حسابي لكل نوع من أنواع العطور بندا يشتمل على الكمية الموجودة منه، وبجانبه كمية ما تم بيعه وثمنه في بند مقابل، وما بقي منه بعد البيع في بند ثالث، وهذا عمل لن يستغرق مني إلا ساعة أو ساعتين في المساء، وسرّني ذلك لأنه سيساعدني على تدبير المعيشة.

وسألته عن الاتحاد اليمني، فقال لي: إنه موجود، ولكن أوضاعه مضعضعة، وليست كما ينبغي، ونشاطاته السياسية محدودة؛ لأنه يركّز على الجانب التعليمي، وأخبرني أن الأستاذ أحمد محمد نعمان كان في عدن، ولكنه اضطر إلى السفر إلى القاهرة، والانضمام إلى زميله القاضي محمد محمود الزبيري، وأن الأستاذ محسن العيني كان موجودا في عدن، ولكنه سافر إلى القاهرة، وأن الشيخ سنان أبو لحوم موجود في عدن، برعاية شريف بيحان، وله منزل في الشيخ عثمان.

محاولة اغتيال الإمام

كان يوم 8 شوال 1380هـ-25 مارس 1961، غير عادي في حياتي، ففي هذا اليوم وصلتُ إلى عدن عقب فراري من سجن نافع، وبعد ساعات من وصولي قام الشهيد البطل عبد اللّه محمد اللقية والشهيد البطل محمد عبد اللّه العلفي، ومعهم محمد الهندوانة بإطلاق الرصاص على الإمام أحمد في مستشفى الحديدة، بعد مغرب ذلك اليوم، وقد أصيب الإمام إصابات جسيمة في أقدامه وفي جنبه، وظنوا أنه قد قُتل، ولكنه لم يمت. واختلف مصير كل واحد من الثلاثة، فتوجه محمد الهندوانة

إلى مقام الإمام، وأخبر «العكفة» أن الإمام قد قتله اللقية والعلفي، ولجأ محمد العلفي إلى بيت قريب من بيت الأخ محمد رفعت، وحوصر ودافع عن نفسه، ثم انتحر بآخر رصاصة في مسدسه، وذهب عبد اللّه اللقية إلى الميناء حتى قُبض عليه، وتم استجوابه تحت التعذيب الشديد، وقد ذكر أسماء كثيرة من المقربين إلى الإمام على أنهم من المتآمرين، وكان يُعرف قبل محاولة الاغتيال أن محمد الفسيّل قد هرب من السجن إلى عدن، وأن محمد علي الأكوع قد سبقه فارا إلى عدن، وقد حوكم مع الهندوانة، وأعدما في تعز، وسيق بعض المعتقلين إلى سجن «وشحة» في بلاد الشرفين حجة، ومنهم الشيخ عبد اللّه بن حسين الأحمر شقيق الشهيد حميد، والأخ السيد حسين عبد اللّه المقدمي، والأخ محمد رفعت، والأخ محمد عبد العزيز حمرة.

وقد ذكرتُ سابقا أن فكرة قيامهما باغتيال الإمام كانت موضوع حوار ونقاش أجريناه في سجن نافع، وقد اقتنعنا حينذاك بضرورة اللجوء إلى عملية الاغتيال، ولكن بعد جهد جدي في تشكيل تنظيم للضباط الأحرار يكون له علاقات بالأحرار في الداخل والخارج، بهدف تغيير ثوري منظّم للأوضاع في اليمن، ولا يتم اللجوء إلى تنفيذ اغتيال الإمام إلا إذا فشلا في إقامة ذلك التنظيم. وبعد إطلاقهما بذل عبد اللّه اللقية جهودا كبيرة، وتم تشكيل تنظيم محدود للضباط الأحرار، واستمر إلى بعد عودة الإمام من روما، ويبدو أن هذا التنظيم المحدود قد فشل؛ لأن اللواء حمود الجائفي وهو شخصية يحترمها كلُّ الضباط قد أزعجه نشاط اللقية التنظيمي، فأعلن معارضته لذلك، الأمر الذي أفشل كل محاولات اللقية، وإبعادا له اقترح عليه اللواء الجائفي العمل في ميناء الحديدة، وجاء زميله العلفي ورقد للعلاج من مرض السلّ في مستشفى الحديدة، ثم عُيّن ضابط أمن للمستشفى، وقد فشلت عدة محاولات لاغتيال الإمام، بسبب عدم تأهيل وتدريب المكلّفين بالاغتيال، مما جعل الطبيب السوري فضل الله الزاقوت الذي أصبح أكثر من يمني، يقول: «لا يوجد في اليمن من يغتال دجاجة، كلهم جبناء». واتفقت مجموعة أحرار الحديدة، وعلى رأسها المناضل المقدمي على إلغاء أي نقاش لاغتيال الإمام؛ ولذلك انحصرت فكرةُ

محمد العلفي وعبد الله اللقية

محسن الهندوانة

اغتيال الإمام في شخصي: اللقية والعلفي، وبقيا يترقبان الفرصة.

وفي ليلة 25 مارس 1961، أقدما على اغتيال الإمام في مستشفى الحديدة، وضمّا إليهما الضابط محسن الهندوانة، وأطلقا الرصاص على الإمام أحمد، فأصاباه إصابات بالغة، أدت إلى موته بعد أكثر من عام. وقد فرّ العلفي إلى أحد بيوت الحديدة، واختفى فيه حتى تمت محاصرته بقوة من عكفة الإمام، ودافع عن نفسه، ثم انتحر بآخر رصاصة في مسدسه. أما زميله اللقية فقد ذهب إلى محطة اللاسلكي القريبة من الميناء، حتى تم إلقاء القبض عليه وسجنه، ونزل به من العذاب ما لا يطاق خلال استنطاقه كما تقدّم. وبعد أن حاول إدخال مجموعة كبيرة من أنصار الإمام، باعتبارهم متآمرين ومشجعين له على اغتيال الإمام، ولكن ذلك لم يفده؛ بل

اشتد عليه التعذيب، حتى اتفق مع الـمعذبـين أن يتكلم بالـحقيقة؛ ولذلك اعترف بأن الـمتآمرين معه هم الـمقدم محمد علي الأكوع، ومحمد عبد اللّه الفسيّل، وقد ورد هذا الاعتراف مرتين قبل إعدامه. وقد ورد في التحقيـقات معه يوم الاثنين 17 صفر 1380هـ، في صفحة 6 ردا على سؤال الـمحقق معه:

س: قلتُ في إفادتك، إنك تعاهدت مع بعض الأشخاص لتنفيذ العمل، فمن هم؟

ج: الأشخاص معروفون وقد ذكرتهم في شرح القضية وهم: محمد علي الأكوع، وبعد فترة محمد الفسيّل، ومحمد العلفي، وتعاهدنا مع الـحسن بن علي على كتمان السر في أي عمل يكون فيه مصلحة البلاد، ودون أن يضرّ باستقلاله ودون ذكر أي خطة بقتل الإمام، ولم نذكر قتل الإمام مع الأمير الـحسن بن علي.

وورد في صفحة (7) على لسان اللقية ما يلي: «وحبست ستة أشهر في نافع حجة ظلما، ورأيت في نافع إهانة الآدمية، والاستهتار بشريعة الله؛ فلم أجد من يتجاوب معي حقيقة، ويقسم بالله من قلب خالص إلا محمد عبد اللّه العلفي ومحمد عبد اللّه الفسيّل، وخرجنا من نافع مصممين على هذا الغرض».

كانت لديّ قناعة بأن فشل اللقية والعلفي في استمرار تنظيم «الضباط الأحرار»، قد أدّى إلى اقتناعهما وقيامهما بمحاولة اغتيال الإمام، وأن انتحار العلفي بعد محاولة الاغتيال، ثم إعدام اللقية والهندوانة، قد أشعر الضباط الذين كانوا منظمين مع اللقية بالذنب، ودفعهم من جديد لإقامة تنظيم «الضباط الأحرار» مع توسيع التنظيم، وتعاونهم مع قوى الأحرار الـمدنية والقبلية، في الداخل والـخارج، حتى تفجّرت ثورة 26 سبتمبر 1962، وقيام إعلان الـجمهورية. وبعد وصولي إلى عدن قرّرتُ أن أكتشف الوضع في الاتحاد اليمني أولا، وعرفتُ من الأخ محمد شعلان أن الأخ محمد أحمد نعمان الابن كان قد قام قبل فترة بتغيير في الهيئة الإدارية، فنحّى الأحرار الكبار الذين أسسوا الاتحاد، وعلى رأسهم الأخ عبد القادر علوان، واستبدلهم بهيئة إدارية من الشباب الـمؤيدين له، وتكونت الهيئة الإدارية الـجديدة من الإخوة:

محمد علي الأسودي، رئيسا -علي محمد الأحمدي، أمينا عاما- محمد أحمد نعمان، نائب الأمين العام- صالح سالم عبيد، أمينا للمال، وعضوية كل من: محمد علي الأكوع، صالح الدحان، علي محمد عبده، عبد الحليم أحمد عبد اللّه، أحمد يحيى الكهلاني، عبد الرحمن الحكيمي، عبد الجبار شاهر، عبد الرحمن أحمد قاسم، ومحمود عبد اللّه عشيش.

في الاتحاد اليمني

انضممتُ إلى الاتحاد اليمني، ودفعت اشتراكي لسنة كاملة، وزاولت تدريس التلاميذ بعد عصر كل يوم في دار الاتحاد، وكان التدريس بهدف تقوية دراسة التلاميذ لدروسهم في مدارسهم التي يدرسون فيها، وفكّرتُ كثيرا، وحاولتُ أن أبدأ نشاطي في إطار الاتحاد بمحاولة التفاهم والتعاون مع نعمان الابن، وكان لا يزال مسيطرا على الاتحاد اليمني، وعلى الداعمين له من التجار اليمنيين في عدن وكينيا والحبشة وغيرها، بدعم من أبيه الأستاذ نعمان في القاهرة، برغم وجود هيئة إدارية للاتحاد من الأحرار اليمنيين، إلا أن هذه الهيئة تتبع في الواقع النعمانيين، وكنتُ أعرف أن النعمان الابن هو أذكى وأكفأ آل نعمان؛ بل إنه من أكفأ الرجال على مستوى اليمن.

قلت له: يا أستاذ.. أنت تعرف أن خلافاتنا ليست على أهداف الحركة الوطنية، ولكن الخلاف كان -ولا يزال- على أسلوب تحقيقها. قال: هذه هي الحقيقة. قلتُ له: هل نستطيع أن نتناقش ونتفاهم بروح «حجة» وسجونها عندما كنا في سجن قاهرة حجة، وأنت ووالدك مفروض عليكم الإقامة الجبرية خارجها؟ وذكّرته بالحوارات الموضوعية التي دارت حول استفساراته عمّا ينبغي عمله. وطلبتُ منه أن نستعيد روح الصفاء والتفاهم والحوار الموضوعي الذي كان سائدا في حجة.

وأخذنا نتناقش في كل شيء، وكنتُ خلال النقاش مؤدبا ومجاملا، بهدف الوصول إلى تفاهم، وقد ناقشنا مجيء والده إلى عدن قبل عام من وصولي،

والـخـلاف بينه وبين صـديقه الزبيري ومن مـعه حـول جمع الـمـال، لبناء مدرسة بلقيس كـمـا أراد الأسـتـاذ، وجـمـعـه لدعم ثورة تقوم بهـا قـبـيلة خـولان الذي لجـأ مـشايخـهـا إلى شـريف بيحـان، وكـان هذا الـخـلاف هو أول خلاف كـاد يفـرّق بين الصديقين. وقد استغرب نعمان الابن أن أكون في هذا مع الأستاذ، لا مع الزبيري، فشرحتُ له أن الأحداث أثبتت وجود خلل كبير في علاقات الـمشايخ بقبائلهم، صحيح أن شيخ القبيلة له نوع من الاحترام في قبيلته، أو على الأصح تقليد قبلي بعدم الـخروج على الشيخ، ولكن أثبتت الأحداث أن الـمشايخ قادرون على حشد قبائلهم، لدعم الدولة أو للتمرد عليها عند وجود دعم أقوى ضدها؛ لأن هذا الدعم يعود على الأفراد بشيء من الـمـال وشيء من السلاح، ولهـذا تخلّت حاشـد عن شيخها الكبير حسين ناصر الأحمر، وعن ابنه الشاب الذي كنا نعلّق عليه أمالا كـبـيـرة، وقطع الإمام رأسـيـهـمـا، ورأس الشـيـخ عـبـد اللطيف بن قـايد بن راجح الـخولاني دون أن تتحرّك القبائل لأخذ الثأر، وقد فرّ مشايخ خولان إلى شريف بيحان، وكذلك سنان أبو لحوم شيخ قبيلة نِهْم، ولو كانت علاقاتهم بقبائلهم قوية لدافعت عنهم.

ولا شك أن فكرة ثورة خولان، وجمع أربعين ألف ريـال فرانصي لمشايخها ثورة خـيـالـيـة؛ لأن الـمـشـايخ سـيـأكلون الريالات دون أن يشعلوا ثورة ضد الإمام، ولو أن حكومة عدن عن طريق شريف بيحان دعمت مشايخ خولان بالـمـال والسلاح، فربما اسـتطاعوا دفع قـبـائلهم للتمـرد ضد الإمـام، لا إلى ثورة تقضي عليه، ولكن حكومة الإنجليـز في عـدن لم ولن تفـعـل ذلك، بل بالعكس؛ فـقـد أوعـزت لشـريف بيـحـان بالتخلي عن مشايخ خولان، وطردت الأستاذ أحمد نعمان والأستاذ محسن العيني من عـدن، وأنذرت سنان أبو لحوم بمغـادرة عـدن؛ لأن مـصلحـة الاسـتـعـمـار التـهـادن والتعاون مع الإمام، لا التعاون ضده.

وذكّرته بموقف الـجيش من قائدهم الثلايا والإمام عبد اللّه حميد الدين، فبمجرد أن اسـتطاع الإمـام أحـمـد الـخروج من الـحصـار قطع رأس الثـلايا أمـام جنوده، وقطع رأس الإمام عبد اللّه وأخيه العباس، وقد أخطأ الثلايا وإمامه عبد اللّه عندما أبقوا

على الإمام خشية من ثورة الشعب كما حدث في ثورة 48 الدستورية؛ لأن الإمام يحيى كان مقدّسا في عقيدة الشعب؛ أما الإمام أحمد فهو في نظر الشعب طاغية متوحش مخيف ورهيب ومكروه، ولو أنهم قضوا عليه في أول يوم من محاصرته، لنجحت حركة الثلايا عام 1955 في تقديري.

الشهيد محمد أحمد نعمان
(الابن)

وبعد أن ناقشنا هذه الموضوعات اقترحتُ على الأخ محمد نعمان الابن أن نتعاون على تحويل الاتحاد اليمني من تنظيم نعماني إلى حزب سياسي جماهيري، وليكن التجّار دعما للجماهير، وقلتُ له: إن الأوضاع قد تغيّرت في عدن والمحميات وفي اليمن الشمالي، فجماهير العمال تنظّمت في نقابات وفرضت نفسها على أصحاب العمل، ونالت حقوقا لم تكن تنالها من قبل، ثم تجمّعت في المؤتمر العمالي الذي أصبح أقوى من أي تنظيم أو حزب. فلماذا لا يتحوّل الاتحاد اليمني إلى تنظيم أو حزب جماهيري، بدلا من بقائه بوضعه الحالي، فقد ظلّت حركة الأحرار من عام 1944، وحتى الآن حركة نعمانية، قواعدها تجّار «مدكنون»، دعنا نتعاون ونجرّب حتى لا تتكرّر تجربتنا في «الجمعية اليمنية الكبرى»، ولكنه سخر من الفكرة، وبدأ يضايقني في الاتحاد.

وصادف وصول الأخ علي مرجان إلى عدن، وهو تاجر يمني كبير في كينيا، وله تأثير على اليمنيين هناك، وقد اجتمع مع رئيس الاتحاد محمد علي الأسودي، وأمينه العام الأحمدي، ونعمان الابن، ومحمد الفسيّل، وخلال الاجتماع أثرتُ معه موضوع حاجة الاتحاد اليمني إلى مطبعة، وعودة نشاطه السياسي، فقال لي أمام الأخ نعمان الابن وأمام الآخرين: لقد جمعنا مبلغا يكفي لشراء مطبعة، وأرسلناه إلى الولد الأستاذ محمد نعمان، إلى جانب ما جمعه الإخوان في الحبشة لشراء مطبعة. وقد

سكت نعمان الابن، ولكن الأسودي بدأ يتخلّى عن النعمانيين، وفهمتُ استحالة التعاون مع نعمان الابن، في تحويل الاتحاد إلى تنظيم فعّال، وقرّرتُ أن أجرّب حظي دون أن أقطع صلتي بالأستاذ محمد نعمان الابن، أو بإدارة الاتحاد.

عندما وصلتُ عدن في يوم 25 مارس 1961، وجدت أن عدن قد تغيّرت، فقد تكوّنت فيها نقابات عمالية في جميع المرافق والمؤسسات، وتجمّعت هذه النقابات في المؤتمر العمالي الذي أصبح قوة اجتماعية وسياسية أكثر من كل الأحزاب والمنظمات، وكان حزب البعث مسيطرا على قيادة المؤتمر العمالي. كما أن أحزابا محلية، وأحزابا قومية عربية، وتيارات يسارية دولية قد برزت، وصارت فعّالة في عدن، وفي المنطقة، بما فيها اليمن الشمالي نفسه.

وجلستُ أضع لي خطة نشاط أصل به إلى هدفي، كنتُ أُدرّس التلاميذ بعد العصر في الاتحاد اليمني، ووجدتُ أن رفيقي فيه ضابط هارب من تعز هو اللواء فيما بعد محمد علي الأكوع، عضو الهيئة الإدارية في الاتحاد، الذي أصبح صديقي ننام معا في دار الاتحاد، ونأكل معا ونخرج معا، ونتناقش في كل شيء بدون حدود، ونتقاسم معا «الروتي-الخبز» والفول أو الروتي والماء إن غاب الفول صباحا؛ أما في المساء فقد كنتُ أقضي ساعة أو أكثر في تفريغ فواتير البيع والشراء إلى سجلات حسابية في دكان الأخ محمد شعلان.

وخصّصتُ ساعات الصباح للقاء عناصر نشطة بدون حدود، فتعرّفتُ على الأخ شيخان الحبشي، القيادي في حزب رابطة أبناء الجنوب، وعلى عناصر من الحزب، وتعرّفتُ على عناصر من حركة القوميين العرب، ومنهم سلطان أحمد عمر وأخوه عبد الرحمن، وسعيد الجناحي، وكان عبد اللّه وعلي باذيب وعبد العزيز نصر من الحديدة يمثّلون التيار اليساري الشيوعي، فتعرّفت عليهم. وتعرّفتُ على قيادات بارزة في المؤتمر العمالي وحزب الشعب الاشتراكي، ومنهم محمد سالم علي، وعبد اللّه الأصنج ومحمد باسندوة، ويضم حزب الشعب عناصر كثيرة بعثية، وكان محمد أحمد نعمان الابن يُعتبر من البعثيين في تلك المرحلة.

واتصلت بالأستاذ الكبير محمد علي باشراحيل الذي كان يُصدر صحيفة

مالك ورئيس تحرير صحيفة الأيام
محمد علي باشراحيل

مالك ورئيس تحرير صحيفة «فتاة الجزيرة»
محمد علي لقمان

«الأيام» الأسبوعية، وبعد التعارف وظّفني محررا في الصحيفة، أعمل في التحرير والتصحيح. وزرت المحامي والصحفي والسياسي الكبير محمد علي لقمان، مالك ورئيس تحرير صحيفة «فتاة الجزيرة»، أشهر صحيفة في عدن، وكان له دور كبير في تأييد حركة الأحرار اليمنيين من قبل ومن بعد ثورة 48 الدستورية، وكان يعرف أن الزمن قد تجاوز مرحلة «عدن للعدنيين»، والدعوة للحكم الذاتي لعدن. وتعرّفتُ على قيادة الناصريين، وأهمهم طه مقبل، وكان أكثر المتفهمين لأوضاع حركة الأحرار، وزرتُ الأستاذ عبد الرحمن جرجرة في مكتب صحيفة «النهضة». وكان من أهم العناصر التي تعرّفتُ عليها الأستاذ الأخ محمد مسواط، والأخ محمد عبده نعمان، وكانا يمثلان الجبهة الوطنية الداعية لوحدة النضال ضد الاستعمار في جنوب اليمن، وضد حكم التخلف الإمامي في شمال اليمن، ويؤيدون وحدة اليمن شمالا وجنوبا، وقد أيدّتُ، وتعاونتُ مع عناصر هذه الجبهة.

هذه الجولات كانت للاستكشاف ومعرفة القوى في عدن، وقد فكّرتُ بعدها أن أحاول تحويل الاتحاد اليمني إلى جبهة تضمُّ القوى التي تدعو إلى وحدة النضال

ضد الاستعمار وضد الإمامة، أو كما كان يعبّر عنه نعمان الابن: «تحرير اليمن المحتل واليمن المختل». ولم تكن لديّ فكرة عن الاختلافات، أو على الأصح الخلافات بين هذه التيارات، وكلها تقريبا لها ارتباطات بقوى خارجية قومية أو أممية يسارية، ولذلك ألغيتُ فكرة تحويل الاتحاد اليمني إلى جبهة، وقرّرتُ السعي لتكوين قاعدة جماهيرية للاتحاد مع بقاء قاعدته المرتبطة بالنعمانيين، وبقيت علاقتي بنعمان الابن قائمة، ولكنها كانت فاترة.

وخلال هذه الفترة اقترح عليّ الأستاذ عبد اللّه الأصنج الذي كان يتولّى رئاسة صحيفة «العمال» الناطقة باسم المؤتمر العمالي أن أكون مديرا لتحرير الصحيفة، ووافقت بسرور ولكني اكتشفتُ أنني مدير التحرير والتصحيح، وفني الإخراج، ومدير التوزيع، والمحاسب، وأمين الصندوق! وتحمّلتُ هذا؛ لأنني كنتُ حريصا على التواجد والانتساب للمؤتمر العمالي. ومن حُسن الحظ أن الأخوين: صالح الحبشي وأحمد حيدر مرّا على إدارة الصحيفة، واستقطباني في حزب البعث العربي الاشتراكي، وكان هذا بداية لتعاون نفعني في تجهيز صحيفة «العمال»؛ أما الأستاذ الأصنج، رئيس التحرير فكان يكتفي بكتابة الافتتاحية، ويترك لي القيام بالباقي، دون أن أنشر أي شيء باسمي؛ لأنني في نظر السلطات الاستعمارية أجنبي، يمكن أن تطردني من عدن في أي وقت، وكانت مطبعة الصحيفة من عهد السلطان سليمان الفاتح «القانوني»، قديمة تحتاج إلى «صبر أيوب»!

وخلال عملي في صحيفة «العمال» تمكّنتُ من عقد لقاءات مع عدد من قيادات وقواعد النقابات العمالية، ومنها نقابة المصافي أو نقابة البترول، وكان رئيسها حينذاك الأخ محمد سعد قباطي الذي اخترته وزيرا للمغتربين، في أول حكومة تشكّلت عقب ثورة 26 سبتمبر 1962 .

خلال هذه اللقاءات تمكّنّا من إقناع مئات من العمال والمتعلمين المستنيرين منهم بالانتساب إلى الاتحاد اليمني، وكنتُ والأخ عبد الرحمن الحكيمي، نزكّي كل منتسب، بعد أن نقنعه بدفع اشتراك ثلاثة أشهر، أو ستة أشهر، أو اشتراك عام كامل، حسب إمكانات كل عضو. وقمنا بتشكيل عدة فرق رياضية، وزوّدناهم بعدد

من كرات القدم، كما تبرّع لهم الأخ المناضل محمد علي الأسودي رئيس الاتحاد اليمني حينذاك بخمسين بدلة رياضية، وكنا نجلس معهم جلسات توعية وإعداد للدفاع عن الثورة ضد الإمام إذا قامت. كما قمنا بشراء عشرة بنادق برصاص الريشة من النوع الذي يكون لدى الأطفال أو الرجال في ساحات الأسواق، وقد جرّبتُ ذلك بنفسي مرارا ووجدتُ أنها فعلا تعلّم المستخدم لها على استخدام البندقية النارية، ووزعناها على الفرق الرياضية، للتمرّن عليها. كنا نعمل كل هذا بهدوء، وبشبه سرّية؛ خوفا من رد فعل النعمانيين في الاتحاد، كما كنا ننصح من نقنعه بالانتساب إلى الاتحاد اليمني بأن يشترك، ويحصل على بطاقة العضوية، ويغيب حتى يُستدعى.

ويبدو أن الأستاذ نعمان بعد إبعاده من عدن إلى القاهرة كان يرى إغلاق الاتحاد اليمني في عدن، لأسباب كثيرة، أقلها أن الاتحاد اليمني في القاهرة كان يُعتبر فرعا للاتحاد اليمني في عدن، برغم أن زعيم الأحرار الزبيري يشرف على الاتحاد في القاهرة، وحتى بعد انضمام النعمان إلى الزبيري ظلَّ الاتحاد في القاهرة فرعا للاتحاد في عدن. ولذلك أرسل الأستاذ نعمان ابنه محمد إلى عدن الذي حاول السيطرة على الاتحاد في عدن من جديد، وحصلت خلافات داخل الهيئة الإدارية التي كان يرأسها الأخ محمد علي الأسودي، وكان أمينها العام علي محمد الأحمدي. واشتد الخلاف وتدخلت شخصيات بارزة ممن أسسوا الاتحاد، وعلى رأسهم الأخ عبد القادر أحمد علوان، وبعد مشاورات ومحاورات اتفق الجميع على دعوة الجمعية العمومية للاتحاد، لانتخاب الهيئة العامة والهيئة الإدارية، واقترح رئيس الاتحاد الأسودي نشر إعلان في صحف عدن، يدعو جميع أعضاء الاتحاد لتسديد اشتراكاتهم خلال شهر من تاريخ الإعلان.

ويدعو الإعلان جميع أعضاء الاتحاد اليمني الذين سدَّدوا اشتراكاتهم للاجتماع يوم الأربعاء 13 يوليو 1961، لاتخاذ قرار في تقرير الهيئة الإدارية الحالية، وانتخاب هيئات الاتحاد الجديدة. وكان النظام الأساسي للاتحاد ينصُّ على أن يكون للاتحاد ثلاث هيئات: الأولى الجمعية العمومية، والثانية الهيئة العامة، والثالثة الهيئة، الإدارية المنتخبتين من الجمعية العمومية. وقد نُشر الإعلان في الصحف بتوقيع الأمين العام علي محمد الأحمدي، ويبدو أن النعمان الابن أحسَّ بأن هذه

الانتخابات لن تكون كما يريد، وفي الموعد المحدد لاجتماع الجمعية العمومية وإجراء الانتخابات قام رئيس الاتحاد بإقامة سرادق أمام دار الاتحاد، واقترحنا عليه أن يكون في السرادق ألف كرسي أمام المنصة، وكانت الجمعية العمومية في العادة لا تزيد على مئة وخمسين إلى مئتي عضو، وتم إعداد السرادق بشكل ممتاز.

وكنا قد نبّهنا المئات ممن انتسبوا إلى عضوية الاتحاد من قبل، وهم عناصر مثقفة ومستنيرة نقابيين ومعلمين وعناصر بعثية، وعناصر يسارية، وعناصر ناصرية، بضرورة الحضور إلى سرادق الانتخابات، ابتداء من الساعة الرابعة بعد العصر في ذلك اليوم؛ لأن افتتاح الجلسة سيبدأ الساعة الخامسة، وذهب كل في حاله، وبقي في السرادق بعض المكلّفين بتنظيم الاجتماع.

الصراع على الاتحاد اليمني

قبل موعد الاجتماع بأربع ساعات كان الأخ محمد نعمان الابن قد ذهب إلى المقاول سلام علي عوض، واتفق معه على جمع قرابة ثلاثمئة عامل أو أكثر من عمال البناء، وجلبهم بسيارات إلى سرادق الاتحاد أمام دار الاتحاد، واحتلال السرادق. وكانت هذه المفاجأة غير متوقعة، وقد حضر رئيس الاتحاد وحضر معه أعضاء من الهيئة الإدارية، منهم الأخ عبد الرحمن عبد اللّه الحكيمي، وكنتُ معهم، وقد كلّفنا مجموعة بالتحرك وإحضار النقابيين والعناصر المنتمية إلى الاتحاد، وحضروا إلى السرادق، وأنذروا عمال البناء وطلبوا منهم مغادرة السرادق، ولكنهم رفضوا. واتصل رئيس الاتحاد بالبوليس، وحضر على سيارات البوليس عدد من الضباط والجنود ثم حضر قائد البوليس الإنجليزي، وأوعزنا لأصحابنا ألا يثيروا أي شغب، وقام قائد البوليس بسؤال عمال البناء: من أنتم؟ فقالوا: نحن عمال المقاول سلام علي، وسألهم: هل أنتم من أصحاب دار الاتحاد اليمني؟ فقالوا: لا، «احنا عمال بناء».

– ولماذا أتيتم إلى هذه السرادق؟ –قالوا: قالوا لنا نأتي نحتله! وأمرهم قائد البوليس بمغادرة المكان، وتناول مفتاح الدار من رئيس الاتحاد، وأغلقها، وأمر بعدم دخول أحد فيها، وإزالة السرادق من الشارع، ثم أعاد المفتاح لرئيس الاتحاد.

وقد تشاورنا -وقوفا- ماذا نعمل؟ وتم الاتفاق أن ننقل السرادق إلى نادي الأحكوم الذي كان رئيسه الأخ عبد الرحمن الحكيمي معنا، وأن نكتب عدة إعلانات بارزة قلنا فيها: «نتيجة لظروف سيئة، تم نقل مقر الاجتماع والانتخابات إلى نادي الأحكوم، وعلى أعضاء الاتحاد الوصول إلى نادي الأحكوم على سياراتهم، أو على الحافلات الموجودة أمام دار الاتحاد». وكان رئيس الاتحاد قد استأجر خمس حافلات، لنقل الأعضاء الذين ليس لديهم سيارات، وأبقينا عددا من الأعضاء لتوجيه الأعضاء القادمين إلى نادي الأحكوم.

وفي المساء كانت المفاجأة لرئيس الاتحاد نفسه، فقد حضر أكثر من ألف عضو، كلهم يحملون بطاقات العضوية، وسند تسديد الاشتراك لثلاثة أشهر أو سنة، وأكثريتهم ممن أقنعناهم بالانتساب إلى الاتحاد، وقد طلب مني رئيس الاتحاد أن ألقي كلمة افتتاحية، ولكني اعتذرت، خوفا من تسفيري من عدن. وقام الأخ عبد الرحمن الحكيمي بافتتاح الاجتماع بعد تلاوة آيات من القرآن الحكيم، ثم ألقى رئيس الاتحاد تقريرا أمام الحاضرين، لكنه بدا خطابا أكثر مما هو تقرير. وبعد ذلك طلب رئيس الاتحاد إجراء انتخابات لرئيس الاتحاد والأمين العام وأعضاء الهيئة العامة، وأعلن رئيس الاتحاد استقالته، واستقالة الهيئة الحالية، وتكوّنت لجنة للانتخابات، وكان هناك إجماع على بقاء الأسودي رئيسا للاتحاد، برغم محاولته التنحي لرئيس جديد. وثم تمت انتخابات الهيئة الجديدة وكانت كالتالي: محمد علي الأسودي- رئيسا، ومحمد عبد الوارث- أمين مال. وقد فاز بعضوية الهيئة الجديدة للاتحاد اليمني: أمين أحمد محمد- عبد الجبار أحمد حيدر- سعيد محمد علي- حمود راوح- عبد الرحمن الحكيمي- أمين عبد الرحمن الأسودي -ناصر قائد- عبد السلام سعيد -محمد حميد فارع- محمد عبد اللّه الفسيّل-صالح عبد اللّه الحبشي- خالد عبده علي- علي سعيد مسواط- علي عبد العزيز نصر- يحيى عوض- طه الفتيح.

وفي اليوم التالي تم نشر خبر اجتماع الجمعية العمومية للاتحاد اليمني في نادي الأحكوم، واستقالة الهيئة الحالية، وانتخاب الهيئة الجديدة، ونُشرت أسماء الهيئة الجديدة في الصحف. وقد حصل تعديل بسيط في مناصب الاتحاد؛ إذ أصبح الأخ

عبد الرحمن الحكيمي الأمين العام للاتحاد. وفي الوقت نفسه تم إبلاغ الجهة الرسمية في حكومة عدن، وتسليم محضر الاجتماع وأسماء الهيئة الجديدة للاتحاد، وتم اعتماد ذلك رسميا. وكان باب دار الاتحاد لا يزال مغلقا، ومفتاحه لدى رئيس الاتحاد الأسودي، وقرّرنا أن يتم فتح الدار يوم الجمعة 14 يوليو لعقد 1961، لعقد الهيئة المنتخبة أول اجتماع لها.

أتذكّر أننا دعونا أكثر من ثلاثمئة عضو للحضور والتواجد في دار الاتحاد، لمواجهة ما قد يُدبره نعمان الابن ومن معه، وفي الساعة الثانية والنصف بعد صلاة الجمعة قمنا بفتح الدار، واجتمعت الهيئة الإدارية المنتخبة، وتواجد في ردهات الدار أكثر من ثلاثمئة عضو، وبلغ النعمانيون ذلك، فاستدعوا شيخ الأحرار المناضل عبده محمد الدحان، ومعه شخصية كبيرة محترمة من المؤسسين للاتحاد عبد القادر أحمد علوان وآخرين، وعند وصولهم وجدوا الدار مملوءة بأعضاء من المستنيرين والمثقفين والمعلمين والنقابيين وأعضاء الهيئة الإدارية، واستقبلهم رئيس الاتحاد والأمين العام، والهيئة الإدارية، مرحّبين، وشرحوا لهم الموقف، واجتمعنا بهم في الردهة الرئيسية.

وألقى الأخ عبد القادر علوان كلمة حيّا فيها الحاضرين، وحيّا فيها رئيس الاتحاد، والهيئة الإدارية الجديدة، وأكد أن الاتحاد اليمني اتحاد اليمنيين جميعا، ولكن لا ينبغي أن تكون بين أعضائه خلافات، ودعا إلى ضرورة التفاهم، وحلّ الخلافات بالحوار الأخوي. فقمتُ وخاطبتُ الشيخ عبد القادر ومن جاء معه قائلا: أنتم آباؤنا وزعماؤنا الأحرار من قبل ثورة 48 الدستورية وحتى اليوم، وقد آن الأوانُ أن تكون لحركة الأحرار، ولهذا الاتحاد الذي أسستموه بعد كل التجارب التي مررنا بها قواعد جماهيرية، تدعم حركة الأحرار إذا تحوّلت إلى ثورة جمهورية، تنقذُ اليمن من حكم الطغيان والتخلف، ثم خاطبتُ الجموع طالبا منهم إبراز بطاقة عضوية كل منهم في الاتحاد وسند دفع اشتراكه رافعا يده بهما. ثم طلبتُ منهم أن يهتفوا معي: أهلا بآبائنا الأحرار.. أهلا برجال «الجمعية اليمنية الكبرى» القديمة.. أهلا برجال الاتحاد اليمني الجديد.. عاش رئيس الاتحاد محمد علي الأسودي. وردّد المئاتُ

بعدي هذه الهتافات، ثم التفتُّ إلى المناضل دحان قائلا له: يا زميل الدرداح في ذمار، وزميل سجن نافع الذي قال فيك الشهيد زيد الموشكي:

ودحـــــان ســـــائله عن أصله

فـــإن به نزعـــة من عـــمـــر

نحن أبناؤكم، فدعوا لنا فرصة نجدّد الحركة الوطنية، وننطلق من «القُمقُم» المغلق إلى الجماهير الحرة. ادعمونا معنويا، وادعموا من شئتم بأموالكم إننا- كما ترون- مجموعة مختارة من المثقفين، والمستنيرين، والأساتذة المعلمين، والنقابيين، إننا أبناؤكم الذين يحملون منكم مشعل الحرية وراية النضال. وضجت الدار بالتصفيق والهتاف: تحيا الحرية والأحرار، في تلك الأثناء، قام الدحان وكان قد جاوز السبعين من العمر. وتلفت يمينا وشمالا ثم قال: إذا كنتم أبناءنا فدعُوا لنا فرصة لحل الخلاف، وبعدها نحن معكم. فقال له رئيس الاتحاد: ليس لدينا أحب من حلّ الخلافات، وقد حاولنا ذلك من قبل؛ أما الآن فقد تم انتخاب هيئة عامة جديدة للاتحاد، وكانت قبل وصولكم تعقد أول جلسة لها، وقد تم إعلانها في الصحف وتسجيلها في الجهات المختصة لحكومة عدن، وتجديد رخصة الاتحاد لديها، فحاولوا حل الخلافات بطريقة، لا تتناقض مع واقع الاتحاد بهيئته الجديدة، ونفوضكم الاتصال بالجانب الآخر.

وكان نعمان الابن ومن معه يعتقدون أن إغلاق باب دار الاتحاد هو إلغاء للاتحاد، وبهذا يتحقّق هدفهم في إلغاء الاتحاد في عدن، لحساب الاتحاد اليمني في القاهرة تحت سلطة النعمان الأب. وعندما بلغهم فتح دار الاتحاد واجتماع الهيئة المنتخبة فيه سارعوا إلى عقد اجتماع لعدد قليل ممن معهم في «جراج» عمارة السقاف بالمعلا، وقرّر النعمان الابن التواري وراء علي محمد الأحمدي، وشكلوا هيئة الاتحاد منهم، وأعلنوا عنها، وحاولوا تسجيلها رسميا في الجهة الحكومية المختصة التي ردَّت على طلبهم بأنه قد سُجلت من قبل هيئة للاتحاد برئاسة الأسودي، وعلى الأحمدي اللجوء إلى القضاء. وقد رفع الأحمدي قضية ضد رئيس الاتحاد وهيئته، واستمرت القضية في المحكمة نحو أربعة أشهر.

وخلال هذه الفترة لم تنقطع علاقتي بالأخ محمد نعمان الابن، وبمن أعرفهم من أنصاره، وكنا نلتقي ونتناقش لساعات في مواضيع شتى. وذات يوم جرى بيني وبينه حوار مضمونه بأكثر عباراته فيما يلي، قلتُ له: يا أخي إنك طاقة هائلة من الذكاء والقوى الكامنة، والقدرة على العمل، وحشد قدراتك هذه في خلافات تافهة خسارة عليك وعلى الوطن كله، فلماذا لا تنتهي هذه الخلافات، ونوجّه كل جهودنا وطاقاتنا لحشد كل قوى الشعب ضد الإمام، وتفجير ثورة جمهورية تحل محل الطغيان الإمامي؟ إن الثورة ضد الاستعمار في الجنوب لن تكون إلا بعد ثورة جمهورية في الشمال. قال: أنتم الذين أثرتم هذه الخلافات، وحاولتم أن تتجاوزونا. قلتُ له: أنت تعرف أن خلافاتنا من قبل ثورة 48 الدستورية كانت على أسلوب العمل، وخلافتنا الآن هي الخلافات السابقة نفسها، والفرقُ بينهما، أننا كنا نختلف على من يستقطب المدكنين «التجّار»، وهؤلاء كانوا شعبنا وشعبكم، ولكنهم ظلوا شعبكم حتى اليوم، وقد وجدنا لنا شعبا آخر في الجماهير المنظمة في هيئات وغير المنظمة، وقد تركنا شعبكم لكم وبقينا نحترم شعبكم، ولا ننازعكم فيه، وما يتبرّعون لكم من أموال لا نلومهم، ولا ننازعكم، فتلك الأموال أموالهم، وهم أحرار فيها.

لقد تركنا لكم شعبكم، فتعالوا معنا نتعاون على تنظيم شعبنا، الجماهير الشعبية القادرة على إشعال الثورة، تعال يا أخي إلى شعبنا وستجدني جنديا من جنودك، ولنترك شعب «المدكنين» لزعيم الحركة الوطنية وصانعها والدك العظيم، ولا شك أن شعبكم سيكونُ له دور كبير في تنمية الثورة، لا في تفجيرها. قال: هل تخادعني بهذا بعد أن عملت ضدنا ما عملت؟ قلتُ له: يا أخي أنت أذكى من أن تُخدع، وقد اكتشفت أن أفراد الجماهير باشتراكاتهم وتبرعاتهم المحدودة جدا أعظم بمئات وآلاف المرات من الآلاف المؤلفة التي يتبرع بها التجّار. تعال إلى جماهير شعبنا لتكتشف قوة اليمن الحقيقية، ودع شعب «المدكنين» لوالدك، وفي إمكانك أن تضمَّ شعبكم إلى جماهير شعبنا، فذلك أقرب للتقوى، أو أقرب للثورة. قال: يا عزي إن والدي الأستاذ كان يحترمك ويصبر عليك؛ لأنك كما كان يقول صادق لا تخادع، ولكني هذه المرة اكتشفت أنك مخادع ومتآمر. قلتُ له: يا أيها

الطاقة البشرية الهائلة.. تذكّر أنني حاولتُ معك مرارا، لكي أقنعك بالتعاون، لتحويل الاتحاد اليمني إلى حزب جماهيري يشارك في «ثورة التغيير الجمهورية»؛ ولكنك سخرت مني، ولم تستوعب ما حدث من تطور في وعي الجماهير المنظمة وغير المنظمة هنا وفي الشمال. قال: اسمح لي أن أسألك مستفسرا، لا مستنكرا: ما فائدة هذا الذي عملتموه وتعملونه؟ قلتُ له: هل تذكر عبد السلام عمر؟ قال: طبعا قائد الفدائيين كما كانوا يسمّونهم. قلتُ له: هو، هو. لقد أتى إلى والدك الأستاذ وهو في مكتب بإسطبل مطبعة النهضة، وكنتُ موجودا في المكتب، وقال للأستاذ قبل قيام ثورة 48 الدستورية: يا أستاذي لديَّ فكرة في ضرورة تنظيم خلايا شعبية في شكل فرق رياضية، ندرّبها ونوعّيها، ونعلّمها استخدام السلاح لتحميكم عند اللزوم؛ ولكن الأستاذ سخر منه كما سخرت أنت مني الآن، وقال له: يا ولد عبد السلام، نحن رجال سلم وكلام، سلاحنا الأقلام، والله هو الحامي لنا ولكم، وأنصحك أن تبحث لك عن عمل ينفعك.

وخرج من مكتب الأستاذ وخرجت معه، فقال لي: ستذكرون ما قلته لكم في يوم من الأيام وتندمون حين لا ينفع الندم، وذهب ودرّب أربعين شخصا، وأوجد لبعضهم بنادق سلاح ناري، وعندما قامت ثورة 48 الدستورية وتوجّهنا إلى تعز كان عبد السلام عمر يقود أربعين شابا مدربا، كانوا كل قوة الأستاذ، وأطلقوا عليهم اسم الفدائيين. وأنا أقول لك الآن: إننا نستطيع أن نجد المئات؛ بل الآلاف لدعم الثورة الجمهورية القادمة، فتعال نتعاون.

وفي جلسة أخرى- وكان معنا الأخ علي محمد الأحمدي والأخ محمد علي الأكوع- قلتُ لهم: لديَّ اقتراح ربما ينهي الخلافات وتلتئم اللحمة، قال الأخ نعمان الابن: ما هو الاقتراح؟ خديعة جديدة؟ قلتُ له: لماذا تستبق رفض الاقتراح؟ هل تريدون حلّ الخلاف؟ أم تريدون إغلاق الاتحاد؟ قال الأحمدي: نريد حل الخلاف. قلتُ لهم: إن الوضع في الاتحاد قد صار وضعا شرعيا، ولا مجال لتغييره، ولكن يبقى الخلاف قائما، واقترح أن أحاول إقناع رئيس الاتحاد وهيئة الاتحاد الإدارية بتشكيل هيئة الحكماء الاستشارية للاتحاد، وتضم الإخوة: محمد أحمد نعمان، الابن-

محمد علي الأحمدي- محمد أحمد شعلان- عبده محمد الدحان- عبد القادر علوان- محمد سعيد مسواط- محمد عبده نعمان- محمد سعد قباطي. فإذا قبلتم الاقتراح فلن نختلف حول اختصاصاتها، ولكن محمد نعمان رفض الاقتراح؛ لأن الهيئة الإدارية أو العامة غير شرعية في نظره، وهكذا بقي الخلاف قائما.

واستمرت القضية لدى المحكمة بين الأسودي والأحمدي، وفي آخر عام 1961 نصح القاضي الطرفين بحل الخلاف وديا، وأعطى لهما مهلة ثلاثة أشهر، ويبدو أن الأحمدي شعر بأن قضيته خاسرة، فحاول الأسودي إقناعه بأن الاستعمار يريد تفتيت العرب في عدن لإضعافهم حاليا وفي المستقبل، وسافر نعمان الابن ومحمد علي الأكوع إلى القاهرة، وتلاشت معارضة وضع الاتحاد الجديد، وجاء الأحمدي إلى الاتحاد، وقابل الهيئة الإدارية الجديدة واعتذر، وأصبح متعاونا معها. وكان نشاط الاتحاد في هذه الفترة وما بعدها حتى قيام ثورة 26 سبتمبر 1962 وإعلان الجمهورية نشاطا فعالا في جميع المجالات، وقد عاد نعمان الابن مرة أخرى إلى عدن، وظلت علاقتي به مستمرة برغم الخلاف.

تلك كانت أحداث الخلافات في إطار الاتحاد اليمني بعد أن رويتُها كما عشتها وعايشتها. وعند كتابتي لهذه الذكريات عدت إلى كتاب الأخ علي محمد عبده «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين» وهو أحد المناضلين الأحرار، وبرغم أنه يساري شيوعي، إلا أنه متشيّع للأستاذ نعمان وابنه ومن معه، وما كتبه كله من هذا المنطلق، يعبّر تعبيرا عن ذلك التشيع بالحق وبالباطل، وفي صفحة 240 وما بعدها من كتابه ذكر أحداث الخلاف ذكرا يتنافى مع ما حدث، ويُعتبر أكثره -إن لم أقل كله- اختلاقا لا أساس له من الصحة. فقد ذكر أن السلطات البريطانية أبعدت محسن العيني من عدن في يناير1961 يوم الجمعة 20 يناير 1961، وبعد إبعاده بشهور وصل إلى عدن محمد عبد اللّه الفسيّل 25 مارس 1961، وحسن السحولي، هاربين من سجن نافع، وفي عدن حلَّ محمد عبد اللّه الفسيّل محل محسن العيني في التأثير على بعض النقابيين والتسيير للحركة العمالية، ومحمد عبد اللّه الفسيّل من أقدر الناس على تحريك الشارع، وجرّ الجماهير وراءه. وذكر-خطأ- أن الصراع بين

المؤيدين لكلية بلقيس والمؤيدين لدعم مشايخ خولان بلغ ذروته في منتصف عام 1961، وأنني كنتُ من المؤيدين لدعم المشايخ، ولا شك أن هذا خطأ؛ لأن الصراع كان في عام 1960، وأنا في سجن نافع، وليس في1961 . وقد عاد مشايخ خولان وعلى رأسهم الزايدي والغادر والرويشان وغيرهم إلى الإمام في شهر فبراير 1961 قبل وصولي إلى عدن، وبهذا يكون الخلاف قد انتهى لصالح رأي الأستاذ نعمان قبل إبعاده من عدن في 26 يونيو 1960، ولصالح كلية بلقيس.

عندما وصلتُ إلى عدن في 25 مارس 1961، وبلغني ما حدث من صراع في عام 1960 حول الموضوع كنتُ مع رأي الأستاذ نعمان ومن معه، وضد رأي الأستاذ الزبيري ومن معه، إلا أن هذا مجرد رأي لأحداث كانت قد انتهت، وقد تحدّثت عن هذا مع الأخ محمد نعمان، الابن كما سبق؛ لأن الأحداث بعد عودة الإمام من روما وخطبته النارية، وفرار مشايخ القبائل الموجودين في صنعاء من سور صنعاء لا من أبوابها قد أقنعني بأن نفوذ المشايخ على قبائلهم ضعيف. صحيح أن التقاليد القبلية تُبقي للشيخ وجاهة تمكّنه وقت أحداث «الفيد» من تحريك أفراد قبيلته لصالح الدولة أو ضدها، مقابل دعم بالمال والسلاح؛ إما من الدولة، وإما من جهة أو دولة خارجية؛ أما تحريك القبائل ضد الدولة لحماية الشيخ فقد أثبتت الأحداث عكس ذلك؛ إذ تخلّت قبيلة حاشد عن شيخها حسين ناصر الأحمر وابنه حميد اللذين قطع الإمام رأسيهما في حجة، وزج بالابن الأصغر عبد اللّه بن حسين الأحمر في سجن وشحة وهدم بيوتهم، وقطع رأس الشيخ عبد اللطيف بن قايد بن راجح الخولاني، وتخلّت خولان عن شيخيها: الغادر والزايدي، وتخلّت نِهْم عن شيخها سنان عبد اللّه أبو لحوم.

ولذلك فإن تحمس الشهيد الزبيري حينذاك لجمع أربعين ألف ريال لمشايخ خولان؛ ليتمكّنوا بها من إشعال ثورة ضد الإمام فكرة خاطئة؛ لأنهم لن يُشعلوا إلا ثورة خيالية، وكان في إمكانهم تحريك تمرد دفاعي إذا دعمتهم بريطانيا بالمال والسلاح، وبالملايين لا بآلاف الريالات. وتأكيدا لرأيي هذا حصل بيني وبين صديقي الشيخ سنان أبو لحوم في عدن ممازحة في شهر يناير 1962، فقد قلتُ له: «لو

كانت قبائلكم معكم ما هربتم من سور صنعاء بمجرد سماعكم خطبة الإمام». وقد ذكر الشيخ سنان ذلك في مذكراته (المجلد الأول، ص 300). والغريب أن الأخ علي محمد عبده ذكر أنني كتبتُ عدة رسائل للأستاذ نعمان إلى القاهرة، لإقناعه بدعم مشايخ خولان بعد أن عادوا إلى الإمام قبل وصولي عدن، مع أنني لم أكتب أي رسالة للأستاذ نعمان خلال بقائي في عدن، لا حول الموضوع ولا غيره، ولو كان هذا صحيحا لزوّده بصور منها كما هي العادة.

وحول موضوع الاستيلاء على دار الاتحاد اليمني، ذكر الأخ علي محمد عبده أنني مع عناصر من البعثيين المؤيدين لمشايخ خولان، قمت بالاستيلاء على دار الاتحاد، وأنني مهّدتُ لذلك بسلسلة مقالات نشرتها في صحيفة «الأيام»، ورد عليها في صحيفة «اليقظة»، وهذا خطأ آخر؛ لأن هذه المقالات كانت ضد سيطرة نعمان الابن على الاتحاد اليمني لمصالحه الشخصية على حساب حركة الأحرار، ولا علاقة لها بكلية بلقيس أو ثورة خولان. ويستمرّ الأخ علي محمد عبده في سرد أحداث لا أساس لها من الصحة، في كتابه «لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين»، ص 40–44، أما الحقيقة فهو ما شرحته أنا سابقا بكل صدق وأمانة.

خلال هذه الفترة كانت الخلافات بين الرئيس جمال عبد الناصر وحزب البعث في سوريا قد وصلت إلى قمتها في منتصف عام 1961. ووجدتُ نفسي مع البعثيين في عدن نقضي أكثر وقتنا في تأييد حزب البعث السوري ضد عبد الناصر، ونتصارع مع الناصريين والقوميين العرب في عدن، وفي اجتماع خليتي قلتُ لهم: إننا لا نستطيع أن نؤثر سلبا أو إيجابا فيما يدورُ بين البعث وعبد الناصر في الجمهورية العربية المتحدة، وانشغالنا بذلك يصرفنا عن قضيتنا اليمنية، قضية النضال ضد تخلف الإمام، وتسلط الاستعمار، ويحرمنا من تعاون الآخرين معنا، ولذلك أطلب تجميد عضويتي في حزب البعث، وأنصحكم بتجميد أي نشاط حول الخلاف داخل دولة الوحدة المصرية السورية.

وتدخّلت قوى إقليمية على رأسها السعودية وإسرائيل، وقوى دولية في ذلك الصراع الذي انتهى بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في 18

سبتمبر 1961، ليصبح اسم مصر بعد فترة: جمهورية مصر العربية، وحصل انشقاق في حزب البعث، ولذلك اجتمعت عناصره في عدن وناقشت الوضع، وبرغم أنني كنتُ قد جمدتُ عضويتي في حزب البعث، إلا أن البعثيين ظلّوا يتعاملون معي كعضو، وفي تلك الاجتماعات اقترحتُ عليهم الابتعاد عن أي نشاط يتعلق بالانفصال، وقلتُ لهم كما أذكر ما مضمونه: إن وحدة مصر وسوريا تحقّقت في زمن غير مناسب، وبشكل غير مناسب، وفي ظروف غير مناسبة، وتحقّقت في زمن كانت مصر فيه تُحكم حُكما عسكريا لا مدنيا، وهذا يجعل دولة الوحدة محكومة بسلطة عسكرية لا مدنية، وتحقّقت بشكل اندماجي غير مناسب؛ لأن الأنسب أن تكون وحدة اتحادية لا اندماجية، وتحقّقت في ظروف غير مناسبة. كان حزبُ البعث فيها يقدّر حدوث انقلاب يساري أو ماركسي في سوريا، ولذلك اندفع بكل قوة لتحقيق الوحدة الاندماجية مع مصر عبد الناصر، المعتمد في حكمه على أجهزة المخابرات، لتحقيق الوحدة العربية من خلال طموحاته الذاتية، لا من خلال مبادئ شعار القومية والوحدة، ويتحمّل حزبُ البعث مسؤولية كبيرة في تحقيق الوحدة بشكل غير مناسب، وفي تحطيم الوحدة بأسلوب انقلابي مفجع، يبدو وكأنه خروج عن مبادئه.

محاولة اغتيالي في عدن

في بداية شهر مارس 1962 تلقينا أخبارا عن طريق محمد نعمان بأن الإمام كلّف علي عبد القادر معتمده في الحديدة أن يرسل من يغتال ثلاثة أشخاص في عدن هم: محمد أحمد نعمان، وأحمد عبد الرحمن المعلمي، ومحمد عبد اللّه الفسيّل.

وقد استدعاني عبد الصمد مطهر، وهو تاجر كبير في عدن، وممن يدعمون النعمانيين، وأكد لي خبر إرسال من يغتالنا، وكان معي كتاب «اليمن داؤها.. ودواؤها» الذي ألّفته بالاشتراك مع صديقي المعلمي في سجن قاهرة حجة عام 1953، فطلبتُ منه طبع الكتاب، ولكنه اعتذر، وكانت كل القوى الوطنية في عدن

تحتفلُ بذكرى تأسيس «جامعة الدول العربية»، التي تأسست في 22 مارس 1945، وذهبنا في المساء إلى سرادق مهرجان الذكرى أنا والمعلمي، ونعمان الابن، وربما كان معنا آخرون لا أذكرهم.

وعندما خرجنا من الاحتفال بهذه الذكرى مشينا الثلاثة: نعمان وبجانبه المعلمي، وأنا بجانب المعلمي نمشي، وإذ بياجورة كبيرة تضربني في «قذالي» وراء رأسي، وكانت الضربة عنيفة، ويبدو أن الذي رماها كان قريبا مني، فسقطتُ مغشيا عليّ والدماء تتدفق من جرحي، وتم إسعافي إلى المستشفى، وقام الطبيب بمعالجتي وخيّط الجرح الغائر في قذالي، ولا يزال أثره ظاهرا إذا حلقت الشعر الذي يغطيه. فمن حاول اغتيالي؟ هذا لا يزال سرا لا أعرفه.

وقد سافر أحمد عبد الرحمن المعلمي إلى نيروبي في ضيافة الرجل الشهم محمد الوريث، وسافر محمد نعمان الابن ومعه محمد علي الأكوع إلى القاهرة، وبقيتُ في عدن. وبعد وصول المعلمي إلى نيروبي كتب لي رسالة يقول فيها: غادرتكم وأنا القاضي العلامة، والأديب الفهامة، والشاعر العبقري، والكاتب النحرير، ووصلتُ إلى نيروبي ووجدتُ أن كل هذه الألقاب الطنانة لا تسقيني شربة ماء!

ومرّت الأيام والليالي وأنا أزاول نشاطي في المؤتمر العمالي وفي غيره، وكان لي دور في إقناع البعثيين في عدن أن يجمّدوا نشاطهم في تأييد الحزب في سوريا، وأن يحاولوا التفاهم مع الناصريين والقوميين العرب على تجميد الصراع حول هذا الموضوع، لأننا ننشغل عن قضايانا بقضية رغم أهميتها، لن يكون لنا أيّ أثر سلبي أو إيجابي، وعلى النقيض من ذلك، فهي تنعكسُ سلبا علينا في اليمن. وفعلا حدث تجميد لذلك الصراع في عدن ما عدا بعض الحالات الفردية، وقد صُدم الجميع في عدن وفي اليمن بمن فيهم البعثيون بانفصال سوريا عن مصر، في يوم 28 سبتمبر 1961، بل كان الانفصال أعظم صدمة تلقاها عبد الناصر ومصر وجميع العرب في كل مكان؛ لأن الوحدة كانت إرادة العرب جميعا، وكان عبد الناصر البطل الأسطوري الذي يحقق للأمة العربية الوحدة والعزة والتحرر، وقد فشل في أول تجربة فهل يستفيد منها.

أول خلاف خطير بين النعمان والزبيري

كان الاتحاد اليمني في القاهرة يعتبرُ نفسه فرعا للاتحاد اليمني في عدن، برغم أن زعيمه محمد محمود الزبيري في القاهرة، وربما جاء هذا الوضع بسبب حاجة الاتحاد في القاهرة إلى إجراءات قانونية معقدة، لو أنه طلب رخصة تأسيسه في القاهرة. وكان للاتحاد في القاهرة هيئة إدارية متفق عليها برئاسة الزبيري، وعضوية آخرين، وينتمي أكثر الطلاب اليمنيين إلى الاتحاد، وأقام رئيسه الزبيري صلات ببعض المهاجرين في السودان وغيرها، وبقيت صلته بمن في عدن قائمة. وحدثت حركة الثلايا، وتنازل الإمام أحمد لأخيه عبد اللّه في شهر مارس 1955 وفشلت الحركة، وما أعقبها من أحداث، وسافر البدر إلى السعودية في وفد لشكر المملكة على موقفها في دعم الإمام أحمد ضد حركة الثلايا وأخويه عبد اللّه والعباس. وكان ضمن الوفد الأستاذ نعمان الذي اغتنم الفرصة، واتصل بالسفير المصري في جدة، وكان حينذاك هو عبد الوهاب عزام، وطلب منه تسهيل سفره إلى القاهرة، وقد اتصل عزام بالرئيس عبد الناصر وعاد الرد خلال ساعات، وتم تجهيز كل شيء، وسافر الأستاذ نعمان إلى القاهرة في 8 أغسطس 1955، وفرّ ابنه محمد من تعز إلى عدن، وكنتُ قد فررتُ إلى عدن في هذه الفترة كما شرحت ذلك في مكان آخر.

وعند وصول الأستاذ نعمان إلى القاهرة في 8 أغسطس 1955، كان الاتحاد اليمني في القاهرة برئاسة الزبيري له هيئة إدارية غير متجانسة، كان الزبيري قد أثّر على أفرادها، فانضمَّ له بعضهم صادقا مثل المرحوم حسين المقبلي من ثوار 48 الدستورية، كما كان ممثل الإمام عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب الوزير المفوض قد انضمَّ إلى الزبيري، معاهدا الله أن يكون مع الأحرار من موقعه وزيرا مفوضا للإمام في المفوضية اليمنية، ولكنه استطاع كسب كل أعضاء الهيئة الإدارية تقريبا. وعندما وصل الأستاذ نعمان إلى القاهرة في 8 أغسطس 1955، كان الاتحاد اليمني شبه مجمّد من العمل، وكان مع الأستاذ مبلغ من المال، جمعه من مرتباته ومن الهبات التي حصل عليها في رحلته الأولى، ورحلته الثانية إلى السعودية. وكان في درج مكتب الزبيري رخصة منذ سنة، لإصدار صحيفة «صوت اليمن» دون أن

السيد إبراهيم بن علي الوزير

يتمكّن من إصدارها، ولكن الأستاذ نعمان استطاع إصدارها خلال أسبوع من وصوله، وتفرّغ عدة أيام لكتابة مئات الرسائل إلى المهاجرين الأحرار في أثيوبيا وكينيا والسودان وعدن وغيرها، وغيّر صندوق بريد الاتحاد وجاءته الاشتراكات والتبرعات للصحيفة.

وتم فتح «صوت العرب اليمني» من إذاعة صوت العرب من القاهرة، وأذاع الزبيري عددا من الرسائل المذاعة الموجهة إلى أبناء اليمن في الداخل والمهاجرين في الخارج. وتم تجميد الهيئة الإدارية للاتحاد، بحجة الانشغال بإصدار صحيفة «صوت اليمن» المقروءة والمسموعة، ولم يجد عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب الوزير المفوض وبقية أعضاء الهيئة الإدارية أمامهم إلا الانضمام إلى الإمام بعد أن تخلّى عنهم الزبيري والنعمان والمخابرات المصرية، وكان هذا هو الانشقاق الأول في الاتحاد عقب وصول الأستاذ نعمان إلى القاهرة، وأنا أعتبره تصحيحا للاتحاد، لا انشقاقا عنه؛ لأن وجود أكثر تلك العناصر في الهيئة الإدارية للاتحاد كان خدمة للإمام لا للاتحاد. وكان من ضمن من انضمّ إلى الإمام مع الوزير المفوض عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب الإخوة: أحمد الخزان وحسين المقبلي وعلي الجناتي وآخرون لم أعد أذكرهم.

وكان السيد إبراهيم بن علي الوزير وإخوانه زيد، ومحمد، وقاسم من الهاربين إلى القاهرة، وكان إبراهيم في هذه المرحلة يساريا ماركسيا، ولذلك تم ضمّه إلى منظمة السلام العالمية المدعومة من الاتحاد السوفيتي، ويقال إن أخاه زيدا كان مُنضمّا إلى حزب البعث في سوريا، وكان معهم الأخ محمد عبد الرحمن الرباعي من المثقفين اليمنيين، والأخ علي عبد العزيز نصر الشاعر والناشط الماركسي من تهامة، وأمين

هاشم من تعز. وكانوا يناصرون الاتحاد اليمني بزعامة الزبيري، فلما أتى الأستاذ نعمان الأب إلى القاهرة في 8 أغسطس 1955، وأصدر «صوت اليمن»، وانقلب عليه الوزير المفوض ومن معه، أظهر آل الوزير ومن معهم معارضة للاتحاد اليمني، وأنشأوا منظمة باسم «اتحاد القوى الشعبية» وهذا الاسم له دلالة التيار اليساري أو الماركسي. أما الانشقاق الخطير فكان خلال الفترة 1959–1960، فبعد إغلاق «صوت اليمن» وإسكات إذاعته في إذاعة «صوت العرب» عقب انضمام الإمام أحمد إلى حلف جدة بين الزعيم الثوري جمال عبد الناصر، رئيس مصر وبين الملكيين الرجعيين الملك سعود والإمام أحمد، قرّر الأستاذ نعمان القيام بجولة في المغرب العربي وأوروبا لاكتشاف مهاجر يمنية جديدة، وعاد منها إلى عدن في أوائل عام 1380هـ– 1960.

وفي هذه الفترة كان الإمام قد عاد إلى اليمن من روما بعد أحداث سحل القاضيين علي الجبري وأخيه في تعز، ونهب وحرق بيت العمري في صنعاء، وخطبة الإمام النارية في الحديدة، وفرار مشايخ القبائل من أسوار صنعاء، وإعدام الشيخ حسين بن ناصر الأحمر وابنه حميد، وعبد اللطيف بن قايد بن راجح الخولاني، وفرار مشايخ خولان، ومنهم علي بن ناجي الغادر وعلي بن علي الزايدي إلى بيحان في أواخر شهر ديسمبر 1959، وفرار مشايخ آخرين، ومنهم الشيخ النقيب سنان أبو لحوم، شيخ قبيلة نِهْم، وهو من أنشط مشايخ اليمن. في هذا الجو وصل الأستاذ نعمان الأب إلى عدن، من رحلة له في المغرب العربي وأوروبا، وكانت صلة الشيخ سنان أبو لحوم بالزعيم محمد محمود الزبيري قوية، وتكوّنت فكرة لدى مشايخ خولان، تقوم على تفجير ثورة شعبية خولانية ضد الإمام، بدعم مالي من الأحرار في الخارج، يبلغ أربعين ألف ريال فرانصي، وتحمّس الزبيري لهذا منفعلا بإعدام حسين الأحمر وابنه حميد وعبد اللطيف بن راجح.

ولكن الأستاذ نعمان الذي وصل إلى عدن عارض فكرة دعم مشايخ خولان، ودعا إلى بناء كلية بلقيس أو مدرسة بلقيس، وتلقّى تبرعات ضخمة لبناء الكلية، ورفض أي نقاش لموضوع دعم مشايخ خولان، بينما كان الزبيري مندفعا بكل قوته

لدعم مشايخ خولان، لتفجير ثورة تدمّر حكم الإمام والإمامة، بدلا من بناء مدرسة، وبلغ الخلاف بين الزعيمين الزبيري والنعمان إلى حدّ العداوة والقطيعة لأول مرة في تاريخ نضالهما الوطني. وقد تفرّغ الزبيري لكتابة الأحداث في كتاب سماه: «مأساة واق الواق» بأسلوب أدبي مؤثر ورائع، وهو إلى أسلوب «الرواية» أكثر من أسلوب التاريخ، وبعد كتابته لهذا الكتاب لم يجد من يطبعه، ورفض الأستاذ طبعه، ولم يفلح الزبيري في إقناع حسين الشرفي المؤيد للأحرار في السودان أن يطبعه، وبقي كتابه «مأساة واق الواق» الذي أودع فيه كل ما تفجر في فكره وضميره وكيانه كله من انفعالات بعد هزيمة الشعب كل الشعب أمام الإمام الطاغية وخطبته النارية وإعدام من أعدم، ولكن الزعيمين الصديقين الزبيري والنعمان حافظا على «شعرة معاوية» برغم بقاء علاقاتهما متوترة أو شبه منقطعة. خلال تلك الفترة، كنتُ في سجن نافع، وقد أبعدت السلطات الاستعمارية في عدن الأستاذ محسن العيني والأستاذ أحمد محمد نعمان من عدن إلى القاهرة، وكان الخلاف حول دعم مشايخ خولان، أو دعم بناء كلية أو مدرسة بلقيس قد انتهت بانتصار بناء الكلية، ولكن آثارها في فتور العلاقات بين الزعيمين الزبيري والنعمان ظلت باقية، وعندما وصلتُ إلى عدن هاربا من سجن نافع في 25 مارس 1961، وبلغني ما حدث من خلاف كنتُ مع رأي الأستاذ نعمان، لا مع رأي الزبيري، وقد قلتُ ذلك في حديثي مع نعمان الابن كما سبق.

السفر إلى القاهرة

خلال العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956 كانت ظروفي في عدن قد وصلت إلى مرحلة فرضت عليّ الانتقال من عدن إلى القاهرة، فقد بلغنا عن طريق نعمان الابن وبعض أتباعه بأن الإمام أحمد قد أرسل مجموعة تغتال نعمان الابن والقاضي أحمد المعلمي ومحمد عبد اللّه الفسيّل في عدن، واستدعاني مدير الشرطة في عدن، وأبلغني بذلك وبأنهم لا يستطيعون حمايتنا من الاغتيال، وقد سافر القاضي أحمد المعلمي إلى نيروبي، وقرّرتُ السفر إلى القاهرة، وقد زوّدني

نعمان الابن بجواز سفر يمني «مزوّر» باسم علي محمد المطري، وحصلت ملابسات عند السفر، كما وردت تفاصيلها في الفصل الخامس عشر، وتم سفري على باخرة الوجيه التي تنقل الحيوانات إلى السعودية.

وفي السعودية تم إلقاء القبض عليَّ من قبل السلطات السعودية وإعادتي إلى الإمام الذي أعادني مرة أخرى إلى سجن نافع في حجة، وذلك في شهر رمضان 1380هـ- 1961، كما وردت تفاصيل ذلك في الفصل الخامس عشر من مذكراتي.

الفصل السابع عشر
ما قبل ثورة اليمن الجمهورية

كانت إرهاصات الثورة تتفاعل في الداخل والخارج، وصاحب ذلك انفصال سوريا عن مصر في دولة الجمهورية العربية المتحدة يوم 28 سبتمبر 1961 التي كان الإمام أحمد لا يزال عضوا مشلولا فيها، ولكنه أعلن قصيدته ضد اشتراكية عبد الناصر، وإعلان عبد الناصر فكّ الارتباط بينه وبين الإمام، وعادت مخابراته لدعم الاتحاد اليمني في القاهرة، ومعه تقريبا كل الطلبة اليمنيين في مصر، ولكن فتور العلاقات بين الزعيمين الزبيري ونعمان جعل المخابرات المصرية تفكّر باستخدامهما من موقع الضعف، وذلك بإبراز أشخاص يمنيين، مرتبطين بالمخابرات المصرية مباشرة في مواجهة حركة الأحرار وتنظيمهم «الاتحاد اليمني».

كان في مصر عدد من أجهزة المخابرات التي تتنافسُ فيما بينها، لخدمة مصالح كل منها من خلال الحكم العسكري الذي كان يحكم مصر حينذاك، كان في مصر المخابرات العامة برئاسة صلاح نصر، والمخابرات العسكرية التابعة للمشير عبد الحكيم عامر، ومخابرات الداخلية التابعة لزكريا محيي الدين، والمخابرات الرئاسية برئاسة سامي شرف، مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر. وأي تنظيم عربي في مصر حينذاك لا بدّ أن تكون له علاقة بالمخابرات المصرية، أو لا بدّ أن يكون نشاطه تحت رقابة جهاز المخابرات، وكان «الاتحاد اليمني» تحت رقابة المخابرات العامة برئاسة صلاح نصر، والمخابرات هي التي تحرّك أي تنظيم، أو توقف نشاطه طبقا لقرارات القيادة السياسية العليا.

«صوت اليمن» وتنظيم الضباط

بعد إذاعة قصيدة الإمام ضد عبد الناصر واشتراكية عبد الناصر، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في يوم 23 ديسمبر 1961، خطابا بمناسبة ذكرى الانتصار على العدوان الثلاثي، وهاجم الرجعية المتآمرة، وهاجم تواطؤ الإمام أحمد وانتهازيته، وألغى انضمامه إلى الجمهورية العربية المتحدة، فأرسل الزبيري والنعمان رسالة تهنئة إليه بذكرى النصر، ثم رسالة أخرى باسم الشعب اليمني المستعبد في الشمال والمحتل في الجنوب؛ تأييدا له ضد الرجعية العميلة المتآمرة. وشنت الصحافة المصرية هجوما عنيفا ضد الإمام أحمد، وسمحت السلطات المصرية للزبيري بإذاعة حلقات في إذاعة «صوت العرب» يهاجم فيها «حلف بغداد» والحكومات المشتركة فيه.

وكان اليمنيون في اليمن وفي المهاجر يترقّبون انفجار الثورة ضد الإمام والإمامة، وقد سبقت الإشارة إلى أن مصر عبد الناصر كانت تحاول تفجير ثورة ضد الإمام منذ شهور طويلة، ومن ذلك نزول السفير المصري، ومعه محمد عبد الواحد مندوب المخابرات في السفارة إلى الحديدة، ومحاولتهم إقناع اللواء حمود الجائفي بتزعم ثورة يمنية ضد الإمام، واستعداد مصر تقديم كل الدعم السياسي والعسكري والمالي، ورفض الجائفي ذلك العرض، وبعد فترة أصبح محمد عبد الواحد قائما بأعمال السفارة المصرية في صنعاء، وقد تزامن ذلك مع تطلع تنظيم «الضباط الأحرار» في اليمن لتفجير ثورة تشبه ثورة «الضباط الأحرار» في مصر، ويعتقدون أن الشعب اليمني سيؤيّد الثورة، ولكنهم كانوا -من خلال التجارب- يخشون من تدخل السعودية لدعم الإماميين الرجعيين بالمال والسلاح، وهذا قد يؤدي إلى فشل الثورة؛ لأن القبائل ستندفع مع مال السعودية وسلاحها لتأييد الملكيين ضد الثورة، ولذلك قرّروا انتداب أحدهم، وهو الضابط علي عبد المغني للاتصال بالقائم بأعمال السفارة المصرية محمد عبد الواحد، لمعرفة موقف مصر عبد الناصر من ثورة يمنية يفجّرونها، وكانت رسالة «الضباط الأحرار» على لسان مندوبهم علي عبد المغني بأنهم يُعدّون لثورة جمهورية، تقضي على

الإمام والإمامة، ويطلبون منه إبلاغ عبد الناصر بذلك، والحصول على ردّ منه، لا من غيره، وأكد عليه عدم إبلاغ أي يمني في الداخل أو في مصر بهذا.

شخص مشبوه في قمة حركة أحرار اليمن

كان القائم بالأعمال محمد عبد الواحد يتبعُ جهاز المخابرات العامة، ويعرف أن مثل هذه الأمور تناقش، أو تتم بواسطة المخابرات، لا بواسطة وزارة الخارجية، وأرسل تقريره بذلك إلى رئيس المخابرات حينذاك الذي قدّمه إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وأكد له أهمية الموضوع، فاستدعى أنور السادات الذي كان أقرب أعضاء مجلس الثورة المصري إليه، وسلّمه التقرير وكلّفه بتولي قضية اليمن حتى قيام الثورة، أي أن أنور السادات أصبح المسؤول الأول والأخير عن قضية اليمن، بالتعاون مع أمين هويدي الذي كان همزة وصل بين الأحرار بزعامة الزبيري والنعمان في القاهرة وبين الرئيس جمال عبد الناصر. وقد اجتمع الرجلان السادات وهويدي وناقشا الموضوع، وكان رأي السادات أن زعماء الأحرار في القاهرة عندهم نزعة استقلالية، ونحن بحاجة إلى شخص أو أشخاص تابعين لنا نفرضهم على حركة الأحرار، ونعتمد عليهم من الآن حتى يكونوا في واجهة الثورة اليمنية عند قيامها، وسأقوم بتدبير هذا خلال أيام، وأضع خطة عمل ثم نلتقي ونتناقش.

ومرّت أيام، التقى الرجلان بعدها وقرّرا دعوة الأحرار اليمنيين في القاهرة للاجتماع، وقام أمين هويدي بدعوة الزبيري ونعمان ومحسن العيني، وفوجئ بالسادات يطلب توجيه دعوة للدكتور عبد الرحمن البيضاني الذي كان ولا يزال القائم بأعمال المفوضية اليمنية في «بون» يقدم خدماته للإمام أحمد. وقال أمين هويدي للسادات: إن البيضاني معروف لدينا، وهو شخص لا جذور له في اليمن، ويندفع بعواطفه لتحقيق مصالحه وطموحاته الذاتية، وسوف يسبّبُ لنا مشاكل من الآن وفيما بعد. ولكن السادات أصرّ على دعوة البيضاني، وفرضه زعيما في حركة الأحرار، وكانت الصحف المصرية قد شنت هجوما عنيفا ضد الإمام أحمد، وقد وجّه أمين هويدي دعوة للأحرار اليمنيين في القاهرة، لمناقشة قضية اليمن، وحضر

هـذا الاجتماع الزبيري، والنعمان، ومحسن العيني، ومحمد نعمان الابن وأحمد عبد الرحمن الـمعلمي ومحمد الأكوع، والدكتور عبد الرحمن البيضاني.

وكانت العلاقات بين الزعيمين الأستاذ نعمان والقاضي الزبيري لا تزال متوترة أو باردة، وقـد طلب البـيضـاني في الاجـتـمـاع أن يكون له منصب الأمين العـام في الاتحاد اليمني، مبديا استعداده للتعاون ودعم كل الـجهود لتفجير الثورة الـجمهورية في اليمن. ويذكر الأستاذ محسن العيني في مذكراته أن الزعيمين النعمان والزبيري وافقا في البداية على ذلك، نزولا عند رغبة الـمصريين، وأنه عندما عاد إلى القاهرة اعترض على ذلك، وقال لهم علينا أن نوضح من هو البيضاني للمصريين ولا نقبل تعيينه في الاتحاد، ثم تراجعوا جميعا عن موافقتهم على انضمام البيضاني ورفضوا قبـوله في الاتحـاد. وطلب منهم أمين هويدي باسم الرئيس جـمـال عـبـد الناصـر أن يوحّدوا صفوفهم للعمل معا في جبهة واحدة، وقوة واحدة ضد الإمامة وضد الاستعمار في اليمن، وسيقدّم لهم كل دعم مادي وإعلامي وسياسي، فوافقوا جميعا، وأصدر الاتحاد اليمني في القاهرة بيانا إلى الشعب اليمني هاجم فيه الرجعية في الشمال والاستعمار في الـجنوب.

وقد أذاعه محمد محمود الزبيري من «صوت العرب»، باعتباره الأمين العام الـمساعد للاتحاد اليمني بعد أن أصبح البيضاني الأمين العام للاتحاد، كما أذاع الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام الـمصري حينذاك بيانا آخر في مساء يوم الثلاثاء 26 ديسمبر1961، أعلن فيه حلّ الاتحاد بين الـحكومة الـمصرية والـحكومة اليمنية: «لأنه لا يوجد في طبيعة أي من الـحكومتين ما يجعل قيام مثل هذا الاتحاد أداة سياسية فعّالة قادرة على الإسهام الإيجابي في تطوير النضال العربي..» إلى آخر البيان. وكان الانفصال بين سوريا ومصر قد حدث في 28 سبتمبر 1961، وبعد بيان الدكتور عبد القادر حاتم، أصدر «الاتحاد اليمني» بالقاهرة بيانا أذاعه الأمين العام للاتحاد الأستاذ أحمد محمد نعمان-بعد رفض انضمام البيضاني إلى الاتحاد-موجها إلى كل الـمواطنين العرب أعلن فيه باسم «الاتحاد اليمني» والشعب اليمني بالغ أسفه لمواجهة هذه الـحتمية في فضّ الاتحاد، بسبب التناقض الرئيسي بين الواقع

التقدمي والوحدة المتخلفة التي رُكست اليمن فيها بفعل قوى الشر المسيطرة على مقدرات الشعب.

لقد كان انتصار الإمام عقب عودته من روما على الشعب كل الشعب، وهو انتصار يشبه صحوة المريض قبل الموت؛ لأن فرار المشايخ إلى بيحان وعدن، وخذلان شريف بيحان والسلطات الاستعمارية لهم قد أقنعهم بضرورة الاعتماد على أنفسهم، وتحسين تعاملهم مع قبائلهم، وكان إبعاد محسن العيني والأستاذ نعمان من عدن إلى القاهرة قد جعل جميع الأحرار في الداخل والخارج يقتنعون بأن الثورة الجمهورية يجب أن تعتمد على تجاوب الشعب مع الثورة، لا على الدعم الخارجي. وبدأ الضباط ينظمون أنفسهم في تنظيم «الضباط الأحرار»، وذلك في شهر ديسمبر عام 1961، وبدأ المناخ الثوري يتكون في داخل اليمن وفي المهاجر اليمنية، وأخذت شخصية القاضي عبد الرحمن الإرياني ومعه القاضي عبد السلام صبرة تبرزُ في الداخل كبروز شخصية الزبيري والنعمان في المهجر، ولكن العلاقة بين الأخوين في المهجر قد ضعفت إلى حد كبير، بسبب الخلاف الذي أشرت إليه سابقا.

وجاء فراري والأخ حسن السحولي والمرحوم الأخ سعيد حسن فارع، الملقب إبليس من سجن نافع الرهيب الذي لم يفر منه أي سجين من قبل، دليلا على انتشار الوعي، ودعم الناس لحركة الأحرار، وكان الإمام أحمد عقب انتصاره على الشعب بعد عودته من روما قد تلاشت لديه ولدى الشعب نشوة الانتصار، وعاد إلى استعمال «إبر المورفين» من جديد، وعادت إليه أمراضه. وخلال فراري من سجن نافع عبّر الشعب عن نفسه برصاصات اللقية والعلفي، التي أصابت الإمام أحمد إصابات بالغة، ظل يعاني منها حتى مات بعد أكثر من عام تقريبا.

صراع ضد البيضاني وخلاف مع السادات

في اجتماع زعماء الاتحاد اليمني في مصر الذي حضره أمين هويدي المقرّب إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وظهر فيه الدكتور عبد الرحمن البيضاني مع الأستاذين نعمان والزبيري ومن معهما، قال رئيس الاتحاد اليمني في عدن الأخ

محمد علي الأسودي: «استغربت ظهور البيضاني مع زعماء الأحرار في القاهرة؛ لأنني لم أعرفه ولم أسمع به من قبل، وتساءلتُ من أين ظهر هذا الشخص وكيف؟ إننا لم نسمع به إلا من صوت العرب، وتساءلتُ: أين صوت زعماء الأحرار الأساسيين، وهم متواجدون في القاهرة ومتفرّغون لهذه الأعمال»؟!

وكان هذا التساؤل إشارة واضحة إلى صراع الأحرار ضد البيضاني، وخلافهم مع السادات، فقد قرّر السادات تحجيم زعماء الأحرار، وتهميشهم، والتعتيم عليهم إعلاميا، وفتح للبيضاني صفحات الصحف المصرية، وخصوصا «روز اليوسف» وأبواب إذاعة «صوت اليمن» من إذاعة «صوت العرب»، لتلميع البيضاني، باعتباره زعيم الثوار الداعين لثورة جذرية في اليمن؛ مهاجما السياسيين الذين يفتقدون الحسّ الثوري، والفكر الثوري، مثيرا لعصبية القحطانية ضد السادة الهاشميين، والتعصب الشافعي ضد الزيدي، وحاول أن يكسب تأييد بعض الإخوة الأحرار في الداخل والخارج.

أودّ أن أوضح في البداية أن البيضاني منذ ظهر عام 1949 في المفوضية اليمنية في القاهرة وعمره حينذاك ثلاثة وعشرون عاما، وهو يكذب عندما يتحدث، وعندما يكتب بالسهولة التي يتنفس بها، وعندما يتنفس الإنسان لا يدري أنه يتنفس، والبيضاني يكذب دون أن يدري أنه يكذب، ويتولّد الكذب لديه بدون اختياره من كثرة ما تعوّد على الكذب!! وبالكذب حاول أن يغطي هويته الحقيقية ويثبت هويته اليمنية المزيفة، ولذلك كان مضطرا إلى الكذب حتى صار الكذب كل حياته، وقد حاول أن يكسب بعض الأحرار في الداخل وفي الخارج، ووجه دعوة رسمية للأخ محمد علي الأسودي، رئيس «الاتحاد اليمني» في عدن، ودعوة أخرى للأخ محمد شعلان، المسؤول المالي في «الاتحاد اليمني» في عدن حينذاك، واستقبلهم في مطار القاهرة، وأنزلهم في فندق «ميناهوس» في الأهرام، وقابلوا صلاح نصر وأنور السادات، واجتمعوا بالزبيري والأستاذ نعمان، وقد فشل البيضاني في كسب تأييد الأسودي وشعلان، ولكنه كسب إلى صفه الأخ محمد قايد سيف، الضابط الذي هرب من تعز إلى عدن عند سقوط حركة الثلايا عام 1955.

كما حاول البيضاني التأثير على بعض الأحرار الموجودين في تعز ومنهم:

عبد الغني مطهر، وعلي محمد سعيد أنعم من التجّار، وكذلك الطيار عبد الرحيم عبد اللّه، وحاميم محرم. كما أرسل بواسطة محمد عبد الواحد القائم بأعمال السفارة المصرية جوابا إلى «الضباط الأحرار» بواسطة الملازم علي عبد المغني يخبرهم أنه قابل الرئيس جمال عبد الناصر، الذي كلّفه بإبلاغ «الضباط الأحرار» في اليمن بأن مصر ستدعم الثورة اليمنية ماديا وسياسيا وعسكريا. وقد أزعج هذا الخطاب «الضباط الأحرار»، وقرّروا قطع علاقتهم بالقائم بالأعمال المصري؛ إذ كانوا قد أكدوا عليه ألا يعرف أي يمني في الداخل والخارج بتنظيمهم، وأن يكون الرد من الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا.

عبد الرحمن البيضاني يخطب أمام الإمام أحمد في تعز

أثار فرض البيضاني على الأحرار وحركة الأحرار شعورا بالخطر في نفس الزبيري، فواجه الخطر بقوة وشجاعة، واستطاع حشد كل الأحرار في مصر، وكل الطلبة اليمنيين ضد البيضاني، وحاولوا جميعا نقل الحقائق إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ويبدو أن قبضة المخابرات حينذاك كانت أقوى منه، أو أنه اعتمد على السادات، ولم يكلّف نفسه متابعة قضية اليمن. وقد بلغ الزبيري والأحرار في مصر وجود تنظيم «الضباط الأحرار» في اليمن، وكنتُ في عدن حينذاك، وأسكن في منزل الشيخ سنان أبو لحوم الذي تلقّى رسالة بالشفرة يقترحون عليه إرسال «العزي الفسيّل» محمد عبد اللّه الفسيّل خفية إلى صنعاء، للاتصال بالضباط الأحرار ومحاولة ربط حركتهم بحركة الأحرار، ومنع محاولة البيضاني والمخابرات المصرية احتواءهم.

وكتب الزبيري رسالة موجهة إلى الشيخ سنان والعزي الفسيّل، ردا على رسائلهم إليه، وهي نموذج لمئات الرسائل التي كتبها الزبيري إلى الأحرار في الداخل والمهاجر يقول فيها: «إن أحدا لم يحسن إليّ كما أحسن البيضاني بأحابيله وتحدياته، وإشعارنا – بعد الأمن الطويل– أننا نعيش في الجمهورية تحت رحمته، وعلى قدر التحدّي وشناعته تستيقظ الطاقات التي أساءت إليها عبادة فرد بالحب والثقة المطلقة، إن جيلا عملاقا يتدهور في أعماقي، ويهزّ كياني، وينحدرُ إلى الظلام وإلى المجهول، بينما أشعر أن رأسي يعلو بعد أن تحرّر من أغلال التدله والإكبار. ما أعظم الكلمة الخالدة التي وجدت تفسيرها اليوم، إحساسا في دمي: «عش في خطر»، إننا اليوم نعيش في خطر. إن الكلمات الصغيرة التي هددتنا وأطلقت قوانا في تعز –كما تذكر يا عزّي الإسلام– تعتبر تفاهة وهزلا بالنسبة لما نتعرضُ له اليوم في حمى الضيافة العربية الكريمة، ومع ذلك تصدّق يا شيخ سنان بأننا على وفاق مع البيضاني كما تزعم إذاعته». وجاء في الرسالة بالشفرة أربعة أسطر لستُ متأكدا مما ورد فيها، إلا أنني فهمت من الشيخ سنان فيما بعد أنها تؤكد محاولة البيضاني والمخابرات المصرية احتواء تنظيم «الضباط الأحرار» وعزلهم عن الأحرار في الداخل والخارج.

والرسالة طويلة، وقد وصلت إلى عدن عندما كنتُ أنا قد غادرتها إلى صنعاء قبل أيام، وفي الرسالة توضيح لموقف نعمان، فقد كان الزبيري يخشى أن يقف نعمان مع البيضاني، ومع المخابرات المصرية وما تملكه من إمكانات، وكانت العلاقات بين الزعيمين لا تزال مزعزعة وشبه متوترة، وكان الزبيري يتوقّع أن الأستاذ نعمان سيتعاون مع الجانب المضاد، ويقول الزبيري في رسالته هذه ما يلي: إن الرسالتين المطولتين منكما قد وصلت عن طريق الأستاذ، وفيها تعريض به، وكان ذلك في أحرج ظرف مرّ بي، وكان موقفه في غاية النبل. لقد وقف إلى جانبي في ساعة كان يُطلب منه أن يعلنها عليّ حربا شعواء. لقد كانت الخطة تقضي أن يوجد بيني وبين نعمان شقاق صارخ، كل ذلك لترميم شخصية البيضاني، ولا شك أن هناك استماتة في هذا الشأن.

كنتُ قرّرتُ أن أرفض وحدي كل ما يُراد لنا، فقد فزعتُ من هول ما أرى

واستبشعته؛ لأننا قد عشنا كالحملان الوديعة عن إيمان وتجرد، فإذا بهم يصرّون على السحق والمحق. لست أدري من أين ينبعُ هذا المخطط؟ إنما هو أمر واقع، والرائد لا يكذب أهله. والترقيع والنفاق لا مبرر له في حياتنا، فنحن خُلقنا ثائرين، ولن تخيفنا قوة على وجه الأرض، سنأكل التراب، ونسحب أجسادنا على الأرض، ولكننا لن نكون عبيدا. رأيت نعمان في موقفه هذا ملاكا. لقد انحاز إلى جانبي بشكل مذهل رغم حنقه عليّ، ورغم أنها كانت فرصة العمر تمكّنه من الانتقام وظهره مسنود إلى جبل شامخ، وموقفه مبرر، وأسلحة البطش بنا جاهزة. لقد رفض وتهكّم ولم أصدّق عيني عندما رأيته لأول وهلة، ولكن الموضوع اتضح وتجلّى، وتأكد فكان عظيما، عظيما.

هذا ما جاء في رسالة الزبيري، وإذا كان موقف الأستاذ نعمان المنحاز إلى الزبيري قد فاجأه فإنه لم يفاجئني؛ لأن ما شعر به الزبيري من خطر قد تلاقى مع شعور الأستاذ نعمان بالخطر أكثر منه؛ لأن البيضاني كان يرى أن نعمان أخطر عليه من الزبيري، فهو زعيم الشوافع الذين يحاول البيضاني أن يتزعمهم بدلا عنه؛ أمّا الزبيري في نظر البيضاني فهو منسوب للزيود الذي يصعب عليه تزعمهم، ولا قدرة له في مزاحمة النعمان أو البيضاني في تزعم الشوافع، ولذلك كان همُّ البيضاني من قبل وعندما قامت الثورة إبعاد نعمان من تولي أي منصب في ثورة اليمن، وأبعده بالفعل دون أن يتمكّن من إبعاد الزبيري، الذي كان وزيرا للتربية والتعليم في أول حكومة يمنية جمهورية، ومن إبعاد محسن العيني الذي أصبح وزيرا للخارجية. وكان الأستاذ نعمان يعرف هذا وأكثر، ويشعر أن البيضاني ليس خطرا عليه وعلى صديقه وزميل نضاله الزبيري، وعلى الأحرار في الداخل والخارج، وإنما هو خطر على اليمن شمالا وجنوبا، وخطر على مصر وعلى الأمة العربية.

من هو البيضاني؟

من هو هذا البيضاني الذي أثار الرعب، وفجّر القوى الذاتية المتمردة في نفس الزبيري والنعمان، وفي نفوس كل الأحرار؟! وكيف استطاع أن يكون أداة لحكم العسكر في مصر، وملكا متوّجا للثورة الجمهورية في اليمن؟! وقبل أن أوضح من هو

البيضاني أثبت فيما يلي ما نشرته أنا عنه وهو حيّ يُرزق في صحيفة «الميثاق» بتاريخ 13 يناير 2001، (العدد: 1020):

1. البيضاني- إلى حد بعيد- يشبه المدعو «إيلي كوهين»، الجاسوس الإسرائيلي المشهور في سوريا، حينما ادعى أنه سوري وهو «يهودي»، وأن أباه هاجر إلى الأرجنتين قبل 50 سنة، ومات وتركه وحيدا، وحصل على جواز أرجنتيني مزوّر، وهذا يطابق جدا ما قاله البيضاني عن نفسه في مصر الذي حصل على جواز سفر يمني بالتحايل، باعتباره ابن مهاجر يمني، اسمه عبد ربه أحمد عبد اللّه البيضاني الذي هاجر إلى مصر وعمره تسع سنوات للدراسة في الأزهر عام 1902، وتقدّم يطلب أن يكون ضمن الطلبة اليمنيين في مصر.
2. هوية البيضاني مجهولة، ولكنه معروف بعمله للمخابرات المصرية والألمانية والأمريكية، ولا شك أنه ينتسب إلى جهات مكّنته من ذلك.
3. البيضاني كان مفروضا على الثورة لمدة ثلاثة أشهر ونصف، ثم طردته الثورة إلى مصر.
4. علاقة البيضاني بالمخابرات المصرية هي التي أدت إلى كوارث لليمن ومصر معا.
5. بعد موت عبد الناصر ذهب البيضاني إلى السعودية، وأصبح عميلا لها، وطبعت له كتاب «أزمة الثورة اليمنية والأمة العربية» الذي هاجم فيه عبد الناصر.
6. الذين استخدموا الصهيونية العالمية هم الذين خططوا، لكي يكون البيضاني مقربا من مصر وثورتها، وليكون هو كل شيء في اليمن، وهم من نقله إلى عدن المستعمرة الإنجليزية، وأعادوه إلى مصر مرة أخرى، وعينوه سفيرا لليمن في بيروت، ثم حوّلوه من تقدمي كاذب، إلى رجعي سعودي مشبوه، وكان قد هدّد باحتلال السعودية في أول أيام الثورة اليمنية، وهم من سهّل له التعامل مع المخابرات الأمريكية والألمانية، وهم من جعلوه إمبراطور

مجاري القاهرة والإسكندرية، وسهّلوا له اختلاس عشرات الملايين من الدولارات من مشروعي المجاري في مصر!

7. آن الأوان للحكومة اليمنية والقيادة السياسية أن تعمل على معرفة هوية البيضاني، فهو ليس يمنيا ولا مصريا ولا عربيا؛ ولكنه مدسوس علينا جميعا. هذا ما نشرته في صحيفة الميثاق بتاريخ 13 يناير 2001.

وفيما يلي حقائق ذكرها البيضاني نفسه:

1. ذكر البيضاني أنه ظهر أو لجأ إلى المفوضية اليمنية بالقاهرة في عام 1949 وعمره 22 عاما أو 23 عاما، وهذا أول ظهور له في مصر، وهي الحقيقة التي نعرفها عنه؛ أما ما يقوله عن نفسه قبل هذا التاريخ، فلا يوجد ما يؤكد صحته، إلا أقواله، وهو يكذب كما يتنفس...! ومن مصلحته إخفاء هويته الحقيقية بعد أن حصل بالتحايل على هوية يمنية!
2. وكما فعل «إيلي كوهين» سوريا، الجاسوس الإسرائيلي، فعل ما يشبه ذلك المدعو البيضاني في المفوضية اليمنية أمام الوزير المفوض السيد علي المؤيد، فادعى أنه ابنُ مهاجر يمني من البيضاء، وأن والده هذا هاجر إلى مصر في عام 1902، وعمره تسع سنوات، ودرس في الأزهر، وحصل على شهادة العالمية في سنة 1336هـ، فهل هو «الكوهين» الجديد في اليمن؟
3. وأن والده تزوج من مصرية وأنجبه، ثم أدخله للدراسة في «مدرسة التجارة المتوسطة» دون أن يقول لنا في أي مدرسة ابتدائية، وأي مدرسة إعدادية درس قبل دراسته في مدرسة التجارة المتوسطة؟
4. وأنهى هذه المعلومات المزيفة بأنه يتيم، يطلب من الوزير المفوض مراجعة الإمام لالتحاقه بطلبة البعثة التي وصلت إلى مصر للدراسة، منقولة من بيروت في عام 1949، والسماح له بالسكن في المفوضية، مقابل أي خدمات تطلبها المفوضية منه، أي أنه ظهر عقب وصول الطلبة اليمنيين، ليندسّ بينهم، واستطاع أن يمثّل ويبكي أمام الوزير المفوض الطيب القلب، فرحمه وأمر بتجهيز غرفة في المفوضية، يسكنها هذا اليتيم، وكانت هذه

بداية ظهوره في مصر، وبداية إخفاء هويته الحقيقية بهوية يمنية حصل عليها بالاحتيال، أما ما قبل ظهوره واختفائه فلا يعرفه أحد إلا هو، وما يقوله عن نفسه!

البيضاني له أربعة آباء!

يقولون: «إذا كنتُ كذوبا فكن ذكورا»، هذا المثلُ ينطبق على البيضاني في شقه الأول، فهو يكذب كما يتنفس، ولكنه ليس ذكورا، ولهذا قدم لنا أربعة آباء له، ثلاثة ينتسب بهم إلى اليمن، وأب رابع ينتسب به إلى مصر، فهو ووالده، وأمه مصريون بالأصالة إلى رمسيس الأول!

- الأب الأول: قدمه لنا في كتابه «أزمة الأمة العربية» اسمه عبد ربه أحمد عبد اللّه البيضاني، هاجر إلى مصر للدراسة من البيضاء وعمره 9 سنوات وذلك في عام 1902.
- الأب الثاني: قدمه لنا من قناة الجزيرة عند شهادته على العصر في يوم 7 يوليو 2001. واسمه عبد ربه أحمد عبد ربه المرادي، هاجر إلى مصر من مراد في عام 1897 وهو طفل في التاسعة من عمره، أي أنه ليس بيضاني وإنما مرادي!
- الأب الثالث: قدّمه لنا في أوراق رسمية مصرية مزيفة، اسمه: عبد ربه أحمد عبد اللّه البيضاني المرادي.
- الأب الرابع: قدمه لنا في عام 1984، أمام المحقق في مباحث القاهرة. اسمه: لم يقل لنا الدكتور البيضاني ما اسم أبيه المصري.
- جنسيته: مصري بالأصالة، متزوج من مصرية، وجنسيتها مصرية بالأصالة، وابنه هذا الدكتور مصري ابن مصري ابن مصرية بالأصالة، وأنكر علاقته باليمن.

هؤلاء الآباء الأربعة للدكتور البيضاني لا وجود لهم، ولا علاقة له بهم؛ لأن والده الحقيقي وأمه الحقيقية مجهولان حتى الآن، ولكنهما من بلد متقدّم

متحضّر، فبعد أن بقي فترة قصيرة في المفوضية اليمنية اكتشف الوزير المفوض أن هذا اليتيم الذي عمره 23 عاما يجيدُ اللغة الإنجليزية إجادة تامة كتابة ومحادثة وترجمة! وفي هذا العمر يكون الشاب قد تخرّج من الجامعة، ووجد الوزير اليمني المفوض الذي لا يتكلم الإنجليزية ضالته في اليتيم البيضاني، فوظّفه في المفوضية محليا مترجما بعد أن حصل له على أمر إمامي بإلحاقه بالطلبة اليمنيين، وبذلك حمل جواز سفر يمنيا غطى هويته الحقيقية المجهولة حتى الآن...!

وهذا يؤكّد أن البيضاني لم يولد في مصر، ولم يدرس في مصر، وإنما جاء إلى مصر جاهزا متعلما مدربا من بلد مجهول متحضر، في عام 1949، وعمره ثلاثة وعشرون عاما، فهل هو «كوهين» مصر واليمن؟

البيضاني جاسوس للإمام

يبدو أن مهنة البيضاني هي الجاسوسية؛ ولذلك بدأ يكتب إلى الإمام تقارير عن الطلبة، وتقارير تؤكد أن الوزير المفوض رجل طيب وعالم دين، ولكنه لا يعرف أصول وأساليب الدبلوماسية، وأن عبد اللّه المؤيد ابن عمه السكرتير الدبلوماسي والمسؤول المالي في المفوضية لا يعرف الأصول والأساليب الدبلوماسية ومشكوك في نزاهته المالية. ثم طلب البيضاني من الإمام الإذن له بالوصول إلى اليمن، لزيارة مولاه أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، الناصر لدين الله أحمد بن أمير المؤمنين يحيى؛ لأن من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية.

وأذن له الإمام بالوصول؛ لأنه كان قد أعجب بتقاريره، ووصل إلى اليمن في أواخر عام 1950، وهو يلبس ملابس القضاة والسادة في اليمن، بما فيها الحزام المُذهّب وفيه «الجنبية» اليمنية، والعمامة اليونية المعروفة، و«الجوخ» الأزرق، وكان قد تعرّف على القاضي محمد عبد اللّه العمري، وكيل وزارة الخارجية اليمنية من قبل، وعندما دخل من باب ديوان الإمام لأول مرة جثا على ركبتيه، ثم زحف بهما حتى وصل إلى الإمام وقبّل قدميه؛ بدلا من تقبيل ركبتيه كما

هي العادة اليمنية، ثم رفع رأسه وهو يبكي تأثرا، ويقول: الحمد لله أنني قد عرفتُ إمامي وسيدي أمير المؤمنين قبل أن أموت، وأخذ يُظهر حبّه وتقديسه للإمام كأكبر ممثل!

وعندما خرج قال الإمام: هذا إما أن يكون أكبر منافق كذاب، وإما أن يكون أعظم محب مخلص، والأولى أقرب، ولكنه ينفع! وبقي في تعز دون أن ينتقل منها إلى منطقة أخرى، فليس له في اليمن أهل أو أقارب أو قبيلة، ولم يعد من تعز إلى القاهرة إلا وقد أصبح السكرتير الدبلوماسي الأول في المفوضية اليمنية، والمسؤول المشرف على شؤون الطلبة اليمنيين في القاهرة.

وفي طريق عودته الدبلوماسية إلى القاهرة في شهر يناير1951، عقد مؤتمرا صحفيا في أسمرة، مجّد في أوله صاحب الجلالة الإمام أحمد، باني نهضة اليمن، ثم ردّ على أسئلة الصحفيين باللغة العربية واللغة الإنجليزية الفصحى، بصورة أكدت أنه كان قد دُرّب تدريبا جيدا في جهاز يجيدُ التدريب. وهكذا اختفت هويته الأصلية، وحلّت محلّها هويته اليمنية الدبلوماسية إلى الأبد، وبدأ يتصرّف وكأنه الوزير المفوض، وجعل من اختصاصه استقبال الشخصيات اليمنية الكبيرة وتوديعها، واستقبال الوفود اليمنية والأجنبية وتوديعها، إلى جانب إشرافه على شؤون الطلاب. وقد كتب إلى الإمام تقارير عن الطلبة، أكد فيها أن أكثرهم ضد الإمام، واقترح تشريد بعضهم في أوروبا للدراسة، ثم قطع مرتباتهم، وكان ممن شرّدهم للدراسة في فرنسا محسن العيني، ومحمد الرعدي ويحيى جغمان، وقد تم قطع مرتباتهم، وتشرّدوا في حالة فقر مدقع، وقد أصدر محسن العيني فيما بعد كتابا عن المؤامرة ضد الطلبة سماه: «معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن».

وكان البيضاني قد اتخذ من تقاريره للإمام وسيلة للغمز واللمز ضد الوزير المفوض علي إسماعيل المؤيد وابن عمه عبد اللّه، ثم استغل استقباله وتوديعه للشخصيات اليمنية، ومنها محمد عبد اللّه العمري، وكيل وزارة الخارجية حينذاك، لإثارتهم ضد علي المؤيد، حتى ساءت علاقته مع الإمام وعزله، وكان البيضاني يطمحُ في أن يحلّ محله، ولكن الإمام عيّن السيد عبد الرحمن عبد الصمد أبو

طالــب وزيــرا مفوضا، وهو شخصيــة مثقفة وكفاءة. وبعد أن تجمّعت لدى السيد عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب معلومات كثيرة عن البيضاني، كتب تقريرا إلى الإمام أبلغه أن البيضاني قد أساء إلى الطلبة، وتقاريره إليكم عنهم أكثرها غير صحيح، وعلاقته بهم سيئة، واقترح على الإمام منعه من الإشراف على الطلبة، حتى نستعيد تأييدهم لجلالتكم، فأمر الإمام بمنع البيضاني من الإشراف على الطلبة، وقام الوزير المفوض الجديد أبو طالب بإبلاغ البيضاني بذلك.

ومن موقعه الدبلوماسي، حاول تحديد لقاءات له مع مسؤولين مصريين، ومع البوليس السّري، وهو جهاز مخابرات الملك فاروق، ثم عيّنه الإمام في المفوضية اليمنية في «بون» عاصمة ألمانيا الغربية، للتجسس على الأمير محمد بن الحسين، الوزير المفوض اليمني في المفوضية اليمنية هناك، وقد استأذن البدر في التعاون مع المخابرات الألمانية للتجسس. وبعد إبعاد الأمير محمد بن الحسين أصبح البيضاني القائم بأعمال المفوضية في «بون»، وفي هذه الفترة كانت علاقته بالمخابرات الألمانية الغربية قد سمحت له بإقامة علاقات مع المخابرات الأمريكية، ومع مخابرات أخرى؛ لأن مهنته الأساسية هي المخابرات. وفي شهر مارس 1955 وصل إلى فرانكفورت السيد أنور السادات- الرئيس المصري فيما بعد- مع زوجته في زيارة خاصة، وتلقّى البيضاني إشارة من مصدره الأساسي المجهول بأن يقيم مع السادات علاقات قوية، خصوصا والسادات كان خلال الحرب العالمية الثانية عميلا للمخابرات النازية في عهد هتلر.

وتحرّك البيضاني القائم بالأعمال بسيارة المفوضية الرسمية ومعه زوجته من «بون» إلى فرانكفورت، واستطاع التعارف مع السادات، وجنّد نفسه وزوجته لخدمة السادات وزوجته، وأغرقه وزوجته بالهدايا الثمينة، ولم يتركه إلا مودّعا له في المطار، بعد أن أصبحت العلاقة بين العائلتين متينة إلى أبعد الحدود، ثم أصبحت بين الرجلين لغزا محيّرا كلغز هوية البيضاني الأصلية! وقد أشاع البيضاني فيما بعد أن زوجته هي أختُ زوجة أنور السادات، وأصبحت هذه الإشاعة حقيقة عند كثيرين، ومنهم القاضي عبد الرحمن الإرياني في مذكراته الذي ذكر أن البيضاني

كان عديل السادات، وهذا لا أساس له من الصحة فقد كان البيضاني مصدر هذه الإشاعة!

كان أنور السادات حينذاك عضو مجلس قيادة الثورة في مصر، وأعضاء المجلس كانوا قد أحكموا قبضتهم على السلطة، ويتصرّفون وكأنهم أنصافُ آلهة. وكان البيضاني حينذاك لا يزال عميل الإمام وجاسوسه على الآخرين، ويقوّي -في الوقت نفسه- علاقاته بالمخابرات الدولية، وحتى بعد مرور قرابة خمس سنوات من لقائه أنور السادات في فرانكفورات في مارس 1955 نجد الإمام وهو يتعالجُ من أمراضه في روما خلال الأشهر من أبريل حتى يوليو سنة 1959 يستدعي البيضاني، ليكون واحدا من حاشيته في روما، ثم يعود من روما إلى ألمانيا، ويبقى فيها عميلا للإمام وجاسوسا دوليا، حتى قبل قيام ثورة 26 سبتمبر 1962 بسبعة أشهر تقريبا. كيف كانت علاقة البيضاني بأنور السادات خلال ثمان سنوات مرّت من يوم لقائه معه في فرانكفورت عام 1955 وحتى 1962؟ لا يوجد جواب صحيح لهذا السؤال إلا ما يقوله البيضاني، وما يقوله لا يوثق به؛ لأنه «يكذب كما يتنفس»...!

ولكنا نعلم أن السلطات في مصر بواسطة أنور السادات كانت قد وهبت للبيضاني قصرا مصادرا في منطقة «المعادي» بكل ما فيه من أثاث ثمين، وكل ما فيه من تحف غالية، وكل ما فيه من لوحات فنية لفنانين عالميين. وقد أشار إلى ذلك رئيس الاتحاد اليمني في عدن السيد محمد علي الأسودي عندما استضافهم البيضاني في ذلك القصر، قبل قيام ثورة 26 سبتمبر 1962 الجمهورية بسبعة أشهر! فمتى وهبت ثورة مصر ذلك القصر للبيضاني؟ كما أن علاقة البيضاني بأنور السادات بقيت كما هي قوية غريبة مشبوهة، والدليل على ذلك أن السلطات المصرية في آخر عهد الرئيس جمال عبد الناصر وبعد انسحاب قواتها من اليمن في عام1967، وبعد أن تم طرد البيضاني من اليمن وإلغاء جنسيته اليمنية في شهر مارس 1963، وانتقاله من مصر إلى عدن المستعمرة الإنجليزية، وفتح إذاعة عدن للبيضاني، ليهاجم الجمهورية العربية اليمنية، ويثير النعرة الطائفية، ويُلمّح بديكتاتورية مصر وأخطائها في اليمن يرسل له أنور السادات من مصر أمانا من عبد الناصر حملته إليه زوجة

البيضاني، ويعود إلى مصر مرة أخرى مكرما مبجلا! بعد كل هذا توسّطت مصر لدى المشير السلّال بإعادة الجنسية اليمنية للبيضاني، وتعيينه سفيرا في بيروت، وبقي سفيرا لليمن في بيروت حتى في عهد القاضي عبد الرحمن الإرياني!

ما دورُ البيضاني في هزيمة مصر في حرب عام 1967؟! وما دورُه في قيام الرئيس أنور السادات بطرد الخبراء السوفييت من مصر في 8 يوليو 1972؟ وما دورُه في زيارة الرئيس السادات لإسرائيل في 19 نوفمبر عام 1977؟ وما دورُه في اعتراف مصر بإسرائيل وإقامة علاقات دبلوماسية بينهما؟!

تنظيم جديد للضباط الأحرار وعلاقتي به

عندما وصلتُ عدن في 25 مارس 1961، وبلغني قيام الشهيدين عبد اللّه محمد اللقية، ومحمد عبد اللّه العلفي بمحاولة اغتيال الإمام أحمد في مستشفى الحديدة، تأكدتُ أن جهودهما في تكوين تنظيم للضباط الأحرار قد فشلت، لأسباب فصّلتها في مكان آخر، وأن إقدامهما على محاولة اغتيال الإمام كان بسبب ذلك الفشل، ففي سجن نافع كنا قد اتفقنا على أن يحاولا إقامة تنظيم للضباط، يكون له علاقات بالوطنيين الأحرار من المدنيين والقبائل بهدف القيام بثورة، ولا يحاولان اغتيال الإمام إلا إذا فشلا في تكوين التنظيم وفي استمراره، ويبدو أنهما فشلا في استمرار التنظيم، فقرّرا اغتيال الإمام.

في أوائل شهر أغسطس 1961، كنتُ أسكن في منزل الشيخ سنان أبو لحوم، وكنا معا على صلة بالزبيري والعيني في القاهرة. وفي يوم من أيام شهر أغسطس عرض عليّ الشيخ سنان رسالة من صهره الأستاذ محسن العيني، أشار فيها إلى وجود تنظيم للضباط الأحرار في اليمن، ومحاولة المخابرات المصرية عن طريق البيضاني احتواء ذلك التنظيم وفصله عن حركة الأحرار في الداخل والخارج، وأنه والقاضي الزبيري والأحرار في مصر يقترحون أن يتسلل «العزي الفسيّل» إلى صنعاء، ويحاولُ ربط تنظيم «الضباط الأحرار» بالحركة الوطنية في الداخل والخارج، وتعزيز وحدة النضال الوطني مدنيا وعسكريا. لقد كنتُ أعرفُ محاولة المخابرات المصرية

فرض البيضاني على أحرار اليمن، وعلى القضية الوطنية، وبالتالي إضعاف وتهميش كل زعماء وأحرار اليمن في الداخل والخارج، ولكني لأول مرة أعرف بوجود تنظيم للضباط الأحرار في اليمن، وهكذا تسلّلتُ متخفيا من عدن إلى صنعاء في أوائل شهر أغسطس 1962 ولم أعد أذكر بالتأكيد تاريخ ذلك اليوم.

وفور وصولي إلى صنعاء اتجهتُ إلى دكان الأخ المرحوم ناصر الكميم، وكان من أنشط الأحرار في صنعاء، وبعد أن عرفني أدخلني إلى مكان يقع خلف واجهة دكانه، وأرسل من أبلغ الأخ المناضل عبد السلام صبرة بوصولي، فأرسل ابنه الملازم عبد اللّه، وصهره الملازم صالح الأشول، ووصلا إلى دكان المناضل الكميم على موتور سيكل، ونقلاني إلى منزل الأخ حسن العمري -الفريق فيما بعد-، ولم أعد أذكر رتبته العسكرية حينذاك، وربما كان برتبة مقدم.

وبعد يومين وجدتُ أنني شبه معزول في منزل الفريق العمري، فانتقلتُ منه أولا إلى بيت المناضل المقدم حينذاك محمد حسن غالب المطري الذي قابلتُه سرا في مدينة البيضاء، قبيل ثورة 1948 الدستورية عندما كان قائدا لسرية عسكرية هناك، ودققت باب بيته فظهر وعرفني، وقال لي: «أهلا وسهلا.. هل جئت هذه المرة «بجعفارة» جديدة؟» قلتُ له: «اسمح لي بالدخول وستعرف». قال: «أنصح أن تذهب إلى بيت الأخ علي الواسعي، فهو من الأحرار، وهناك ترتّب أمورك بشكل أفضل»، ودلني على الطريق إلى بيت الأخ الواسعي، وبقيتُ في بيته يوما واحدا، ثم زارني الأخ الملازم صالح الرحبي، وهو من أشجع الأحرار، ونقلني إلى بيته القريب من بيت الواسعي. وسهّل لي الانتقال إلى بيت الأخ -الدكتور فيما بعد- عبد العزيز بن صالح المقالح، كما سهل لي التواصل مع الضباط الأحرار الذين انتدبوا عنهم الأخ الملازم أحمد الرحومي، وكان يسكنُ بيتا مجاورا لبيت الأخ المقالح في باب شعوب، ولذلك كانت لقاءاتنا مستمرة يوميا.

وعندما وصلتُ إلى صنعاء لم أكن أعرف أحدا من الضباط الأحرار، وبعد فترة عرفتُ أن آخر قيادة للهيئة التنفيذية للضباط الأحرار كانت مكونة من: الرئيس عبد اللطيف ضيف الله، وعرفت فيما بعد أن ميوله بعثية. والملازم أحمد الرحومي،

وعرفت فيما بعد أنه مستقل. والملازم علي عبد المغني، وعرفت فيما بعد أن ميوله ناصرية. والملازم صالح الأشول وعرفت فيما بعد أن ميوله بعثية. والملازم محمد مطهر، وعرفت فيما بعد أن ميوله بعثية.

وفيما بعد ضُمّ إليهم قياديان آخران، وكان الأخ أحمد الرحومي متحفظا في نقاشاته معي، ولذلك اقترحتُ عليه -فيما بعد- أن يضمّ إليه الأخ صالح الأشول، مندوبا آخر من الضباط الأحرار، وتم ضمّه، وضمَّ الأخ الملازم محمد مطهر، للتفاهم معي باعتباري مندوب الأحرار في الخارج، بقيادة الزبيري ونعمان والعيني، وكنا دائما نلتقي في منزل الدكتور عبد العزيز المقالح، وصار بيته مركز لقاءات لكثير من الناشطين ضباطا ومدنيين، وعشتُ في بيت الأخ عبد العزيز المقالح قرابة خمسين يوما كانت أمه الفاضلة تهيءُ لنا الطعام اليمني اللذيذ طيلة تلك المدة.

مشروع إقامة تنظيم سياسي جديد

في منزل الأخ المقالح كتبتُ أهداف تنظيم سياسي جديد للأحرار في الداخل، مرتبطا بالأحرار في الخارج، ونظامه الأساسي، وهيكل قياداته، وكنتُ أعرض ما أكتبه على الأخ المقالح، ونتعاون في تحسين صياغاته، ولم تعد لدي نسخة من ذلك المشروع، ولعلها موجودة لدى الدكتور المقالح، وتتكوّن هيئات التنظيم من ثلاث شعب: الشعبة العسكرية، والشعبة المدنية، والشعبة القبلية. ولا تختلفُ أهدافه كتنظيم سياسي جديد عن أهداف ثورة 26 سبتمبر 1962 التي أذيعت في الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم تحت عنوان: «البيان الثاني للثورة». وقد أكد لي الدكتور المقالح مرات عدة بأن ذلك النظام الأساسي الذي كتبناه في بيته لا يزال موجودا لديه، ووعدني مرات عدة أن يعطيني صورة له، ولكنه مع الأسف كان ينسى حتى الآن.

خلال تنقلي متخفيا في بيوت الأحرار الأصدقاء بصنعاء، وبعد إقرار الضباط الأحرار إنشاء التنظيم السياسي بأهدافه، ونظامه الأساسي، وشعبه الثلاث، بدأنا في التحرك لتنظيم الخلايا المدنية والقبلية؛ تاركين للضباطِ الأحرارِ النشاط في الشعبة العسكرية. وقد وجدتُ صعوبة كبيرة في تشكيل الخلايا المدنية، فلم يتم إلا

تشكيل خليـتين، ولذلك ركّـزنا على تشكيل الـخلايا القبلية، واستطعنا خلال أيام معدودات من شهري: أغسطس وسبتمبر 1962، تشكيل عشرات الـخلايا القبلية؛ لأن القبائل في اليمن وحدات شبه منظمة اجتماعيا وسياسيا وعسكريا.

الشيخ صالح محسن أبو لحوم شارك في تنظيم الخلايا ودعم الثورة

وبدأتُ تنظيم الـخلايا القبلية بمن أعرف، وهم أخوة الشيخ سنان أبو لحوم، صالح وعلي، ومحمد عبد اللّه أبو لحوم، ومن بيت محمد انطلق تنظيم الـخلايا القبلية، فقد كانت الاجتماعات تتم غالبا في بيته. وكانت أول خلية قبلية مكونة من صالح، ومحمد، وعلي أبو لحوم، ومعهم شخصان من قبيلة نِهْم، لم أعد أذكر من هما، وكُلّف كل واحد بتنظيم خلية برئاسته. ثم توالى تشكيل الـخلايا القبلية، فمن قبيلة أرحب تشكّلت خلايا عدة من آل أبو غانم، وآل الـحباري، وآل العذري، وغيرهم. ومن قبيلة خولان تشكّلت خلايا كثيرة من آل الرويشان، وآل دويد، وآل القيري، والشيخ أحمد النيني وغيرهم. ومن قبيلة الـحدا تشكلت خلايا من آل القوسي، وآل البخيتي وغيرهم، لم أعد أذكرهم. ومن قبيلة حاشد تشكلت خلايا من «علي شويط» وأصحابه، وثابت حرمل وأصحابه، ويحيى كامل وأصحابه، وأحمد ضبعان وأصحابه، وآخرين لم أعد أذكر أسماءهم. ومن بني مطر الشيخ أحمد علي المطري ومن معه من أعوانه، ومن الحيمة الخارجية الشيخ حمود الصبري ومن معه، ومن آنس آل المقداد ومن معهم.

وقد أنشأ كلٌّ واحد منهم خلية أخرى، وهكذا. وكان لهؤلاء دور فعّال في تشجيع الضباط على تفجير الثورة، والمشاركة فيها والدفاع عنها. ومع الأسف ليس لديّ صور أولئك الأبطال الذين تنظموا وشاركوا مشاركة فعالة في تفجير ثورة 26

سبتمبر 1962، وفي الدفاع عنها، وقد استشهد بعضهم في معارك الدفاع عن الثورة. وخلال هذا النشاط كنتُ أشعرُ أن قوى كامنة كانت تتفجّرُ في كياني الجسدي والفكري والروحي، وكأنني بدأتُ نشاطي الوطني في هذه الأيام، وليس قبل وبعد ثورة 48 الدستورية. وكنتُ على قناعة بأن استمرار هذا النشاط لعدة أشهر سيجعل الأحرار مدنيا وعسكريا قادرين على تفجير ثورة منظمة، لا تحتاج إلى أي دعم خارجي إلا الدعم السياسي والدبلوماسي. وكانت الخلايا مكونة من أبناء المشايخ، ومن أفراد القبائل، وتجنّبنا الاتصال بكبار المشايخ. وذات يوم أردتُ أن أجرّب فعالية عناصر في التنظيم، فكلّفت الشيخ عبد اللّه محمد القوسي من الحدا بجس النبض لدى عمه الشيخ علي بن ناجي القوسي، لمعرفة ما سيكون موقفه، وبعد يومين عاد إليّ وقال لي: إن عمه –هو من بقايا أقيال اليمن– سيكونُ مؤيدا للثورة بنفسه وقبيلته كسبا للمال، ورغبته في التخلص من حكم الإمام، وكنتُ أعرف أن الأحرار في المدن اليمنية بمجاميعهم المختلفة يؤيدون الثورة تأييدا كاملا.

مع شلة البدر

وخلال اندفاعنا الناجح في تكوين الخلايا القبلية وأنا أعيشُ في منزل الدكتور عبد العزيز المقالح، تذكّرتُ أن حول البدر شلة من أحرار وثوار 48 الدستورية ومن المستنيرين المتجاوبين مع الأحرار، وعلى رأسهم المشير– فيما بعد– عبد اللّه السلال، قائد حرس البدر، والأخ عبد اللّه الضبي مدير الأمن العام، والأخ الأستاذ أحمد جابر عفيف، والأخ الأستاذ هاشم طالب، والأخ القاضي عبد الحميد الشوكاني، وأخيرا الأخ المناضل الشاعر الشفاف إبراهيم الحضراني، فقرّرتُ أن أقتحم، أو أخترق شلتهم، ففي مساء يوم 12 سبتمبر سنة 1962 استأذنتُ الدكتور المقالح بأن أغيب عن بيته يومين أو ثلاثة أيام، وذهبتُ إلى صديقي وزميلي في «مفرج» دار «الجمعية اليمنية الكبرى» في عدن الأخ هاشم طالب.

قمتُ بطرق الباب، وبعد أن عرفني هبط واستقبلني بالأحضان، مرحبا، وصعدنا إلى الدور الثاني، وكان وصولي إليه مفاجأة غير منتظرة. قال لي: كيف أتيت إلى

صنعاء؟ قلتُ له: متسللا. هل تقبلني لديك للمبيت إلى أن أرتّب حالي؟ قال: بل أقبلك سنة أو سنتين، البيت بيتك، ولكن قل لي كيف أتيت إلى صنعاء؟ قلتُ له: كنتُ في عدن أعيش في «المفرج» الذي كنا نعيش فيه معا، ومعنا الأخ علي الجناتي، هل لا تزال تذكر؟ ووجدت نفسي وحدي في «المفرج»، وتذكرتك وجذبتني روحك إليك في صنعاء. وضحك هاشم، وقال: أنت جاذب لا مجذوب، قل لي ما أتى بك؟ قلت: دعنا ندردش. أريد أن أعرف عنك ومنك كل شيء، كيف أنت وكيف بدركم وحارسه؟ وكيف إبراهيمنا المحبوب؟! قال: حالي طيبة ومستقرة، لا أشكو إلا الملل «نجزّع» أيام ولا ندري إلى أين؟ نحن مجموعة يسمّونا شلة البدر «يشيلنا ونشيله»، ونحن في مكاننا نراوح لا نتقدّم خطوة إلى الأمام، ولا نتحرّك خطوة إلى الوراء. هو ونحن، لا ندري ما نريد، قلتُ له: من معك في الشلة؟ قال: معي حارسه السلال، ومدير أمنه الضبي، وجلساؤه أنا وأحمد جابر، وعبد الحميد الشوكاني، وألطف من في الشلة إبراهيم الحضراني «يراوح» معنا، ويخفّف عنا «ثقالة» المراوحة، والآن قل لي ما جاء بك إلى صنعاء؟

قلتُ له: جئتُ أحرّك الشلة إلى الأمام، وبقينا نتناقش عن كل الأوضاع، عن البدر، وعن الإمام وعن الأستاذين نعمان والزبيري، وعن «الاتحاد اليمني»، وذكريات لا تنتهي إلى أن جاء وقت النوم في الثلث الأخير من الليل، وكان نومي متقطعا؛ لأنني في المساء لم أصل مع هاشم إلى ما جئت له. وفي الصباح ومع الصبوح قلتُ لهاشم: أريد أن تجيبني بكل صراحة على السؤال الآتي: هل البدر مؤهل وقادر على حماية نفسه وحماية الشلة، وحماية اليمن من سيطرة الحسنيين على الحكم؟ قال: لا أعتقد ذلك، لا لأنه ضعيف كما يُشاع عنه، ولكن لأنه لا يدري مع من يكون، فهو أمام خيارين؛ إما أن يكون مع الأحرار، وإما أن يكون مع الحسنيين، لإقناعهم أنه أفضل لهم من الحسن، وأشعر أنه أميل إلى الخيار الأخير؛ لأنه يعتقد أنهم أقدر من الأحرار على تحقيق طموحاته! قلتُ له: ماذا يعني هذا؟ قال: يعني أنه لا يشكّل ضمانة لنفسه ولا لمن معه، لأن الحسنيين سيخدعونه، ثم يسقطونه لحساب الحسن. قلتُ له: لماذا إذن لا يعتمد على الأحرار؟ قال: هو يظهر لنا أنه يميلُ

إلى الأحرار، ولكني أعتقد أنه يخادعنا؛ لأنه يرى أن الأحرار مع الجمهورية لا معه ولا مع أسرته، ومناخ أسرة بيت حميد الدين ضد الأحرار من قبل 48 ومن بعد. قلتُ له: إن خيار الجمهورية هو خيار الحاضر والمستقبل، فكلُّ التجارب الماضية أقنعت الأحرار بألا بديل للجمهورية.

والأحرار الآن ليسوا الزبيري والنعمان ومن نعرفهم من الأنصار. لقد أفرزت الأيام أجيالا جديدة من الأحرار، ليسوا على السطح، ولكنهم القوة الجديدة للجمهورية، يستمدون خبرتهم من أحرار الماضي، ويستمد أحرار الماضي قوتهم من أحرار الحاضر، وهذا ما جاء بي إلى صنعاء. وما جاء بي إليك. إنني أريد أن تنضمّوا إلى جيل الأحرار القديم والجديد؛ لأن البدر لا يشكّل ضمانة لنفسه، فكيف يشكّل ضمانة لكم؟ قال هاشم بعد أن سكت فترة يفكّر: «أنت تتحدثُ عن جيل جديد للأحرار، فأين هم»؟ قلتُ له: يا صديق «المفرج»، أنت الآن من شلة البدر التي ترى السطح لا الأعماق، ولهذا أتيتُ إليك لترى، وترى الشلة الأعماق. إن الرهان على البدر رهان خاسر، وإن الحسن والحسنيين جيل منقرض، وأن المستقبل للجمهورية والأحرار الثوار.

لقد تغيّر كلُّ شيء في اليمن وما خارج اليمن، وأنا من أحرار الجيل القديم والجديد، وأعرفُ أنكم كنتم ولا زلتم بأفكاركم ووجدانكم وضمائركم أحرارا، وأريد أن تلتحموا من جديد بلحمة الأحرار. قال هاشم: كيف؟ قلتُ له: بسيطة، اتصل بكل عناصر الشلة واجتمعوا، لتناقشوا الردّ على السؤال السابق، هل يشكّل البدر ضمانة له ولكم وللبلد؟ وكلكم تعرفون أنه لا يشكّل ضمانة، وإذن فالضمانةُ أن تلتحموا من جديد بأحرار الجيل القديم والجيل الجديد، لتجمهروا معا. قال هاشم: ابق لديّ في البيت لنجتمع بهم معا. قلتُ له: أنا متسلّل، ولا أريد أن أكشف نفسي، عليك بهم، وسأنتظر ما تأتي به. وبقيتُ أنتظر النتيجة لمدة يومين، وجاء هاشم ليقول لي: «لقد اجتمعنا مرات وتناقشنا، ولم أخبرهم بوجودك، واتفقنا أن نجمهر، بدلا من «البيدار»، وسنكون في طليعة المجمهرين كما تريد». وعدتُ من جديد إلى بيت الدكتور المقالح، وقد اعتبرت شلة البدر خلية من الخلايا التي نشكلها لدعم الثورة.

الموقف في القاهرة

كان هذا هو الموقفُ في صنعاء، بينما كان الموقفُ في قاهرة مصر يسير في طريق تهميش أحرار اليمن فيها لحساب المخابرات المصرية، بواجهة تتمثل في عبد الرحمن البيضاني وعناصر قليلة عميلة للمخابرات في خارج اليمن وفي الداخل، تريد المخابرات المصرية أن تسيطر بهم على اليمن وثورته وموقعه الاستراتيجي، ومن اليمن تنطلق لتصفية حساب مع السعودية. كان السباق محموما بين الأحرار، وبين المخابرات المصرية وعملائها، وفي صنعاء اكتشفتُ أن المخابرات المصرية وعملاءها قد اخترقوا بإمكاناتهم المادية والمعنوية تلاحم الأحرار، وأثّروا على حسن بن حسن العمري الذي كان مديرا للاسلكي حينذاك، وأثّروا على عبد الغني مطهر وبعض التجار في تعز، وكان المقدم عبد اللّه جزيلان مدير الكلية الحربية وأهم عنصر من عناصر الضباط متزوجا بمصرية، وله صلات بالمخابرات المصرية، وكان البيضاني عن طريق المخابرات قد استقطب المقدم محمد قايد سيف والطيار عبد الرحيم عبد اللّه، وعناصر أخرى.

ويشير عبد الرحيم في ذكرياته أنه كان ينقل بالطائرة النقود والمعدات من مصر إلى عدن وتعز، وأن تلك المساعدات من المخابرات المصرية كانت تسلّم للأخ عبد الغني مطهر التاجر في تعز، لتوزيع تلك المساعدات للضباط الأحرار عن طريق فرع تعز، وبواسطة الملازم محمد مفرح أحد «الضباط الأحرار» في تعز، ولكني أجد مبالغة كبيرة في هذا. وكان هذا التسابق المحموم سببا في وجود ربكة في حركة الأحرار في الداخل والخارج، وخصوصا «الضباط الأحرار» الذين لا يزالُ تنظيمهم في بدايته، فلم يمض على قيامه أكثر من ثمانية أشهر، وعناصره من الشباب الذين تنقصهم الخبرة والحكمة، وتحلّ محلّهما الحماسة الوطنية الثورية، وبرغم أن «الضباط الأحرار» يعتبرون اللواء حمود الجائفي الأب الروحي، وقائد ثورتهم القادمة، إلا أن موقفه ليس محسوما.

وبرغم هذه الربكة، وبرغم قلقي منها إلا أن تنظيم الخلايا القبلية كان يسير بانتظام وتوسع غير متوقع، وأصبح تنظيم «الضباط الأحرار» مرتبطا بمجمل الحركة

الوطنية في الداخل والخارج. وكنتُ أناقشُ الجميع بأن المصلحة الوطنية تقتضي تأجيل التفكير في قيام ثورة، لأن قيام الثورة في تعز حيث الإمام أحمد، وفي صنعاء حيث يوجد ولي عهده البدر غير عملي وغير مأمون، هذا من جانب، ومن جانب آخر ضرورة تشكيل قيادة عسكرية مدنية، يلتفُ حولها الجميع، وأن تُصاغ أهداف الثورة صياغة دستورية، وأن يكون لدى القيادة التي ستتكوّن تصور لمؤسسات الحكم الجمهوري عند قيام الثورة، ولكن «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن»، فقد عاجلنا الإمام أحمد بموته في الوقت الذي كنتُ أتمنى له الحياة، حتى يتمكّن الأحرار مدنيين وعسكريين من استكمال كل أسباب نجاح الثورة، وبموت الإمام لم يبق أمام الجميع إلا القيام بالثورة فهذه -على الأقل- كانت رغبة «الضباط الأحرار»، ولم يعد أحد قادرا أن يوقف قيام الثورة برغم عدم استكمال عناصرها فكرا وإعدادا. ولم يبق أمام الجميع إلا الاستعانة بدعم مصر عسكريا وماديا وسياسيا وإداريا بالطريقة التي تريدها المخابرات المصرية وعملاؤها، لا بالطريقة التي يريدها الأحرار وثورتهم. كان الدعم المصري ضرورة لمواجهة تدخل السعودية الداعمة للثورة الملكية المضادة، وبسبب عجز الثوار بإمكاناتهم الذاتية من دفع الثورة المضادة.

موت الإمام أحمد أربك المشهد

في يوم الأربعاء 18 سبتمبر 1962 بلغنا أن الإمام أحمد قد مات في تعز، وأن جثمانه سيُنقلُ إلى صنعاء، ويدفن فيها بجانب قبر والده الإمام يحيى في مسجد الرحمة، وذلك في صباح يوم الخميس، واتخذ «الضباط الأحرار» قرارا بقيام الثورة في ليلة الخميس 19 سبتمبر 1962، عقب دفن جثمان الإمام أحمد، وذلك بتشجيع من أولاد مشايخ القبائل الذين تم تنظيمهم وتوعيتهم، وتم إبلاغ القائم بأعمال السفير المصري السيد محمد عبد الواحد بذلك، وهو بدوره أبلغ القاهرة بذلك، وفي قاهرة مصر كانت إذاعة «صوت العرب» على استعداد لتلقي نبأ قيام ثورة اليمن، وإطلاق حملة إعلامية كبيرة لتأييدها، كما كانت القيادة المصرية تنتظر الخبر، ولكن حدث ما أخّر قيام الثورة. وخلال وجودي في صنعاء كنتُ على صلة بالأخ عبد السلام

صبرة وحسن العمري، وعن طريقهما استمرت الصلة بالقاضي عبد الرحمن الإرياني والأحرار في تعز، وكذلك بالشيخ سنان أبو لحوم والأحرار في عدن، وعلى رأسهم رئيس «الاتحاد اليمني» محمد علي الأسودي، وبقيادات في المؤتمر العمالي، وعلى رأسهم أحمد حسين القاضي، ومحمد سعد قباطي وغيرهما. تم ذلك بسرعة في خلال أيام من شهري: أغسطس وسبتمبر 1962، وشعرنا أننا نندفع بقوة في الطريق، لتفجير الثورة، وأننا بحاجة لمعرفة شخص قائد الثورة ومؤسساتها.

أسبـــوع الخطر

كنتُ لا أزال مقيما في بيت الأخ عبد العزيز المقالح، وعند الظهر وصل الأخ الملازم أحمد الرحومي، وأخبرنا بدفن جثمان الإمام أحمد، ومبايعة البدر في يوم الخميس المقرر قيام الثورة فيه، وأحدث لدينا جميعا ارتباكا، وكان الترتيب أن يتم في هذا اليوم اغتيال البدر وقيام الثورة، ولكن كل ذلك لم يتم. وعقب دفن جثمان الإمام أحمد في صباح ذلك اليوم الخميس 19 سبتمبر 1962، استدعى البدر العلماء، ومن وجد من المشايخ والأعيان، كما استدعى الضباط، بمن فيهم «الضباط الأحرار»، وتمت مبايعة البدر إماما، خلفا لأبيه، وكان «الضباط الأحرار» يريدون تفجير الثورة في اليوم نفسه بدون قائد أكيد لها، ولهذا حصل خلاف بين «الضباط الأحرار»؛ إذ كان الملازم علي عبد المغني وعدد قليل يصرّون على تفجير الثورة واختيار قائد للثورة منهم، بينما الأكثرية يصرّون على إقناع اللواء الجائفي بأن يقود ويترأس الثورة، ويتهمون زميلهم علي عبد المغني بالطموح المبكر. وبلغ «الضباط الأحرار» وصول اللواء الجائفي إلى صنعاء، فانتدبوا لمقابلته لجنة برئاسة مدير الكلية الحربية المقدم عبد اللّه جزيلان، وقابله في المساء عقب عودته من مبايعة البدر وتقديم العزاء وكشفوا له خطتهم في تفجير الثورة، وأنه بإجماع «الضباط الأحرار» ومن معهم قد اختاروه قائدا لهم، وأن الخطة قيام الثورة في الليلة نفسها، ولكنه حاول إقناعهم بالتريث حتى يعود الحسن من الخارج، وعندما ألحوا عليه قال لهم: أجّلوا كل شيء حتى نلتقي غدا الجمعة مساء، وعندما عادوا إليه في مساء الجمعة كان قد غادر صنعاء إلى

محمد البدر الإمام الذي خلعته الثورة

الحديدة، عقب خروجهم من مقابلته في مساء الخميس، وقد تأخّر قيام الثورة بسبب هذه الملابسات. وقرّرتُ الانتقال إلى بيت الأخ عبد السلام صبرة، وهناك توالت اجتماعاتنا بعدد من الضباط الأحرار، وكان الخلاف بينهم لا يزال قائما، بسبب ربط قيام الثورة لدى أكثريتهم بموافقة اللواء الجائفي على قيامها وتولي قيادتها.

كانت إمامة البدر لمدة أسبوع فقط، ابتداء من يوم الخميس 19 سبتمبر 1962، وانتهاء بيوم الأربعاء 26 سبتمبر 1962، وكان هذا الأسبوع أسبوع الخطر على الثوار وثورتهم؛ لأن تحديد موعد قيام الثورة لم يحدّده الثوار، وإنما فرضه عليهم موت الإمام أحمد قبل أن يستكمل الثوار الإعداد الناجح للثورة، تخطيطا، وتفكيرا، وتجهيزا؛ فجاء موت الإمام أحمد يوم الأربعاء 18 سبتمبر فجأة، وفجأة تمت مبايعة البدر يوم الخميس 19 سبتمبر، وفجأة اتخذ «الضباط الأحرار» قرارا بتفجير الثورة في اليوم نفسه الذي دُفِن فيه جثمان الإمام أحمد، وبويع فيه ابنه البدر إماما يوم الخميس 19 سبتمبر.

وفجأة اكتشف «الضباط الأحرار» أن قائد ثورتهم غائب لا علم له بهم ولا بثورتهم. اكتشفوا أن أباهم الروحي وقائد ثورتهم حمود الجائفي موجود في الحديدة؛ وفجأة وجدوا قائدهم في صنعاء، ليُعزي في موت الإمام، ويبايع البدر إماما جديدا. وانتدب «الضباط الأحرار» كبيرهم المقدم عبد اللّه جزيلان، ومعه الملازم صالح الرحبي لمقابلة قائدهم حمود الجائفي، وإقناعه بقيادة الثورة، ولكن قائدهم تهرّب وهرب في الليلة المحددة نفسها لقيام الثورة إلى الحديدة! وفي الكلية الحربية اجتمع ضباط الثورة واختلفوا خلافا كبيرا، فقد اقترح «أكثرهم نشاطا» الملازم علي عبد المغني

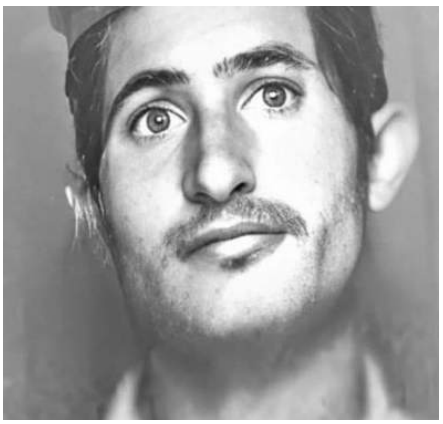

علي عبد المغني أحد قادة تنظيم الأحرار

اختيار أحدهم قائدا للثورة، بدلا عن العميد حمود الجائفي، وانضم إليه اثنان من زملائه، بينما وقف أكثرية الضباط ضد هذا الاقتراح، وأصرُّوا على تأجيل موعد قيام الثورة إلى أن يقنعوا حمود الجائفي بقيادة الثورة، واتهموا علي عبد المغني بالطموح المبكر. وطُرح احتمال فشل الثوار والثورة نفسها في هذا الاجتماع، بعد أن تقرّر تأجيل القيام بالثورة، على أن يبقى الضباط ماسكين أسلحتهم الخفيفة والثقيلة، يتناوبون الحراسة حتى يأتي قائدهم الهارب ليقود الثورة. حدث ذلك في الكلية الحربية، وبايع الناس بمن فيهم «الضباط الأحرار» البدر ابن الإمام إماما يوم الخميس 19 سبتمبر 1962، وبذلك بدأ أسبوع الخطر على الثورة والثوار، بدلا من تفجير الثورة.

القائم بالأعمال المصرية واللعبة المزدوجة

كلُّ هذه الملابسات أخّرت قيام الثورة عن يوم الخميس 19 سبتمبر، وسبّب ذلك ربكة في صنعاء، وربكة في قاهرة مصر، وقلقا لدى القائم بالأعمال المصرية محمد عبد الواحد، خوفا من افتضاح مؤامرة مصر لتفجير الثورة اليمنية. وبلغنا حينذاك أنه قابل البدر وأخبره بأن لديه معلومات تدل على تحركات ضباط الكلية الحربية تحركات مشبوهة تدل على وجود مؤامرة ضد الوضع. وفي الوقت نفسه أبلغ الضباط أن البدر يبيّت ضربهم، وكان أنصار الحسن قد أحاطوا بالبدر منذ البداية، وعندما أبلغهم ليلة الخميس بما أبلغه القائم بالأعمال المصرية اقترح عليه القاضي محمد عبد اللّه الشامي أن يكلّفه بإلقاء القبض على الضباط، كما شجعه حسن بن إبراهيم، وكيل وزارة الخارجية بأن يبدأ حكمه بضربة قوية تجعل له هيبة ورهبة، هذا ما بلغنا فيما بعد قيام الثورة.

حمود الجائفي أحد قادة تنظيم الأحرار

وقد استدعى البدر إليه المقدم عبد اللّه جزيلان، مدير الكلية الحربية، والمقدم عبد اللّه الضبي، مدير الأمن وأخبرهم بما بلغه، فقال جزيلان: يا مولانا أنا بين يديك، وسأرسل إلى الضباط بأن يسبقوني إلى السجن عندما تأمر بسجني. وما حدث أننا عندما بلغنا موت الإمام بلغنا أن أنصار سيف الإسلام الحسن قد أبلغوه وطلبوا منه العودة إلى اليمن عن طريق السعودية إلى مدينة عمران للزحف على صنعاء، ولهذا قمنا ببعض الترتيبات لمواجهة ذلك، فإذا كنتم لا تثقون بأننا جنودكم وأنصاركم فإنني سأسوقُ نفسي ومن معي من الضباط إلى السجن، وأيّد المقدم الضبي ما قاله جزيلان، وصدّق البدر ذلك، وأكد لهم ثقته بهم.

كلُّ تلك الملابسات لم نكن نعرفها، ولذلك بقينا ننتظر قيام الثورة في ليلة 19 سبتمبر، ثم عرفنا فيما بعد ما حدث من ملابسات، وفي يوم السبت 21 سبتمبر التقينا في منزل المناضل عبد السلام صبرة، ووجدنا أن «الضباط الأحرار» يصرّون على أن يكون قائد الثورة هو اللواء حمود الجائفي. كانوا يعتبرونه قائدهم وأباهم الروحي، وبعد لقاء جزيلان والرحبي به في مساء يوم الخميس 19سبتمبر، وهي ليلة الثورة التي كانت مقررة طلب منهم التأجيل واللقاء في اليوم التالي للتفاهم، غير أنه غادر صنعاء إلى الحديدة في الليلة نفسها.

وكنت أعرف اللواء حمود الجائفي معرفة كاملة، بحكم معايشتي له في سجن قاهرة حجة، وما كنتُ أعرفه عنه في سجن نافع ولديَّ قناعة بأنه لن يقبل قيام ثورة فكيف يقبل قيادتها؟ وفي هذا الاجتماع -وبرغم احترامي وإجلالي للواء حمود الجائفي- قلتُ للإخوة الحاضرين إن اللواء الجائفي لن يوافق على ما تطلبونه منه، وإذا كنتم -أي الضُّباط الأحرار- مُصرّين على ذلك فإن رأيي إلغاء فكرة القيام

بالثـورة، وانتظار ما يحدث. وكان موجودا في الاجتماع من الضباط الأحرار علـي عبد الـمغني، ومحمد مطهر، وأحمد الرحومي، وصالـح الأشول، وعبد اللّه عبد السلام صبرة، وكان الأخ عبد السلام صبرة والشيخ محمد الـحباري من أرحب وأنا من الـمشاركين في هذا الاجتماع، وأصرّ الضباط على فكرتهم.

وفي هذا الاجتماع الذي تم يوم السبت 21 سبتـمبر 1962، اقترحتُ فيه أن يقوم الضباط بثورة يكونُ قائدها ورئيس دولة الـجمهورية القاضي عبد الرحمن الإرياني؛ ليكون للثورة طابع مدني لا عسكري، وأن يكون «الضباط الأحرار»، وكل القوى الـمدنية والقبلية داعمة للدولة الـجمهورية الـمدنية برئاسة الإرياني. ولكن «الضباط الأحرار» كانوا متأثرين بثورة 23 يوليو 1952 الـمصرية، يبحثون عن شخصية محمد نجيب اليمنية، الـمتمثلة في شخص اللواء الـجائفي، ولذلك رفضوا اقتراحي. وفي يوم الأحد 22 سبتمبر 1962، التقينا في منزل عبد السلام، وتقرّر نزول الـمقدم عبد اللّه جزيلان والـملازم أحمد الرحومي إلى الـحديدة، ومحاولة إقناع اللواء حمود الـجائفي بقيادة الثورة، ولكنه رفض قيام الثورة أساسا؛ لأن الظروف غير مهيّأة لقيامها في نظره، وهدّد بأنه سيركب «زعيمة» أي سفينة صغيرة، ويذهب إلى أسمرة. وهكذا عادا خائبين، وتقرر البحث عن شخصية عسكرية كبيرة أخرى تقود الثورة، ولم يكن أمامهم إلا اختيار واحد من شخصين: إما الزعيم عبد اللّه السلّال، أو الزعيم عبد اللّه الضبي.

خطاب الإمام البدر وتفجر الثورة

خرج البدر يوم الـجمعة للصلاة في الـجامع الكبير، وألقى خطبة بعد الصلاة، هدّد فيها وتوعّد من تحدّثه نفسه بزعزعة أمن البلاد، وقال: «إذا كان أبي الإمام أحمد يقطع رؤوس البغاة، فإنني سأقطعهم من أنصافهم».. كانت هذه الإشاعة قد انتشرت في يومها، وهي إشاعة كاذبة، لا يوجد ما يؤكّدها. وأعتقد أن الـحسنيين الذين كانوا قد سيطروا على البدر هم من نشر هذه الإشاعة ضد البدر، وقد تأكّدتُ فيما بعد أن خطاب البدر كان خطابا متزنا، ليس فيه تهديد ولا وعيد، وأن الـمستفيد من الإشاعة

هم الحسنيون، ومع ذلك فلم يكن لهذه الإشاعة أي أثر في تعجيل القيام بالثورة، فقد اتخذ قرار تفجير الثورة قبل خطاب البدر.

وكان الثوار قد أعدوا كل شيء لتفجير الثورة؛ ولكن تردّد اللواء حمود الجائفي عن قيادة الثورة وضع «الضباط الأحرار» في موقف خطر، فلم يعد في أيديهم إلا القيام بالثورة، ولذلك قرروا تكليف الأخ عبد السلام صبرة بالتواصل مع العميد عبد اللّه يحيى السلّال الذي كان -حينذاك- رئيس حرس البدر وإقناعه بقيادة الثورة، وقد وافق على ذلك بشرط أن يعرف كل الترتيبات التي أُتخذت لقيام الثورة وأسماء «الضباط الأحرار»، وذلك في يوم الثلاثاء الموافق 24 سبتمبر 1962، ولكن لم يبق وقت لتلبية طلب العميد «الزعيم» السلّال، واعتبرت موافقته المبدئية على قيادة الثورة وعدا منه بتولي القيادة. وخلال أسبوع الخطر تحرّك عدد من أبناء المشايخ الذين تم تنظيمهم وتوعيتهم، وقابلوا البدر، وطلبوا منه تشكيل حكومة من رجالات البلاد وعلمائها، لتصريف أمور الدولة وتكوين مجلس تأسيسي وطني، لمراقبة سير أعمال الحكومة وإعداد دستور للدولة، تقوم على أساسه مؤسسات الدولة المتمثلة في الإمام كرمز للسيادة، وفي الحكومة كأداة للتنفيذ، وفي مجلس شورى تشريعي كأداة للمراقبة.

وكان طلب أولاد المشايخ هذا مفاجأة للبدر ومن حوله، وحصل نوع من التنابز بينهم وبين حسن بن إبراهيم وآخرين كانوا حول البدر، وتم اعتقال بعض أولاد المشايخ ومنهم: الشيخ عبد الولي القيري من خولان، والشيخ عبد اللّه محمد القوسي من الحدا. كما تم خلال هذا الأسبوع توافد عدد من أبناء المشايخ على الكلية الحربية، يشجّعون الضباط على تفجير الثورة، ويؤكدون لهم وقوف القبائل معهم في هذه الثورة. وكان الحسنيون من حول البدر يشجعونه على إنزال ضربة بالضباط الأحرار تعطي له هيبة ورهبة.

وفي يوم الأربعاء 26 سبتمبر سنة 1962 فجّر الثوار ثورة أسقطت نظام الإمام والإمامة الذي استمرّ ما يقرب من 1200 عام، وأقاموا على أنقاضه النظام الجمهوري العادل الذي استمرّ حتى اليوم.

THE LIFE I LIVED

My Story with Yemen's Ideological and Political Transformations

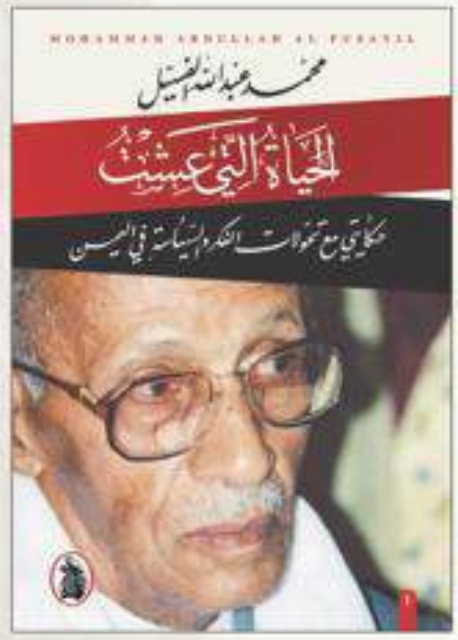

«تَعمّدتُ في محطات أو مراحل من حياتي تفصيل بعض الأحداث أو الوقائع تفصيلا قد يراه بعضُ القراء غير ضروري، وأنا أعرف أنني بذلك قد جازفتُ مجازفة ربما تُزهَد هذا القارئ في مواصلة القراءة، لكني وجدت أن تلك التفاصيل مهمةً وضروريةً، لأنني أكتبُ الآن لأجيال غير جيلي؛ بل ربما للجيل الثالث أو الرابع بعد جيلي. وهذه الأجيال لديها تصور محدود وضبابي للحياة التي كان آباؤهم وأجدادهم يعيشونها، ومن المهم جداً أن يكون تصور الأجيال اللاحقة واضحا وغير ضبابي.

إن الأكثرية الساحقة -إن لم أقل كلها- لا تعرفُ كيف كانت جداتهم وأجدادهم يعيشون، لذلك نرى كثيرين منهم اليوم يُحمّلون من ساهم في تغيير الحياة من عهود الإمامة إلى عهود الجمهورية مسؤولية ما فيها من سلبيات تقلل من إيجابياتها، نتيجة ما يعانونه من مظالم ومفاسد في العهد الجمهوري، لأنهم لم يعيشوا الحياة التي عاشها آباؤهم وأجدادهم، وهي حياة يستحيل على الأجيال اللاحقة أن تتصور ما فيها من بشاعة وتخلف وبؤس وفقر ومرض».

من مقدمة الكتاب

9 786144 865217